عبادة إيزيس وأوزيريس في مكة الجاهلية

دراسة

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library



زكريا محمد



♦ **Author** : Zakaria Mohammed

♦ **Title** : The Worship of Isis and Osiris
In pre-Islamic Mecca (Gahiliya)

♦ **Cover Design by** : Rafik Abo Eid

♦ **First Edition** : 2009

♦ **Publication Consultant** : Sawsan Bashier

♦ **Manager** : Mostafa Al Sheikh

♦ **المؤلف** : زكريا محمد

♦ **العنوان** : عبادة إيزيس وأوزيريس
فى مكة الجاهلية

♦ **لوحة الغلاف** : زكريا محمد

تصميم الغلاف : رفيق أبو عيد

♦ **الطبعة** : الأولى ٢٠٠٩

♦ **مستشار النشر** : سوسن بشير

♦ **المدير المسئول** : مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٠٨ / ١٧٩٣٩

ISBN **الترقيم الدولي :**

977-6148-51-4

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هـذا الكتـاب أو أي جـزء منـه. أو تخزينـه في نطـاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR – ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2795-3811 Fax: 00202-2795-4633
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

٧٥ ش القصر العيني – أمام دار الحكمة – القاهرة – جمهورية مصر العربية – ت : ٣٨١١ ٢٧٩٥ فاكس: ٤٦٣٣ ٢٧٩٥

twitter @baghdad_library

عبادة إيزيس وأوزيريس
فى مكة الجاهلية

زكـريا محمد

آفاق للنشر والتوزيع



twitter @baghdad_library

تمهيد

حين أستعرض صورة أديان العرب قبل الإسلام في ذهني قبل أن أبدأ بهذا الكتاب، أجد عالمًا من الفوضى؛ فوضى آلهة وفوضى أصنام لا يضبطها ضابط. فهناك العشرات، بل قل المئات، من الأصنام والآلهة التي لا رابط بينها. كل قبيلة لها ربها الخاص وأصنامها الخاصة، بل إن كل واحدٍ يختار حجره وينصبه إلهًا له وحده، ويركع له. أما الكعبة ذاتها فتحوي ٣٦٠ صنما، أو ألف صنم حسب بعض الروايات، ولا يُدرى أي أرباب تمثل؟ وحتى الآلهة الأشد شهرة، والأكثر أهمية، مثل هبل واللات تبدو بلا صلة فيما بينها، وتظهر كآلهة غامضة لا تعرف فعالياتها.

وحين كنت أحاول أن أضع نقطة استناد في عقلي، يمكن أن أبدأ بها كي أضفي قدرا من النظام على هذا العالم الذي لا قانون فيه، لا أجد أمامي سوى ثالوث مكة الشهير (اللات والعزى ومناة). لكن هذه النقطة سرعان ما كانت تضيع وسط الفوضى وتتبخر، مثلما يتبخر نهر يتدفق وسط الكثبان.

وهذا الكتاب ثمرة جهد خمس سنوات متواصلة في محاولة لفرض نظام على هذه الفوضى، أو بشكل أدق، لاكتشاف نظامٍ ما خلف الفوضى التي تموج على السطح بِشأن أديان العرب في الجاهلية.

وكان قد أكد وجود مثل هذا النظام مرة، وقبل ألفين وخمسمائة سنة هيرودتس أبو التاريخ، في تصريح شهير له أعلن فيه أن العرب يعبدون إلهين فقط، لا يعبدون سواهما. لكن هذا التصريح رُفض ورُمي من وراء الظهور، باعتباره تصريحا قصير النظر يعاكس الحقائق الثابتة.

وهذا الكتاب محاولة لإعادة الاعتبار لهذا التصريح، وعودة إليه لجعله حجر الزاوية في بنيان مختلف عما هو سائد بخصوص أديان العرب في الجاهلية. فالعرب في الجاهلية كانوا بالفعل، يعبدون إلهين فقط، إلهين لا ثالث لهما، يمثلان المبدأ المذكر والمؤنث. وكل ما عدا ذلك إنما هو تسميات قبلية أو محلية لهذين الإلهين أو تسمية لفعاليتهما. وعليه فهيرودتس كان أعلم من الجميع، وكان أصدق من كل الباحثين الغربيين المعاصرين الذين، رغم كل جهودهم في مجال فك رموز اللغات القديمة،

انتهوا إلى أن يزيدوا صورة أديان العرب غموضا على غموض في كثير من الأحيان، إن لم يكن في غالبها. لقد ضاعوا في متاهة الأسماء العربية ومعانيها، فأضاعونا وضاعفوا لنا الفوضى. أما نحن فلم نزد، في غالب الأحيان، على أن كررنا ما قالوه، وأن ضعنا في الفوضى التي خلقوها وعمقناها.

مثل بسيط على ذلك الإله (شيع القوم) الإله النبطي الذي وُصف في نقش مشهور بأنه (الذي لا يشرب الخمر). فقد صوروه كإله قمري يقدم خدماته للتجار والمسافرين ليلا، ورأوا انه لا يشرب الخمر لأنه يمثل بدوا محافظين، ولم يدركوا أن الآلهة المذكرة جميعها تنقسم إلى قسمين؛ خمري سكير، وقمحي لا يشرب الخمر. أي أن «شيع القوم» لا يشرب الخمر لأنه ضد طبيعته القمحية.

مثل ثان هو ثالوث مكة الشهير (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى). هذا الثالوث خلطوا فيه حتى شبعوا. دقوه مرات ومرات، لكن كما يدق الماء. وكل ما استطاعوا أن يجلبوه من رحلتهم الطويلة حول هذا الثالوث هو أنه ثالوث مؤنث، لأن العرب تدعو هذا المثلث باسم (بنات الله)، من غير أن يتمكنوا من فهم معنى هذا التعبير على حقيقته. وهكذا انتهى إلى أن يحولوا إلها ذكرا مثل اللات إلى إلهة أنثى. وتصوروا أي تشويش سيحصل إذا نحن أنثنا الرأس المذكر للثالوث المكي الأساسي؟!

•

حين نتعرض لديانة العرب قبل الإسلام فليس هناك ما هو أصدق من القرآن. فالقرآن شاهد أول حين يتعلق بهذه الأديان. لذا يجب استفتاؤه قبل أي مصدر آخر إذا أردنا أن نفهم هذه الديانة. كل كلمه جاءت في القرآن عن هذه الأديان كنز لا يمكن العمل من دونه. لكن الذي حصل أنه تم تجاهل ما أتانا به القرآن حول هذه الأديان. خذ مثلًا الآية ٣٥ من سورة الأنفال التي تصف صلاة العرب في الجاهلية وصفا مختصرا وواضحا: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾. هذه الآية لم تفهم، لذا رميت، رغم أنها المفتاح الذهبي بأيدينا لفك ألغاز ديانة مكة، فلم أعثر على باحث غربي واحد أمسك بهذه الآية وحاول استقراءها.

لكن ربما علينا ألّا نلومهم على ذلك، بل نلوم أنفسنا. فهم لا يستطيعون الإبحار في بحور غوامض القرآن؛ لذا كان علينا نحن بالتالي أن نمسك بالدفة ونخوّض في هذه البحور.

•

twitter @baghdad_library

وثَم عند الباحثين الغربيين ما يشبه جدارًا هائلًا يفصل بين الديانة المصرية القديمة عن ديانة العرب قبل الإسلام؛ لذا فليس ينفع عندهم أن نحاول فك مغاليق الديانة المصرية بمساعدة اللغة العربية والميثولوجيا العربية أو العكس. فهذان عالمان لا يربط بينهما رابط تقريبا. يمكن اللجوء إلى الميثولوجيا اليونانية والميثولوجيا العبرية لفهم هذا الخليط غير المتماسك الذي يدعى ديانة العرب قبل الإسلام، لكن الميثولوجيا المصرية بعيدة إلى حد كبير عن هذا العالم. ديانة العرب شعير يُباع، خليطٍ من تأثيرات يونانية وتوراتية وغيرها، وفي هذا الخليط فإن كمية الشعير المصري لا تتعدىَ الحبيبات.

هذا الجدار ينهار بسهولة عند أول ضربة جدية عليه. لا يمكن عزل ديانة العرب عن ديانة مصر القديمة. لا يمكن فهم ديانة مكة من دون مساعدة النصوص المصرية. كذلك لا يمكن حل كثير من ألغاز ديانة مصر من دون نصوص الميثولوجيا العربية، بل وأقول من دون القرآن ذاته. ديانة مصر القديمة وديانة العرب قبل الإسلام ديانة واحدة من حيث المبدأ. الأسماء تختلف أحيانا، وأحيانا فقط، لكن ثمة بعد ذلك وحدة تطال الأعماق.

مثلًا، نعتقد أن من المستحيل أن نفهم معنى اسمي مدينة الإسلام المقدسة (مكة وبكة) انطلاقا من اللغة العربية وحدها، من دون العودة إلى النصوص الأسطورية المصرية والسومرية سيظل هذان الاسمان لغزا مقفلا.

•

ولأن الأمر كذلك، فقد أرغم هذا الكتاب أن يذهب إلى الأهرام. كي يفهم مكة ومعبدها الجاهلي كان عليه أن يذهب إلى الجيزة. وهذا أمر منطقي. إذ كيف لنا أن نفهم مركزا رئيسا لأديان العرب من دون أن نفهم أهرام الجيزة الثلاثة، التي هي نُصب العالم القديم، مكّته وفاتيكانه. إنها هي بالأحرى نصب المنطقة التي ندعوها الآن بالعربية. نصبها الفعلي لا المجازي. فقد أثبتت الحفريات أن المتعبدين كانوا يأتون من حران في شمال سوريا كي يجاوروا أبو الهول، الكلب الباسط ذراعيه بالوصيد. ولا بد أنهم أتوا من كل مكان في هذه المنطقة من أجل المجاورة والعبادة. فكيف يمكن لنا أن نفهم معبدا مكيا جاهليا في الجزيرة العربية إذا فصلناه عن نُصب المنطقة كلها؛ أي أهرام الجيزة الثلاثة؟!

المنطق الجغرافي ذاته يقول إن هذا ليس بالأمر الغريب. فما يفصل الجزيرة العربية عن مصر هو مجرد قناة مائية تدعى البحر الأحمر، إضافة إلى أن هذه القناة تترك في نهايتها ممرًا بريًا بيِّنًا يتدفق فيه الناس وتتدفق البضائع والأفكار والتصورات. لكن التقليد

الذي أرساه الباحثون الغربيون حول الحضارة المصرية القديمة يعطي الانطباع بأن هذه القناة لا يمكن عبورها لا ميثولوجيًا ولا لغويًا.

•

الميثولوجيا العربية مذهلة في غناها. مذهلة إلى حد أننا لا ندرك أحيانا المدى الذي يذهب إليه هذا الغنى. فقد جمعت المصادر العربية كل قطعة تبقت من ميثولوجيا شعوب المنطقة وأدخلتها في متنها. إنها كتاب مختصر للتقاليد الميثولوجية في المنطقة كلها. وعليه فحين نتحدث عن الميثولوجيا العربية، فنحن نتحدث عن ميثولوجيا كل الشعوب التي سكنت هذه المنطقة قبل العرب ومعهم. لدينا كتاب ميثولوجي هائل في بطون المصادر العربية. ولا بد أن يأتي يوم يُجمع فيه هذا الكتاب ويُصنف. وسوف يكون أداتنا في فهم عقائد المنطقة وأديانها وعلاقاتها بأديان الشعوب الأخرى.

•

وإذا أردت الأسطورة فعليك ألّا تذهب إليها في مظانها فقط، بل وفي غير مظانها أيضا، وأساسها ربما. أي أن تذهب إليها لتعثر عليها في السرد التاريخي. ذلك أن السرد الميثولوجي يجاهد بكل قواه كي يبدو كسرد واقعي تاريخي. وسيلته للحياة بعد الإسلام كانت أن يفعل ذلك. أن يتلفع بالتاريخ وأن يختفي بعباءته. لكن ليس تقيةً فقط، بل لأن الميثولوجيا لا تعترف أصلًا بأنها ميثولوجيا. هي تتظاهر كتاريخ. كتاريخ مقدس، أكثر صحة وحقيقية كما يخبرنا مرسياالياد. يقول المثل: «كل الصيد في جوف الفرا»، ونقول بانين على هذا المثل: «أغلب الميثولوجيا في جوف التاريخ». إذن، عليك أن تعيد من جديد تحديد ما هو تاريخي وما هو ميثولوجي؛ كي لا يتفلت منك السرد الميثولوجي. فإن نجح بالتفلت من بين يديك، فلن تكون قادرا على فهم الأديان القديمة.

•

للسرد الميثولوجي الواضح طرقه الخاصة. وأفضل مثال عربي على ذلك هو أسطورة جذيمة الأبرش والزباء. فهذه الأسطورة التي تعرض لإلهين من طراز أوزيريسي، تأخذ شكل قصة محكمة، تنقلك من ذروة إلى ذروة. وعند كل ذروة تواجهك بمثل. هذه الأمثال مسألة حاسمة. كل مثل منها تلخيص لتيمة رئيسية من تيم الأسطورة؛ لذاً يجب فهم هذه الأمثال وفك مغاليقها كي نفهم الأسطورة. مثلا، لا يمكن فهم جذيمة والزباء إذا لم نفهم (ببقة قضي الأمر) أو (ويلمه حزما على ظهر العصا)، وهكذا.

twitter @baghdad_library

وكان بعض الباحثين قد افترض أن هذه القصة وأمثالها من شغل لغويين لتعليم الأمثال للأطفال. هذا ليس صحيحا. هذه القصة بأمثالها وسيلة لتعليم الأسرار الدينية للناس عموما. إنها الطريقة الأقصر للحفاظ على الأسطورة وأسرارها.

•

لا يتحدث السرد الميثولوجي إلينا مباشرة، بل مواربة في غالب الأحيان. هو يشير ولا يبوح. لا يقول لنا مثلًا: إن الإله (مناة)، الإله المذكر وليس المؤنث أيضا، مرتبط بالشتاء، أي أنه أوزيريس في مظهره الشتوي القارص، بل يحكي لنا قصة تشير إلى ذلك وتدل عليه، وعلينا نحن أن نفهم ذلك وأن نستنتجه. مثلًا في التقليد العربي أن الرجل كان يخرج من منزله، وامرأته تلد كي يسمى المولود باسم شيء يلتقيه. فإن صادف طائرا سمى ابنه باسم ذلك الطائر، أو باسم الشيء الذي يرمز له الطائر، وإن صادف زوبعة سماه باسم الزوبعة أو باسم ما تشير إليه. فمثلًا، خرج تميمُ بن مرّ وامرأته سلمى بنت كعب تمخّض، فإذا هو بواد قد انبثق عليه ولم يشعر به، فقال: الليل والسيل! فرجع وقد ولَدت امرأته غلاماً، فقال: لأجعلنه لإلهي، فسماه زيد مناة. وهكذا، فحين واجهه فجأة سيل سببه المطر، قرر أن يكرس ابنه لإلهه، وأن يسميه (زيد مناة). هذا يعني ميثولوجيًا أن السيل رمز لمناة. أي أن مناة إله ذو طابع شتوي. لقد رأى تميم أن السيل إشارة إلى أن عليه أن يسمي ابنه باسم إلهه (مناة) وأن يكرسه له. لم تقل لنا الحكاية إن مناة إله مرتبط بالمطر والشتاء مباشرة، بل تركت لنا أن نستنتج ذلك. حتى أنها لم تقل لنا مباشرة إن إله تميم هو (مناة). وإن لم ندرك أن السرد الميثولوجي سرد موارب في أغلب الأحيان، فلن ننجح في أن نفهمه وأن نستفيد منه.

•

للأسماء أهمية كبرى في الأسطورة. الاسم يكشف المعنى. الاسم تكثيف للمعنى. لا تعطى الشخصيات أسماءها في الأسطورة عبثا. لا يمكنك أن تفهم أسطورة حرب البسوس إذا لم تفهم معنى اسم (البسوس) ومعنى اسم (جساس) ومعنى اسم (كليب). ولا يمكنك أن تفهم أسطورة الزباء وجذيمة إذا لم تفهم معنى اسم (الزباء)، ومعنى اسم (جذيمة نديم الفرقدين) ومعنى اسم (قصير) صاحب جذيمة، ومعنى (العصا) اسم فرس جذيمة. العمل على الأسطورة يصبح في لحظة من اللحظات عملًا على الأسماء. الأسماء تكثيف للأسطورة. الأسماء أسطورة مضغوطة في كلمات. بالأسماء تغطي الأساطير نفسها وتكشفها.

•

الاستعارات أيضا عنصر أساسي في الأسطورة. ويمكن التعميم: كل استعارة قديمة، كل مثل طقس متحجر. ارجعوا إلى الاستعارات القديمة في اللغة العربية، وتحروها. هذه ليست استعارات لغوية. هذه مختصرات طقوس، نُسيت طقوسها فتحولت إلى استعارات. الاستعارة ابنة الطقس، لا ابنة الخيال. خذ مثلًا تعبير (كأن على رؤوسهم الطير). هذا ليس بلاغة لغوية. هذا بقية طقس. خذ المثل: (وجد تمرة الغراب)، الذي يعني (وجد ما يرضيه). هذا ليس مثلًا فقط، هذه جملة تختصر طقسا قديما، كان يوضع فيه للغراب، كممثل لإله محدد، قفة من التمر في مكان ما، كي يأخذها ويرضى بها.

الأمثال المغرقة في القدم مختصرات طقوس. والاستعارات القديمة كذلك. وهذه الأمثال والاستعارات تلخيص لديانة العرب في الجاهلية. وحتى حين يبدو لك وكأن كل استعارة جميلة ما هي إلا إبداع من ذهن شاعر، فعليك أن تتوقف لتتساءل إن كان هذا الشاعر في استعارته يبدع أو يتبع. خذ قصيدة المتنبي الشهيرة عن الحمى مثلا. الاستعارة المركزية في القصيدة تشبيه الحمى بامرأة. استعارة جميلة جدا وقوية. لكن ليسمح لنا هنا أن نقول إن المتنبي هنا ينقل تقليدا ولا يبدع استعارة. فالعرب تصف الحمى بأنها امرأة غزلة. يقولون: «أغزل من حمى»، ومن هذا التعبير الأسطوري أخذ المتنبي استعارته. لقد (استعار) استعارته ولم يبتدعها.

•

التضاد أيضا مسألة حاسمة في اللغة العربية. جاءت فترة اهتم فيها الباحثون بظاهرة التضاد الغريبة في اللغة العربية، ثم تم تناسي الموضوع؛ لأنهم لم يصلوا بخصوصه إلى نتيجة. بدا وكأن التضاد ظاهرة تخالف المنطق. إذ كيف يمكن لكلمة واحدة أن تشير إلى معنيين متعاكسين في اللحظة ذاتها. هذا ضد مبدأ الاصطلاح والتوافق. هذا غير صحيح في رأينا. جذر اللغة لا يقوم في الاصطلاح فقط، بل في الطقس والأسطوري معا. اللغة متضادة؛ لأن الطقس ذاته متضاد. التضاد يخترقه من أساسه. فالخنزير، الذي هو على علاقة بأوزيريس، بل هو حيوانه، دنس ومقدس في آن واحد. فهو دنس لأن لحمه لا يؤكل. لكنه مقدس لأنه يمنع قتله. أي أن الدنس محمي. وهو محمي لأنه مقدس. وقس على ذلك. فالذي نكزته حية يُدعى في العربية (سليما) والذي لا علة فيه يدعى (سليما) أيضا. ذلك لأن الآلهة التي تأخذ شكل أفاع هي التي تنثّ السم وهي التي تشفي منه. وإيزيس هي الثعبان الأعظم ذو السم، وهي الشافية من نكزات الأفاعي أيضا. التضاد يخترق اللغة لأنه يخترق الأسطورة. اللغة في ثوبها القديم، تبدو كمستحاثات طقوسية. بل إنها تبدو أحيانا كما لو كانت نفاية طقسية.

twitter @baghdad_library

تمتلئ نقوش الجزيرة العربية من مختلف اللغات بأسماء آلهة مركبة، أي أسماء هي حصيلة جمع اسمين معا. وقد نوقشت هذه المسألة في أوقات سابقة من قبل كثيرين، وبدا أن الأمر قرّ على اعتبار هذه الأسماء أسماء لآلهة مزدوجة. أي أنها حصيلة جمع إلهين معا. الأسماء المركبة التي صادفناها على طول هذا الكتاب برهنت على غير ذلك. فكل اسم مركب حللناه تبدى كاسم مركب، تركيب تماهٍ ومساواة، لا تركيب ازدواج. أي أنه يعرض أمامنا إلها واحدا باسمين اثنين؛ الاسم الأول فيه يساوي الثاني ويماهيه. هذا الحل سوف يتيح لنا التغلب على تشويش هائل سببته الأسماء المركبة للباحثين، كما أنه قد يتيح لنا فهم طبيعة آلهة لم تكن مفهومة لنا، فحين يكون لدينا علم بطبيعة واحد من هذين الإلهين، نكون قادرين على معرفة طبيعة الآخر من خلال التساوي والتماهي.

•

وحين نتحدث عن أنصاب دينية مثل الكعبة الجاهلية والأهرام، يكون علينا أن نفهم أن الميثولوجيا تأتي أولا. المعمار يأتي بعد الميثولوجيا. فهو ينفذ خطة ميثولوجية موجودة سلفا، ومعروفة مسبقا. يعني أن المعماري خادم للكاهن والميثولوجي؛ لذا لا يمكن حل كثير من ألغاز الأهرام بفروض معمارية.

مثلًا، إذا اكتشفنا أن للحجرة الثانية الوسطى في الهرم الأكبر كوتين تتشكلان كمتاهة من الأنفاق المغلقة، فلن تتمكن أي فرضية معمارية من حل هذا اللغز. لا يوجد في المعمار ما يفسر هاتين الكوتين. من وجهة نظر المعمار هما عبث تام. أما من وجهة نظر الميثولوجيا فهما ضروريتان. الكوتان ليستا في الأصل خطة معمارية، بل خطة دينية. لذا يجب حل أمرهما بالميثولوجيا. يحل أمرهما عبر السؤال التالي: ما الذي تشير إليه هاتان الكوتان؟ ولا يجب حتى أن يقال: لأي هدف وضعا؟ ذلك أنه حتى كلمة هدف يمكن أن تضلل. فالهدف الميثولوجي هو غير الهدف الاجتماعي أو الاقتصادي أو المعماري. الهدف الميثولوجي هو أن تشبه الكوتان تفصيلا في حكاية أسطورية مرتبطة بأحداث فلكية حقيقية أو متصورة. ولا يستطيع معماري أن يصل إلى هذا الهدف. يجب أن نذهب إلى النصوص الميثولوجية كي نصل إليه، مما يعني أن مهمة حل لغز الكوتين تقع على عاتق الميثولوجي لا المهندس المعماري. وإذا أراد المعماري أن يحله فعليه أن يتحول إلى ميثولوجي.

•

الاجتماعي والسياسي لا يحملان في الغالب أيضا إجابة عن الأسئلة التي تطرحها النصب المذكورة. مثلًا يغطى الهرم الثالث، هرم «منقرع»، بكسوة من الحجر الصواني

المحمر الأسواني، مختلفا بذلك عن مثيليه. ترتفع الكسوة الصوانية إلى ١٦ مدماكا ثم تتوقف. لِمَ لَمْ ترتفع الكسوة حتى تغطي الهرم كله؟ ما الذي حدث فجأة حتى تتوقف الكسوة؟ هذه أسئلة علماء المصريات وأسئلة المعماريين. وهي أسئلة مضللة تماما؛ لأنها تقود إلى أجوبة مفترضة من طراز: الفرعون مات قبل أن يكمل الكسوة، أو أن خزينته نفدت ولم يعد قادرا على إكمال ما بدأه. حدث بيولوجي، مثل موت مفاجئ للفرعون، لا يقدم جوابا. الهرم الثالث جزء من مشروع ميثولوجي معروف الخطة مسبقا، وهو سيكتمل حتى لو غاب فرعون وحل محله فرعون آخر. البريد يجب أن يصل، والمشروع يجب أن يكتمل، بغض النظر عن مصير الفرعون أو الحاكم. عليه، يجب أن نفترض أن وجود كسوة غير مكتملة هو أمر من ضمن المشروع ذاته. أي أن المشروع يقصد أن يظل الهرم الثالث هكذا بإزار لا يصل إلا إلى الحد الذي وصل إليه.

نحن نتحدث عن منشآت دينية. ومن حيث المبدأ، فإن كل تفصيل رئيس فيها له هدف ديني؛ لذا يجب أن نستهلك كل إمكانية ميثولوجية قبل أن ندخل الأحداث البيولوجية أو الاقتصادية على الخط. وعليه، فحين نرى غطاء صخريا غير مكتمل يلف الهرم الأصغر، فلا يجب أن نسأل: لماذا توقفت تغطية الهرم بالصوان عند هذا الحد؟ هذا سؤال يحمل الخطأ في داخله، لأنه يفترض أن الغطاء كان يجب أن يكتمل. السؤال الحقيقي هو: ما المغزى الديني من وراء ذلك؟ أو ما الذي أرادت أن تشبهه هذه الكسوة الصخرية وأن تصوره؟ مثل هذا السؤال يقر بالحقيقة الماثلة ويحاول تفسيرها من داخل التصورات الميثولوجية. فالحقيقة المعمارية التي أمامنا، أي الكسوة الناقصة، هي تنفيذ لحقيقة ميثولوجية. إنها حقيقة ميثولوجية في بدء الأمر ونهايته. لذا يجب أن ننطلق من أن (الهدف!) كان غطاء صخريا غير مكتمل للهرم الثالث. لقد أريد للغطاء أن يكون ناقصا هكذا كي يشبه وضع الهرم تفصيل ما في الأسطورة، وعلينا أن نعرف هذا التفصيل كي نكتشف (معنى!) هذا الغطاء الناقص، أي المعنى الديني الميثولوجي، وهذه مهمة لن يقوم بها إلا ميثولوجي. المعماري لا ينفع هنا. بل إنه يشوش ويضلل. حال المعماري هنا هو حال الفقيه عمارة اليمني الذي وقف مبهورا قدام الأهرام فقال:

تنزه طرفي في بديـع بنائـها ولـم يتنزه في المراد بها فكري

(المراد بها) ومنها هو المهم هنا. المغزى الديني هو الأساس. وحين نبحث عن المغزى الديني فعلينا الذهاب إلى الأساطير. الأساطير ونصوصها هي التي تستطيع أن توصلنا إلى المعنى والهدف. هناك، أي في الأسطورة، نستطيع أن نجد حلا للغز الإزار الصخري الذي يغطي أسفل الهرم الثالث.

twitter @baghdad_library

وكذا الأمر فيما يخص الهرم الثاني الذي يبدو للعين أعلى من الهرم الأكبر. علينا ألّا نفترض أن هذا يتعلق بصدفة جيولوجية جعلت الهرم الثاني يقام فوق أعلى مكان في الهضبة، أو بصدفة سياسية تتعلق بأن الفرعون بانيه أراد أن يتفوق على سلفه باني الهرم الأكبر، فأعطاه هذا المكان الممتاز في الهضبة، وجعل لسفحه انحدارا أحدّ يوحي بالعلو. لا، يجب أن نسأل عن الهدف، عن المغزى الميثولوجي من وراء كونه (يبدو) أعلى من الهرم الأول. (يبدو) هذه هي الهدف الميثولوجي. لقد كان القصد الميثولوجي أن (يبدو) الهرم الثاني، هرم خفرع، أعلى من الهرم الأكبر. وعلينا أن نبحث في الأسطورة عن السبب الديني الذي أرغم المعماريين على جعله (يبدو) أعلى من أخيه الأكبر.

•

ونصوص المنطقة الأسطورية وحدة واحدة. فالافتقار إلى نص ميثولوجي مصري يوضح لغزا من ألغاز الأهرام يمكن أن يعوض عنه بنص سومري أو بابلي أو عربي. مثلا، قد تمكننا قصة أصحاب الكهف وكلبهم في القرآن من جلاء مسألة من هو أبو الهول الباسط ذراعيه بالوصيد، ومن يمثل؟ أديان المنطقة من الترابط بحيث لا يمكن فهمها إلا معًا. لا يمكن فهم الديانة المصرية من داخل الديانة المصرية فقط. ولا يمكن فهم ديانة مكة من داخل ديانة مكة فقط. حتى أنه لا يمكن الحديث عن ديانة مصرية أو ديانة عربية إلا بأضيق الحدود. ثمة ديانة منطقة. ديانة تقوم على عبادة إله مركب من مبدأين: مذكر ومؤنث. والإله المذكر في حركة دائبة بين مظهريه الصيفي والشتوي. كل هذا على أرضية عبادة شمسية واسعة. هذه هي ديانة مصر وديانة مكة وديانة بابل. هذه هي ديانة منطقة بأكملها.

•

العرب، كما أخبرنا هيرودتس، كانوا يعبدون إلهين فقط، لا يعبدون غيرهما؛ هما أورتال وأليلات (إليلات وليس اللات، فاللات إله مذكر لا مؤنث)، أي الإله الذكر والإلهة الأنثى، إيزيس وأوزيريس. والمنطقة بأكملها لم يكن لها سوى هذين الإلهين، على أرضية عبادة شمسية واسعة. وكل ما فعله هذا الكتاب هو جلاء هذه الحقيقة وتأكيدها، لا غير. وبهذا التأكيد نكون قد مشينا الخطوة الأولى على طريق فهم أعمق وأشمل لديانة العرب قبل الإسلام، وفهم أفضل وأمتن لترابطها مع الديانة المصرية والسومرية- البابلية.

وثم خطوات كثيرة أخرى ينبغي قطعها بعد.

ولأن هذا الكتاب محاولة للسير في أرض غير مطروقة حقا، فهو مطروح بين أيدي القراء أن يعمقوا أطروحاته، وأن يطوروها، شاكرين لهم إن كان بمقدورهم التنبيه إلى أي مشاكل حصلت في التقديرات والتفسيرات.

زكريا محمد

twitter @baghdad_library

فصل 1

الطائر المخمور

(إنه {هرمس} أيضا من صنع القيثارة، ومنحها أوتارها الثلاثة مقلدا بها فصول السنة، فقد تبنّى نغمات ثلاث: عالية وخفيضة ووسطى. العالية من الصيف، والخفيضة من الشتاء، والوسطى من الربيع).

ديودورس الصقلي

من بين أصنام العرب الكثيرة، لدينا صنمان غامضان جدا: (مجاور الريح) و (مطعم الطير). ومن شدة غموض هذين الصنمين فنحن ما نكاد نضبط لفظهما. كما أننا لا نعرف عنهما إلا اسميهما، وإلا حقيقة أنهما نصبا على جبلي الصفا والمروة، أي في مكان شعيرة السعي. يقول اليعقوبي في تاريخه: ونصبوا على الصفا صنما يقال له: مجاور الريح، وعلى المروة صنما يقال له: مطعم الطير. وهذا قد يوحي منطقيًا بأن هذه الشعيرة على علاقة وطيدة بهما، أو أنها تخصهما بالذات.

وإن كان الأمر كذلك بالفعل، فلا بد أنهما صنمان مركزيان في ديانة مكة قبل الإسلام. وعليه، فربما أوصل حل لغزهما إلى حل ألغاز كثيرة في ديانة مكة قبل الإسلام، أو مكننا من التقدم على هذا الطريق على الأقل. وهذا الفصل محاولة للتصدي لهذه المهمة، مهمة فك لغز هذين الصنمين.

تختلف المصادر العربية في ضبط الاسم الأول، بالذات، بشدة. فهو في غالب الأحيان (مجاور الريح). لكنه أحيانا ثانية (نهيك مجاور الريح). وفي أحيان ثالثة هو (مجاود الريح). بل إن هناك ما يدل على أن هذا الاسم يأتي بصيغة (مباري الريح)، كما سنرى، ومن شدة غموض (مجاور الريح) هذا، لم تحاول المصادر العربية محاولة أن تفسر لنا معنى اسمه، أو أن تلقي ولو ضوءا ضئيلا، عليه. فهي لمْ تقل لنا: لمَ يجاور الريح، أو يجاودها، أو يباريها؟ ولأي هدف يفعل ذلك؟ ولمَ يكون نهيكا؟

لقد وقفت تجاهه بلا حيلة؛ لأنها في عمى عن طبيعته مثلنا تماما.

أما الصنم الثاني فلا خلاف على ضبطه. ورغم أن المصادر العربية لم تحاول مطلقا شرح معنى اسمه، فإنه قد يكون لدينا بعض المعلومات غير المباشرة عنه. إذ لدينا بطن قبلي مشهور يدعى (مطعم الطير). يقول ابن دريد في الاشتقاق: (وبنو مُطعِمِ الطير: بطن منهم).[1]

وحين يسمى بطن قبلي باسم صنم معروف، فإننا نفترض وجود إله يجسده هذا الصنم، وأن هذا البطن من عباده.

كذلك أطلق لقب (مطعم الطير) على بعض الشخصيات في الجاهلية. ومن هؤلاء واحد من عائلة الشاعر المشهور حسان بن ثابت:

وجدي خطيب الناس يوم سميحة وعمي ابن هند مطعم الطير خالد

كما لقب جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمطعم الطير. ونحن نعلم أن المصادر العربية تدخل، في كثير من الأحيان، مواد جاهلية في سيرة عائلة النبي؛ لذا فنحن نأخذها على أنها تنقل تقليدا جاهليا قديما وتنسبه لعائلة الرسول، وليس أكثر من ذلك. وهذا يعني أننا نناقش التقليد الجاهلي، ولا نناقش صحة نسبة هذا التقليد لعائلة النبي.

جد الرسول عبد المطلب إذن كان يدعى حسب هذه المصادر: (مطعم الطير). وحين تعطيه هذا اللقب فهي لا تربط مطلقا بين هذا الاسم وبين اسم الصنم. فكل واحد منهما هو مطعم الطير، لكن بلا أي علاقة بينهما. وتقول المصادر العربية إن عبد المطلب لقب بمطعم الطير لأنه حين افتدى ابنه عبد الله الذبيح، والد النبي، في حادثة حفر بئر زمزم، بمائة من الإبل، نحرها تاركا لحمها طعاما للطيور. يقول الزمخشري في الفائق في غريب الحديث والأثر:

(وسُمي مطعم طير السماء؛ لأنه حين أخذ في حفر زمزم، وكانت قد اندفنت، جعلت قريش تهزأ به، فقال: اللهم إن سقيت الحجيج ذبحت لك بعض ولدي؛ فأسقى الحجيج منها؛ فأقرع بين ولده، فخرجت القرعة على ابنه عبد الله. فقالت أخواله بنو مخزوم: أرض ربك وافد ابنك، فجاء بعشر من الإبل فخرجت القرعة على ابنه، فلم يزل يزيد عشرًا عشرًا، وكانت القرعة تخرج على ابنه، إلى أن بلغها المائة فخرجت على الإبل، فنحرها بمكة في رءوس الجبال؛ فسمي مُطعم الطير).[2]

twitter @baghdad_library

الرواية الثانية من اليعقوبي في تاريخه توحي، بشكل ما، أن النبي ذاته ربما كان يدعى بابن مطعم الطير، الأمر الذي يعني أن أباه كان مطعم طير:

(وقيل: أن أبا طالب كان يحضر في الأيام {أي الحروب} ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا حضر هزمت كنانة قيسا، فعرفوا البركة بحضوره، فقالوا: يا ابن مطعم الطير وساقي الحجيج لا تغب عنا فإنا نرى مع حضورك الظفر والغلبة. قال: فاجتنبوا الظلم والعدوان والقطيعة والبهتان فإني لا أغيب عنكم. فقالوا: ذاك لك. فلم يزل يحضر حتى فتح عليهم).[٣]

هنا يفهم أن أبا طالب هو ابن لمطعم الطير، لأنه ابن عبد المطلب، الذي يدعى مطعم الطير. لكن، قد يفهم أيضا أن والد النبي، عبد الله، هو مطعم الطير. ذلك أن البركة تحضر، ربما، مع حضور النبي لا مع حضور عمه أبي طالب، الأمر الذي قد يعني أن النبي هو ابن مطعم الطير.

ومن المحتمل أن نكون بصدد حديث عن كهانة لهذا الصنم، تنتقل من الأب إلى أبنائه. وبذا يمكن لعبد المطلب وابنه أن يحملا اللقب ذاته، أي أن يسمى كل واحد منهما باسم مطعم الطير. هذا مع التأكيد أننا لا نصدق، حقا، أن لعائلة الرسول أي علاقة بمطعم الطير الصنم. وحتى لو كان صحيحًا ما ترويه المصادر العربية فإن الإسلام قد جب كل هذا أصلا، وألغاه.

وتبدو رواية اليعقوبي كما لو أنها تشتبك مع رواية غريبة أخرى، تكررها المصادر العربية بمتعة، وتتعلق بقصة زواج الرسول من ليلى بنت الخطيم. في هذه الرواية تبدو ليلى هذه أيضا بنتا لمطعم الطير. يقول ابن سعد في طبقاته:

«أقبلت ليلى بنت الخطيم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مولٍّ ظهره الشمس، فضربت على منكبه، فقال: من هذا أكله الأسد؟، وكان كثيرا ما يقولها، فقالت: أنا ابنة مطعم الطير ومباري الريح أنا ليلى بنت الخطيم، جئتك لأعرض عليك نفسي، تزوجني. قال: قد فعلت. فرجعت إلى قومها، فقالت: قد تزوجني النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: بئس ما صنعت، أنت امرأة غيرَى، والنبي صاحب نساء تغارين عليه فيدعو الله عليك، فاستقيليه نفسك. فرجعت، فقالت يا رسول الله: أقلني، قال: قد أقلتك».[٤]

هنا نجد أن ليلى بنت الخطيم هي بنت مطعم الطير ومباري الريح. ومن الصعب علينا ألّا نربط بين مباري الريح ومجاور الريح. وعلى الأغلب فهما الشيء ذاته مع تحريف قليل. وهذا يعني أن بنت الخطيم تحمل لقبا فيه اسمان يشبهان اسمي الصنمين

المنصوبين على الصفا والمروة ذاتهما!

لكن لو كانت ليلى هي ابنة مطعم الطير ومباري الريح، فيجب أن يكون أخوها، الشاعر المعروف، قيس بن الخطيم، هو أيضا ابنا لمطعم الطير ومباري الريح. وهذا ما لم يقله أحد عنه أبدا! هذا يجعلنا نشك في أن اضطرابا ما قد أصاب الرواية، بسبب عدم فهم المفسرين للقصة، أو بسبب رغبتهم في إبعاد الرسول عن أن تكون له علاقة مباشرة بالتقليد الجاهلي، الأمر الذي جعل ليلى تنسب نفسها إلى هذين الكائنين! وهناك دلائل من داخل الرواية على أن المفسرين قصروا عن فهم قصة الرسول وليلى بنت الخطيم. خذ، مثلا، قول الرسول المازح لليلى: (من هذا أكله الأسد؟). فقد فهم المفسرون مزاح الرسول هذا على أنه يحمل نبوءة بموت ابنة الخطيم بنهشة أسد. من أجل هذا جعلوها في ملحق للخبر تموت بالفعل بنهشة أسد، تحقيقا لهذه النبوءة القائمة على سوء فهم كلام الرسول.

من الواضح، بالنسبة لنا، أن الرسول كان يمزح في قولته. والرواية ذاتها تؤكد أن هذه الجملة كانت مزحة دائمة من مزحاته، فهو: (كان كثيرا ما يقولها) على حد تعبير الخبر. إنها مزحة لطيفة معروفة يقولها لأناس كثيرين. عليه، فنحن أمام فرضين بشأن قول ليلى بنت الخطيم:

الأول: أن تكون ردت على مزحة الرسول (من أكله الأسد؟) بمزحة مقابلة حين قالت: أنا بنت مطعم الطير ومباري الريح، أي أنها بنت الصنمين الإلهين، وهذا يعني أنها لا تؤكل من الأسود.

الثاني: أن اضطرابا ما حصل وجعل حديث بنت الخطيم يتحول من خطاب للرسول إلى حديث عن نفسها. وفي هذه الحال يكون ما قالته المرأة: أنا ليلى بنت الخطيم، يا بن مطعم الطير ومباري الريح. أي أنها وصفت الرسول بأنه ابن مطعم الطير ومباري الريح وليس نفسها. وهذا ما يتوافق مع كون جد الرسول قد دُعي باسم مطعم الطير. كما أنه يتوافق مع ما استخلصناه من رواية اليعقوبي التي وضعنا احتمال أنها وصفت الرسول ذاته بأنه ابن مطعم الطير فقالوا: «يا ابن مطعم الطير وساقي الحجيج لا تغب عنا، فإنا نرى مع حضورك الظفر والغلبة»، وعليه، فنحن نميل بشدة إلى هذا الاحتمال.

ومرة أخرى، نحن لا نأخذ على محمل الجد أن الرسول هو ابن مطعم الطير ومباري الريح. فالمصادر العربية تأخذ تقليدا جاهليا عميق الجذور، من دون أن تفهم مغزاه. لكن، إذا كانت ليلى بنت الخطيم وصفت الرسول بأنه (ابن مطعم الطير ومباري الريح)، فإن هذا سيقودنا حتما إلى التساؤل حول علاقة هذا الوصف بالوصف في رواية اليعقوبي:

twitter @baghdad_library

(يا ابن مطعم الطير وساقي الحجيج):

ابن مطعم الطير ومباري الريح

ابن مطعم الطير وساقي الحجيج

هذا التناظر يرغمنا على طرح فرضية تقول إن مباري الريح وساقي الحجيج يعنيان الشيء ذاته. وإذ افترضنا أن (مباري الريح) هو صيغة محرفة من (مجاور الريح)، نكون أمام التناظرات التالية:

مطعم الطير و ساقي الحجيج

مطعم الطير و مباري الريح

مطعم الطير و مجاور الريح

التناظر أمامنا يوصلنا إلى النتيجة التالية: أن الأسماء الثلاثة (ساقي الحجيج، مباري الريح، مجاور الريح) هي الطرف المقابل لمطعم الطير، أي أنها في الواقع اسم لشيء واحد مع تحريفاته. وعليه نصل إلى النتيجة الحاسمة التالية: أن الصنم (مجاور الريح) يبدي علاقة بسقاية الحجيج في مكة! وحين يقال (يا بن مطعم الطير وساقي الحجيج) فإنه يشبه تماما أن يقال: (يا ابن مطعم الطير ومجاور الريح). يعني أن: ساقي الحجيج = مجاور الريح، وأن مجاور الريح على علاقة بسقاية الحجيج! إذا صح هذا، فإن من المنطقي أن نفترض أن نظيره ومقابله (مطعم الطير) سيكون على علاقة بـــ (الرفادة). فالرفادة نظير السقاية في تقليد مكة. واسم (مطعم الطير) ذاته يدعم هذا الاحتمال. فهو (مطعم) في حين أن الرفادة هي (إطعام) الحجيج بالضبط، وهكذا فالصنمان- أو كهانتهما- ربما يشيران إلى علاقة محددة بالسقاية والرفادة:

مطعم الطير = الرفادة

مجاور الريح = السقاية

السقاية والرفادة، إذن، شأنان دينيان على علاقة بالصنمين مطعم الطير ومجاور الريح. فمن يقوم بأمر الرفادة يخدم مطعم الطير، ويكهن له، ومن يقوم بالسقاية يخدم مجاور الريح، ويكهن له. ويبدو أن تقليد مكة في الجاهلية يقوم على أن شخصًا واحدًا يكهن للإلهين معا، أي أنه يقوم بالسقاية والرفادة معا.

فهل بدأ وجها الصنمين يتضحان، رغم بعد الزمن؟

لكن، إذا كان استنتاجنا صحيحا، فلماذا لا يعكس اسم (مجاور الريح) فكرة السقاية، بالطريقة التي يعكس فيها اسم (مطعم الطير) فكرة الرفادة، أي إطعام الطعام؟ فالاسم (مجاور الريح) لا يوحي بأي علاقة بالسقاية، سقاية الحجيج. وهذا ما يجعل الشك يحيط بالاستنتاج الذي توصلنا إليه. والمصادر العربية لا تعطينا مطلقا أي معلومات عن هذا الصنم؛ كي تساعدنا على التكهن بعلاقة ما له بالسقاية. فهذا الصنم غامض بالنسبة لها كما هو بالنسبة لنا، والمعلومة الوحيدة عنه أنه أقيم على الصفا، لا غير.

ليس أمامنا، إذن، إلا أن نفترض أن تصحيفا ما قد حصل للاسم جعله لا يبدي علاقة واضحة بالسقاية، ونحن نعرف كم هي خطيرة مشكلة التصحيف في اللغة العربية. فبسبب تشابه رسم كثير من الحروف، وبسبب تأخر التنقيط والشكل، حصل كم هائل من التصحيفات في المصادر العربية، جعلت من فهم أديان العرب في الجاهلية، وغيرها، أمرا يكاد يكون مستحيلا في بعض الحالات. ولدينا من البيروني في «الجماهر في معرفة الجواهر» مثل بديع على هذا التصحيف المرير. ففي سياق نقاشه لموضوع يد الصنم (هبل) المكسورة يقول:

«قيل إن صنم هبل، الذي كان في الكعبة أيام الجاهلية، كان من عقيق مكسور اليد اليمنى قد أضافوا إليه يدا من ذهب. وذلك عجب، فإن أهل الهند لا يستحسنون من أصنامهم ما أصابته آفة من كسر أو نقر وأمثالهما، ويبعدونه. فكيف استجاز أهل مكة تعظيم صنم أقطع، وكثير من الناس يكرهون العقيق بسبب العقوق، ويقولون إن ما ورد في الأثر «تختموا بالعقيق» هو تصحيف من الرواة فإنه أمر بالتخييم والنزول بوادي العقيق؟ وهذه عادة أمثالهم كالمعروف من غسل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حَصى الجِمار، فإن أحد أختام المحدثين أملاه: أنه كان صلى اللّه عليه وسلم يغسل خِصى الحِمار. فسأله السامع عن سبب ذلك، فقال: تواضعا يا بني! وكأنه قاسه على تواضع المسيح عليه السلام بغسل أرجل الحواريين».[٥]

وهكذا، فقد حول التصحيف (حَصى الجِمار) إلى (خِصى الحِمار)!

هذه هي مشكلة التصحيف في العربية. إنها قادرة على إيصالنا إلى أشياء لا تصدق!

وبناءً عليه، يجوز لنا أن نفترض أن تصحيفا قد حصل لاسم الصنم الأمر الذي أبعده عن أن يبدي علاقة ما بالسقاية. وإذا نجح هذا الفرض في إلقاء ضوء ما على هذا الصنم،

twitter @baghdad_library

وفي التوافق مع ما لدينا من مادة حول ديانة مكة، فإنه يكون فرضا صالحا.

فرضنا يقوم على أن الشق الأول من اسم الصنم (مجاور الريح)، أي كلمة (مجاور) هو من جذر (جوز) وليس من (جور) أو (جود). أي أنه (مجاوز) أو ما أشبه ذلك. وجذر جوز يعطي معنى السقاية. يقول لسان العرب: (والجواز: الماء الذي يسقاه المالّ من الماشية والحرْث ونحوه. وقد اسْتَجَزت فلانا فأَجازني إذا سقاك ماء لأَرضك أَو لماشيتك... وجَوَّز إِبلَه: سقاها. والجوزة: السقية الواحدة، وقيلِ: الجوزة السقية التي يجوز بها الرجل إِلى غيرك... ابن السكيت: الجواز السقي. يقال: أَجيزونا، والمستجيز: المستسقي).[٦]

ويضيف الصاحب في المحيط في اللغة: (الجواز: الماء الذي يسقاه المالّ من الماشية والحرث. يقال: استجزتُ فأجازني: إذا سقَاك ماء لأرضك أو لماشيتك. وفي المثل: «لكل جابه جوزة ثم يمنع»... أجزني: أي أعطني ماء حتى أجوز عنك).[٧] ويزيد الجوهري في الصَحاح: (الجواز أيضا: السقْي. والجوزة: السقْية. واسْتجزْت فلاناً فأَجازني، إذا أسقاك ماء لأرضك أو ماشِيتك).[٨]

وعليه، فجذر جوز يشير إلى سقاية الماء. بذا يمكن لنا أن نفترض أن (مجاور) في الأصل كانت (مجوّز) بمعنى (ساقي).

أما الريح فربما كانت (الراح) أي (الخمر). وليس غريبا أن يختلط الراح بالريح. فهما من جذر واحد، كما أن الألف ذات أصل يائي. أكثر من ذلك وأهم منه ربما أن الخمر تدعى (الرَّياح) بالعربية. يقول لسان العرب: (الرَّياح، بالفتح: الراح، وهي الخمر، وكل خمر رَياح وراح... قال امرؤ القيس:

كأن مكاكيّ الـجواء غـدية نشاوى تساقوا بالرَّياحِ المفلفلِ[٩]

ويضيف ابن قتيبة الدينوري في المعاني الكبير: (أراد بالرياح الراح فزاد ياء، شبهها بنشاوى لكثرة أصواتها وغنائها).[١٠] ويزيد الجوهري في الصحاح: (والرَّياح بالفتح: الراح، وهي الخمر).[١١]

فربما كان الاسم في الأصل (مجوّز الرَّياح)، أي ساقي الخمر، فصُحّف إلى مجاور الريح. وهذا تصحيف ممكن جدا، لأناس صاروا بعيدين عن هذه الأساطير ومصطلحاتها في عصر التدوين. ويمكن للمرء أن يتخيل كيف حاول الرواة، أو النساخ، تعديل الاسم كي يصير ذا معنى بالنسبة لهم، فحولت (مجوز) إلى (مجاور) وحولت (الرياح) إلى (الريح) في خطوة مفهومة وسهلة. فالرَّياح، حين لا يكون هناك شكل يوضح فتحة الراء،

تبدو كما لو أنها جمع الريح. بل يبدو أن بعضهم حول (مجاور) إلى (مباري)، كي يصبح الاسم مفهوما ويصير عندنا (مباري الريح) وليس (مجوز الرياح).

لكن رغم أنه لم يردنا أن الرَّياح بمعنى الراح تملك مفردا، فعلينا ألّا نستبعد أن يكون لها مفرد سقط ولم يصلنا. وإذا صح هذا الفرض يكون اسم الصنم في الأصل (مجوز الرَّيح): أي ساقي الخمر. وهذا يعني أن التصحيف أصاب الجزء الأول من الاسم فقط.

غير أن هناك احتمالا لأن يكون الاسم في الأصل (مجاوز الرَّيح)، ثم صحفت الزاي إلى راء. ورغم أنه لم يصلنا بالسماع أيضا شيء على صيغة مُفاعِل من الجذر (جوز)، فإنه يمكن أن يكون قد سقط من الرواة أيضا؛ لأنه جائز قياسا. وإذا صح هذا، فإن الاسم يجب أن يكون في الأصل (مجاوز الرَّيح)، أي الذي يمرر سقية الخمرة من واحد لواحد، أي الساقي في واقع الأمر. ثم حرف إلى (مجاور الريح). أي أن الزاي تحولت إلى راء فقط.

لكن قد يسأل سائل: حسنا، ليكن اسمه (مجاوز الريح)، أي ساقي الخمر، فما علاقة الخمر بسقاية الحجيج. فنحن نعلم أن سقاية الحجيج تتعلق بالماء لا بالخمر؟ والجواب: أن السقاية كانت في أصلها الجاهلي تتعلق بالخمر وبالماء، وربما كان الخمر هو الأول. ويخبرنا د. جواد علي في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام أن: موضوع السقاية موضوع غامض. فبينما نجد أهل الأخبار يفسرون السقاية بإسقاء المحتاجين من الحجاج بالماء مجانا، نجدهم يتحدثون عن السقاية على أنها إسقاء الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء. وقد ظل تقليد شرب النبيذ في الحج قائما حتى ما بعد الإسلام ذاته، حسب بعض الأحاديث. إذ نخبر عن الصحابي (طاووس) أن شرب النبيذ من ضرورات الحج. يقول ابن سعد في الطبقات الكبرى إن الصحابي طاووس كان يرى أن: الشرب من النبيذ من تمام الحج.[١٢] نحن نعلم، بالطبع، أن هناك من يشكك بحديث طاووس، لكننا نعلم أن موضوع النبيذ كله موضوع إشكالي في الإسلام. فهناك من يحلله، وهناك من يحرمه. وعلى الأقل فهناك مذهب واحد يحلله هو المذهب الحنفي.

بناء على ذلك، يحق لنا أن نربط بين هذا الطقس وبين الصنم (مجوز الريح)، أي ساقي الخمرة أو النبيذ من هذه السقاية، وسنرى في وقت لاحق أن تحويل الماء إلى خمر في فاكهة فصل الصيف، هو من مهمات (مجوز الريح). وهكذا فالماء والخمر شيء واحد في الأصل.

twitter @baghdad_library

هل نتعسف في استنتاجاتنا، ونرسم الأمور بناء على رغباتنا؟

إذا كان هناك من يمكن له أن يفترض ذلك، فسوف نذهب معه إلى القرآن وإلى العهد القديم، لنتقصى قصة يوسف السجين. فهناك سنجد أيضا أسطورة مطعم الطير وساقي الخمر بتمامها وكمالها. وهناك سيتضح أكثر فأكثر لنا طابع هذين الصنمين.

إني أراني أعصر خمرا

ورد في القرآن في سورة يوسف:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.[13] وتضيف السورة: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾.[14]

الأمر شديد الوضوح هنا: فهناك فتيان مع يوسف في السجن: واحد يقول (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه)، (فيصلب فتأكل الطير من رأسه)، وهذا يعني أنه مطعم للطير. أما الثاني فيقول (إني أراني أعصر خمرا)، فيفسر له يوسف رؤياه، بأنه سيسقي مليكه خمرا، أي أنه ساقي خمر، أي مجوز ريح. وهذا يعني أننا أمام فعاليتي الصنمين إياهما: مطعم الطير ومجوز الريح.

وقد تعطينا قصة عبد المطلب مع ابنه الذبيح معلومة عن الصنم مطعم الطير. فعبد المطلب كان سينحر ابنه، لكنه استعاض عن ذلك بأن فداه بمئة بعير، وجعل الطير تأكل منها. وهذا ما قد يشير إلى أن كاهن مطعم الطير يجب أن يكون، فيما يبدو ذبيحا. وأن يكون الكاهن ذبيحا يعني أن الإله الذي يكهن له يجب أن يكون ذبيحا أيضا. فالكاهن يمثل دور إلهه، ويأخذ اسمه.

لكن ما أورده القرآن مختصرا، يرد أشد وضوحا في العهد القديم. فهو يوضح لنا أن الفتى الأول هو (ساقي الخمر) في حين أن الثاني (خباز):

(وحدث بعد هذه الأمور أن ساقي ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر. فسخط فرعون على خصييه رئيس السقاة ورئيس الخبازين. فوضعهما في حَبس رئيس بيت الشرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسف محبوسا فيه. فأقام رئيس الشرط يوسف عندهما فخدمهما. وكان أياما في الحبس، وحلما كلاهما في ليلة واحدة كل

واحد حلمه كل واحد بحسب تعبير حلمه. ساقي ملك مصر وخبازه المحبوسان في بيت السجن. فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مغتمان. فسأل خصيي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده، قائلا لماذا وجهاكما مكمدان اليوم. فقالا له حلمنا حلما وليس من يعبره. فقال لهما يوسف أليست لله التعابير. قصا علي فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له كنت في حلمي وإذا كرمة أمامي. وفي الكرمة ثلاثة قضبان. وهي إذا أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيد عنبا. وكانت كأس فرعون في يدي. فأخذت العنب وعصرته في كأس فرعون وأعطيت الكأس في يد الفرعون. فقال له يوسف هذا تعبيره. ثلاثة قضبان هي ثلاثة أيام. في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك. فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه).[١٥]

ويضيف:

(فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبر جيدا قال ليوسف كنت أنا أيضا في حلمي وإذا ثلاثة سلال حوارى على رأسي. وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز. والطيور تأكله من السل عن رأسي. فأجاب يوسف وقال هذا تعبيره. ثلاثة سلال هي ثلاثة أيام. في ثلاثة أيام أيضا يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك.

فحدث في اليوم الثالث يوم ميلاد فرعون أنه صنع وليمة لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السقاة ورأس رئيس الخبازين بين عبيده. ورد رئيس السقاة إلى سقيه. فأعطى الكأس في يد فرعون. وأما رئيس الخبازين فعلقه كما عبر لهما يوسف).[١٦]

إذن، فهناك (ساقي ملك مصر)، أو (رئيس السقاة)، وهناك (الخباز) أو (رئيس الخبازين). أما الأول فعصر العنب وسقى سيده الخمرة، أما الثاني فقد أكلت الطير من رأسه في الحلم، ثم صلب في الواقع فصار لحمه طعاما للطير. ومن المستحيل علينا ألّا نرى تشابها بين مجوز الريح وساقي الخمر من جهة، فكلاهما يسقي الخمر، وبين مطعم الطير والسجين الذي أكلت الطير من رأسه، فكلاهما يطعم الطير. إنها الأسطورة ذاتها بكل تأكيد.

طبعا، يمكن للمرء أن يرى أن قصة القرآن على علاقة قريبة جدا مع قصة العهد القديم، مما قد يوحي بأن القرآن أخذ عن العهد القديم، أو أن المصدرين نقلا عن مصدر بأصل آخر. لكن من الواضح أن أسطورة مطعم الطير ومجوز الراح العربية موجودة من دون أي علاقة بالعهد القديم. إنها موجودة في مكة قبل الإسلام بوقت طويل، عبر مطعم

twitter @baghdad_library

الطير ومجاور الريح. وهذا يدل على أن الأسطورة كانت منتشرة في كل أنحاء المنطقة، ولا تخص العهد القديم وحده.

أما المفسرون العرب فلم يخطر ببالهم مطلقا أن يربطوا بين القصة القرآنية- التوراتية وبين الصنمين العربيين: مطعم الطير ومجوز الريح. لقد بدا لهم أنه لا رابط بين الأمرين، بسبب القطيعة التي أحدثت، بشكل ما، بين القرآن والتراث الجاهلي.

مطعم الطير والموت

كما رأينا، فإن العهد القديم والقرآن يربطان بين (مطعم الطير) وبين الموت. فالذي رأى أن الطير تأكل الخبز من رأسه، انتهى إلى الصلب والموت. وهذا ما يتوافق مع قصة عبد المطلب وابنه عبد الله، مما يؤكد أن عبد الله، والد الرسول، كان يدعى بمطعم الطير وليس فقط والده عبد المطلب، حسب ما ترى المصادر العربية. فقد كان عبد الله ذبيحا مفترضا. إذ أن سهم الموت قرّ عليه، بعد أن قرر والده أن يضحي بواحد من أبنائه، احتفاء باكتشاف زمزم وحفرها من جديد. عليه، فقد كان تقديم عبد الله للذبح طقسا من طقوس تكريسه ككاهن للإله مطعم الطير. فكما يكون الإله يكون كاهنه. أي أن الإله (مطعم الطير) ذاته إله قتيل ذبيح، وكذلك كاهنه. طبعا، ذبح عبد الله رمزيا عن طريق ذبح الإبل. لقد افتدي بمائة من الإبل، الإبل التي جعلها عبد المطلب طعاما للطير. عليه، فلم يكن عبد المطلب حين ترك الإبل للطير يمارس كرمه، بل كان يقوم بطقس ديني لتكريس ابنه ككاهن للإله مطعم الطير.

ويجب أن نلحظ نقطة مهمة؛ وهي أن عبد الله (ذبح) رمزيا وقت حفر زمزم، كما في الرواية، التي نقلناها عن الزمخشري: (وسُمي مطعم طير السماء؛ لأنه حين أخذ في حفر زمزم، وكانت قد اندفنت، جعلت قريش تهزأ به، فقال: اللهم إن سقيت الحجيج ذبحت لك بعض ولدي). أي أن الرواية تربط التضحية بعبد الله بسيلان الماء في بئر زمزم. وهذا يعني أن إله عبد الله يذبح، أو يقتل، وقت تدفق الماء الأرضي، أي وقت الفيضان الصيفي للنيل، ووقت الفيضان الصيفي هو وقت تحول الماء في الفواكه إلى خمر، أي وقت تحول ماء العنب والتمر إلى نبيذ، أي أنه وقت ظهور مجوز الريح- ساقي الحجيج الخمر والماء. فظهوره يؤذن بموت مطعم الطير. وبعد حين، حين يحل الشتاء يعود مطعم الطير، ويختفي مجوز الريح.

كأن على رؤوسهم الطير

ولعل التعبير العربي الشهير: (كأن على رؤوسهم الطير) جاء من هنا، أي من طقس تقديم أضحية للطير. فهو يعني أنهم مبهوتون مندهشون وصامتون كأن الطير، طير الموت، يحلق فوق رؤوسهم كي يأكل من رؤوسهم. وإذا كانت المصادر العربية لم تستطع أن تربط هذا التعبير بمطعم الطير، فإنها رأت، عن حق، أن التعبير يشير إلى السكون والهدوء، كما هو حال سكون الموت وهدوئه. يقول الميداني في مجمع الأمثال: (كأن على رؤوسهم الطير: يضرب للساكن الوادع. وفي صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. يريد أنهم يسكنون ولا يتكلمون، والطير لا تسقط إلا على ساكن).(١٧)

ويضيف لسان العرب:

(ويقال للقوم إذا كانوا هادئينَ ساكِنينَ: كأَنما على رؤوسهم الطير؛ وأَصله أَن الطير لا يَقَع إلا على شيءٍ ساكن من الموات فضرب مثلًا للإنسان ووقاره وسكونه... وفلان ساكن الطائر أي أنه وقور لا حركة له من وقاره، حتى كأَنه لو وقَع عليه طائر لَسكن ذلك الطائر، وذلك أَن الإِنسان لو وقع عليه طائر فتحرك أَدنى حركة لفَر ذلك الطائر ولم يسكن).(١٨)

وتعبير (الطير لا يقع إلا على شيء ساكن من الموات)، يعبر تماما عن الوضع. إنه يشير إلى الموت. عليه، فلهذا التعبير أصل طقسي. وكثير من التعابير والأمثال العربية هي طقوس مختصرة في جملة.

الخبز والخمر

على كل حال، لا يمكن لنا إلا أن نربط، أيضا، بين مطعم الطير بخبزه وبين الساقي بخمره وبين عشاء المسيح الأخير: (وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ، وقال: خذوا كلوا. هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم اشربوا منها كلكم. لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا).(١٩)

ثم هنا خمر وقمح. الخمر، الحمراء كالدم، تشير إلى مجوز الريح الخمري في الأسطورة الجاهلية، وإلى ساقي الملك في قصة يوسف، في حين أن الخبز يشير إلى

twitter @baghdad_library

الخباز في القصة ذاتها وإلى مطعم الطير في أسطورة مكة. عليه، فالأسطورة عميقة الوجود في تاريخ المنطقة، وهي تخترق ثقافتها كلها. إنها أسطورة الخمر والخبز، البارد والحار، الصيف والشتاء، الدم واللحم، الساكن والمندفع، العالي والواطي. وهما معا يمثلان الإله، يمثلان أوزيريس. جلجامش أيضا، كما سنرى لاحقا، إله مكون من مظهرين، من نغمتين؛ عليا وسفلى، وهو تركيبهما معا.

أما يوسف فيبدو وكأنه من طراز مطعم الطير. في حين أن العزيز الذي حبسه هو مجوز الريح. وسوف نرى في فصول لاحقه أن هناك إلها يدعى (عزيز) وأنه يمثل النغمة الخمرية العالية.

السجين الناجي هو مجوز الريح، الذي سيصب الخمر لسيده، الذي هو (عزيز) مصر. أما السجين الذي سيصلب وتأكل الطير من رأسه، أي الخباز، فهو مثيل يوسف. ويوسف رمي في الجب، أي أرسل على العالم الآخر. كما أن إخوته قالوا ﴿ اَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ اَطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾- سورة يوسف: ٩. والطرح على الأرض، وعلى الجانب خصوصا، هو الإشارة المصرية لموت أوزيريس، كما سنرى في فصل خاص. أما بعثه فيشار إليه برفعه من هذه الرقدة. إذن، فيوسف، عبر الخباز، ذبيح مثيل مطعم الطير. إنه الوجه الثاني للإله. في حين أن العزيز هو الناجي الذي يشرب الخمر من يد ساقي الخمر. السجينان، إذن، يمثلان يوسف والعزيز. إنهما سجينا صراعهما الأبدي.

وبناء على المصادر العربية، فإن عبد المطلب- ونحن لا نصدق هذا بل نراه تقليدا جاهليا يلصق بالرسول وعائلته- كان كاهنا لهذا الإله بمظهريه. فقد كان مطعما للطير وساقيا للحجيج- مجوز الريح. كذلك فإن الاحتمال الأكبر أن عبد الله، الذي كان مطعما للطير كما تزعم المصادر العربية، كان مثل والده أيضا مجوزًا للريح، أي ساقيًا للحجيج. أي أنه كان يكهن لإله بمظهريه، لاعبًا دور الذبيح مرة، ودور الحي المتدفق المندفع، ثانية.

لكن كيف يكون هذان الصنمان بهذه الأهمية ثم لا تعطينا أخبار الجاهلية إلا اسميهما؟! ثم كيف يكونان بهذه الخطورة ولا يذكران في القرآن، كما جرى ذكر اللات والعزى ومناة ومع ود وسواع، ومع يغوث ويعوق ونسرا؟!

الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا أن نعود للقرآن كي نستقرئه حول هذا الأمر. فالقرآن أوثق مصدر عن ديانة الجاهلية. إنه الشاهد الذي لا يمارى على هذه الديانة وطقوسها. ونحن نعتقد أن النص القرآني أشار، بالفعل، إلى مجوز الريح ومطعم الطير!!

القرآن أشار إلى مطعم الطير ومجوز الريح؟! أين؟!

لا داعي للاستغراب، فهناك مناطق لا تزال غامضة وغير مفهومة في القرآن. وإلى منطقة من هذه المناطق سنذهب علنا نعثر على ما يشير للإلهين الجاهليين: مطعم الطير ومجوز الريح. وسوف نذهب بالتحديد إلى سورة الأنفال، وإلى الآية الخامسة والثلاثين من هذه السورة بشكل أكثر تحديدا. ففي هذه الآية وصف محدد لصلاة الجاهلية عند الكعبة: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾.[٢٠]

صلاة الجاهلية، إذن، هي مجرد مكاء وتصدية.

جملة غامضة جدا.

جملة مختصرة جدا.

لكنها تحمل وصفا من مصدر أول، معاصر للجاهلية، لا يوجد ما هو أصدق منه حين يتعلق الأمر بطقوس هذه الجاهلية، وهو القرآن. وعليه، فمن المفترض أنها جملة مركزية إذا أردنا أن نفهم ديانة مكة قبل الإسلام. أعني أنها ربما قد تكون مفتاحنا لفهم ألغاز ديانة مكة قبل الإسلام. ورغم أهميتها هذه فهي لم تعط حقها عند الباحثين في ديانة العرب قبل الإسلام. بل لعلني أقول إنه لم يتعرض لها أحد حسب علمي. لقد تجوهلت تماما، باعتبارها آية لا تفيد في فهم أديان مكة قبل الإسلام. لكننا سنثبت هنا أنه لا يمكن فهم ديانة مكة قبل الإسلام من دون هذه الجملة القرآنية التي يمكن اختصارها بكلمات ثلاث: (صلاتهم مكاء وتصدية). في كلمات ثلاث لخص القرآن طقس الجاهلية المركزي في مكة.

تجوهلت الآية الخامسة والثلاثون من سورة الأنفال، رغم انها تمثل أملنا في فهم ما لأديان العرب قبل الإسلام. وسبب تجاهلها هو، ربما، التفسير القاصر الذي أوردته المصادر الكلاسيكية العربية لهذه الآية. فقد أجمعت هذه المصادر العربية على أن المكاء والتصدية هما: الصفير والتصفيق؛ المكاء هو الصفير، والتصدية هي التصفيق. وماذا يمكن للمرء أن يستخلص عن الديانة الجاهلية من صفق وصفير؟!

يقول القرطبي في تفسيره: (﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ أي تصفيقا وتصفيرا). ويضيف: (﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾، أي لم يكونوا يصلون، ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة).[٢١] يقصد أنهم

twitter @baghdad_library

لم يكونوا يصلون صلاة حقيقية كالصلاة الإسلامية التي نعرفها، بل يصلون صلاة غريبة تقوم على الصفير والتصفيق، أو قل إنها، على الأقل، كانت تحوي طقسا رئيسا، هو طقس صفير وتصفيق.

ويضيف الجاحظ في الحيوان: (والتَّصدية، التصفيق، قال الله تعالى: «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاء وتصْديةً»، الآية، فالمُكاء: صوت بين النفخ والصفير، والتصدية: تصفيق اليد باليد).

لكن لم كانت الجاهلية تصفر وتصفق؟ وما معنى ذلك؟ فهذا ما لا يخبرنا به القرطبي، ولا غيره. إنهم يصفرون ويصفقون فقط! فإن تمكنا من معرفة مغزى الصفير والتصفيق، فسنقطع، ربما، خطوة كبرى على طريق فهم ديانة العرب قبل الإسلام. ومن أجل هذا فإنه ربما قد ينفعنا خبر أورده ياقوت الحموي في معجم البلدان في معرفة أصل هذا الطقس المبهم، ومعناه. يقول ياقوت:

(قال الشرقي بن القطامي: إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكّ فيه، أي نصفر صفير المُكّاء حول الكعبة. وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا... فكأنهم يحكون صوت المكّاء).[٢٢] وسوف نتعرض لاحقا إلى العلاقة التي يفترضها هذا النص بين اسم مكة والمك- الصفير. إذ ما يهمنا هنا أن المكيين كانوا بمكائهم (يحكون صوت المكاء)، أي يقلدونه. ويضيف محمد بن علي الشوكاني في فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير مؤكدا هذا، ومتحدثا عن طائر المكاء الذي كانوا يقلدونه: (قيل المكاء: هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء).[٢٣] وهذا ما ينقله أيضًا الثعلبي في الكشف والبيان بالضبط أيضا: (وقال السدي: المكاء الصفير على لحن طائر أبيض يكون بالحجاز يقال له : المكاء).[٢٤]

والمكاء هذا طائر واقعي، صحراوي وشبه صحراوي، له صوت مثل صوت المزمار، لكن محمولاته الميثولوجية ثقيلة جدا. والنقطة المركزية التي تخص هذا الطائر هي أنه طائر صيفي. فهو يبدأ غناءه في عز الحر.

إذن، كانت الجاهلية تمكّ في صلاتها، أي تقلد صوت صفير المكاء، أو تصفر على لحن الطائر الحجازي.

هذه إشارات مبشرة وجدية!

فهي تمنحنا شيئًا محددًا عن طقس المُكَاء الذي ورد في الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَ

صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾. فالمكاء هو، في الأصل، صوت طائر محدد يدعى: المُكَّاء. والجاهلية كانت ترى أن حجها لا يكتمل إلا إذا مَكَت في الكعبة، أي حاكت صفير هذا الطائر! أي أن تقليد صوت هذا الطائر كان جزءًا رئيسًا من مشاعر الحج الجاهلي. فحجهم لا يكتمل إلا به.

لقد أعطينا إشارة صغيرة قد تفتح لنا الباب لفهم المُكَاء، على الأقل، وإن كانت لن تدلنا على مغزى التصدية- التصفيق. ذلك أن التصفيق بدا لابن القطامي، الذي ينقل عنه ياقوت، أمرا لا يحتاج إلى توضيح أو تفسير. وسوف نجد أن الأمر على غير ذلك. فأمر التصفيق أعوص بما لا يقاس من أمر المكو.

لقد أمسكنا الآن بطرف الخيط الذي أخذناه من يدي ياقوت والثعلبي؛ أي خيط المكو- الصفير، فلنتابعه. ونريد في البدء أن نعرف كيف كان يتم مكو الجاهلية في الكعبة. يقول الخليل بن أحمد في العين: كانوا يطوفون بالبيت عراة يصفرون بأفواههم، ويصفقون بأيديهم. وقد مكا الإنسان يَمْكُو مُكاءً، أي: صفر بفيه. لكن ابن سِيدَة في المحكم والمحيط الأعظم يخبرنا أن هذا الصفير لم يكن صفيرًا عاديًا. أي لم يكن صفيرا عن طريق قبض الشفتين وإخراج الهواء منهما، بل عن طريق وضع الأصابع في الفم: مكا الإنسان مَكْوا ومُكاء: صَفَر بفيه. قال بعضهم: هو أن يجمع بين أصابع يديه، ثم يدخلها في فيه، ثم يصفر فيها.

ويضيف ابن السكيت في إصلاح المنطق: (ويقال مكا يمكو مكواً ومكاء، إذا جمع يديه ثم صفر فيهما، قال الله جل وعز: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾).(٢٥)

حسن جدا. ثم، إذن، طائر يدعى المكاء، يقلد الجاهليون صوته في صلاتهم حول الكعبة. وهم يقلدون هذا الصفير عن طريق وضع الأصابع في الفم. وهي طريقة معروفة لإخراج صفير عال حاد النغمة. ونقطة الصفير العالي النغمة نقطة مهمة جدا، كما سنرى لاحقا.

وكما رأينا من المقتبس أعلاه فإن الطائر ومقلديه يتوحدون أحيانا، فيبدو الطائر هو من يضع يديه في فمه ويصفر! يقول لسان العرب نقلا عن آخرين: (والمُكّاء...: طائر في ضرب القنبرة إلا أن في جناحيه بَلَقًا، سمي بذلك لأنه يجمع يديه ثم يَصْفر فيهما صفيراً حسنا).(٢٦) الطائر الأبلق، والبلق بياض مخلوط بسمرة، هنا هو الذي يضع يده في فمه ويصفر. إنه يفعل كالإنسان الذي أنه يقلده. قلب الصورة هنا مفهوم جدا. إذ أن من يصفر

twitter @baghdad_library

صفير المكاء يضع نفسه في محل الطائر، أي أنه يصبح هو بذاته طائرًا. وعليه، يصح بشكل ما القول بأن الطائر يصفر عن طريق وضع يديه في فيه.

ويضيف لنا الجاحظ في البيان والتبيين معلومة محددة: (كان قيس بن مَخرمةَ بنِ المطلب بن عبد مناف، يمكو حول البيت، فيسمع ذلك من حراء).[٢٧] هنا يبدو أن بعضهم، وهو من عائلة جد الرسول، حول المكو إلى فن قائم بذاته. لكننا لا نستطيع أن نفهم تماما معنى جملة (حول البيت). فهل تعني أنه كان يمكو أثناء الطواف حول الكعبة، أم أن (حول البيت) تعني المنطقة الأوسع حول الحرم؟ غير أن الدميري ينقل لنا ما يفيد أن المكو كان طقسا جمعيا لا فرديا، وأنه كان يتم على الصفا أيضا، وليس في الكعبة فقط:

(المُكاء والتصدية كانا من فعل العرب قديما قبل الإسلام، على جهة التقرب به والتشرع. قال: ورأيت عن بعض أقوياء العرب أنه كان يمكو على الصفا فيسمع من حراء، وكان قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم عام الفيل. وكانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفرون ويصفقون).[٢٨]

في هذا المقتبس يتبين لنا:

١- أن المكو والتصدية (الصفير والتصفيق) كان طقسا جماعيا (كان من فعل العرب). أي أنه ليس طقسا فرديا، وإن كان هناك أناس مهرة برعوا فيه. ولعلهم كانوا يقودون الطقس الجماعي. ويؤكد بيت شعر لعمرو بن الإطنابة يورده لنا القرطبي في تفسيره أن هذا الطقس كان، بالفعل، طقس عبادة جمعيا:

(وظلوا جميعا لهم ضـجة مكاء لدى البيت بالتصدية).[٢٩]

كما يؤكد هذا الكتاب: فخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب هذا. فهو ينقل رواية عن ابن عباس يقول فيها: كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم.

٢- أن هذا الطقس كان يتم على الصفا. فبعض العرب (كان يمكو على الصفا).

وتشير رواية لليعقوبي في تاريخه حول قصة هاجر وإسماعيل، إلى أن طائرا ما كان بالفعل يقيم على الصفا. يقول: (ونفد الماء الذي كان مع هاجر، فاشتد بإسماعيل العطش فخرجت هاجر تطلب الماء، ثم صعدت إلى الصفا، فرأت بقربه طائراً واقفاً فرجعت فإذا بالطائر قد فحص برجله الأرض، فخرج الماء، فجمعته لئلا يذهب، فهي بئر زمزم).[٣٠]

نحن نعتقد أن هذا الطائر هو المُكاء ذاته. وإذا كان هذا الطائر هو المكاء، بالفعل، فإنه يحق لنا أن نفترض أن المُكّاء على علاقة بالماء المتدفق الجاري. فالطائر هو من فحص برجله، فأخرج الماء. وهذا قد يشير من بعيد إلى السقاية، سقاية الحجيج.

المُكّاء ومجوز الريح

حسن جدا. المكو إذن طقس صفير كان يتم على الصفا. أي أنه، بشكل ما، طقس يخص الصفا. وإذا كان المكو يختص بالصفا، فإنه قد يحق لنا أن نفترض أنه مرتبط بالصنم (مجوز الريح). فهذا الصنم كان منصوبا على الصفا. وقد رأينا قبل قليل عند اليعقوبي أن طائرا كان على الصفا هو الذي أجرى الماء لسقاية إسماعيل بن هاجر. وقلنا إن من المحتمل جدا أن يكون هذا الطائر هو المُكّاء ذاته. إذا صح هذا، يكون (مجوز الريح) على علاقة بـ (المكاء) الطائر، كما يكون طقس المكاء على علاقة بالسقاية أيضا. عليه، فمكو الجاهلية كان طرازًا من التعبد للصنم (مجاور الريح). والنغمة العالية الحادة لطائر المكاء تمثل هذا الصنم. إنه صنم نغمة عالية ما.

لكن، إذا كان طقس المكاء يتم على الصفا، فمن المنطقي أن نفترض أن طقس التصدية كان يتم، بالمقابل، على المروة. وإذا كان كذلك فهو مرتبط بمطعم الطير، الذي كان منصوبًا على الصفا. وهذه نتيجة حاسمة:

المكاء يتم على الصفا، وهو مرتبط بمجوز الريح

والتصدية تتم على المروة، وهي مرتبطة بمطعم الطير.

غير أننا سنترك أمر التصدية إلى وقت لاحق. فلا بد لنا أن نلاحق العلاقة بين المكاء الطائر وبين الصنم مجوز الريح.

المكاء والخمر

يدعم ارتباط المكو بمجوز الريح- ساقي الخمر على الصفا أننا نعلم جيدا من المصادر العربية أن المُكّاء طائر خمري. أي أنه مرتبط بالخمر مثله مثل مجوز الريح. يقول الشاعر في البيت الذي أوردناه سابقا:

كـأن مكاكيّ الجـواء غديّـة نشاوى تساقوا بالرياح المفلفل

المكاكي هنا جمع مكاء. وقد أوضحنا من قبل أن الرياح في هذا البيت تعني الراح، أي الخمر. عليه، فطيور المكاكي، تطير في الفضاء مغردة كأنها جماعة سكارى نشوى ومبتهجة. ويذكرنا ابن حمدون في تذكرته ببيت لأبي دؤاد الإيادي يربط المكاء بالخمر:

تخـال مكاكيّه بالضـحى خلال الدقاري شرباً ثمالا

twitter @baghdad_library

فحين تسمع المكاكي ضحى في الرياض سوف تظن أنها سكارى ثملة. وينقل لنا الصولي في أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم هذا البيت:

وتغرد المكاء في صحرائه تغريد مرتاح من النشوات.(٣١)

إنه يغرد كمن انتشى بالخمرة. ولدينا من مصدر متأخر دليل على ارتباط المكاء بالخمر. يقول محب الدين الحموي في: حادي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية: (هل لك أيها الممتزج بالروح امتزاج المكاء بالراح، المهدي إلى النواظر النزه وإلى النفوس الارتياح).(٣٢)

لا ندري إن كان أراد بالمكاء هنا المُكَاء الصوت أم المُكّاء الطائر. وأيا منهما أراد الكاتب فقد أوضح لنا ارتباطا بين الخمر والمكاء وامتزاجهما معا. وهذا الكلام يردد ما هو شائع في الثقافة العربية عن العلاقة بين المكاء والخمر. والمكاء يغني في عز الحر. يقول شاعر آخر:

ونشّ ماء القليب والغدير وصعّد المكاء في التعشير

يقول هذا البيت إن المكاء يبدأ في تصعيد غنائه، أو تعشيره، وقت أن يبدأ ماء الغدران والآبار بالنقصان والنشيش. وجذر نش يعني فوران الماء أو النبيذ. فالنش: صوت الفوران للماء والخمر. يقال: نش الماء: صوّت عند الغليان. وكذلك ما سمع له كتيت كالنبيذ وما أشبهه. عليه فالنبيذ حاضر هنا. وعن أبي عمرو الشيباني في الجيم هذا البيت:

(إذا اسْتَسْمعتْ بالهَجْل لم تستمع به سوى سكرة المُكَّاءِ أَو أَزةِ الرعد).(٣٣)

والهجل: هو المُطْمئِنُّ من الأَرض، أو ما اتسع من الأَرض وغَمَضَ؛ أي انخفض، بناء على لسان العرب. وهكذا فهنا أيضا نجد أن للمكاء صيحة وغضبة تدعى بالسّكرة. ينقل لسان العرب عن ابن الأعرابي: (سكر من الشراب يسكر سُكْراً، وسكر من الغضب يسكر سكرا إذا غضب).(٣٤) ونظن أن غضبته هذه مرتبطة بشربه الخمر. لذا قال البيت (سكرة المكاء)، أي غضبة سكره وصيحتها. وصيحة المكاء صيحة مخيفة فيما يبدو لنا.

وربما يفيدنا في توضيح علاقة المكاء بالخمر هذه القصة التي ننقلها عن ابن حمدون في التذكرة الحمدونية: (نزل على رجل من طيء من بني حية رجل من بني شيبان بن ذهل يقال له المكاء، فذبح له شاة وسقاه الخمر. فلما سكر الطائي، قال: هلم أفاخرك: أبنو حية أكرم أم بنو شيبان؟ فقال له الشيباني: حديث حسن ومنادمة كريمة أحب إلينا من المفاخرة. فقال الطائي: والله ما من رجل مد يدًا أطول من يدي، فقال له الشيباني: والله إن أعدتها لأخضبنها، فأعاد الطائي مدها فخضبها من الكوع كما قال).(٣٥)

في الظاهر هذا سرد واقعي جدا. إنها قصة حدثت أو يمكن أن تحدث في بيئة قبلية. فبنو حية الطائيون وبنو ذهل بن شيبان قبيلتان معروفتان لنا. كما أن المفاخرة التي قد تنتهي بالجرح أو بالقتل شائعة في الجاهلية وما بعدها. لكن اجتماع المكاء والخمر، إضافة إلى الحية التي هي عنصر رئيس في الموضوع كله، كما سنرى، يجعلنا نعتقد أننا أمام سرد أسطوري يحاول أن يسوّق نفسه على أنه سرد واقعي.

فوق هذا، فنحن نعرف أن هناك شاعرا شيبانيا، إسلاميا لا جاهليا، يدعى المكاء بن هميم الربيعي الكوفي. وينسب له قوله:

إني امرؤ من بني شيبان قد علمت هذي القبائل، أمي منهم وأبي
إني إذا ما شربت الخمر ينكرني قومي، وتعرف مني آية الغضب.

وهنا أيضا يرتبط المكاء بالخمر، في خبر يبدو أنه واقعي جدا. أما جملة (وتعرف مني آية الغضب) فربما كانت تضرب على سمعة المكاء كطائر مخيف. يقول الشاعر:

إذا غرّد المكاء في غير روضه فويل لأهل الشاء والحمرات

إذن، فثم رابط شديد بين المكاء والخمرة، الأمر الذي يدعم ارتباطه بمجوز الريح. فكلاهما خمري بوضوح.

إذن، الخمر والماء، أي السيولة، مرتبطان بالصنم مجوز الريح وطائره. أي مرتبطان بالصفا.

نهيك

لكن لماذا يدعى مجاور الريح أحيانا ب(نهيك مجاور الريح)؟ أي لمَ تضاف إلى اسمه كلمة نهيك؟ نحن نعتقد أن (نهيك) هي وصف لمجوز الريح. ذلك أن جذر نهك يعطي معنى الإجهاد والمرض والشجاعة، لكنه يعطي أيضا معنى النزف والنزح والمبالغة. يقول لنا لسان العرب: (نهكت الإبل ماء الحوض: إذا شربت جميع ما فيه... ونهكت الناقة حلبا أنهكها: إذا نقصتها فلم يبق في ضرعها لبن. وفي حديث ابن عباس: غير مضر بنسل ولا ناهك في حلب، أي غير مبالغ فيه. وروي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال للخافضة: أشمي ولا تنهكي، أي لا تبالغي... والنهك المبالغ في كل شيء. والنهك والنهيك: المبالغ في جميع الأشياء).[٣٦] ويضيف الزبيدي في تاج العروس: (ونَهك الشراب...كسَمع: أفْناه شربا واستيفاء).[٣٧] ويزيد الأزهري في تهذيب اللغة: (ونَهكت

twitter @baghdad_library

الإبلُ ماء الحوض: إذا شربت جميع ما فيه. قال ابن مقبل:

نواهك بيُّوتِ الحياضِ إذا غدت   عليه وقد ضمّ الضَّرِيب الأفاعياَ).[٣٨]

عليه، فنهيك تعني، في غالب الأمر: الساقي المستنزف، أو الساقي المبالغ في نزحه ونزفه، أو الشارب المبالغ في شربه. وهذا ما يتوافق مع مجوز الراح كساقي خمر.

ولعل بيت عنترة الشهير عند اللغويين يؤيد ما نقول حول علاقة المكاء أيضا بالنزف والنزح:

وحليل غانية تركت مجدلا   تمكو فريصته كشدق الأعلم

فعنترة في هذا البيت يقول إنه طعن زوج المرأة الجميلة فترك محل الطعنة ينزف كشدق الأعلم. والأعلم هو البعير لأنه مشقوق الشفة العليا، أو الإنسان ذو الشفة المشقوقة. فالشفة المشقوقة تفلت اللعاب بشكل دائم. وظني أن المصادر العربية لم تكن دقيقة في تفسير هذا البيت. فهي اعتبرت أن المكو هنا يعني صوت بين النفح والصفير. يقول اللسان: (إذا فَهَقَتْ فاها: مَكَتْ تَمْكُو).[٣٩] ويضيف الجاحظ في البرصان والعرجان: (والمكو: شيء بين النفح والصفير، لأنه لما طعنه نفح بالدم، فخرج منه الدم).[٤٠] والنفح خروج الدم سريعا أو على دفعات. يقال: طعنة نفّاحة: دفَّاعة بالدم. التهذيب: طعنة نَفُوحٌ ينفَحُ دَمُها سريعاً. والنَّفُوح من النوق: التي يخرج لبنها من غير حلب. ونَفَح العِرْقُ يَنْفَح نَفحاً إذا نزا منه الدم. ويقول ابن قتيبة الدينوري في المعاني الكبير: (تمكو تصفر، من قول الله جل وعز «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية»، يريد صوت خروج الدم منها).[٤١] ويضيف ابن دريد في جمهرة اللغة: (والمَكْو من قولهم: مَكا يمكو مَكْواً ومُكاءً، وهو شبيه بالصّفير. قال الشاعر:

وحليل غانية تركت مجدلا   تمكو فريصته كشدق الأعلم).[٤٢]

ويزيد ابن هشام في سيرته: (يعني: خروج الدم من الطعنة، كأنه الصفير).[٤٣]

وكل هذا يقول إن للدم تصويتًا عند خروجه من الجرح، وأنه قريب من الصفير. وفي رأيي أن هذا غير دقيق. ذلك أنه من غير المتصور أن يسمع صوت قوي يقارب الصفير لنزول الدم من طعنة رمح، أو من شدق أعلم بسبب شفته المشقوقة، سواء كان الأعلم بعيرا أو بشرا. فنزوله سيلان ونزف ونفح، أي خروج بقوة وعلى دفعات وليس صفيرا أو ما يقرب منه. كما أن المكو من أجل الصفير هو طراز من الضم لا الفتح. فلكي يمكو المرء عليه أن يضم شفتيه. يقول لسان العرب نقلا عن ابن السكيت: المكاء: الأصوات مضمومة إِلا النِّداء والغِناء).

والشفة المشقوقة ليست شفة للانضمام. وحتى إذا أخرج الصفير عن طريق وضع الأصابع في الفم، فإنه يشمل نوعا من الإغلاق بالأصابع لا الفتح. وفي رأينا أن الشراح لم يدركوا أن المكّاء صافر ناهك، أي صافر ونازف معا، أي نازف للخمر والماء، أي أنه فيضي، وأن جذر مكا يحمل هذين المعنيين، تبعا لذلك. بالتالي فإن يمكو هنا تعني ينزف أو يسيل، ولا تعني يصفر أو ينفح حد الصفير. وكل هذا يشير إلى علاقة مجاور الريح بالنزف والنزح والسيلان، مثلما هو حال المكاء الطائر، أي إلى علاقتهما معا بالسقاية، سقاية الماء وسقاية الخمر.

وقد ورد (نهيك) كاسم إله في بعض الكتابات الجاهلية، مما يقوي من فرض أن نهيك هو مجوز الريح، أو أن نهيك صفة لمجوز الريح. يقول لنا د. جواد علي:

(وهناك أسماء أصنام أخرى لم ترد في كتاب الأصنام، إنما وردت في كتب أخرى. وقد ذكرها «ابن الكلبي» نفسه في بعض مؤلفاته. ومن هذه الأصنام: ... صدى، وصمودا، والضمار، والضيزن، والعبعب، وعوض، وعوف، وكثرى، والكسعة، والمدان، ومرحب، ومنهب، والهبا، وذات الودع ويا ليل، وذريح، وباجر، والجد، وحلال، والحمائم، وذو اللبا، والسعيدة، وغنم، وفراض، وقزح، وقيس، والمنطبق، ونهيك).[٤٤]

ووجود نهيك كإله منفصل يجعلنا نعتقد أن نهيك- مجاور الريح اسم مركب تركيب تماه. أي أن نهيكا فيه= مجاور الريح. وهذا يعني أنهما اسمان لإله واحد، أو صفتان للإله ذاته.

الطائر السكران

وبالمناسبة، يبدو أن علينا أن نشير إلى أن حكاية هذا الطائر الأسطوري، المكاء، ما زالت حية حتى الآن في سوريا. فما زال الفلاحون السوريون هناك يدّعون أن طائرا يدعى (السكران)، يظهر وقت نضوج الرمان والعنب، فيأخذ رمانة ناضجة فيفرغها من بذورها العقيقية الحمراء. ثم يطير إلى أشجار الكرمة، ويأخذ حبات عنب ناضجة ويضعها في الرمانة المجوفة. وحين يملأ الرمانة بالعنب الناضج يقفلها بالطين، ويتركها. وحين يتخمر العنب ويصيرا نبيذا، يأتي (السكران) ليفتح الرمانة، ويغمس بمنقاره في النبيذ المحيي شاربا، ثم يطير إلى السماء، ويحلق منتشيا سكران!

ليس لدي شك أن (السكران) هذا هو المُكّاء ذاته. لقد ظلت أسطورته، ذات الخلفية الدينية، حية حتى الآن! ورغم أن المكاء طائر صحراوي وشبه صحراوي، إلا أنه يتواجد

twitter @baghdad_library

في سوريا، وفي بلاد الشام رغم بردها. يدلنا على ذلك قول شاعر أعرابي أمرضه برد الشام فرأى طائر مكاء، فنصحه أن يغادر الشام، وأن يذهب إلى الجزيرة العربية، إلى حيث أشجار الآء والأرطى، وإلا فإنه سيمرض مثله:

ألا أيـها المـكـــاء مـا لـك هـهـنا آءٌ ولا أرطـــى فـأيـن تـبـيــض؟

فاصعد إلى أرض المكاكي واجتنب قرى الشام لا تصبح وأنت مريض!

التصدية

إذن، فقد توصلنا إلى أن مُكاء الجاهلية تقليد لصوت المكَاء لطائر السكران، الذي هو على علاقة وطيدة بمجوز الريح. كما افترضنا أن التصدية تتم على المروة، حيث نصب الصنم مطعم الطير، ما دام المكو يتم على الصفا.

لكن السؤال هو: إذا كان صنم مجوز الريح على الصفا مرتبطًا بصفير المكاء الطائر، فما الذي يربط صنم مطعم الطير على المروة بالتصفيق؟ وإذا كانت الجاهلية تمكو كي تقلد صوت المكّاء الطائر، فلم كانت تصفق في صلاتها صفقا، ولا تقلد صوت كائن ما؟ أي ما العلاقة بين المكو والتصفيق؟

للإجابة عن هذا السؤال، علينا، فيما أظن، أن نناقش، بل وربما أن نتحدى، تفسير غالبية المصادر العربية لكلمة (تصدية). فبُعد عهد هذه المصادر العربية بالأسطورة الجاهلية، جعلهم غير قادرين على إدراك معنى مفرداتها بدقة، في بعض الأحيان. وبوضوح ومباشرة، فإننا نرى أن التصدية في الآية القرآنية لا تعني التصفيق، بل تعني تصويتا لتقليد صوت كائن ما. وهذا منطقي. فما دمنا مع صفير المكّاء الطائر، فلا بد أن يكون للتصدية علاقة بصوت كائن آخر. ذلك أننا بصدد طقس أصوات في صلاة الجاهلية هنا، وربما كانت التصدية صوتًا يرد على صوت المكاء. ولعل هذا ما يشير إليه بيت الشعر الذي أوردناه سابقًا:

وظلوا جميعا لهم ضـجة مكاء لدى البيت بالتصدية

فالبيت يكاد يقول إن التصدية صوت يرد على صوت المكاء.

على كل حال، لدينا ما يكفي من الأدلة اللغوية التي تشير إلى أن التصدية في اللغة ليست تصفيقا فقط. بل إن هذه الأدلة تشير إلى أن معنى التصفيق ثانوي وليس أصليا. يقول ابن قتيبة الدينوري: (التصدية: التصفيق ورفع الأصوات، وأصله من صَدَدْت أصدُّ،

ومنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: يضِجُّون ويَعِجُّون).[٤٥]

هذا يعني أن التصدية بمعنى التصفيق ليست المعنى الأصلي، فالمعنى الأصلي هو إخراج الأصوات، أي عمل ضجة صوتية ما. ويخبرنا تاج العروس نقلا عن ابن سِيدة أن (التصدية: التصفيق والصوت).[٤٦] وليس الصوت هنا صوت الصفق كما هو واضح. ولو كان كذلك لكان قال: التصدية: صوت الصفق. كما أن ابن السكيت في القلب والإبدال يؤيد هذا، ناقلًا عن أبي عبيدة: (التصدية: التصفيق والصوت).[٤٧]

ويبدو لنا أن المعنى الأصلي للكلمة يعني الصوت الذي يرد على صوت أو يرجعه، ثم صار التصفيق يدعى تصدية لأن فيه يدا ترد على يد. يؤكد هذا ما أورده تاج العروس أيضا: (ذَهَبَ أبو جعفر الرّستمي، إلى أن التصدية من الصدى، وهو الصوت)[٤٨]. وهكذا، فالتصـــدية في الأصل هي: صوت الصدى. وليس أبو جعفر وحده من يرى هذا. فقد نقل الأزهري في تهذيب اللغة: (قال ابن عرفة: التصدية من الصدى، وهو الصوت الذي يرده عليك الجبل)[٤٩]. هذا يعني أن التصدية، في الأصل، ليست تصفيقا، بل صوتا يرد على صوت أصلي. وتصديقا لهذا ينقل لنا ياقوت في معجم البلدان بيتا لأبي مقرر:

طرقنا بالثني بني بُجَير بياتا قبل تصدية الديوك

من المستحيل أن تكون التصدية في هذا البيت تصفيقا. فالديوك لا تصفق بكل تأكيد، بل تصوت وتصيح. والمفهوم من البيت أنه حمل صياح الديوك على طراز من التصويت يسمى التصدية. ويخبرنا كاتب متأخر هو المناوي في التوقيف على مهمات التعريف أن: (التصدية كل صوت يجري مجرى الصدى في أنه لا غناء فيه. والتصدي أن يقابل الشيء مقابلة الصدى، أي الصوت الراجع من الجبل).[٥٠] هنا التصدية صوت يردد صوتا أصليا، ولا علاقة له بالتصفيق. ويقدم لنا لسان العرب تفسيرًا لفكرة التصدية تجعلنا نفهم لم سميِ التصفيق تصدية؟ فصدَّى: قيل أَصْلُه صَدَّد لأنه يقابِل في التصفيقِ صَدُّ هذا صَدَّ الآخَرِ أي وجهاهما وجه الكف يقابِل وجه الكف الأُخرى.

إذن، فلأن التصفيق حركة تضاد، وحركة رد، أي حركة تواجه يد فيها اليد الأخرى، تعاكسها وتصادها، فقد سمي تصدية. وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ معناه: تتعرّض له، وتميل إليه وتقبل عليه، يقال: تصدَّى فلان لفُلان، إذا تعرض له وواجهه، كما فسره لنا الزبيدي في تاج العروس.

بهذا المعنى، وبهذا المعنى بالذات، يمكن القبول بأن الصفق تصدية، أي رد كف على كف. فثم كفان: واحدة ترد على الأخرى، مثلما أن التصدية هي رد صوت على

twitter @baghdad_library

صوت أصلي، وهذا يعني أن الجاهلية لم تكن تصفق، بل كانت تصدّ، أي تقوم بحركة فيها رد بصوت على صوت أصلي. أو قل ترد على صوت المكاء بصوت آخر هو رجعه وصداه، مثلما ترد اليد على اليد في الصفق.

بالتالي، فالتصدية في الحقيقة: صوت طِباق للمكو ليس إلا.

وما دمنا نتحدث عن أصوات، فربما كانت التصدية، أي صنع صدى لصوت المكاء، تتم بالفم لا بالأكف. إنها صدّ ورد على تصفير المكاء، وليست تصفيقا. أما إذا كان لا بد من القبول بوجود تصفيق فلا بد أن يكون تصويرًا رمزيًا لصوتين متضادين متعاكسين. أي أنه يتم صفق يد بيدٍ كتمثيل للصوتين معا، صوت المكاء والتصدية، وليس لصوت واحد.

وثَم بيت من الشعر للمتلمس قد يساعدنا في حل الأمر، رغم غموضه الشديد:

ويكاد من لامٍ يطير فؤادهـا　　　إذا مرّ مكّاء الضّحى المُتَنَكِّس

لكن الشطر الثاني من البيت حسب الخليل في العين:

إذا صاح مكاء الضحى المتنكس(٥١)

وهذا أكثر توافقا مع ما نقول. فالمكاء يمكو مكوته فيرد عليها بصوت يدعى (اللام) فيما يبدو. ويفسر لنا لسان العرب معنى اللام:

(اللامة واللام، بغير همز، واللّوم: الهول؛ وأنشد للمتلمس:

ويكاد من لامٍ يطير فؤادها

واللامُ: الشديد مِن كل شيء؛ قال ابن سيدَة: وأُراه قد تقدم في الهمز. قال أبو الدقيش: اللامُ القُرْبُ. وقال أبو خيرة: اللامُ من قول القائل لام، كما يقولِ الصائتُ أيا أيا، إذا سمعت الناقة ذلك طارت من حِدّة قلبها؛ قال: وقول أبيّ الدقيش أوفقُ لمعنى المتنكّس في البيت لأنه قال:

ويكادُ من لامٍ يطيرُ فؤادُهـا　　　إذا مَرّ مُكّاءُ الضُّحى المُتَنَكِّسُ).(٥٢)

إذن، نحن أمام عدةً معانٍ لكلمة لام في هذا البيت: الشدة، الهول، القرب، أو هو، كما يخبرنا أبو خيرة، صوت محدد ينبه الناقة أو يخيفها. ومنطق ما قلناه يجعلنا أقرب إلى ما يقول أبو خيرة. فعندما يصيح مكاء الضحى، يردد صاحب الناقة صوتا يقال له (لام) يشبه صوت (أيا أيا)، الذي يحذر الناقة ويخيفها. ويبدو أن صيحة اللام هذه في الأصل صيحة طقسية تهدف إلى منع الأذى ورده. وقد علمنا أن تغريد المكاء، في وقت محدد

ما، أمر مرعب. يقول الشاعر:

إذا غرد المكاء في غير روضه   فويل لأهـل الشاء والحمرات

والبيت، مع ذلك، بحاجة بعد إلى فك بعض مغمضاته. فلماذا يوصف المكاء بالمتنكس، وما معنى ذلك؟ نحن لا ندري بالضبط. ونظن أن تفسير هذا البيت، وعدد من أمثاله التي تتعلق بالمكاء الطائر سوف تساعد على توضيح ديانة العرب في الجاهلية.

التصدية والحية

لدينا صوت يقلد صوت المكاء، كانت الجاهلية تطلقه على الصفا، ولدينا ترجيع (تصدية) لهذا الصوت، كان يطلق على المروة، في الجهة المقابلة، كما نفترض. فأي صوت هو إن لم يكن صفقا بالأيدي؟

نحن نفترض أن هذا الصوت المصدّي هو صوت الحية، أي كشها وفحيحها. فمقابل النغمة العالية لصوت المكاء، نغمة القمة، تنطلق نغمة القرار، نغمة الحية الفحيحية الواطئة الجشاء، التي تشبه الصدى. ومقابل الطائر في (قمة) الشجرة، هناك الحية (الواطئة) على الأرض عند جذع الشجرة نفسها. وسوف يتضح لنا هذا بوضوح أكبر لاحقا. إنهما نغمتا الكون المركزيتان: الصيفية الفيضية العالية، والشتوية غير الفيضية الباردة. وللبرهنة على أن للتصدية علاقة وطيدة ما بتصويت الأفاعي وفحيحها نأخذ قول الشاعر:

من المتصدّيات بغيـر سوء   تسيل إذا مشت مشي الحباب.

مفرد المتصديات متصدية. ويقول لسان العرب عن المتصدية في تعليقه على البيت: (يعني الحية).[٥٣] عليه، فالمتصديات هن الأفاعي والحيات. والواحدة منهن: متصدية. وهذا يعني أن ثمة رابطا لغويا شديد القوة بين التصدية والمتصديات، إذ يجمعهما جذر واحد. ومن الصعب أن نمنع نفسنا من الافتراض أنها سميت متصدية لأنها تصدّي، أي تطلق صوتًا مثل الصدى. يضيف الزبيدي في تاج العروس: (الصُّدَّاد...: الحية، عن الصاغاني).[٥٤]

إذن، فالحية هي (المتصدية)، وهي (الصُّداد)، أي الذي يصدّ ويرد.

أكثر من هذا، لدينا تعبير شائع في العربية يقول: صمّي ابن الجبل. يقول ابن سيدة في المخصص: (وقال أبو رياش: بَنَات صَمَام: الدّواهي. ابن السّكيت: صَمِّي ابْنَةَ الجَبَل: يقال عند الأمر يُسْتَفْظَع، وقال: أرادوا بابنة الجبل: الصَّدَى).[٥٥] إذن، فالصدى، أي ترجيع

twitter @baghdad_library

الصوت، يدعى: ابنة الجبل. غير أن لسان العرب يعود فيقول لنا أن ابنة الجبل تعني أيضا: الحية، وليس فقط صدى الصوت. يقول في تعليقه على الأبيات: بدلت من وائل وكندة عدوان وفهما، صمّى ابنة الجبل/ قوم يحاجون بالبهام ونسوان قصار، كهيئة الحجل:

(أُنوّه كما يُنوه بابنةِ الجبل، وهي الحية).[56]

أما الجاحظ في الحيوان فيقول: (ومن أمثالهم: صَمِّي صَمَام، وَصَمِّي ابْنَةَ الجبل، وهي الحيَّة).[57] ويزيد الزمخشري في ثمار القلوب: (ابنة الجبل: ومعناه الصدى يجيب المتكلم بين الجبال... ويقال: إن ابنة الجبل الحية أيضا).[58] ويزيد الميداني في مجمع الأمثال: (ابنة الجبل، الصدى، وهو الصوت يجيبك من الجبل وغيره. والداهية، يقال لها ابنة الجبل أيضاً. وأصلها الحية فيما يقال).[59]

إذن، فابنة الجبل هي اسم للصدى والحية معا. أي أن ترجيع الصوت والحية لهما نفس الاسم: الصدى. ولا نظن أن هذا صدفة. وعليه فليس غريبا أن تكون (تصدية) الجاهلية تقليدا لصوت الحية. فصوت الحية يبدو كما لو أنه صدى لصوت أصلي. إنه ترجيع مثل الصدى، وهو في التقليد الجاهلي صدى واهٍ لصوت المكاء، الذي يمثل النغمة العليا للكون.

عليه تكون شعيرة الجاهليين شعيرة قائمة على تقليد صوت المكاء، ذي النغمة العالية، نغمة القمة، وصوت الحية، ذي النغمة الواطئة، نغمة القرار. أي أن صلاتهم كانت تقليدا لنغمتي الكون المركزيتين: القمة والقرار، الصوت والصدى.

ليس أمر التصدية، إذن، أمر تصفيق بل أمر فحيح كفحيح الحية.

وفي مختصر ابن كثير ما يوحي بأن الجاهليين كانوا يتسمعون لصوت خفيض بعيد. يقول: وقال ابن جرير عن ابن عمر في قوله: {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية} قال: المكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وعن ابن عمر أيضا انه قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون. ويبدو أنهم كانوا يضعون خدودهم لسماع صوت النغمة الواطئة، صوت الحية. أو كانوا يتسمعون لصدى صوت المكو الذي ترده الأرض، فيأتي ضعيفا واهيا كما لو أنه حية.

ولا شك أن هذه الحية هي التي تطوت في أساس الكعبة عند بنائها، كما سنرى في وقت لاحق. ولأن الصدى صوت أخفض من المكو، فإن المروة (جبيل صغير) أصغر من جبل الصفا. فالصفا يمثل النغمة العالية للكون، في حين أن المروة يمثل النغمة الواطئة. وهذا يعني أن مجوز الريح على الصفا هو الصنم الذي يمثل نغمة العالم الصيفية العالية،

في حين أن مطعم الطير على المروة ممثل لنغمة الكون الشتوية الواطئة.

لكن إذا كان مطعم الطير يساوي الحية، فليس غريبا أن تكون الحية، دوما، طعاما لطائر في العديد من القصص. فهي، بشكل ما، طعامه ومأكله. إنها (مطعم الطير)!

العداء بين الحية والمكاء

ذلك أن التناقض بين النغمة العالية والنغمة الواطئة، بين الصوت والصدى، يظهر كعداء مستحكم بين المكاء والحية. فحين تحل النغمة العالية الصيفية، ممثلة بالمكاء الطائر، تندحر النغمة الواطئة الصيفية، ممثلة بالحية. وقد أوردنا من قبل قصة المكاء الشيباني وحية الطائي، التي تعكس هذا الصراع. وثم قصص كثيرة عن هذا العداء المستحكم. يقول لنا التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة:

(وحدث ابن الأعرابي عن هشام بن سالم، وكان من رهط ذي الرمة، قال: أكلت حية بيض مكاء، فجعل يشرشر على رأسها ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها تريده، وهمت به، ألقى في فيها حسكة، فأخذت بحلقها حتى ماتت. وأنشد أبو عمر الشيباني:

إن كنت أبصرتني قلا ومصطلما فربما قتل المكاء ثعبانًا).(٦٠)

ويقول لنا الدميري نقلا عن القزويني: (المكاء من طير البادية يتخذ أفحوصا عجيبا. وبينه وبين الحية عداوة، فإن الحية تأكل فراخه).(٦١)

إذن، فثم عداء مرير بين الطرفين. هذا العداء موجود في القصص السومرية الأكادية، وعلى الأخص في أسطورة (إيتانا والنسر). فالنسر والحية يقيمان في شجرة الصفصاف- الخلاف. ثم يختلفان فتنشأ الحرب بينهما:

(فتح النسر فمه وقال للحية:/ تعالي نعقد اتفاقا فيما بيننا/ تعالي لنصبح شركاء أنا وأنت/

.../ وأمام البطل شمس أديا قسميهما..../ وبعد أن أديا قسميهما أمام شمس/ وبعد أن انتصبا وتسلقا الحبل معا، صار/ حمل في مسكنهما، ومعا ولد لهما فراخ/ كان ذلك تحت ظل شجرة/ صفصاف حيث ولدت الحية/ بينما فوقها كانت ولادة النسر).

أما في نص آخر للأسطورة فقد ورد الأمر كما يلي: (في رأس شجرة ولد للنسر فراخه/

بينما كانت الحية تلد تحت الصفصافة نفسها/ وفي ظل شجرة الصفصاف هذه/

twitter @baghdad_library

النسر والحية يأتيان كحليفين/ ويقسمان على أن يكون الواحد/ بالنسبة للآخر أخا).

غير أن النسر يخرق المعاهدة:

(لكن النسر قرر التهام صغار الحية/ .... ونزل وأكل صغار الحية/ وعادت الحية في المساء عندما زال النهار/ ... نظرت الحية إلى الجحر فلم يعد موجودا/ وانحنت فوقه فلم تجد صغارها/ وبأظافرها حفرت عندئذ التراب/ ومن الجحر كانت دوامات الغبار عندئذ تظلم السماء).(٦٢)

وعليه، فقد كانت فراخ الحية (طعاما) لأولاد النسر. لقد كانت (مطعم النسر)، أي أنها كانت مطعم الطير. وتعطينا المصادر العربية أدلة قوية أخرى على علاقة العداء بين الحية والطائر. يقول محمد ابن إسحق في السيرة النبوية عن ترميم الكعبة في الجاهلية:

(وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من الروم فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها. وكان بمكة رجل قبطي نجار، فتهيأ لهم في أنفسهم في بعض ما يصلحها. وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها مما يهدى لها كل يوم، فتشرف على جدار الكعبة. وكانت مما يهابون. وذلك أنهم زعموا قلما كان يتقرب من بئر الكعبة أحد إلا احزألت وكشت، وفتحت فاها فكانوا يهابونها. فبينما هي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله عز وجل عليها طائراً لا يدرون ما هو فاختطفها من متشرفها، فذهب بها).(٦٣)

ويكرر ابن الأثير في الكامل في التاريخ الرواية ذاتها، مع شيء من الاختصار:

(وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة، وكان لا يدنو منها أحد إلا كشت وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينما هي يوماً على جدار الكعبة اختطفها طائرٌ فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله عز وجل قد رضي ما أردناه).(٦٤)

أما الأزرقي في أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، فيقول:

(فلما جمعوا الحجارة وهموا بنقضها، خرجت لهم حية سوداء الظهر، بيضاء البطن لها رأس مثل رأس الجدي تمنعهم كلما أرادوا هدمها، فلما رأوا ذلك اعتزلوا عند المقام وهو يومئذ في مكانه اليوم ثم قالوا: ربنا أردنا عمارة بيتك فرأوا طائراً أسود ظهره، أبيض بطنه، أصفر الرجلين أخذها فجرها حتى أدخلها أجياد).(٦٥)

إذن، فلدينا هنا طائر وحية. الطائر في الأعالي، والحية في الأسفل تحرس بئر الكعبة وما يوضع فيه من تقدمات ونذور. الحية والطائر يدخلان المسرح معا دوما. وأغلب

الظن أن الطائر هو المكاء عدو الحية. والطائر والحية هنا هما صاحبا شعيرة (المكاء والتصدية). لقد اختطف الطائر الحية، وحل الصيف محل الشتاء، حل الكون الفائر محل الكون البارد. حل الخمر محل القمح. لكن العكس يحدث أيضا حين ندخل في النغمة الشتوية الواطئة، فالحية هي التي تبتلع الطائر أو فراخه، وهكذا. الطائر في الأعالي، لذا فهو يمثل النغمة العالية، والحية في الأسفل، لذا فهي تمثل النغمة الواطئة. ليس ذلك فحسب، بل إن طبقة صوت الطائر عالية، وطبقة صوت الحية سافلة واطئة.

لكن يبدو أن علينا الآن أن نذهب إلى إله مكي جاهلي آخر غريب مرتبط بالكعبة، لعل له علاقة بالحية وتصديتها.

ذو بكة

نعرف أن لمكة أكثر من اسم، أشهرها (بكة) الذي ذكر في القرآن: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾. وقد حاولت المصادر العربية القديمة أن تفك لنا لغز هذا الاسم، فتوصلت إلى أن نقشا مفترضا عثر عليه في الكعبة يحل لها مسألة هذا الاسم. يقول ابن اسحق في السيرة النبوية: (حدثنا أحمد: يونس عن زكريا بن أبي زائدة عن عامر الشعبي قال: حدثني من قرأ في أسفل المقام أو في تختجة في سقف البيت: أنا الله ذو بكة، بنيته على وجه سبعة أملاك حنفاء، باركت لأهله في اللحم، والماء، وجعلت رزقهم من ثلاثة سبل).[٦٦] ويقول الأزرقي في أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: (ووجد في الحجر كتاب من خلقة الحجر أنا الله ذو بكة الحرام، وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشباها. مبارك لأهلها في اللحم والماء).[٦٧]

أما ابن الضياء في تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام، فينقل عن ابن إسحق: (أن قريشاً وجدت في الركن كتاباً بالسريانية وفيه: «أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض إلى آخره». وعن الزهري قال: إن قريشاً حين بنوا الكعبة وجدوا فيه حجراً وفيه ثلاثة صفوح؛ في الصفح الأول: «أنا الله ذو بكة صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر» إلى آخر كلام ابن إسحاق المتقدم في الفضائل. وفي الصفح الثاني: «أنا الله ذو بكة خلقت الرحم واشتققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته»[٦٨]

أما النويري فيروي الخبر عن ابن عباس أن النقش يقول: (أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السموات والأرض والشمس والقمر، ويوم صغت هذين الجبلين، وحففتها

twitter @baghdad_library

بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها، مبارك لأهلها الماء واللبن).(٦٩)

بناء على كل هذه المقتبسات، فثم إله في مكة يعلن عن نفسه بوضوح قائلا إن اسمه هو: ذو بكة. وهكذا فقد بدا وكأن اللغز قد حل. فثم إله يدعى: ذا بكة، وثم مدينة تدعى بكة، أخذ اسمها من اسم الإله. لكن الأمور ليست بهذه السهولة، في الحقيقة. إذ بناء على هذه الفرضية يبدو أن الإله هو من اشتق اسمه من اسم المدينة، لا العكس. فهو المنسوب إليها: (ذو بكة)، وليست هي المنسوبة إليه. ثم ماذا تعني كلمة (بكة)؟ وهل حقيقة أن هذا الاسم في الأصل هو اسم للمدينة؟ رواية ابن اسحق تشير إلى أن الحرم هو الذي يدعى بكة. إذ يورد أن النقش الذي وجد (في أسفل المقام أو في تختجة في سقف البيت) يقول: (أنا الله ذو بكة، بنيته على وجه سبعة أملاك حنفاء). ومن الواضح أن كلمة (بنيته) تعني بنيت الحرم لا المدينة. ولدينا نصوص أخرى تؤكد لنا أن بكة هي موضع البيت بشكل خاص. إذ ينقل ياقوت الحموي في معجم البلدان عن: (يحيى بن أبي أنيسة: بكة موضع البيت، ومكة الحرم كله). يضيف ياقوت: (وقال آخرون: بكة موضع البيت، وما حول البيت مكة).(٧٠)

بالتالي، فبكة ليس اسم المدينة في الأصل، بل اسم البيت، أو الحرم في الأصل. وحين يقول القرآن (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) فيبدو أنه يؤكد هذا الاستنتاج. فالبيت هو الذي يدعى بكة لا المدينة. لذا علينا أن نسأل: لماذا سمي البيت (بكة)؟ وما معنى هذا الاسم؟

حاولت المصادر العربية أن تجد معنى ما لاسم (بكة) من خلال البحث في الجذر اللغوي. فالجذر بك يعني: دق العنق. يقال: بك عنقه، أي دقها دقا. كما يعني الزحم والازدحام. يقال: بك فلانا يبكه، أي زحمه وزاحمه ودفعه. كما يعني أيضا الإذلال ووضع الكرامة. يقال: بككت الرجل، إذا وضعت منه ورددت كرامته. كذلك قد يعني الجماع الشديد. يقال: بك الرجل المرأة إذا نهكها في الجماع. من هذه المعاني اختارت المصادر العربية اثنين من أجل تفسير الاسم بكة. فقيل: إنما سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم. وقيل: لأن الناس تبك بعضها بعضا فيها، أي تزحم بعضها بعضا، انطلاقا من زحمة الحج فيما يبدو.

وليس لنا أن نغفل معاني الجذر بالتأكيد. فكل كلمة مركزية في أسطورة أو طقس هي خلية أولى تحمل في ثناياها كل المعاني التي تتعلق بالأسطورة. إنها، أي الكلمة، مثل الـ(دي إن إيه) الذي يحمل الصفات الوراثية. لكننا بحاجة إلى أكثر من معاني الجذر، حتى نتقدم ونستفيد من هذه المعاني.

على كل حال، ما هو واضح لنا، بناء على النقش المفترض، أن هناك إلهًا ينسب نفسه إلى شيء يدعى (بكة). فهو (ذو بكة) على غرار (ذي الخلصة). لكن الفارق أننا نعرف أن ذا الخلصة منسوب إلى شجرة محددة خاصة به (الخلصة)، في الأغلب، في حين أننا لا نعرف بعد شيئا عن بكة التي ينسب إليها هذا الإله.

ولا نريد أن نطيل في هذا الموضوع، بل سنقدم استنتاجنا مباشرة. هذا الاستنتاج يقول إن (ذا بكة) هو إله أوزيريسي الطابع، وإنه سمي (ذا بكة) لأنه مرتبط ببئر تدعى (بكة)، تسكنها حية محددة، كما هو الحال مع أوزيريس المصري. فعرش أوزيريس في أبيدوس في مصر يقوم على بئر أو شق في الصخر، تذهب إليه أرواح الموتى، على ظهر حية ما، ويدعى: بك، بق، بقا، أو ما شابه. يحدثنا ولاس بدج في كتاب الموتى عن مدينة أبيدوس التي أخذت اسمها من اسم أوزيريس، وكانت عاصمة المنطقة الثامنة في مصر العليا، ومركز عبادة أوزيريس في مصر العليا، وكان يعتقد أن هذا الإله مدفون فيها: إذ (يرى التقليد المصري أن الشمس تنهي رحلتها اليومية في أبيدوس، ثم تدخل إلى (توت)، من شق في الجبال يدعى عند المصريين (بق، بك). هذه الجبال تقع بالقرب من المدينة. وفي الأسرة الثانية عشرة فقد اعتقد أن أرواح الموتى تجد طريقها نحو العالم الآخر، من خلال الوادي الذي بين هذه الجبال، إلى أوزيريس العظيم، حيث يقول البعض إن هناك حقول الإليزية {الجنة}).[٧١] لكن بك، بق، يتظاهر أحيانا كجبل. تقول ترنيمة مصرية:

(أنا أعرف جبل بكو الذي تستقر فوقه السماء. إنه من صخرة تي-يات، التي طولها ٣٠٠ رود وعرضها ١٢٠ رود... وهناك حية على حافة ذلك الجبل... أنا أعرف اسم تلك الحية. «حية الجبل التي يمكن أن تقلبه»، هذا هو اسمها).[٧٢]

وهكذا فلدينا شق في الصخر، أو خسفة، تحت الأرض يدعى (بق، بك) تذهب إليه أرواح الموتى، كي تلتقي هناك بأوزيريس. وهذا يعني أن أوزيريس هناك عند هذا الشق أو فوقه. أي أنه صاحب هذا الشق أو الخسفة. إنه ذو بقة أو ذو بكة. وهناك حية غريبة في داخل هذا الشق. وهو يتظاهر كجبل لأن أوزيريس في مظهريه الصيفي والشتوي، يتظاهر كجبلين جنوبي وشمالي، مع ميلان ما عن المحور الجنوبي الشمالي. ونظن أن لهذين الجبلين علاقة بجبلي مكة، اللذين يدعيان بالأخشبين. وسوف نناقش أمر الأخشبين في موضع آخر.

وفيما يخص الشق، فنحن نعلم من المصادر العربية أن ثم بئرا، أو خسفة، في جوف الكعبة كانت توضع فيها النذور، وأن هبل قد أقيم فوقها. هذه البئر تنحدر إليها أرواح الموتى، كما نفترض. أو قل تُبك فيها أرواح الموتى، أي تزحم وتدفع. وقد أوضحت لنا

twitter @baghdad_library

المصادر العربية أن حية كانت تقيم بالفعل في هذه البئر. ومن الواضح أن حية البئر هذه، التي تحرس النذور والهدايا حسب المصادر العربية، كانت في الأغلب، أيضا، هي التي تنقل الموتى على ظهرها كما يقول التقليد المصري الفرعوني أو أنها تمثل هذه الأرواح، بشكل ما. يقول لنا ابن اسحق في السيرة النبوية عن هذه الحية، التي منعت أهل مكة من إعادة بناء الكعبة:

(وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها مما يهدى لها كل يوم، فتشرف على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون، وذلك أنهم زعموا قلما كان يتقرب من بئر الكعبة أحد إلا احزألت وكشت، وفتحت فاها فكانوا يهابونها).[٧٣]

وهذه الحية قديمة جدا. فقد وجدت يوم بنى إبراهيم الكعبة كأول بيت. وكل معبد أوزيريسي هو بيت أول، مشابه للبيت الأصلي في السماء. والمصادر العربية تعطينا اسم هذه الحية: (السكينة). واسمها يدل على أنها تمثل السكون والقرار. يقول لنا لسان العرب نقلا عن آخرين: (وروى الأزهري بإسناده عن خالد بن عروة... أن إبراهيم حين أَمر ببناء البيت ضاق به ذرعاً، قال: فبعث اَلله إليه السكينة وهي ريح خجوج لها رأس فتطوَّقت بالبيت كطوق الحَجَفَةِ، ثم استقرَّت، قال: فبنى إبراهيم حين استقرّت).[٧٤] أما الطبري في تاريخ الرسل والملوك فيقول: (فبعث الله عز وجل ريحاً يقال لها ريح الخجوج، لها جناحان ورأس في صورة حية، فكنست لهما ما حول الكعبة على أساس البيت الأول)[٧٥]، وهناك وضع الأساس.

ويقول الدميري في حياة الحيوان الكبرى: (فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت، وهي ريح خجوج لها رأسان، شبه الحية، وقيل: الخجوج الريح الشديدة الهفافة البراقة، لها رأس كرأس الهرة وذنب كذنبها، ولها جناحان من در وزبرجد، وعينان لهما شعاع... فتطوقت السكينة على موضع البيت، كتطوق الحية).[٧٦] وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:

(وهي ريح خجوج، فتطوقت حول البيت كالحجفة... وقال ابن قتيبة: الخجوج من الرياح: السريعة المرور.... قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، وهي بعد ريح هفافة، أي خفيفة سريعة، والحجفة: الترس).[٧٧]

إذن، هي حية شهيرة جدا. فهي من أشار إلى موقع بناء الكعبة. كما أنها تطوت فبنيت الكعبة فوقها. وهي حية- ريح، أو حية تشبه الريح، تسمى السكينة. هذه الحية مرتبطة ببئر الكعبة. والإله ذو بكة يقيم عرشه، مثل أوزيريس، فوق البئر بحيته. وهو ذو بكة، أي

ذو البئر، كما أنه ذو الحية، لأن البئر والحية يمتزجان معا، فكأنهما كائن واحد. وهذه الحية تشبه الحية التي تكون تحت عرش أوزيريس، والتي تنقل أرواح الموتي إلى العالم الآخر في الديانة المصرية الأوزيرسية. ومن المؤكد أنها هي الحية التي (تصدي)، أي حية (التصدية) في الآية القرآنية: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾. إنها حية النغمة الواطئة، حية السكينة والقرار، أي رمز النغمة الواطئة، نغمة القرار الكوني، نغمة الموت. وثم رابط شديد الأهمية بين حية (السكينة) وبكة أو بقة. يخبرنا لسان العرب بأن: السكَينة أيضا اسم البقّة التي دخلت في أنف نمرود بن كَنْعان الخاطئ فأكلت دماغَه.

وإذا كانت حية السكينة على علاقة بذي بكة، فإنه يمكن لنا أن نفهم الآية القرآنية ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾. ذلك أن النبي إبراهيم وضع، بالفعل، أسس البيت الأول فوق الخسفة- الحية، التي هي بكة، أو رمز الإله ذي بكة. إذا كان هذا صحيحا، فإن شيئا يجسد النغمة العالية يَجب أن يكون في الكعبة من الأعلى. ومن أجل هذا فإن طقس المكاء والتصدية، الذي كان يتم على الصفا والمروة، كان يمارس في الكعبة، فيما يبدو. ذلك أن نغمتي الكون الأساسيتين، تنطرحان أفقيا على الصفا والمروة، حيث العالية على الصفا، أي نغمة مجوز الريح، والواطئة على المروة، أي نغمة مطعم الطير. وهاتان النغمتان تنطرحان عموديا في الكعبة، حيث النغمة الواطئة- الحية تكمن أسفل البئر، في حين أن النغمة العالية فوق البئر حيث وضع هبل، الأمر الذي يشير إلى أن هذا الصنم على علاقة بالنغمة العالية، في غالب الأمر، وسوف نناقش أمر هبل في وقت لاحق.

والحق أن الدميري في حياة الحيوان الكبرى يقول لنا إنه كان مع النبي إبراهيم حين بنى الكعبة حية وطائر، أي النغمة العليا والسفلى: (قيل: لما خرج إبراهيم... من الشام، لبناء البيت، كانت السكينة معه والصرد، فكان الصرد دليله على الموضع، والسكينة بمقداره. فلما صار إلى موضع البيت، وقفت السكينة في موضع البيت، ونادت: ابن يا إبراهيم على مقدار ظلي).(٧٨) السكينة هي الحية. أما الصرد فهو مثيل المكاء، أي ممثل النغمة العليا، المقابلة للنغمة الواطئة للسكينة- الحية. وقد كان الاثنان يوم بنى إبراهيم الكعبة.

وثم ما يدل على أن الصرد طائر مقدس. فقد ورد في لسان العرب عن آخرين أنه: نُهِي المحرم عن قَتْلِ الصُّرَد. وفي حديث آخر: نَهى النبي، صلى الله عليه وسلم، عن قتل أَربع: النملة والنَحلة والصُّرد والهدهد. ولا نريد هنا أن نشوش بحثنا بالحديث عن

twitter @baghdad_library

العلاقة بين (السكينة) وبين (شكينة) الأدب الرابيني العبري، التي تواجدت في تابوت العهد. لكن يمكن الإشارة إلى أنها هي السكينة العربية أسفل الكعبة.

إذن، فثم شق أو خسفة تحت الكعبة فيه حية، أي بالضبط كما هو الحال في أبيدوس. إذن، فالإله الذي يرتبط بهذا الشق وهذه الحية، أي ذو بكة، هو إله أوزيريسي الطابع.

حمر الأبك

ولدينا طراز غريب من الحمر، لم تستطع المصادر العربية فهمه تماما أو إلقاء ضوء كاف عليه، هو: (حمر الأبك). وقد ورد الاسم في أرجوزة لقُطَيَّة بنت بِشر الكلابِية:

جَرَبَّة من حُـمُرِ الأَبَـكّ   لا ضَرَعٌ فيها ولا مُـذَكِّي

والجربة هي العانة، أي جماعة الحمر البرية، أو السائبة، كما تخبرنا المصادر العربية. يقول مرتضى الزبيدي في تاج العروس: (هكَذا أَنشده ابن الأعرابي، وزعم أن الأبك هنا جماعة الحمر تبك بعضها بعضا... قال ابن سيدة: ويضعف ذلك أن فيه ضربا من إضافة الشيء إلِى نفسه، وهذا مستكره، وقد يكون الأبك، هنا الموضع).(٧٩)

ابن الأعرابي يرى أن البك هنا من الزحم. لكن ملاحظة ابن سيدة عن إضافة الشيء إلى نفسه تلغي هذا التفسير. لأنه إذا كانت الأبك تعني جماعة الحمر التي تزحم بعضها، فإن النسبة تصبح كما لو أنها حمر الحمر! عليه فقد اقترح أن الأبك هنا مكان محدد. وهو اقتراح أخف وطأة من اقتراح ابن الأعرابي، لكنه لا يحل المشكلة. فأين هو هذا المكان، ولماذا سمي الأبك، ولماذا تشتهر حمره بالذات بأنها (لا ضرع فيها ولا مذكى)؟ هذا ما لا إجابة عليه عند ابن سيدة. وقد ذهب ياقوت في المعجم هذا المذهب: (الأبك: بتشديد الكاف، هو موضع يقول الراجز فيه: جرَبة من حُمُـرِ الأبـك/ لا ضَرَع فيها ولا مُذَكي).(٨٠)

نحن نعتقد أن هذه الحمر على علاقة بذي بكة، وان هذا الطراز من الحمر حيوانه المقدس، وأنها بالتالي في حماه.

وفي سياق محاولاتها تفسير اسم الكعبة الثاني، أي (بكة)، ربطت المصادر العربية بين هذا الاسم، وبين (البك) الذي يعني كسر الأعناق في اللغة. يقول الزمخشري في أساس البلاغة عن مكة- بكة: وسميت بكة لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة، إذا ألحدوا فيها بظلم. ويضيف الأزهري في تهذيب اللغة: وقيل: إنما سميت بكّة لأنها تبكُّ أعناق

الجبابرة. ونحن نعتقد أن لكسر الأعناق بالفعل علاقة بالأبك. إذ يبدو أن التضحية له بحيواناته، أي حمر الأبك، كانت تتم عبر دق عنقها، على عكس الأضاحي الأخرى. لذا فالأبك تعني: الشديد البك، أي كاسر الأعناق الشديد. ولدينا من التوراة دليل على أنه كان يتم التضحية بالحمير عن طريق كسر العنق: (لي كل فاتح رحم. وكل ما يولد ذكرا من مواشيك بكـرا من ثور وشـــاة. وأما بكر الحمار فتفديه بشاة. وإن لم تَفدِه تكســر عنقه.)[٨١] بكسر العنق، إذن، يضحى بالحمار، كما يعلمنا سفر الخروج.

أكثر من هذا، فلدينا تصوير مصري لحية ضخمة تدعى (آكل الحمار). وفي الصورة ترتفع الحية كي تقبض على الحمار من أصل عنقه. أي أنها تكسر عنقه. وهذه الصورة دليل قوي جدا على أن الأبك- ذا بكة يرتبط بالحية كما قدرنا من قبل. كما أنه دليل على ارتباطه بالحمار بشكل ما، أيضا.



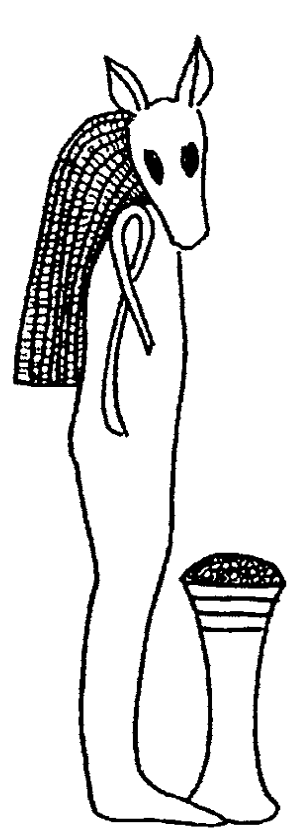
آكل الحمار، تصوير من بردية آني

وفي بردية آني، هناك فصل يدعى (دفع آكل الحمار إلى الخلف): (عساني أسحق آكل الحمار). ويقول للحية آكلة الحمار: (اتركي الحمار، لعلني أجد سماوات صافية عندما أعبر إلى العالم السفلي في قارب نشمت). فالحمار هو أوزيريس. والحية تمثيل لأوزيريس في موته الشتوي. وأكلها للحمار أوزيريس تعبير عن هذا الواقع. ولا يجب أن يغرنا ما يبدو من تناقض بين الحمار والحية. ذلك أن تحول الآلهة في قرارهم الشتوي

twitter @baghdad_library

إلى أفاع، يصور أحيانا على أنه موت بلسعة حية. ولأن الحمار تمثيل لأوزيريس الميت، ففي فصل ترنيمة إلى رع من بردية آني يقول الكاتب آني: (عساني أسحق الحمار)، أيضا. سحق الحمار تعبير عن الرغبة في عودة أوزيريس إلى الحياة، على الطور الفيضي.

وبهذا يمكننا أن نفهم لم يصور عمود (جد) المرتبط بأوزيريس بالقرب من حمار في بعض المصورات المصرية.[٨٢] إذ سوف نرى أن (جد) يرتبط بأوزيريس النغمة العالية، في حين أن أوزيريس النغمة الواطئة يرتبط، فيما يبدو، بالحمار.



الحمار يقف إلى جانب عمود جد، عمود أوزيريس

عليه، يصير مفهوما لنا معنى جملة (حمر الأبك). إنها حمر الأبك، ذي بكة، الذي يتماهى مع الحية، ويأخذ ضحيته بكسر عنقها. ولدينا دليل لغوي آخر على ارتباط الحمير بجذر (بك). فسفاد الحمير بالذات يدعى (البوك). يقال: باك الحمار الأتان، على حسب لسان العرب. ويقول لنا الجاحظ في الحيوان: ويقال في الخيل: كامها يكومها. وكذلك في الحافر كله. وفي الحمار وحده: باكها يبوكها بوكا. ومن الصعب على المرء ألّا يربط هذا بالأبك وبذي بكة.

فوق هذا كله، فإن الحمار يدعى (السكين) بالعربية. يقول لسان العرب: والسكينة أَيضا اسم البقة التي دخلت في أَنف نمْرود بن كَنْعان الخاطئ فأَكلت دماغَه. والسُّكَيْن: الحمار الوحشي.

تمام!

السكينة الحية التي تطوت تحت الكعبة تدعى بقة (أي بكة). والسكين هو الحمار. وهكذا تجمع لنا الثلاثي في سطر واحد: السكينة- بكة أو بقة- الحمار!

غير أننا بحاجة إلى أن نذهب إلى الأساطير السومرية الأكادية. فهناك سنجد المكاء وذي بكة. وهناك سنجد تأكيدا قويا آخر على ارتباط ذي بكة هذا بحية محددة. أما الأسطورة التي سنختارها فهي أسطورة شجرة إنانا، شجرة الصفصاف.

إنانا وشجرة الصفصاف

تبعا للأسطورة السومرية، فقد أطاحت رياح الجنوب بشجرة الصفصاف (خلبو)، أي (الخلاف) بالعربية، فحَمَلتها مياه الفرات، ورمتها عند قدمي إنانا. أخذت إنانا الشجرة، وزرعتها في حديقتها. كبرت الشجرة جدا، لذا لم تستطع إنانا أن تقطعها لتصنع منها كرسيها (عرشها) وسريرها. ثم جاءت ثلاث كائنات غير مرغوبة وعششت عليها:

(فعند أصلها بنت حية سامة، عشها/ وفي قمتها وضع طائر الزو فراخه/ وفي المنتصف أقامت ليليث بيتها/ العذراء الصارخة دوما {؟؟} والتي يدخل صوتها الفرح في كل قلب/

إنانا الطاهرة، عندها، بكت/ حتى مطلع الفجر، ومع مطلع الفجر ظهر جلجامش/

سمع جلجامش بكاء إنانا الطاهرة: أخبريني لم يذرف هذا الجمال مثل هذه الدموع؟/

أجابت إنانا: حدث في يوم من الأيام/ بعد أن خلقت السماء والأرض والإنسان/ وبعد أن استراح آنو في السماء/ وبعد أن استراح إنليل على الأرض/ وبعد أن دفعت آرشيغال إلى العالم السفلي/ وبعد أن أبحر خالق (؟؟) العالم إلى العالم السفلي/ بعد أن أبحر أنكي حاكم العالم السفلي/ أنه كان هناك بَرَد للملوك/ وأنه كان هناك شهب لأنكي/ وانفجرت عاصفة، وسقط المطر على قارب الملك/ كما يسقط ابن آوى على فريسة/

انفجرت صاعقة، وسقط مطر إلهي على قارب أنكي/ كما يهجم أسد على فريسة/ وفي العاصفة هوت شجرة الخلبو {الصفصاف}/ على ضفاف الفرات/ ونمت البذور شجرة بعد أن غرقت/ مياه الفرات/ في يوم العاصفة، قلعت الريح الجنوبية/

twitter @baghdad_library

جذور الشجرة/ وحين انهارت الشجرة/ سقطت في الفرات، الذي حملها/

على شاطئ الفرات مشت سيدة تحترم كلمات آنو/ ومن على الشاطئ أخذت تلك السيدة شجرة الخلبو/ السيدة سحبت الشجرة من المياه/ جلبت السيدة الشجرة إلى أوروك مدينة إنانا العظيمة/

وكما هو مكتوب: إلى حديقة إنانا الطاهرة سوف تجلبينه)

وهكذا فعلت السيدة:

(وضعت السيدة يديها على الشجرة وأقامتها/ وأعلنت السيدة: سوف أصنع كرسيا مكرسا للآلهة من هذه الشجرة/ نعم، كرسيا أجلس عليه وأسبح الآلهة/ ومن هذه الشجرة سوف أصنع سريرا أضطجع عليه وأسبح الآلهة/ كانت الشجرة ضخمة لدرجة أنها لم تتمكن من قطعها لكي تفعل ما وعدت به/ في أصل الشجرة أقامت حية سامة عشها/ وفي قمتها بنى طائر الزو عشه/ وبين أغصانها بنت ليليث عشها/ إنانا، التي يدخل صوتها الفرح في كل قلب، بكت الآن يائسة/ وعند سماع كلماتها قال جلجامش:/ سوف أساعدك يا أختي، فأنا أخوك)

ثم بسلاحه:

(سحق الحية عند أصل الشجرة

وفي قمة الشجرة هرب طائر الزو مع فراخه نحو الجبال/ ونقضت ليليث بيتها وهربت إلى الصحاري/ وبمساعدة شباب المدينة سحب بعضا من تاج الشجرة/ وأعطى جلجامش التاج لإنانا الطاهرة لكي تصنع منه كرسيها الإلهي/ وأعطي جلجامش الجذع لإنانا لكي تصنع منه سريرها/ ومن أصلها صنع جلجامش لنفسه بكّو/ ومما تبقى من التاج صنع لنفسه مكو)(٨٣).

وتترجم جملة (أعطى جلجامش...) عند البعض أحيانا (وأعطت إنانا...). إذن، فبعد أن سحق جلجامش الحية، وهرب الطائر وليليث، منحته إنانا حق أن يصنع آلتين هما: مكو وبكو.

مكو وبكو!

وبسبب عدم إدراك الباحثين للأسطورة البابلية (والعربية أيضا)، فقد تحولت كلمتا (بكو و مكو) إلى لغز عند المترجمين وعلماء السومريات عموما. فليس من اتفاق بينهم على ما تعنيان بدقة. لكن الرأي الراجح أنهما آلتان موسيقيتان. أما نوعهما فلا اتفاق عليه أيضا. غير أن الغالبية تفترض أنهما طبل ومقرعته، أي عصاه التي يُضرب بها. وهناك من

يرى استنادا إلى حديث النص عن جلجامش وشباب المدينة أن هذا المقطع:

(يشير إلى مقارعة بين جلجامش والفتيان، وأن البكو والمكو هما في الواقع من أدوات القراع أو التباري)[٨٤] من نوع لعبة البولو وغيرها.

لكن بناء على ما عرضناه بشأن المكاء الطائر والإله (ذي بكة)، فإن لغز الاسمين يصبح محلولا. ذلك أن كل عين تستطيع أن ترى التوافق بين المكاء وذي بكة من جهة، وبين (مكو و بكو) من جهة ثانية! فمكو هو النغمة العالية، التي يرمز لها طائر المكاء بصفيره، وبكو هي النغمة الواطئة التي على علاقة بالبئر وحيته، أي على علاقة بذي بكة. ولأن مكو تمثل النغمة العالية، فقد صنعها جلجامش من أعلى الشجرة حيث كان يقيم طائر الزو، الذي هو شبيه المكاء. ولأن بكو تمثل النغمة الواطئة، القرار، الصدى، فقد صنعها جلجامش من أصل الشجرة حيث كانت تقيم الحية. عليه فمكو = الطائر، وبكو = الحية.

وهكذا تمكنت المصادر العربية من أن تحل لغزا سومريا. لكن النص السومري ساعدنا أيضا على حل لغز عربي. فبناء على (بكو) السومرية نستطيع أن نتأكد أن الإله ذا بكة المكي مرتبط بالحية. فآلة (بكو) صنعت من جزء الشجرة الذي كانت تكمن عنده الحية.

الكون، إذن، شجرة على قمتها المكاء- الزو- مكو، وطقس المُكَاء على علاقة بالقمة. وفي أسفلها بكو- ذي بكة- الصدى، وطقس التصدية مرتبط بالقرار، والقمة مرتبطة بمجوز الريح، بينما القرار مرتبط بمطعم الطير.

أما المنتصف حيت (ليليث) فسوف نتحدث عنه لاحقا.

ولا بد لنا هنا من أن نثير انتباه القارئ إلى أن جلجامش سحق الحية عند قاعدة الشجرة، وأن الخباز قد قتل في قصة يوسف، وأن مطعم الطير ذبيح في الأصل في الأسطورة العربية. وهذا يعني أن القطب المضاد، أي (التصدية) يعني الموت والسكون والهدوء. فثم عداء بين القطبين المتضادين ينتهي بهدوء الثاني وسكونه أو موته.

إذن، لدينا إله ذو مظهرين، واحد يمثله طائر هو المكاء، وآخر تمثله حية. واحد يمثل نغمة الكون السريعة العالية، وآخر يمثل النغمة الواطئة. واحد يمثل الصوت، والثاني يمثل الصدى. إنه طائر وحية في نفس الوقت. هذا الإله أوزيريسي الطابع بكل تأكيد. وهو على الأغلب الإله (كنب) المصري، الذي يساوي (كنوبوس) اليوناني. و(كنب) هذا، الذي سنعرض له لاحقا، كان يصور على شكل حية برأس طائر:

(فهذا الحيوان {الثعبان، الحية} لا يموت موتا طبيعيا، بل يموت بضربة عنيفة فقط.

twitter @baghdad_library

ويسميه الفينيقيون «الإله الشيطان». وبالمثل، يسميه المصريون «كنب»، ويضيفون له رأس صقر، بسبب قوة الصقر. أبيس «الذي يدعى بالكاهن والكاتب المقدس، والذي ترجمه إلى اليونانية آريوس هيراكليبوليس، يتحدث عنه... بالقول: «الأول والأكثر سموا بين الآلهة هو حية برأس صقر»).[٨٥]

حية برأس صقر. وهذا هو الإله الذي نتحدث عنه بالضبط. أعلاه طائر وأسفله حية.

مناة ومطعم الطير

وتعطينا بعض المصادر العربية ما من شأنه أن يجعلنا نفترض علاقة ما بين الصنم مناة وبين مطعم الطير. يقول لنا ابن الضياء في تاريخ مكة والمسجد الحرام:

(وأما مناة، وكانت صخرة لهذيل وخزاعة، فأول من نصبها عمرو بن لحي على ساحل البحر مما يلي قديد. وكانت الأوس والخزرج وغسان من الأزد، ومن دان دينها من أهل يثرب وأهل الشام، كانوا يحجونها ويعظمونها. فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا رؤوسهم إلا عند مناة. وكان يهلون لها. ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة مكان الصنمين اللذين عليهما، وهما نهيك مجاور الريح ومطعم الطير. وكان هذا الحي من الأنصار يهلون بمناة).[٨٦]

وكان هناك نقاش بين المسلمين حول السعي بين الصفا والمروة. فهناك من كان يرى عدم وجوبه. لكن يبدو أن هذا كان يخص الأوس والخزرج بالذات. فقد كانت تقاليد الجاهلية تسمح لهم بعدم الطواف بين الصفا والمروة. فلما جاء الإسلام يبدو أنهم ظلوا على ذلك إلى أن نزل في القرآن ما يلزمهم بالسعي. هذا ما يفهم من الخبر الذي ينقل عن عائشة في صحيح البخاري: "حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾. فلا أرى على أحد شيئا ألّا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: كلا، لو كانت كما تقول فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار: كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾"[٨٧].

لكن ما يهمنا هنا هو: لماذا يرخص لمن أهلّ لمناة أن يسعى بين الصفا والمروة، أي بين مجوز الراح ومطعم الطير؟ ولماذا كان الأوس والخزرج يتحرجون أن يسعوا بين الصفا والمروة؟

من الصعب علينا أن نجد إجابة عن هذا السؤال إلا إذا افترضنا أن لمناة علاقة ما بمطعم الطير. فمن كان يتعبد لمطعم الطير، الذي يعني الموت والسكون والفتور والشتاء، يعتقد أن السعي ينتهي عنده ويقر. وبذا فهو ليس بحاجة إلى الانتقال بين الصنمين الصفا والمروة، أي الانتقال من النغمة العالية إلى النغمة الواطئة. وقد ظلت بقايا هذا التقليد قائمة حتى بعد الإسلام، الأمر الذي جعل الأوس والخزرج يتحرجون من السعي بين الصفا والمروة.

إذن، فمناة هو مثل مطعم الطير ممثل النغمة الواطئة الشتوية الساكنة، ولا يلزم لعابديه التردد بين النغمة الخمرية الصيفية الملتهبة الحية وبين النغمة الواطئة الساكنة. من أجل هذا فاسم مناة يحمل في أحد جوانبه معنى الموت. فمناة والمنية، أي الموت والقدر، من جذر واحد. وهذا يعني أن قريشا وجملة كبيرة جدا من العرب كانوا يتعبدون للإله في مظهريه، على عكس الأوس والخزرج الذين كانوا، فيما يبدو، يتعبدون للإله في مظهره الشتوي، أي مناة.

وأغلب الظن (هذا الحي من الأنصار) الذي يتحدث عنه الخبر، والذي يتعبد لمناة، على علاقة بمطعم الطير كما هم (بنو مطعم الطير) البطن القبلي الذي ذكرناه من قبل. وأغلب الظن أيضًا أن عباد مطعم الطير ومناة هؤلاء كانوا لا يشربون الخمرة. فالخمرة لأتباع مجوز الراح، وليست لهم. وسوف نناقش مسألة الذين لا يشربون الخمر لاحقا.

ولدينا دليل من قصة أسطورية على أن مناة إله شتوي قار. ولعله الدليل الوحيد المباشر الذي ورد في المصادر العربية على طبيعة مناة. فمن تقاليد العرب:

(أن الرجل كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك، نحو: ثعلب وثعلبة، وضب وضبة، وخزز، وضبيعة، وكلب... وكذلك أيضا تسمي بأول ما يسنح أو يبرح لها من الطير نحو: غراب وصرد، وما أشبه ذلك... وأخبرنا السَّكَن بن سعيد، عن العباس بن هاشم، عن المسيَّب التميمي قال: خرج تميمُ بنِ مُرٍّ وامرأته سَلمى بنت كعب تمخّض، فإذا هو بوادٍ قد انبثق عليه لم يشعُرْ به، فقال: اللَّيل والسَّيل! فرجع وقد ولَدْت غلاماً، فقال: لأجعـلنّه لإلهي، فسماه زيد مناة... ثم خرج وهي تمخض فإذا هو بمُكَّاء يغرِّد على عَوسَجةٍ قد يبس نصفُها وبقي نصفُها، فقال: لئن كنتِ قد أثريتِ وأسريتِ لقد أجحدتِ وأكدَيْتِ. فولدت غلاماً فسمَّاه الحارث، وهم أقلُّ تميمٍ عدداً)[٨٨]

twitter @baghdad_library

هذه القصة الأسطورية شديدة الأهمية. فهي قد تعطينا معلومة قيمة عن طبيعة مناة. ذلك أن تميما خرج باحثا عن إشارة كي يسمي ولده. وحين رأى السيل سمى ابنه زيد مناة. أي أعطاه اسما مرتبطا بمناة. وهذا يعني أن مناة مرتبط بالأمطار والسيول، أي أنه إله ذو نغمة شتوية قارة. ولو لم يكن مناة مرتبطا بالسيول والأمطار، لما كان من معنى لتسمية ابنه حين رأي السيل باسم مرتبط بمناة. فالسيل رمز هذا الإله. وقد اندفع السيل فجأة، ومن دون أن يشعر به، كإشارة له إلا أن ابنه يجب أن يكرس لهذا الإله. لهذا سماه على اسم هذا الإله، ونذره له. وحين خرج تميم خرجة أخرى ليسمي ابنا جديدا وجد أمامه طائر المكاء فسمى ابنه (الحارث). وهذا يدل على أنه يمكن وضع علامة يساوي بين المكاء والحارث: المكاء= الحارث. عليه، فالطائر المكاء رمز لإله يدعى الحارث. ولأن هذا الإله مرتبط بالمكاء فهو إله أوزيريسي ذو نغمة صيفية عالية. وسوف نتعرض للحارث هذا لاحقا.

وهذه الحكاية وأمثالها نموذج ممتاز للسرد الأسطوري وألاعيبه اللغوية. فهو يريد أن يقنعنا أنه سرد واقعي. لكن العين المدربة تستطيع أن تدرك أنها أمام سرد أسطوري. أما العوسجة التي يبس نصفها بينما بقي النصف الآخر أخضر فربما تكون رمزا للصيف والشتاء. لكن هناك احتمال لأن تكون رمزا للمكاء. فالمكاء يدعى بالأخرج. والأخرج هو ذو اللونين. وسمي بذلك لأن به بلقا، أي أنه يخلط سواده ببياضه. كما أن جملة (خرج خرجة) ذاتها ربما تكون على علاقة بخرج المكاء.

وإذا كان مناة على علاقة بمطعم الطير، فإن من المنطقي أن يكون نظيره مجوز الريح على علاقة باللات. وهكذا نكون قد وصلنا إلى هذه النتيجة:

مجوز الريح- المكاء- مكو مرتبط باللات

مطعم الطير- الحية- بكو مرتبط بمناة

إن صح هذا تكون اللات هي (ليليث) شجرة إنانا. وسوف نتعرض للعزى وليليث في مكان آخر.

إساف ونائلة

تظل عندنا نقطة بحاجة إلى توضيح؛ تتعلق بـ (إساف ونائلة)، الحبيبين الفاسقين، اللذين سفحا في الكعبة فمسخا حجرين. إذ يقول لنا عدد من المصادر العربية إنهما نصبا على الصفا والمروة، حيث تتم شعيرة السعي. مثلًا يقول ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق مثلا:

(وكان عند الصفا والمروة صنمان من نحاس، أحدهما يقال له: إسافٌ، والآخر نائلة. وكان المشركون إذا طافوا بهما قالوا: تمسحوا بهما)[٨٩] ويضيف العصامي في سمط النجوم العوالي: وكان إساف على الصفا، ونائلة على المروة.

لكن هناك ما يكفي من الدلائل أن هذا خلط. فمجوز الراح ومطعم الطير هما من نصبا على الصفا والمروة، ومن سعى بينهما الناس. أما إساف ونائلة فقد نصبا في مكان ما في الكعبة. يقول ابن الأثير في الكامل: (فأخذ عبد المطلب بيده {يد عبد الله} ثم أقبل إلى إساف ونائلة، وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما)[٩٠].هذا الخبر يدل على أن الصنمين كانا عند الكعبة، قرب بعضهما بعضا، لا بعيدا عن بعضهما بعد الصفا والمروة.

ويضيف المسعودي في مروج الذهب: (ونشأ عمرو بن لحى فساد قومه بمكة واستولى على أمر البيت، ثم سار إلى مدينة البلقاء من عمل دمشق من أرض الشام، فرأى قوماً يعبدون الأصنام، فسألهم عنها، فقالوا: هذه أرباب نتخذها: نستنصر بها فننصر، ونستسقي بها فنسقى، وكلما نسألهم نعطى، فطلب منهم صنماً يدعونه هُبَلَ، فسار به إلى مكة، ونصبه على الكعبة ومعه إساف ونائلة، ودعا الناس إلى تعظيمها).[٩١] وحسب هذا الخبر، فالصنمان ليسا في الكعبة فقط، بل فوقها أيضا. أما اليعقوبي في تاريخه فيخبرنا بأنهم:

(وضعوا... إساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف، إذا طاف، بدأ بإساف، فقبله، وختم به، ونصبوا على الصفا صنما يقال له مجاور الريح، وعلى المروة صنما يقال له مطعم الطير).[٩٢]

وهنا، فالصنمان يحتلان ركني البيت، بينما يحتل مجوز الريح ومطعم الطير الصفا والمروة. ويقول ابن هشام في سيرته نقلا عن ابن إسحق: قال ابن إسحاق: واتخذوا إسافا ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما. أما ابن الجوزي في المنتظم فيقول: (فنصب { عمرو بن لحي} إسافا مقابل الركن الأسود... ونصب نائلة إليه جانب البيت وتجاه المقام).[٩٣]

كل هذه الأخبار تؤكد أن إسافا ونائلة كانا في الكعبة، لا على الصفا والمروة. ونحن نعتقد أن إسافا ونائلة هما المبدآن الأولان المذكر والمونث، أي أنهما اسمان آخران لسهيل والشعرى، أي أوزيريس وإيزيس. واسم نائلة بالذات على علاقة لفظية بنجم (النيلام)، الأوسط في نجوم حزام الجوزاء. أما مجوز الريح ومطعم الطير على الصفا

twitter @baghdad_library

والمروة فيمثلان وجهي الإله الأوزيريسي بنغمتيه العالية والواطئة. فهما مظهرا الإله الذكر، الذي يعادل إسافا. والسعي بينهما هو تمثيل للانتقال من النغمة العالية للواطئة، من الصيف للشتاء، أي للانتقالات الفصلية. أما الطواف حول إساف ونائلة، فهو طواف حول الكعبة، أو حولهما في الكعبة، أي حول الإله الذكر والإلهة الأنثى. لذا نحب أن نصنع تفريقا واضحا بين السعي والطواف؛ فالسعي لمجوز الراح ومطعم الطير، أما الطواف فلإساف ونائلة، وأشباههما من الآلهة، رغم أننا نعرف أن الناس تسمي السعي طوافا، أحيانا. وفي ظننا أن الطواف دوران حول الشيء. في حين أن السعي مشي بين الصنمين على الصفا والمروة. ولم يكن الحاج الجاهلي يطوف حول الجبلين بل يسعى بينهما.

الكارج

اعتقدنا، كما قلنا من قبل، أن عباد مطعم الطير لم يكونوا شراب خمر، لأن إلههم غير خمري. كما أننا افترضنا أن أتباع مناة أيضا لا يشربون الخمر، من خلال الصلة التي بدت لنا بين مطعم الطير ومناة. ويبدو لنا أن الإله النبطي (شيع القوم) على علاقة بمطعم الطير وبمناة. فهو مثلهما إله لا يشرب الخمر بالتأكيد. فقد جاء في نقش تدمري كتبه نبطي: (هذان الهيكلان أقامهما عبيدو بن غانمو... لشيع القوم، الإله الطيب المجازي، الذي لا يشرب الخمر).(٩٤)

وقد قيل الكثير الذي لا معنى له عن عدم شربه الخمر من قبل الباحثين الغربيين. إذ افترض أن هذا الإله يمثل بدوا محافظين لا يشربون الخمر. وهذا تفسير أكثر من ساذج حقا. لكن بعضهم قارن ، عن حق، بين شيع القوم وبين إله يدعى ليكورج. يقول رينيه ديسو: (وصف لنا نونوس الشاعر المصري {القرن الخامس الميلادي} الحرب الشعواء التي شنها ملك خرافي من ملوك العرب يدعى ليكورغ... على ديونيزوس إله الخمر عند اليونان... ويبدو أن مقابلة هذا الإله الإغريقي بالإله شيع القوم تعد مقابلة لا بد من الأخذ بها. لكن كيف بدّل الاسم العربي حتى أصبح ليكورج؟ من العسير أن نبدي رأيا قاطعا في ذلك). (٩٥)

ليكورغ (ليكورجوس)، إذن، عدو ديونيسوس الخمري، أي أنه عدو الآلهة الخمريين، آلهة النغمة الصيفية العالية. وهذا يعني أنه إله قمحي، أي أنه ممثل النغمة الشتوية القمحية الباردة. لذا فمساواته بشيع القوم الإله الذي (لا يشرب الخمر) صحيحة. وهذا ما يجعل

ليكورج وشيع القوم آلهة مثل مناة ومثل مطعم الطير. ولأن ليكورغ إله عربي كما يقول نونوس، فليس من العيب الذهاب إلى اللغة العربية لمحاولة تفسير اسمه. وحين نذهب إلى هذه اللغة سنجد أن جذر كرج يرتبط بالخبز. يقول لسان العرب: الكارِج: الخبز المُكَرَّج، يقال: كرجَ الخبز وأكرج وكَرج وتكرج أي فَسد وعلاه خضرة. ويقولَ الأزهري في تهذيب اللغة عن، ثعلب عن ابن الأعرابي: الكارج: الخبز المكرّج، يقال: كرج الخبز، وأكرج، وكرّج، وتكرَّج. ويضيف ابن فارس في مقاييس اللغة عن الخليل: عشّش الخبز، إذا كرَّج. وقال غيره: عشّ فهو عاشّ، إذا تغير ويبس. وقد نفترض أن الخبز الفاسد هنا تعني غير المختمر، أي الفطير. ذلك أن الصراع بين الصيف والشتاء هو صراع بين الاختمار وعدم الاختمار. فالصيف يخمر عصير العنب، ويجعله خمرا ونبيذا، والشتاء لا يخمر، أو أنه بطيء التخمير، أي يظل الخبز فيه فطيرا. عليه يكون اسم الإله في الأصل (الكارج) أو (الكراج)، أي الخباز، مثل الخباز الذي عرفناه في قصة سجيني النبي يوسف. إنه الإله الخبزي القمحي في مواجهة الإله الخمري. الخبز في مواجهة الخمر. الشتاء في مواجهة الصيف. والخمر والخبز هما وجها أوزيريس. وقد أعلمنا ديدوروس أن أوزيريس هو الذي علم الناس كيف يزرعون الكرمة، وكيف يبذرون القمح والشعير. عليه، فلم يبدل الاسم العربي شيع القوم إلى اسم غير عربي هو ليكورج. فالاسمان معا عربيا النجار. والتحريف اليوناني لاسم (الكارج) إلى ليكورغ هو ما جعله غير مفهوم.

شيع القوم

وإذا صحت مساواة (شيع القوم) بمطعم الطير، فهو ليس إله قوافل مطلقا، أي ليس إلها للقمر كما تظن الغالبية. ولعل البعض ربطه بالقمر بناء على ربطه (شيع) بالجذر (شع) الذي يعني أضاء. أما ربطه بالقوافل فيبدو أنه ناتج عن أن جذر شيع يعني المرافقة واللحوق والمتابعة. ومن هنا جاءت كلمة التشييع للموتى، فالناس يتبعون جنازة الميت ليودعوه. وقد افترض الباحثون فيما يبدو أن الناس يتبعون إله القمر المفترض (شيع القوم) في رحلاتهم الليلية، أو أن هذا الإله هو من يرافقهم ويشيعهم.

وفي أغلب الظن فإن (شيع القوم) على علاقة بطراز من آلات النفخ. ذلك أن (الشياع) بالعربية هو مزمار الراعي على وجه الخصوص؛ لذا نفضل أن نقرأ اسم هذا الإله على أنه (شياع القوم) وليس (شيع القوم). يقول لسان العرب عن معنى شياع: (وقيل لصوت الزمارة شياع لأن الراعي يجمع إبله بها؛ ومنه حديث علي: أمرنا بكسر الكوبة والكنارة والشياع؛ قال ابن الأعرابي: الشياع: زمارة الراعي. ومنه قول مريم {عن الجراد}: اللهم

twitter @baghdad_library

اسقه بلا شياع، أي بلا زمارة راع).[96]. ويضيف ابن الأثير المحدث في النهاية في غريب الحديث والأثر: (وفي حديث مريم عليها السلام: أنها دعت للجراد فقالت: اللهم أعشه بغير رضاع وتابع بينه بغير شياع، بالكسر: الدعاء بالإبل لتساق وتجتمع. وقيل لصوت الزمارة شياع، لأنه الراعي يجمع بها إبله: أي تابع بينها من غير أن يصاح بها).[97] بل إن الزبيدي في تاج العروس يخبرنا أن الأصل في شياع أنه منفاخ الراعي: (ومنه قول مريم عليها السلام: اللهم اسقه بلا شياع، تعني الجراد، أي بلا زمارة راع. وفي «الأساس»: هو منفاخ الراعي، سمي به لأنه يصيح به على الإبل فتجتمع. الشياع: صوته. وهذا ينقله الجوهري: وأنشد: حنين النبيب تطرب للشياع).[98]

ومعنى هذا أن الشياع في الأصل صوت بوق أو منفاخِ الراعي، والذي كان يتمثل في القدم بقرن غنم. يقول لسان العرب: (والشِّياع: صوت قَصبة ينفخ فيها الراعي).[99] على هذا يكون صوته هو نقيض صوت المكاء- مجوز الراح.

إذا صح هذا، فربما كان علينا أن نفترض أن الجزء الثاني من اسمه (القوم) لا تعني الناس، القوم، أو الشعب أبدا، بل مأخوذة من جذر (قمأ) العربي، بمعنى صغر وضؤل. أي أن اسم الإله هو (شياع القمء) أو (شياع القم) بالتسهيل، وليس (شيع القوم). وهذا يعني: المزمار القميء أو الصغير، أو المنفاخ الصغير، أو الصوت الصغير، أو النغمة الصغيرة الواطئة، نغمة القرار، في مقابل المزمار الكبير ذي النغمة العالية، أي المكاء وشبيهاته. ويجب ألّا تخدعنا كتابة الاسم السائدة هكذا: (شيع القوم)، ذلك أنه يقرأ على عدة طرق. يقول لنا د. جواد علي: (جاء في كتابات نبط مدائن إله عرف شيع هقوم، شع هقم، هشع هقم، شيع ها قوم، شيع القوم).[100] وسوف نتحدث عن الإله (شيع القوم) بتفصيل أكبر فيما بعد.

على كل حال، فإن وجود أفراد عرب باسم (شيع اللات) ينسف نظرية من قال إن شيع القوم إله للتجار والقوافل. فليس معروفا عن اللات أنه إله تجار أبدا. كما أنه ليس بالتأكيد إلهًا للقمر. ونحن نظن أن اسم شيع اللات اسم قديم جدا، وأنه منحدر من لغة من لغات الجيزة إلى العربية، وأنه في الأصل (شياع اللات)، أي مزمار اللات.

مني وجد

وبما أن للإله الذي نتحدث عنه مظهرين، خمري وغير خمري، فإن علينا أن نشير هنا إلى شخصيتين توراتيتين هما (مني وجد) لهما علاقة بالخمرة قد تفيد في تأكيد ما

توصلنا إليه. جاء في سفر أشعيا: (أما أنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسي ورتبوا للسعد الأكبر {«جد» في الأصل العبري} مائدة وملأوا للسعد الأصغر {«مني» في الأصل العبري} خمرا ممزوجة، فإني أعينكم للسيف وتجثون كلكم للذبح لأني دعوت فلم تجيبوا. تكلمت فلم تسمعوا بل عملتم الشر في عيني وأخرتم ما لم آمر به).[١٠١]

من الواضح أن ترجمة دار الشرق الأوسط هذه ترجمة دينية لا تأخذ بعين الاعتبار الدقة. وقد استندت إلى التفسيرات المتداولة لكلمتي (مني) و (جد). فقد افترض أن (جد) هنا تعني الحظ أو السعد. لكن الغريب أن (مني) ترجمت أيضا إلى سعد أصغر، رغم أن السائد أن تربط بالمعنى العربي الذي يعني القدر. لكن الوضع التقاطبي بين (جد) و(مني) في الآية هو الذي جعل المترجمين يتحدثون عن سعد أصغر وأكبر. فالفقرة توحي بقوة بوجود قطبين، أو كفتي ميزان. وقد انطلق د. جواد علي في المفصل من الترجمات السائدة ليقول:

(وقد ذكر مني Meni مع جد في العهد القديم. والظاهر أن كلمة جد كانت مصدرا، ثم صارت اسم علم لصنم. وذكر مني مع جد له شأن كبير من حيث معرفة الصنمين. فالأول هو لمعرفة المستقبل وما يكتبه للإنسان من منايا مخبآت لا تكون في مصلحة الإنسان، والثاني، وهو جد، لمعرفة المستقبل الطيب والحظ السعيد... فهما إذن يمثلان جهتين متقابلتين).[١٠٢]

الدكتور جواد علي يأخذ الترجمة السائدة، ويحاول أن يعدلها انطلاقا من فهمه للعربية. فجذر (مني) يعني: المنية والقدر، أي أنه ليس ثمة حظ أو سعد؛ لذا جعل من (مني) شيئا يرتبط بالقدر السيئ. مع ذلك، فقد أدرك د. جواد علي أهمية ارتباط جد مع مني لفهم طبيعتهما معا. كما أنه أدرك أنهما يمثلان نقيضين أو (جهتين متقابلتين)، أو كفتين متقابلتين.

ونحن نعتقد أن (مني) نظير مناة العربي، ونظير الإله (مين) المصري؛ لذا يجب إبقاء اسمه في الجملة كما هو (الذين قدموا الخمرة لمني). أما (جد) فنعتقد بقوة أنه هو عمود أوزيريس الذي يدعى (جد) باللغة المصرية القديمة. وهو عمود شهير جدا، ويرمز لأوزيريس في اندفاعته الصيفية، أو في قمة اندفاعته الفيضية التي تأتي قبيل الخريف. وقد عرف الإله (جد) لدى شعوب الجزيرة العربية. فقد ورد اسمه في المصادر العربية. يخبرنا د. جواد علي أن (هناك أسماء أصنام لم ترد في كتاب الأصنام. وقد ذكرها ابن الكلبي في بعض مؤلفاته. ومن هذه الأصنام:... الكسعة، المدان، ومرحب، ومنهب، والهبا، وذات الودع، ويااليل، وذريح، وباجر، والجد... ونهيك).[١٠٣] كما (ورد في

twitter @baghdad_library

الأسماء العربية «عبد جد» و «عبد الجد»).[١٠٤] وحفظت لنا (النصوص الثمودية أسماء جملة آلهة... منها الإله ود، وجد هدد، وشمس، وعزيز، ونعر جد)[١٠٥]. ويبدو لنا أن الاسم (نعرجد) مركب تركيب تماه وتساو، أي أن نعر فيه يساوي جد. وهذا يعني أنهما اسمان لذات الإله. وتماهي نعر مع جد مهم وكاشف لطبيعة جد. ذلك أن نعر فيما يبدو إله فيضي. فجذر نعر يعني الفيض والسيلان الشديد. يقول لسانِ العرب: النَّاعور: عِرْق لا يرقأ دمه. ونعرَر الجرح بالدم ينعر إذا فار. وجرح نعّار: لا يرقأُ. ونعر العرقُ ينعر نعرا أَي فار منه الدم. عليه فلا بد أن يكونَ جد أيضا إله فيضي نعار، أي يشبه النيل في طوره الفيضي.

كذلك نعرف (جد عوض. وقد تعبد له الصفويون).[١٠٦] ويكتب اسمه أحيانا جد عوذ. و(جد عوذ هو إله معروف مشهور عند الصفويين... كما ورد «جد ضيف» «جد ضف»)[١٠٧].

وعوض هو الذي قال فيه الشاعر حسب الزبيدي:

(حلفتُ بمائرات حول عَوْض وأَنصاب تركن لَدى السَّعير.

وعَوْض والسَّعير: صنمان)[١٠٨].

ويزيد الزبيدي نقلا عن ابن هشام الكلبي أن عوض كان (لبَكْرِ بْن وَائِلٍ). أما السعير فـ: (صَنَم كان لعَنَزَةَ خَاصَّةً، كما في الصّحاح).[١٠٩] ولأنه ربطَ بجد فلا بد أن يكون عوض إلهًا صيفيا. ومن المحتمل أن السعير مقابله، أي أنه إله النغمة الشتوية القارة اللافيضية. واسمه يشير إلى النار، نار البرق الشتوية.

لكن ما يجب أن نشير إليه هنا هو التقابل بين مني وجد في موضوع الخمرة. فالآية التوراتية تعتبر أن تقديم الخمرة لمني هو نوع من الإثم: (أما أنتم الذين تركوا الرب... ورتبوا لجد مائدة وملأوا لمني خمرا ممزوجة، فإني أعينكم للسيف وتجثون كلكم للذبح).

لقد صب هؤلاء الخمر لمني، ورتبوا مائدة لجد. لقد عكسوا الأمر. فالخمر كان يجب أن يقدم لجد؛ لذا غضب الله عليهم. الخمر لجد شبيه مجوز الريح، في حين أن المائدة كان يجب أن ترتب لمني. فمني هو شبيه مناة. ومناة عديل مطعم الطير، الذي لا يشرب الخمر. إنه مرتبط بالمائدة لا بالخمر، مثله مثل مطعم الطير الذي تأكل الطير من رأسه، أي الذي يقدم مائدة الطير على رأسه. لقد جرى قلب الأمور تماما من قبل هؤلاء، فباءوا بغضب عليهم: (عملتم الشر في عيني وأخرتم ما لم آمر به). هنا سبب

الغضب الإلهي: التأخير. فقد أخروا الخمر فصبوها لمني، في حين أنها كان يجب أن تصب وتقدم لجد.

كل هذا يدعم ما افترضناه من علاقة بين الإله مناة وبين مطعم الطير. كما يدعم فرضيتنا التي تقول إن مناة لم يكن يشرب الخمر، مثله مثل مني وشيع القمء والكارج.

وربما كانت القصة التي أوردها هيرودوتس عن ملكة مصرية ساواها بـ(نيتوكريس) البابلية تؤيد ذلك:

(وكان اسم تلك الملكة مطابقة لاسم الملكة البابلية نيتوكريس. وأخبروني أنها ورثت العرش بعد مقتل أخيها على يد رعاياه، وهم الذين نصبوها على العرش.... فدعت إلى مأدبة... وكان ضيوفها من تأكد لديها ضلوعهم في مقتل أخيها. ولما جلس هؤلاء إلى المائدة وانشغلوا بالطعام أعطت الخدم الإشارة، ففتحوا بوابة تدفقت منها مياه النهر فغمرت المكان، فأخذ الضيوف بالمفاجأة وماتوا غرقا).[١١٠]

من الواضح أن هذه الملكة تشبه إيزيس، وأن أخاها القتيل أوزيريس. وقد رتبت مائدة لأعدائه وقتلتهم. ذلك أن المائدة تعني الموت. وهذا يذكر بالعشاء الأخير للمسيح مع تلامذته. فترتيب العشاء كان إيذانا بغياب المسيح.

التسليع

أخيرا، لدينا في الديانة الفارسية، التي لديها نقاط مشتركة مع ديانة العرب قبل الإسلام، ما يدعم فرضيتنا القائلة بأن النغمة الواطئة الشتوية مرتبطة بالتصدية، أي طقس الترديد والترجيع الذي كان يتم على المروة. يخبرنا جيمس فريزر في الغصن الذهبي:

(اعتاد الفرس أن يحتفلوا بعيد للنار يدعى Sada أو Saza في الانقلاب الشتوي. ففي أطول ليلة في السنة يشعلون نارا في كل مكان، ويعمد الملوك والأمراء لعقد عشب جاف في أقدام الطيور والبهائم، ثم يشعلون النار في العشب، ويطلقون الطيور والبهائم لتركض مشتعلة في الحقول والجبال، بحيث تبدو الأرض والسماء جميعا مشتعلة).[١١١]

نحن نعتقد أن التوافق اللغوي بين عيد Sada (صدا، صادا) الفارسي، وبين طقس التصدية العربي المرتبط بالحية- الصدى، ليس مصادفة أبدا، بل أصيل جدا، ونابع من أن (صدا) و (التصدية) يشيران إلى الطقس ذاته. والعيد الفارسي يدعم فكرتنا القائلة بأن التصدية مرتبطة بالنغمة الشتوية، على عكس المُكَاء المرتبط بالنغمة الصيفية العالية.

twitter @baghdad_library

وسوف نرى لاحقا أن هناك صنما من أصنام قوم عاد يدعى (صداء، صدا). ومن المؤكد أنه على علاقة بالتصدية، وعلى علاقة بعيد (صدا) الفارسي.

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن احتفال النار الفارسي (صادا، صدا) هذا كان يمارس عند عرب الجاهلية أيضا، فيما يعرف بطقس (التسليع) أو (المسلعة)، الهادف إلى الاستمطار. فعندما لا تجود السماء بأمطارها كان العرب يفعلون فعل الفرس بالضبط. يقول الجاحظ في الحيوان:

(ونار أخرى، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية الأولى؛ فإنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطار، استجمعوا وجمعوا ما قَدروا عليه من البقر، ثم عقَدوا في أذنابها وبين عراقيبها، السَّلَع والعُشر، ثم صعدوا بها في جبلٍ وعر، وأشعلُوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرع، فكانوا يروْن أن ذلك من أسبابِ السُّقيا). ثم يذكر لنا قول الشاعر الورل الطائي:

لا درَّ درُّ رجال خاب سعيهم ... يستمطرون لدى الإعسار بالعشر

أجاعل أنت بيقوراً مسلّعة ... ذريعة لك بين الله والمطر؟

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:

(وكانت العرب إذا أجدبت وأمسكت السماء عنهم، وأرادوا أن يستمطروا، عمدوا إلى السلع والعشر فحزموهما وعقدوهما في أذناب البقر، وأضرموا فيها النيران، وصعدوها في جبل وعر، واتبعوها يدعون الله ويستسقونه. وإنما يضرمون النيران في أذناب البقر، تفاؤلا للبرق بالنار، وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات).(١١٣)

ويزيد لسان العرب: (العرب كانت في الجاهلية إذا استسقوا جعلوا السَّلَعَةَ والعُشَر في أذناب البقر، وأشعلوا فيه النار، فتضج البقر من ذلك ويمطرون).(١١٤) ويضيف: (كانت العرب في جاهليتها تأخذ حطب السَّلَع والعُشَر في المجاعات وقحوط القَطر فَتوقد ظهور البقر منها، وقيل: يعلقون ذلك في أذنابها ثم تُلعج النار فيها يستمطرون بلهب النار المشبه بسَنا البرق، وقيل: يضرمون فيها النار وهم يصعِّدونها في الجبل فيمطرون، زعموا).(١١٥)

هذا هو احتفال (صدا) العربي، أي احتفال الانقلاب الشتوي، المرتبط بالتصدية. صحيح أنه لم يردنا أنهم يسمون هذا الاحتفال باسم (صدا)، أو أنهم يربطونه مباشرة بالتصدية، لكن من الواضح أنه مرتبط بطقس التصدية، أي الطقس الذي يرمز إلى الانقلاب الشتوي.

ولا بد أن نذكر هنا أن جذر سلع السامي يعني النار، مما يدل على أن هذا الاحتفال هو احتفال النار الفارسي. يقول لسان العرب: والسَّلَعُ: آثار النار بالجسد. ورجل أسلَع: تصيبه النار فيحترق فيرى أثرها فيه. وسلع جلده بالنار سلعا. ووردت كلمة سلعم بمعنى النار في النقوش الصفوية: (إن س ل ع م هي الاسم المفرد المؤنث النكرة تعني: النار).[١١٦]

وهكذا فقد أكد لنا الطقس الفارسي ما كنا قد افترضناه افتراضا، أي ارتباط التصدية بالانقلاب الشتوي، و بـ (مطعم الطير) في النهاية. كما أنه مكننا من أن نفهم طقس التسليع، الذي كان يبدو فالتا، باعتباره احتفالا بالانقلاب الشتوي، وبالتصدية.

صنما الجنوب والشمال

إذن، فقد توصلنا إلى أن الصنمين، مجوز الريح الذي كان منصوبا على الصفا، ومطعم الطير، الذي نصب على المروة، كانا يشكلان مركزا من مراكز ديانة مكة قبل الإسلام، بل لعلهما كانا مركزها. ونحن نعلم أن الصفا والمروة جبلان في بطحاء مكة، وأن الخط بينهما يمتد من الجنوب إلى الشمال، مع ميلان إلى الغرب. وعلى هذا الخط يكون الصفا جنوبيا والمروة شماليا. ويتساءل المرء إن كان ثم علاقة ما بين هذين الصنمين وصنمين مصريين حدثنا عنهما هيرودوتس:

(خالف بروتيوس رعمسيس الذي عرف بالبوابتين اللتين شيدهما عند أقصى غرب معبد رع والتمثالين المتقابلين اللذين عرفا بارتفاعهما إذ بلغ طول كل منهما ثمانية وثلاثين قدما. ويسمي المصريون التمثال المتوجه نحو الشمال الصيف والآخر المتجه نحو الجنوب الشتاء. والناس هنا يبجلون التمثال الأول وينحنون أمامه، أما الثاني فمسلكهم نحوه نقيض سلوكهم تجاه الأول).[١١٧]

هنا، أيضا، لدينا صنمان: واحد جنوبي وواحد شمالي. الجنوبي يتجه بوجهه نحو الشمال، ويدعى الصيف، والشمالي يتجه بوجهه إلى الجنوب ويدعى الشتاء. وكان المصريون يبجلون الجنوبي وينحنون أمامه، بينما لا يبدون مثل هذا التبجيل للصنم الشمالي.

وللحق، فإن هذا يشبه وضع الصنمين العربيين على الصفا والمروة. فـ مجوز الريح يقع على الصفا، أي أنه جنوبي، في حين أن مطعم الطير يقع على المروة، أي أنه شمالي نسبة لنظيره. ويبدو أنهما كانا يديران وجهيهما نحو بعضهما. أي أن الجنوبي يدير وجهه شمالا، والشمالي يدير وجهه جنوبا. ويبدو أن السعي الجاهلي بين الصفا والمروة

twitter @baghdad_library

كان يكرر هذا. فحين يصعد المؤمن الجاهلي الصفا يدير وجهه شمالًا. أما حين يرقى المروة فيفعل العكس، أي يدير وجهه جنوبًا، نحو الحرم. أما لماذا يبجل الصنم الجنوبي فسوف نرى لاحقا أن الصنم الجنوبي يمثل وجه الكون المتجدد الحي المتحرك، أي يمثل أوزيريس المنبعث الفياض.

ويخبرنا ابن فضل العمري في مسالك الأبصار عن الهرمين الأكبرين أن الصابئة كانت (تحج الواحد وتزور الآخر، ولا تبلغ به مبلغ الأوّل في التعظيم).[١١٨] ويبدو الكلام هنا حديثا يتحدث عن الهرمين الأول والثاني. لكن هناك احتمالا ما، ولو صغيرا، أن يكون قصد الهرمين الأول والثالث. وفي هذه الحال يصبح كلامه قريبًا من كلام هيرودتس: (والناس هنا يبجلون التمثال الأول وينحنون أمامه، أما الثاني فمسلكهم نحوه نقيض سلوكهم تجاه الأول).

رحلة الشتاء والصيف

السعي بين الصفا والمروة طقس جاهلي أبقاه الإسلام بعد أن نقى عنه سياقه الجاهلي الوثني. وفي سياقه الوثني كان السعي بين الصفا والمروة تمثيلا لحركة إله ذي طابع أوزيريسي بين الشمال والجنوب، أي بين الصيف والشتاء، حيث الجنوب هو الصيف والشمال هو الشتاء. فالصفا جنوبي، والمروة شمالي. من أجل هذا فإن سعي الجاهلية بين الصفا والمروة كان يبدأ بهرولة، أو رَمَلًا كما يسمى، أي بطراز من الركض، كي يمثل أوزيريس المتدفق. ثم ينتهي بمشي عادي كي يمثل أوزيريس الشتوي الساكن الهادئ. وعليه، فمؤمنو الجاهلية كانوا بسعيهم يمثلون رحلة الإله بين الصيف والشتاء، بين الجنوب والشمال، أي رحلة الإله بين مظهريه العالي والواطئ. وهي رحلة أوزيريسية. أي رحلة الإله أوزيريس، الذي يمثل الكون، بين نغمتيه: النغمة الصيفية الفيضية القصيرة والنغمة الشتوية وغير الفيضية الطويلة.

ويتساءل المرء إن لم تكن هذه الرحلة على علاقة برحلة الشتاء والصيف القرشية، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.[١١٩]

وموضوع الإيلاف موضوع غامض جدا، رغم كل ما قدمته المصادر العربية عنه. وترى هذه المصادر، في غالبها، أن رحلة الصيف والشتاء هي رحلة مكة التجارية إلى الشام واليمن، وأن الإيلاف هو العهد الذي أخذه هاشم وإخوته من حكام هذه الدول

من أجل تأمين هذه التجارة. وننقل هنا مختصرا قدمه لنا القرطبي في تفسيره حول الموضوع:

(قيل: إن هذه السورة {سورة الإيلاف} متصلة بالتي قبلها {أي سورة الفيل} في المعنى. يقول: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتيها.... وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغار عليها ولا تُقرب في الجاهلية. يقولون هم أهل بيت الله جل وعز؛ حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتا في اليمن يحج الناس إليه، فأهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته. أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم. وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه. ذكره النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمرو بن علي قال: حدثني عامر بن إبراهيم - وكان ثقة من خيار الناس - قال حدثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: «لإيلاف قريش» قال: نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف).[١٢٠]

ويضيف:

(روى أبن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: «إيلافهم رحلة الشتاء والصيف» قال: لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف، مِنةً منهُ على قريش. وقال الهروي وغيره: وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل؛ بنو عبد مناف. فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك الشام؛ أي أخذ منه حبلا وعهدا يأمن به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحبشة. والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. ومعنى يؤلف يجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمون المجيرين. فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يتعرض لهم. قال الزهري: الإيلاف: شبه الإجارة بالخفارة؛ يقال: آلف يؤلف: إذا أجار الحمائل بالخفارة. والحمائل: جمع حمولة. قال: والتأويل: أن قريشا كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع، وكانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين، والناس يُتَخطفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لهم).[١٢١]

لكن روايات أخرى تقصر الرحلتين على الشام واليمن. يقول النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب:

(روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان اسم هاشم عمرا، وكان صاحب

twitter @baghdad_library

إيلاف قريش، وإيلاف قريش: دأب قريش، وهو أول من سن الرحلتين لقريش؛ ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه، ورحلة في الصيف إلى الشام إلى غزة وربما بلغ أنقرة، فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه).[١٢٢]

هذا مختصر أمر الإيلاف. لكننا نشك في أن هذا التفسير يستوفي الأمر. إذ نحدس أن رحلة الشتاء والصيف هي رحلة دينية، لها علاقة بالصنمين مجوز الريح ومطعم الطير في الأساس، أي قبل الإسلام. وهي بالتالي على علاقة بالانقلابين الصيفي والشتوي، أي بنغمتي الكون العالية والواطئة. وخبر القرطبي السابق يحمل ربما إشارة ما إلى ذلك: (عن ابن عباس، في قوله تعالى: «لإيلاف قريش» قال: نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف). فإذا كان الأمر أمر رحلة تجارية بين الشام واليمن، فما الداعي لأن يقال: (كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف)؟

يدعم هذا الشك أن عمرو بن لحي، ويزعم أنه أول من نصب الأصنام للعرب، قال لهم حسب الأزرقي في أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: (إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف، ويشتو بالعزى لحر تهامة).[١٢٣] وهكذا فالرب هو من كان يصيف باللات في الطائف، ويشتو بالعزى في تهامة، وليس أهل مكة فقط. فهل تكون رحلة الشتاء رحلة إلهية رمزية بين الطائف وتهامة، أي رحلة رمزية بين الصيف والشتاء؟

وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا يشتو الرب الذكر في العزى الإلهة، أي في مقرها؟ فالأكثر معقولية أن نفترض أنه يقيم بلات الطائف في الصيف، وبمناة في الشتاء، فمناة تهامي على شاطئ البحر بالمشلل، بين المدينة ومكة. فحين يحل الصيف يكون في اللات بالطائف، وحين يجيء الشتاء يكون في مناة تهامة بالمشلل.

ويمكن، ربما، حل هذا التناقض عن طريق افتراض أن المقصود هو انتقال الإله إلى تهامة عموما، حيث تهامة مقر العزى. ولعل لهذا الأمر علاقة بحج (العمرة) الجاهلي. ذلك أن (زواج العمرة) في اللغة هو الزواج الذي ينتقل فيه الزوج إلى بيت أهل زوجته. وربما يكون أصل حج العمرة الجاهلي يعني هذا: أي انتقال الإله في الشتاء إلى تهامة حيث بيت الزوجة- العزى. وهذا يقتضي أن نفترض أن العمرة كانت تتم في موسم معين في الشتاء.

أما السعي بين الصفا والمروة فهو تمثيل رمزي لهذه الرحلة. إنه، أي السعي، تأليف رمزي بين رحلتي الصيف والشتاء، أي جمع لهما في مكان واحد هو مكة. يقول لسان

العرب: (والمعنى في قوله تعالى لإِيلافِ قريش لتؤلَف قريش الرحلَتين فتتصلا ولا تنقطعا). ويقول الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة: (وكل شيء ضممت بعضه إلى بعض: فقد ألّفته... وقوله عز وجل: «لإِيلاف قريش» من ذلك).[١٢٤] لقد ضمت الرحلتان رمزيا إلى بعضهما في الصفا والمروة.

وقد دعمت المصادر العربية فكرتها حول الرحلات التجارية؛ لأن الآية تتحدث عن إطعام وأمن: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾، رابطة فيما يبدو بين الإطعام والتجارة. لكن هذا تنقضه آية أخرى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾.[١٢٥] في هذه الآية يتضح أن الرزق والأمن مرتبطان بالحرم لا بالرحلات التجارية. وهذا يعني أن الإطعام من جوع والأمن من خوف مرتبطان بالحرم أيضا. لقد ألفت الرحلتان فيه، فصار آمنا ومكانا يتجه إليه الحجيج، وما يتبع ذلك من مجيء الرزق والثمرات. إذن، فالتأليف هو الذي جعل من مكة حرما آمنا وافر الرزق.

ولعل هذا ما جعل حرم مكة مختلفا عن حرم اللات بالطائف ومناة بالمشلل. ففي الطائف يكمن الإله بمظهره الصيفي فقط. وفي المشلل يكمن الإله بمظهره الشتوي فقط. أي ليس هناك من إيلاف. ليس هناك من جمع لرحلتي الإله بين الصيف والشتاء. أما في مكة، في حرم العزى، فقد جمعت الرحلتان، وتوطن الإله بمظهريه الصيفي والشتوي، كي يسعى الناس بينهما، ممثلين رحلة الإله بين الفصول.

ونظن أن لدينا دليلا قويا جدا على أن الإيلاف أمر ديني لا تجاري. فهناك، فيما يبدو، صنم عربي باسم إيلاف ورد في النقوش اللحيانية، حسب د. جواد علي: (وقد ورد اسم الإله «أبا لف» «أبو إيلاف» اسم علم لشخص كان كبيرا على قومه، وذلك في أيام الملك «عبدان بن هانواس»).[١٢٦] إذن، فلدينا إله يدعى (أبا لف، أبو إيلاف). وهناك شخص يتسمى باسم هذا الإله. أي أنه يمكن أن يكون كاهنه. وفي روايتها لتاريخ بني إسرائيل تؤكد لنا المصادر العربية وجود ملك باسم إيلاف. يقول الطبري في تاريخه عن هؤلاء:

(نزل بهم عدو فخرجوا إليه وأخرجوا التابوت كما كانوا يخرجونه، ثم زحفوا به فقوتلوا حتى استُلب من أيديهم، فأتى ملكهم إيلاف، فأخبر أن التابوت قد أخذ واستلب. فمالت عنقه فمات كمداً عليه).[١٢٧]

ويؤكد ابن الأثير المؤرخ في الكامل في التاريخ:

twitter @baghdad_library

(فلمّا انقطع إلياس عن بني إسرائيل بعث الله أليسع، فكان فيهم ما شاء اللّه، ثمّ قبضه الله وعظمت فيهم الأحداث وعندهم التابوت يتوارثونه فيه السكينة وبقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فكانوا لا يلقاهم عدوّ فيقدّمون التابوت إلاّ هزم الله العدوّ. وكانت السكينة شبه رأس هر، فإذا صرخت في التابوت بصراخ هرّ أيقنوا بالنصر. وجاءهم الفتح، ثمّ خلف فيها ملك يقال له إيلاف، وكان الله يمنعهم ويحميهم، فلمّا عظمت أحداثهم نزل بهم عدوّ فخرجوا إليه وأخرجوا التابوت، فاقتتلوا فغلبهم عدوّهم على التابوت وأخذه منهم وانهزموا، فلمّا علم ملكهم أن التابوت أخذ مات كَمَداً، ودخل العدوّ أرضهم ونهب وسبى وعاد، فمكثوا على اضطراب من أمرهم واختلاف، وكانوا يتمادون أحياناً في غيّهم فيسلّط الله عليهم من ينتقم منهم، فإذا راجعوا التوبة كفّ الله عنهم شرّ عدوهم، فكان هذا حالهم من لَدُن توفي يوشع بن نون إلى أن بعث الله أشمويل وملكهم طالوت وردّ عليهم التابوت).(١٢٨)

ويزيد النويري في نهاية الأرب:

(وكانت مدة ما بين وفاة يوشع بن نون إلى نبوة أشمويل أربعمائة وستين سنة، وكان آخر ملوكهم في هذه المدة رجلا يقال له إيلاف وكان يدبر أمرهم في ملكه شيخ يقال له عيلى الكاهن، وكان حبرهم وصاحب قربانهم، وكانوا ينتهون إلى رأيه).(١٢٩)

نحن نعتقد أن الملك (إيلاف) هذا هو ملك-إله، وأنه ذاته الإله المذكور في النصوص اللحيانية. والسؤال: هل يمكن لنا أن نتجاهل الصلة بين هذا الصنم-الإله وبين إيلاف قريش؟ نعتقد أن من الصعب تجاهل ذلك، خاصة وأننا نجده يترافق مع السكينة- الحية التي كانت في أساس الكعبة.

نحن لا نملك أكثر من هذا عن موضوع الإيلاف، وهو بما نملكه يبدو قضية دينية لا تجارية. لكن هناك احتمالا لأن يكون التأليف هو اللحظة التي يتحد فيها مظهرا الإله المتعاكسين المتنافرين، وتتحد فيها الطبيعة بنغمتيها العالية والواطئة. لكننا لا نستطيع أن نتكهن بالوقت الذي كان يتم فيه هذا الاحتفال. غير أننا نعلم أن هناك احتفالا مصريا غامضا يدعى احتفال (سد- هب)، كان يجري كل ثلاثين سنة، ويبدو أنه كان تعبيرا عن جمع مظهري إله النبيل، وتأليفهما. وسوف نرى أن هذين الإلهين المصريين كانا يعبدان في الجزيرة العربية تحت اسمي صداء والهباء، وهما من أصنام قوم عاد. يقول الشاعر:

أتانا والقلوب مضمرات　　على ظلم وقد ذهب الضياء
لنا صنم يقال له صَمُودٌ　　يقابله صداء والهباء

لكن التفصيل في هذا يحتاج إلى فصل آخر عن ديانة قوم عاد. غير أن علينا أن نشير هنا إلى احتمال أن يكون صداء أو صدا هذا هو الذي نسبت إليه التصدية في آية الأنفال: "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية". فالمُكَاء من صوت طائر المكاء، والتصدية من الصدا، الذي لا بد أنه كان يتمثل بحية.

الغريّان

ويبدو لنا أن غريّي النعمان بن المنذر لهما علاقة ما بصنمي الصيف والشتاء عند هيرودتس، أي بصنمي الصفا والمروة أيضا. وقصتهما معروفة جدا. فقد قتل النعمان نديميه في لحظة غضب، فحزن عليهما، وأمر، كما يقول لنا الأغاني:

(ببناء الغريين عليهما، فبنيا عليهما، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين، يسمي أحدهما يوم نعيم، والآخر يوم بؤس، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شوما أي: سودا، وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود، ثم يأمر به، فيذبح ويغرى {=يطلي} بدمه الغريان).[١٣٠]

ويزعم أن هذين الغريين هما المنارتان المذكورتان، اللتان كانتا قرب الكوفة. وهما، فيما يبدو لنا، نصبان يرمزان للانقلاب الصيفي والشتوي؛ حيث يكون النصب الذي يرتبط بيوم النعيم، هو نصب مجوز الريح المتدفق الحي، بينما النصب المرتبط بيوم البؤس، هو نصب مطعم الطير، الساكن القار الذبيح. ويحدثنا معجم البلدان لياقوت عن غريي الكوفة، موضحا لنا ما يعنيه الاسم:

(والغريان طِرْبالان. وهما بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة... قال ابن دريد: الطربال قطعة من جبل أو قطعة من حائط تستطيل في السماء وتميل... وقيل: الطربال القطعة العالية من الجدار والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل... والغريان أيضا خيالان من أخيلة حمى فيد بينهما وبين فيد ستة عشر ميلا يطؤهما طريق الحاج عن الحازمي. والخيال ما نصِبَ في أرض ليعلم أنها حمى فلا تُرب).[١٣١]

إذن، فالغري صومعة- منارة، أو جبل، أو جزء من جبل، أو خيال. أي أنه نصب ما. ونحن نعلم أن الصفا والمروة جبلان، أو صخرتان ضخمتان تشكلان جبلين صغيري الحجم نسبيا. ويحكي لنا القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد أن الغريين: (بناءان كالصومعتين كانا بأرض مصر، بناهما بعض الفراعنة وأمر كل من يمر بهما أن يصلي لهما، ومن لم يصل قتل). [١٣٢]. ويؤكد لنا ياقوت في معجمه أن غريي الكوفة بنيا على

twitter @baghdad_library

غرار غريي مصر:

(بني الغريان اللذان في الكوفة على مثل الغريين بناهما صاحب مصر وجعل عليهما حرَساً فكل من لم يُصَل لهما قتل). ويضيف في مكان آخر: (وروى الشرقيُّ بن القُطامي قال: الغري الحسن من كل شيء وإنما سميا الغريين لحسنهما وكان المنذر قد بناهما على صورة غريين كان بعض ملوك مصر بناهما).(١٣٣)

من الواضح أننا نتحدث هنا عن نصبين مقدسين يصلي لهما الناس، نصبين يشبهان نصبين أصليين في مصر. وهذا الحديث يشبه أن يكون حديثا عن صنمي الجنوب والشمال، اللذين تحدث عنهما هيرودتس.

أما النويري في نهاية الأرب، فيقول لنا عن الغريين: (وأما الغرِيان فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة. بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قينتين تغنيان بين يديه. فماتتا، فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغريين)(١٣٤). الحديث عن القينتين يقربنا من النغمتين العالية والواطئة للكون، أو المزمار العالي النغمة والمزمار الأجش، اللذين أمضينا وقتنا كله في الحديث عنهما. أي أن وصف النويري يعود بنا إلى نغمتي الصيف والشتاء؛ أي المكاء والتصدية.

ويخبرنا عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب أن هناك من يرى أن الغريين هما نديما جذيمة الأبرش: (وزعم الجوهري، وتبعه جماعة منهم ابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون أنهما قبرا مالك وعقيل: نديمي جذيمة الأبرش، وسميا غريين لأن النعمان كان يغريهما بدم من يقتله في يوم بؤسه)(١٣٥). وجذيمة الأبرش يشبه في الواقع أن يكون إلها من طراز أوزيريس. فهو نديم الفرقدين. والفرقدان نجمان سماويان. وسوف نرى في فصل عن جذيمة الأبرش هذا أن الاسم (الغريان) قد يكون بالباء لا بالياء، أي أنهما (الغربان)، أي الدلوان.

على كل حال، إنها الأسطورة ذاتها، لكن بأسماء مختلفة في كل مرة.

معنى اسم مكة

نصل الآن إلى معنى اسم مكة.

وكنا قد أشرنا سابقا إلى أن الصلة اللفظية القوية بين مُكاء الجاهلية، الذي هو تقليد لصوت المكاء، جعلت بعض المصادر العربية تقترح أن اسم المدينة مأخوذ من اسم المكاء الطائر. وقد أوردنا من قبل مقتبسا من ياقوت الحموي يقول فيه ذلك: (إنما

سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكّ فيه، أي نصفر صفير المُكّاء حول الكعبة. وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا... فكأنهم يحكون صوت المكّاء).[١٣٦]

وقد بدا لنا نحن أيضا في بدء مبحثنا أن هذه العلاقة قد تحل لنا لغز اسم مكة. لكننا توصلنا في نهاية الأمر إلى أن هذا غير صحيح. فمكو وبكو السومريان، أي النغمة العالية والواطئة، يساويان المكاء (= مجوز الريح) وذي بكة (= مطعم الطير). وعليه فإن علينا أن نبحث عن شيء آخر لتفسير اسم مكة، متجاهلين هذه الصلة اللفظية، باعتبارها صلة عرضية.

وإذ كنا عبر مكو وبكو شجرة إنانا قد حللنا لغز المكاء وذي بكة في مكة، فإنه يظل علينا أن نعثر على العديل المكي للحد الأوسط في شجرة إنانا، أي ليليث. والحال أن فرضيتنا هنا تقوم على أن (مكة) هي الحد الأوسط. فبين المكاء وذي بكة، بين القمة والقرار، يجب أن تكون نغمة وسيطة. هذه النغمة الوسيطة هي (مكة)، وهي عديل ليليث في شجرة إنانا. أي أن مكة= ليليث، لكنها ليليث الإيجابية لا السلبية كما سنرى في وقت لاحق:

مكو ليليث بكو

المكاء مكة ذو بكة

هذا الفرض تدعمه بعض المصادر العربية. فقد لاحظ بعض المفسرين العرب التواصل اللفظي بين لفظة مكوك، التي تعني الميزان ذا الكفتين، وبين اسم مكة. يقول لنا ياقوت الحموي في معجم البلدان: (وقال قوم سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في هَبطة بمنزلة المكوك). ويضيف في مكان آخر نقلا عن ابن الكلبي: (قال ابن الكلبي: سُميت مكة لأنها بين جبلين بمنزلة المكوك).[١٣٧]

إذن، فمكة، تضاريسيا، تشبه المكوك، أي الميزان ذا الكفتين. فهي هبطة بين جبلين مرتفعين عنها. إنها المنطقة الوسطي بين مرتفعين. الجبلان هما الأخشبان اللذان أشار إليهما نص ذي بكة السابق. لكن يختلف حول من هما أخشبا مكة، أو حول الجبل الثاني، فالأول هو (أبو قبيس) عند الكل. وأبو قبيس كان يدعى الأمين سابقا عند الكل أيضا. أما الثاني فهو قعيقعان أو الجبل الأحمر. غير أننا أميل إلى أن نرى أن الأخشب الثاني هو الجبل الأحمر، فهو شمالي، في مقابل أبو قبيس الجنوبي. يقول الرحالة الكبير المدقق ابن بطوطة في رحلته أن جبل أبي قبيس، يقع في جهة الجنوب والشرق من المدينة، وفي

twitter @baghdad_library

الشمال منها الجبل الأحمر. ويؤكد الحازمي فيما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة أن الجبل الأحمر هو الأخشب الثاني بالفعل، وليس قعيقعان. وهو يقول بوضوح إنه الجبل المقابل له، أي أنه شمالي: (والأخشبان جبل أبي قبيس والجبل المقابل له ويسمى اليوم الأحمر، وكان من قبل يقال له الأعرف).[١٣٨]

إذن، فمكة هي هبطة بين أخشبيها، الجنوبي والشمالي، أي أبو قبيس والجبل الأحمر، أي الأمين والأعرف. ومن المؤكد أن لاسمي الجبلين، الأمين والأعرف، معنى ميثولوجيا. فالاسم الثاني، أي الأعرف، قد يعني: الحية. ذلك أن الأعرف في اللغة يشير إلى الخيول والحيات. وحين نكون مع الحيات فنحن في الشمال الشتوي. أما الأمين فهو من جذر (يمن) الذي يعني الجنوب.

ويبدو لنا أن كل معبد ذي طابع أوزيريسي يجب أن يقام في هبطة بين جبلين؛ أو تلتين، شمالية وجنوبية. فهما الجبلان اللذان يقوم عليهما العالم وتثبت عليهما السماء. هذا هو حال مدينة نابلس الفلسطينية المقدسة لدى السامريين. فهي هبطة بين جبليها العظيمين؛ أي بين أخشبيها، الجنوبي جرزيم، والشمالي عيبال. الجنوبي يمثل الصيف؛ لذا فاسم جرزيم يعني الجبل الذي لا مطر فيه، في حين أن عيبال يعني: جبل المطر والشتاء. أما نابلس المدينة (شكيم) ومعبدها فقد كانا في الهبطة بين الجبلين، كما هو الحال مع مكة بين الأخشبين.

لكننا نعتقد، في الحقيقة، أن مكة المقصودة بهذا الكلام هي المنطقة المحيطة بالحرم. فالمعبد الأوزيريسي بناء على التصور الجاهلي هو تخطيط من ثلاث نقاط: الأولى والثالثة فيه هما مكة الصفا والمروة، وهما يصوران الجبلين الأخشبين. من أجل هذا فأبو قبيس الجنوبي يشرف على الصفا الجنوبي، بل هو جزء منه. كذلك نفترض أن المروة تصغير للجبل الأحمر. وهما كفتا الميزان- المكوك.

أما النقطة الثالثة، نقطة التوازن، فتقع أن تكون بينهما. ونحن نفترض أنها الربوة التي حدثنا عنها الحميري في الروض المعطار، حين تعرض لعبادة قوم عاد. إذ قال: (وهم يعظمون موضع الكعبة، وكان بربوة.[١٣٩] أسفل هذه النقطة- الربوة، التي هي في مركز الحرم، يقع البئر أو الشق- البئر، أي الخسفة، التي تبك إليها أرواح الموتى وتدخل. وهناك يكمن الإله ذي بكة الأوزيريسي الطابع حاكما على مملكة الأموات. وهذه الربوة تمثل في الخط بين الصفا والمروة بنقطة الميلين، كما سنرى لاحقا.

إذن، فنحن أمام ميزان محدد، كفتاه الأخشبان، ونقطة توازنه هي (مكة). لكن نقطة

التوازن هذه، أعطت اسمها، فيما يبدو، للمعبد، وللمدينة من ثم. وتؤيد نصوص الديانة الفرعونية ما نقول. فنحن نعلم أن ميزان الإلهة المصرية ماعت، الذي تزن به أرواح الموتى، يدعى Mekhat: أي (مقة). وهي كلمة تعني (ميزان الأرض) أو (ميزان الكون): (تقدم لنا بردية آني في المتحف البريطاني رسما حيا لقاعة العدالة العظمى، وللميزان العظيم لماعت. وهذا الأخير يدعى مقة Mekhat، ويعني بكلمات أخرى: «ميزان الأرض»).(١٤٠) كما أن الميزان بعموم يدعى في المصرية القديمة (مقة). كما أن (مقا) تعني: ساوى، عادل، وازن.

عليه، ففي الأصل حين كان يقال في (معبد مكة) – أو معبد المقة اليمني أيضا كما سنرى- فإن المعنى هو معبد الميزان. فمكة، أو مقة المصرية، أو المقة اليمنية، هي الميزان، ميزان ماعت. ثم صار الاسم مكة يطلق على نقطة التوازن في الميزان، التي هي الإلهة الأنثى. أو قل إنه منذ البدء كان الاسم مكة يطلق على الميزان وعلى حده الأوسط بالذات. أي أننا حين نقول مكة فإنما نقصد الميزان ونقطة توازنه. ويقول لنا ولس بدج أن الإلهة ماعت مفهوم أكثر منها إلهة. إنها مفهوم التوازن والعدالة:

(منذ أقدم الأزمان أطلق اسم ماعت على الربتين إيزيس ونفتيس، وقد سميتا كذلك لأنهما تمثلان أفكار الاستقامة والتكامل والحق والصدق، وما إلى ذلك. والمعنى الأصلي لكلمة ماعت هو القصبة أو العصا التي تستعمل كمقياس).(١٤١).

ومنذ العصر اليوناني على الأقل أخذت ماعت تتماهى مع إيزيس بالذات: (وفي العصر اليوناني- الروماني فقدت ماعت، فيما يبدو، دورها المركزي في الديانة المصرية، وبعض فعالياتها أصبح من نصيب إيزيس).(١٤٢)

عليه، فميزان ماعت هو، بشكل ما إيزيس. وإيزيس، أي الحد الأوسط في الثالوث، هي الميزان. مثلما أن ليليث هي ميزان شجرة إنانا، ومثلما أن مكة هي الميزان أيضا، أي النقطة الوسطى التي توازن بين نقطتين متطرفتين.

طبعا لسنا بحاجة إلى لفت النظر إلى التشابه بين (مكة) و (مقة)، فهو شبه واضح وقوي. هذا يؤهلنا للقول بأن (مكة) نقطة توازن، أي النقطة الوسطى في (المكوك)، أي في الميزان ذي الكفتين، وأنها تمثل إلهة من طراز إيزيس، أي أنها زوج أوزيريس. ونحن نعتقد أن مكة هي وصف للعزى في الأصل. أي لنقطة الوسط في الثالوث: (اللات والعزى ومناة). اللات ومناة هما كفتا الميزان، والعزى هي نقطة التوازن، أي مكة أو مقة.

twitter @baghdad_library

وقد ورد في النقوش الثمودية ما يؤكد وجود إلهة باسم (مكات). فقد جاء في أحد نقوش قارا: (ل ع ر ج. ب ن. ا م ر. و ت ش و ق. ال. ع ب د م ك ا ت) وترجمته: (بواسطة ع رج بن أمر واشتاق إلى ع ب د م ك ا ت).[١٤٣]

تقديرنا أن عبد مكات يعني: عبد مكة. وهذا يعني وجود إلهة تدعى مكة سمى هذا الرجل باسمها. وحسب الدكتور الذييب فإن الاسم (عبد مكة) ورد في نقوش ثمودية أخرى، وبصيغة أوضح: (العلم المركب ع ب د م ك ا ت الذي كتب النص لإظهار الاشتياق والوله إليه، جاء بصيغة ع ب د م ك ت في النقوش الثمودية... وقد فسر هاردنغ عنصره الثاني م ك ت بإعادته إلى مكة المكرمة).[١٤٤]

بالتالي فالألف المربكة في الوسط (مكات) أزيحت في صيغ أخرى، مما يعني أن الاسم بالفعل (مكة، مكت)، وأن الألف هي حركة أطيلت. وهذا الاسم صفة لإلهة نظنها العزى. أما زعم هاردنغ فيمكن قبوله فقط من زاوية أن مكة المدينة أخذت اسم الإلهة. فالناس لا يعبدون حرما أو مدينة بل يعبدون من يمثله الحرم أو المدينة. كما أن اسم مكة يمكن أن يطلق على أي معبد ذي طابع إيزيسي، فالاسم يعني الميزان أو نقطة التوازن، أي أنه ليس من الضروري أن يشير إلى مكة الإسلام المقدسة.

ولدينا دليل قوي جدا على أن الحد الأوسط في الثالوث، أو نقطة التوازن كانت تدعى مكة. فقد ورد في سفر (الخمسينيات) من أسفار التوراة المنحولة، في فصل (كنات يعقوب) ما يلي:

(واسم امرأة جاد مكا Maka).[١٤٥]

نعتقد، بقوة، أن (جاد) هنا هي (جد) أوزيريس، أي العمود الذي يمثل أوزيريس، وأن (مكا) أو بالأحرى (مقة، مكة) هي زوجته إيزيس. وعليه، يمكننا أن نقول إن (مكة) هي (العزى) العربية شبيهة إيزيس. والتشابه بين اسم إيزيس بالمصرية (إيزه) و (عزى) بيّن وواضح تماما. إذن، فالكعبة- المعبد كانت في نظر الجاهلية ميزان الأرض أو الكون. كما أن النقطة الوسطى في هذا الميزان كانت تدعى مكة، لأنها توازن الميزان وتجعله يعمل.

لكن ربما كان علينا أن نذهب إلى نجران، وإلى كعبة نجران خاصة، أي (الإله) المقة اليمني كي نزيد الأمر وضوحا.

كعبة نجران: المقة

قبل البدء يجب أن نشير إلى العلاقة اللفظية الوطيدة جدا بين (يلمقة)، أو (إلمقة) كما يرد في نصوص المسند، وبين (مكة). وهناك إجماع تقريبا على أن (يلمقة) في المصادر العربية هي الإله (المقة) في نقوش المسند اليمنية. ولو أزحنا الجزء الأول من اسم (يلمقة، إلمقة) باعتباره كلمة تعني إله (إل+ مقة) لبدا لنا بوضوح الشبه بين (مكة) و(مقة). الفارق يكمن في لفظ الكاف ثقيلة، أي قافا، في جنوب الجزيرة، ولفظها مخففة في شمالها. هذا الشبه لا يجب المرور عليه بسهولة.

وتجمع المصادر العربية، تقريبا، على أن الملكة بلقيس، التي تربط دوما بالملك سليمان، كانت تدعى (يلمقة). وهي تربطها بـــ (كعبة نجران الشهيرة). لكن بعض هذه المصادر تؤكد لنا أن هذه الكعبة ذاتها، كعبة نجران، دعيت، أيضا، باسم (يلمقة) على اسم الملكة اليمنية. يقول لنا محمد بن عبد المنعم الحميري في الروض المعطار في خبر الأقطار:

(يلمقة: من مصانع اليمن التي بنتها الجن على عهد سليمان عليه السلام، مثل سلحين وغمدان. لم ير الناس مثلها. هدمتها الحبشة حين غلبت على اليمن. ويدعى هذا المصنع يلمقة باسم بلقيس بنت هداد، صاحبة سليمان عليه السلام ملكة سبأ، وكان اسمها يلمقة).[١٤٦]

ويضيف البكري في معجم ما استعجم:

(وقيل: إنما سُمي هذا الموضع {أي كعبة نجران} يَلْمَقَة، على وزن يَعْمَلَة، باسم بلقيس بنت هدَّاد بن شرح بن شرحبيل بن الحارث الرائش صاحبة سليمان، اسمها يلمَقَة، على وزن يعملة وقال الهمداني: وتفسيره: زهرة، لأن اسم الزَّهرة في لغة حمير: يَلْمَقة).[١٤٧]

الأمر واضح هنا: كعبة نجران تدعى (يلمقة) على اسم الملكة بلقيس التي تسمى (يلمقة) أيضا. وهذا يتوافق مع ما افترضناه حول اسم (مكة). فقد قلنا إن الاسم يطلق على المعبد وعلى النقطة الوسطى في الميزان، التي رأينا أنها العزى. بناء على هذا، فمعبد المقة هو أيضا معبد- ميزان، أو أنه معبد الإلهة التي تمثل نقطة التوازن الكوني. أي أننا نفترض وجود ميزان أرضي بنقاط ثلاث، تمثل فيه (المقة) النقطة الوسطى، أي نقطة التوازن، في معبد نجران، معبد يلمقة. وقد سمي المعبد باسم نقطة توازنه، أي معبد

twitter @baghdad_library

المقة، أي كعبة نجران. ونقطة التوازن، أي الحد الأوسط، مؤنثة دوما، كما هو الحال مع العزى. وهذا يعني أن المقة، كنقطة توازن، هي إلهة أنثى، وليست ذكرا كما يفترض. إنها مثل إيزيس إيزيس- ماعت اليمنية، ومثل العزى العربية. لكن المقة اسم للمعبد واسم لنقطة توازنه معا. فمعبد المقة هو المعبد- الميزان. أما المقة كنقطة توازن فهي إلهة أنثى.

وهكذا فلدينا ثلاث مكات أو مقات:

الأولى: مقة ميزان ماعت المصري، التي هي إيزيس.

الثانية: مكة الحجاز التي هي ميزان الكون وسرته، وتتماهى مع العزى الحد الأوسط في الثالوث.

الثالثة: مقة كعبة نجران، التي هي أيضا ميزان الكون، كما أنها الحد الأوسط أي بلقيس.

Mekhat, Makhat

Maqah. Maqqah

Mecca, Makka

هذه المكات الثلاث (مكة، المقة، مقة ماعت) تعني شيئا واحدا. وحين يقال معبد مكة أو معبد المقة فهذا يعني معبد الميزان، الذي يحفظ توازن الكون، والذي تشكل فيه الإلهة الأنثى (إيزيس، المقة- بلقيس، مكة) نقطة التعادل الوسطى.

المقة ذكر أم أنثى؟

هذا الاستنتاج يتعارض، بالطبع، تعارضا جذريا مع الرأي الشائع حول الإله (المقة) اليمني. فحتى وقت قريب جدا، كان هناك إجماع تقريبا على أن (المقة) إله مذكر، وأنه إله القمر. وقد تكون هذا الإجماع رغم أن طابع هذا الإله كان يحمل من الغموض أكثر مما يبدي من الوضوح. إذ لم يكن معروفا معنى اسمه ومن أين تم اشتقاقه. يقول الدكتور جواد علي في مفصله: (وليس للعلماء رأي واضح في معنى المقة)[١٤٨] وهو يقصد الباحثين الحديثين، أي الغربيين إجمالا. أما بشأن الإخباريين العرب فيقول: (وتدل روايات الإخباريين العرب عن المقة على عدم وقوفهم على حقيقة هذه التسمية. فقد حاروا فيها واضطربوا في أمرها، ولم يظهر أحد من بينهم عرف حقيقتها).[١٤٩] ورغم هذا فقد قرر هذا المؤرخ الكبير، بناء على رأي الباحثين الغربيين، أن المقة إله ذكر: (تعبد

السبئيون للإله المقة، إلههم الكبير، ويعد في منزلة ود عند المعينيين، ويرمز إلى القمر. وهو المقدم عندهم على سائر الآلهة).[١٥٠]

وثم في اللغة ما يعارض فكرة ربط المقة بالقمر. ينقل د. جواد علي عن إيوالد أن كلمة المقة:

(من أصل لمق، وهي بمعنى لمع، فيكون للاسم على ذلك معنى اللمعان. ويمكن أن تكون المقة، إذن، بمعنى الثاقب واللامع).[١٥١]

ولو صح هذا الرأي فعلينا أن نفترض أن المقة نجم وليس قمرا. فالقمر لا يوصف أبدا بأنه ثاقب أو لامع. فهو يبعث نورا شاحبا، لا يتقد ولا يتوهج. ثم ينقل صاحب المفصل رأيا لهومل يقول فيه: (إن المقة إنما تعني سيدة).[١٥٢] وهذا الرأي يعارض أيضا فكرة كون المقة إلها للقمر.

لكن الغريب أن المصادر العربية جميعها تختلف مع التقدير السائد حول أن المقة إله ذكر. فهي تراه إلهة أنثى. فالمقة (يلمقة) عندها اسم لبلقيس التي بنت معبد يلمقة الذي ظل قائما حتى الإسلام، والذي تدعوه العامة الآن باسم: محرم بلقيس. ونحن نعتقد أن رأي الإخباريين والعامة القائم على ربط بلقيس بالمقة رأي في منتهى القوة والأصالة. وللأسف فإن المؤرخ الكبير، المرحوم جواد علي، اتبع آراء الباحثين الغربيين المضللة والمشوشة حول المقة، رافضا متابعة المصادر العربية. فهو يتعجب من الدهر الذي أحل (اسم امرأة {أي بلقيس-يلمقة} محل اسم إله قديم)[١٥٣]! أما نحن فنعتقد، بناء على ما قدمناه، أن المصادر العربية أصح من الباحثين الغربيين، ونتعجب كيف أن هؤلاء الباحثين حولوا إلهة أنثى إلى إله ذكر!

المقة والزهرة

لكن علينا أن نشير هنا إلى الهمداني الذي يقدم رأيا متفردا جدا حول يلمقة. فهو يقول إنها نجمة الزهرة. ينقل البكري في معجم ما استعجم عنه حول المقة: (قال الهمداني: وتفسيره: زهرة، لأن اسم الزَّهرة في لغة حمير: يَلْمَقه وألمق، واسم القمر هيس).[١٥٤] ويبدو أن د. جواد علي كان ينقل عن البكري حين قال: (وجعلها الهمداني الزهرة؛ «لأن اسم الزهرة في لغة حمير: يلمقة وألمق»).[١٥٥]

رأي الهمداني مهم جدا، ولا يمكن الاستخفاف به. فهو جغرافي كبير، كما أنه كيمني يعرف أكثر من غيره حين يتعلق الأمر بالتراث اليمني القديم. وكما نرى فهو قد اعتبر

twitter @baghdad_library

المقة نجما لا قمرا. غير أن ما ورد في كتاب الإكليل يشير إلى أن الهمداني لم يقل إن المقة هي الزهرة، هكذا مباشرة. فهو يخبرنا أن: اليمنيين كانوا يسمون النجوم ألامقة والواحد منها ألمق ويلمق، وأنهم لذلك: (سموا بلقيس يلمقة كأنهم قالوا زهرة).[١٥٦]

فإذا كانت هذه هي الجملة التي استند إليها البكري فهي، فيما يبدو لنا، لا تشير إلى أن يلمقة هي الزهرة، بل تقول لنا إن بلقيس نجم مثلها مثل الزهرة، لأن اليمنيين يسمون جميع النجوم ألامقة، وليس الزهرة وحدها. لكن حتى لو كان الهمداني يقصد بهذه الجملة أن يقول لنا، بالفعل، إن بلقيس- يلمقة هي الزهرة، فلدينا ما يثبت أنه كان يدرك، فيما يبدو، أن الزهرة هي إيزيس. فهو يخبرنا في نص آخر مهم في صفة جزيرة العرب أن الزهرة هي إيزيس، عند عدد كثير من الأقوام:

(قسم ما بين المشرق والجنوب: وأما الربع الثاني الذي في الناحية الجنوبية من بلاد آسيا العظمى فإن النواحي منه التي تشتمل على بلاد الهند والصين ومكران وكرمان وفارس وبابل وملتقى النهرين وأثور، ووضعها مائل إلى جهة الجنوب والصبا من جميع الأرض المسكونة بالواجب، صارت مشاركة للمثلث الذي فيما بين الجنوب والصبا، وهو مثلث الثور والعذراء والجدي. والذي يدبر هذه البلدان الزهرة وزحل إذا كانا منسوبين إلى الغدوات ولذلك صارت طبائع سكان هذه البلدان تابعة لطبائع هذين المدبرين ولذلك إنهم يعظمون الزهرة ويسمونها إسيس).[١٥٧]

هؤلاء الناس (يعظمون الزهرة ويسمونها إسيس). ومن الواضح تماما أن (إسيس) هنا هي (إيزيس). وهكذا فالهمداني يدرك أن أقواما تمثل أهم أجزاء العالم القديم ترى أن الزهرة هي إيزيس. وعليه، فحين يصف بلقيس- يلمقة بأنها الزهرة، فلا بد أنه كان يدرك أن هذا يعني أن بلقيس- يلمقة هي إيزيس أيضا. وهذا وصلنا إلى هذا الاستخلاص الحاسم؛ يلمقة هي إيزيس! وهو استخلاص متفجر يلغي أكثر ما قيل عن هذه الإلهة اليمنية. ونحن نعلم أن إيزيس هي الشعرى العربية. وهذا يعني أن يلمقة هي الشعرى زوجة سهيل اليماني.

لكن لا بد لنا أن نقول إن شيئا ما جعل كثيرين، وليس عند العرب فقط، يربطون بين إيزيس والزهرة، رغم أن نجمة إيزيس هي سبدت (سوثيس)، أي الشعرى اليمانية، وليس الزهرة. ولسنا نعرف جذر الربط بين إيزيس والزهرة، ولا كيف حصل. لكنه حاصل. إذ يتم أحيانا اعتبار الزهرة نجم إيزيس، رغم ما في ذلك من غرابة. لكن إيزيس، على كل حال، تظل إيزيس حتى لو ربطت أحيانا بالزهرة بدل الشعرى.

إذن، فنص الهمداني القصير حاسم في فهمنا للإله المقة اليمني. إنه نص تأسيسي حقا. وهو يعطينا كمية لا بأس بها من المعلومات:

أولا: أن المقة نجم وليست قمرا.

ثانيا: أن بلقيس نجم، أو تتمثل بنجم، أي أنها ملكة- نجم.

ثالثا: أن بلقيس هي المقة.

رابعا: ومن طرف غير مباشر يمكن أن نفهم منه، إذا ما ربطناه بالنص الآخر من كتاب صفة الجزيرة العربية، أن بلقيس هي إيزيس، أو إسيس على حسب ما كتبها هو، أي أنها الشعرى اليمانية.

رموز المقة

يستند أحيانا كثيرة إلى رموز المقة للقول بأنها إله ذكر. وفيما يخص الرموز الحيوانية التي ترتبط به، فهي: الحيات والنسور والثيران والجداء. كما أنه على علاقة بكرمة العنب. ويقال إن هذه الرسوم، إذا استثنينا الكرمة، هي الرموز الدالة على القمر عند الساميين. وهذا رأي ليس دقيقا في الحقيقة. فهذه الحيوانات لا تختص بالقمر، بل هي تمثل آلهة أخرى في أحيان كثيرة جدا. فالنسر مثلًا معروف بارتباطه بحورس الذي يرى أنه إله شمسي عند الغالبية الساحقة. كما أن الحية رمز أساسي من رموز أوزيريس وإيزيس. فإيزيس توصف بأنها الثعبان الأعظم. ويقول واليس بدج (الإلهة إيزيس كان يرمز لها غالبا بأفعى، وكان اللون الأحمر مميزا لها).[١٥٨]

وعندما (أصبح رع المقدس شيخا هرما يسيل لعابه من الفم فيسقط على الأرض ويقطر على التراب، عجنته {إيزيس} بالتراب في يديها وصنعت منه ثعبانا مقدسا على هيأة حربة. لم ترفعه مستقيما أمام وجهها، لكنها أرقدته على الأرض في المسار الذي يتقدم فيه الإله العظيم في مملكته الثانية كما يرغب قلبه ويحب. فلما ظهر الإله المقدس... تقدم كعادته اليومية فعضه الثعبان المقدس). ولم تقبل إيزيس أن تشفي رع من عضة الأفعى إلا بعد أن كشف عن اسمه السري. عندها قالت: (ارحل أيها السم. اخرج من رع. يا عين حورس اخرجي من الإله وشعي خارج فمه. إنها أنا التي تعمل. أنا التي تسقط السم المتحلل على الأرض. فاسم الإله العظيم انتزع منه. دع رع يعش، ودع السم يمت).[١٥٩]

twitter @baghdad_library

وهكذا فالأفعى هنا يظهر كما لو أنه خادم إيزيس. إنه ممثل فعاليتها، فهي الإلهة الأفعى. طبعا يمكن للثعبان الذي عض رع (الذي يشبه أوزيريس تماما هنا) أن يكون مثل حية مطعم الطير. فالإله في مظهرة الشنوي القار يأخذ شكل حية.

أفعى نجران

ولدينا في المصادر العربية ما يثبت أن يلمقة-بلقيس مرتبطة بأفعى ما. إذ تجمع هذه المصادر على أن نجران وكعبتها كانت بيد جرهم إلى أن غلبتهم عليها حمير. وتضيف أن كل واحد من ملوك حمير كان يدعى (الأفعى). يقول القلقشندي في صبح الأعشى:

(ثم غلبهم على ذلك بنو حمير، وصاروا ولاة للتبابعة، فكان كل من ملك منهم يسمى أفعى)[١٦٠] وتتذكر المصادر العربية ملكا- أفعى واحدا من هؤلاء اسمه القلمس، ويدعى بأفعى نجران. وخبره مشهور جدا في المصادر العربية. فهو الذي حكم بين أبناء نزار الأربعة على ميراث أبيهم. لكن الأهم هو الذي يضيفه لنا ابن خلدون في تاريخه عن هذا القلمس. فهو يقول لنا إنه: (كان واليا على نجران لبلقيس فبعثته إلى سليمان عليه السلام).[١٦١]

عليه، فوالي نجران يعين من قبل بلقيس وهو يدعى: الأفعى. هذا قد يعني أن القلمس هذا كان كاهنا لبلقيس. كما قد يعني أن ملوك نجران كلهم كانوا في الأصل يعتبرون كهنة لبلقيس. فكاهن معبد المقة هو ذاته والي المدينة.

وهذا يضع احتمال أن يكون كل والٍ على المدينة أفعى. وهم يدعون بالأفاعي لأن الإله الذي يمثلونه على علاقة بالأفعى. فإذا كان الأفعى واليّا على نجران من قبل بلقيس، فيجب أن نفترض أن بلقيس ذاتها تتبدى كأفعى. فكاهنها يظهر كأفعى؛ لأنها هي تتبدى كأفعى. وإيزيس أيضا تتبدى كأفعى. بل هي الثعبان الأعظم. يقول والاس بدج عن حمولة رأس الأفعى السحرية المصرية: (كانت توضع على جثمان الميت لتحفظه من عض الأفعى في المقبرة أو العالم السفلي. كانت تصنع من الحجر الأحمر، اليشب الأحمر والعقيق. وحيث إن الإلهة إيزيس كان يرمز لها غالبا بأفعى، وكان اللون الأحمر مميزا لها، يبدو أن الفكرة التي يتضمنها استخدام مثل هذه الحمولة هي سحق الأفاعي في المقبرة من خلال قوة الثعبان الأعظم- الإلهة إيزيس).[١٦٢]

وإيزيس أفعى لأن الآلهة في قرارهم الشتوي أفاعٍ، كما رأينا مع مطعم الطير سابقا. وهذا ما يؤكده لنا مرسيالياد في المقدس والمدنس: (وعلى القطب العمودي ذاته

يوجـــد، على الطـــرف الآخر، عالم الأموات المرموز إليه ببعض حيوانات «أفعى، تمساح إلخ».[١٦٣]

طبعا، هناك احتمال لأن يكون الأفعى هو ممثل لإله من طراز أوزيريسي. فالإله الذكر في مظهره الشتوي يأخذ شكل حية أو ثعبان أيضا. عليه، قد يكون الثعبان هو زوج بلقيس التي هي إيزيس. وحين تقول الأسطورة أن بلقيس أرسلت الأفعى إلى سليمان فربما يجب أن نفهم أن هذا يشبه إرسال الأفعى إلى رع من قبل إيزيس. فقد صنعته من لعابها وأرسلته في طريق رع كي يعضه، ويدخله في موته الشتوي، أو بياته الشتوي. وهكذا ربما كان الأمر بين بلقيس وسليمان.

المقة - الثور

ومن بين حيوانات المقة يتم التركيز على الثور، الذي يربط بالقمر. يقول د. جواد علي في المفصل: (وردت في بعض النصوص هذه الجملة: المقة ثور بعل. ومعناها: المقة ثور رب). ويضيف: (وقد كني عن «المقة» بـــ «ثور» في بعض الكتابات. وما يؤيد أن المراد بثور هذا الإله هو صورة رأس الثور في كثير من الكتابات وهي ترمز إليه). ويضيف: (ويلاحظ أن أكثر الأوثان والصور... التي كان الناس يقدمونها إلى معابد المقة وفاء لنذورهم... اشتملت على صور ثيران).[١٦٤]

لكن الثور ليس رمزا قمريا خاصا. إذ توصف الشمس مثلًا بأن لها قرنين. يقال في العربية: قرني الشمس. كما يقال إن الرسول نهى عن الصلاة بعد طلوع الشمس؛ لأن الشيطان يطلع بين قرنيها. كما أن جلجامش الشمسي، كما تفترض الغالبية التي لا نتفق مع رأيها، يصور أحيانا بقرون. كما أن أوزيريس يتماهى بالتأكيد مع الثيران. فهو يتمثل بالثور (أبيس) الشهير، كما نعلم. كذلك نحن نعلم أن ديونيسيوس، عديل أوزيريس اليوناني، مرتبط بثيران ذوات قرون دون أن نرى من يقول عنه إنه إله للقمر، أو ممثل لإله القمر. يخبرنا جيمس فريزر في الغصن الذهبي بأن:

(ثمة عنصر في شخصية ديونيسوس الأسطورية يبدو كما لو أنه لا يتوافق، في النظرة الأولى، مع طبيعته كإله للزراعة، وهو أنه يصور في كثير من الأحيان في شكل حيواني، وخاصة على شكل ثور، أو على الأقل بقرني ثور؛ لذا يقال عنه إنه: مولود- بقرة، ثور، شكل العجل، وجه العجل، جبين العجل، حامل القرنين، ذي القرنين، المقرّن. وكان يعتقد أنه يظهر على الأقل أحيانا على شكل ثور. وكانت صورته دائما... تصنع على

twitter @baghdad_library

شكل ثور، أو على شكل قرني ثور).[١٦٥]

وأخيرا لدينا هذا المقتبس من فريزر حول ديونيسوس أيضا: (وتسبحه نساء إلس كثور، وترجوه أن يأتي إلى المعبد المقدس بقدميه الثوريين ويغنين: تعال يا ديونيسوس إلى المعبد المقدس عبر البحر. تعال بالبركات إلى هذا المعبد، مندفعا على قدميك الثوريين. آه أيها الثور الإلهي، آه أيها الثور الإلهي).[١٦٦]

ونحن نفترض أن معبد المقة-بلقيس، أو كعبتها، تضمها من ضمن الثالوث الذي تقع هي وسطه. لذا فليس غريبا أن نرى رموزا ذكورية في معابدها. ذلك أن حدي الثالوث إلهان مذكران.

أكثر من ذلك وأهم أن إيزيس شبيهة المقة-بلقيس ذاتها تصور بقرني ثور، وليس بقرني بقرة فقط كما هو معهود. فحسب بلوتارخ أن إيزيس أطلقت سراح سيث-تيفو بعد أن أسره حورس فأثارت (هذه الفعلة التي فعلتها إيزيس... سخط حوريس، فأمسكها بيديه واختطف شارة الملك التي كانت تضعها على رأسها، وألبسها بدلا منها صورة لهرمس مثبتة على خوذة مصنوعة على شكل رأس ثور. وبعد ذلك راح تيفو يتهم حوريس بالنغولة؛ ولكن شرعيته قد تثبتت تماما بقضاء من الآلهة أنفسهم)[١٦٧].

هنا تتماهى إيزيس بتحوت- هرمس، وتصبح إلها ذكرا، تضع قرني الثور على رأسها. وليس هذا غريبا، فحورس هي شمس تعادل الشمس الصلية، لذا دعيت أحيانا باسم (حورس المؤنث). وعليه، فقرنا الثور لا تعنيان أن المقة إله ثور، كما أن تعبير (المقة ثور بعل) يساوي وضع خوذة بقرني ثور على رأس إيزيس.

وليس غريبا أن يظهر الثور في رموز المقة. ذلك أن المعابد الإيزيسية، أي معابد الميزان، هي ثالوث، يكون فيه الوسط أنثى، والحدان الطرفيان آلهة أوزيريسية مذكرة.

وترى الموسوعة البريطانية في طبعاتها الجديدة أنه يجب مراجعة فكرة ارتباط المقة بالقمر:

(حتى وقت قريب جدا فقد اعتبر المقة إلها للقمر تحت تأثير المفهوم الذي صار غير مقبول بشكل عام والقائل أن مجمع الآلهة العربي الجنوبية يكون من: القمر-الأب والشمس الأم... والزهرة الابن. فالبحوث الحديثة تركز على أن رمز رأس الثور وموتيف الكرمة التي ربطت به هي رموز شمسية وديونيسوسية، وأنها أكثر توافقا مع إله شمسي ذكر وقرينته إلهة الشمس).[١٦٨]

ورغم أننا نختلف مع ما انتهى إليه تقدير الموسوعة البريطانية حول (عبادة شمسية)

ما، فإن الشك الذي أثارته حول كون المقة إلها للقمر هو شك يستند إلى أساس فعلي، كما رأينا قبل لحظات. ونحن نعتقد أن عبادة المقة عبادة نجمية وليست شمسية ولا قمرية. ومن أجل هذا فالرموز المرتبطة به (رموز... ديونيسيسية). وديونيسيوس هو أوزيريس اليوناني، حسب ما يخبرنا هيرودتس. وهو أوزيريس الخمري الفيضي. وأوزيريس هذا يتمثل في نجم هو (سهيل) على ما نعتقد.

الغرانيق العلى

دعي الثالوث العربي المكي (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) بالغرانيق العلى. يقول لنا الكلبي في الأصنام: (وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى! كانوا يقولون: بنات الله... وهن يشفعن إليه. فلما بعث الله رسوله أنزل عليه: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾.[١٦٩]

والغرنوق طائر مائي أبيض، وهو بشكل أدق طائر البلشون. وهذا يعني أن اللات والعزى كانت تصور على أنها طيور غرانيق. ولأنها طيور فإن أصنامها كان ينظر إليها كطيور. يقول ابن الأثير المحدث في النهاية في غريب الحدث والأثر: (تلْك الغرانِيق العُلَى؛ الغرانيق هاهنا: الأصنام، وهي في الأصل الذكور من طَير الماء واحِدها: غرنوق وغرنيق سمي به لبياضه وقيل: هو الكركيّ. والغرنوق أيضا: الشاب الناعم الأبيض. وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع).[١٧٠]

ويقول اللسان: (وفي الحديث: تلك الغرانيق العُلا؛ هي الأَصنام، وهي في الأصل الذكور من طير الماء).[١٧١]

الأصنام سميت غرانيق لأنها تمثل آلهة غرانيق، أي آلهة تأخذ شكل طيور. والأصنام تجسيداتها الأرضية، في حين أن الغرانيق صورتها السماوية المتخيلة. وكنا قد ذكرنا في مكان آخر أن أوزيريس الجنوبي، أي المتجدد، يظهر في صورة طائر. في حين أنه يظهر في صورة حية حين يكون في لحظته المنسحبة. علوها دليل على وجودها السماوي. ويبدو أن الديانة العربية كانت تتخيل أن الأرواح تصعد إلى السماء في صورة غرانيق بيض، كي تلتحق بالآلهة وتتجدد. يؤيد هذا الزعم أن لسان العرب يخبرنا أن (الغرنوق:

twitter @baghdad_library

الناعم المنتشر من النبات. أَبو حنيفة: الغرنوق نبت ينبت في أصول العوسج وهو الغرانق أَيضاً).[١٧٢] وهذا يعني أن النبتة الجديدة الطرية تدعى الغرنوق. ويضيف الزبيدي في تاج العروس: (الغرنوق والغرانق بضمهما: الذي يكون في أصل العوسج اللين النبات ج: الغرانيق قاله أبو عمرو، شبه لطَراوته ونضارته بالشاب الناعم. ونص أبي حنيفَةَ: وهو لَين النبات).[١٧٣] ويبدو أنه لهذا ترتبط الغرانيق بالموت. إذ ينظر إلى الموت على أنه ذهاب إلى الآلهة من أجل التجدد، أي من أجل أن يتحول الجسد الذي خرب إلى نبت طري جديد أو شاب فتي جديد. يدل على هذا قول علي بن أبي طالب: فكأني أنظر إلى غرنوق من قريش يتشحط في دمه، أي شاب ناعِم قتيل. ويدعم هذا أيضا حديث موت ابن عباس، وننقله عن لسان العرب: (لما أُتِي بجنازته الوادي أقبل طائر غرنوق أبيض كأنه قبطِية حتى دخل في نعشه. قال الرَّاوي: فَرمقته فلم أره خرج حتى دفن).[١٧٤] وهكذا دخل الغرنوق الأبيض، الذي يشبه القماش القبطي الأبيض، نعش ابن عباس، ولم يغادر إلا بعد الدفن. ولا بد أن الغرنوق- الروح قد طار إلى السماء مع روح الرجل، أو أنه روح الرجل.

حزام الجوزاء

لكن رغم المادة الغزيرة عن الغرانيق العلى في المصادر العربية، أي عن اللات والعزى ومناة، ورغم معرفة المصادر العربية أنها تقع في الأعلى (الغرانيق العلى)، أي في السماء، فإننا لا نعثر على مصدر واحد يقول لنا بالضبط أين تقع في الأعلى. كذلك فلا أحد ربط هذه الغرانيق مباشرة بنجوم محددة في السماء.

وكنا قد أوضحنا أن الأصنام والملائكة، أي اللات والعزى ومناة، تدعى بالإناث. لكننا نعلم أيضا أن النجوم الصغار تسمى بالإناث مثل الأصنام والملائكة. يقول لنا الزبيدي في تاج العروس: (الإِناث: صغار النجوم)[١٧٥] وهذا ما يؤكد أن اللات والعزى ومناة نجوم صغار. هذه النجوم هي فيما نفترض نجوم حزام الجوزاء الثلاثة: (النطاق، النيلام، المنطقة). هذه النجوم الثلاثة هي الغرانيق العلى. فالنطاق هو اللات، والنيلام هي العزى، ومناة هو المنطقة. والعزى هي شبيه إيزيس. ونملك من منطوقات الأهرام ما يدل على أن إيزيس ملتصقة بحزام الجوزاء، أي أنها جزء منه: (إيزيس العظيمة مربوطة بحزام كيمس).[١٧٦]

وعلى الأغلب فإن هذا حزام كيمس هو حزام أوريون، أي حزام الجوزاء. وبما أن العزى هي إيزيس (إيزه بالمصرية)، فيجب أن تكون هي أيضا في كيمس- حزام الجوزاء.

وتصور لنا الآية الكريمة وضع اللات والعزى ومناة بشكل يتوافق مع وضع نجوم حزام الجوزاء في السماء: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾.(١٧٧)

ذلك أنك لو رفعت نظرك للسماء ونظرت إلى النجوم الثلاثة لرأيت أن النجمين الأول والثاني منهما قريبان من بعضهما، في حين يبتعد الثالث وينحرف يسارا. إنه مختلف كما تظهره الآية. فمناة هي: مناة الثالثة الأخرى، المنفردة والمبتعدة قليلا. وصف مناة بأنها الثالثة، وبأنها الأخرى، يوحي بابتعادها عن اللات والعزى. لم يقل القرآن (اللات والعزى ومناة)، بل أضاف الأخرى، أي المتأخرة والمبتعدة.

ولدينا في اللغة العربية ما قد يشير إلى ارتباط النطاق والمنطقة بالصفا والمروة. فالنطاق والمنطقة تعنيان طرازا من المآزر التي توضع على وسط الإنسان. يقول لسان العرب: والمنطَق والمنطقة والنطاق: كل ما شد به وسطه. غير أن الإزار والمئزر تعني: الجبل، أيضا. يقول اللسان: الوَزَر: الملجأ، وأَصل الوِزر الجبل المنيع. وينقل عن أَبي إسحق قوله: الوَزَرُ في كلام العرب الجبل الذي يُلْتَجأُ إليه، هذا أَصله. وكل ما الْتَجأْتَ إِليه وتحصنت به، فهو وَزَرٌ. ويخبرنا الجاحظ في البرصان والعرجان في حديث غريب عَن النبي موسى أنه:

(كان إذا دخل الماء ليغتسل دخل وعليه إزاره فإذا بلغ الماء منه عورته خلع الإزار فوضعه على صخرة قال: فقالت بنو إسرائيل: إن موسى إنما يفعل هذه؛ لأنه آدر فلما كان ذات يوم جاء ليغتسل فتناول الإزار فوثبت الصخرة تسعى وموسى يقول: إزاري صخرة إزاري صخرة وهو يضربها بعصاه).(١٧٨)

إزاري صخرة... إزاري صخرة. هكذا صاح موسى. وهكذا فالمنطقة- الإزار هي الصخرة والجبل. والصفا والمروة جبلان، أو صخرتان كبيرتان. عليه، فكلمتا النطاق والمنطقة تعنيان: الإزاران والجبلان. وسوف نرى في مكان ما من بحثنا أن العرب تسمي الهرم الأصغر من أهرام الجيزة الثلاثة باسم (الهرم المؤزّر). وبناء على ما قلناه يمكن فهم لم سُمي بهذا الاسم. فهو في الواقع مؤزر، أي مكسو بطبقة من الصخور فوق صخره الأصلي، لا تصل على أعلاه، بل تصل إلى ما دون منتصفه بقليل. وهذا يعني أنه يرتدي إزارا. وبما أن موسى قال: إزاري صخرة، فإن الأمر يصبح واضحا تماما. فالهرم الأصغر مؤزر بالصخور. أي يرتدي وزرة من الصخور. وسوف نرى في وقت لاحق أن الهرم الأصغر مثيل نجم المنطقة.

twitter @baghdad_library

إذن، فاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى (بنات الله)، التي يبدو أنها تتمثل بنجوم حزام الجوزاء. ونريد أن نضيف هنا أن الله عند الجاهلية هو حاصل جمع ثلاثة، أي حاصل جمع بناته في الحقيقة. وبما أن بنات الله، أي الغرانيق العلى، تتكون من ذكرين (اللات ومناة) وأنثى واحدة (العزى)، فإن الله، الذي هو طاقة الكون، خليط من مبدأين اثنين؛ مذكر ومؤنث، وبنسبة اثنين إلى واحد. غير أن المبدأ الأنثوي يحصل في مقابل خسارته على حصته من ناحية أخرى: إذ يأخذ دور الميزان في الطاقة الكونية. فهو الذي يعادل بين مظهري الإله الصيفي والشتوي. من أجل هذا يدعى الرقم ثلاثة عند الفيثاغوريين (عدالة). إيزيس والعزى هما رقم ٣. أما الرقمان واحد واثنان فهما الإله في قمته وقراره. والثالوث كله ميزان بكفتين: للإله الذكر الكفتان، وللأنثى نقطة التوازن، فحين تميل مع هذا ينتصر هذا، وحين تنزلق نحو ذاك، يكون النصر لذاك.

طبعا علينا أن نشير إلى أن هذا الثالوث يختلف عن العائلة المقدسة: (الآب والابن والروح القدس). فلدينا في العائلة المقدسة الابن والروح القدس، أي الإلهة الأم وابنها، ثم الآب، مع إضمار مظهريه. فالآب هو اللات ومناة، مندمجان معا. أما الثالوث الذي نحن بصدده، فهو ذكران في طرفيه، وهما مظهرا الإله الصيفي والشتوي، ثم الإلهة الأنثى. ولا يذكر في هذا الثالوث الابن. الابن مضمر مع الأم. إنه في حضنها لكنه لا يظهر في الصورة. نحن نرغب أن نسمي ثالوث (الآب والابن والروح القدس) باسم العائلة المقدسة. أما ثالوث (اللات والعزى ومناة) فنرغب أن نسميه: ثالوث الغرانيق. صحيح أن الثالوثين هما شيء واحد في النهاية، لكن التفريق بينهما ضروري. وعدم التفريق بينهما قد يؤدي إلى التشوش في خصوص ثواليث مثل اللات والعزى ومناة، أو غيرها.

في كل حال، فإن المصادر العربية فسرت الآية ٧٣ من سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، التي تعني في رأينا أن الله حاصل جمع ثلاثة، على أنها تعني واحدا من ثلاثة. يقول ابن كثير في البداية والنهاية:

(وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم: الذات المقدسة وعيسى ومريم، على اختلاف فرقهم).[١٧٩]

فالله عند نصارى نجران هو، بحسب ابن كثير، الذات المقدسة، أو الآب، أي الأول في ثالوث العائلة المقدسة. غير أن المسيحية ترى الإله، في الواقع، حاصل جمع للثلاثة، لا واحدا من ثلاثة. وهو ما يوضحه تعبير (الثلاثة في واحد). كما أن مكة في الجاهلية كانت ترى أن الله حاصل جمع ثلاثة، أو ثلاثة في واحد.

وقد فسرت (ثالث ثلاثة) على أنها تعني واحدا من ثلاثة انطلاقا من الآيات عن هجرة الرسول من مكة مع أبي بكر: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾.

لقد قيست (ثالث ثلاثة) على (ثاني اثنين). فثاني اثنين تعني مكملا لاثنين، أي واحدا من اثنين. نحن نعتقد ان (ثالث ثلاثة) في الآية لا تعني هذا. فالمسيحية العربية القديمة، إضافة إلى الديانة المكية، كانت ترى أن الله تركيب من ثلاثة، وليس واحدا من ثلاثة. فالمبدأ المذكر له اثنان من ثلاثة، والمبدأ المؤنث له واحد من ثلاثة. والله هو تركيب من المؤنث والمذكر معا.

ثالثة الأثافي

ولدينا خبر غريب جدا من الكلبي في (الأصنام) ربما يبرهن على أن إله الجاهلية كان حاصل جمع ثلاثة، وليس ثالث ثلاثة: (كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذه ربا، وجعل ثلاث أثافي لقدره. وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلا آخر فعل ذلك... وكان الذين يفعلون ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها {عند الكعبة وأصنامها} ولصبابة بها).[١٨٠]

الغريب في أمر هذا الخبر هو الربط بين أحجار القدر الثلاثة وبين الله. إذ يجمع الجاهلي أربعة أحجار يختار أحسنها كحجر لإلهه، ثم يجعل الباقي أحجارا للقدر!

وإذا أخذنا هذا الكلام على ظاهر معناه، فإنه يعني أن المؤمن العربي الجاهلي يختار إلهه كما يختار أحجار قدره! أي أنه كان غير قادر على التفريق الجدي بين إلهه وأحجار الأثافي! وهذا أمر يصعب تصديقه، الأمر الذي يجعل المرء يعتقد أن عملية اختيار الأحجار الأربعة تمثل طقسا دينيا. أي أن ثمة علاقة دينية ما بين أحجار القدر وبين حجر الله. فحين يقوم الجاهلي باختيار أحجار قدره مع أحجار الله فهو لا يخلط الطين بالعجين، بل يقوم بممارسة دينية، سواء تعلق الأمر بحجر الله، أو أحجار موقده.

twitter @baghdad_library

إذا صح هذا، فإن هذا السلوك ربما يفسر جملة (الله ثالث ثلاثة). فهناك أحجار قدر ثلاثة ترمز لبنات الله الثلاثة، في حين أن الحجر الرابع، حجر الله، هو رمز لتركيبها كلها معا. فالله هو حاصل جمعها معا. إنه الثلاثة في واحد. من أجل هذا فهو يجمع معها، ثم يؤخذ وحده.

وكنا من قبل قد أوضحنا من قبل، أن بنات الله تتمثل، في الغالب، بنجوم حزام الجوزاء الثلاثة (النطاق، النيلام، المنطقة). ودللنا على ذلك بما جاء عند الزبيدي في تاج العروس من أن كلمة (بنات) تطلق أيضا على (النجوم الصغار)، وليس على الملائكة والأصنام فقط. أي ان النجوم الصغار هي (بنات الله) أيضا.

ورغم أن أحدا لم يقل لنا إن نجوم حزام الجوزاء هي أثافي موقد ما، لكننا لا نستطيع تجاهل مثل هذا الاحتمال، احتمال أنه نظر إلى نجوم الحزام على أنها أحجار قدر ثلاثة، أي على أنها تشبه موقدا. وبالتالي، لا بد ان تكون الأحجار الثلاثة التي كان الجاهليون يجمعونها من أجل القدر هي تمثيل لنجوم الحزام، أي لبنات الله.

وقد عرفنا مجموعتين من النجوم الثلاثية تشبه بـــ(الأثافي) عند العرب. الأولى تدعى: الهقعة. يقول الخليل بن أحمد في العين: (الهقعة: ثلاثة كواكب فوق منكبي الجوزاء، مثل الأثافي، وهى منازل القمر، إذا طلعت مع الفجر اشتد حر الصيف) [١٨١]. والثانية تدعى البطين: وهو ثلاثة كواكب صغار مستوية التثليث، كأنها الأثافي، كما تقول المصادر العربية. لكن لم يرد إلينا، نص يؤكد أن نجوم الحزام شبهت بالأثافي.

غير أن لدينا تعبيرا، أو مثلا، في العربية يقول: (رماه الله بثالثة الأثافي)، ربما يشير إلى أن الأثافي كانت تطلق على نجوم الحزام، وعلى ثالوث مكة الشهير: (اللات والعزى ومناة). يقول لسان العرب في تفسير هذا القول: (يقال: رماه الله بثالثة الأثافي، وهي الداهية العظيمة، والأمر العظيم. وأصلها أن الرجل إذا وجد أثفيتين لقدره، ولم يجد الثالثة، جعل ركن الجبل ثالثة الأثفيتين. وثالثة الأثافي: الحيد النادر من الجبل، يجمع إليه صخرتان، ثم ينصب عليها القدر).[١٨٢] ويؤكد الميداني في مجمع الأمثال هذا التفسير: (رماه اللّه بِثالثة الأثافي. قالوا: هي القطعة من الجبل يوضع إلى جنبها حجران وينصب عليها القدرَ).[١٨٣] ولا يخالف القاموس المحيط هذا التقدير: (وثالثة الأثافي: الحيد النادر {البارز} من الجبل، يجمع إليه صخرتان، فَينصب عليها القدر).[١٨٤]

إذن، فثالثة الأثافي هي الحجر الأكبر المتمثل في الجبل ذاته. وبالتالي فتعبير (رماه بثالثة الأثافي) يعني رماه بأكبر الدواهي والشرور وأعظمها.

نعتقد أن هذا التفسير تخريجة غير ملائمة. فهي تستند إلى حالة خاصة: عدم وجود حجر ثالث كي يكتمل الموقد، وليس هناك ما يشير إلى أن المثل يتناول هذه الحالة الخاصة بالذات. على العكس فالمثل يطلب التعميم. أي أنه يطال كل إثفية ثالثة، مهما كان نوعها وحجمها. من أجل هذا فنحن نشك في هذا التفسير، ونراه تخريجة قاصرة من لغويين، فاتهم أن يدركوا المعنى الميثولوجي للمثل. ولدينا بيت شعري لخفاف بن ندبة يقول فيه:

وإن قصيدة شنعاء مني إذا حضرت كثالثة الأثافي

والبيت لا يتيح لأحد الافتراض أن خفافا يصف ثالثة الأثافي هنا بعظم الحجم. بل يصفها بالشناعة والقسوة. عليه، فما نعتقده نحن أن ثالثة الأثافي تعني الداهية أو الموت، أي أنها إشارة ضمنية إلى (مناة الثالثة الأخرى). فقد رأينا من قبل كيف أن (مناة) رمز للموت الشتوي للإله. كما رأينا كيف أن (مناة) تتفق في الجذر مع المنية، أي الموت. كذلك رأينا كيف أن الآلهة الشبيهة بمناة هي آلهة قتيلة ذبيحة مثل (مطعم الطير) العربي. عليه، فإن تعبير (رماه الله بثالثة الأثافي) تعني، في أغلب الأمر (رماه الله بالموت). فالثالوث المكي هو الأحجار الثلاثة التي تقوم عليها القدر الكونية. لكن الثالث منها بالذات، أي مناة، يرمز للموت والهلاك والدواهي. ويقوي من اقتراحنا أن جذر أثف يعطي معنى: تبع. و(مناة الثالثة) هي (الأخرى) أي التي تتبع الاثنتين.

إذن، فعندما يأخذ البدوي أحجاره الأربعة، ثم يختار إلهه من بينها، ويقيم بالثلاثة الباقيات موقده، فإنما يقوم بطقس ديني عميق المغزى. طقس يوضح مفهوم الجاهلية الديني الأساسي، يشير إلى أن (الله ثالث ثلاثة)، أي تركيب من ثلاثة. إنه يحول بنات الله الثلاثة إلى موقد. أما الرابع، فهو تمثال الإله ورمزه، وهو تركيب من هاتيك البنات، واختصار لهن. لذا فهو يصلي له. فالغرانيق العلى، أي اللات والعزى ومناة، يشفعن له، ومن الضروري تقديسهن، لكن السجود هو للرابع، أي الإله، الذي هو تركيب من بناته الثلاث. والبنات الثلاث هن حاصل جمع المبدأين المذكر والمؤنث. وهذان المبدآن معا يمثلان الإله.

ولو لم يكن الأمر كذلك، لكان من السخف أن يخلط الجاهلي إلهه بأحجار موقده. إذ كان بإمكانه أن يبحث عن حجر جيد هو حجر الله، وأن ينصبه ويصلي له من دون أن يخلطه بأحجار الموقد. ولم يكن هذا ليتعبه. لكنه كان يقوم بطقس ديني يجمع فيه الله مع بناته، أي مع أحجار قدره الثلاثة.

وعليه، نعتقد أن الجاهلية كانت ترى في نجوم الحزام موقدا ما، بأثافيّ ثلاث!

twitter @baghdad_library

فصل 2

الإله أوروتالت

(العرب يعبدون إلهين فقط ، لا يعبدون سواهما).

هيرودتس

لدينا تصريح شهير جدا لهيرودتس في (التواريخ) عن أديان العرب قبل الإسلام، يقول فيه إن العرب يعبدون إلهين اثنين، لا يعبدون سواهما. وهذا التصريح حسب ترجمة المجمع الثقافي لترجمة رولنسون الإنجليزية:

(العرب يعبدون إلهين فقط هما ديونيسوس وأورانيا. ويقولون إن أسلوبهم في حلق شعرهم بشكل دائري، وحلاقة الشعر في منطقة الصدغين هو محاكاة لديونيسوس، وهو في لغتهم أوروتال، أما أورانيا فهي اللات {أليلات})[١].

وحسب ترجمة G. C. Macaulay الإنجليزية:

(Of gods they believe in Dionysus and Urania alone: moreover they say that the cutting of their hair is done after the same fashion as that of Dionysus himself; and they cut their hair in a circle round, shaving away the hair of the temples. Now they call Dionysus Orotalt and Urania they call Alilat) [٢].

ولأنه يجري الاستناد إلى نسخ لاتينية، فإنه يتم استبدال (أورانيا) بـ(أفروديت)، فأورانيا الرومانية هي أفروديت في اليونانية. وقد وضعنا (أليلات) بين قوسين في نص ترجمة المجمع الثقافي؛ لأن الاسم ورد هكذا عند هيرودتس، غير أن المترجم افترض، بناء على الاتجاه العام، أن أليلات هي اللات.

لكن ما نود الإشارة إليه هو الاختلاف بين الترجمتين حول اسم الإله. فهو أوروتال Orotal في ترجمة رولنسون التي نقلت عنها الترجمة العربية، لكنه في ترجمة G. C. Macaulay أوروتالت، أي بتاء في آخره. وسنتحدث عن هذا الاختلاف المهم لاحقا.

العرب يعبدون إلهين فقط!

تصريح غريب جدا من هيرودتس!

بل غريب ومربك، من وجهة نظر الغالبية الساحقة من الباحثين. إذ هو يعاكس الصورة الشائعة عن ديانة العرب قبل الإسلام، التي تظهر الجزيرة العربية كفوضى آلهة وأصنام. فالكعبة ذاتها كانت تحوي المئات من أصنام الآلهة. كما أن لكل قبيلة، أو حي من قبيلة إلها خاصا بها. فكيف يأتي هيرودتس ليقول لنا: إن العرب لا يعبدون سوى إلهين فقط؟ لا بد أنه مخطىء تماما، بل إنه يهذي في الحقيقة!

تصريح هيرودتس الخطير هذا اعتبر واحدا من أشد تصريحاته سوءا وقلة حذر. ولنأخذ مثالا على ذلك ما يقوله لنا أحد المختصين في أديان العرب قبل الإسلام عن هذا التصريح:

(فقد أكد هذا الكاتب أن العرب يقسمون بإلهين: باخوس وأورانيا {العديلين الرومانيين لديونيسوس وأفروديت اليونانيين} باعتبارهما إلهيهما الوحيدين، وإذ من المحتمل أن يكون هذا تصريحا آخر من تصريحاته قصيرة النظر، فإنه على الأقل ماهى بين ديونيسيوس وأوروتال، وبين أورانيا وأليلات).[٣]

يوافق هاموند هنا على مساواة هيرودتس أوروتال بديونيسوس، وأليلات بأورانيا- لكنه يتهم هيرودتس بقصر نظر عام، ويرى أن هذا التصريح دليل آخر على قصر النظر هذا. إذ كيف يكون للعرب إلهان فقط ونحن نعرف أسماء العشرات منها؟ ثم كيف يحدثنا عن إلهين اثنين، ونحن نعرف أن لديهم، على الأقل، ثالوث مكة الشهير (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)، أي الغرانيق العلى؟

فهل نصدق نحن تصريح هيرودتس الشهير، أم نصدق التهمة الموجهة إليه، تهمة قصر النظر، ونتجاهل، بالتالي، تصريحه الخطير؟ نحن مقتنعون بأن تصريح هيرودتس هو أهم تصريح عن الديانة العربية يأتينا منذ ما قبل الميلاد. بل لعله أهم تصريح عن هذه الديانة حتى الآن. إذ هو يؤكد أن وراء الفوضى الظاهرية في عبادة العرب قبل الإسلام، فوضى الآلهة والأصنام، ثمة وحدة عميقة جدا. فهناك إلهان رئيسان للعرب فقط في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. وهذا يعني أن الآلهة الأخرى هي، في الواقع،

twitter @baghdad_library

أسماء قبلية أو محلية أخرى لهذين الإلهين، أو فعاليات مختلفة لهما. وليس ما يمنعنا من أن نفترض أن الحال ظل كذلك حتى قبيل الإسلام.

وما دام الأمر كذلك، فإن علينا أن نحاور نص هيرودتس كي نفهمه على وجهه، لعل فهمه أن يقدم لنا مفتاحا لفهم أديان الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأن يقلب لنا المفهوم السائد حولها.

مشاكل نص هيرودتس

تكمن مشكلة نص هيرودتس، في رأينا، في مسألتين اثنتين:

الأولى: غموض اسم الإله الذكر (أوروتال، أوروتالت) المعروض أمامنا. وهذه مشكلة تتعلق بالنص ذاته، كما تتعلق بالقراءات التي جرت له أيضا. يقول د. جواد علي في المفصل: (وأما أوروتال فهو تحريف، على ما يظهر، لاسم صنم من الأصنام العربية، صار من الصعب إرجاعه إلى صنم من الأصنام التي نعرفها الآن).[٤]

الثانية: المساواة بين أليلات واللات العربي. وهي مشكلة الباحثين لا النص. إذ أن هيرودتس لم يقل لنا أبدا إن أليلات هي اللات، بل إن الباحثين هم من وضعوا علامة المساواة بينهما. هذه المساواة التي أقيمت بينهما غدت أمرا بدهيا لا يناقش عند الغالبية الساحقة من الباحثين في ديانات العرب قبل الإسلام؛ لهذا رأينا ترجمة المجمع الثقافي تضع من دون تردد أو حذر (اللات) مكان (أليلات) في نص هيرودتس: (أما أورانيا فهي اللات)، بدل أن تقول: (أما أورانيا فهي أليلات). هكذا مرة واحدة، وحتى من دون أن يشار في المتن إلى أن الكلمة وردت عند هيرودتس بصيغة (أليلات). الشيء ذاته فعله العالم الكبير المرحوم د. جواد علي: (وأليلات هو الصنم اللات، الذي يرمز إلى الشمس، فهو إلهة أنثى).[٥]

الأمر محسوم تماما إذن بالنسبة للغالبية الساحقة؛ فأليلات هو الصنم اللات. أي أن اللات العربي إلهة أنثى مثل أليلات في نص هيرودتس!

ونحن في هذا الفصل نرغب في معاكسة الإجماع، أو شبه الإجماع في ثلاث نقاط:

الأولى: ربط أليلات باللات.

الثانية: تحديد طبيعة أوروتال، أوروتالت.

الثالثة: تحديد طبيعة اللات وإن كان ذكرا أم أنثى، بل وخرق الإجماع حول طبيعة الثالوث المكي كله: (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى).

ربط الباحثون إذن أليلات هيرودتس باللات العربي، لات ثقيف بالطائف، والأول في الثالوث الجاهلي: (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)، انطلاقا من التوافق اللفظي بين الاسمين (اللات= أليلات). ولم يتساءل أحد تقريبا حول صحة هذا الربط، أو يجادل فيه. ذلك أن الصلة اللفظية واضحة بين الاسمين، بحيث لا يستطيع أحد أن يماري في مساواتهما.

لكن الربط بين الاسمين لم ينهض فقط على صلتهما اللفظية، بل أيضا على قاعدة فكرة أخرى تقول أن الثالوث المكي كله، وعلى رأسه اللات، هو ثالوث مؤنث. وهكذا اجتمع الشبه اللفظي مع فكرة أنوثة اللات وأليلات، فوصلنا إلى أن أليلات هي اللات.

هذا النتيجة أدت، في رأينا، ليس إلى تشويش نص هيرودتس، بل وإلى تحويله من نص قد يفتح لنا نافذة لفك ألغاز ديانة العرب قبل الإسلام، إلى نص يقف عقبة في هذا الطريق. فعبر هذا النص بالذات تم تأكيد الفكرة الخاطئة التي تقول إن اللات العربي إلهة أنثى. إذا صار بإمكان كل واحد أن يقول: ألا ترون؟ لقد أكد لنا هيرودتس، بما لا يدع مجالا للشك، أن اللات أنثى! صحيح أنه يملك قصر نظر ما، لكنه في هذه النقطة مصيب تماما.

أدت هذه النتيجة أيضا إلى تعميق التشوش حول صورة ديانة العرب قبل الإسلام كلها. فحين يتم تحويل رأس الثالوث العربي (اللات) من ذكر إلى أنثى، فإن الأمر سينتهي إلى تشويش المشهد الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام بكامله؟

نحن نزعم أن اللات إله ذكر، وأنه لا يجوز بالتالي ربطه بأليلات هيرودتس.

ولدينا في المصادر العربية فيض من المواد التي تشير إلى أن الإله اللات تجسد في رجل لا في أنثى. بل إن كل المصادر العربية، تقريبا، تقول لنا إن اللات رجل في الأصل، وأنه تحول بطريقة ما إلى صخرة، أو دخل فيها بعد موته. فلماذا يتم تجاهل هذا التصريح الذي يخترق المصادر العربية الكلاسيكية كلها تقريبا؟ يبدو أن هذا يعود، جزئيا، إلى تجسد اللات في صخرة. ولأن الصخرة مؤنث مجازي، فقد تحدثت عنه المصادر العربية بالتأنيث. يقول هشام بن السائب الكلبي في الأصنام: (واللات بالطائف. وهي أحدث من مناة. وكانت صخرة مربعة. وكان يهودي يلتّ عندها السويق. وكانت سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك. وكانوا قد بنوا عليها بناء).[٦] من الواضح أنه يتم التعامل

twitter @baghdad_library

بالتأنيث مع اللات هنا لأن اللات صخرة، أي مؤنث مجازي. فحين يقول الكلبي (بنوا عليها بناء) فالقصد أنهم بنوا على الصخرة لا على الإلهة. ومثل هذا الأمر معروف في العربية مع آلهة آخرين. خذ مثلًا كيف يقول لنا د. جواد علي عن (ذي الخلصة) الإله العربي المعروف الآخر:

(ويظهر من رثاء امرأة من خثعم لذي الخلصة...:

وبنو إمامة بالولية صرعوا ثملا يعالج كلهم أنبوبا

أن الخلصة كان صنما أنثى، أي إلهة، ولذلك قيل له الولية... وأما تعبيرهم عنه بضمير التذكير، مثل قولهم «كان» فإنهم أرادوا بذلك لفظ «صنم»).[٧]

ذو الخلصة تجسد في صنم، فجرى الحديث عنه بصيغة التذكير، في حين تجسد اللات في صخرة فجرى الحديث عنه بصيغة التأنيث. غير أن الباحثين الحديثين ظنوا أن الحديث يجري عن إلهة أنثى حين تقول المصادر العربية: (كانت اللات)، في حين أن هذه المصادر تعني: كانت صخرة اللات.

ثم جاء عطف العزى، الإلهة الأنثى، على اللات في القرآن ليقوي من الفهم الشائع الخاطئ لطبيعة اللات: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟). فقد فهم العطف على أنه يعني مساواة بين جنس الإلهين، بهذا الشكل أو ذاك. فلا أحد يجادل في أن العزى إلهة أنثى. ثم زاد الأمر تشويشا حين (وصفت!) مناة بـ (الأخرى) الأمر الذي (أكد) لمن يأخذ نظرة سريعة أننا أمام إناث ثلاث بلا شك. فكيف توصف مناة بالأخرى، أي بصيغة تأنيث، من دون أن تكون إلهة مؤنثة؟

وتصاعد التشوش حين أتبع العطف في الآية بالتساؤل: (ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذن قسمة ضيزى!)، مع أن الآية تعليق على أن قريش كانت تسمى اللات والعزى ومناة (بنات الله). أي أن الاستفهام الاستنكاري في الآية، بدل أن يثير الشك حول أنوثة الثالوث، فهم كتأكيد لأنوثته!

وهكذا حسم الأمر: اللات إلهة أنثى!

وحين تأنث الذكر فقد عمينا عن فهم الديانة العربية كلها.

غير أن الآية القرآنية السابقة لا تحدد، في الحقيقة، الطبيعة الأنثوية للثالوث الجاهلي، بل لعلها تنقضها. فالعرب كانوا يسمون الأصنام عموما بالبنات، كما نعرف ذلك جيدا من كل المصادر العربية. يقول الزمخشري في كشافه: (كانوا يقولون في أصنامهم هن بنات الله. وقيل: المراد الملائكة. لقولهم: الملائكة بنات الله). ويضيف: (كانوا يقولون إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله. وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى... فقيل لهم «ألكم الذكر وله الأنثى؟»).[8]

أي أن القرآن رفض في الآية ادعاء قريش بأن الأصنام والملائكة، التي هي اللات والعزى ومناة، إناث. رفض ذلك، وسخرت الآية منهم قائلة ما معناه: أنتم تجعلون ملائكة الله إناثا، أي تعطونه إناثا، في حين أنكم تريدون لأنفسكم الذكور والمزيد من الذكور. ويؤكد القرطبي في تفسيره ما يقوله الزمخشري حين يتحدث عن الآية القرآنية: (إن يدعون من دونه إلا إناثا). يقول بكل وضوح: (إناثا: أصناما، يعني اللات والعزى ومناة. وكان لكل حي صنم يعبدونه ويقولون: أنثى بني فلان).[9]

كل صنم أنثى. أنثى حتى لو مثّل إلها ذكرا! ليس أشد وضوحا من هذا القول. من أجل هذا نقل عن عائشة زوج النبي قولها عن أيام صغرها: كنت ألعب مع الجواري بالبنات. أي أنها كانت تلعب مع أترابها بالتماثيل الصغار. أي أن تماثيل الأطفال تدعى بالبنات أيضا.

عليه، فكلمة الإناث في الآية الكريمة تعني: الأصنام أو الملائكة لا الإناث. فالأصنام تمثيل للملائكة. يدل على هذا أن الآية رقم ٢٧ من السورة ذاتها، سورة النجم، تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.[10] الجاهليون يسمون الملائكة، والأصنام التي تمثلها، تسمية الأنثى. وهم مخطئون في ذلك. إنهم يظنون ذلك، أي يتوهمونه، والظن لا يغني من الحق شيئا. وتحسم السورة الأمر بالقول: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾.[11] وهذا رد مباشر على قريش التي تسمي الآلهة تسمية الأنثى، ورد على الباحثين الذين يعتقدون أن الثالوث المكي بكاملة مشكل من إناث.

واللات والعزى ومناة ملائكة في عرف قريش. وهكذا فالاستفهام الاستنكاري في السورة: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾[12]، استفهام سخرية وتشكيك بما تقوله قريش عن

twitter @baghdad_library

أنوثة الملائكة، أو بالأخرى تسخيف لتسمية اللات والعزى ومناة بأسماء مؤنثة. والأمر كذلك في سورة الزخرف: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾.(١٣) أي سموها تسمية الإناث.

كل هذا يجعلنا نرفض مطلقا الموافقة على الافتراض القائل بأن الثالوث الجاهلي كله ثالوث مؤنث. فالأنثى كلمة تطلق على كل صنم، سواء جسد إلها ذكرا أو إلهة أنثى. كما أنها تقال للملائكة كذلك، لأن الملائكة كانت تتجسد في أصنام. ونحن نستند هنا إلى أشد المصادر موثوقية، أي إلى القرآن ذاته الذي لا شك فيما يحمله لنا من معلومات عن ديانة الجاهلية ومعتقداتها.

أكثر من ذلك فإن صغار النجوم في العربية تدعى بالإناث. يقول الزبيدي في تاج العروس: (الإناث: صغار النجوم)(١٤). وفي هذا إشارة إلى أن اللات والعزى ومناة تتمثل في نجوم سماوية محددة.

الثالوث المكي، إذن، ليس بالضرورة كتلة أنثوية كاملة. المؤكد الوحيد أن حده الأوسط فقط، أي العزى، مؤنث. وما عدا ذلك، أي اللات ومناة، فيجب البث بجنسه.

اللات المذكر

أما اللات فهناك ما يكفي من المواد للقول بأنه إله ذكر. ولنستعرض بعض هذه المواد. يقول الزبيدي في تاج العروس نقلا عن السهيلي عن اللات: إنه رجل كان يلت السويق، وأن:

(الرجل الذي كان يلُتُّ السويق للحج هو عمرو بن لُحي. ولما غلبت خزاعة على مكة ونفت جُرهم جعلته العرب ربّا وأنه اللات الذي كان يلُتُّ السوِيق للحجِيجِ على صخرة معروفة تسمى صخرة اللات، وقيل: إن الذي كان يلُت السويق من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو بن لُحى: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، ثم أمرهم بعبادتِها وبنى بيتا عليها يسمى اللاّت، يقال: إنه دام أمره وأمر ولده من بعده على هذا ثلاثمائة سنة، فلما هلك سميت تلك الصخرة اللاّت).(١٥)

وهكذا فثمة (رجل) كان يلت السويق- لت تعني بل، والسويق خليط من دقيق الشعير والحنطة- ثم مات ودخل الصخرة فعبد، أو عبدت صخرته لأنه دخل فيها. وقد دعيت الصخرة باسم الرجل: صخرة اللات. أما ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر فيقول: (كان رجل يلت السويق لهم، يريد أن أصله اللاّتُّ بالتشديد لأن الصنم سمي

باسم الذي كان يلت السويق عند الأصنام أي يخلطه فخفف وجعل اسما للصنم).[١٦]

إذن فصنم رجل لا امرأة هو الذي يدعى اللات. أما الأزرقي في أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار فيضيف أن: (رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مروا فيلت سويقهم، وكان ذا غنم، فسميت صخرة اللات فمات، فلما فقده الناس قال لهم عمرو: إن ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة).[١٧]

وهكذا فـ(ربكم)، وليس (ربتكم)، هو من دخل في جوف الصخرة. وفي تفسير القرطبي عن ابن عباس: (كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاما لصاحب السويق. [أبو صالح: إنما كان رجلا بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويلت لهم السويق فلما مات عبدوه. [مجاهد: كان رجل في رأس جبل له غنيمة يسلي منها السمن ويأخذ منها الأقط ويجمع رسلها، ثم يتخذ منها حيسا فيطعم الحاج، وكان ببطن نخلة فلما مات عبدوه وهو اللات. [وقال الكلبي كان رجلا من ثقيف يقال له صرمة بن غنم. وقيل: إنه عامر بن ظرب العدواني[١٨]

الأمر واضح تماما هنا: فلما مات- أي الرجل- عبدته ثقيف. وهكذا فالمعبود رجل، وهذا الرجل يدعى اللات.

أما ابن السعود في تفسيره فيذهب إلى أبعد من ذلك. فهو يقول إن صخرة اللات كانت على صورة الرجل المذكور: (وذكر المفسر أبو السعود أن هناك رواية تزعم أن حجر اللات كان على صورة ذلك الرجل الذي قبر تحته، وهو الذي كان يلت السويق، فلما مات، عكفوا على قبره فعبدوه).[١٩]

ونحن لا نستبعد أن يكون الأمر كذلك فعلا. أي أن تكون صخرة اللات قد حفرت فيها صورة الرجل- الإله حفرا غائرا، أو حفرا بارزا.

وبهذه الطريقة يجب فهم الكلبي، مرجعنا الأهم عن أديان العرب في الجاهلية، في الأصنام:

(واللات بالطائف، وهي أحدث من مناة. وكانت صخرةً مربعة. وكان يهودي يلت عندها السويق. وكان سدنتها من ثقيف، بنو عتاب بن مالك. وكانوا قد بنوا عليها بناءً. وكانت قريش وجميع العرب تعظمها).[٢٠]

وكما هو واضح فحديثه بالتأنيث إنما هو عن الصخرة بكل تأكيد. أما الصخرة فتجسد رجلا، أي إلها ذكرا. لذا يقول إن (رجلا) يهوديا كان عندها يلت السويق. وننهي بتصريح للقرطبي ينقله عن مجاهد: (كان رجل في رأس جبل له غنيمة يسلي منها السمن ويأخذ

twitter @baghdad_library

منها الأقط ويجمع رسلها، ثم يتخذ منها حيسا فيطعم الحاج، وكان ببطن نخلة فلما مات عبدوه وهو اللات).[٢١]

إذن، فاللات هو ذاته الرجل الذي مات: (فلما مات- أي الرجل- عبدوه).

هذه الاستشهادات غيض من فيض. وهي تؤكد كلها أن اللات يتجسد في رجل، أي في مذكر، وهذا يعني أنه إله مذكر. لكن الغالبية تصر على أن اللات أنثى!

وربما أسهم في تشوش الباحثين حول اللات أن هناك إلهة من طراز من إيزيس عند اليونانيين تدعى (ليتو). وهذه الإلهة كانت، فيما يبدو، في خلفية أذهان الباحثين الغربيين الذين افترضوا أن اللات العربي أنثى. يقول هيرودتس في التواريخ:

(وللمصريين أسطورة يروونها عن هذه الجزيرة {كيمس، وشميز حسب الترجمة التي بين أيدينا}، فيقولون أن ليتو، إحدى الآلهة الثمانية الأصلية كانت تقيم، في قديم الأزمان في بوتو، حيث معبدها الآن. وهناك استقبلت حوروس ابن أوزيريس، دلالة على ثقة أوزيريس بها، فأنقذته من الوحش تيفون (سيث) بعد بحث طويل عنه في أرجاء العالم، بأن أخفته في تلك الجزيرة بعد أن جعلتها تعوم ليكون بعيدا عن متناوله. ويذهب المصريون إلى أن حورس وبوباستيس ولدا من زواج إيزيس وأوزيريس. وقد أنقذتهما ليتو التي قامت على تربيتهما. وأبولو عند المصريين هو حوروس وديمتر هي إيزيس، وأرتميس هي بوباستيس).[٢٢]

من الواضح أن ليتو هنا مثيلة إيزيس. فنحن نعلم أن إيزيس أيضا أخفت حورس الطفل في جزيرة خوفا من سيث، في رواية أخرى. ليتو هذه هي ليليث شجرة إنانا، التي ستكون معا دوما. وهي (ليليت) الأدب التوراتي، وليست اللات العربي.

بيت الربة

وثَم أمر آخر محدد شوش الباحثين وشجعهم على اعتبار اللات إلهة أنثى، فقد ورد في الأخبار أن اللات تدعى (الربة) أو أن بيتها هو الذي يدعى (بيت الربة)، حيث ورد في تاج العروس للزبيدي مثلًا أن: (الربة: هي اللات. في حديث عروة بن مسعود الثقفي لما أَسلَم وعاد إلى قومه دخل منزلَه فأنكر قومه دخولَه قبل أن يأْتي الربةَ، يعني اللات، وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف بالطائف، وفي حديث وفد ثقيف: «كان لَهم بيت يسمونه الربةَ يضاهون به بيت الله، فلَما أَسلَموا هدمه المغيرة»).[٢٣]

ويكرر لسان العرب الرواية: وفي حديث عروة بن مسعود، رضي اللّه عنه: لما أَسلَم وعاد إِلى قومه، دخل منزله، فأَنكر قَومه دخولَه، قبل أَن يأْتي الربةَ، يعني اللات، وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف بالطائف، وفي حديث وفد ثقيف: كان لهم بيت يسمونه الرَّبَةَ، يضاهئون به بيت اللّه.

هنا تقدم اللات أحيانا باسم الربة: (الربة: هي اللات) و (قبل أن يأتي الربة، يعني اللات)، وأحيانا أخرى يقدم بيتها ذاته على أنه هو الذي يسمى الربة: (كان لهم بيت يسمونه الربة). وقد فهم من كل هذا أن اللات إلهة أنثى. مثلًا، يقول د. جواد علي: (وقد عرف البيت الذي بني على اللات بـ«بيت الربة» ويقصدون بالربة اللات؛ لأنه أنثى في نظر عابديه).[٢٤]

ونحن في الحقيقة أميل إلى أن نرى أن البيت، أي معبد الطائف، هو الذي يسمى الربة، وليس اللات. وما ورد في حديث وفد ثقيف يدعم هذا، فقد كانت ثقيف تريد بالربة مضاهاة الكعبة، وليس من المعقول أنهم أرادوا مضاهاة الإلهة بالكعبة! فالمنطقي أن يضاهئوا بيتا ببيت.

إذا صح هذا الحكم، فإن البيت الذي أقيم على صخرة اللات دعي (الربة)، وليس (بيت الربة) بمعنى بيت الإلهة. بذا فالحديث عن دخول عروة بيته قبل أن يأتي الربة، إنما يعني قبل أن يدخل بيت اللات، أو الكعبة الثقفية إذا أردت، ويبدو أن التقليد كان أن يدخل العائد من السفر الكعبة الثقفية قبل أن يدخل بيته.

مصداق ما نقول أن كلمة الربة تحمل معاني عدة في العربية، من بينها: الدار الكبيرة. يقول الزبيدي في تاج العروس: (الربة: الدار الضخمة. يقال: دار ربة أَي ضخمة. قال حسان بن ثابت: وفي كل دار ربة خزرجية وأوسية لي في ذراهن والد).[٢٥] ويؤكد لسان العرب هذا في حديثه عن كعبة نجران: (الربةُ: كعبة كانت بنجران لمذحج وبني الحارث ابن كعب، يعظمها الناس. ودار ربة: ضخمة).[٢٦] ويكرر تاج العروس قول اللسان: (والربة: كعبة كانت بنجران لمذحج وبنِي الحارث بن كعب).[٢٧]

ليس هناك ما هو أوضح من هذا: كعبة نجران، لا إلهة نجران، كانت تدعى الربة. وعليه، فالربة تعني المعبد أو البيت الضخم. وبيت اللات هو (الربة) أي البيت الضخم، أو المعبد الكبير، أو معبد الجماعة، وليس بيت الإلهة كما يظن.

وفي رواية الواقدي في المغازي عن هدم المغيرة بيتَ اللات ما يفيد أن الربة تعني المعبد:

twitter @baghdad_library

(وأقام المغيرة مليًا وهو على حاله تلك، ثم استوى جالساً فقال: يا معشر ثقيف، كانت العرب تقول: ما من حي من أحياء العرب أعقل من ثقيف، وما من حي من أحياء العرب أحمق منكم! ويحكم، وما اللات والعزى، وما الربة؟ حجر مثل هذا الحجر).[٢٨]

هذه الرواية تفرق بوضوح بين اللات والبيت (الربة). فهي تذكر اللات والعزى والربة معا: (وما اللات والعزى، وما الربة؟). فالربة هنا ليست اللات ولا العزى. ولو كانت الربة تعني اللات لما احتاج إلى جمعهما معا. وهذا ما يفيد أنها تعني البيت الكبير. أما ابن شبه في تاريخ المدينة المنورة فيضيف:

(فقام المغيرة... فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف، إنما هي {أي الربة} لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافيةَ الله واعبدوه، ثم ضرب الباب فكَسره ثم علا على سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجرًا حجرًا حتى سووها بالأرض).[٢٩]

وفي هذا الخبر يتأكد تماما أن البيت هو الذي يدعى الربة، وأنه ليس بيت الربة- الإلهة. فالربة (حجارة ومدر). ومن غير الممكن، بناء على هذا الخبر، أن يكون المقصود تمثال اللات؛ لأن تمثال اللات صخرة واحدة ليس فيها طين، في حين أن الربة من حجر ومدر، أي من حجر وطين، ولها باب وسور، أي أنها مبنى محدد. وفي سيرة ابن إسحق ما يؤكد ما نذهب إليه أيضا. فهو يخبرنا أن أبرهة الأشرم اتجه في البدء إلى الطائف قبل أن يذهب إلى مكة لهدم الكعبة: (وأحث السير والانطلاق، حتى إذا أشرف على وادي وج من الطائف، خرجت إليه ثقيف، فقالوا: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، وليست ربتنا هذه بالتي تريد، يعنون اللات، صنمهم، وليست بالتي تحج إليها العرب، وإنما ذلك بيت قريش، الذي تجىء إليه العرب).[٣٠]

هنا يظهر، وبوضوح كبير جدا، أن الربة بيت ثقيف. فهم يسمون المعبد باسم (ربتنا)، أي بيتنا وكعبتنا، رغم أن ابن إسحق يقول شارحا بشكل غير سليم في رأينا: (يعنون اللات، صنمهم). فهم يقولون: لا تهدم ربتنا، أي بيتنا، فليست هي مقصدك، وإنما مقصدك بيت قريش، أي ربة قريش، أي الكعبة. وهذا يفسر الخبر الذي أوردناه، والذي يقول إن ثقيف بنت ربتها من أجل مضاهاة الكعبة.

وحين تؤخذ كلمة الربة بمعنى الإلهة، لا بمعنى البيت، فإننا نصل إلى التناقض التالي الذي سجله د. جواد علي في المفصل. فتعليقا على الروايات المتعددة حول الرجل الذي كان على صخرة اللات يقول: (فترى هذه الروايات أن «بيت الربة» هو قبر رجل، دفن فيه فصار إلها)![٣١] فكيف يكون بيت الربة- الإلهة قبر رجل؟! وكيف يكون بيت

هذه الإلهة مقرا لإله ذكر؟! هذه النتيجة الغريبة حصلت بسبب عدد من الملابسات التي جعلت اللات المذكر يبدو إلهة أنثى، بدأت هذه الملابسات، أولا، من كون اللات يتجسد في صخرة، أي في مؤنث مجازي، ثم تواصلت، ثانيا، في افتراض أن تأنيث كلمة الأصنام تعني تأنيث الثالوث الإلهي- اللات والعزى ومناة- بكامله، ثم وصلت، ثالثا، إلى الالتباس بين اللات وأليلات عند شارحي هيرودتس، وانتهت، رابعا، بافتراض أن كلمة الربة تعني الإلهة، بينما هي في الوقع تعني البيت الكبير أو المعبد الضخم. إنها سلسلة غريبة من المصادفات، لا تتكرر عادة، شوشت الجميع، وأدت إلى فقدان الاتجاه في محاولة فهم ديانة العرب قبل الإسلام.

وهكذا فكل المؤشرات تدل على أن اللات، الأول في الثالوث العربي، إله مذكر. بالتالي، فمن المستحيل على أليلات هيرودتس المؤنثة أن تكون شبيهة اللات المذكر.

الإله المركب

لكن من هو أوروتال هيرودتس؟ وما الذي يعنيه اسمه؟

للجواب عن هذا السؤال، يجب أن نعيد التذكير بأن هذا الاسم يرد إلينا بصيغتين مختلفتين: Orotalt أو Orotal، أي بتاء في آخره أو من دون هذه التاء. ولسنا ندري بالضبط لم حدث هذا الاختلاف، وهل هو نتيجة اختلاف بين النسختين اليونانية والرومانية. والمشكلة أن القبول بصيغة محددة من الصيغتين قد يحيل، جزئيا على الأقل، إلى شيء مختلف عما تحيل إليه الصيغة الأخرى. فإذا قبلنا بالصيغة التي لا تنتهي بتاء Orotal فإن الاسم يحيل، فيما يبدو، إلى إله ورد في النقوش الثمودية باسم (رتل)، لا نعرف عنه سوى اسمه. فقد أخبرنا د. جواد علي أن من: (آلهة ثمود... الت واللات وحول «حويل» وذو شري وسمين وهلال وصلم ونهى وعثتر سمين كاهل «كهل»، وملك «مالك»، وهادي «هدى»، وبحل، ورتل).[٣٢]

إذا صحت قراءة الباحثين لهذا الاسم الثمودي (رتل) فعلا، فإن من الصعب على المرء ألّا ينتبه إلى التواصل القوي جدًا بين (رتل) و (أوروتال). ذلك أن أوروتال، إذا قبلنا الصيغة التي بلا تاء، هو (أوروت ال) كما ترى الغالبية، أي الإله أوروت. أما (رتل) فهو ينبغي أن يكون (رُت إل)، أي الإله (رُتّ). وهكذا فنحن أمام إلهين: (أوروت) و(رت). ولأن الكتابة السامية لا تظهر الحركات على عكس اليونانية فإن المرء قادر على افتراض أن الاسم هو (رُت) بضم الراء التي كتبت واوا باليونانية: روت. والمسافة

twitter @baghdad_library

بين (روت) و (أوروت) قصيرة جدا.

ولتفسير الاختلاف البسيط بينهما يمكن الاعتقاد أن الاسم وصل لهيرودتس بأل التعريف، أي (الرُّت)، فصار في اليونانية (أوروت)، وهناك احتمال أن الاسم أخذ من لغة من لغات الجزيرة العربية التي تستخدم هاء التعريف بدل أل التعريف. أي أنه في الأصل (هارت، هـ-رت)، ثم حرف إلى (أوروت) باليونانية.

و(هارُت، هـ-رت) قد يشير إلى علاقة بأحد الملكين الساقطين (هاروت وماروت)، اللذين ورد ذكرهما في القرآن: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾- البقرة، آية: ١٠٢.

والمسافة بين (هاروت) و(أوروت) ما تكاد تذكر فعلا. خاصة إذا علمنا أن هناك من يحذف الألف في أسماء مثل هاروت وماروت. فحسب القلقشندي في "صبح الأعشى" أن بعض المصاحف حذفتها: من هاروت وماروت وهامان. أي أنها قد تكتب (هروت) و (مروت).

وهكذا ربما كان الاسم (أوروت) هو في الأصل: هروت Harot بالهاء، أو الرت Arrot. أي أن الاسم من دون أداة التعريف هو: (روت، روت). وهذا قريب جدا من اسم الإله الثمودي (رتل) حين نجرده من اللام التي هي اختصار لكلمة (إل) بمعنى إله. أي أن الإله الثمودي هو الإله (رت).

ولو صح أن (أوروت) هو هاروت، فإن أوروت لا بد أن يكون هو اللات. ذلك أن هاروت هو (عزيز) فيما يبدو. إذ يخبرنا الهيتمي في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد": (وكان اسم هاروت وماروت - وهما في السماء - عزرا وعزيزا)[٣٣].

وكلام الهيتمي يوحي بأن هاروت هو عزرا، لكنه قلب الأمور هنا، أي أنه جعل ماروت وليس هاروت هو من يُدعى في السماء (عزيزا). وعليه ربما كان علينا أن نعكس جملة الهيتمي: (وكان اسم هاروت وماروت - وهما في السماء - عزيزا وعزرا). يؤيد هذا أن (عزرا) على علاقة لفظية قوية جدا مع (العزير) الذي نام مع حماره نوما طويلا. أي أنه مرتبط بالحمار. والإله الشتوي القار، أي النائم أو الميت، يتمثل بحمار كما عرفنا في فصل آخر. أما عزيز فهو شبيه اللات، أي النغمة الصيفية العالية، كما سوف نرى بعد قليل.

لكننا قد نعيد التذكير هنا، في جمل معترضة، بقصة يوسف وعزيز مصر. فقد توصلنا إلى أن (عزيز مصر) هو الإله عزيز، أي النغمة العالية، أي مجوز الريح- ساقي الخمر. من أجل هذا فإن السجين الناجي من سجيني قصة يوسف سوف يعصر الخمر للعزيز هذا. إنه بشكل ما ممثل للعزيز، أي النغمة الصيفية العالية خمرية. أما السجين الثاني الذي سيصلب وتأكل الطير من رأسه فهو شبيه يوسف، أي شبيه مطعم الطير. وهكذا فعزيز شبيه اللات، في حين أن يوسف شبيه مناة. أما امرأة العزيز فهي الحد الوسط الأنثوي بين ذكرين، أي الحد الأوسط في الثالوث:

العزيز	المرأة	يوسف
اللات	العزى	مناة
هاروت	المرأة	ماروت
عزيز	؟؟؟	عزرا

وكما نعلم، فكثيرا ما يقال إن المرأة التي أغوت الملكين هي الزهرة. وكثيرا ما يتم اعتبار الزهرة نجم إيزيس. أي يتم خلطها بالشعرى اليمانية. يقول ابن المطهر في البدء والتاريخ: وعلموا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء، فصعدت حتى إذا كانت في السماء مسخت كوكبا، وهي هذه الزهرة.

بالتاء لا بحذفها

لكن لو قبلنا بالصيغة الثانية التي تنتهي بالتاء، أي أوروتالت Orotalt فإننا سنقترب أكثر فأكثر من اللات، سنصبح معه مباشرة، أي باللفظ وليس بالمعنى فقط. ذلك أن الجزء الثاني من الاسم (أوروتالت) سيشير إلى اللات مباشرة. فنحن أمام (أوروت+ الت). وقد رأينا قبل لحظات كيف أن من آلهة ثمود: الت و اللات. كما أنه ورد في الكتابات اللحيانية: لت و ألت، ومن الواضح أن هذه الأسماء قريبة جدا من الجزء الثاني من الاسم أوروتالت، أي (الت). كما من الواضح أن أسماء هذه الآلهة هي صيغ من اسم (اللات) أول الثالوث المكي، وإذا كان الأمر كذلك، فلا مفر من الافتراض أن (أروتالت) اسم مركب من اسمين، والاسم الثاني منه هو اللات. أما الأول فيجب أن يكون هو الرت الذي تحدثنا عنه قبل قليل. وكل اسم من الاسمين يعادل الآخر. أي أن التركيب تركيب مساواة وتماهٍ، يساوي فيه الرت اللات: الرت= اللات.

twitter @baghdad_library

وكنا قد عرفنا من قبل أن اللات على علاقة بمجوز الريح، أي بالنغمة الخمرية العالية للكون، نغمة أوزيريس الصيفي. وهذا ما يتوافق مع ما أخبرنا به هيرودتس من أن أوروتالت هو ديونيسوس. وديونيسوس إله خمري. أي أنه مثل اللات النغمة الصيفية الخمرية للكون.

وإذا كان أوروتالت يتماهى مع اللات، بل إنه اللات بلفظه في جزئه الثاني، فإن أليلات زوجته يجب أن تكون شبيهة العزى. ونحن نرى، بالفعل، أن أليلات هذه شبيهة العزى! أما اسمها فهو (ليليث) البابلية، التي وردت في نص شجرة صفصاف إنانا السومرية، و(ليليت) النصوص التلموذية، وهاتان هما أيضا طراز من العزى- إيزيس.

الرتة في اللسان

لكننا لا نملك هذا فقط.

فجذر (رتّ) العربي يعرض علينا مساعدته. فهذا الجذر يعطي معنى الزعامة والأولية. يقول لسان العرب: (الرَّت: الرئيس من الرجال في الشَّرف والعطاء، وجمعه رتوت)، و(هؤُلاء رُتوت البلد)[٣٤]، أي رؤساؤه. ويزيد القاموس المحيط: (الرّت: الرئيس)[٣٥] ومن هو أوزيريس الصيفي إن لم يكن رئيسا وشريفا؟! وعليه فمعنى (الرت، رتل، أوروت) قد يكون: الإله الرئيس، الأول. وهذا هو عين ما أخبرنا به هيرودتس عن أوروت-الت أو الرت-الت.

فوق هذا كله، فإن الجذر (رت) يحيلنا إلى موسى النبي مباشرة تقريبا. فالرتة هي عجمة في اللسان. يقول القاموس المحيط: (الرُّتَّة بالضم: العجمة، والحُكْلَة في اللِّسان).[٣٦] ويزيد لسان العرب: (وقيل: هي العجمة في الكلام، والحُكْلة فيه. ورجل أَرتّ: بيِّن الرَّتَت. وفي لسانه رُتَّة... وفي حديث المِسْوَر: أنه رأَى رجلاً أَرَتَّ يؤم الناسَ، فأَخره. الأَرَتّ: الذي في لسان عقدة وحُبسة، ويعجل في كلامه، فلا يطاوعه لسانه. التهذيب: الغَمْغَمَةُ أَن تَسْمَعَ الصوتَ، ولا يُبينُ لك تَقْطِيعُ الكلام، وأَن يكون الكلامُ مُشْبهاً لكلام العجم).[٣٧]

لكن اللسان يضيف عن الأزهري في التهذيب: قال: والرُّتَّةُ غريزة، وهي تكثر في الأَشراف! ويقول "العقد الفريد": (وأما الرّتة: فإنها تكون غريزية وقال الراجز: يأيها المُخلّط الارَتّ. ويقال أنها تكثر في الأشراف).[٣٨]

وهكذا نعود إلى الأشراف والرؤساء الأوائل من جديد! ونحن نعلم أن موسى كان يعاني من رتة في لسانه، أي من عجمة ما. فقد ورد في القرآن: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾

﴿ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾.[٣٩] وفي الجامع لأحكام القرآن: (فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها في فيه على لسانه، فكانت الرتة... ثم اختلف هل زالت تلك الرتة؛ فقيل: زالت بدليل قوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ {طه: ٣٦} وقيل: لم تزل كلها؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ {الزخرف: ٥٢}).[٤٠]. وفي الكشاف للزمخشري: (﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الكلام لما به من الرت)[٤١]

الإله الخنزير

أكثر من هذا كله، أن جذر (رت) يحيلنا إلى الخنزير البري. يقول لسان العرب: (والرَّتّ: شيء يُشْبِه الخنزير البريِ، وجمعه رُتوت؛ وقيل: هي الخنازير الذكور. قال ابن دريد: وزعموا أنه لم يجئ بها أَحدٌ غير الخليل. أَبو عمرو: الرَّتّ الخنزير المُجَلِّح، وجمعه رِتَة).[٤٢] ويضيف القاموس المحيط: (والرُّتُوت أيضا: الخنازير)[٤٣].

حسن جدا! الرت هو الخنزير، أو الخنزير البري. فماذا يعني هذا؟!

يعني أننا نعود، من جديد، إلى آلهة من طراز أوزيريس وأدونيس؟! يقول لنا جيمس فريزر في الغصن الذهبي أن ديونيسوس ربما تمثل في خنزير: (ويتوافق تماما مع هذا أن الخنزير لا بد أن يكون تجسيدا لأدونيس الإلهي، وأن التشابه بين ديونيسوس وديميتر يجعل من المحتمل أن قصة عداء هذا الحيوان للإله كان مجرد سوء فهم متأخر للفكرة القديمة حول أن الإله تمثل في خنزير). ويضيف: (وبشكل عام، فإنه ربما نستطيع القول بأن الحيوانات النجسة هي في الأصل حيوانات مقدسة؛ وأن السبب في عدم أكلها هو أنها كانت إلهية).[٤٤]

أكثر من ذلك، فإنه يخبرنا أن أوزيريس ذاته خنزير: (لذلك، فإن التضحية السنوية بخنزير لأوزيريس {عند المصريين}، مصحوبة بالعداء المفترض من هذا الحيوان لهذا الإله، تنحو نحو أن تظهر، أولا، أن الخنزير هو في الأصل إله، وأنه، ثانيا، أوزيريس).[٤٥]

وكان هيرودتس قد أخبرنا أن المصريين: لا يقدمون الخنزير لأي من آلهتهم سوى ديونيسوس، أي أوزيريس، وإيزيس. فهم يقيمون لهما الأعياد في ذات الموعد كل عام بالتضحية لهما بالخنازير.

إذن، أوزيريس- ديونيسوس كان يتجسد في خنزير عند عدد من الشعوب. إنه إله- خنزير. وبما أن (أوروتالت) هو ديونيسوس، كما أخبرنا هيرودتس، فإنه يجب أن يكون خنزيرا هو الآخر أيضا. وها نحن نرى أن رت- إل تعني: الإله الخنزير، أي الإله الذي

twitter @baghdad_library

يتجسد في خنزير، كما تعني الإله السيد! وهذا ما يدعم، بشدة، أن (أوروتالت) هو (رتل، رت-إل).

ولأن الخنزير أرت، أي لا يفصح في قباعه، فإن الإله الذي يمثله يجب أن يكون أرت، أي يجب أن يكون حكلا.

وحسب المتقي الهندي في كنز العمال فإن الخنزير من المسوخ: (وأما الخنزير فكان من النصارى الذين سألوا المائدة فلما نزلت كفروا).[٤٦] لقد كفر بالمائدة. والمائدة كما رأينا في فصل سابق مرتبطة بمطعم الطير، أي أنها رمز لأوزيريس الواطئ، المنسحب، الميت، الشتوي، شبيه مناة. وكون الخنزير كفر بالمائدة يعني أنه ليس مرتبطا بالمائدة. أي أنه مرتبط بالإله ذي النغمة العالية الصيفية.

الإله رضى

يعتقد كثير من الباحثين أن (أوروتال، أورتالت) هو التحريف اليوناني لأرضو، الذي يرد بصيغ مختلفة حسب لغات الجزيرة العربية: رضاء، رضو، ها- رضو، هرضو، وهو رضى في العربية القرآنية، حسب د. جواد علي. ومن الصعب قبول هذه الفرضية؛ فلمحة الشبه الضئيلة بين أرضو وأوروتال أو أوروتالت ما تكاد تبين. فوق هذا فهناك دلائل ما على أن (رضا) إلهة أنثى. ويرى الدكتور جواد أنه أنثى، بدليل استعمال ضمير التأنيث في الحديث عنه في بيت شعر ينسب إلى المستوغر بعد كسره صنم رضى في الإسلام:

ولقد شددت على رضاء شدة   فتركتها تـلا تنازع أسحمـا

ويرى بعض الباحثين أنه إلهةٌ أيضاً عند العرب الصفويين. وهذا بحد ذاته يضع ظلّا من الشك على المشابهة مع أوروتالت الذكر.

وهناك باحثون كثيرون يرون أن (أرضو) هو (أرصو) الذي ورد في نقوش الفترة الرومانية: (وأما أرصو... فيظن ليدزبارسكي أنه Orotal... ويظن أن أرصو هو «رضا» «رضى» الذي أشار إليه الإخباريون)[٤٧].

ولو افترضنا جدلا أن أرضو ذكر، وأنه هو ذاته أرصو، فهو بذا لن يكون أوروتالت في أي حال. ذلك أن أوروتالت هو النغمة الخمرية العالية، دليل ذلك أن هيرودتس شبهه بديونيسوس الخمري، في حين أن أرصو هو النغمة الواطئة، كما بينا في فصل آخر. ونحن نعتقد بقوة أن أرصو هذا هو رسّ (أصحاب الرس): الرس= أرصو. فأصحاب

الرس هم أصحاب هذا الإله الذي قتل ورسّ في البئر. إنه إله قتيل. أي أنه الوجه المواجه للات. أي أنه الحد الثالث في الثالوث، الذي لم يذكره هيرودتس. فقد ذكر لنا إلهين عربيين هما: أوروتالت- اللات، وأليلات قرينته، التي هي العزى. لقد ذكر لنا اثنين من الثالوث، ولم يسم لنا الحد الثالث.

والواقع أن هيرودتس لم ينس الحد الثالث، بل اختصر فقط. فقد كان يدرك، فيما يبدو، أن الحد الأول والثالث في الثالوث يمثلان الإله ذاته بمظهريه. وهكذا لم يجد بأسا في الحديث عن أوروتالت فقط، أي عن اللات فقط، ونحن نعتقد أن أرصو- الرس، مثيل مناة، هو الحد الثالث الذي لم يذكره هيرودتس.

الحارث وعزازيل

يرى الكثيرون أن اسم (أرتاس) النبطي، الذي سمي به ملوك نبط كثيرون، مأخوذ من (الحارث). وهذا أمر معقول تماما. ونظن أن الحارث هذا هو في الأصل إله، وأن الملوك النبطيين كانوا يتسمون باسمه. وتدل كثرة الملوك النبطيين الذين يدعون باسم (الحارث) على أن الباحثين ربما ظنوا أن اسم الإله يعود إلى الملوك. والمصادر العربية تدعم أن الحارث إله. فهي تعلمنا أن الحارث هو الاسم العربي لإبليس، وأنه يسمى بالسريانية أو العبرية (عزازيل). يقول القرطبي في تفسيره عن إبليس: (وكان اسمه بالسريانية عزازيل، وبالعربية الحارث).[٤٨] ويضيف الدميري في حياة الحيوان الكبرى: (كان إبليس من الملائكة من طائفة يقال لهم الجن وكان اسمه بالعبرانية عزازيل وبالعربية الحارث، وكان من خُزَّان الجنة).[٤٩] إذن، فأرتاس هو الحارث، والحارث هو عزازيل، أي إبليس.

وهكذا يكون لدينا شيء واحد له ثلاثة أسماء: الحارث-أرتاس، عزازيل، إبليس. ونحن نعتقد أن هذه الأسماء الثلاثة تعادل اللات، وأنها تمثل النغمة العليا للكون. ما يؤكد هذا هو وجود دليل يربط الطائر المكاء، ممثل النغمة العالية، بالحارث. إذ كنا قد نقلنا في فصل سابق عن ابن دريد في الاشتقاق خبره عن تسمية الأطفال عند العرب:

(أن الرجل كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك، نحو: ثعلب وثعلبة، وضب وضبة، وخزز، وضبيعة، وكلب وكليب، وحمار وقرد وخنزير، وجحش، وكذلك أيضا تسمى بأول ما يسنح أو يبرح لها من الطير نحو: غراب وصرد، وما أشبه ذلك.

twitter @baghdad_library

وأخبرنا السكن بن سعيد، عن العباس بن هاشم، عن المسيب التميمي قال: خرج تميم بن مر وامرأته سلمى بنت كعب تمخض، فإذا هو بوادٍ قد انبثق عليه لم يشعر به، فقال: الليل والسيل! فرجع وقد ولدت غلاما، فقال: لأجعلنه لإلهي، فسماه زيد مناة... ثم خرج وهي تمخض فإذا هو بمكاء يغرد على عوسجة قد يبس نصفها وبقي نصفها، فقال: لئن كنت قد أثريت وأسريت لقد أجحدت وأكديت. فولدت غلاما فسماه الحارث، وهم أقل تميم عددا).[٥٠]

هذه القصة الأسطورية التي أوردناها سابقا عند الحديث عن طبيعة مناة، تفيدنا في التأكيد على أن الحارث إله ذو نغمة صيفية عالية. ذلك أن تميما حين خرج ورأى السيل سمى ابنه زيد مناة. أي أعطاه اسما مرتبطا بمناة. وهذا يعني أن مناة مرتبط بالأمطار والسيول، أي أنه إله ذو نغمة شتوية قارة. لكنه حين خرج خرجة أخرى وجد أمامه طائر المكاء فسمى ابنه (الحارث). وهذا يدل على أنه يمكن وضع علامة يساوي بين المكاء والحارث: المكاء= الحارث. أي أن الحارث ممثل النغمة العالية، نغمة المكاء واللات.

الإلهان: عزيز ومنيم

إذن، فالحارث العربي هو عزازيل السرياني. ولعل الاسم عزازيل هذا بالذات أن يقودنا إلى توضيح المسألة كلها. والحال أن عزازيل اسم مكون من قسمين: عزاز+ إيل، أي الإله عزيز. ونحن نستطيع أن نتعرف على (عزاز) هذا في نقوش الفترة الرومانية. فقد ورد اسم هذا الإله في أكثر من نقش في تلك الفترة، لكن بصيغة أزيزوس، أو أزيزو. إذ نعلم أن:

(أزيزوس ومونيموس إلهان عربيان كانا يُعبدان في الرُّها زمن الرومان... وكان هذان الإلهان يظهران في موكب عربة الشمس... أزيزوس يتقدم العربة ومونيموس وهو يتبعها)[٥١].

أزيزوس هو التحريف اليوناني ل (عزاز). و(عزاز) السريانية، كما يفترض القرطبي، هي عزيز العربية. ومهم جدا أن يحظى باهتمامنا أن أزيزوس في مقدمة العربة، وأن مونيموس في المؤخرة.

عليه فعزازيل هو واحد من إلهين قرينين: عزيزوس ومونيموس.

لكن حين ننتقل من الرها إلى تدمُر، فإن مونيموس يصبح أرصو:

(وفي تدمُر، نجد نصا يتضمن الاسم المركب عزيزو-أرصو بدلا من أزيزوس-مونيموس:

١- لأرصو ولأزيزو، الإلهان المجزيان، قد عمله بعكي «أو بعي»

٢- ابن يرحيبولا، قس «أفكل» أزيزو الإله الطيب

٣- والرحيم، لسلامته وسلامة إخوته، في شهر تشرين «أكتوبر»

٤- من سنة ٢٥. فليذكر الناس يرحي النحات».

ومع هذا النص نقش بارز: فأمام مجموعة من الناس، جلس طفل عار على عرش. وهذا الطفل يمثل الاسم المركب أرصو-عزيزو).[٥٢]

أزيزو وأزيزوس في النصين شيء واحد. بالتالي فمن المفترض أن مونيموس مثيل أرصو:

أزيزوس   مونيموس

أزيزو   أرصو

أي أن بإمكاننا أن نضع علامة مساواة بين مونيموس وأرصو: مونيموس= أرصو. أي أن الإله الذي يدعى مونيموس في الرها يدعى أرصو في تدمر.

الإلهان أزيزو ومونيموس- أرصو مظهران لإله واحد. وإلا فما الذي يجعل قسا لعزيزو يقدم قربانا لإله آخر غير إلهه يدعى أرصو؟ فهو (قس أزيزو الإله الطيب)، لكنه يقدم قربانا (لأرصو ولأزيزو، الإلهين المجزيين) معا؟ إنه يفعل ذلك لأن الإلهين، في النهاية، إله واحد بمظهرين في نظره: واحد في مقدمة العربة، والآخر في مؤخرتها. عزيزو هو المظهر الأول، وأرصو هو الثاني. وأزيزوس، في النص الآخر، هو المظهر الأول ومونيموس هو الثاني.

طبعا نحن نعلم أن الكثيرين يعتقدون أن هذين الإلهين يمثلان نجمة الزهرة في طلوعها الصباحي والمسائي. لكن هذا الحل القديم لم يدفعنا ولو خطوة واحدة على طريق حل لغز أديان العرب في الجاهلية. في حين أن فرضنا الذي نقدمه فرض خصب وسيساعدنا على التقدم في فك ألغاز ديانة العرب قبل الإسلام.

إذن: أزيزو = عزاز= عزيز. والآن فإن لدينا دليلًا يقيم علاقة مباشرة بين عزيز هذا واللات. إذ نجد في النقوش اليمنية تركيب: (اللات عثتر، وهناك أيضا تركيب عزيز-اللات)[٥٣].

twitter @baghdad_library

عزيز- اللات! ليس أوضح من هذا. فاللات وعزيز في تركيب واحد. وهذا التركيب تركيب مساواة في رأينا. أي أن عزيز فيه يساوي اللات ويماهيه: عزيز = اللات. إنه الاسم الآخر له. وبما أن عزيز هو اللات، فهذا يعني أن عزيزًا هو أوروتالت أيضا. ذلك أننا توصلنا إلى أن أوروتالت هو اللات من قبل أيضا.

وإذا كان أوروتالت هو عزيز، أي أزيزوس، أي لات النغمة الصيفية الخمرية العالية، فلا بد أن يكون مونيموس- أرصو هو مناة الثالوث العربي، أي النغمة الشتوية القارة:

أوروتالت = اللات

أزيزوس = اللات

مونيموس = مناة

أرصو = مناة

مونيموس

لكن، ماذا يعنى الاسم مونيموس؟

اقترحت الغالبية أن (مونيموس) يعني (منعم) بالعربية. يقول د. جواد علي: (وأما مونيموس فهو منعم)[٥٤]. ويضيف علي الشوك ناقلا عن أنيس فريحة: (وللزهرة عند أهل تدمر أقنومان، هما عزيزو وأرصو، أي العزيز و Minomos أي المنعم).[٥٥]

نعتقد أن هذا الفرض، أي كون مونيموس يعني منعم، غير صحيح مطلقا. إذ بما أن مونيموس هو الحد المقابل لعزيز، والمعاكس له فيجب أن يحوي اسمه، بشكل ما، معنى معاكسا للمعنى الذي يحمله اسم عزيز. فحين يكون معنى عزيز القوة والمنعة، فإن على مونيموس أن يحوي معنى الضعف والفتور. وهذا لا يتوفر في منعم. كلمة منعم لا تعطى هذا المعنى؛ لذا فإن الأصل العربي لكلمة مونيموس يجب أن يكون (منيما) وليس (منعما). ذلك أن المنيم في العربية هو الهالك أو الضعيف أو النائم. يقول لسان العرب تعليقا على بيت الشعر:

قبائل جُـعفيّ بن سعد، كأنـما سقى جمعهم ماء الزعاف مُنيم:

(قوله مُنيم أَي مهلك، جعل الموت نوما).[٥٦] ويقول الزمخشري في أساس البلاغة: (نام الرجل: مات. وأنامتهم السنة وأهمدتهم: هزلتهم، أبادتهم).[٥٧] ويضيف المبرد في الكامل في اللغة: (يقال: ثأر منيم، إذا أصابه المثئر هدأ واستقر، لأنه أصاب كفؤاً).[٥٨]
ويقول ابن سِيدَة في المخصص تعليقا على البيت:

تبُكّ الحوض علاَّها ونَهلاً   وخلف ذيادها عـطن منِيم

(منيم: تسكن إليه فينيمها)(٥٩). وهكذا فالمنيم هو الهالك، الهادئ، الساكن، النائم والمستقر، في مقابل العزيز القوي المندفع. بذا يظهر لنا الطابع التقاطبي بين عزيز ومونيموس، أي بين مظهري الإله ذاته. وهذا يتوافق مع ما ذكرناه عن (مطعم الطير) الذبيح أو المصلوب، وعن (مني) صاحب المائدة، مائدة الموت والقتل. إنهما شبيها أوزيريس الفاتر الذي لا يفيض ولا يتدفق. وكل مكان مطمئن يقف فيه الماء فهو مستنام، كما يقول الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة. أي أن (منيم) هو النغمة الهادئة غير المتدفقة في مقابل النغمة العالية القوية لعزيز، الذي هو النيل الدافق في نغمته القوية، أو الكون في قمته لا قراره، في صيفه لا شتائه.

وإذا كان عزيزو هو اللات فإن الطرف المقابل له، أي أرصو أو مونيموس، سيكون مثيل مناة. وبما أن مونيموس مثيل أرصو، فيجب أن يحمل اسم أرصو المعاني ذاتها التي يحملها اسم مونيموس. أي أنه يجب أن يكون الإله في لحظة موته وضعفه وفتوره لا في لحظة عزته وقوته. من أجل هذا نقترح أن أرصو على علاقة بـ (أصحاب الرس)، الذين رسّوا في بئرهم، أي دفنوا وماتوا.

ياسون

ورد في مطلع سورة (يس) في القرآن: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾. وقد اختلف في من يكون (يس، ياسين) في هذه الآية. وهناك من رأى أنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم. لكن هناك من رأى أنه غير ذلك، والدليل على أن الحديث يتجه إلى شخصية تدعى ياسين وليس إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، هو قول الآية ١٣٠ من سورة الصافات ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾. فهناك أحد ما له آل، يدعون بآل ياسين. نحن نعتقد أن الاسم ياسين في الآية القرآنية هو (ياسون) الوارد في سفر المكابيين. فقد ورد الفصل الخامس في السفر ذكر أرتاس وياسون معا:

(١ - فطفق ياسون يذبح أهل وطنه بغير رحمة ولم يفطن أن الظفر بالإخوان هو عين الخذلان حتى كان نصرته هذه إنما كانت على أعداء لا على بني أمته .

٢- لكنه لم يحُز الرئاسة وإنما أحاق به أخيرا خزي كيده فهرب ثانية إلى أرض بني عمون.

٣- وكانت خاتمة أمره منقلبا سيئا لأن أرتاس زعيم العرب طرده فجعل يفر من مدينة

twitter @baghdad_library

إلى مدينة والجميع ينبذونه ويبغضونه بغضة من ارتد عن الشريعة ويمقتونه مقت من هو قتال لأهل وطنه حتى دحر إلى مصر).[٦٠]

ورغم أن الكلام يوحي وكأنه تاريخ وليس ميثولوجيا، فإننا نرى لمحة من الصراع الميثولوجي في النص. فأرتاس، الذي هو الحارث العربي، هو عزيزو- عزيز- عزاز، أي اللات. وعليه، ربما كان ياسون هو نقيضه، أي شبيه مناة. وبما أن ياسون هو ياسين كما نفترض، فإن ياسين أيضا شبيه مناة، أي أنه يمثل النغمة الشتوية القارة الميتة. يؤكد ذلك ما نقله لنا القرطبي في تفسيره عن ابن عباس:

(قال ابن عباس: سألت كعبا عن أصحاب الرس قال: صاحب «يس» الذي قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] قتله قومه ورسوه في بئر لهم يقال لها الرس طرحوه فيها... وقال علي رضي الله عنه {عن أهل الرس هؤلاء}: هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم... فيبست الشجرة فقتلوه ورسوه في بئر).[٦١]

إذن، فياسين هو نبي أصحاب الرس (قتله قومه ورسوه في بئر). أي أنه (أرصو)، الحد الثالث في الثالوث. وهذا يعني أنه شبيه (مطعم الطير) و(مناة). إنه المظهر الساكن، الميت، القتيل للإله. أما شجرة الصنوبر فربما تؤكد الإشارة إلى إله أوزيريسي. فنحن نعلم أن أوزيريس يتمثل بشجرة صفصاف. فهو في لحظته الفيضية (ذلك الذي يقف على قمة شجرة الصفصاف) كما أخبرتنا المنطوقة المصرية. لذا ليس من قلة الحذر، فيما نظن، أن نرى علاقة لـ (أرصو) بـ (الرس) وأصحابه. صحيح أن الرس هو البئر كما تقول المصادر العربية، لكن هذا البئر هو مقر الإله الميت الساكن القتيل: أرصو. أي أن الإله يتماهى مع مسكنه، ويسمى باسمه. وسوف نفرد بابا خاصا لأصحاب الرس.

وفي غالب الظن أن (الرس) هذه على علاقة بمملكة Rostau (رستاو) أو (رسطاو)، أي مملكة الموتى التي يحكمها أوزيريس الميت، وتبدو هذه الكلمة الهيروغليفية مكونة من كلمتين: (رس+ طاو). والثانية منهما ربما أشارت إلى البئر أيضا. فـ (الطوى) في العربية هي البئر. ولعل ﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ في القرآن أن يكون هو مملكة أوزيريس الميت، أي (رسطاو)، أو (رسطوى) إذا أردنا الحقيقة.

الأسينيون

في كل حال، وإن صح فعلا أن ياسون سفر المكابيين هو ياسين في القرآن، فلا بد لهذا أن يذكرنا بفرقة الأسينيين الشهيرة Essenes التي كانت تقيم في منطقة البحر الميت

في فلسطين، في القرون الأولى قبل الميلاد وبعده، والتي ورد ذكرها عند يوسيفوس وبليني، وغيرهم. نحن نعتقد أن هذه الفرقة من أتباع الإله ياسون- ياسين، وأن اسمهم أخذ من اسم هذا الإله، الذي يمثل المظهر الشتوي الفاتر لإله ذي طابع أوزيريسي؛ لذا من الأفضل أن نسميهم بالـ (يسينيين) وليس الأسينيين. وعند يويسيفوس، الذي هو المصدر الأهم عنهم، ما يدعم فرضيتنا. ففي كتابه (تاريخ اليهود) Antiquities of the Jews إشارة صريحة إلى الاسم (مونيموس) الذي تحدثنا عنه، وإلى ربطه بالأسينيين. فحسب قوله، فإن سبب احترام هيرود للأسينيين هو أنه:

(كان هناك أسيني Essene يدعى مانيموس Manaemus... وهذا الرجل رأى هيرود، عندما كان ما يزال طفلا، فدعاه بـ «ملك اليهود»).[٦٢]

وقد ثبت أن هذا القول نبوءة تحققت فيما بعد، عندما أصبح هيرود ملكا لليهودية.

أسيني يدعى مانيموس! هذا ربط مباشر تقريبا بين ياسون- ياسين ومونيموس. فمانيموس هو مونيموس. ولا نعتقد أن الربط جاء صدفة. إنه يعني أن ياسين هو مونيموس. ومونيموس هو أرصو، وهما معًا حد ثالث في الثالوث. عليه فياسين-ياسون هو أيضا حد ثالث. إنه نظير اللات ومقابله وعكسه.

ومن الواضح بالنسبة لنا في هذا النص أن مونيموس الذي تنبأ لهيرود هو كاهن لإله باسم مانيموس- مونيموس. ومانيموس هو الاسم الآخر لمعبود الأسينيين. إنه ياسون، أو ياسين بالعربية.

إبليس قصة التكوين

إذا كان عزيز (عزاز- يل) هو إبليس، فإنه يمكن لنا، انطلاقا من هذه المساواة، فهم قصة آدم وحواء وإبليس المشهورة في سفر التكوين في العهد القديم. فلدينا في القصة أربع شخصيات: آدم، حواء، إبليس والحية. لكن يمكن اختصارها إلى شخصيتن؛ فآدم، في الحقيقة، هو تركيب من إبليس (أي عزازيل) والحية. وإذ يبدو الصراع غائما قليلا، بسبب الحلف الذي ينشأ بين الحية وإبليس، فإن من الواضح أن إبليس هو الذي دفع الحية إلى السقوط وسبب لها أن تزحف على الأرض. وهذا أمر مفهوم. فمظهرا الإله الأوزيريسي يدفعان بعضهما للموت والسقوط. فنهوض أحدهما يعني موت الآخر. الحية هي آدم الساقط على الأرض. وهو يتهمها علنا أمام الله أنها هي من أغوته، أي أسقطته. وهي في الحقيقة سقطت معه، فهي مظهره الشتوي، الساكن، الأرضي. هي النغمة الواطئة، القرار. إنها (التصدية)، أي مطعم الطير- مناة.

twitter @baghdad_library

أما الشجرة المحرمة، فهي، كما سنرى في فصل لاحق، شجرة الخلاف والعداء، شجرة إنانا السومرية، ذات المخلوقات الثلاثة المتصارعة المختلفة: الطائر والحية وليليث:

الطائر ليليث الحية

إبليس حواء الحية

أما آدم فتركيب من إبليس والحية معا، مثلما أن جلجامش في شجرة إنانا هو الطائر- مكو والحية- بكو معا. وهذا يعني أن إبليس هو النغمة العليا للكون. أي أنه مثيل جد. وبالمناسبة فإن الاسم الآخر لإبليس، أي الشيطان يوحي بالترابط مع جد. فجذر (شتن) في الصابئية المندنائية وفي السريانية يعني: الجذع، العمود، الدعامة. وهذا ما يدل على أن الشيطان هو (جد)، لكن بمسحة سلبية زائدة.

أما حواء فهي ليليث شجرة الخلاف والعداء. وهذا ما يؤكده الأدب التوراتي الرابيني. ففيه أن (ليلت، ليلث) هي زوجة آدم الأولى، التي رفضت أن تنصاع له. إذ يخبرنا كتاب رابي تلمودي، يدعى Alphabet of Ben Sira ويقدر بأنه كتب في فترة تقع ما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادي أنه:

(بعد أن خلق الله آدم، وكان وحيدا، قال: إنه ليس حسنا أن يكون الرجل وحده... ثم خلق امرأة لآدم من الطين، كما خلق آدم نفسه، وسماها: ليليث. وابتدأ آدم وليليث بالشجار. قالت: أنا لن أستلقي تحتك. فقال هو: أنا لن أستلقي تحتك، بل فوقك فقط. فردت ليليث: نحن سواء لأننا خلقنا من الطين. ولم يستمعا لبعضهما بعضا. وعندما رأت ليليث ذلك، نطقت الاسم الذي لا ينطق وطارت في الهواء).(٦٣)

إذن، فليليث هي حواء المضادة، التي خالفت آدم. ولأن الشجرة المحرمة هي شجرة خلاف وشقاق فقد قال القرآن لآدم وحوا والحية: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.(٦٤)

مظهرا آدم اللذان نتحدث عنهما يصبحان ابنيه في قصة قابيل وهابيل المكملة، فيما بعد. هابيل فيما نظن يساوي عزيز، وقابيل يساوي الحية. وفي اللغة العربية ما يؤيد ذلك. فجذر (قبّ) يعني السيد والرئيس، كما يعني الثقب والجفاف. وكلها يمكن أن تكون على علاقة بأوزيريس النغمة الواطئة. فهو الجفاف في مقابل الفيض، وهو الحية التي تدخل الثقب إلى العالم السفلي، وهو السيد والرئيس. أما هابيل، فمن المحتمل جدا أن يكون هو (هبل) العربي، أي النغمة العالية الصيفية، كما سنرى في مكان آخر.

مناة الثالثة الأخرى: إله مذكر؟

إذا صح فرضنا حول كون أوروتالت هو اللات، أي عزيز، يكون ثالث الثالوث الذي نسيه هيرودتس هو أرصو، كما ذكرنا:

أوروتالت أليلات أرصو

هذا الثالوث يساوي الثالوث المكي: اللات والعزى ومناة:

أوروتالت أليلات أرصو

اللات العزى مناة

لكن المشكلة هي أن (مناة) إلهة أنثى عند الباحثين، في حين أن (أرصو) إله ذكر. فهو ظل اللات ومظهره الآخر. فكيف يمكن التوفيق بين ذكر وأنثى؟

الإجابة عن هذا السؤال تقول، باختصار، ما يلي: كما هو الحال بشأن اللات، وعلى عكس رأي الغالبية الساحقة من الباحثين، فإن مناة أيضا إله ذكر، لا إلهة أنثى. فقد حصل مع (مناة) مثل الذي حصل مع (اللات)؛ لقد تشوشت الطبيعة الجنسية لهذا الإله المذكر للأسباب ذاتها التي تشوشت فيها الطبيعة الجنسية للات. فبسبب تجسده في صخرة هو الآخر فقد ظن أنه من طبيعة مؤنثة. وبسبب كونه جزءا من ثالوث يظن أنه ثالوث مؤنث كله، فقد وسم بالتأنيث.

ويبدو لنا أن ياقوت الحموي في معجم البلدان قد أشار إشارة ما إلى أنه كان يفهم طبيعته المذكرة. يقول: (قال ابن الكلبي كانت مناة صخرة لهذيل بقديد، وكأن التأنيث إنما جاء من كونه صخرة).[٦٥]

التأنيث قد يكون للصخرة لا للإله. هذه ملاحظة مهمة، تبين أن الحموي كان يظن، بشكل ما، أو على الأقل يضع احتمال، أن يكون مناة صنما مذكرا.

وهذا يشبه ما نقلناه عن د. جواد علي سابقا بشأن (ذي الخلصة)، وإن بشكل معكوس. فقد قال لنا: (وأما تعبيرهم عنه {أي عن ذي الخلصة} بضمير التذكير... فإنهم أرادوا بذلك لفظ الصنم فذكّروه). أما هنا فقد أرادوا لفظ الصخرة فأنثوها، فبدا للناس أن الإله هو المؤنث لا الصخرة.

يؤيد الطبيعة المذكرة لمناة أن المصادر العربية تذكر لنا أن صنمه حين هدم كان عليه سيفان، كان قد أهداهما إليه الحارث بن شمر الغساني. فوجود السيفين يشير إلى إله ذي

twitter @baghdad_library

طابع حربي بشكل ما. يقول لنا ابن الكلبي في الأصنام:

(ومناة هذه التي ذكرها الله عز وجل، فقال: «ومناة الثالثة الأخرى». وكانت لهذيل وخزاعة.

وكانت قريش وجميع العرب تعظمها. فلم يزل على ذلك حتى خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من المدينة سنة ثمانٍ من الهجرة، وهو عام فتح الله عليه. فلما سار من المدينة أربع ليالٍ أو خمس ليالٍ، بعث علياً إليها فهدمها وأخذ ما كان لها. فأقبل به إلى النبي صلى الله عليه وسلم... فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أهداهما لها {التأنيث للصخرة}: أحدهما يسمى مخذماً والآخر رسوباً. وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره، فقال:

مظاهر سربالى حـديد عليهما   عقيلا سيوف: مخذم ورسوب)(٦٦)

مناة ذكر. وكل حد ثالث في الثواليث جميعا هو إله ذكر. الأنثى الوحيدة في الثواليث هي الحد الأوسط، أي العزى- إيزيس- إنانا- ليليث.

ولا تعطينا المصادر العربية شيئا كثيرا عن طبيعة مناة. فهي تحدد لنا أن موقعه بالمشلل على ساحل البحر بين مكة والمدينة، وتحدد لنا عباده، أي الأوس والخزرج وهذيل، رغم أن باقي العرب تعظمه. كما تعطينا بعض شعائره مثل الطواف حوله والحلق عنده بعد الحج إلى الكعبة من قبل أهل المدينة. هذا تقريبا كل ما لدينا. وهو لا يسعف كثيرا في فهم طبيعته. لذا فنحن مرغمون على الذهاب إلى الجذر اللغوي لاسم هذا الإله لعله ينفعنا في فهم طبيعته. وجذر (منى) يحيل إلى القدر والموت والمحاذاة وغيرها. يقول الخليل في العين، المنا: الموت، وكذلك المنيّة.

ويضيف ابن منظور في اللسان:

(يقال: مَنى الله عليك خيراً يَمْني مَنْياً، وبه سميت المَنِيَّةُ، وهي الموت، وجمعها المَنايا لأَنها مُقدَّرة بوقت مخصوص... وقال الشَّرفي بن القطامي: المَنايا الأَحْداث، والحِمامُ الأَجَلُ، والحَتْفُ القَدَرُ، والمَنُونُ الزَّمانُ؛ قال ابن بري: المَنيَّة قَدَرُ الموت). ويضيف:(ويقال: مُنِيَ ببَلِيَّة أَي ابْتُلي بها كأَنما قُدِّرت له وقُدِّر لها. الجوهري: مَنَوْته ومَنَيْته إذا ابتليته، ومُنِينا له وُفِّقْنا. وداري مَنى دارك أَي إزاءَها وقُبالَتها. وداري بمَنى داره أَي بحذائها... وفي الحديث: البيتُ المَعْمُور مَنى مكة أَي بحذائها في السماء. وفي حديث مجاهد: إِن الحرم حرم مَناه مِن السموات السبع والأَرضين السبع أَي حِذاءه وقَصْدَه)(٦٧).

فوق هذا، فجذر منى يعطي معنى جنسيا، فالمني هو ماء الذكر. عليه، فنحن أمام ثلاثة معان أساسية لهذا الجذر: الموت، الجنس، والمحاذاة والمقابلة. ونود هنا أن نركز على المعنى الثالث: أي معنى المقابلة. فالبيت المعمور، وهو البيت الأصلي السماوي الذي تشبهه الكعبة، هو منى الكعبة، أي يقابلها. أي أنه مثيلها في الجهة الأخرى. وهذا ما يشير إلى أن كلمة (مناة) ربما عنت النظير والمقابل. وفي هذه الحالة، يكون مناة نظير اللات.

الثالوث النبطي

يبدو أنه قد حان الوقت كي نحاول إثبات ما توصلنا إليه من خلال الذهاب إلى الإله ذي الشرى النبطي- العربي، متسائلين: هل من علاقة بين ثالوثي مكة وهيرودتس والثالوث الذي يصور في العملات النبطية على شكل نصب حجري بين نصبين أصغر منه؟

يجري جدل واسع حول هذا الثالوث النبطي وطبيعته. لكننا سنفترض أن الثالوث النبطي يشبه، من حيث المبدأ، الثالوثين المذكورين. أي أنه يتكون من حد أوسط مؤنث، ومن حدين طرفيين مذكرين. ونعتقد أن بورسك هو الوحيد الذي أحرز تقدما على الطريق الذي يمكن من فك طبيعة هذا الثالوث. وقد تمكن من إحراز تقدمه عن طريق مقارنة الأنصاب النبطية الثلاثة بنقش على حلية من حجر كريم من الناصرة بفلسطين، وصفه (ويلهلم فروهنر) في أوائل القرن الماضي. يقول بورسك:

(لعل الحل {حل لغز أنصاب ذي الشرى الثلاثة} يكمن، على كل حال، في حجر سحري شاهده ووصفه ويلهلم فورهنر في الناصرة في القرن الماضي. هذا الحجر يعطينا أسماء ثلاثة آلهة معا: أريس، ذا الشرى، وثياندرويوس)[٦٨].

فالأنصاب الثلاثة النبطية، برأيه، تمثل الآلهة الثلاثة المنقوشة على الحجر. وبما أن لدينا قطعة نقود نبطية من عام ٢٠٩- ٢١٠ عليها أنصاب ثلاثة، والأوسط منه هو ذو الشرى، فإنه من المنطقي الافتراض أن النصبين الباقيين هما أريس وثياندوريوس:

(تصور بتفصيل أشد ديانة بصرى. فالنصب الأكبر الأوسط هو ذو الشرى، ويظهر اسمه على قطعة النقود. أما الأصغران اللذان يحيطان به من الجانبين، فيظن أنهما يمثلان إلهين فيما يعتقد أنه ثالوث عربي).[٦٩]

أما (أريس) فيعتقد بورسك، متفقا مع ستاركي، أنه (أرصو):

twitter @baghdad_library

(وإذ، يرى ستاركي في أريس وذي الشرى كإلهين منفصلين في الفترة الرومانية، فإنه يعتقد أنهما في الأصل شيء واحد، وأن الاسم ذي الشرى تجسيد لرضى، الذي تطور منه أرصو/ أريس. وإن صح هذا التفسير فإنه سيدعم القرابة بين ذي الشرى وأريس بصرى).(٧٠)

في هذا النص نحن نوافق على أن أريس هو أرصو فقط. أما غير ذلك فلا نوافق عليه. لكننا نزيد بأن (أرصو) هو نبي أصحاب (الرس). أي أن أريس = الرس.

وإذا كان أريس هو أرصو حقا، فإنه يؤكد ما توصلنا إليه بشأن (أرصو). إذ أننا افترضنا من قبل أن أزيزوس وأرصو حدان طرفيان لثالوث معين. وها نحن نرى أريس/ أرصو في طرف الثالوث فعلا. وما دام أرصو هو أريس، فإن من المنطقي أن نفترض أن ثياندرويوس هو شبيه أزيزوس، أي أنه حد أول كاللات.

والحق أن عبادة (أريس)، بصيغته اليونانية الرومانية، معروفة لدى المصادر العربية، وإن كانت تبدي تشوشا في فهمها لهذه الديانة. ينقل لسان العرب عن الأزهري:

(قال الأزهري: أَحسِب الأَريس والإرِّيس بمعنى الأَكَّار من كلام أَهل الشام، قال: وكان أَهل السَّواد ومنْ هو على دين كِسْرَى أَهلَ فلاحة وإِثارة للأَرضِ، وكان أَهل الروم أَهلَ أَثاثٍ وصنعة، فكانوا يقولون للمجوسي: أَريسيٌّ، نسبوهم إِلى الأَريس وهو الأَكَّارُ، وكانت العرب تسميهم الفلاحين).(٧١)

وهكذا فالأريسيون مرتبطون بالأرض والفلاحة. وهؤلاء في رأينا هم عبدة أريس. لكن هناك خبرا آخر أكثر دقة يوحي بقوة بأن أريس إله من طراز أوزيريسي: (وقيل: إِنهم أَتباع عبد اللَّه بن أَريس، رجل كان في الزمن الأَول، قتلوا نبيّاً بعثه اللَّه إِليهم، وقيل: الإِرِّيسيون الملوك، واحدهم إِرِّيس، وقيل: هم العشارون).(٧٢)

وهكذا فأريس نبي قتيل مثله مثل نبي أصحاب الرس، الذي قتل ورُس في البئر. أما الملوك والعشارون فهي إضافة تؤكد أن أريس إله أوزيرسي الطابع. أريس هو إذن الرس، وهو يمثل إلها ساكنا هادئا مثل مونيموس، مني، مطعم الطير، وذي بكة.

وحين نضع ثياندرويوس كحد أول، أي نضعه في موضع اللات، فإننا لا نفتقر إلى ما يدعمنا في هذا. إذ يستخلص لنا بورسك ما يلي:

(أكثر من ذلك، فإن الإله الثالث على حلية فورهنر، وهو، بناء على جدالنا، النصب الثالث في معبد ذي الشرى في بصرى، يحمل الاسم المفاجئ ثياندرويوس «الإله- الرجل»).(٧٣)

هكذا مرة واحدة! الاسم ثياندوريوس يعني (الإله- الرجل) أو (الرجل- الإله)! وهذا بالضبط هو الوصف الدائم للات في المصادر العربية. فهو رجل-إله. لقد كان رجلا يلت السويق على صخرة، ثم مات ودخل فيها، فتحول إلى إله وعُبد. إنه، كما قال لنا القرطبي: (كان رجلا في رأس جبل... فلما مات عبدوه، وهو اللات).(٧٤)

إنه مثل ثياندوريوس رجل-إله. ونحن نعرف أن أوزيريس هو ملك إله أيضا. فقد ابتدأ كملك بشري ثم صار إلها. أي أنه رجل-إله!

وهكذا فقد تمكنا من معرفة الحدين الطرفيين في الثالوث النبطي؛ الحد الأول وهو: ثياندوريوس- اللات، والحد الثالث وهو: أريس- أرصو- مناة. وبمقارنة هذا الثالوث بالثالوث المكي:

ثياندوريوس ذو الشرى أريس

اللات العزى مناة

فإننا نصل إلى نتيجة مدهشة وغير متوقعة، وهي أن ذا الشرى إلهة أنثى! فما دام يقع في الحد الأوسط فإنه يجب ان يكون إلهة أنثى مثل العزى!

نتيجة مفاجئة تماما، وتخالف كل ما عهدناه.

نتيجة فضائحية، إذا أخذنا موقف الباحثين بغالبيته الساحقة!

فلا أحد يساوره الشك في ذكورية ذي الشرى. هذا أمر خارج نطاق الجدل عند الباحثين.

هذه النتيجة تضعنا، إذن، من جديد في مواجهة الإجماع. ونحن لا نريد أن نرتجف من هول هذا الأمر، بل نرغب في أن نثبت أن ذا الشرى، أي الحد الأوسط في حجر الناصرة وفي ثالوث العملة النبطية، يمكن أن يكون إلهة أنثى، أو يمكن أن يكون أنثى مع ابنها على أقل تقدير.

لكن هذا يقتضي أن نتعمق أكثر فأكثر في موضوع الآلهة النبطية.

ذو الشرى

تختلف التقديرات حول هذه الطبيعة الفعلية لهذا الإله العربي- النبطي الغامض باختلاف إشارات المؤلفين اليونان والرومان القدماء حوله. فهو أحيانا إله للشمس، مثل زيوس، مرتبط بجبال الشراة. وهو أحيانا شبيه لديونيسوس. يقول لنا الآركيولوجي

twitter @baghdad_library

فيليب هاموند:

(إله هذا الشعب كان ذا الشرى «إله جبل الشراة». وطبيعة هذا الإله، وإن كان جبلا أو شيئا يمثل الشمس، ليست واضحة تماما)[٧٥]. أما من القدماء فقد رأى سترابو (أن الشمس هيليوس هي الإله الأكبر عند النبط)[٧٦]. ولأن ذا الشرى هو إله النبط الأكبر، فقد اعتقد الباحثون أنه المقصود بهذا القول، أي أنه يمثل الشمس: (لقد اعتبر الأنباط دوشرا إلها الشمس).[٧٧]

لكن آخرين يساوون ذا الشرى بديونيسوس. يقول لنا د. جواد علي إن هذه المصادر اليونانية ترى: (أن Dusares هو في منزلة Dionysus. وقد عرف عند اليونان بأنه إله العرب، كما ذكرت، وأنه الإله Pakades عند النبط، وله معبد في جرش).[٧٨]

وبما أن اليونانيين يماهون ديونيسوس بأوزيريس، فقد صار من المنطقي أن يساوى ذو الشرى بأوزيريس. وهذه المساواة مؤسسة ومقبولة عند تيار أساسي. يقول فيليب هاموند:

(وهكذا يمكن أن نقيم خط مساواة: ذي الشرى= ديونيسيوس= أوزيريس).[٧٩]

وهذا يعني أن ذا الشرى إله مذكر. وهكذا فقد أجمعت غالبية الباحثين على أن ذا الشرى إله ذكر.

ذو الشرى في المصادر العربية

لكن المصادر العربية لا تمنحنا مثل هذا التأكيد عن هوية هذا الإله. بل هي تعطي مؤشرات متضادة عن طبيعته الجنسية. وقد عبد هذا الإله عند قبائل عربية متعددة، خاصة قبيلة (دوس) التي يدعو اسمها ذاته للتأمل! فهو يكاد يشبه أن يكون اختصار لاسم (ذو الشرى). وقد وردتنا أكمل المعلومات حول ذي الشرى في قصة الطفيل بن عمرو. تقول القصة، كما أوردها النويري في نهاية الأرب، أنه لما أسلم قال للنبي:

(يا نبيّ الله ! إني امرؤ مطاعٌ في قومي، وأنا راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا عليهم فيما أدعوهم إليه. فقال: «اللهم اجعل له آية»، فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنيّة تطلعني على الحاضر وقع نورٌ بين عيني مثل المصباح؛ قلت: اللهم في غير وجهي! إنّي أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، قال: فتحوّل النّور فوقع في رأس سوطي، فجعل الحاضر يتراءون ذلك

النّور في سوطي كالقنديل المعلّق، وأنا أهبط إليهم من الثّنية حتى جئتهم، فأضبحت فيهم. قال: فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخا كبيرا، فقلت: إليك عنّي يا أبت، فلست منك ولست منّي. قال: لمَ يا بني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد، قال: أي بني! فديني دينك. قلت: فاذهب واغتسل، وطهّر ثيابك، ثم تعال حتى أعلّمك مما علّمت. فذهب فاغتسل وطهّر ثيابه ثم جاء، فعرضت عليه الإسلام فأسلم. ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليكِ عنّي، فلست منكِ ولستِ منّي. قالت: لِمَ، بأبي أنت وأمّي؟! قلت: فرّق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد عليه السلام. قالت: فديني دينك، قلت: فاذهبي إلى حنا ذي الشّرى- قال ابن هشام: ويقال حمى ذي الشّرى- فتطهّري منه.

قال: وكان ذو الشّرى صنما لدوس، وكان الحنا حمىً حموه له، وبه وشلٌ من ماء يهبط من جبل، قال فقالت: بأبي أنت وأمّي، أتخشى على الصّبيّة من ذي الشّرى شيئا؟ قلت: لا، أنا ضامن لك، قال: فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت، فعرضت عليها الإسلام فأسلمت).(٨٠)

وفي رواية أخرى أوردها ياقوت في المعجم أن المرأة قالت: (بأبي أنت وأمي: أخشى على الصبية من ذي الشرى شيئا)، بدل: أتخشى؟

أما ابن سعد في طبقاته، فيضع (حسي) بدل حمى أو حنا: (قلت فاذهبي إلى حسي ذي الشرى فتطهري منه وكان ذو الشرى صنم دوس والحسي حمى له يحمونه وبه وشل من ماء يهبط من الجبل).(٨١)

ويضيف المنتظم في التاريخ تفصيلا صغيرا مهما: (فتحول النور، فوقع في رأس سوطي، فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق وفي رواية: فكان يضيء في الليلة المظلمة له، فسُمي ذا النور).(٨٢)

هذا هو النص العربي الرئيس حول ذي الشرى. وهو، فيما نرى، نص هام من أجل تعريفنا بطبيعة هذا الإله. فقد استند الباحثون إلى النقوش النبطية المختصرة جدا التي تتحدث عن ذي الشرى النبطي، وأهملوا المصادر العربية التي تتحدث عنه إهمالا تاما تقريبا. وهو إهمال ربما منعنا من كشف الغموض المسيطر على هذا الإله وعلى طبيعته. النص يعطينا جملة من المعلومات:

أولا: أن حمى ذي الشرى مقام على (وشل)، أي على ماء جارٍ، أو جدول، ينحدر من نبع أو ما أشبه.

ثانيا: أن هذا الحمى يدعى (حمى ذي الشرى) أو (حنا ذي الشرى) أو (حسي ذي

twitter @baghdad_library

الشرى)، كما ذكر ابن إسحق ونقل عنه آخرون. ويرى البعض أن (حنا) هي (حمى) مع إبدال الميم نونا. أما الحسي فجمع أحساء، ويطلق على طراز من الماء الجوفي القريب المنال، حتى أن أقدام الدواب قد تكشف عنه. غير أن اجتماع الحسي مع الوشل غير مقنع. فالوشل ماء جارٍ ظاهر، على عكس الحسي.

لذا ربما تكون الكلمة (حرس) وليس (حسي) ثم حرفت، أي كما ورد، بالضبط، في النقوش النبطية التي تتحدث عن (حيرس، أو حرس، دو شرا). ونحن نعتقد أن الكلمة تعني: بيته ومعبده. فالبناء الأحرس في العربية: هو القديم الذي أتى عليه الحرس، أي الدهر. وبناء أحرس: بناء أصم. وهذا يعني أن الطفيل طلب من صاحبته أن تغتسل في حرس ذي الشرى، أي في الوشل الذي أقيم عليه معبد ذي الشرى. إن صح هذا، يكون معبد ذي الشرى النبطي أيضا مقاما على مجرى ماء.

وقد وردت كلمة (موتب) كذلك في نصين نبطيين في سياق الحديث عن معبد ذي الشرى، باعتبارها تساوي كلمة (حيرس، حرس): (أحد هذين النصين من قبر التركمان في بترا يدعو ذا الشرى «إله سيدنا، وموتبه، المساوية لـ «حرس»).[٨٣] وقد (فسرها جيم كوك على أنها تعني عرش دوشرا). في حين رأى بعضهم أنها تعني (مقعد الآلهة فوق الجبال أو في السماء).[٨٤]

أما G.B. Bowersock فقد رأى أنها من جذر (يثب) بمعنى (يجلس)، موضحا أن أنصاب ذي الشرى الثلاثة تبدو جالسة على منصة: فـ(اشتقاق كلمة موتاب من الجذر يثب بمعنى يجلس. وتفسير لاسم حريش هو «المحروس» أو المحصن. ومقارنتها مع الكلمة العربية «حرس» صحيحة).[٨٥]

وقد أوضحنا أن كلمة (حرس، حيرس) تعني: مبنى، أو مبنى قديم، وليس (المحروس) رغم اشتراكهما في الجذر. أما كلمة (م ت و ب) النبطية فقد وردت مثيلات لها. ففي السريانية وردت بصيغة: م ي ت ب. و بالقتبانية بصيغة: م و ت ب، إلخ. ويعتقد الآن (الاسم م و ت ب أو م و ت ب و يعني: القاعدة، العرش) في جميع اللغات السامية المذكورة أعلاه، ما عدا السبئية. فهو يعني أيضا: المسكن، المعبد، المقر، أو القرين- الزوج... لذا فعبارة ذو ش ر ا و م و ت ب و ربما تقرأ «ذو الشرى وعرشه» أو كما اقترح نولدكه: «ذو الشرى ومجلسه»، أو أيضا استنادا إلى معناها في السبئية: معبد أو سكن، تقرأ: « ذو الشرى ومعبده»).[٨٦]

ونحن أميل إلى المعنى الذي تقدمه اللغة السبئية. وهذا المعنى يتوافق تماما مع

العربية القرآنية. إذ جاء في القرآن: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾. والمثابة والمثاب واحد في العربية كما يقول لنا اللسان. يضيف: قال ثعلب:...وقال بعضهم مثوبة. ومثوبة هي بالضبط متوب (مثوب) النبطية. علية فمثابة ذي الشرى هي بيته ومحجه. ذلك أن المثابة هي الموضع الذي يثوب إليه الناس ويحجون إليه مرة بعد مرة.

ثالثا: أن ذا الشرى مرتبط بضوء ليلي يشبه القنديل. فالطفيل بن عمرو، الذي يبدو في النص على علاقة وطيدة بهذا الإله، جاء قومه في الليل. إذ ما كانت آية القنديل لتصلح لو كان جاءهم في النهار. وهذا يعني أن ذا الشرى لا يرتبط بالشمس بل يمثل ضوءا ليليا، أي نجما متوهجا. يؤيد هذا أن رواية ياقوت للقصة تقول إنه (رجع إلى قومه في ليلة مغبرة ظلماء). كما أن رواية ابن منظور تقول عن سوط الطفيل (فكان يضيء في الليلة المظلمة له، فسُمي ذا النور). وهذا يعني أنه يمثل نجما.

رابعا: أن الاغتسال بالماء الجاري (الوشل) كان شعيرة مرتبطة بذي الشرى. وهذه نقطة اتفاق مع الأديان التي تعتمد الاغتسال والتعميد في الماء الجاري مثل الصابئة وغيرها.

خامسا: ومن الواضح أن القصة في الأصل قصة عن عبادة ذي الشرى ولا علاقة لها بالإسلام. وإلا لماذا يطلب الطفيل من امرأته أن تذهب لتتطهر في حمى ذي الشرى؟ وكيف يمكن لها أن تتطهر من ذي الشرى في حمى ذي الشرى ذاته؟ كل هذا يدلل على أن القصة أدمجت في التراث الإسلامي من دون أن يكون لها علاقة بالإسلام.

ما خافته المرأة

لكن الغريب أن اغتسال امرأة الطفيل في الوشل يشكل خطرا عليها، فيما يبدو. فقد سألت الطفيل: أتخشى على الصّبيّة من ذي الشّرى شيئا؟ وفي رواية ياقوت: أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئا؟ وفي رواية ثالثة يوضع السؤال ذاته على لسان والد الطفيل.

ونلحظ أن صاحبة الطفيل تتحدث عن نفسها بصيغة الغائب؟ وهو أمر غريب. فلماذا تقول: بأبي أنت وأمّي، أتخشى على الصّبيّة من ذي الشّرى شيئا؟ بدل أن تقول: ألا تخشى عليّ شيئا؟ وبسبب هذه الصيغة الغريبة فقد نسبت بعض الروايات السؤال إلى والد الطفيل. فهو عندها من سأل ابنه: ألا تخشى على الصبية من ذي الشرى شيئا؟ وهذا ما يجعلنا نضع احتمال أن يكون قد حصل تصحيف ما، وأن الجملة في الأصل تتحدث

twitter @baghdad_library

عن صبي لا عن صبية (ألا تخشى على الصبي شيئا؟).

والسؤال: لم يُخاف على الصّبيّة من ذي الشرى؟ لماذا عليها أن تخشى الاستحمام في ذي الشرى؟ وإذا كان الأمر يتعلق بصبي أو صِبية، لا بصبيّة، فلماذا تخشى صاحبة ذي الشرى على الصِبية من ذي الشرى؟

ربما نجد الإجابة عن هذه الأسئلة عندما نتطرق قريبا إلى الإله ذي الخلصة العربي. فعنده نجد صبية لم تطمث حملت من قوة إلهية غامضة، ووضعت صبيا غريبا.

لكن قبل أن نذهب إلى ذي الخلصة ربما كان علينا أن نستقرئ خبرا غريبا نقله إلينا إفيفانيوس القبرصي عن عذراء أخرى وابنها.

كابو وابنها

ولد إفيفانيوس القبرصي Epiphanius of Cyprus، ٣١٥-٤٠٣م، في فلسطين وعاش فيها، وتعامل مع البدو. وهو يخبرنا أن الأنباط عبدوا عذراء تدعى عند العرب كابو Chaabou وطفلها ذا الشرى، وأنهم كانوا يحتفلون في عيدهما المشترك في الخامس والعشرين من كانون الأول، أي عند الانقلاب الشتوي. وهذا في الواقع خبر مفاجئ. فذو الشرى حسب هذا الخبر لا يعبد وحده، بل يعبد مع أمه، ولهما معا عيد واحد. أي أننا هنا أمام بتول عذراء وابنها، كما هو الحال مع مريم وابنها المسيح. وسوف نرى لاحقا أن ذا الخلصة أيضا يحوي صبية عذراء تلد ابنا غريبا من دون ان يمسسها بشر.

خبر إفيفانيوس يلقي بظل من الشك حول ما قرره الباحثون، وهو أن ذا الشرى إله مذكر بكل تأكيد. صحيح أنه لا يقول لنا إن ذا الشرى أنثى، لكنه يربط هذا الإله بأمه الأنثى في وحدة واحدة. عليه، فبإمكاننا أن نفترض أن ذا الشرى الذي يقع في وسط حجر الناصرة، يتكون هو الآخر من أم وابنها. أي أن المرأة موجودة في وسط الثالوث، كما توقعنا.

لكن، قبل كل شيء ما معنى اسم الإلهة الغريب (كابو) الذي أورده لنا أفيفانيوس. إنه لاسم غامض حقا! وقد جرت محاولات لفك لغزه. أكثر هذه المحاولات شيوعا تربطه بالكعبة. يقول رينيه ديسو عن الاسم كابو: (وهو اسم عرف منذ وقت طويل أن المراد به هو الاسم العربي «الكعبة»، والذي لا يزال يدل حتى اليوم على البناء المكعب الذي يوجد بمكة).[٨٧]

إذن، فكابو تعني: الكعبة من دون رفة جفن! لكن هذا يقتضي أن تمثل الكعبة إلهة امرأة لها ابن محدد يدعى ذا الشرى، أي أن الكعبة الجاهلية هي معبد ذي الشرى، فأين الدلائل على ذلك؟ لا أحد يقدمها.

وقد رأى بعض آخر أنه يعني الكعبة فعلا، لكن بمعنى الفتاة الناهد. ذلك أن (كعبة) مفرد كعاب، تعني الصبايا النواهد. ونظن أن التفسيرين لا يقدماننا خطوة واحدة إلى الأمام في فهم (كابو) هذه.

كابو أم الكوبة؟

أما نحن فلدينا فرضية أكثر خصوبة لفهم هذا الاسم.

تقول فرضيتنا أن كلمة (كابو) تحريف لكلمة (كوبة) العربية، التي تعني آلة موسيقية محددة. ويختلف حول ماهية هذه الآلة. فالغالبية تقول إنها الطبل، في حين أن البعض يقول إنها البربط أو المزمار. فعن لسان العرب: (والكُوبة: الطبل.. وفي الصحاح: الطبل الصغير المخصَّر... وفي الحديث: إن الله حرم الخمر والكوبة؛ قال ابن الأثير: هي النرد؛ وقيل: الطّبل؛ وقيل: البربط، ومنه حديث علي: أمرنا بكسر الكوبة، والكنّارة، والشِّياع).[88]

ويضيف اللسان في مكان آخر: (ومنه حديث عليّ، عليه السلام: أمرنا بكسر الكوبة والكنارة والشِّياع. ابن الأعرابي: الكنانير واحدتها كنارة، قال قوم: هي العيدان، ويقال: هي الطنابير، ويقال الطبول. وورد في حديث علي، عليه السلام: نُهِينا عن الكوبة والغبيراء والقنّين)[89]

أما الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة، فيقول: (الُكوبة... قَصبات يجمعن في قطعة أديم، ويُخْرز عليهن ثم ينْفخ فيها اثْنانِ يزمُرانِ فيها، سميت كوبة لأن بعضها كُوِّب على بعض: أي أُلْصق).[90]

وهكذا فالكوبة أداة موسيقية، رغم أننا لا ندري بدقة أي آلة هي، وإن كانت الغالبية تعتقد أنها الطبل الصغير المخصر، أي الضيق من المنتصف والعريض من الطرفين حسب ما يخبرنا الغزالي في إحياء علوم الدين: (وبهذه العلة حرم ضرب الكوبة، وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين، وضربها عادة المخنثين ولولا ما فيه من التشبيه لكان مثل طبل الحجيج والغزو).[91]

twitter @baghdad_library

لكن أي شيء يقدم لنا فرض كون اسم أم ذي الشرى يعني آلة موسيقية؟ هل يقدمنا خطوة إلى الأمام لفهم شيء عن هذه الإلهة التي لا نعرف عنها سوى اسمها؟

للإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نكمل فرضنا هذا بفرض آخر حول الحديث السابق المنسوب للإمام علي: (أمرنا بكسر الكوبة والكنارة والشياع). يقول هذا الفرض إن هذه الآلات الموسيقية هي، في الحقيقة، رمز لثلاثة من الآلهة، تمثل نغمات الكون الثلاث. فكل آلة من الآلات تمثل نغمة من نغمات الكون الثلاث، حدا من حدود ثالوث. هذا هو مختصر فرضنا.

لكن علينا أن نشير أولا إلى أن الحديث ورد بعدة صيغ: ففي اللسان: نهينا عن الكُوبة والغُبَيراء والقنِّين. وفيه أيضا عن الزجاجي: إِن الله حرَّم الخمر والكوبةَ والقَنِّين وفي تاج العروس: (في الحديث «إِن الله حرم الخمر والكوبةَ»).[٩٢]

ولنبدأ بالآلة الأخيرة، أي بالشياع: (أمرنا بكسر الكوبة والكنارة والشياع)، مذكرين بما كنا قد توصلنا إليه في فصل سابق وهو أن اسم الإله النبطي (شيع القوم) يعني (الشياع الصغير)، أي البوق الصغير، أو المزمار الصغير، أي النغمة الصغيرة الدنيا، نغمة القرار. إذ أن (شيع) تعني (شياع) التي هي طراز من أبواق الرعاة، في حين أن الكلمة التي قرئت على أنها (القوم)، وهي (هقم)، هي عديل الكلمة العربية (القمء)، أي الصغير، أو الضعيف. وبالمقارنة مع الحديث السابق، فإن (الشياع) هو مثيل (شيع القوم)، أي أنه المزمار الضعيف، أو الصغير، أو النغمة الواطئة، نغمة القرار.

وهكذا نكون قد عرفنا، على الأقل، الحد الثالث من هذا الثالوث: الشياع، أي نغمة القرار الكوني. لكن في هذه الحالة يجب أن تكون (الكوبة) في الوسط، لأنها أنثى. والنغمة الوسطى أنثوية في كل الثواليث التي عرفنا. غير أننا نجدها هنا حدا أول لا حدا وسطا!

يمكن حل هذا الإشكال عن طريق أخذ الصيغ الأخرى التي أوردناها من الحديث. فقد أورد لسان العرب عن الزجاجي: (والقنِّين: طُنبور الحبشة؛ عن الزجاجي: وفي الحديث: إِن الله حرم الخمر والكُوبةَ والقنِّين).[٩٣]

هنا نرى الكوبة تحتل موقعها الوسطي المفترض. وهو ما يؤكد أن الكوبة هي الحد الأوسط في ثالوث النغمات الثلاث، الذي يمثل آلهة ثلاثة. ونحن نعتقد أن الخمر أدخلت في الثالوث نتيجة لتشوش ما، رغم أنه لا يصعب علينا، إذا أردنا، أن نقول إن النغمة العليا، أي الأولى في الثالوث هي نغمة خمرية دوما. لكننا نرى أن الخمر أدخلت

في الموضوع خطأ. وسوف نرى هذا سريعا.

كابو، إذن، هي الكوبة العربية. إنها الحد الأوسط في الثالوث. ولعلها تكمن هناك في الوسط مع ابنها ذي الشرى. أما الكنارة فهي الحد الأول، أي النغمة العالية، نغمة القمة. في حين أن الشياع هو نغمة القرار.

الغبيراء

غير أن علينا أن نفسر كلمة الغبيراء في الصيغة الثالثة للحديث، التي أوردناها: (نُهينا عن الكوبة والغبيراء والقنّين). الغبيراء كما نرى تشكل الحد الأوسط في الثالوث. لكن وجود الغبيراء ربما هو الذي أدخل الخمر في الموضوع. فقد فسرت الغبيراء على أنها تعني الخمر في صيغ الحديث التي تتحدث مباشرة عن الخمرة، كالتي وردت في لسان العرب: (وفي الحديث: إن الله حرم الخمر والكُوبةَ والقنِّين).[٩٤] والسبب أن هناك، كما تقول لنا بعض المصادر العربية، طرازا من الخمر يدعى الغبيراء. لكننا نعتقد جازمين أن كلمة الغبيراء في الحديث لا تعني الخمرة، بل تعني شجرة محددة، تدعى الغبيراء. وشجرة الغبيراء معروفة جيدا. يقول ابن سيدة في المحكم والمحيط الأعظم:

(قال أبو حنيفة: الغُبيراء: شجرة معروفة، سُميت غُبيراء للون ورقها وثمرتها إذا بدت، ثم تحمر حمرة شديدة).[٩٥] ويضيف ابن سيدة في المخصص أن (العناب {هو} الغبيراء).[٩٦] ولنتذكر دوما أن الحمرة لون إيزيس.

من ثمر هذه الشجرة يستخرج، إذا صح قول بعض المصادر العربية، طراز من الخمر تدعى الغبيراء. يقول لسان العرب نقلا عن ابن الأعرابي: (والغبيراء خمرة تعمل من الغُبيراء). وينقل عن ثعلب: (هي خمر تُعْمَل من الغُبَيراء، هذا الثمر المعروف).[٩٧]

إذن، فهناك شجرة تدعى الغبيراء، تستخرج منها خمرة تسمى بالاسم ذاته. هذا هو جذر دخول الخمر في الحديث السابق ببعض صيغه. فقد استبدل البعض الغبيراء بالخمرة. لكننا نعتقد أنه لا توجد أي علاقة للخمر بشجرة الغبيراء، ولا بالحديث الذي نحن بصدده. ينقل لنا ابن حزم في المحلى ما يؤكد فرضيتنا هذه. ففي سياق التعليق على الحديث يقول: (وخبر رويناه من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه نهى عن الخمر والميسر والكوبة والغبيراء»... قالوا: فقد فرق عليه السلام بين الكوبة والغبيراء، والخمر، فليسا خمراً).[٩٨]

twitter @baghdad_library

أي فليست الكوبة ولا الغبيراء خمرا، لأن الحديث فرق بينهما بكلمة الميسر. فلو كانت الكوبة والغبيراء خمرا، أي أنهما من نفس طبيعة الخمر، لأتبعهما للخمر ولم يفرق بينهما وبين الخمر. وهو يقول ذلك لأن هناك من لا يكتفي بالقول بأن الغبيراء خمرة، بل يزيد ليقول، انطلاقا من الحديث بتنويعاته، أن الكوبة أيضا خمرة أيضا! مثلًا يقول لنا أبو عبيد الله القاسم بن سلام في غريب الحديث: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر).[٩٩]

فالكوبة والغبيراء هنا من المسكرات، كما يبدو. وهذا وهم في وهم.

الغبيراء شجرة الشبق

الغبيراء، فيما يبدو لنا، رمز لإلهة أنثى، تمثل حدا أوسط في ثالوث. وهذا هو ما جعلها تحل، مثلها مثل الكوبة، في وسط الثالوث أحيانا: (نهِينا عن الكُوبة والغُبَيراء والقنِّين). وهي ذات ثمر أحمر، اللون الذي يخص كل الإلهات من طراز إيزيس. ولدينا دليل قوي على أن هذه الشجرة تمثل إلهة أنثى. فقد أورد المقدسي في أحسن التقاسيم عن أهل هراة: (ويقال إن نساءهم يغتلمن إذا أزهرت أشجار الغبيراء كما تغتلم السنانير).[١٠٠] ويؤكد وجود هذه الأسطورة ياقوت الحموي في معجم البلدان أيضا: (ويقال إن نساءهم يغتلمن إذا أزهرت الغبيراء كما تغتلم القطاط).[١٠١] كما يؤكدها القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد: (قالوا: إن نساءها يغتلمن إذا زهرت الغبيراء كما تغتلم السنانير).[١٠٢]

هذا يعني أنها شجرة خصب وجنس. فظهور زهرها يدفع بنساء هراة إلى الاشتياق للوصال الجنسي. ومن غير المفهوم أن تقوم الغبيراء بهذا الدور إن لم تكن تمثل إلهة خصب أنثى.

غير أن القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد يخبرنا أن الأمر لا يتعلق ببلاد فارس وحدها. فالنساء اللواتي يثرن جنسيا بزهر الغبيراء موجودات في موصل العراق:

(قرية من أعمال الموصل يقال لها بلد باشاي. حكى الشيخ عمر التسليمي، وكان من أهل التصوف، قال: وصلت إلى هذه القرية، فلما كان وقت خروج نور الغبيراء اهتاج بنسائها شهوة الوقاع، يستحيين من ذلك لغلبة الشهوة ولا قدرة للرجال على قضاء أوطارهن. فعند ذلك أخرجن إلى وادٍ بقرب الضيعة، وهن بها كالسنانير عند هيجانها، إلى أن انقضت مدتهن ثم تراجعن إلى بيوتهن وقد عاد إليهن التمييز! قال: وسمعت أن كل سنة في هذا الوقت تحدث بهن هذه الحالة).[١٠٣]

وهكذا فالغبيراء شجرة تثير، عند تزهيرها في وقت محدد من السنة، الاغتلام لدى نساء هراة ونساء الموصل. إنها مثل الإلهة التي ترتبط بها، والتي نفترضها، رمز للجنس والحب والشبق. ونساء الموصل وهراة كن، فيما يبدو، يقمن بطقس للجنس والخصب عند مجرى ماء خارج المدينة في وقت ظهور زهور الغبيراء. أي أنهن كن يذهبن للاغتسال بالماء كما ذهبت صاحبة الطفيل للاغتسال في وشل ذي الشرى.

من هذه الشجرة تصنع خمرة ما، كما تقول المصادر العربية. وهذه الخمرة شوشت المشهد، وجعلتنا ننتقل من الآلات الموسيقية، ومن نغمات الكون إلى المشروبات الروحية.

لكن لدينا خبرا ما قد يفك الالتباس ويلغي وجود الخمرة من أساسه. فهناك، حسب ما تعلمنا المصادر العربية، خمرة تصنع من الذرة، وتدعى غبيراء أيضا. يقول لسان العرب: (والغُبَيراء: السُّكُرْكَة، وهو شراب يعمل من الذرة يتخذه الحَبَشُ وهو يُسْكِر. وفي الحديث: إِياكم والغُبَيراءَ فإِنها خمر العالم).(١٠٤)

ويضيف الزمخشري في أسرار البلاغة: (وفي الحديث «إياكم والغبيراء فإنها خمر العالم» وهي السكركة تتخذها الحبشة من الذرة).(١٠٥) ويزيد ابن سيدة في المحكم والمحيط الأعظم: (والغُبيراء: السُّكُرَّكَة، وهو شراب يُعمل من الذرة).(١٠٦)

إذا صح هذا فإنه يفسر لنا سبب الالتباس. فالحديث يقصد الغبيراء الشجرة، لكن وجود خمرة ذرة ذات أصل حبشي بنفس الاسم أدى إلى أن يخلط المفسرون الغبيراء الشجرة بالغبيراء خمرة الذرة. أما الحديث أعلاه المنسوب للرسول (إياكم والغبيراء فإنها خمر العالم) فربما ساعد على هذا الخلط. غير أن من السهل علينا أن نستشف أن الحديث يتحدث عن الخمر بالمعنى المجازي لا بالمعنى الحقيقي. أي أنه يتحدث عن مسألة دينية. فالغبيراء هنا، أو بالأحرى الإلهة التي تمثلها، هي خمرة العالم، أي ضلاله. وإلا، لماذا تكون خمرة عادية جدا، بل وغير شهيرة، سواء صنعت من الذرة، وهو ما نعتقده، أو من شجرة الغبيراء، وهو ما نشك فيه، خمرة العالم كله، أي أخطر خمرة في العالم، وأكثرها إثما؟ هذا غير مقنع بالمرة. خمرة العالم هنا تعني فتنته وضلاله. وينقل لنا لسان العرب عن ثعلب التساؤل ذاته عن هذه الخمرة: (قال ثعلب: هي خمر تُعْمَل من الغُبَيراء، هذا الثمر المعروف، أَي هي مثل الخمر التي يتعارفها جميع الناس لا فضل بينهما في التحريم).(١٠٧)

twitter @baghdad_library

هذه الخمر مثل غيرها من الخمور، ولا تفضل أي خمر أخرى كي تكون في رأس المحرمات! هكذا يقول لنا ثعلب. فكيف، إذن، أصبحت خمر العالم؟ إن الأكثر معقولية أن نقول إن الحديث يتعلق بشجرة الغبيراء، التي تمثل إلهة وثنية، لا بخمرة تصنع من شجرة الغبيراء، أو من الذرة. من أجل هذا يرى ابن تيمية في جامع الرسائل أن المعازف، أي الآلات الموسيقية، هي (خمر النفوس تفعل بالنفوس أعظم مما تفعل حميا الكؤوس).[١٠٨] أي أنه يأخذ الأمر على سبيل المجاز، كما هو الحال في الحديث المنسوب للنبي.

ولعل صيغة أخرى للحديث ذاته تؤكد ما نقول. فقد ورد في مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي:

(عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن ربي تبارك وتعالى حرم علي الخمر والكوبة والقنين، وإياكم والغبيراء فإنها ثلث خمر العالم).[١٠٩] هنا تصبح الغبيراء ثلث خمر العالم وليس كله. فلماذا الثلث، وليس النصف أو الربع؟ لأن الغبيراء هي الحد الأوسط الأنثوي في ثالوث. إنها ثلث الثالوث.

على كل حال، فالعلاقة بين الكوبة والغبيراء في صيغ الحديث المختلفة توحي وكأننا نتحدث عن شيء واحد. فواحدتهما تحل محل الثانية أحيانا، وتأتي مرافقة لها أحيانا أخرى. ونظن أن هذا يحدث لأنهما متماثلتان. فشجرة الغبيراء تمثل إلهة أنثى مثل الكوبة، أي مثل (كوبا وابنها ذي الشرى).

وهناك احتمال لأن يكون شكل الكوبة- الطبل على علاقة بسبب تحريمها في المصادر الإسلامية. فهي طبل مستدق من الوسط عريض في الطرفين كما قال لنا أبو حامد الغزالي. وفي هذا الشكل، ربما، إشارة رمزية إلى ثالوث، الكوبة هي حد الأوسط، المركزي فيه. وربما من أجل هذا دعي باسم الكوبة. إذا صح هذا، يمكن أن نفهم ما قاله الغزالي عن الكوبة: (وضربها عادة المخنثين. ولولا ما فيه من التشبيه لكان مثل طبل الحجيج والغزو).[١١٠]

لكن على أن نفهم أنها حرمت بسبب وجود تشبيه بالثالوث الوثني. فمن دون الإشارة إلى الثالوث تصبح طبلا عاديا مثل أي طبل كان.

وبخصوص ثمرة الغبيراء شديدة الحمرة، فسوف نرى لاحقا أن ذا الخلصة العربي أيضا يرتبط بشجرة ذات ثمر أحمر كالعقيق. أي أن الشجرتين على علاقة بلون إيزيس. فنحن نعلم أن الحمرة لون إيزيس، وأن العقيق الأحمر رمزها.

القنين

إذا صح ما قلناه، نكون قد عرفنا حدود الثالوث في الحديث: فالكنارة هي نغمة القمة، والشياع نغمة القرار، والكوبة هي النغمة الوسطى المكونة من دمج النغمتين معا. إنها نغمة التعادل. لكن علينا أن نتحدث قليلا عن القنين في صيغة الحديث التي تقول: (إن الله حرَّم الخَمْرَ والكُوبةَ والقِنِّينَ). فالقنين يقوم مقام الشياع هنا. ولدينا بعض الأسماء اللَحيانية المركبة التي قد تدعم ذلك. مثل: (قنمنت، أي قين مناة) كما يخبرنا د. جواد علي في المفصل. ونحن نعتقد، على خلاف د. جواد علي، أن الاسم يعني: قنين مناة، أو قنن= مناة، وليس قين مناة، أي عبد مناة. وفي الحالة الثانية فهو اسم مركب تركيب مساواة، يكون فيه قين= مناة. يؤيد ذلك أن د. جواد علي ذاته يخبرنا في موضع آخر من كتابه أن: (من آلهة العرب الجنوبيين الإله «قينن» «قينان»، وهو إله قبيلة سخيم).(١١١) كما تحدثنا المصادر العربية عن ملك أسطوري يدعى قنان. يقول الخليل في العين: (وقَنانُ بن قَنانٍ اسم ملك كان يأخذ كل سفينة غصباً، كان من أشراف اليمن «بني» جلندى بنِ قَنان)(١١٢). ويضيف الفيروزآبادي في القاموس المحيط أن قنان: (اسمُ مَلِكٍ كانَ يأْخُذُ كلَّ سَفينَةٍ غَصْباً، أَو هو هُدَدُ بنُ بُدَدَ).(١١٣)

وكما هو واضح فإن مساواة قنان ب (هدد) الإله المعروف يدل على أننا نتحدث عن إله لا عن ملك أرضي. قنان هذا هو، في الأغلب، (قن) في التركيب (قنمنت). وهو مرتبط بمناة بناء على التركيب السابق. ومناة هو الحد الثالث في ثالوث مكة، كما رأينا من قبل، أي أنه مثل (شياع القمء). وهذا يعني أن القنين يحل محل الشياع، ومحل مناة.

قنمنت، إذن، هو عديل (شيع القوم)، أي المزمار الصغير، أي النغمة الواطئة للكون.

شجرة الشرى

كما رأينا، فإن الكوبة- الطبل- الإلهة ترتبط بشكل ما بشجرة الغبيراء. فهذه الشجرة تحل محلها أحيانا في الثالوث. وهذا ما قد يشير إلى أن الكوبة قد تكون ممثلة بشجرة ما. وهناك إشارات ما ربما تدعم احتمال وجود مثل هذه الشجرة. يقول اللسان:

(الشَّرْيان والشِّرْيان...: شجر من عضاة الجبال يعمل منه القسيّ، واحدته شِرْيانةٌ.

twitter @baghdad_library

وقال أَبو حنيفة: نبات الشِريانِ نبات السدر يسنو كما يسنو السدر ويتسع، وله أَيضاً نبقة صفراء حلوة، قال: وقال أَبو زياد: تصنع القياس من الشريان، قال: وقَوس الشريانِ جيدة إلا أَنها سوداء مشربةٌ حمرة، وهو من عتقِ العيدانِ وزعموا أن عوده لا يكاد يعوج).[114]

ويضيف: (المبرد: النبع والشوحط والشريان شجرة واحدة، ولكنها تختلِف أسماؤها وتكرم بِمنابِتها، فما كان منها في قُلَّة جبل فهو النبع، وما كان في سفح فهو الشريان، وما كان فيَ الحضيضِ فهو الشوحط).[115]

غير أن أبا عمرو الشيباني في الجيم يخبرنا نقلا عن الهمداني أن: (الشَّرية: شجرة المغد، وهي شجرة تلوَّى على الشجرة حتى ترتفع إلى رأسها، وثمرتها، مثل الخشخاشة، فإذا أنى احمرَّ فأُكل. يقال قد أمغدت الشجرة، وهي التي رأيت بين المدينة ومكة يقال لها إبلمة)[116].

ويجب أن نلحظ هنا أن ثمرة هذه الشجرة حمراء اللون. والحمرة لون الإلهات الإيزيسيات كما نعلم.

لكن اللسان يضيف هذه الجملة الأهم نقلا عن أبي حنيفة: (وقال أَبو حنيفة: الشرية النخلة التي تنبت من النواة).[117] وأبو حنيفة خبير بالنخل وشؤونه. ويؤكد هذا القول الجوهري في الصحاح من دون أن يقول عن من ينقل: (والشَرْيَة: النخلة تنبُت من النواة).[118]

وهكذا فليس هناك شريان، الذي هو السدر، أو نبع وشوحط ومغد، بل إن هناك نخلة محددة تدعى الشرية، مفرد شرى. وهي النخلة التي تنبت من نواة لا من فسيلة. وهذا يعيدنا إلى إيزيس وإلى الفينيق. فـ (فونيكس) باليونانية تعني: طائر الفينيق المرتبط بإيزيس، والنخلة المرتبطة بها، واللون الأحمر مثل حمرة لون الشعرى- إيزيس. عليه، فربما كان اسم ذي الشرى قد أخذ من (الشرية- النخلة)، التي تجمع على (الشرى). ودعما لهذا الاحتمال فإنه (يقال إن الإله النبطي دوشرا ولد تحت نخلة).[119] كما أن المسيح أيضا ولد تحت النخلة. وهذا يعني أن كابو، أي الكوبة، تتمثل بنخلة. النخلة وابنها. المرأة وابنها. البتول العذراء وابنها.

لكن يبدو لنا أن علينا أن نعرض لذي الخلصة بتوسع إذا ما أردنا لصورة ذي الشرى أن تتضح أكثر فأكثر.

ذو الخلصة

يبدو الإله ذو الخلصة واحدا من أهم آلهة الجزيرة العربية قبيل الإسلام على الإطلاق. يدل على ذلك الحديث الشهير المنسوب للرسول: لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على ذي الخلصة. فبناء على هذا الحديث فإن عودة عبادة ذي الخلصة صارت من علامات الساعة في المصادر الإسلامية.

تعبد لهذا الإله عدد كبير من القبائل مثل: خثعم وبجيلة وأزد السراة ودوس. لكن دوسا كانت أهم عباده. وترتبط أكثر الروايات عنه بهذه القبيلة.

يجري الحديث، إجمالا، عن ذي الخلصة بصيغة التذكير. لكن صيغة التذكير ربما خصت الصنم والمعبد لا الإله الذي يمثله. ويطلق اسم ذي الخلصة في المصادر العربية على المعبد وعلى الصنم. لكنه يطلق أيضا على امرأة، أو على ابنها، أو على المعبد الذي أقيم فوق ابنها. ولنبدأ برواية مهمة تعاكس الاتجاه الذي يرى أن ذا الخلصة إله مذكر. إذ يخبرنا أبو العلاء المعري في الصاهل والشاحج أن:

(من أحاديث الجاهلية أن الطاغوت الذي يسمى ذا الخلصة في اليمن، كان امرأة وكانت فاجرة ساحرة، فدعت غلاماً من أهل اليمن إلى نفسها فأبى عليها، فسحرته فصار نعامة. وكانت له أم صالحة فدعت عليها الله فمسخت حجراً).[١٢٠]

هنا نحن أمام تحديد واضح جدا لطبيعة هذا الإله الجنسية. فالطاغوت- الإله، أي صنمه، يمثل أنثى! وهذه الأنثى الفاجرة على علاقة بـــ (غلام) أحبته فمسخ إلى نعامة. أنثى مع غلام. ألا يشبه هذا الكوبة وابنها ذي الشرى؟ وعلاقة ذي الخلصة بالنعامة تؤيدها أخبار أخرى غير خبر أبي العلاء المعري. إذ ينقل لنا الأزرقي في أخبار مكة، ما يلي عن الخلصة:

(حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن إسحاق قال: نصب عمرو بن لحي الخلصة بأسفل مكة فكانوا يلبسونها القلايد ويهدون إليها الشعير، والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون عليها بيض النعام).[١٢١] وإشارة الأزرقي بالتأنيث لذي الخلصة يقصد به الصخرة- المروة. ويكرر ياقوت في المعجم القول ذاته: (فكانوا يلبسونه القلائد، ويعلقون عليه بيض النعام، ويذبحون عنده).[١٢٢] والإشارة بالتذكير هنا يقصد بها الصنم.

twitter @baghdad_library

وعليه، فخبر المعري ليس بلا أصل. فذو الخلصة مرتبط بالنعامة بشكل ما. فصنمه يعلق عليه بيض النعام، في إشارة إلى أن الإلهة الذي يمثله الصنم يتمثل في نعامة. كما أن الغلام المرتبط بالإلهة التي حدثنا عنها أبو العلاء مرتبط بالنعامة. وسوف نرى في فصول لاحقة أن النعامة على علاقة وطيدة جدا بإيزيس المصرية، التي تدعى أحيانا بالنعامة: تقول المنطوقة رقم ٣٠٤:

(المجد لك يا ابنة أنوبيس التي تقف على نافذة السماء، صديقة تحوت، التي تقف على جانبي السلم. افتحي الباب لعل أوناس يمر. المجد لك، أيتها النعامة الواقفة على شاطئ النهر المعوج، افتحي الطريق لأوناس عله يعبر).[١٢٣]

وهكذا فإيزيس وذو الخلصة مرتبطان بالنعامة، مما يشير إلى أن ذا الخلصة أنثى، أو أنه يشمل أنثى. ولدينا، في الحقيقة، بعض الأدلة القوية الأخرى التي تؤكد أن ذا الخلصة أنثى. إذ نفهم من مرثية لمعبد ذي الخلصة قالتها امرأة من خثعم بعد دماره على يد جرير ابن عبد الله أنه أنثى. تقول المرثية:

وبنو أمامة بالولية صرّعـــوا　　　ثملاً يعالـــج كلهـــم أنـبـوبـا

جاءوا لبيضتهم فلاقوا دونها　　　أسداً تقب لدى السيوف قبيبـا

قسم المذلة بين نسوة خثعـم　　　فتيان أحمس قسمةً تشـــعيبـا

ويرى د. جواد علي أنه من قولها:

(وبنو أمامة بالولية صرعوا　　　ثملا يعالج كلهم أنبوبا،

أن الخلصة أنثى، أي إلهة، ولذا قيل له «الولية»... وأما تعبيرهم عنه بضمير التذكير «وكان» فإنهم أرادوا بذلك لفظ «صنم»).[١٢٤]

وهذا ما يصادق على ما أخبرنا به أبو العلاء من أن ذا الخلصة أنثى وليس ذكرا!

الخلصة وابنها

إذن، فثمة ما يجعلنا قادرين على القول بأن ذا الخلصة إلهة أنثى. لكن القصة الأهم في المصادر العربية تخبرنا أن هناك إلها يدعى (ذا الخلصة) وأن له أما تدعى (خلصة)، وأن هذه الأم مرتبطة ارتباطا محكما بابن لها، كما هو الحال مع كوبا وابنها ذي الشرى. تقول القصة، التي نأخذها عن ابن منظور في المختصر في تاريخ دمشق، مضيفين إليها بين أقواس ما أضافه رواة آخرون غيره من عناصر مختلفة مهمة:

(عن مرداس بن قيس الدوسي قال: حضرت النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرت عنده الكهانة، وما كان من تغييرها عند مخرجه فقلت: يا رسول الله، قد كان عندنا من ذلك شيء؛ أخبرك أن جارية منا يقال لها خلصة لم نعلم عليها إلا خيراً، إذ جاءتنا فقالت «يا معشر دوس، العجب، العجب لما أصابني، هل علمتم إلا خيراً؟ قلنا وما ذاك؟ قالت: إني لفي غنمي إذ غشيتني ظلمة، ووجدت كحس الرجل مع المرأة، وخشيت أن أكون قد حبلت. حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاماً أغضف له أذنان كأذني الكلب، فمكث فينا، حتى إنه ليلعب مع الغلمان إذ وثب وثبة وألقى أزراره وصاح بأعلى صوته، وجعل يقول: يا ويله، يا ويله، يا غوله، يا غوله، يا ويل غنم، يا ويل فهم، من قابس النار، الخيل والله وراء العقبة، فيهن فتيان حسان نجبة. قال: فركبنا وأخذنا الأداة، وقلنا: ويلك ما ترى؟ قال: هل من جارية طامث؟ {آمالي بن دريد: ؟ فقال: هل من جارية طامث لم تكعب، معها صبي. قلنا: وكيف لنا بها؟ فقال شيخ من الحي: عندي هي والله عفيفة الأم، رأيت أمها نبذت فراشها البارحة} قلنا: من لنا بها؟ فقال شيخ منا: هي والله عندي عفيفة الأم. فقلنا: فعجلها، فأتى بالجارية، وطلع الجبل، وقال للجارية: اطرحي ثوبك، واخرجي في وجوههم وقال للقوم: اتبعوا أثرها، ثم صاح برجل منا يقال له أحمر بن حابس فقال: يا أحمر بن حابس، عليك أول فارس، فحمل أحمر فطعن أول فارس، فصرعه وانهزموا، وغنمناهم. قالوا: فابتنينا عليه بيتاً، وسميناه ذا الخلصة، وكان لا يقول لنا شيئاً إلا كان كما يقول حتى إذا كان مبعثك يا رسول الله قال لنا يوماً: يا معشر قريش، نزلت بنو الحارث بن كعب فاركبوا فركبنا فقال لنا: اكدسوا الخيل كدساً، واحشوا القوم رمساً، ألقوهم غدية، واشربوا الخمر عشية، قال: فلقيناهم فهزمونا وفضحونا، فرجعنا إليه فقلنا: ما حالك وما الذي صنعت بنا؟! فنظرنا إليه، وقد احمرت عيناه، وانتصبت أذناه؟ ! وأبزم غضباً حتى كاد أن ينفطر ونام، فركبنا واغتفرنا هذه له. ومكثنا بعد ذلك حيناً ثم دعانا فقال: هل لكم في غزوة تهب لكم عزاً، وتحصل لكم حرزاً، وتكون في أيديكم كنزاً، قلنا: ما أحوجنا إلى ذلك. فقال: فاركبوا فركبنا، وقلنا: ما تقول: قال: بنو الحارث بن مسلمة، ثم قال: قفوا فوقفنا، ثم قال: عليكم بفهم ثم قال: ليس لكم فيهم دم، عليكم بمضر، هم أرباب خيل ونعم، ثم قال: لا، رهط دريد بن الصمة قليل العدد، وفي الذمة، ثم قال: لا، ولكن عليكم بكعب بن ربيعة، واشكروها صنيعة عامر بن صعصعة، فلتكن بهم الوقيعة، قال: فلقيناهم فهزمونا وفضحونا فرجعنا وقلنا: ويلك ماذا تصنع بنا؟ ! قال: ما أدري كذبني الذي كان يصدقني، اسجنوني في بيتي ثلاثاً، ثم ائتوني، ففعلنا به ذلك ثم أتيناه بعد ثالثة، ففتحنا عنه، فإذا هو كأنه جمرة نار، فقال: يا معشر دوس، حرست السماء، وخرج خير

twitter @baghdad_library

الأنبياء، قلنا أين. قال: بمكة، وأنا مت، فادفنوني في رأس جبل، فإني سوف أضطرم ناراً، {ابن دريد: وخرج خاتم الأنبياء. قلنا: أين؟ قال: مكة بكة. أنا ميت لثلاث، فادفنوني في رأس موضع جفو، فإني سوف أضطرم نارا، فلا أكونن عليكم عارا} وإن تركتموني كنت عليكم عاراً، وإذا رأيتم اضطرامي وتلهبي فاقذفوني بثلاثة أحجار، ثم قولوا مع كل حجر: باسمك اللهم، فإني أهدأ وأطفأ. قال: وإنه مات واشتعل ناراً، ففعلنا به ما أمر، وقذفناه بثلاثة أحجار، نقول مع كل حجر: باسمك اللهم، فخمد وطفىء).[١٢٥]

الأمر واضح تماما هنا. فهناك عذراء تدعى خلصة، حملت من اتصال إلهي ما، كما حدث مع مريم العذراء بالضبط، ووضعت طفلا غريبا متكهنا، يبدو مثل المسيح الذي كلم الناس في المهد صبيا، اسمه ذا الخلصة. ومعبد ذي الخلصة أخذ هذا الاسم لأنه بني فوق قبر الطفل الأغضف هذا بعد مماته.

وهكذا يبدو لنا ذو الخلصة في صورتين اثنتين معا:

١- في رواية أبي العلاء يظهر كإلهة أنثى، أحبت غلاما

٢- وفي الرواية أعلاه يظهر كابن غريب لهذه الإلهة

هذا يعني أن ذا الخلصة اسم يشمل الأم وطفلها الإلهي معا. كل واحد من الاثنين يدعى ذا الخلصة. الفارق أن الطفل-الغلام هو ابن في الرواية الأولى، لكنه حبيب في رواية أبي العلاء.

هذا أمر مهم جدا. فعلى إدراكه يتوقف ليس فقط فهم ديانة ذي الخلصة، بل وفهم ديانة ذي الشرى. فقد علمنا من أفيفانيوس أن الأنباط يتعبدون لـ (العذراء كابو وابنها) معا، وأن لهما عيدا واحدا مع الانقلاب الشتوي. هنا أم وابنها، وهنا أم وابنها. وإذا كان كل من الخلصة وابنها يدعيان باسم واحد، فربما كان الأمر كذلك في ذي الشرى أيضا. أي أن الأم هي ذو الشرى، مثلها مثل ابنها.

أنوبيس الجزيرة العربية

أما ابن الخلصة، الطفل الأغضف، أي ذو الأذنين اللتين تشبهان أذني الكلب، فإن قصته مع أمه تشبه قصة إيزيس. فإيزيس لديها ابن، أو ابن أخت تبنته فصار تابعها وحارسها، أي صار ابنها، هو أنوبيس. وأنوبيس يصور على أنه كلب. أي أنه هو الآخر أغضف! ونحن نعلم أن نجمة الشعرى، التي هي إيزيس، تدعى عند الإغريق بـــ (نجمة الكلب). وهي

عند العرب (كلب الجوزاء). وهي تسمى بذلك لارتباطها بأنوبيس. وكل هذا إشارة إلى التشابه بين الخلصة وإيزيس. ويجب أن ننتبه إلى العرب حين تسمي الشعرى، أي إيزيس العربية، بكلب الجوزاء فإنما تسميها بابنها المفترض أنوبيس. فهو الكلب في الأصل لا هي. وهذا يعني أن الأم وابنها يسميان بالاسم ذاته في كثير من الأحيان.

وعلينا أن نشير إلى أن الخلصة شجرة محددة لها ثمر أحمر اللون. وأن تسمى المرأة- الطاغوت باسم هذه الشجرة أمر لا يجب أن يفوتنا. فليس من السهل تجاهل التشارك في الاسم بين الشجرة والمرأة- الطاغوت. فهو يعني أن الإلهة تتمثل بهذه الشجرة. أما عن شجرة الخلصة فيقول البغدادي في خزانة الأدب: (الخلصة: نبات له حب أحمر كخرز العقيق).[١٢٦] ويقول ابن سيدة في المحكم والمحيط الأعظم عن هذه الشجرة: (قال أبو حنيفة: أخبرني أعرابي: أن الخَلَص: شجر ينبت نبات الكرْم، يتعلق بالشجر فيعلق، وله ورق أغبر رقاق مُدوَّر واسعة، وله وردة كورد المرو، وأصوله مُشرفة، وهو طيب الرِّيح، وله حَبٌّ كحبِّ عِنب الثعلب: يَجتمع الثلاثُ والأربع معا، وهو أحمر كخرز العقيق، لا يؤكل، ولكنه مَرعىً).[١٢٧] ونحن نعلم، كما قلنا من قبل، أن الحمرة هي لون إيزيس. وهذا عنصر آخر يقوي من فرضية كون ذي الخلصة أنثى.

أما فيما يخص احتمال وجود ثالوث في ذي الخلصة، فلدينا القصة المشهورة عن البدوي الذي استقسم بالأزلام عند ذي الخلصة فخرج له سهم الناهي، أي الذي ينهاه عن الثأر لأبيه، فقال:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا

مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا.

الحديث هنا عن (خلص) بالجمع، لا عن خلصة بالمفرد. وهذا يعني أن الأمر يتعلق بعدة أشجار لا بشجرة واحدة، الأمر الذي قد يوحي بأننا أمام ثالوث مثلته أشجار ثلاث، كما هو الحال مع العزى. وثم في الخبر ذاته ما يؤيد ارتباط ذي الخلصة بالرقم ثلاثة. إذ نعرف من أنه كان لذي الخلصة ثلاثة أزلام يختلف في أسمائها اختلاف قليل. يقول أبو الفرج في الأغاني عن قصة البدوي الموتور السابقة في الأبيات السابقة:

(ومر بتبالة وبها صنم للعرب تعظمه يقال له ذو الخلصة، فاستقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة الآمر والناهي والمتربص، فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال: مصصت بظر أمك ! لو

twitter @baghdad_library

أبوك قتل ما عقتني. ثم خرج فظفر ببني أسد ويقال: إنه ما استقسم عند ذي الخلصة بعد ذلك بقدح حتى جاء أمر الله بالإسلام وهدمه جرير بن عبد الله البجلي).(١٢٨)

أما السهيلي في الروض الآنف فيورد القصة بالشكل التالي:

(وذكر ذا الخلصة، وهو بيت دوس. والخلص في اللغة: نبات طيب الريح يتعلق بالشجر، له حب كعنب الثعلب. وجمع الخلصة: خلص. وأن الذي استقسم بالأزلام هو: امرؤ القيس بن حجر. ووقع في كتاب أبي الفرج أن امرئ القيس بن حجر حين وترته بنو أسد بقتل أبيه استقسم عند ذي الخلصة بثلاثة أزلام، وهي: الزاجر والآمر والمتربص، فخرج له الزاجر، فسب الصنم، ورماه بالحجارة، وقال له: اعضض ببظر أمك، وقال الرجز الذي ذكره ابن إسحق: لو كنت يا ذا الخلص الموتورا، إلى آخره، ولم يستقسم أحد عند ذي الخلصة بعد حتى جاء الإسلام، وموضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها: العبلات من أرض خثعم).(١٢٩)

الأزلام الثلاثة هذه، في أغلب الأمر، رموز للثالوث الذي نتحدث عنه. فلكل حد من حدود الثالوث الثلاثة سهمه. ولو لم يحصل اختلاف في تسمية القداح وفي ترتيبها لأمكننا، ربما، أن نحدد القدح الذي يخص الحد الأوسط. لكن الخلاف بين (الآمر والناهي والمتربص) وبين (الزاجر والآمر والمتربص) يمنعنا من ذلك. فنحن بهذا الاختلاف نستطيع أن نتأكد فقط من الحد الثالث: المتربص. إذ أن (الزاجر- الناهي) يغير موقعه، فيظهر أحيانا وسطا وأحيانا حده الأوسط.

وفي وسط هذا الثالوث يقع ذو الخلصة، أي الأم الخلصة وابنها معا.

بين ذي الخلصة وذي الشرى

لكن لا بد لنا من التوقف أكثر عند العناصر المتشابهة بين قصتي ذي الشرى وذي الخلصة. والحق أن نقاط التشابه في القصتين كثيرة جدا:

١- توضح لنا قصة الخلصة- المرأة حدوث اتصال جنسي خفي: (إني لفي غنمي إذ غشيتني ظلمة، ووجدت كحس الرجل مع المرأة، وخشيت أن أكون قد حبلت). ويبدو هذا مشابها لما كانت تخشاه امرأة الطفيل حين طلب منها زوجها أن تذهب إلى وشل ذي الشرى لتستحم فيه. فهي، فيما يبدو، كانت تخشى على نفسها وعلى أطفالها القادمين. فربما كان الإله سيجامعها عند الوشل لتلد، مثل الخلصة، غلاما أغضف.

٢- أن ابن الخلصة والطفيل كل واحد منهما مضيء. فالطفيل بنور بين عينيه مثل المصباح، الأمر الذي جعله يدعى ذا النور. كما أن النور في رأس سوطه كان (كالقنديل المعلق). أما ابن الخلصة فكان يتضرم مثل (جمرة نار). وقد قال لقومه: (ادفنوني في رأس جبل، فإني سوف أضطرم نارا). إنهما نجمان يتضرمان.

٢- أن كل واحد منهما وقف على جبل. فابن الخلصة قال لقومه (فادفنوني في رأس جبل). أما الطفيل فيقول: (كنت بثنيّة تطلعني على الحاضر)، أي كنت في مكان مشرف عال أطل منه على الحضور.

٣- أن كلا منهما طفل بشكل أو بآخر. فابن الخلصة طفل متنبئ، واسم الطفيل ذاته يوحي بالطفولة فهو (طفيل). وطفيل تصغير لطفل.

وفي الواقع فإن في قصة الطفيل بن عمرو زائدة أخرى تشير إلى اندماج الطفل بالرجل فيه.

يقول ابن هشام في سيرته الخبر ذاته:

(ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة، ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة، فقال لأصحابه : إني قد رأيت رؤيا فاعبروها لي، رأيت أن رأسي حُلق، وأنه خرج من فمي طائر، وأنه لقيتْني امرأة فأدخلتني في فرجها، وأرى ابني يطلبني حثيثا، ثم رأيته حُبس عني)[١٣٠].

وهكذا، يبدو الطفيل زوجا وابنا في لحظة واحدة. فقد أدخلته المرأة في فرجها كما لو أنه طفلها. وهذا يشبه أمر ذا الخلصة. فهو ابن الخلصة، لكن، بناء على رواية أبي العلاء، يبدو أنه هو الغلام الذي أحبته الخلصة وحولته إلى نعامة. وبالمناسبة، فإن (شرى) بالمصرية القديمة تعني (طفل). مما يوحي بأن (ذو الشرى) قد تعني الإله (ذو الطفل)، أو الإلهة ذات الطفل. وفي كل حال، فنحن مع ذي الشرى بشجرة وطفل، ومع ذي الخلصة بشجرة وطفل أيضا.

الكعبة اليمانية

يسمي كثير من المصادر العربية ذا الخلصة باسم (الكعبة اليمانية). وهذا الاسم يفيدنا في فهم ذي الخلصة. فهو يعني أن معبده كان كعبة ما تشبه كعبة مكة. لكننا لا نعرف إن كانت الكعبة اليمانية هذه هي ذاتها كعبة نجران. أي أننا قد نكون أمام كعبات ثلاث:

twitter @baghdad_library

كعبة مكة، الكعبة اليمانية- ذو الخلصة، وكعبة نجران. لكن يمكن أن ننتهي إلى أن كعبة نجران هي كعبة ذي الخلصة. يقول لسان العرب عن كعبة ذي الخلصة:

(وذو الخَلَصة: موضع يقال إنه بيت لخثعم كان يُدعى كَعبةَ اليمامة، وكان فيه صنم يدعى الخلَصةَ فَهُدِم.... وقيل: ذَو الخَلَصة الكعبةُ اليمانية التي كانت باليمن فأَنْفَذَ إِليها رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، جرِير بن عبد اللّه يخربها).[١٣١]

ويظن أن (كعبة اليمامة) في النص تصحيف لـــ(الكعبة اليمانية)، ذلك أن ذا الخلصة كان يقع إلى جنوب كعبة مكة، أي باتجاه اليمن. يقول ياقوت في المعجم:

(وقيل كان ذو الخلصة يسمى الكعبة اليمانية والبيت الحرام الكعبة الشامية... وقال أبو المنذر {الكلبي}: ومن أصنام العرب ذو الخلصة وكانت مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج وكانت بتبالة بين مكة واليمن، على مسير سبع ليال من مكة).[١٣٢]

ويقول د. جواد علي هذه الفروض على طريقته: (ومن محجات الجاهلية بيت الصنم ذو الخلصة... وكان يسمى الكعبة اليمانية تمييزا له عن الكعبة، التي عرفت بالكعبة الشامية).[١٣٣]

ولا بد أن نفترض أن كعبة مكة مثل هذه الكعبات. وقد أوردنا في فصل سابق أن كعبة مكة الجاهلية ربما كانت معبدا للعزى ضمن ثالوثها. كما أوردنا أن العزى تمثلت بشجرة سمر، وأن شجر السمر كان في الحرم، وأنهم كانوا يقلدون بلحاء هذا السمر إبلهم عند الحج. أي أننا هنا أمام إلهة تتمثل بشجرة أيضا.

الفارق هو أن العزى بلا ولد، على حد ما نعلم، وإن كان بحث أكثر سعة يمكن أن يوصلنا أنها بولد أيضا.

في كل حال، ومن كل ما عرضناه في هذا الفصل، يتضح لنا أن هيرودتس كان على حق وأن الباحثين كانوا على خطأ. فالعرب يعبدون إلهين فقط، مذكر ومؤنث. أما المذكر فينقسم إلى مظهرين، إلى شقين. وهكذا يتكون لدينا ثالوث، حداه الطرفان مذكران، وحده الأوسط أنثى. هكذا الأمر مع (اللات والعزى ومناة)، ومع أريس وذو الشرى وثياندرويوس، ومع عزيزو والعزى وأرصو، ومع عزيزو والعزى ومونيموس، الشرى، ومع الكنارة والكوبة والشياع...إلخ.

هيرودتس كان يعرف قبل ألفين وخمسمائة عام عن ديانة العرب قبل الإسلام أكثر مما يعرف الباحثون الغربيون في أيامنا هذه.



twitter @baghdad_library

فصل 3

العزى السعيدة

وحدها العزى، الحد الأوسط من الثالوث المكي (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) هي التي لا ذرة شك حول طابعها الجنسي في المصادر العربية. فهناك إجماع على أنها أنثى. لكن هذه المصادر تختلف بعد ذلك فيما يجسدها، وعلى اسم معبدها، وعلى مكانه. ويختصر د. جواد علي هذه الاختلافات، ثم يبين رأيه فيها:

(ومن أخبار أهل الأخبار عن بيت العزى أوهام وتناقض. فتراهم يجعلون العزى صنما مرة، ويجعلونها سمرة أو شجرة، أو ثلاث سمرات مرة أخرى. ثم نراهم يخلطون... بين البيت والحرم الذي كان حوله... والذي أراه أنه كان للعزى بيت هو «بس»، فيه صنم للعزى، وكان حوله حرم، كحرم مكة، به سمرة أو ثلاث سمرات، كان الناس يقدسونها أيضا، ويتقربون إليها، وهي جزء متمم من الحرم)[١].

إنه اختصار معقول. وسوف نناقش في هذا الفصل كل المسائل المطروحة في المقتبس أعلاه. بادئين بموضوع تجسد العزى في سمرة أو ثلاث سمرات. ذلك أن علاقة العزى بشجرة السمر ليست مسألة ثانوية كما قد يظهر من نص الدكتور جواد علي. نحن نعتقد أن العزى، أو أن العزى ومعبدها، تجسدا بالفعل بشجرة سمر كما تقول المصادر العربية. وشجر السمر كما يقول لنا لسان العرب:

(ضرب من العِضاة، وقيل: من الشجر صغار الورق قصار الشوك، وله برمة صفراء يأكلها الناس، وليس في العضاة شيء أَجود خشباً من السمر، ينقل إِلى القُرى فتُغَمَّى به البيوت).[٢] ويقال إن صمغة حمراء تخرج من هذه الشجرة تدعى (حيض السمر)، أي أنها شجرة تحيض كما المرأة. وهذا ما يشير إلى ارتباط هذه الشجرة بالعزى الأنثى. كما اللون الأحمر، كما صرنا نعرف، هو لون إيزيس، الأمر الذي يشير إلى أن العزى إلهة من طراز إيزيسي.

يدور الخلاف، كما ذكرنا، حول عدد الشجرات التي ترتبط بالعزى ومعبدها. يؤكد لنا الزبيدي في تاج العروس أن العزى سمرة واحدة، لا ثلاث سمرات: (العزى: سمرة عبدتها غطفان بن سعد بن قيس عيْلان، أول من اتخذها منهم ظالم بن أسعد، فوق ذات عِرق إلى البستان بتِسعة أميال، بالنخلة الشامية).[٣] أما الكلبي في الأصنام، مصدرنا الأهم عن أديان العرب في الجاهلية، فيخبرنا أنها تتجسد في ثلاث سمرات:

(كانت العزى شيطانةً تأتي ثلاث سمراتٍ ببطن نخلة. فلما افتتح النبي مكة، بعث خالد بن الوليد، فقال له: إيت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى! فأتاها فعضدها. فلما جاء إليه، عليه السلام، قال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا. قال: فاعضد الثانية! فأتاها فعضدها. ثم أتى النبي، عليه السلام، فقال: هل رأيت شيئا؟ قال: لا. قال: فاعضد الثالثة! فأتاها. فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعةٍ يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها دبية بن حرمى الشيباني ثم السلمي، وكان سادنها)[٤].

فهل العزى، في الحقيقة، سمرة واحدة أم ثلاث سمرات؟ ولم تضطرب المصادر العربية بهذا الشأن اضطرابا شديدا؟

ربما تكمن الإجابة في ضرورة التفريق بين العزى وبين ثالوثها، وبين العزى ومعبدها. فالعزى كإلهة تتمثل بسمرة واحدة، أما معبدها فيحويها ضمن ثالوث. فهي لا تصور وحدها في معبدها، بل ضمن هذا الثالوث المعروف، وكجزء منه: (اللات والعزى ومناة). وإذا كانت العزى سمرة واحدة من بين سمرات الثالوث، بالفعل، فلا بد أن نفترض أن السمرتين الأخريين تمثلان اللات ومناة.

والحق، أن رواية الكلبي تؤيد جزءا مما نقول. فالعزى، أو روحها، كانت في واحدة من الأشجار الثلاث وليس في السمرات الثلاث كلها. إنها في الشجرة الثالثة: (قال: فاعضد الثالثة! فأتاها. فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها). هناك، إذن، ثلاث شجرات، لكن العزى تقيم في واحدة منهن فقط. وعليه، فلم يتم القضاء عليها حين قطعت الشجرة الأولى أو الثانية، بل حين قطعت الثالثة. إذ حينها خرجت منها شيطانتها، أو روحها تصرخ وتولول، فقتلت. وبقتلها قضي على العزى.

ولعلنا نستطيع أن نقول إن شجرة السمر التي تمثل هذا الثالوث، بما فيه العزى، مكونة من ثلاثة أفرع، وأن الفرع الأوسط فيها بالذات يمثل العزى. أو أن الأمر يتعلق بشجرة واحدة مثلثة الجذع، للعزي منها الذي يقع في المنتصف. وبشكل أدق، يمكن لنا أن نقول إن معبد العزى مع ثالوثها يصور على أنه شجرة بأفرع ثلاثة، الفرع الأوسط منها

twitter @baghdad_library

للعزى. أي أن المعبد هو الشجرة المثلثة. هذا لا ينفي بالطبع أن تكون في المعبد شجرة مثلثة، بل يفترضه. فوجودها تصوير مادي للطابع المثلث للمعبد.

ونحن نعلم من القرآن، أو من خلال صيغته اللغوية، أن العزى هي الحد الأوسط في الثالوث: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟). فهي تكمن بين اللات ومناة. ومن المفترض، بالتالي، أن يكون فرعها هو الفرع الأوسط، إذا كانت الشجرة فعلا من ثلاثة أفرع كما أخبرنا ابن الكلبي. لكن هذه الرواية تقول لنا إن العزى كانت في الشجرة الثالثة: (قال: فاعضد الثالثة)، أي بما قد يوحي بأنها تقع في طرف الثالوث. لكننا لا نعتقد ذلك. ذلك أن الحدين الطرفيين في كل الثواليث التي تشبه الغرانيق العلى، وكما سنرى على طول الكتاب، مذكران. وهما مرتبطان معا. أي أن الأول والثالث مظهرا إله واحد. من أجل هذا ربط الأقدمون، كالفيثاغوريين، بين الرقم واحد والرقم اثنين، وعدوهما آلهة: (كان العددان واحد واثنان يحظيان بأهمية خاصة تتعدى كونهما مجرد عددين، ففي الواقع ليسا هما عددين إطلاقا.. كان العدد واحد فيما يتعلق بالفيثاغوريين أول عدد تم خلقه. وكان يقرن بالإله الخالق بطريقة خاصة.... وقد شارك العدد اثنان العدد واحد في هذه الميزات الخاصة)[٥].

العدد واحد هو الإله. أما العدد اثنان فهو مثيله وشريكه.

ويخبرنا بلوتارخ عن الفيثاغوريين أنهم: (دعوا الرقم واحد أبوللو لأنه يرفض الازدواج، بسبب واحدية الوحدة. وسموا الرقم اثنين «المخاصم» و«الجريء». في حين سموا الرقم ثلاثة «العدالة». ذلك أن عمل اللاعدالة والألم من قبل اللاعدالة سببه المبالغة في الزيادة أو النقص)[٦].

وهكذا فالعدد اثنان عند الفيثاغوريين يعني الصراع، المواجهة، والمقابلة، كما هو الحال مع مناة ومني، اللذين يقابلان اللات أو جد. ونحن نعتقد أن الرقم واحد يعطى للحد الأول من الثالوث، في حين يعطى الحد الطرفي الآخر رقم اثنين. أما الرقم ثلاثة فيعطى للحد الأوسط في الثالوث، أي للإلهة الأنثى. ورقم ثلاثة يدعى عند الفيثاغوريين (عدالة). ونحن نظن أن ذلك راجع لارتباطه بالإلهة الأنثى. وقد رأينا كيف أن مكة-مقة، أي العزى وبلقيس وإيزيس، تمثل ميزان العدالة، ميزان ماعت. ولا يجب أن يغيب عن بالنا قوة ارتباط الفيثاغورية بالديانة المصرية القديمة. بل لعلنا نقول إن الفيثاغورية هي الجانب الرقمي من الديانة المصرية وقد وصل إلى منتهاه.

ولأن رقم ثلاثة خاص بالإلهات الإناث، ربات التوازن والاعتدال والعدالة، قالت

الرواية العربية إن العزى كانت في الشجرة الثالثة، وإنها ماتت بعد أن قطعت الثالثة. إنها الوسطى في الصف مثل العزى (اللات، العزى، مناة)، لكنها الثالثة في الترقيم. وقد أعطانا ابن الكلبي مواد أدبية تدعم ما كان جاء الكلبي حول كون العزى، أو بالأحرى معبدها، شجرة بأفرع ثلاثة. يقول الكلبي:

(كانت قريش قد حمت للعزى شعباً من وادي حُراض يقال له سُقام يضاهون به حرم الكعبة. فذاك قول وأنشد لأبي جُندب الهذلي... في امرأة كان يهواها فذكر حلفها له بها {بالعزى}:

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة   بفرع التي أحمت فروع سقام

لئن أنت لم ترسل ثيابي فأنطلق   أباديك أخرى عيشنا بكلام

يعز عليه صرم أم حويرث   فأمسى يروم الأمر كل مرام)[٧].

هنا يحلف أبو جندب (بفرع) واحد. وتقول المصادر العربية كلها أن جملة (فروع سقام) تعني (مرتفعات سقام). أي أن جندبا هذا حلف التي جعلت الشجرة التي جعلت (فروع سقام)، أي أعالي سقام، أي مرتفعات سقام، حمى محميا. لكنه يعترينا الشك حول هذا التفسير. فالشاعر يحلف (بفرع) واحد من (فروع سقام)، الأمر الذي يدفعنا إلى الاعتقاد أن فروع سقام هنا تعني فروع معبد سقام. وهذا يعني، كما افترضنا سابقا، أن معبد العزى ذاته، أي معبدها الذي يحويها ضمن الثالوث، يصور على أنه شجرة من ثلاثة أفرع. إنه هو الشجرة المثلثة ذاتها. والشاعر يحلف بالفرع الأوسط منها، لأن المعبد مكرس للإلهة التي يمثلها، أي العزى. وهذا الفرع هو الذي أحمى الفروع الأخرى؛ لأن المعبد مكرس للإلهة التي تمثله. ونستطيع أن نفهم لم أوجدت المصادر العربية لجملة (فروع سقام) تخريجة جعلتها تعني (أعالي سقام). ذلك أن سقام بالنسبة لها معبد، أي بناء، وليس شجرة، بالتالي لا يمكن أن تكون له فروع. لكن بالنسبة فلا مشكلة في الأمر. فالمعبد تصوير لشجرة كونية، حتى من دون وجود شجرة السمر الحقيقية فيه. الشجرة المادية تأكيد لفكرة أن المعبد شجرة، أي أن سقام شجرة لها أفرع. لكن في كال، حتى لو كانت فروع سقام تعني أعالي سقام، فإن هذا لا يؤثر على تحليلنا.

إذن، فمعبد العزى يكرس لها، لكنه يصورها مع ثالوثها. إذ أن الإلهة العزى لا تكون إلا الوسطى ضمن ثالوث: اللات والعزى ومناة. هذا المعبد يتمثل بشجرة سمر بأفرع الثلاثة. الفرع الأوسط منها هو العزى، بينما الفرعان الآخران للات ومناة. ولدينا في تكملة للمقتبس السابق من الأزرقي في أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار الذي أخبرنا

twitter @baghdad_library

فيه الرب يتصيف باللات لبرد الطايف، ويشتو بالعزى لحر تهامة دليل على ما نقول: (وكانت العزى ثلاث شجرات سمرات بنخلة... وكان في كل واحدة شيطان يعبد).[٨]

في كل شجرة شيطان يعبد! أي أننا لسنا فقط أمام المرأة- شيطانة العزى التي خرجت تولول، بل أمام شيطانين آخرين أيضا. ولا شك لدينا أن الشيطانين الآخرين هما شيطانا اللات ومناة.

وإذا كانت العزى سمرة، وكان معبدها سمرة مثلثة، فإنه يجب ملاحظة تقليد التزين بالسمر في الحج الجاهلي. فقد كان إذا أراد أحدهم الحج تقلد قلادة من لحاء السمر. ويقال إنه كان يقلد نفسه وناقته بالسمر. ومن خبر في لسان العرب يتضح أن هذا السمر كان في الحرم فيما يبدو. يقول: كانوا يقلدون الإبل بلحاء شجر الحرم، ويعتصمون بذلك من أعدائهم. وهذا يعني أن شجر الحرم كله ربما كان من السمر، أي من شجرة العزى ومعبدها. وهذا يعني أيضا أننا يجب ألّا نأخذ الحديث عن شجرة سمر في معبد العزى بالمعنى الواقعي. فهناك شجر سمر كثير فيه. لكن الشجرة المقصودة هي المعبد ذاته. المعبد ذاته شجرة كونية.

والحديث عن السمر في الحج يوحي وكأن الكعبة الجاهلية كان ينظر إليها كمعبد مشابه لمعبد العزى في سقام. ومن أجل هذا فقد كانت قريش الأشد تعظيما للعزى من دون كل العرب، كما يقول الكلبي.

ملكة سمرجد

إذا كانت العزى إلهة سمرة، فإن هذا قد يدفعنا للتساؤل عن علاقة العزى ببعض الإلهات اللواتي في أسمائهن مقاطع تشير إلى شجرة السمر، أو إلى بعض الطيور التي تحمل مثل هذه المقاطع، والتي هي طيور مرتبطة بآلهة. فلدينا: (سميراميس) الملكة الإلهة، ولدينا طائر (سمرك) الناري الفارسي، وطائر (سمرمر) الذي يقضي على الجراد. كل هذه الأسماء تحتوي لفظة (سمر) فيها.

وفيما يخص سميراميس البابلية الأسطورية فاسمها مكون من (سمر+ ميس)، أي مكون من شجرتي السمر والميس. والميس في الواقع هو الشبيه الميثولوجي للسمر. أي أن سميراميس في الواقع هي شجرة السمر، أو شجرة ميس. أي أنها مثيلة العزى. ونحن نعلم أن سميراميس مرتبطة بالحمامة. فاسمها حسب ديودورس يعني الحمامة. كما أن يمامة هي التي غذتها بحليبها. أي أنها طائر في نهاية الأمر. وهذا يعيدنا إلى تذكر أن

العزى أيضا طائر. فهي واحدة من الغرانيق العلى، أي الطيور البيض. وبما أننا نتحدث عن إلهات يتجسدن في طيور، يصبح من المنطقي أن نتساءل عمّا إذا كانت العنقاء الفارسية (سمرك) تتمثل هي الأخرى بشجرة سمر. والأمر كذلك فيما يخص طائر (سمرمر).

وهذا يرسلنا إلى ليليث ملكة سمرجد الشهيرة في الأدب التوراتي. فقد ورد في سفر أيوب في الكتاب المقدس أن كائنا يدعى (سبأ) يهاجم أبناء يعقوب. وتترجم كلمة (سبأ) عادة، أو في الحقيقة تحول، إلى السبئيين: (وكان ذات يوم وأبناؤه وبناته {أي أيوب} يأكلون ويشربون خمرا في بيت أخيهم الأكبر وأن رسولا جاء إلى أيوب وقال. البقر كانت تحرث والأتن ترعى بجانبها فسقط عليها السبئيون {سبأ} وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدي لأخبرك).[٩]

غير أن الترجوم الآرامي يضع محل كلمة (سبأ) الاسم (ليليث ملكة سمرجد). فمن هاجم أبناء يعقوب هي ليليث ملكة سمرجد: (وفي اليوم الذي يبدأ به الأسبوع حدث أن النبي أيوب وأبناءه كانوا يأكلون ويشربون خمرا في بيت أخيهم الأكبر، فأقبل رسول إلى أيوب وقال: كانت البقر تحرث والحمير ترعى بجانبها، فانقضت عليها فجأة ليلث ملكة سمرجد وأخذوها).[١٠]

بذا يمكن أن نفهم أن سبأ يساوي ليليث ملكة سمرجد. أي أن ثمة إشارة مساواة بين سبأ وليليث ملكة سمرجد: سبأ= ليليث ملكة سمرجد. وهذا ما يدفع بالمرء دفعا إلى تذكر (ملكة سبأ)، غير قادر على منع نفسه من وضع إشارة مساواة بين: ملكة سبأ= ليليث ملكة سمرجد. أي أن بلقيس نفسها هي ليليث ملكة سمرجد، وقد يرى البعض أن هذا غير معقول، لكننا نذكره بالرعب الذي تثيره العنقاء، التي هي إيزيس العربية في جانبها السلبي، التي تخطف الصبية والجداء. وبلقيس هي إيزيس العربية.

في كل حال، علينا أن نتحدث بصدد (ليليث ملكة سمرجد) عن أمرين: ليليث وملكة سمرجد.

فيما يخص ليليث فمن الواضح لنا أنها شبيهة ليليث في شجرة إنانا. أي أنها الحد الأوسط في الشجرة الرديئة، شجرة الصفصاف، أي شجرة الخلاف. أي أنها الصورة السلبية لإنانا وإيزيس. وهذا يعني أنها شبيهة العزى السلبية أيضا.

لكن ما معنى (ملكة سمرجد)؟

ناقش أمر (سمرجد) عندنا زياد منى، وأورد رأيا للباحث (لو سلبيرمان) يقول فيه إن كلمة سبأ كلمة يونانية محرفة عن الكلمة العبرية (سهبء)، التي تعني جوهرة، والتي

twitter @baghdad_library

يمكنها بسهولة أن تعني: سبأ. أما زياد منى ذاته فيرى أن كلمة سمرجد قد تعني سمرقند، لأن التقليد العربي يقول إن مملكة بلقيس وصلت إلى مدينة سمرقند في آسيا الوسطى.

نحن نعتقد أن كلمة (سمرجد) تعني (شجرة السمر) كم هو الحال مع العزى. أي أن الترجوم يتحدث لنا (ليليث شجرة السمر). وإذا أردنا أن نوضح، فإنه يمكن إبعاد مقطع (سمر) لأن علاقته بشجر السمر ليست بحاجة للبرهان. عليه، يتبقى أمامنا مقطع (جد). وجذر جد في العربية يحمل معاني كثيرة. واحد من هذه المعاني يعني طرازا من الأشجار. يقول تاج العروس: (الجُدّاد كرُمّان: صغار {شجر} العضاة. وقال أبو حنيفة: صغار الطَّلح، الواحدة جُدّادة) ويزيد: (والجُدّاد: كُلُّ مُتعقِّدٍ بعضُه في بعضٍ من خَيطٍ أَو غصن).[11] ويضيف ابن سيدة في المخصص: (الجداد - صغار الشَّجر الواحدة جدادة).[12] وقال الطرماح يصف ظبية:

تجتنِ ثـامـر جـدادِه   من فرادى برم أَو تُؤام

وليس من المستبعد أن يكون (جد) مفرد الجداد، أي أَشجار الطلح وغيرها. وهناك في سورة فاطر في القرآن ما قد يؤيد ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.[13] والغالبية الساحقة على أن الكلمة الغامضة (جدد) تعني هنا الطرق. يقال: الجُدَّة: الطريقة في السماء والجبل. وينقل عن الفراء: الجُدَد الخِطط والطُّرق، تكون في الجبال خِطط بيض وسود وحمر كالطُّرُق، واحدها جُدّة. لكن في أنفسنا ما يعارض هذا التفسير. فالآيتان تتحدثان عن الكائنات الحية التي يخرجها غيث السماء: الثمرات، والناس والدواب والأنعام، فكيف تكون الطرق في الجبل من بين هذه الكائنات؟ الأكثر معقولية أن الجدد هنا تعني: الأشجار، أو الجذوع أو الأغصان ذات الألوان المختلفة. ومفرد الجدد في هذه الحالة هو جد، أي الجذع أو الغصن.

فوق هذا فنحن نعلم أن أوزيريس يتمثل بجذع شجرة. هذا الجذع يدعى (عمود جد). ويصور أحيانا كثيرة على أنه جذع شجرة أو جزء من جذع شجرة. ويبدو أن لهذا الاسم علاقة بمعنى القطع في جذر (جدد). فجدّ تعني: قطع. وهذا يعني أن أوزيريس هو أيضا جد شجرة، أي جذع شجرة، أو شجرة تختصر بجذعها. وعليه، فليس غريبا أن تكون ليليث، مثيلة العزى وإنانا، هي أيضا شجرة سمر.

لكن هناك احتمالا في أن الاسم (ليليث ملكة سمرجد) يربط ليليث بإله من طراز أوزيريس. فقد يعني الاسم: ليليث ملكة جد شجرة السمر، أي جذع شجرة السمر. والجذع (جد) هو أوزيريس. وعليه، فهي ملكة أوزيريس، أي وزوجته وصاحبته. ويؤيد هذا الاحتمال نص أورده ابن خلدون في تاريخه: (وقيل عابر ويسمى سبأ، لأنه قيل إنه أول من سن السبي، وبنى مدينة سبأ وسد مأرب. وقال صاحب التيجان إنه غزا الأقطار، وبنى مدينة عين شمس بإقليم مصر، وولى عليها ابنه بابليون).[١٤] هنا سبأ هو عابر. وعابر هو سهيل اليماني- أوزيريس في غالب الظن.

في كل حال، يبدو أن الصيغتين المختلفتين في التوراة العبرية وفي الترجوم الآرامي، ربما ساعدتا في حل لغز ملكة سبأ، التي هي بلقيس عند العرب. فإذا كان (سبأ) سفر أيوب يعني ملكة سبأ، فربما يعني هذا أن (ملكة) سبأ هي (الملكة النجمة). فسبا في المصرية القديمة تعني: نجمة. وفي العربية يبدو أنها كذلك. يقال: صبأ النجم: أي ارتفع. لكن يجب ألّا ننفي احتمال أن يكون معنى (بلقيس ملكة سبأ) هو: بلقيس ملكة أوزيريس-سبأ.

بساء

وكانت قريش قد حمت للعزى شعباً من وادي حراض يقال له سقام. وكان في هذا الحمى بيت لها يقال له (بس) أو (بساء). يقول الكلبي في الأصنام عن العزى: (كانت بوادٍ من نخلة الشآمية يقال له حراض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة. وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال. فبني عليها بسا «يريد بيتا». وكانوا يسمعون فيه الصوت).[١٥] أي صوت النبوءة الإلهية. ويضيف: (وكانت قريش قد حمت لها شعباً من وادي حراض يقال له سقام. يضاهون به حرم الكعبة).[١٦] وفي رواية ياقوت الحموي يقول لنا إن غطفان هي التي بنت هذا البيت: (وبس أيضاً بيتٌ بَنته غطفان مضاهاةَ للكعبة، وقيل اسمه بساء. وقيل بس جبل قريب من ذات عرق. قال الغوري بس موضع كثير النخل).[١٧] ومن هذا الكلام يفهم أن البيت فوق مرتفع، وأن له علاقة ما بالنخل.

على كل حال، فالاسم يأتي بصيغ مختلفة: بس، بسا، أو بساء. وكلام الحموي يخلق مشكلة. فهو يقول لنا إن بيت العزى الذي يدعى (بس) هو لغطفان وليس لقريش ومن والاها. فهل هناك بيتان للعزى: واحد بنته غطفان وواحد قريش؟ هذا سؤال لا نملك جوابا أكيدا عليه.

twitter @baghdad_library

وفي تاج العروس للزبيدي ما يوحي أن بيت غطفان هو بساء، وأنه للعزى: (ولو قال: وبُسّ: بيت لغطَفان هي العزى، كان قد أصاب في جودة الاقتصار، على أن الصاغاني ذكر فيه لغة أخرى وهي بُساء، بالضم والمد، فتركه قصور، وقولُه: جبل قرب ذات عِرق، وأرض لبني نصر، ثم قوله: وبيت لغطفان، كل ذلك واحد، فإنهم صرحوا بأن أرض نصر هذه هي الجبال التي فوق النخلَة الشامية بذات عرق، وبه سمي البيت المذكور، وبنو نصر بنِ معاويةَ مع غطفان شيء واحد؛ لأنهم أبناء عم أَقرِباء).[18]

ومن هذا الكلام يمكن أن نفهم أن عزى قريش وعزى غطفان شيء واحد. على كل حال، فإنه ليس شديد الأهمية إن كان لدينا بيت أو بيتان للعزى. لكن الأسماء (بس، بساء) و(سقام) شديدة الأهمية بالنسبة لنا. فلسنا نملك عن المعبد والحمى سوى معلومات ضئيلة من بينها هذه الأسماء. ولنبدأ بـ (بساء).

وقد جرت محاولات لربط اسم (بساء) بالنوق، أو بحلب النوق، انطلاقا من الجذر بس. يقول ياقوت في المعجم: (بساء: بالضم والتشديد والمد. بيت بنته غطفان وسمته بساء مضاهاة للكعبة وهو من قولهم لا أفعل ذلك ما أبس عبد بناقة، وهو طوَفانه حولها ليحلبها، وأبس بالإبل عند الحلب إذا دعا الفصيل إلى الناقة يستدرها به فكأنهم كانوا يستحلبون الرزق في الطواف حوله).[19]

عليه، فقد دعي البيت (بسا) لأن الناس تدور حوله كما يدور الباسّ حول الناقة لحلبها. فكأن عابدي العزى يطوفون حول معبدها (يستحلبون الرزق في الطواف حوله).

وليس لنا أن نسخر من هذا التفسير الغريب، فسوف نجد دوما أن للعزى والإلهات الشبيهات مثل الشعرى العبور علاقة قوية بالناقة. يضيف الخليل بن أحمد في العين:

(وأبس بالناقة إبساسا: دعاها للحلب: وإذا درت على الإبساس قيل: ناقة بسوس. والبسوس: كانت ناقة ترعى فرماها كليب التَغلبي فقَتلها، ويقال: بل اسم المرأة التي كانت الناقةُ).[20]

إذن، فالخليل هو الآخر، يربط، لكن من طرف خفي، بين (بساء) وبين النوق. وأن يطلق الاسم (بسوس) على الناقة وعلى المرأة أمر يثير الاهتمام، ويجعلنا نعتقد أن البسوس طراز من إيزيس، وأن حيوانها في الجزيرة العربية هو الناقة. وسوف نتعرض للبسوس في فصل خاص.

وجذر بس المصري القديم يعطي معاني تشبه تماما معاني الجذر العربي مما يعني أنه مشترك بين اللغات الإفريقية- السامية، وهي اللغات التي تشمل المصرية والتشادية

والبربرية والطوارقية وغيرعا. بس في المصرية تعني: أَدل، اطلع على سر مقدس. دفن. كما تعني: سر مقدس، سر. شكل مستور وسري. وبسي: تدفق بوفرة وغزارة. وهذا قد يعني أن كليبا قتل لأنه هتك سرا مقدسا حين ضرب ضرع البسوس بالسهم.

لكن ما يهمنا أن نذكره هنا أن لمكة اسم يتواصل لفظيا مع (بساء) و(البسوس). يقول لنا الفيروزآبادي في القاموس المحيط أن مكة تدعى الباسة: (والباسَّة والبسَّاسة: مكة شرفَها الله تعالى).[21] كما أن البس زجر الدواب. ونحن نعلم أن الشعرى اليمانية تدعى كلب الجوزاء.

وهي فيما يبدو تبس نجوم الجوزاء، أي تزجرها وتدفعها، كما يبس كلب الراعي الخراف. كما أن جذر بس يعني الحطم. والحطم يعني سوق البهائم سوقا شديدا. والحاطمة هو اسم مكة الآخر. يقول الأزرقي في أخبار مكة: (أسماء مكة: مكة وبكة وأم رحم وأم القرى والباسة والبيت العتيق والحاطمة تحطم من استخف بها والباسة تبسهم بساً أي تخرجهم إخراجا إذا غشموا وظلموا).[22]

والتوافق بين الباسة والبساء قد يشير إلى أن الكعبة ذاتها ربما كانت في عرف قريش معبدا للعزى. فوق هذا، فإن علينا أن نذكر أن ثم إلهين مصريين هما (بس وبسيت). و: (ك «أم إلهية» فإن بسيت يمكن أن تكون طرازا من إيزيس أو حتحور).[23]

وهذا يعني أن (بسيت) تتماهى مع إيزيس. وإذ العزى طراز من إيزيس العربية، فإنها تتماهى معها أيضا. فهل يكون (بساء) هو معبد العزى- بسيت. وهل تكون البسوس ذاتها طرازا من بسيت هذه؟

لكن ما ورد في النقوش النبطية هو أفضل ما قد يساعدنا على فهم معنى (بساء) بشكل مباشر. يقول أحد النقوش: (دنه كفرا و بسسا و كركا دي عبد حوشب بر...) وما ترجمته: (هذه المقبرة والمنصة والسياج، التي أنشأ حوشب بن...).[24] وحسب الدكتور عبد الرحمن الذييب فإن (الاسم المؤنث المفرد المعرف، المسبوق بحرف العطف الواو ب س س ا... تعني القاعدة، المنصة).[25] والكلمة معروفة أيضا في السريانية وفي الترجوم حسب الدكتور الذييب.

ويبدو لنا أن المنصة في النقش النبطي تعني المقام، أي البيت الذي يوضع للآلهة داخل المقبرة. وبمعنى ما فهو مقر الآلهة داخل المقبرة، أو بيتها. وأغلب الظن أن الصلاة كانت تقام فيه عند دخول المقبرة. وهذا يذكر بقول الكلبي في الأصنام عن العزى: (فبنوا عليها بسا)، أي بيتا ومعبدا. ومن الصعب جدا ألّا نقارن بين (بسسا) في النقش النبطي وبين بيت العزى (بس، بسا، بساء) في حراض. وبمقارنة نص النقش بما نقله الكلبي

twitter @baghdad_library

نستطيع أن نقول إن الكلمة في النص النبطي تعنى: المعبد، البيت. لكن ربما كان المعنى: المنصة التي يقام عليها المعبد. وهكذا فالنقوش النبطية تؤكد ما جاءت به المصادر العربية حول بيت العزى.

سقام

وفيما يخص (سقام) فقد ورد الاسم في أكثر من قصيدة، ومن بينها قصيدة أبي خراش الهذلي الجميلة التي رثى فيها سادن العزى دبية (أو ربية) السلمي بعد مقتله في سقام، كما أخبرنا الكلبي:

ما لدبية منذ اليوم لم أره   وسط الشروب ولم يلمم ولم يطف؟

لو كان حياً، لغاداهم بمترعةٍ   من الرواويق من شيزى بني الهطف

ضخم الرماد، عظيم القدر، جفنته   حين الشتاء كحوض المنهل اللقف

أمسى سقام خلاء لا أنيس به   إلا السباع ومر الريح بالغَرف.

لقد هدم معبد العزى في سقام، فأمسى خلاء لا أنيس به، إلا السباع ومرور الريحِ في أغصان شجر الغرف. والغَرَف، كما تقول لنا المصادر العربية: شجر يحمل حملا كالتين الصغار يتفرَّك باليد تعبث به الجِمال. ويبدو أن شجرة الغرف الذي مرت به الرياح فحركته كان على علاقة أيضا بالعزى، لكننا لا ندري كيف. غير أن هذا الشجر يستخدم للدباغة فيما يبدو. يقول لسان العرب: (والغَرْف...: شجر يدبغ به، فإذا يبس فهو الثُّمام، وقيل: الغَرف من عضاة القياس وهو أَرقها)[٢٦]. وإذا صح هذا، يكون مرتبطا باللون الأحمر الخاص بإيزيس، مثله مثل السمر. فالدباغة تتم باللون الأحمر.

إذن، فللعزى حمى يدعى (سقام). لكن، ماذا يعني هذا الاسم حقا؟

في البدء لا بد من لفت الانتباه إلى أن sxm سقم، تعني: هضبة أو مرتفع في المصرية القديمة. وبالمقارنة، فربما كان هذا في الأصل معنى كلمة (سقام) العربية. أي أنها تعني مرتفع. عليه يكون حمى سقام بمعنى: حمى المرتفع. ليس ذلك فحسب، بل نحن نعلم أن أوزيريس يدعى: سيد سقم، أو سقام. جاء في ترنيمة إلى أوزيريس من كتاب الموتى: (المجد لك يا أوزيريس، يا ملك الخلد، يا ملك الآلهة...أنت حاكم تاتو، وأنت عظيم سقم)[٢٧]. ولم تذكر إيزيس زوجته كساكن لسقم هذه. لكن جاء في بردية آني: (ذقن بيبي هو ذقن Nest-khent-Sekhem «عرش السيدة الأولى في سقم»)[٢٨].

ويعتقد أن سيدة سقم هي حتحور. وحتحور تتماهى في أحيان كثيرة مع إيزيس. لذا يمكن أن نفترض أن إيزيس أيضا هي أيضا، بشكل ما، سيدة سقم. والحق أن وجود إيزيس مع أوزيريس في مملكة سقم أو في أرض سقم أمر منطقي تماما. فالزوجة تتبع زوجها دوما. وتفهم كلمة (سقم) في أحيان كثيرة على أنها: الروح، الطاقة الإلهية للروح. لكن النص السابق يوحي بوجود مملكة يحكمها أوزيريس تدعى سقم. ونحن نعتقد أن (سقام) العزى مثيل لهذه المملكة، التي تشبه أن تكون مملكة الموتى.

ولدينا في المصادر العربية ما قد يدعم هذا الاستخلاص. ذلك أن الجذر (سقم) القريب جدا يعني: المرض. كما أن (سكم، سقم) بالمصرية تعني: الأشيب. والشيب علامة من علامات الهرم والموت. وفي قصة النبي إبراهيم والأصنام، جاء في القرآن في سورة الصافات: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

وقد اختلف على تفسير هذه الآية بشدة. ويختصر لنا لسان العرب الجدل حول الآية فيقول:

(وقال إبراهيم، عليه السلام، فيما قصه الله في كتابه: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾؛ قال بعض المفسرين: معناه إني طعين أي أصابه الطاعون، وقيل: معناه إني سأَسْقُمُ فيما أَستقبل إذا حان الأجلُ، وهذا من معارض الكلام، كما قال: إنك ميت وإنّهم ميتون؛ المعنى إنك ستَموت وإنهم سيموتون. قال ابن الأثير: قيل إنه استدل بالنظَر في النجوم على وقت حمَّى كانت تأْتيه، وكان زمانه زمان نُجوم، فلذلكَ نظر فيها، وقيل إن ملكهم أرسل إليه أَن غدا عيدنا فاخرج معنا، فأَراد التخلف عنَهم، فنظر إلى نَجْم فقال: إن هذا النجم لم يطلع قَطّ إلا أَسْقُم، وقيل: قال أراد إني سقِيم بما أرى من عبادتكم غير الله. قال ابن الأثير: والصحيح أنها إحدى كذباتِه الثلاث، والثانية: بل فَعَلَه كبيرهم، والثالثة عن زوجته: سارة إنها أختي، وكلها كانت في ذات الله ومكايدة عن دينه، صلى الله عليه وسلم. وقوله عز وجل مُخْبراً عن إبراهيم، عليه السلام: فنظَر نظرة في النجوم فقال إنّي سقِيم؛ قيل: معناه فيما نَجم له من الرأي. وقال أبو العباس أَحمد بن يحيى: النجوم جمع نجم وهو ما نجم من كلامهم لَمَّا سألوه أَن يخرج معهم إلى عِيدِهم، ونَظَرَ ههنا: تفكر ليدبر حجة فقال: إني سقيم، أَي من كفركم. وقال أَبو إسحق: إنه قال لقومه وقد رأَى نجما إني سقيم، أَوهمهم أَن به طاعوناً فتولوا عنه مدبرين فراراً من عدوى الطاعون. قال اللَيث: يقال للإنسان إذا تفكر في أَمر لينظر كيف يدبره: نظر في النجوم)[٢٩].

من الواضح أن للأمر علاقة بما نحن فيه، أي بسقام. فقد نظر إبراهيم إلى نجم محدد، ثم قال: إني سقيم. هذا النجم هو نجم أوزيريس، سيد سقم، كما نحدس. وأوزيريس

twitter @baghdad_library

يملك نجمين: (سهيل اليماني) في الجنوب، ونجم الثعبان في الشمال، فيما يبدو. وحين قال إبراهيم: إني سقيم، فهو أعلن انتقاله للحياة الأخرى. لقد تحول إلى سقيم، أي إلى ساكن في مملكة سقام، أو إلى ملك مملكة سقم، سقام. وهذا يعني أن إبراهيم طراز من أوزيريس.

وفي قصة النبي يونس جاء في القرآن في سورة الصافات: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾. ويبدو أن للسقم هنا أيضا علاقة ما بالموت وبالحياة الأخرى. لكن شجرة اليقطين، فيما يقال، أعانت يونس على استعادة قوته، أي أعادته للحياة.

ولعل (سقام) على علاقة بطراز من الشجر يدعى (السّوقم). يقول لسان العرب:

(السَّوْقَم: شجر يشبه الخلاف وليس به، وقال أَبو حنيفة: السوقَم شجر عظام مثل الأَثْأَب سواءً، غير أَنه أَطول طولاً من الأَثْأَب وأَقل عرضاً منه، وله ثمرة مثل التين، وإِذا كان أَخضر فإِنما هو حجر صلابة، فإِذا أَدرك اصفَر شيئاً ولان وحلا حلاوة شديدة، وهو طيب الريح يتَهادى.

والسوقَم: ضرب من الشجر يشبه الخِلاف وليس به، لغة يمانية؛ ذكر ذلك أبو زيد).

وهكذا، فالسوقم شجر يشبه الخلاف، أي يشبه الصفصاف. إنه طراز ما من الصفصاف، أو مثيل له. ونحن نعلم أن أوزيريس هو من يقف على رأس شجرة الصفصاف: (التجلة لك يا من تقف على قمة شجرة الصفصاف).[٣٠]

كما نعلم أن شجرة إنانا المثلثة أيضا هي شجرة صفصاف. وإنانا طراز بابلي من إيزيس. وسوف نتوقف طويلا عند شجرة إنانا في فصل آخر. وهكذا فنحن في (السوقم) مع إيزيس وأوزيريس، أي مع العزى واللات. ويبدو لنا أن هذه الفقرة من سفر التكوين تتحدث عن مملكة سقم/ سقام أيضا: (واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة).[٣١]

تترجم كلمة (شكيم) عادة لتعني نابلس في فلسطين، في محاولة لتحويل سرد ميثولوجي إلى سرد تاريخي. وهذه الموهبة الوحيدة للباحثين التوراتيين: تحويل الأساطير إلى تاريخ! لكننا نعتقد بقوة أن شكيم هي (سقيم) التي وردت في القرآن (فنظر نظرة في النجوم قال إني سقيم) وهي (سقام) العزى و(سقم) أوزيريس. والقرآن يستبعد أي احتمال لأن تكون (سقيم) هذه مدينة. إنها أمر ما يخص النجوم والفلك. بذا نستطيع دوما أن نتخذ من القرآن شاهدا على العهد القديم.

وفي الإصحاح الثالث عشر، الذي يلي، يتضح تماما أن سفر التكوين لا يتحدث عن فلسطين: (فصعد إبراهيم من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب. وكان أبرام غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب. وسار في ر-حلاته من الجنوب إلى بيت إيل. إلى المكان الذي كانت خيمته فيه في البدء).(٣٢)

فلو كان الحديث عن مصر وفلسطين، لما كان أبرام انطلق من مصر إلى الجنوب ليصل إلى بيت إيل في فلسطين. ذلك أن فلسطين تقع إلى الشمال من مصر. وعليه، فإبراهيم كان يقوم برحلة إلى الجنوب، والجنوب مقر أوزيريس المنبعث. أما (خيمته الأولى) فهي مقر الإله الأول قبل بناء بيته في الديانة الأوزيريسية. فكعبة نجران، مثلا، كانت خيمة من أدم في البدء. وحتى كعبة مكة المشرفة كانت أيضا في البدء خيمة.

وبذا يمكن القول أن آية يونس سورة الصافات: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾، وآية إبراهيم: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾، تتحدثان عن موضوع واحد: مملكة سقام، أي المملكة التي يحكم عليها أوزيريس وإيزيس.

شجرة الزقوم

وبمناسبة السوقم، ربما علينا أن نذكر القارئ بشجرة الزقوم، التي ورد ذكرها في القرآن:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.(٣٣)

وقد جرت جدالات بين مشركي مكة وبين المسلمين حول شجرة الزقوم هذه. وما يمكن استخلاصه من هذه الجدالات أن هذه الكلمة غير عربية الأصل. ينقل السهيلي في الروض الآنف عن غيره: (إن هذه الكلمة لم تكن من لغة قريش، وأن رجلا أخبره أن أهل يثرب يقولون: تزقمت؛ إذا أكلت التمر بالزبد).(٣٤) وهذا غير معقول. إذ لا يمكن لقريش أن تنكر لغة يثرب. وهناك من قال إن الزقوم شجرة تهامية. ينقل القرطبي عن قطرب: (إنها شجرة مرة تكون بتهامة، من أخبث الشجر)(٣٥) ولو كانت تهامية لما صح كل هذا الجدل. فمكة مركز تهامة. وحسب الزمخشري في الكشاف، فإنها تعني الزبد بالتمر بلغة جنوب الجزيرة:

twitter @baghdad_library

(إن أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر: التزقم، فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال: تزقموا فإن هذا هو الذي يخوفكم به محمد).[٣٦] ولو كانت عربية جنوبية أيضا لما رأى فيها أهل مكة شيئا غريبا جدا. وينقل لسان العرب عن ابن سيدة:

(والزَّقُّوم طعام أَهل النار، قال وبلغنا أَنه لما أُنزلت آية الزقومِ: إن شجرة الزقومِ طعام الأثيم؛ لم تعرفه قريش، فقال أَبو جهل: إن هذا لشجر ما ينبت فيَ بلادنا فمن منكم يَعرِف الزقومَ؟ فقال رجل قدم عليهم من إِفريقيةَ: الزقّوم بلغة إفريقية الزبد بالتمر، فقال أَبو جهل: يا جارية هاتي لنا تمراً وزبداً نزدقمه، فجعلوا يأكلون منه ويقولون: أفبهذا يخوفنا محمد في الآخرة؟).[٣٧]

وهكذا فالكلمة من أصل إفريقي عند بعضهم. وهذا أكثر معقولية بعد. وقد رأى آخرون أنها ليست من شجر الدنيا. ونحن نظن أن شجرة الزقوم ربما كانت تحريفا عربيا لكلمة (سقم، سخم) المصرية القديمة. أي أن شجرة الزقوم هي الشجرة التي تنمو في (سخم، سقم). وقد علمنا من قبل أن أوزيريس سيد سقم. لكن من نقلها لم يكن مدركا لعلاقتها بالكلمة العربية (سقام)، وبشجرة (السوقم) ربما. وفي تقديرنا أن الثلاثة شيء واحد. وحين يوصف أوزيريس بأنه سيد سخم أو سقم، فهو يعني مملكة الموتى في سقام، كما أنه يعني سيد الشجرة الكونية ذات الثلاثة الأفرع. فهو يقيم في هذه الشجرة أيضا، كما سنرى على مدى الكتاب.

الجنوب السعيد

توصف العزى عند عرب الجاهلية بـ (السعيدة). يقول الكلبي في الأصنام عنها:

(ولها يقول درهم بن زيدٍ الأوسي: إنى ورب العزى السعيدة والله الذي دون بيته سرف).[٣٨]

والسعادة أمر يخص القطب الجنوبي عموما، وسهيلا والشعرى خصوصا. لنأخذ هذا النص من التيفاشي في سرور النفوس بمدارك الحواس الخمس:

(النظر إلى القطب الجنوبي وإلى سهيل معا في وقت واحد يزيل المالنخوليا، وذلك بأن ينظر العليل إلى هذا القطب، ويديم النظر إليه ليلة بعد ليلة دواما كثيرا. وقد جرب فصح. وهذا مما يدلل على أن لهذا القطب وهذا الكوكب خاصية في إحداث الطرب والسرور في الناس. ولذلك أن الزنج لما كانوا متقاربين من مدار سهيل كان فيهم خاصية الطرب الشديد).[٣٩]

هذه تصريحات لا لبس فيها حول علاقة سهيل والقطب الجنوبي بالفرح والسرور. ثم لنأخذ ما يؤكد هذا التصريح من القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد عن سكان إفريقيا السوداء:

(ولا يرى زنجي مغموم أبدا. الغم لا يدور حولهم، والطرب يشملهم كلهم. قال بعض الحكماء: سبب ذلك اعتدال دم القلب. وقال آخرون: بل سببه طلوع كوكب سهيل عليهم كل ليلة، فإنه يوجب الفرح).[٤٠] والحق أن ديودورس أخبرنا أن: أوزيريس محب للضحك، ومغرم بالموسيقى والرقص. سهيل، إذن، مرتبط بالسعادة والفرح والسرور.

وفي أغلب الظن فإن الصفة (يماني) التي تطلق على سهيل والشعرى (سهيل اليماني، والشعرى العبور اليمانية) تعني، وفي وقت واحد، الجنوب والسعادة. فهما جنوبيان وسعيدان. ذلك أن الجنوب هو التجدد والانبعاث في حين أن الشمال هو الخلود في الديانات الأوزيريسية. الجنوب موت وحياة. والشمال موت خالد. وفي فصل آخر كنا توصلنا إلى أن (عاديمون) أو (أيادمون) كما ورد في تواريخ هيرودتس هو عديا أوزيريس، وأوزيريس الفيضي خاصة. وقلنا إنه شبيه عاد العربي. ويقول لنا ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء عن عاديمون هذا مع تحريف بسيط في لفظه: (وقال غيره إن اسقليبيوس كان قبل الطوفان الكبير، وهو تلميذ أغاثوذيمون المصري، وكان أغاثوذيمون أحد أنبياء اليونانيين والمصريين، وتفسير أغاثوذيمون السعيد الجد).[٤١] وهكذا فعاديمون أيضا سعيد. وليس هذا بالغريب فاسم (عاد- يمون) يعني (عاد اليماني)، أي عاد الجنوبي والسعيد معا، كما سنرى عند الحديث عن قوم عاد.

أكثر من ذلك، فنحن نكاد نكون مقتنعين أن اسم (العربية السعيدة)، الذي أطلقه اليونان على جنوب الجزيرة العربية، والذي أخذنا منه تعبير (اليمن السعيد) العربي، إنما يرتبط بالسعادة التي يجلبها سهيل والقطب الحنوبي. فالسعادة تكون جنوبية، أي يمانية، تدور مع سهيل، الذي هو نجم القطب الجنوبي في الواقع.

وجذر (يمن) في العربية يوحي بمعاني التفاؤل، أي بالسعادة بشكل ما. يقول لسان العرب: (اليمن: البركة؛ وقد تكرر ذكره في الحديث. واليمن: خلاف الشؤم، ضده... وقد يمنه الله يمنا، فهو ميمون، والله اليامن. الجوهري: يُمِن فلان على قومه، فهو ميمون إذا صار مباركا عليهم، ويمنهم، فهو يامن). يضيف: (التيمن: الموت. يقال: تيمن فلان تيمنا إذا مات، والأصل فيه أنه يوسد يمينه إذا مات في قبره).[٤٢] وهكذا فالميت يوسد يمينه، ويوجه وجهه نحو اليمين، أي نحو سهيل، أملا في الانبعاث.

twitter @baghdad_library

أما النصوص المصرية فلا تنفك تصف مقر أوزيريس السماوي بأنه مكان السعادة أو أرض السعادة. تقول بردية آني: (لعلك تتقدم إلى مقر السعادة الذي أنا ذاهب نحوه).[٤٣]

عليه، فالعزى سعيدة لأنها يمانية، أي جنوبية في قطب سهيل الجنوبي. وهذا ما يؤكد أن العزى اسم آخر للشعرى اليمانية. فاليمانية هنا تعني السعيدة والجنوبية.



twitter @baghdad_library

فصل 4

بنات أيوب

يبدو سفر أيوب سفرا فلكيا من الطراز الأول مقارنة بأسفار العهد القديم الأخرى. فثم آيات كثيرة فيه لا يمكن فهمها إلا على أنها تخص نجوما أو مجموعات نجمية في السماء. فوق ذلك يبدو السفر للكثيرين وكأنه يحمل تأثيرات عربية محددة. (وقد استدل بعض الباحثين في سفر أيوب، ومما ورد فيه، ومن اسمه على أنه كان {أي أيوب} عربيا، عاش بين العبرانيين، أو أن بعضهم اختلط به، فدون أخباره وقصصه).[١] كذلك يرى: (المستشرق مرجليوث... أن لغة هذا السفر تحتوي على تأثيرات آرامية وعربية لا تخطئها العين...{أما سبينوزا ف} فيعتقد أنه مترجم عن أصل عربي مفقود).[٢]

ونحن نعتقد أن لهذا السفر بالفعل علاقة ما بأديان العراق، أي أننا نظن أنه ربما كان في الأصل سفرا صابئيا آراميا عراقيا، مع ما تحمله منطقة جنوب العراق من تأثيرات عربية كبيرة. وينتسب عدي بن زيد العبادي شاعر الحيرة الجاهلي، والذي نظنه شخصية ميثولوجية، إلى جد يدعى أيوب. يقول الميمني في سمط اللآلئ: (عديّ بن زيد بن حمار بن أيوب من بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم جاهلي من أهالي الحيرة يكنى أبا عمير. وأيّوب جده أول من سمّى من العرب بأيوب).[٣] والعباد طائفة دينية كانت تعبد إلها يدعى (سبد). يقول أبو البقاء الحلي في: المناقب اليزيدية في الملوك الأسدية عن هذا الإله:

(وقيل: بل كانوا يعبدون صنما يقال له سُبَد فقيل لهم عباد سبد، ولزمهم هذا الأمر. قال رجل من بني زيد من نمارة جنى جناية في قومه، فخلعوه، فلجأ إلى الحيرة:

أرى سـيفي نفاني من ديـاري ... وألجـــأني إلى سبل المخافـة

وألحقني العـباد عبـاد سـبـد ... بلا نسب هناك ولا صرافة).[٤]

ولأن الباحثين يعتقدون بصلة السفر بالعرب والعربية، فسوف نستند أحيانا إلى اللغة

العربية والميثولوجيا العربية لفك بعض غوامضه وألغازه. ولنبدأ بأرض عوص. إذ يقول السفر في آيته الأولى: (كان رجل في أرض عوص اسمه أيوب).[٥] ولم يتم الاتفاق بين الباحثين على أرض عوص هذه. يقول د. جواد علي في المفصل: (وأما عوص فهو جد العوصيين، مكان أرض عوص موطن أيوب...إلا أن العلماء لم يتفقوا في تعيين مكانه. فذهب بعضهم إلى أنه دمشق واللجاء «اللجاة»، مستندين في ذلك إلى رواية يوسيفوس. وذهب آخرون إلى أنه أورفا على الفرات. ورأى بعض أنه في نجد. وذهب بعض آخر إلى أنه آدوم أو العربية الشمالية. ورأى كلاسر أنه في شمال غرب المدينة).[٦]

وهكذا، فليس هناك من إشارة تدل على أرض عوص هذه. وكل ما يقال مجرد تكهنات. من جانبنا نعتقد أن أرض عوص هي مكان ميثولوجي، وليست مكانا واقعيا تاريخيا.

وفي البدء لنقل إن عوص قبيلة عربية من كلب. ووجود قبيلة بهذا الاسم قد يوحي بوجود إله بهذا الاسم. فأجداد القبائل هم آلهة في كثير من الأحيان، أو في غالبها، آلهة.

كما أن الاسم كان شائعا في مكة قبل الإسلام. وفي سلسلة نسب النبي صالح جاء عوص كواحد من أجداده، فحسب السيوطي في الإتقان في علوم القرآن: (هو صالح بن عبيد بن أسيد بن ماشج بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح).[٧] أما عند الجاحظ في الحيوان فهو (هو عاد بن عوص بن إرم).[٨] ويقول المسعودي في مروج الذهب: (فولد عوص عاد بن عوص، وولد عابر ثمود بن عابر).[٩]

نعتقد أن سلاسل النسب هذه هي سلاسل أنساب آلهة. فعابر وعاد وثمود وسام آلهة وليسوا بشرا. وكنا قد توصلنا، من قبل، إلى أن عابر إله يتماهى مع سهيل اليماني في غالب الأمر، أو مع الشعرى اليمانية في أقله. وعليه، فمن المحتمل أن تكون (أرض عوص) هي (أرض الإله عوص). غير أننا لا نعرف شيئا عن هذا الإله، إذا تناسينا أن المصادر العربية تربطه بـ (عابر) الذي صرنا نعرفه جيدا؛ لذا فليس أمامنا سوى الذهاب إلى اللغة لعلنا نعرف شيئا ما عنه. واسم (عوص) يوحي بالارتباط بالأشجار. فالكلمة:

(السامية المشتركة التي تقال للشجرة هي «عص». وقد بقيت في العربية في كلمة «العصا»، وفي العضاة، وهو كل شجر عظيم وله شوك. فالشجرة بالكنعانية الأوغاريتية «ع ص»، وبالعبرية «عص»، وتعني خشبا أيضا، وبالكلدانية «أ ع»، خشب، وبالأكدية «إصة»، ولعلها «عصة». إنما يلاحظ أيضا أن كلمة osos اليونانية المشابهة للفظة «عص» السامية تعني «غصن).[١٠]

twitter @baghdad_library

والحقيقة أنه قد ظل في العربية من هذا الجذر أكثر من كلمة العصا. يقول لنا الخليل في العين: (والعِيص: منبِت خيار الشجر. قال:

فما شجرات عِيصك في قريش بِعشّات الفُروعِ ولا ضواحـي).[11]

ويضيفُ: (وقيل: العِيص: السِّدر الملتف).[12] ويقولُ اللسان: (والعِيصُ: السِّدر الملتف الأُصول، وقيل: الشجر الملتف النابت بعضه في أصول بعض يكون من الأَراكِ ومن السِّدر والسَّلَم والعوسج والنَّبْع، وقيل: هو جماعة الشجر ذي الشوك، وجمع كل ذلك أَعياص).[13]

كما يعني جذر (عص) الأصل. لسان العرب: عِيصُ الرجل: منبت أَصله. وأَعياص قُريش: كرامهم. قال شمر: عِيصُ الرجل أَصله؛ ويقال: هو في عِيصِ صدق أَي في أَصل صدق.

عليه، يبدو أن (عوص) على علاقة بالشجرة، ولعلها شجرة ما بدئية أصلية.

أكثر من ذلك ربما كان جذر (عص) مشترك بين الساميات والمصرية القديمة. ذلك أن كلمة (عش) المصرية تعني: شجرة الصنوبر أو شجرة الأرز. أما (عشا) فتعني: كانوا بأعداد كبيرة، أي أنها تعني الكثرة والازدحام. وهذا يتوافق مع ما أخبرنا به الخليل: حيث العيص هو السدر الملتف. ولعل كلمة (عش) العربية التي تعني بيت الطائر، أو بيته على الشجرة، على علاقة بالكلمة المصرية. أي أنها ربما كانت في الأصل تعني الشجرة، أو البيت على الشجرة.

لذا، فكل الدلائل اللغوية توحي بارتباط (عوص) التي نشأ فيها أيوب بالشجرة. أي أننا مع شجرة ما مثل شجرة العزى، أو شجرة ذي الخلصة، كما رأينا من قبل، أو مثل شجرة أوزيريس، أو شجرة إنانا، كما سنرى في فصول أخرى. وكل هذه الأشجار طراز من شجرة بدئية كونية، أو من شجرة مثلثة الأفرع ترمز إلى الكون والآلهة. إنها ذات أفرع مثل العيص الذي هو (الشجر الملتف النابت بعضه في أصول بعض).

وبناء عليه، فربما كان أيوب هو الإله عيص، أي الإله الشجرة، أو الإله الذي يعيش في الشجرة!

أصدقاء أيوب

وكما أن الأشجار التي عرفناها فيما سبق تمثل ثواليث محددة، كما هو حال سمرة العزى، أو شجرة إنانا، أو خلصة ذي الخلصة، فإننا نلتقي في سفر أيوب مرتين بما يشير إلى ثواليث؛ مرة في أصدقاء أيوب، ومرة في بناته. بحيث يبدو لنا، من طرف خفي، أن لأيوب عوص أيوب أو عيصه، أي شجرته، مكون من أفرع ثلاثة.

ولنبدأ بأصدقاء أيوب الثلاثة. يقول الإصحاح الثاني من سفر أيوب: (فلما سمع أصحاب أيوب الثلاثة بكل الشر الذي أتى عليه جاءوا كل واحد من مكانه. أليفاز التيماني وبلدد الشوحي وصوفر النعماني وتواعدوا أن يأتوا ليرثوا له ويعزوه).[١٤]

نحن هنا أمام ثلاثة أشخاص. أمام ثالوث بشكل ما. صحيح أن السفر يقول لنا إنهم بشريون، لكن هذا لا يقنعنا. فنحن نتعامل مع كتب دينية، كتب تتعامل مع الآلهة وأشباهها لا مع البشر، من حيث المبدأ؛ لذا فهذا الصف الثلاثي يذكرنا بصف (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)، أي صف (بنات الله) عند مكة الجاهلية. صحيح أننا هنا أمام ذكور، وأننا في مكة أمام إناث. لكن هذا ليس مشكلة، فقد أثبتنا في فصل سابق أن الأمر يتعلق بتسميات، لا بتحديد الجنس.

ولو افترضنا فعلا أن أصدقاء أيوب يمكن أن تكون لهم علاقة بـ(اللات والعزى ومناة)، أو مع تجسيداتهن النجمية في السماء، فإن (أليفاز التيماني) يجب أن يكون مثيل اللات، وهكذا. وقد برهنا في وقت سابق أن اللات مثيل سهيل اليماني- أوزيريس في نغمته العالية. وسهيل يدعى باليماني، أي الجنوبي. من المؤكد، إذن، أن لقب أليفاز (التيماني)، سيشد انتباهنا. فالتيماني ربما عنت اليماني، أي الجنوبي. فنحن نعلم أن ملكة سبأ الحبشية تدعى (ملكة التيمن)، أي ملكة الجنوب. كما أن (تيمن) في العبرية تعني: الجنوب.

وعليه ففرض العلاقة بين أصدقاء أيوب والثالوث العربي (اللات والعزى ومناة) يكسب نقطة. إذ كل من سهيل وأليفاز جنوبيان. طبعا نحن نعرف أن الباحثين التوراتيين يرون أن (التيماني) نسبة إلى تمنة المدينة الفلسطينية المذكورة في العهد القديم. وباحثو التوراة برعوا، لأسباب سياسية ودينية، في تحويل السرد الأسطوري إلى سرد واقعي تاريخي، أي في تحويل الميثولوجيا إلى تاريخ. وهذا ما يضيع البحث بشقيه التاريخي

twitter @baghdad_library

والميثولوجي. فحين نحول التيماني، أي اليماني، الجنوبي، إلى التمنائي، أي إلى شخصية بشرية من بلدة تمنة، فسنفقد الاتجاه حتما.

مخادع الجنوب

ويهيأ لنا أن هناك إشارة أخرى إلى سهيل اليماني في مكان آخر وهو سفر أيوب. فهناك مقطع يتحدث عن الرب بوصفه: (صانع النعش والجبار والثريا ومَخَادع الجنوب).[١٥]

أما في نسخة (ميخون- مامري) الإنجليزية- العبرية فالنص بالإنجليزية هو:

(Who maketh the Bear, Orion, and the Pleiades, and the chambers of the south)

والترجمة الإنجليزية أفضل قليلا من ترجمة دار الكتاب المقدس العربية. فهي عبر الحروف الكبيرة توضح أن الحديث يتعلق بنجوم السماء. أما النسخة العربية فتعطي الانطباع بذلك جزئيا فقط. فجملة (صانع النعش) قد لا تعطي القارئ الإحساس بأن الأمر يتعلق بـ(بنات نعش) في السماء الشمالية. أما نسخة دار المشرق من الكتاب المقدس فتتحدث عن (أخادير الجنوب)، بدل مخادع الجنوب. ولا بد هنا من التذكير بأن باحثي التوراة ترجموا كلمة (تيمن) هنا باعتبارها تعني جنوبا، بينما لم يترجموا (التيماني) بمعنى الجنوبي، حين تعلق الأمر بأصدقاء أيوب.

هذه الترجمات جميعها تقدم لنا في الجملة الأخيرة شيئا لا معنى له تقريبا. فماذا تعني جملة: مخادع الجنوب كترجمة لـ(حدري تيمن) العبرية؟ ليس لها، في الحقيقة، أي معنى يربطها بما قبلها. إنها منقطعة عن سياقها. وأي حس سليم سيفترض أن الحديث في الجملة الأخيرة (حدري تيمن) لا بد أن يكون هو الآخر عن النجوم، وليس عن الغرف والمخادع. فما دام هناك بنات نعش والثريا والجبار، أي برج الجوزاء، فلا بد لـ(حدري تيمن) أن تكون على علاقة بالنجوم أيضا.

والكلمة العبرية (حدري) من جذر (حدر) تحمل عدة معان: نفذ، اخترق، شفّ، تسلل، تسرب. كما أنه قد يعطي معنى الغرفة أو الحجرة أو الخدر. ومعاني هذا الجذر العبري قريبة جدا من معاني الجذر (حدر) العربي. فهو يعني: انحدر، مال، اقترب، سفل، اتجه إلى، وما إلى ذلك. كما أن الجذر العربي ذاته، لكن بالخاء وليس بالحاء المهملة (خدر)، يعطي معنى: الغرفة والمخدع والشقة. وقد اختارت الترجمات المعنى الذي يشبه معنى (الخدر) العربي، فترجمة حدري على أنها تعني، مخادع، أو أخادير.

لكننا نرى أن كلمة (حدري) على علاقة بجذر (حدر) العربي، الذي يعني مال، انحدر، اتجه، سفل. عليه، فالأغلب أن يكون معنى الجملة العبرية الفعلي هو: المتسرب الجنوبي، المنحدر اليماني- الجنوبي، المائل اليماني- الجنوبي؛ أي الذي ذهب نحو الجنوب ومال نحوه، وليس أخادير الجنوب أو مخادع الجنوب، التي لا تعني شيئا في السياق. إذا صح هذا، فالحديث يتم عن شبيه سهيل اليماني. إذ نحن نعلم أن النصوص العربية تقول عن سهيل، قرين الشعرى: إنه كان شآميا ثم انحدر فصار جنوبا. يقول القرطبي في تفسيره: وقيل: إن العرب تقول في خرافاتها: إن سهيلا والشعرى كانا زوجين، فانحدر سهيل فصار يمانيا، فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميت العبور، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت عيناها فسميت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى.

(انحدر فصار يمانيا). واللفظ العبري (حدري تيمن) يكاد يعطي هذا المعنى بالضبط. فهو يعني المنحدر الجنوبي، أو المتسلل الجنوبي، أي الذي انتقل من موقعه إلى موقع جنوبي. وهكذا فجملة (حدري تيمن) تعني بالعربية أي المنحدر اليماني، أي سهيل اليماني، لا غير. وعليه تصبح الترجمة الأصح كما يلي:

(صانع النعش والجبار والثريا والحادر اليماني)، أي الذي انحدر إلى الجنوب، أي (صانع النعش والجبار والثريا وسهيل اليماني). بالتالي يصبح الأمر مقنعا؛ فهناك برج (الجبار)، أي الجوزاء الجنوبية، ونقيضها (بنات نعش) في السماء الشمالية، إضافة إلى (سهيل اليماني) المرتبط ببرج الجوزاء. أما (الثريا) فنظن ألّا علاقة للنص. فبنات نعش، وسهيل والجبار هي نجوم مسرح واحد، له علاقة بعبادة بأوزيريس وإيزيس. وليس للثريا، فيما نعلم، علاقة وطيدة بهذا المسرح. لكننا لن ندخل في الجدل حول الكلمة التي ترجمت على أنها (الثريا).

وبالعودة إلى الصديق الأول لأيوب (إليفاز التيماني)، يمكن لنا القول بأنه ليس بلقبه فقط (التيماني) يحيل إلى سهيل اليماني، وإلى (حدري تيمن)، بل إن كلمة إليفاز ربما أحالت إليهما. والاسم (إل- فاز) يترجم على أنه يعني (الإله قوي). لكن (فاز) بالعبرية تعني: ذهب خالص، ساطع. وعليه يمكن أن يكون معنى أليفاز (الإله المضيء) أو (الساطع الضوء). وهذا يتوافق مع اليماني. كما أن فزز تعني: أسرع، أحدث صوتا. وفززوت تعني بالعبرية: تهور، تسرع بطيش. وهذه هي صفة الحد الأول في الثالوث، أي أوزيريس في نغمته الحالية. فهو سريع طائش متهور. وفي العربية فإن الجذر (فزز) يدل على السيلان. يقول لسان العرب: (فز الجرح والماء يفز فزا وفزيزا...: ندى وسال).

twitter @baghdad_library

وهذا يتوافق بشدة مع أوزيريس الفيضي في نغمته العالية.

أكثر من ذلك فإن (الفز: ولد البقرة)، أي العجل والثور، كما يخبرنا اللسان. وليس من شك في أن أوزيرس (فزّ) أي عجل أو ثور. إنه إله ثور كم نعرف جيدا. أي أن الاسم قد يعنى: (الإله- الثور الجنوبي). وحتى لو كانت الكلمة تعني الذهب، كما يشير الجذر العبري، فإن هذا يدعم فرضنا أيضا. فقد أوضحنا من قبل أن (هبل) و (كنب) المرتبطين بأوزيريس على علاقة بالذهب.

بلدد الشوحي

أما بلدد الشوحي فيجب أن يكون هو الحد الأوسط، أي في موقع (العزى) العربية في الثالوث المكي. غير أن غموض الاسم يتركنا في عتمة مكثفة. لكن لدينا بيضة من بيض النعام في المصادر العربية تدعى (بيضة البلد). تقول المصادر العربية: بيضة البلد: التريكة، أي البيضة التي تتركها النعامة وتتخلى عنها. وفي المدح يقال: أعز من بيضة البلد. والأبلد من الرجال: الذي ليس بمقرون. والأبلد: العظيم الخلقة. وقد احتارت المصادر العربية في تفسيرها. فهل تكون بيضة (البلد) على علاقة بـ (بلدد). وهل يكون بلدد على علاقة بالنعام؟

ونحن نعلم أن النعامة على علاقة بإيزيس، مثيلة العزى، الحد الأوسط في الثالوث. كما أنها على علاقة بذي الخلصة الذي رأينا ان معبده يشبه معبد العزى. يقول أبو العلاء المعري في الصاهل والشاحج: (من أحاديث الجاهلية أن الطاغوت الذي يسمى ذا الخلصة في اليمن، كان امرأة وكانت فاجرة ساحرة، فدعت غلاماً من أهل اليمن إلى نفسها فأبى عليها، فسحرته فصار نعامة).[١٦]

ويقول لنا الأزرقي، في أخبار مكة عن الخلصة: (كانوا يلبسونها القلايد ويهدون إليها الشعير، والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون عليها بيض النعام).[١٧] ويكرر ياقوت في المعجم القول ذاته: (فكانوا يلبسونه القلائد، ويعلقون عليه بيض النعام، ويذبحون عنده).

وهكذا، فالنعام على علاقة بالخلصة، التي هي مثل العزى حد أوسط. أكثر من هذا، فإن إيزيس على علاقة بالنعامة. بل هي نعامة. تقول منطوقة من متون الأهرام:

(المجد لك يا ابنة أنوبيس {إيزيس} التي تقف على نافذة السماء، صديقة تحوت، التي تقف على جانبي السلم. افتحي الباب لعل أوناس يمر. المجد لك، أيتها النعامة

الواقفة على شاطئ النهر المعوج، افتحي الطريق لأوناس عله يعبر).[18]

وما يعزز من فرضية أن يكون (البلدد) هو (البلد) أي النعامة، هو أن سفر أيوب نفسه يعرض للنعامة، فيقول: (جناح النعامة يرفرف. أفهو منكب رءوف أم ريش. لأنها تترك بيضها وتحميه في التراب. وتنسى أن الرِّجل تضغطه أو حيوان البر يدوسه. تقسو على أولادها كأنها ليست لها).[19]

إذن، فنعامة الكتاب المقدس (تترك بيضها) و(تقسو على أولادها كأنها ليست لها)! إنها مثل النعامة العربية: تترك بيضتها، بيضة البلد، وتتخلى عنها. يقول لنا الميداني في مجمع الأمثال في تفسيره للمثل الذي يقول: أموق من نعامة: (وذلك أنها {النعامة} تخرج للطعم، فربما رأت بيض نعامة أخرى قد خرجت لمثل ما خرجت هي فتحتضن بيضها وتدع بيض نفسها).[20] ويزيد الجاحظ في الحيوان: (ويقولون: أحمق من نعامة كما يقولون: أشرد من نعامة قالوا ذلك لأنها تدع الحضن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم، فإن هي في خروجها ذلك رأت بيض أخرى قد خرجت للطعم، حضنت بيضها ونسيت بيض نفسها، ولعل تلك أن تصاد فلا ترجع إلى بيضها بالعراء حتى تهلك).[21] أما الأزهري في تهذيب اللغة فيقول: (ويقولون: أموق من نعامة... ومؤوقها: تركُها بيضها وحَضنها بيض غيرِها).[22]

إذا صح هذا يكون (سفر أيوب) قد فك لنا لغز (بيضة البلد العربية). فالبلد هو بلدد، أي أنه اسم ما ميثولوجي قديم للنعامة.

صوفر النعماني

يتبقى لنا صوفر النعماني. وأمر النعماني صار أسهل علينا، فيما نظن، بعد أن بدا وكأننا نجحنا في تثبيت احتمال أن يكون أصدقاء أيوب ثالوثا إلهيا يشبه الثالوث العربي المكي. بل لعلنا نقول إن صوفر النعماني سيعطينا تأكيدا على ما قلناه. فاسمه واضح تماما: فهو يعني: الصافر الناعم، أو ذو الصفرة الناعمة. حيث صوفر تعني الصفرة، ونعماني تعني الناعمة أو الواطئة. أي النغمة الناعمة، لا النغمة الحالية الحادة. إنه نغمة الشتاء، نغمة أوزيريس المنسحب. إذن فـ(صوفر النعماني) تعني بالضبط: ذو الصفرة الواطئة، أو صاحب الصفير الواطئ، أي عكس صفير المكاء العالي. وهذا ما يجعله مثيلا لـ (شيع القمء) العربي- النبطي و لـ (الشياع) ولـ(التصدية).

twitter @baghdad_library

إذن، فأصدقاء أيوب ثالوث شبيه بالثالوث المكي: (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى). وفي الإصحاح الثاني والأربعين من سفر أيوب نجد أن لأيوب ثلاث بنات أيضا. وفي ترجمة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط فأسماؤهن على الشكل التالي: (وكان له سبع بنين وثلاث بنات. وسمى اسم الأولى يميمة واسم الثانية قصيعة واسم الثالثة قرن هفوك).[٢٣]

أما ترجمة دار المشرق للرهبانية اليسوعية، فقد جاءت أسماء بنات يعقوب فيها كالتالي:

(وكان له سبع بنين وثلاث بنات. وسمى الأولى يمامة، والثانية صبرا والثالثة قرن كحل).[٢٤]

وقبل أن نحاول فك شفرة هذه الأسماء، لا بد لنا أن نعيد التذكير بأن العرب في مكة كانوا يسمون ثالوثهم (اللات والعزى ومناة) باسم (بنات الله)، رغم أن هذا الثالوث مكون من ذكرين وأنثى. ذلك أنهم كانوا يسمون الملائكة والأصنام وصغار النجوم إناثا. والثالوث في عرفهم ملائكة. يقول ابن الكلبي، وهو مرجعنا الأهم عن أديان العرب في الجاهلية، في كتاب الأصنام:

(وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى! كانوا يقولون: بنات الله عز وجل عن ذلك! وهن يشفعن إليه. فلما بعث الله رسوله أنزل عليه: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾).[٢٥]

إذن فالثالوث المكي، أي اللات والعزى ومناة، يدعى بنات الله. وعليه فليس غريبا أن نفترض أن بنات أيوب الإلهي طراز من ثالوث يشبه ثالوث مكة، أي أنهن لسن ثلاث آنسات بشريات يطلبن عرسانا. وحسب ميللر باروز فهناك (في مخطوطات البحر الميت مقطع من «سفر التثنية» نقرأ فيه: «حسب عدد أولاد الله» بينما نقرأ في التوراة «حسب عدد ملائكة الله (النسخة العربية تقول: حسب عدد بني إسرائيل). غير أن هناك من يفسر «أولاد الله» هنا بمعنى الملائكة، وبالتالي فإن هذا يعني في نظر بعضهم أن المسيح كان رئيس الملائكة).[٢٦]

أي أنه يوجد أبناء لله، وأنهم يمكن أن يدعوا ملائكة الله. وكنا قد رأينا أن (اللات والعزى ومناة) دعيت باسم بنات الله، وأنها دعيت بالملائكة أيضا.

لكن لنعد الآن إلى ترجمة أسماء بنات أيوب. فثم فرق كبير جدا في الترجمتين العربيتين، وعلى الأخص في الاسمين الثاني والثالث. فالاسم الثاني في ترجمة دار الكتاب المقدس هو (قصيعة)، لكنه في اليسوعية (صبرا). ولسنا نعرف كيف تم التحول من قصيعة إلى صبرا في الحقيقة! والاسم الثالث في ترجمة دار الكتاب المقدس ترك بأصله العبري (قرن هفوك)، بينما ترجم في اليسوعية بـ (قرن كحل)، وهي ترجمة شائعة!

ترجمة دار الكتاب المقدس، إذن، أكثر نزاهة. فقد تركت الاسمين الثاني والثالث من دون ترجمة. أما اليسوعية فقدمت في الحالين ترجمة لا معنى لها.

يميمة

ولنبدأ بالاسم الأول (يميمة). ويميمة في العبرية تعني الحمامة. وفي العربية: اليمامة. كما أن الاسم قد يعني في العبرية أيضا اليوم، بليله ونهاره، أو النهار. ويمكن لأي أحد أن يقترح أن الاسم يذكره بـــ (زرقاء اليمامة)، وأمثالها من الإلهات المرتبطات باليمام مثل زرقاء اليمامة، أو سميراميس التي يعني اسمها حمامة أو يمامة، والتي أرضعتها اليمامات بمناقيرهن.

لكن هذا لا يتوافق مع الترتيب الثلاثي كما عرفناه. فمن المفترض أن تكون إيزيس- ليليث- العزى- سميراميس، أي اليمامة، الحد الأوسط في الثالوث، لا الأول. والترتيب في هذه الحال أمر مهم. ذلك أن هذا النظام الثلاثي ميزان محدد، ولا يمكن أن نضع نقطة الميزان الوسطى في أحد الطرفين حين نكون بصدد نص ديني بامتياز، لا نص أدبي.

إذن، فنحن أمام خيارين:

الخيار الأول: هو أن سفر أيوب هنا لم يلتزم بالترتيب، وأنه حدث خلل أدى إلى وضع الحد الأوسط كحد أول. أي أن ترتيب الأسماء يجب أن يكون: قصيعة، يميمة، وقرن هفوك.

لكننا لا نميل إلى الاحتمال؛ لأن مسألة الترتيب حاسمة في النصوص الدينية.

الثاني: أن نعتبر أن (يمامة) من جذر عديل لجذر أمم العربي الذي يعطي معنى التقدم

twitter @baghdad_library

والأولية. يقول لسان العرب: (والأمامُ: بمعنى القُدّام. وفلان يَؤمُّ القومَ: يَقْدُمهم).[٢٧] والإمام: المثال. كما أن الجذر قد يعطي معنى العظمة. ففي مقاييس اللغة لابن فارس: (يقال أَمَمٌ أي صغيرٌ، وعظيم، من الأضداد).[٢٨] كما أن المئم: الدليل الهادي. والإمة: النعيم والملك. والإمة: الرجل المتفرد بدين، قال تعالى: إن إبراهيم كان أمة.

عليه فيميمة ربما الأولية والتفرد والتقدم والملك. وهذا ما يطابق الحد الأول في الثواليث دوما.

قصيعة

يبدو الاسم (قصيعة) Casia مبهما جدا. ولا شيء في العبرية يسعفنا جديا لفهمه. لذا تبقي أغلب الترجمات الإنجليزية على الاسم كما ورد في العبرية من دون ترجمة. وعليه، فنحن ملزمون بالعودة إلى اللغة العربية، علها تساعدنا في فهم هذا الاسم. وعند العودة إلى جذر (قصع) العربي نجد أنه يعطينا عدة معانٍ. يقول الزمخشري في الكشاف: (قصع الصؤاب بين ظفريه: قتله. وقصعت الرحى الحب: فضخته. وصبي قصيع: قميء لا يشب. ومن المجاز: قصع صارته: قتل عطشه. وقصع الله شبابه. وقصع الرجل: لزم بيته، من تقصيع اليربوع وهو دخوله في قاصعائه).[٢٩] ويضيف الخليل في العين: (والماء يقصع العطش: أي يقتله، وقصع صؤاباً أو قملةً: أي قتلها بين ظفريه. وقصعت رأس الصبي: ضربته ببسط الكف على هامته، وقصع الله شبابه: أي ذهب به وقتله).[٣٠] ويزيد القاموس المحيط: (وقصع الزرع تقصيعاً: خرج من الأرض، و القوم من نقب الجبل: طلعوا).[٣١]

لدينا هنا ثلاثة معان أساسية لهذا الجذر: الضغط بشدة، إرواء العطش، والاختفاء ولزوم النفق، والطلوع والبروز. وهناك في المصادر العربية ما قد يشير إلى أن اسم قصيعة ربما يكون على علاقة بالمعنى الثالث، أي بالأنفاق. أي أن الاسم قصيعة يعني: التي تختفي في النفق، أو صاحبة النفق، أو التي تحفر الأنفاق. أي أن الاسم في الحقيقة هو: القاصعة. فالزباء العربية، صاحبة جذيمة، الإلهة ذات الطراز الإيزيسي، كانت قاصمة، أي حافرة أنفاق، أو مختفية فيها. بل إن الأنفاق جزء مركزي من أسطورتها. يقول الخليل بن أحمد في العين: (والقاصِعاء: جحر اليربوع).[٣٢] ويضيف الجاحظ في الحيوان: (اليرابيع ضرب من الفأر، قال: ويقال: نفَّق اليربوع ينفِّق تنفيقا إذا عمل النافقاء، وهي إحدى مجاحره، ومحافره، وهي النافقاء والقاصعاء... فإذا طلِب من إحدى هذه

الحفائر نافق، أي فخرج النّافقاء، وإن طُلِب من النافقاء قصَّع).[٣٣]

أي إذا طلب من النافقاء دخل القاصعاء والعكس. لكن الجاحظ يضيف في مكان آخر في الحيوان ما هو أهم من هذا. فهو يربط ربطا مباشرا بين الزباء والأنفاق:

(وزعم أبو عَقيل بن دُرست، وشداد الحارثي، وحسين الزهري أن الزباء الرومية إنما عمِلت تلك الأنفاق...على تدبير اليرابيع في محافيرها هذه، ومخارجِها التي أعدتها ومداخلها، وعلى قدر ما يفجَؤُها من الأمر). ويضيف الزمخشري في ربيع الأبرار: (من اليربوع واحتياله بما يسوي من محافره التي إذا طلب من هذا خرج من هذا أخذت الزباء عمل الأنفاق).[٣٤]

إذن، فالزباء حافرة أنفاق. تحفر الأنفاق للهرب والاختفاء مثل اليرابيع تماما. إنها تقصع وتنفق. أي تهرب من القاصعاء إن أتيت من النافقاء، وتهرب من النافقاء أن فجئت من النافقاء. كما أنها تقصع، أي تحفر قاصعاءها، فهي قاصعة. وسوف نخصص فصلا كاملا عن علاقة أنفاق الزباء بكوى حجرة الملكة في الهرم الأكبر.

عليه، وعبر التشبيه مع الزباء يمكن لنا أن نقول إن قصيعة سفر أيوب تعني قاصعة: أي مختفية في النفق، أو صاحبة النفق، أو حافرة الأنفاق. بالطبع، ليس صعبا علينا أن ندرك أن النفق رمز لغياب إيزيس نجمة الشعرى مدة سبعين يوما قبل أن تظهر من جديد مؤشرة على بدء السنة الشمسية وفيضان النيل. إنها تدخل النفق ثم تطلع منه.

ولدينا من ابن وصيف شاه ما حديث عن أنفاق تشبه أنفاق الزباء عند الفراعنة. ففي سياق حديثه عن الفرعون أشمون، أخبرنا أنه: (كان أشمون أعدل ولد أبيه، وأرغبهم في صنعةٍ تبقى، ويبقى ذكرها، وهو الذي بنى المجالس المصفحة بالزجاج الملوّن وسط النيل، وتقول القبط: إنه بنى سرباً تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا تحت النيل، وقيل: إنه حفره، وعمله لبناته لأنهنّ كنّ يمضين إلى هيكل الشمس، وكان هذا السرب مبلط الأرض والحيطان والسقف بالزجاج الثخين الملوّن).[٣٥]

أشمون، إذن، بنى لبناته سربا تحت الأرض، أي نفقا. وهذا يشبه أنفاق الزباء القاصعة. ويبدو أن قصيعة سفر أيوب كانت حافرة آفاق أيضا. أي أنها الحد الأوسط في الثالوث.

قرن هفوك

وإذ توصلنا، بقدر معقول من التيقن، إلى معنى الحد الثاني، وبقدر أقل من التيقن لمعنى الاسم الأول. فربما يكون سهلا علينا أن نفهم معنى اسم البنت الثالثة (قرن

twitter @baghdad_library

هفوك)، رغم أنه اسم عصي كما يبدو من النظرة الأولى. وهناك من لا يترجم هذا الاسم لغموضه. لكن الترجمات السائدة تترجمه على أنه يعني (قرن الكحل)، كما قلنا من قبل، استنادا إلى أن جذر (قرن) في العبرية يعني: قرن، بوق، ركن، زاوية، شعاع، صندوق، رصيد. أما (هفوك) فقد اعتبرت كلمة مكونة من هاء التعريف العبرية لإضافة إلي (فوك): (هـا- فوك). و(فوك) تعني الكحل. عليه صارت الجملة تعني (قرن الكحل). وقد استند المترجمون، فيما يبدو، إلى أن كلمة (قرن) لها ارتباط ما بالكحل. فقد كان الكحل يوضع أحيانا في علب من قرون البهائم.

لكننا نعتقد أن الهاء في هفوك أصلية وليست هاء التعريف، أي أن الكلمة (هفوك) لا (ها- فوك). إذا صح هذا، فلا بد أن تكون هذه الكلمة على علاقة بجذر (هفك) العربي. والتهفك في العربية هو الاسترخاء في المشي. يقول الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة: (التّهفّك في المشي: الاضطراب والاسترخاء).[٣٦] ويؤكد اللسان هذا بقوله: (والتهفّك: الاضطراب والاسترخاء في المشي).[٣٧] وعليه، وإذا أخذنا كلمة (قرن) على أنها تعني آلة موسيقية، لا قرن كحل، فالجملة تصبح بالتالي: البوق المسترخي، البوق الضعيف. والقرن آلة موسيقية معروفة في اللغات السامية وهي (قرنو الآشورية وقِرن العبرية وقرن العربية، وكلها تعني النفير {أي البوق}).[٣٨]

وفي هذه الحالة فإن (البوق الضعيف) يوازي (صوفر النعماني) من أصدقاء أيوب. أي أننا نتحدث عن النغمة الثالثة، النغمة الوطيئة، نغمة القرار، في مقابل النغمة العالية. وهذا ما نميل إليه، ونراه الأكثر منطقية. واسم الإله النبطي شيع القوم (شياع القمء) يعني، كما رأينا من قبل، أيضا المزمار الصغير أو الضعيف.

ويجب أن نلحظ هنا أيضا أن قرن في العبرية تعني (صندوق). ونحن نعلم أن الحد الثالث في الثالوث؛ أي مناة، مين، يشير إلى النيل- أوزيريس المنسحب، المتراجع، الميت. عليه فقرن هفوك يمكن أن يعني أيضا: صندوق الموت. يؤيد هذا أن جذر هفك العربي يعني الإرسال للموت والقبر. فقد جاء في الحديث، حسب لسان العرب: (قل لأمتك فلتهفكه في القبور، أي لتلقه فيها).[٣٩] وهذا ما يتوافق مع كون الحد الثالث عند العرب، أي مناة، يعطي معنى المنية، أي الموت. كما أنه يتوافق مع حقيقة أن سيث قطع أوزيريس ووضعه في صندوق.

وهكذا فالاسم قرن هفوك يعطي إشارات على أن بنات أيوب ثالوث مثل ثالوث (بنات الله) المكيات، أي اللات والعزى ومناة.

أيوب، إذن، إله. أما الثالوث، أي بناته، فهو الإله بمبدئية المذكر والمؤنث. الأول والثالث من البنات للمبدأ المذكر، والثالث، أي الحد الأوسط، للمبدأ المؤنث. فالله تركيب من مذكر ومؤنث بنسبة واحد إلى اثنين. أي أن الله تركيب من ثلاثة.

وهناك من يعتقد أن النسخة الأصلية لاسم أيوب هي أكدية تعني «أين الله؟» أو «أين الأب؟». ومن هنا كان جوهر الجدال في سفر أيوب حول الله.

النهيق بين الشيح

وثم في الإصحاح الثلاثين من سفر أيوب حديث عن الشيح. فقد جاء في ترجمة دار الكتاب المقدس:

(الذين يقطفون المَلاّح عند الشيح وأصول الرتم خبزهم. من الوسط يطردون. يصيحون عليهم كما على لص. للسكن في أودية مرعبة وثقب التراب والصخور. بين الشيح ينهقون. وتحت العوسج ينكبُّون. أبناء الحماقة بل أبناء أناس بلا اسم سيطوا من الأرض).[٤٠]

الفقرة هنا غامضة جدا. فما معنى (يقطفون الملاح عند الشيح)؟ ثم ما معنى عند الشيح ينهقون؟ أو كما جاء في النص العبري وبالحرف العربي: (بين هشوحيم ينهقوا). أي أن ثم كائنات ما، تنهق، أو تصيح، بين أشجار الشيح، إذا صحت التراجم. فما الذي يعنيه هذا؟ وهل هناك علاقة بين شوح (بلدد الشوحي) والشوح في (بين هشوحيم ينهقو)، أي (بين الشيح ينهقون؟

ثم لننتبه إلى هذا التعبير الذي يسبق النهيق: (من الوسط يطردون. يصيحون عليهم كما على لص. للسكن في أودية مرعبة وثقب التراب والصخور).[٤١] وفي النص الإنجليزي:

(To dwell in the cliffs of the valleys, in caves of the earth, and in the rocks).

(ليسكنوا في الوديان، وفي كهوف الأرض، وفي الصخور).

من هم هؤلاء الذين يطردون من الوسط؟ وماذا يعني الوسط هنا؟ ألا يذكرنا الأوسط بالحد الوسط في الثالوث؟ ثم ألا يذكرنا هذا بما قام به جلجامش عندما طرد (ليليث) وطائر (الزو) عن شجرة إنانا. فبسلاحه:

twitter @baghdad_library

(سحق الحية عند أصل الشجرة
وفي قمة الشجرة هرب طائر الزو مع فراخه نحو الجبال
ونقضت ليليث بيتها وهربت إلى الصحاري).[٤٢]

لقد سحق الحية، فهربت ليليث الحد الأوسط، وهرب طائر الزو- شبيه المكاء. ليليث هربت إلى الصحاري، بعد أن نقضت بيتها. فيما هرب الزو مع فراخه إلى الجبال. ألا يشبه هذا ما جاء في السفر: (من الوسط يطردون. يصيحون عليهم كما على لص. للسكن في أودية مرعبة وثقب التراب والصخور)؟ فهناك من يطرد من الوسط مثل ليليث. وهناك من يهرب للسكن في أودية مرعبة، وبين نخاريب الصخور في الجبال.

نحن نعتقد أن هذا المقطع هو صدى لمقطع جلجامش هذا. وهو مقطع يتحدث عن الصيف والفيضان. إذ تسحق الحية، أي النغمة الشتوية المنخفضة في أصل الشجرة، لتتحرر النغمة الصيفية العالية. والنغمة الصيفية العالية هي اجتماع ليليث مع الزو، الشعرى مع سهيل. وباجتماعهما يكون الصيف وفيضان النيل. لقد طردت ليليث عن الشجرة. وطرد الزو عنها. وهذا رمز لسقوط سهيل جنوبا، ولطلوع الشعرى الجنوبي. لكن المهم أن طائر الزو طرد من على الشجرة كي يكون من الذين (بين الشيح ينهقون)، أي يصيحون. وهذا يذكرنا بالبيت الشهير عن طائر المكاء:

إذا غرد المكاء في غير روضه   فويل لأهل الشاء والحمرات

لقد غرد المكاء على غير روضه، أو على غير شجرته، التي هي مثل شجرة إنانا، فحل الصيف الملتهب، وجاء دور العشار سهيل كي يأخذ مكوسه وضرائبه.

هذا هو، فيما يبدو، معنى الفقرة السابقة من سفر أيوب.



twitter @baghdad_library

فصل 5

الإله الكسعة

(كنت غاضبا جدا على فوتيس التي أرادت أن تجعلني طائرا، فحولتني إلى حمار)

الحمار الذهبي- لوكيوس أبوليوس

حدثنا ابن النديم في الفهرست عن طائفة من الصابئة تدعى «المغتسلة» لها زعيم باسم غريب يدعى الحسيح: (هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح، هم صابئة البطائح، يقولون بالاغتسال ويغسلون جميع ما يأكلونه، ورئيسهم يعرف بالحسيح. وهو الذي شرع الملة، ويزعم الكونين ذكرا وأنثى وأن البقول من شرع الذكر وأن الأكشوث من شرع الأنثى وأن الأشجار عروقه. ولهم أقاويل شنيعة تجرى مجرى الخرافة. وكان تلميذه يقال له شمعون، وكانوا يوافقون المانوية في الأصلين وتفترق ملتهم بعد، وفيهم من يعظم النجوم إلى وقتنا هذا).[١]

وتربط غالبية الباحثين بين (الحسيح) هذا، الذي يقرأ عند بعض الباحثين على أنه (الحسح)، وطائفته وبين زعيم طائفة كانت تقيم في القرون الأولى الميلادية في فلسطين بالقرب من البحر الميت تدعى الكسئيين ElKesaite وازدهرت في القرون الأولى الميلادية. وقد وصلتنا أغلب المعلومات عن هذه الفرقة من أفيفانيوس وهيبوليتس. ويقول لنا الأخير إن شخصا يدعى Alcibiades قدم من أفاميا في سوريا، في مطلع القرن الثالث للميلاد، مع كتاب ديني نزل وحيا على شخص محدد يدعى (الكسيا) Elxai, Elkasia من قبل ملاك هائل الحجم يدعى (ابن الله)، مع أخت له تدعى (الروح القدس). وحسب بعض الأخبار فإن الكسيا هذا أعلن نبوءته في عهد تراجان في منقلب القرن الأول للميلاد.

ويعتقد بعض الباحثين أن كتاب الكسيا ترجم في البدء من لغة سامية إلى اللغة اليونانية. لكن لا يُدرى على وجه التحديد من أي لغة سامية تم هذا النقل. والغالبية ترى أنه ترجم عن الآرامية. في حين يرى البعض أنها العبرية. وترى مجموعة أخرى أنه ترجم عن لغة عربية قديمة.

وورد ذكر اسم الكسيا وفرقته بصيغ متقاربة عند مؤلفين عديدين: الكسيا، الكاسيي، الكيسايوس، القاسايوس.

وقد أخبرنا إفيفانيوس أن الاسم الكسيا يعني (القوة الخفية). وهناك من اقترح أن الكسيا مأخوذ من الجذر العبري والآرامي (قصي) الذي يعني: الخفي. وهو عديل الجذر العربي (قصا) الذي يعني: البعد والتنحي. أي أن الاسم يعني (الإله الخفي). غير أن آخرين يربطونه بـــ(آدم كسيا) في الأدب الصابئي المندنائي في العراق، والذي يترجم عادة على أنه (آدم النوراني).

وإذا صح الربط بين (الحسح) و (الكسيا)، وهو ما نعتقده ونؤمن به، فإن علينا أن نفسر سبب الافتراق الكبير في اللفظ بين (الكسيا) و (الحسح) أو (الحسيح)، كما ورد في الفهرست؟ وفي البدء يجب التذكير بأن الاسم بالصيغة التي أوردها ابن النديم لم يرد عند الصابئة المندائية. فهم: (سواء في تراثهم المدون أو تراثهم الشفوي، لا يشيرون من قريب ولا من بعيد إلى الحسح هذا، ولم يرد لديهم اسم قريب من هذا الاسم).[٢]

ولو ذهبنا إلى العربية فإننا سنجد أن كلمة (الحسح) لا تعني شيئا، إذ ليس هناك جذر (حسح) في هذه اللغة، الأمر الذي يعني أن علينا أن نبحث عن طريق آخر لضبط هذا الاسم وفهمه.

الكسعة

وما دمنا قد وافقنا على الربط بين (الكسيا) و (الحسح)، فمن المشروع أن نلجأ إلى الصيغة اليونانية علها تساعدنا في الضبط كما وردت عند ابن النديم. واللجوء إلى الصيغ اليونانية لضبط الاسم أمر مشروع من جهتين:

أولا: أن الصيغ اليونانية أقدم بكثير من صيغة ابن النديم.

ثانيا: أنها صيغ تواترت في الورود، بشكل متقارب جدا، عند مؤرخين عديدين، على مدى أكثر من قرنين من الزمان، الأمر الذي يجعل من الصعب الافتراض أنهم جميعا

twitter @baghdad_library

أخطئوا في نقل الاسم. في حين أن صيغة (الحسح) لم تردنا إلا مرة واحدة يتيمة عند ابن النديم فقط.

والذهاب إلى الصيغة اليونانية يفترض، ضمنا، أن صيغة ابن النديم تعرضت للتصحيف. وفكرة تصحيف هذا الاسم (الحسح) ليست جديدة بالمرة. فقد (أثار خلو الاسم من حروف العلة {أي الحركات} والنقاط بعض التكهنات في تفسيره. وذهب بعضهم إلى أنه «المسيح» وحدث التحريف بفعل الاستنساخ).(٣)

عليه، فوضع الاسم في نص ابن النديم يفتح احتمال التصحيف. والتصحيف حسب أبي العلاء المعري مأخوذ من الصحيفة، أي من صيغة مكتوبة. والصيغة المكتوبة تحتمل الخطأ، على عكس السماع الذي يؤخذ من الفم مباشرة، وبالتالي لا يحدث خطأ في نقله. وبما أن الدلائل تشير إلى أن ابن النديم كان ينقل مباشرة عن ألسنة طائفة صابئة البطائح، التي كانت ما زالت موجودة في عصره، بما يمنع أن يكون الخطأ من عنده، فإننا نفترض أن التصحيف حدث بعد ابن النديم، أي عند النسخة، الذين نسخوا كتابه الفهرست.

ولنبدأ بالقول إن ورود الاسم بعد المقطع (إل) بالكاف في جميع المصادر اليونانية، يرغمنا على افتراض أن الحرف الأول في صيغة ابن النديم يجب أن يكون كافا لا حاء. أي أن الاسم هو (الكسح) أو (الكسيح)، إذا افترضنا أن الحرف الأخير حاء فعلا، وهو ما نشك فيه بشدة كما سنرى. وتصحيف الكاف إلى حاء أمر ممكن جدا في العربية. ذلك أن الكاف في الكتابة العربية، وخاصة في اليدوية منها، تشبه حاء لها عقفة ترتد إلى الوراء. وأي قصر في هذه العقفة سيجعل ناسخا ما قادرا على التوهم أنها حاء: (كـ، حـ). ويبدو أن هذا هو ما حصل فعلا.

إذن، فالحاء الأولى كانت كافا في الأصل. أما الحاء الأخيرة فنجد في مقابلها في الصيغة اليونانية ما يوحي بعين أو ياء مشددة. وهذا يعني أن صيغة ابن النديم يجب أن تكون: (الكسع) أو (الكَسِي) أو شيئا قريبا من هاتين الصيغتين. وفي الحالين، فإن الصيغة اليونانية ستكتب الحرف الأخير ياء، ذلك أن حرف العين غير موجود في اللغات الهندوأوربية. وإذا كان الحرف الأخير ياء في الأصل، فإننا نكون قريبين جدا من (كَسيا) في تعبير (آدم كَسيا) الصابئي المندنائي المعروف. وقد افترض كثيرون أنه ربما يكون على علاقة بآدم كَسيا المندنائي.

أما عند الذهاب إلى العربية، فسوف نجد أن جذر (كسأ) هو تنويع على جذر (كسع). فكلاهما يعطي معنى التأخر والتبعية. يقول لسان العرب: (الكسع: أن تضرِب بيدك أو

برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء).[٤] ويضيف: (وردتِ الخيول يكسع بعضها بعضا... وقيل: كسعه إذا همزه من ورائه بكلام قبيح).[٥] ويزيد: (كسء كل شيء وكسوءه: مؤخره. وكسء الشهر وكسوءه: آخره).[٦] ويقول الجوهري في الصحاح في اللغة: (كَسَأته: تبعته. ويقال للرجل إذا هزم القوم فمر وهو يطردهم: مر فلان يكْسَؤهم ويَكْسَعُهم، أي يتبعهم. والأكساء الأدبار).[٧]

وهكذا فالجذران تنويع على بعضهما في المعنى. وهما يعطيان معنى التأخر والتابعية. بالتالي، يمكن للكسيا أن يكون (الكسيع) أو (الكسع) أو (الكسيء، الكسئ) في العربية. ونظن أن صيغة ابن النديم كانت بالعين في الأصل، أي (الكسع) أو (الكسعة) ثم حرفت إلى الكسحة. ذلك أن من الصعب تصور تصحيف العين الياء إلى حاء، بينما من السهل تصحيف العين إلى حاء، فالحاء والعين يكادان يكونان حرفا واحدا في آخر الكلمة في العربية: (كسع- كسح).

وإذا صح أن الاسم هو (الكسع) فنحن نكون في قلب الميثولوجيا العربية. إذ لدينا إله عربي محدد يدعى (الكسعة) معروف جدا في المصادر العربية، وإن كنا لا نعرف عن طبيعته شيئا تقريبا. ينقل لسان العرب عن ثعلب: الكسعة: (وثن كان يعبد).[٨] ويقال: تكسع في ضلاله انطلاقا من اسم هذا الصنم. وهناك حي من قيس عيلان من اليمن يدعى (الكسعة) و(الكسع) بالجمع. ويبدو أنه أخذ اسمه من اسم هذا الإله، لأن هذا الحي كان من عباده. ونحن نعلم أن كثيرا من القبائل تسمي نفسها بأسماء آلهتها، فيصبح الإله ذاته جدا للقبيلة. والكسعة صيغة مبالغة من الجذر كسع.

الكسعي

وهناك شخصية شهيرة في الأدب العربي القديم باسم (الكسعي)، وهو من بني الكسع أو الكسيعة، أي من الحي المذكور. يقول الخليل بن أحمد في العين:

(الكسع: حي من قيسِ عيلان، وقيل: هم حي من اليمن رماة. ومنهم الكسعِي الذي يضرب به المثل في الندامة. وهو رجل رام، رمى بعدما أسدف الليل عيرا فأصابه وظن أنه أخطأه فكسر قوسه، وقيل: وقطع إصبعه، ثم ندم من الغد حين نظر إلى العير مقتولا وسهمه فيه، فصار مثلًا لكل نادم على فعل يفعله؛ وإياه عنى الفرزدق بقوله:

ندمت ندامة الكسعِي، لما غدت مني مطلقة نوار...

وقيل: كان اسمه محارِب بن قيس من بني كسيعة أو بني الكسعِ بطن من حمير).[٩]

twitter @baghdad_library

وحسب الزمخشري في الكشاف فإن: (الكسعي: هو رجل من كسعة اسمه محارب ابن قيس رأى نبعة في صخرة وادٍ كان يرعى فيه فتعهدها حتى أدركت ثم اتخذ منها قوسا).[10]

إذن، فهناك صنم- إله يدعى: الكسعة أو الكسيعة. وهناك قبيلة تدعى (الكسع) جمع (كسعة) يوحي اسمها بأنها من عباد هذا الإله. ثم هناك رجل من هذه القبيلة يدعى (الكسعي) له علاقة بالحمر الوحشية يدعى (الكسعي). وأغلب الظن أنه كاهن لهذا الإله.

ووجود الحمر الوحشية، يوحي بأن الحمار الوحشي هو حيوان هذا الإله. يؤيد هذا الاحتمال بقوة أن الحمير ذاتها، أو الحمر البرية السائمة، تدعى في العربية: الكسعة. وحين يتشارك حيوان وإله بالاسم ذاته فإن من المنطقي أن نفترض أن هذا الحيوان هو حيوان الإله. يقول لسان العرب: (الكسعة: الحمر السائمة).[11] وجاء في حديث نبوي: («ليس في الكسعة صدقة». قال أبو عبيدة: الكسعة: الحمير).[12] والغالبية على أن الكسعة هي الحمير. وعدم لزوم الصدقة عن الكسعة يوحي بسبب ديني.

أكثر من هذا تخبرنا المصادر العربية أن الكسعوم هو الحمار بالحميرية يقول لسان العرب: (الكعسوم: الحمار، بالحميرية. ويقال: بل الكسعوم، والأصل فيه الكسعة، والميم زائدة).[13]

أوزيريس والحمار

الكسعة، إذن، إله مرتبط بالحمار فيما يبدو. وكنا عرفنا في فصول سابقة أن أوزيريس في مظهره الشتوي، في نغمته الواطئة، مرتبط بالحمار. بل إنه حمار. ولدينا صورة مصرية قديمة تصور حمارا طويلا يقف إلى جانب (عمود جد) الذي يرمز لأوزيريس الصيفي الفياض. أما الحمار فيها فيمثل أوزيريس الشتوي فيما نرى. كما أننا كنا قد أوضحنا في فصل سابق أن الإله (ذا بكة) في الكعبة، الذي هو طراز من أوزيريس الشتوي، كان مرتبطا بالحمار، وأن لديه حمرا سائبة تدعى (حمر الأبك):

جَرِبّة من حمر الأبـك   لا ضَرِع فيها ولا مذكّي

ولدينا أكثر من ذلك. لدينا دلائل على علاقة أوزيريس بالحمار في رواية (الحمار الذهبي) للوكيوس أبوليوس، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي. أخذ لوكيوس قصة يونانية معروفة بنفس الاسم وأضاف إليها، وشبك نفسه في النهاية مع بطلها، الذي يحمل

الاسم نفسه: لوكيوس. ورغم أن الكتاب كتاب أدب، إلا أن الفصل الأخير فيه يقدم وصفا مدهشا، ولا يعلى عليه مطلقا، لطقوس الديانة الأوزيرسية كما كانت تجرى في سوريا. ويمكن (أن نلخص الحدث الرئيس في الرواية... في سطر واحد، فنقول إنها قصة إنسان يهتم بالسحر، ويحب أن يتحول إلى طير، ولكنه يتحول {خطأ} إلى حمار).(١٤)

طائر وحمار!

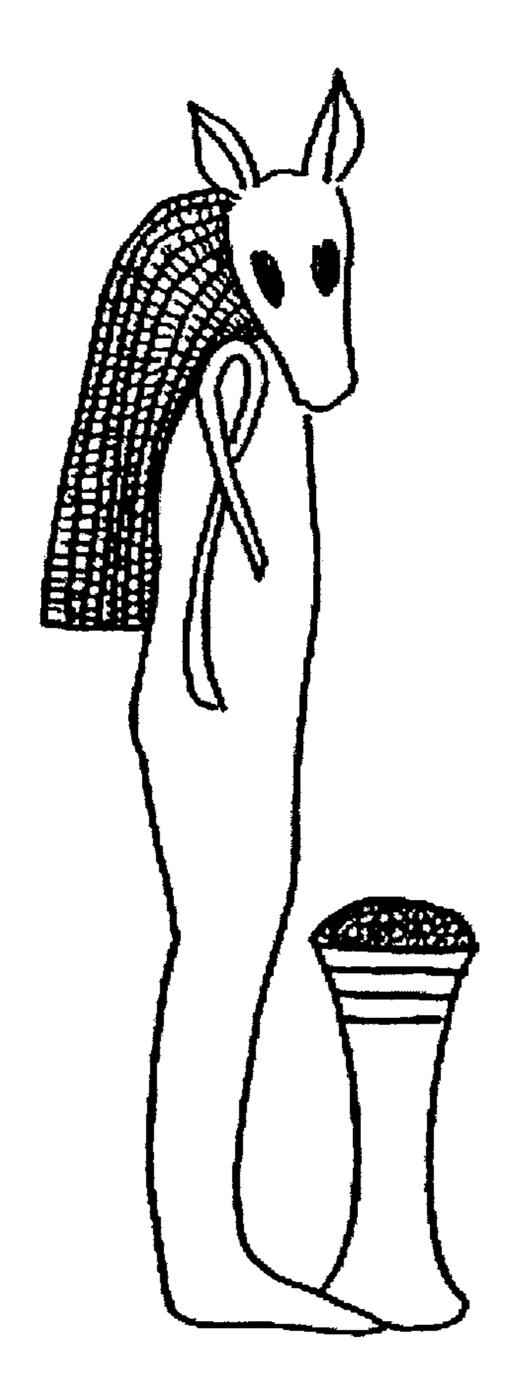
هذا يشبه بالضبط المكاء وذا بكة اللذين تحدثنا عنهما مطولا. فالمكاء طائر، وذو بكة يتمثل بحية، أو بحية وحمار. كما أن هذا يشبه الوضع في بلاطة بلعمه، حيث الطائر والحمار إلى يمين البلاطة ويسارها. وبعد عذاب طويل دعا لوكيوس، الذي تحول إلى حمار، الإلهة كي تنقذه من وضعه الحميري، فخرجت له وأخبرته أنها إلهة الكون، التي تعبد بأسماء عديدة: أما المصريون (بما لهم من حكمة قديمة فيعبدونني حسب شرائعهم الخاصة ويدعونني الملكة إيزيس).(١٥) إذن، فإيزيس جاءت لتخرج لوكيوس من جلد الحمار. أي جاءت لتخرج أوزيريس من بياته الشتوي الطويل. أمرت إيزيس لوكيوس أن يخرج في يوم محدد بالذات (كرسته لي التقوى الدينية منذ الأزل... فعندما يتشكل الموكب... سآمر الكاهن بربط إكليل من الورد في الصنج المعلق بيده اليمنى. وهنا يجب عليك أن تندفع في الزحمة فورا وتتبع الموكب واثقا من إرادتي بكل نشاط. فإذا ما أنت اقتربت من الكاهن، فارفع رأسك بهدوء، كما لو أنك تريد أن تقبل يده واقطف الورد، وستتخلص من جلد هذا الحيوان، الذي لم أحتمل وجوده أبدا).(١٦)

وبالفعل فعل لوكيوس ما طلبت منه، أي خرج في اليوم المحدد الذي كرسته له الآلهة، وفعل ما أمرته، فانزاح عنه جلد الحمار. ومقابل هذا فقد طلبت إيزيس من لوكيوس أن يكرس حياته لها: (وإنه لمن الإنصاف أن تكرس حياتك المستقبلية كلها لتلك التي أعادتك نعمتها إلى إنسانيتك).(١٧)

لكن في السنة التالية، يقول لوكيوس (دارت الشمس دورتها في البرج، وتمت السنة. وقطعت الإلهة الرحيمة في حدبها الدائم نومي مرة أخرى، وطلبت مني القدسية من جديد، وتقبل الأسرار من جديد...{ثم} تبين لي أنني عرفت أسرار الإلهة وحدها، ولكني لم أعرف بعد أسرار الإله الأعظم وأبي الآلهة أوزيريس الذي لا يقهر... ولم يتأخر بعد القرار لمدة طويلة. فقد ظهر لي في تلك الليلة أحد الكهنة وهو يرتدي ألبسة طويلة، حاملا أعوادا من خشب الصنوبر وأغصان شجر اللبلاب وأشياء أخرى خفية. وضعها أمام مذبح بيتي مباشرة، وجلس على كرسي وأعلن إقامة وليمة دينية. ولكي يمكنني التعرف عليه بعلامة شخصية أكيدة، أقبل وهو يميل على كعب رجله اليسرى،

twitter @baghdad_library

يجر خطاه ببطء. وبعد هذا التعبير الواضح عن إرادة الله ذهبت عني الحيرة كلها. وعندما قدمت للإلهة صلاتي الصباحية، نظرت إلى كل واحد، علني أجد قدمه تشبه قدم الشخص الذي رأيته في حلمي. وسرعان ما تأكد ذلك. فقد جلب انتباهي فورا واحد من بين الكهنة، كان مطابقا للشخص الذي تراءى لي ليلا مطابقة تامة زيادة على العرج في رجله. وكان اسمه، كما علمت فيما بعد أسينوس (الحمار) ماتيكيلوس. ولم يكن الاسم عديم العلاقة بتحولي).[١٨]



أوزيريس بمظهريه: عمود جد، الذي يمثل النغمة الفيضية القصيرة، والحمار، الذي يمثل النغمة المضادة، غير الفيضية، الشتوية

لا يوجد هنا أدنى شك في أن الكاهن الأعرج هو كاهن أوزيريس. واسمه ذاته يدل على ذلك. فهو أسينوس، أي الحمار! والكاهن يسمى باسم إلهه عادة. أي أننا نتحدث عن أوزيريس- الحمار، أي أوزيريس الشتوي. وعبارة لوكيوس (ولم يكن الاسم عديم العلاقة بتحولي)، واضحة تماما. أي أن الأمر له علاقة بتحول لوكيوس إلى حمار. فوق ذلك فإن الصفصاف واللبلاب شجرتا أوزيريس.

أما الظلع على الرجل اليسرى فيمكن تفسيره بطريقتين؛ أن أوزيريس برجلين صيفية قصيرة وقوية، وشتوية طويلة وضعيفة منهكة، أو أنه برجلين؛ واحدة تمثل نجم النطاق القوية الماكنة، والأخرى هي نجم المنطقة الضعيفة القليلة الإضاءة. وهو حين يمشي بهاتين الرجلين يظلع، أي (يميل على كعب رجله اليسرى)، أي جهة نجم المنطقة المائل إلى اليسار دوما. وحسب المقريزي في خططه فقد كان فرعون موسى أعرج: (وهذا هو فرعون موسى عليه السلام... كان أعرج).[١٩] وهذا يعني أن العرج والظلع والخمع ثيمة من ثيم عبادة إيزيس وأوزيريس.

عليه، فعندما تحول لوكيوس إلى حمار، فقد تحول إلى أوزيريس النغمة الواطئة، أوزيريس الميت المنسحب. ونزع جلد الحمار عنه بمساعدة إيزيس هو بعثه الصيفي وعودته إلى الفيضان. يؤكد هذا أن إيزيس ظهرت للوكيوس في يوم محدد، هو يوم الانقلاب الصيفي، الذي تطلع فيه إيزيس مع الشمس في الأفق، بعد غياب سبعين يوما، معلنة بدء السنة الشمسية الجديدة، ومبشرة بفيضان النيل أوزيريس: (هذا اليوم، الذي ستبرزه هذه الليلة، هذا الذي كرسته لي التقوى الدينية منذ الأزل. فقد هدأت العواصف الشتوية وسكنت أمواج البحر. ولذلك سيدشن كهنتي يوم غد سفينة جديدة لي بعد أن أصبح السفر ممكنا من جديد افتتاحا للمواصلات).[٢٠] وهكذا، فهناك يوم كرس لها منذ الأزل، وهو يوم تكون قد (هدأت فيه العواصف الشتوية)، أي أن الشتاء قد ولى، وبدأ الانقلاب الصيفي. إنه عيد البزوغ الشمسي لإيزيس الذي يأتي بعد منتصف حزيران، عادة، ويؤذن بفيضان النيل. في هذا اليوم فك أسر لوكيوس- أوزيريس من جلد الحمار الذي انحبس فيه. وكل هذا يفسر لنا صورة الحمار قرب عمود جد، عمود أوزيريس. فالعمود يمثل أوزيريس الفيضي عالي النغمة، والحمار يمثل أوزيريس الواطئ النغمة. وعدم التناسب في الطول يعكس طول النغمة. فالحمار يبلغ ضعف العمود من حيث الطول.

وعليه، نستطيع أن نفهم لماذا يكون الكسعي الذي كسر قوسه رجلا. فهو ممثل الإله الكسعة- أي أوزيريس الهابط. ويمكن النظر إلى قتله للحمار على أنه يمثل التضحية

twitter @baghdad_library

السنوية بحيوان الإله. ولعل صيد حمر الكسعة كأضحية للإله كان يتم بقوس تستخدم لمرة واحدة ثم تكسر.

الكسعيون والأسينيون

توصلنا في فصل سابق إلى أن الأسينيين الذين كانوا يملكون مثلهم مثل الكسائيين تجمعا في غور الأردن في فلسطين هم، في غالب الأمر، أتباع إله يدعى ياسون، أو ياسين كما جاء في القرآن، وأن هذا الإله يمثل أوزيريس في نغمته الواطئة الشتوية. وقد عرفنا كيف أن النغمة الواطئة ترتبط عادة بالحمار أو بالحية. وحين نكتشف مع لوكيوس أن كاهن أوزيريس الواطئ يدعى (أسينوس)، أي الحمار، أي أنه على علاقة لفظية باسم الأسينيين، فإنه يحق لنا أن نتساءل إن كان إله الأسينيين هو أيضا مرتبط بالحمار. وقد ربط أفيفانيوس بين الأسينيين وفرقة الكسائيين (الكسعيين في رأينا): (وقال أفيفانيوس إن فرقتي الـ Sampsaeana والـOsssaeans ابتعدتا عن اليهودية واتبعوا مبادئ الكسائيين).[٢١] ومن الواضح أن الأوسيانيين هؤلاء هم الأسينيون، الذين نتحدث عنهم. وربط أفيفانيوس هؤلاء مع بعضهما بشكل يوحي بأنهما متقاربان عقائديا. وهو أمر يوافق عليه غالب الباحثين. إذ (المعروف... أن الأسينيين أو جماعة منهم والأبيونيين... قد قبلوه {الكسيا- الكسعة} كنبي، أو أنهم اعترفوا بتعاليمه).[٢٢] وهكذا، فالكسعيون (الكسائيون) والأسينيون يكادون يكونون فرقة واحدة. عليه، فإذا كان إله الكسائيين (الكسعيين) يرتبط بالحمار، فليس غريبا أن يكون إله الأسينيين أيضا مرتبطا بالحمار، خاصة بعد أن رأينا عند لوكيوس كيف أن أوسينوس- الحمار هو كاهن أوزيريس في نغمته الواطئة.

وأخيرا نصل إلى (آدم كسيا) الصابئي المندائي، الذي يقال إنه يعني (آدم النوراني). وأغلب الظن أن (كسيا) هذا هو الكسعة العربي. وعليه، فلا بد أن يكون (آدم كسيا) يعني آدم التابع، أي الذي يتبع، أو آدم المتأخر، أي آدم الشتوي. على اعتبار أن الشتاء يتبع الصيف، أي يكسعه ويكسأه. وقد رأينا من قبل كيف أن الإله الأوزيريسي يصور على صورة رجلين اثنين في عربة؛ واحد في المقدمة، وواحد في المؤخرة، أي واحد يكسع الآخر ويكسأه. فآدم هو أوزيريس بمظهريه، ومظهره الشتوي هو (آدم كسيا) أو (آدم الكسعة).

وعليه، فالحسح الذي أتانا به ابن النديم هو ذاته (آدم الكسيا) أي آدم المتأخر أو التابع. وهو ذاته الكسعة العربي. بذا فنحن لا نتحدث عن شخص محدد حين نتحدث عن (الكسيا) بل نتحدث عن كاهن يمثل إلها بهذا الاسم. إنه ينطق باسمه ويأخذ الوحي منه. وهذا ما يجعلنا نشك في أن الشخص الذي يدعى السبيادس أو الكِبيادس Alcibiades ربما كان هو الآخر على علاقة بهذا الإله. أي أننا لا نتحدث عن شخص بهذا الاسم، بل عن رتبة كهنوتية ما. ولعل الاسم نفسه ليس في الأصل يونانيا. ذلك أن (القبّاضة) في العربية تعني الحمار الذي يقود عانة الحمر الوحشية. يقول لسان العرب: (القَبّاضة الحمار السريع الذي يقبِض العانةَ أي يعجلها؛ وأنشد لرؤبة:

أَلَّفَ شتى لَيس بالرّاعِي الحمِق قَبّاضة بيـن العنيف واللَّبِـق).

فهل يكون لاسم الكِبيادس على علاقة بالقباضة؟!

twitter @baghdad_library

فصل 6

بلاطة بلعمة

(الأبناء يلتقطون حطبا والآباء يوقدون النار والنساء يعجنّ العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات)

سفر إرميا

لدينا من خربة بلعمة، على أبواب مدينة جنين في فلسطين، حفر مدهش على بلاطة صغيرة اكتشفت بعد منتصف التسعينيات، يلقي ضوءا قويا جدا على ديانة مكة في الجاهلية، بل ويربط بشكل مباشر بينها وبين ديانة الأهرام المصرية. ذلك أن ديانة مكة، بصنميها مطعم الطير ومجوز الرياح، وبثالوثها (اللات والعزى ومناة)، اختصار لأسطورة المنطقة كلها.

البلاطة تختصر هذه الأسطورة بالصورة المحفورة لا بالكلمات. وهي فيما نظن ليست بذات قيمة فنية كبيرة، لكن قيمتها الميثولوجية هائلة حسب اعتقادنا. غير أن هذه القيمة لم تبرز لأن البلاطة لم تحظ بعد بالاهتمام اللازم، بسبب عدم فك شفرتها. فلم يكتب عنها سوى نصف صفحة في تقرير عن الحفريات في نفق بلعمة. غير أن فك شفرة الحفر على البلاطة سيؤدي إلى أنها ستعتبر مستقبلا واحدة من أهم الكشوفات الأثرية في المنطقة جميعها.

عثر على البلاطة في القسم العلوي من نفق بلعمة، بين أشياء تنتمي للعصر الروماني والعصر البيزنطي المبكر. طولها ٣٠ سم، وعرضها ١٩ سم، وسمكها ٨ سم. أما ما على البلاطة فيعرضه الدكتور حمدان طه كما يلي: التصوير واضح إلى حد كبير. الشكلان الأساسيان فيه هما: رجل بملابس مدنية مع أداة طويلة في يده اليسرى، وقطف عنب في يده اليمنى، وحصان يقفز أو ينهض مع عدة لجام على رأسه (وبحبل لجام وريش طقسي على رأسه، لكنه من دون سرج). الشكلان يبدوان جزءا من مشهد واحد، بدليل

اتجاه الحصان والعنب الذي يرفع أمام فمه. الأشكال الأخرى لملء الفراغ، لكن يتوقع أن يكون لها دور آخر أيضا. من اليسار لليمين هذه الأشكال هي: شيء غير واضح يشد اللجام، سكين، مقدمة بيت أو برج أو صندوق «إلخ». تحت قطف العنب ثمة دائرة ما، وشيء غير واضح يشبه درعا في بعض أنواع الفن الروماني. عند طرف اليد اليمنى: نجمتان مثمنتان، وتحت ذراع الرجل جزء غير محدد من صورة أكبر، ربما كان مقدمة طائر.[1]

النجمة الثالثة الضائعة

ولنبدأ بالنجمتين إلى يمين المشاهد.

نعتقد أن النجمتين في الأساس جزء من تصوير لحزام الجوزاء، أو حزام أوريون كما يدعى عند اليونان: وهذا يعني أنه كانت هناك نجمة ثالثة تحت النجمتين في القسم المكسور من البلاطة. النجمة الثالثة يجب أن تكون أصغر قليلا من النجمتين الظاهرتين، وأبعد إلى الأسفل، وتميل قليلا عن محورهما المشترك. ونجوم الحزام الثلاثة هي: النطاق، النيلام، والمنطقة. هذه النجوم تمثل الميزان الكوني ذي النغمات الثلاث؛ الصيف والشتاء، ثم فصلي الاعتدال والتعادل، أي الربيع- الخريف. والنغمات الثلاث هن مثيلات اللات والعزى ومناة.

هذه هي فرضيتنا المركزية التي توصلنا إليها في الفصول السابقة. وما يؤيد هذه الفرضية هو الأشياء الثلاثة تحت يد الرجل اليمنى. هذه الأشياء الثلاثة تعادل النجوم الثلاثة. وهي من الأعلى إلى الأسفل، كما نراها نحن:

١- عنقود عنب

٢- دائرة، كعكة

٣- سنبلة قمح

وهذا يعني أننا لا نوافق الدكتور طه على أن الشيء الثالث هو درع روماني أو ما يشابهه. إنه رسم واضح لسنبلة قمح مؤسلبة. الموضوعات الثلاثة تمثل النجوم الثلاثة، أو تمثل فعالياتها. كل نجمة تتمثل بواحد من الأشياء هذه.

وانطلاقا ممَّا عرضناه حول صنمي مكة (مجوز الريح ومطعم الطير) فإنه يمكن فهم الموضوعين الأول والثالث بسهولة. فقد توصلنا إلى أن (مجوز الريح) تعني: ساقي

twitter @baghdad_library

الخمر، وهو يمثل النغمة الخمرية الصيفية. هذه النغمة تتمثل بعنقود عنب نراه في يد الرجل، وهو يمثل النجمة العليا. أما مطعم الطير، وهو يمثل النغمة الشتوية القمحية الخبزية، فيماثله في بلاطة بلعمة الموضع الثالث، أي سنبلة القمح، التي تمثل النجمة الثالثة السفلى التي غيبها الكسر. من أجل هذا يعمل الناس عندنا البربارة، أي طبخة القمح المسلوق، مع الانقلاب الشتوي، أي قبل أيام قليلة من عيد الميلاد. النغمة الأولى الصيفية الخمرية الفيضية هي اللات، والنغمة الثالثة الشتوية هي مناة:

العنقود= مجوز الريح= النغمة الخمرية= الصيف= النجمة العليا= اللات

السنبلة= مطعم الطير= النغمة القمحية = الشتاء = النجمة الثالثة= مناة

أما الموضوع الأوسط، الحد الأوسط، فيمثل النجمة الوسطى، التي هي مثيلة العزى، ومثيلة إيزيس كما سنرى لاحقا، نغمة التعادل الربيعية- الخريفية. ويرمز لها في بلاطة بلعمة بالكعكة الدائرية. وقد كان يرمز للإلهات الشبيهات بإيزيس بالكعكة. وفي سفر إرميا جاء في وصف ما كان يجري في القدس في أيام هذا النبي: (الأبناء يلتقطون حطبا والآباء يوقدون النار والنساء يعجنّ العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات).[٢] ملكة السماء إلهة من طراز إيزيس- العزى. والكعك الدائري رمزها. والعذراء مريم، شبيهة إيزيس، كان لها عباد مغالون يدعون بالفطائريين، وكانوا يقدمون لها طرازا من الفطائر الدائرية الشكل. وفي بلاطة بلعمة فإن الدائرة بين العنب والقمح تمثيل لهذا الكعك، ورمز لهذه الإلهة.

ويخبرنا بلوتارخ أن أنوبيس، ربيب إيزيس وابن أختها، الذي تحول إلى ابن لها، هو في الواقع دائرة. (عندما ولدت نفتيس أنوبيس، عاملت إيزيس الطفل كابنها هي؛ لأن نفتيس هي ما هو غير مرئي وتحت الأرض، في حين أن إيزيس هي ما هو مرئي وفوق الأرض. والدائرة التي تمس هاتين تدعى الأفق، ولأنه على علاقة بالأمرين فقد أخذ اسم أنوبيس، وتمثل بشكل في شكل يشبه الكلب؛ لأن الكلب يستطيع أن يرى بعينيه في الظلمة والنور بشكل متشابه).[٣]

من الواضح هنا أن أنوبيس دائرة، دائرة تجمع بين نفتيس وإيزيس، بين الظلمة والنور. لذا فليس غريبا أن تبدو إيزيس في نقش بلعمة كدائرة. ذلك أن الأم وابنها يؤخذان معا دوما. هما معا كدائرة. وهكذا يمكن رسم الجدول التالي:

العنقود = مجوز الريح = النغمة الخمرية = الصيف= النجمة العليا = اللات
الكعكة = مقة-مكة =نغمة الاعتدال = الربيع= نجمة النيلام = العزى
السنبلة = مطعم الطير = النغمة القمحية = الشتاء = النجمة الثالثة = مناة

إذن فالنجوم الثلاثة في بلاطة بلعمة هي مثيلة (الغرانيق العلى) العربية في مكة. والغرانيق هن: اللات والعزى ومناة، وهن أيضا نجوم حزام الجوزاء. النجمة الأولى، نجمة النطاق، تجسيد اللات. النجمة الثالثة، نجمة المنطقة، تجسيد لمناة. والنجمة الوسطى، نجمة النيلام، تجسيد للعزى.

النجمتان الأولى والثانية، النطاق والمنطقة، هما في النهاية المظهران الصيفي والشتوي للإله الذكر. من أجل هذا يتشابه اسماهما (نطاق ومنطقة). وهذا الإله أوزيرسي الطابع. أو قل إنه أوزيريس ذاته. أما النجمة الوسطى فهي تجسيد للعزى-إيزيس التي يقدم لها الكعك، مثلها مثل مريم العذراء. أي أننا في النهاية أمام إلهين هما أوزيريس وإيزيس.

الطائر والحية

وهناك أسفل النجمتين، مع ميل قليل إلى يسارنا، بقية جسم، يعتقد الدكتور طه أنه مقدمة طائر. وهذا ما يتوافق مع أسطورة مكة قبل الإسلام تماما. فهي تخبرنا أن مظهري الإله الذي نتحدث عنه، أي مظهريه صيفا وشتاء، هما اللذان يتمثلان بالخمر والقمح، يتمثلان أيضا بطائر من جهة، وهو المكاء، وبحية أو حمار من جهة أخرى. المظهر الصيفي، أي النغمة العليا، يتمثل بطائر، لأن الطائر يطير في الأعالي، أو يقف على قمة شجرة الكون. أما المظهر الشتوي، أي النغمة الواطئة، فيتمثل بحية بفحيحها، أي بنغمة القرار المنخفضة للكون. لكن هذه الحية مرتبطة دوما بحمار، بحيث يحل أحدهما محل الآخر، ربما لأن شحيج الحمار يذكر بنغمة قرار واطئة مثله مثل فحيح الحية. هذا الحمار هو حمار ذي بكة، أو حمار الأبك الذي عرفناه في عبادة مكة: جربة مـن حُـمر الأبك/ لا ضرع فيها ولا مذكي.

وها نحن في بلاطة بلعمة أيضا أمام طائر وحمار. طائر إلى يسار الرجل، وحمار إلى يمينه. وهما يرمزان إلى المكاء والتصدية اللذين ورد ذكرهما في القرآن: (وما كان

twitter @baghdad_library

صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)، أي النغمة الصيفية العليا للكون، والنغمة الشتوية الدنيا المضادة.

طبعا هذا يعني أننا لا نتفق مع الدكتور طه في أننا أمام حصان لا حمار. نحن نعتقد أن الشكل في الصورة هو حمار. يدل على ذلك حجم الأذنين ووضعهما. وسياق الأسطورة يدفعنا إلى القول بأنه حمار.

أهرام ثلاثة؟!

لكن، يظل علينا أن نتحدث عن الأشكال الثلاثة الغريبة، التي تضع نفسها في أعلى يسار البلاطة، في المسافة التي تقع بين ذراع الرجل وظهر الحمار. هذه الأشكال شديدة الغموض. ويكاد المرء حين يقف أمامها أن ييأس من الوصول إلى معناها.

فما هي هذه الأشكال؟ وما الذي تعنيه؟

يعزل الدكتور طه الشكل الأبعد منها إلى يسار الناظر عن أخويه، معتقدا أنه شيء مرتبط برسن الحمار، أو لجام الحصان في رأيه. في حين يرى أن الاثنين الآخرين هما: سكين، مقدمة بيت أو برج أو صندوق؟

سكين، بيت، أداة مربوطة برسن؟ ما علاقة كل هذا بالأسطورة التي يقدمها النحت؟! كأن هذه الأشياء وضعت لتشويش المشهد فقط! فهل من طريقة لفهمها لإدماجها في المشهد الأسطوري؟

للإجابة عن هذا السؤال نضع الفرض التالي: إنها، أي الأشكال الثلاثة، تشكل وحدة واحدة. أي أنها يجب أن تؤخذ معا، لا أن يُعزل واحد منها عن أخويه.

إذا قبلنا بهذه الفرضية فنحن أمام ثالوث جديد، يضاف إلى الثالوثين الآخرين المعروضين أمامنا على البلاطة، مهما كانت رؤيتنا للأشكال الثلاثة:

الأول: النجوم الثلاثة على يمين الناظر- بالطبع فقدت واحدة منها بسبب الكسر.

الثاني: العنب، الكعكة- الدائرة، وسنبلة القمح.

الثالث: الأشكال الثلاثة الغامضة التي نتحدث عنها.

وإذا صحت الفرضية، أي إذا صح أننا أمام ثلاثة أشكال تمثل مجموعة مترابطة، أي ثالوثا، فمن المنطقي أن يكون هناك رابط بين هذه الأشكال وبين الثالوثين الآخرين. أي أن الرقم ثلاثة هنا ليس مصادفة. فنحن أمام نظام ثلاثي يقع في جوهر الأسطورة التي

تصوره البلاطة. عليه، فالأشكال الثلاثة الغامضة على علاقة بالنجوم الثلاثة وبالأشياء الثلاثة. أي أن هذه الأشكال تناظر النجوم والأشياء الثلاثة.

وقد تأكدنا سابقا من وجود رابط بين النجوم الثلاثة وبين الأشياء الثلاثة (العنب، الكعكة، والسنبلة). فكل واحد من الأشياء مرتبط بنجم محدد ليمثل فعاليته الفصلية.

لكن السؤال هو: ما الذي يربط سكينا وواجهة بيت وأداة تشبه المنجل بالنجوم والأشياء الثلاثة سوى الرقم ثلاثة؟



بلاطة بلعمة: أسطورة المنطقة محفورة على حجر صغير من فلسطين

الإجابة ربما تكون في أن هذه الأشكال الثلاثة تبدو قريبة من شكل أشكال الأهرام. وبما أننا نتحدث عن ديانة أوزيريسية، أي عن ديانة أهرام في نهاية الأمر، فإن هذه الملاحظة تصبح ذات معنى. فلن يكون مصادفة أن يتبدى بعض هذه الأشكال على الأقل كأهرام.

ولنبدأ بهذه الأشكال واحدا واحدا من اليمين إلى اليسار. ولنأخذ الشكل الذي رأى فيه الدكتور طه برجا أو مقدمة بيت أو صندوقا. إنه يشبه بوضوح رسما لهرم. فلدينا قاعدة مربعة أقيم مثلث على ضلعها العلوي في الرسم. وما الهرم سوى مثلث، أو مثلثات، ينهض على قاعدة مربعة. أما الشكل الذي قربه، والذي يبدو كسكين، فقد يرى

twitter @baghdad_library

كهرم مطروح على جانبه. فهناك قاعدة مربعة صغيرة ينهض عليها مثلث طويل. وهكذا صار لدينا شكلان من الأشكال الثلاثة قد يبدوان كهرمين.

لكن ما الشيء الذي داخل مربع الهرم الأول، والذي قد يوحي بباب أو شباك؟ ربما يكون هذا الشكل هو الدليل الأقوى على أننا هنا أمام رسم هرم. فحتى لا يخطئ المشاهد في فهم هذا الشكل، وفي فهم الشكلين الآخرين ربما، وضع النحات ما يشبه مربعا صغيرا غير متقن التنفيذ تنطلق من زواياه أشعة تتجه نحو زوايا المربع، لكنها لا تصلها. ولو مددنا الأشعة إلى أن تصل الزوايا لصار لدينا ما يشبه الهرم منظورا إليه من أعلى. وهذا يعني أن المربع وضع هنا كي يجعلنا نحس بالعمق والارتفاع. وضع هنا كي يقول لنا إن هذا ليس مربعا عاديا بل قاعدة هرم ترتفع إلى الأعلى. المربع الصغير إذن قمة الهرم منظورا إليها من أعلى. أو قمة مقطع عرضي منظور إليه من الأعلى. وحجم هذا المربع مقارنة بالمربع الأصلي يقول لنا إن القاعدة ترتفع وتصغر كلما صعدت إلى الأعلى. بالطبع، لم يكتف النحات بذلك بل رسم لنا المثلث على الضلع العلوي كي ندرك أننا أمام هرم. الشكل، إذن، رسم توضيحي لهرم، أعطانا إياه النقاش كي ندرك معنى الشكل أمامنا، ومعنى الشكلين الباقيين، أي كي لا نعتقد أنهما يمثلان سكينين أو ما شابه.

يتبقى الشكل الثالث الغريب والأشد غموضا من بين الأشكال الثلاثة. وفي البدء يجب القول أنه لا يوجد في رأينا أي رابط بين حبل رسن الحمار وبين هذا الشكل. فالرسن يرتد على جانبي عنق الحمار مشكلا بوضوح نصف دائرة. ثم تلف ما في الحجر أسفل الشكل الذي نحن بصدده ربما يكون هو الذي أوحى بارتباط الشكل بالحبل.

من ناحية ثانية، وقبل أن نتمعن في الشكل ذاته، يجب أن نشير إلى أن هذا الشكل مع الشكل الذي يبدو كسكين يتموضعان كما يتموضع نجما النطاق والمنطقة في نجوم حزام الجوزاء. الشكل الغامض يأخذ هنا موقع نجم النطاق؛ لذا فهو الأكبر حجما، والشكل السكيني يأخذ شكل نجم المنطقة، لذا فهو الأصغر حجما. كذلك فإن الشكل السكيني ينحرف إلى اليسار قليلا عن محور الشكل الغامض الذي نتحدث عنه. وهو يفعل ذلك بالضبط كما يفعل نجم المنطقة مع نجم النطاق. فنجم المنطقة ينحرف قليلا إلى اليسار عن المحور الذي يقوم عليه نجما النطاق والمنطقة.

الشكل الثالث أشد الأشكال غرابة. لكن المرء قد يجد فيه قربا ما من الهرم. فلدينا قاعدة مستطيلة - بدل أن تكون مربعة- ينهض على واحد من طرفيها إلى الأعلى شكل أراد فيما يبدو أن يكون مثلثا فانحنى بسبب عدم ثبات يد النحات فيما يبدو. فهو كما

افترضنا نحات شعبي متواضع. والمشهد المحفور كله يشهد على أننا أمام نحات شعبي، نحات ساذج (نايف). وقد لاحظ الدكتور حمدان طه أن النحات أعاد تصحيح جانب من خط عنق الحمار بعد أن بدا له أنه ليس سليما. وهذا يدلل على عدم تمكنه من فنه، الأمر الذي جعلنا نقول إننا مع بلاطة بلعمة أمام تحفة ميثولوجية لكننا لسنا أمام تحفة فنية بالتأكيد. القيمة الفنية للحفر ليست كبيرة. لكن القيمة الميثولوجية هائلة. وهي تضع بلاطة بلعمة على مستوى الكشوفات الكبرى في فلسطين والمنطقة.

ويمكن لنا أن نقترح أيضا أن النحات كان ينفذ تقليدا، ربما لم يكن، أو أنه في الغالب لم يكن، يدرك رموزه. كان فيما يبدو ينحت أشياء لا يدرك معناها. وهذا ليس غريبا. فما زلنا نرى حتى اليوم نحاتين شعبيين ينفذون نحتا غائرا أو ناتئا ولا يدركون مغزاه الديني الميثولوجي. فهم ينحتون دوالي أو نباتات أو نجوما من دون أن يدركوا أنها رموز محددة. ولأن النحات يصور تقليدا دينيا قديما بدأ مغزاه يطمس، أو لم يعد واضحا لا له ولا لمن نفذ له الحفر. خذ مثلًا الأشياء الثلاثة. فليس هناك دقة في وضع الدائرة. فتبعا للميثولوجيا يجب أن يكون العنصر الأوسط، الذي يعادل نجم النيلام، أكبر من الحد الأول والثالث. فنور نجمة النيلام في السماء مثلًا أكثر ضوءًا من نجم النطاق. وسوف نرى ذلك بتفصيل في فصول لاحقة. وهذا ما فعله النحات في البلاطة. فقد جعل الدائرة، أي الحد الأوسط، فهي أكبر من قطف العنب، وأكبر من السنبلة، وحتى بشيء من المبالغة. لكنه من ناحية ثانية لم يضع هذه الدائرة في مكانها الصحيح. فقد كان من المفترض أن تكون على المحور ذاته مع قطف العنب، كما هو الحال مع نجمة النيلام مع نجمة النطاق. لكن الرسام أخرجها عن المحور وجعلها أكثر مما يجب على يميننا. ويبدو لنا أن عدم براعة النحات، وضمور التقليد في أذهان الناس وقتها جعل هذا الانحراف ممكنا. وقد فعل النحات ذلك مع الحد الأوسط في الأشكال الهرمية الغامضة. فقد جعل الهرم الذي يبدو كصندوق أو شباك أعرض بكثير من الآخرين.

ويهيأ لنا أن النحت وضع لبيت ليس ثريا، أو أنه كان وليد فترة كان فيها الوضع الاقتصادي والسياسي لبلعمة سيئا، إذا كان النقش قد صنع فعلا ليوضع في بناية عامة. فمثل هذا العمل لا يدل على الثراء والهيبة.

إذن، نحن فيما يبدو أمام أهرام ثلاثة. وهكذا يكتمل المشهد. فنجوم حزام الجوزاء تتمثل معماريا بأهرام ثلاثة في الجيزة كما اكتشف بوفال منذ بدء تسعينيات القرن الماضي. أي أن الأهرام الثلاثة توازي النجوم الثلاثة مثلها مثل الأشياء الثلاثة.

twitter @baghdad_library

لكن ترتيب الأهرام الثلاثة مضطرب وغريب. فقد كان على صف الأهرام أن يكون مثل صف النجوم. غير أن الأهرام الثلاثة لا تصطف كما هو الحال مع النجوم الثلاثة والأشياء الثلاثة. أو قل إن اثنين من الأهرام الثلاثة، أي الهرم الذي يشبه السكين والهرم الغريب الغامض، يصطفان اصطفاف نجمي النطاق والمنطقة. يتموضعان كما يتموضع هذان النجمان. الهرم الغامض إلى اليسار يتموضع كما يتموضع نجم النطاق. والهرم- السكين يتموضع كما يتموضع نجم المنطقة. لذا فهو أصغر من أخيه بوضوح، مثلما أن المنطقة أصغر من النطاق، أي أقل إضاءة. كما أنه ينحرف قليلا عن محور أخيه، كما ينحرف نجم المنطقة عن محور نجم النطاق الذي يشترك فيه مع نجم النيلام.

الهرم الوحيد الذي يخرج من الصف، إذن، هو الهرم التوضيحي. وبما أننا عرفنا الهرمين الذين يعادلان نجمي النطاق والمنطقة، فإن الهرم التوضيحي، يجب أن يكون عديل النجم الأوسط، نجم النيلام. فلماذا حصل ذلك. لماذا خرج الهرم الأوسط من صف الأهرام؟

لا نستطيع أن نجزم القول في هذا الأمر. لكننا نستطيع أن نتكهن. فالنحات، متبعا في ذلك تقليدا قديما فيما يبدو، نفذ الهرم الأوسط الذي يشبه البيت أو الصندوق بشكل توضيحي. وحين فعل ذلك فقد تضخم حجم هذا الهرم وصار عريضا بحيث لم يعد ممكنا حشره في المساحة المتوفرة في صف الأهرام. هذا هو، على الأغلب، السبب الذي جعل الهرم الأوسط يخرج من الصف.

إذن، فنحن أمام أهرام ثلاثة. الهرم الأوسط فيها يمثل نجم النيلام، أي النجمة الوسطى في نجوم الحزام، أي نجمة إيزيس- العزى. أما الهرمان الآخران فهما عديلا النجمين الآخرين اللذين يمثلان أوزيريس في مظهرية الصيفي والشتوي. النطاق هو أوزيريس الصيفي، أوزيريس النغمة العالية، نغمة القمة. والمنطقة هو أوزيريس الشتوي، أوزيريس النغمة الواطئة، نغمة القرار. النغمة العالية يمثلها الطائر، والنغمة الواطئة يمثلها الحمار.

وهكذا أدى الرسم التوضيحي للهرم الأوسط، إذن، إلى بعثرة الصف. لكننا مع ذلك استطعنا أن نتعرف على الصف باعتباره صفا من أهرام ثلاثة= نجوما ثلاثة = أشياء ثلاثة (قطف عنب، كعكة، سنبلة).

إذن، الأسطورة التي تعرضها لنا بلاطة بلعمة هي أسطورة ديانة الأهرام. وهذه الديانة هي ديانة المنطقة بأكملها. إنها أسطورة الغرانيق العلى المكية الجاهلية، أي اللات

والعزى ومناة الثالثة الأخرى، التي تتمثل بالنجوم الثلاثة لحزام الجوزاء. هذا يعني أن مجال هذه الديانة وهذه الأسطورة هو جنوب السماء، أي برج الجوزاء، أي الجبار، أي أوريون. وأوريون- الجبار هو حورس المصري. فقد أخبرنا بلوتارخ أن المصريين كانوا يرون أن أوريون هو روح حورس. نحن إذن أمام أوريون- حورس، وأمام حزامه، حزام أوريون، الذي يمثل فصول الكون، ويمثل أيضا المبدأين المذكر والمؤنث، أي أوزيريس وإيزيس. الرجل، إذن، هو حورس المصري في أغلب الظن. هو الجبار. هو أوريون. والنجوم الثلاثة على يساره هي حزامه. والأشياء الثلاثة تحت يده هي تمثيل لهذه النجوم. أما الأهرام الثلاثة فهي رسم معماري للنظام الثلاثي نفذ على بلاطة بلعمة، كما طرح قبل خمسة آلاف سنة على أرض الجيزة في مصر.

twitter @baghdad_library

فصل 7

عبادة الشعرى العبور اليمانية

({كان أبو كبشة} يعبد الشعرى العبور لأنها تقطع السماء عرضا)

ابن الجوزي

لا يوجد أدنى شك في أن الشعرى العبور كانت واحدة من أهم معبودات الجاهلية حتى ظهور الإسلام. فقد كانت تدعى: رب الأرباب. وقد ورد ذكر الشعرى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾.[١] وكان في الآية رد على الذين كانوا يؤمنون بالشعرى من عرب الجاهلية، ويقولون إنها رب الأرباب. فالله هو الرب، والشعرى هي المربوب كما تقول التفاسير. ولم تكن الشعرى لترد في القرآن لو أن مكة لم تكن مركزا رئيسا من مراكز عبادة هذا النجم المنير المؤنث. والحقيقة أن الشعرى شعريان وليست واحده: الشعرى العبور وأختها الشعرى الغميصاء. وهما نجمان مرتبطان بنجم ثالث هو: سهيل اليماني.

والشعرى نجم ضمن مجموعة الجوزاء، أو نجوم أوريون كما تدعى في الغرب، وهي أشد نجوم هذه المجموعة لمعانا. بل إنها من ألمع نجوم السماء في واقع الأمر. دعاها اليونان باسم (سيروس)، وهو مشابه للاسم العربي (شعرى) كما هو واضح، الأمر الذي يعكس أصلا مشتركا للاسمين، في الغالب. أما المصريون فقد اعتبروها نجم إيزه (إيزيس)، وأسموها (سبدت). وبسبب ارتباط الشعرى ببرج الجوزاء فقد دعيت بـــ (كلب الجبار) عند العرب. والجبار هو الجوزاء. أما اليونان فقد دعوها باسم (نجمة الكلب). أما المصريون فقد ربطوا بين الإلهة التي تجسدها، أي إيزيس، وبين الكلب- أنوبيس.

أما الشعرى الغميصاء، أختها، فتقع ضمن مجموعة الذراع في الجهة المقابلة من نهر المجرة. يقول الرازي في مختار الصحاح: (وأحد كوكبي الذراع هي الشعرى الغميصاء. وهي تقابل الشعر العبور، والمجرة بينهما، يقال لها الغميصاء).[٢]

وتقول الأسطورة المركزية إن النجوم الثلاثة كانت إخوة، وكانت مجتمعة ثم تفرقت. يقول المرزوقي في الأزمنة والأمكنة: (كان سهيل والشعريان مجتمعة، فانحدر سهيل فصار يمانيا. ونعته العبور، وعبرت إليه المجرة. وأقامت الغميصاء لفقد سهيل حتى غمصت. والغمص ضعف ونقص).[٣]

ويضيف لسان العرب: (الشعريان؛ العبور التي في الجوزاء، والغميصاء التي في الذراع. تزعم العرب أنهما أختا سهيل. وطلوع الشعرى على إثر طلوع الهقعة.... ويقال: إنها عبرت السماء عرضا ولم يعبرها عرضا غيرها، فأنزل الله تعالى وأنه هو رب الشعرى، أي رب الشعرى التي تعبدونها. وسميت الأخرى الغميصاء؛ لأن العرب قالت في أحاديثها إنها بكت على إثر العبور حتى غمصت).[٤]

ويؤكد ابن سيدة في المخصص عن ابن دريد: (تزعم العرب في أخبارها أن الشعريين أختا سهيل، وأنها كانت مجتمعة، فانحدر سهيل وتبعته الشعرى اليمانية فعبرت البحر فسميت عبورا، وأقامت الغميصاء مكانها فبكت حتى غمصت، والعبور تراه إذا طلع فتستعبر).[٥]

غير أن الأخت زوجة في الوقت ذاته على الطريقة الملكية المصرية القديمة. يقول القرطبي في تفسيره: (إن سهيلا والشعرى كانا زوجين، فانحدر سهيل فصار يمانيا).[٦]

ولا يخفى على عين مدققة ولو قليلا الشبه الجوهري بين أسطورة الثلاثي العربي (سهيل، الشعرى العبور، والشعرى الغميصاء) وبين أسطورة الثلاثي المصري (أوزيريس، إيزيس، ونفتيس). فنحن في الحالين أمام إخوة ثلاثة، وأمام زواج إخوة. أما الغمص الذي توصف به الشعرى الغميصاء، أي الأذى الذي أصاب العين، فيتوافق مع وصف المصريين لنفتيس بأنها تمثل الظلمة كما يقول لنا بلوتارخ:

(وعندما وضعت نفتيس أنوبيس، عاملته إيزيس كما لو أنه ابنها، ونفتيس هي ما هو تحت الأرض وغير مرئي، وإيزيس ما هو فوق الأرض ومرئي، والدائرة التي على تماس بهما تدعى الأفق، ولأنها مشتركة بين الاثنتين، فقد سميت باسم أنوبيس، ومثلت في شكل كلب؛ لأن الكلب يستطيع أن يرى بعينيه في الليل والنهار معا).[٧]

نفتيس، إذن، هي غير المرئي، أي هي الغمص. أما إيزيس فهي المرئي الواضح مثل الشعرى العبور. أما علاقة الشعرى بالكلب فواضحة تماما في الأسطورة العربية. فهي (كلب الجوزاء). يقول الميمني في سمط اللآلئ: (والشعرى العبور: هي كلب الجبار، والجبار: هو الجوزاء، والذئاب تكلب عند طلوعها، وقال سنان بن ثابت بن قرة: إنما

twitter @baghdad_library

سميت العبور نجم الكلب؛ لأنها في الفم مثل صورة الكلب. وقال بقراط في كتبه: إذا طلع نجم الكلب فلا تستعمل الدواء المسهل).[٨] أما النابلسي في تفسير الأحلام فيخبرنا أن: (الكلب {في المنام} يدل على الحمى بسبب الكوكب الذي يسمى الكلب، وهو الشعرى اليمانية، التي هي علة الحميات).[٩]

أبو كبشة

ويربط كثير من المصادر العربية عبادة الشعرى بأحد أجداد النبي. يقول ابن عربي:

(وقد علمنا أن العرب كانت تعبد كوكبا في السماء يسمى الشعرى سنه أبو كبشة لهم، وتعتقد أنها رب الأرباب؛ لذلك قال تعالى: وإنه هو رب الشعرى، وهذا أبو كبشة الذي شرع في عبادة الشعرى هو من أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمه. ولذلك كانت العرب تنسب رسول الله... إليه، فتقول: ما فعل ابن أبي كبشة).[١٠] ويخبرنا ابن الجوزي في غريب الحديث أن أبا كبشة هذا كان: (يعبد الشعرى العبور لأنها تقطع السماء عرضا).[١١] ويقول لنا مصعب الزبيري في نسب قريش يقول لنا إن اسم أبي كبشة هو وجز، مؤكدا أنه من أقارب الرسول لأمه: (وجز بن غالب، وهو من خزاعة، وهو أول من عبد الشعرى، وكان وجز يقول: «إن الشعرى تقطع السماء عرضا؛ فلا أرى في السماء شيئا، شمسا ولا قمرا ولا نجما، يقطع السماء عرضا؛ والعرب تسمي الشعرى العبور، لأنها تعبر السماء عرضا).[١٢]

وهناك اختلافات حول من عبد الشعرى من القبائل. فهناك من يقول إن فزارة عبدتها إضافة لخزاعة. ويقول القرطبي في تفسيره: (وقد اختلف فيمن كان يعبده. فقال الدري: كانت تعبده حمير وخزاعة). ويضيف: (وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد في تأثيرها في العالم).[١٣] وكانت تلبية مذحج فيما يقال: لبيك رب الشعرى، ورب اللات والعزى. مما يدل على أن مذحجا عبدت الشعرى، أو أنها كانت من ضمن معبوداتها.

الطلوع في وقت الحر

ويكون طلوع الشعرى في وقت لهيب الحر، أو في وقت الانقلاب الصيفي. يقول المسعودي في التنبيه والإشراف متحدثا عن مذاهب الناس في بدء السنة الشمسية:

(ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الصيفي؛ لأنه الوقت الذي فيه كمال طول النهار وأن مدة النيل بمصر فيه يكون وفيه تطلع الشعرى اليمانية التي تقطع السماء عرضا).(١٤) وهذا هو الجوهري. فطلوعها هو بدء السنة الشمسية وإيذان بفيضان النيل.

ويضيف المرزوقي في الأزمنة والأمكنة: (ونوء الشعرى بشدة الحر).(١٥) ويقول الآبي في نثر الدرر: (ثم تطلع الشعرى الغميصاء، وهي الذراع. وطلوعها لخمس يمضين من تموز... وذلك أشد بوارح القيظ سموما.... وهي أشد الوغرات. وهي التي يعطش فيها الإنسان بين البئر والحوض. ثم طلعة النثرة والشعرى العبور لثمانية عشر من تموز، وذلك أشد ما يكون الحر التهابا).(١٦)

وطلوع الشعرى يتبعه طلوع سهيل زوجها وقرينها. يقول لسان العرب:

(العذرة نجم إذا طلع اشتد غم الحر. وهي تطلع بعد الشعرى. ولها وقدة ولا ريح لها، وتأخذ بالنفس، ثم يطلع سهيل بعدها).(١٧) ويتوافق طلوعها مع شهر أبيب المصري. فهي تطلع في السادس والعشرين منه. وقيل في الرابع والعشرين. وأبيب هو وقت الانقلاب الصيفي عند المصريين قديما. ففيه يبدأ النيل بالارتفاع، وتأخذ الثمار في النضوج. وطلوع الشعرى قبل سهيل مسألة مهمة سوف نناقشها لاحقا.

وبسبب طلوع الشعريين في الحر، وبسبب ضوئهما، وعلى الأخص ضوء العبور، فقد سميتا: المشبوبتين. يقول ابن خفاجة:

تتلهب الشعرى بها فكأنها   في كف زنجي الدجى دينار.

وقال آخر:

وأوقدت الشعرى مع الليل نارها   وأمست محولا جلدها يتوسف.

وقال أشجع:

تغلي إذا ما الشعريان تلظيا   وتسكن في طلوع المرزم.

لكن هذا اللقب يحمل، إضافة إلى الحر، طابعا جنسيا أيضا. فهما إلهتا حب وجنس مشبوبتين.

ولأن الشعرى تطلع في عز الحر فإن لها ارتباطا بنضوج الثمر، والنخل على وجه الخصوص. يقول القلقشندي عن أبيب الشهر الذي تطلع فيه الشعرى: (وفي التاسع والعشرين منه يدرك نخل الحجاز).(١٨) والتاسع والعشرون من أبيب يتوافق مع الثاني والعشرين من تموز، وهو وقت طلوع الشعرى في وقت هذه المقتبسات. أما الآن فهي

twitter @baghdad_library

تطلع في أوائل آب كما يقول لنا الفلكيون. فموعد طلوعها يتغير حسب ظاهرة ترنح الكرة الأرضية. لكنها مع ذلك تظل تبزغ بعد غيابها في عز الحر.

ويزيد المقريزي في الواعظ والاعتبار عن أبيب: (وفيه يكثر العنب...وتقوى زيادة ماء النيل. فيقال: في أبيب يدب الماء دبيب... وفيه تدرك ثمرة العنب).[١٩] ودبيب الماء له علاقة بأن بزوغ الشعرى يؤذن بفيضان النيل؛ لذا فطلوعها هو ما يجلب فيضان النهر المخصب عند قدماء المصريين. ويقول الطبري: (وكتب عمر إلى سعد بن مالك وإلى عتبة بن غزوان أن يتربعا بالناس في كل حين ربيع في أطيب أرضهم... وبإعطائهم في المحرم من كل سنة، وبفيئهم عند طلوع الشعرى، وذلك وقت إدراك الغلات). ويقول المرزوقي في الأزمنة والأمكنة: (إذا طلعت الذراع، وفيها الشعرى، أدرك الرمان)[٢٠]

وإذ ترتبط بالماء والفيضان، فإنها هي من يحدد خصب الزراعة. يضيف المرزوقي في الأزمنة والأمكنة: (ويؤخذ لوح قبل أن تطلع الشعرى بتسع ليال، فيزرع عليه من كل صنف، حتى إذا كان ليلة تطلع الشعرى وضع ذلك فوق بيت على مكان مرتفع لا يحول بينه وبين السماء شيء. فما أصبح منه مخضرا فإنه يصلح بإذن الله).[٢١]

إنها نجم الخصوبة. فما أشارت إلى اخضراره اخضر بإذن الله.

الشعرى عند غير العرب

وكان العرب يدركون أن الشعرى معبودة واسعة الانتشار فيما يبدو. لدينا نص من (الحميري) في الروض المعطار في خبر الأقطار، يتحدث فيه عن عبادة الشعرى العبور في العهد الروماني في الجزائر:

(قسنطينة: حصينة في غاية المنعة والحصانة. لا يعلم بإفريقيا أمنع منها...فإنها على جبل عظيم من حجر صلد، قد شق الله تعالى ذلك الجبل فصار فيه خندق عظيم يدور بالمدينة من ثلاثة جوانب. ونهرها الكبير يدخل في ذلك الخندق ويدور بالمدينة فيسمع لجريانه في ذلك الخندق دوي عظيم هائل وصوت مفزع. وقد عقد الأولون على هذا الجبل قنطرة عظيمة طبقات بعضها فوق بعض، وعليها الدخول إلى باب المدينة. وهي متصلة الباب. وقد بني على طرف من القنطرة مما يلي باب المدينة بيت على أقباء يسميه أهل المدينة العبور، يعنون الشعرى العبور؛ لأنه معلق في جو السماء. فإذا كنت في وسط هذه القنطرة تعبر إلى الضفة الثانية فتظن أنك تطير في الهواء).[٢٢]

ولسنا نرى إن كان ما يقدمه الحميري تقريرا واقعيا أم تقريرا ميثولوجيا. وظني أنه أقرب إلى التقرير الميثولوجي. ولو كان تقريرا واقعيا فهذا يعني أن بناء المعبر فوق النهر كان يريد تقليد أسطورة الشعرى. ففيه، أي التقرير، أغلب عناصر أسطورة الشعرى: نهر، معبر على النهر وعبور عليه، بيت على أقباء هو بيت الشعرى، تحليق في الهواء! وحكى القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد أن قوما من الترك كانوا يعبدونها ويسمونها رب الأرباب كالعرب: (جكل: هم قوم من الترك... يعبدون سهيلا والجوزاء وبنات نعش، ويسمون الشعرى اليمانية رب الأرباب).(٢٣)

والحقيقة أن نص القزويني يحدد مسرح عبادة الشعرى بكامله. فهذه العبادة تشمل: الشعرى، وسهيلازوجها، كما تشمل برج الجوزاء الذي تعتبر الشعرى جزءا منه، والذي يعتبر سهيل على طرفه أو منه. هذا إضافة إلى ما يقابل هذا القسم في السماء الشمالية: أي بنات نعش.

الشعرى الشافية

يرتبط ظهور الشعرى بانتشار الأمراض. لكنها هي شافية هذه الأمراض أيضا. يخبرنا النابلسي في تعطير الأنام: (والكلب يدل على الحمى بسبب الكوكب الذي يسمى الكلب وهو الشعرى اليمانية التي هي علة الحميات).(٢٤) ومعروف البيت الشعري الذي يقول:

ولا تذهب الشعرى العبور بماله　　　ولا الكوكب الدري خـل نجوم

فالأصل أن الشعرى تذهب بالمال، أي بالدواب. وينقل لنا ابن هشام في سيرته نقلا عن سيرة ابن إسحق حديثا يتعلق باهتداء سلمان الفارسي للإسلام، ربما يكون على علاقة بالشعرى وطاقتها الشفائية:

(قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، قال: حدثني من لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان، قال : حدثت عن سلمان الفارسي: أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أخبره خبره: إن صاحب عمورية قال له: إئت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلا بين غيضتين، يخرج في كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزا، يعترضه ذوو الأسقام، فلا يدعو لأحد منهم إلا شفي، فاسأله عن هذا الدين الذي تبتغي، فهو يخبرك عنه. قال سلمان: فخرجت حتى أتيت حيث وصف لي، فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هنالك، حتى خرج لهم تلك الليلة، مستجيزا من إحدى الغيضتين إلى الأخرى، فغشيه الناس بمرضاهم، لا يدعو لمريض إلا شفي،

twitter @baghdad_library

وغلبوني عليه، فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التي يريد أن يدخل، إلا منكبه. قال: فتناولته، فقال: من هذا ؟ والتفت إلي، فقلت: يرحمك الله، أخبرني عن الحنيفية دين إبراهيم. قال: إنك لتسألني عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم).[٢٥]

يتحدث النص هنا عن رجل يخرج مستجيزا، أي عابرا، من غيضة إلى غيضة، أي مثلما كانت تعبر الزباء من شرقي الفرات إلى غربيه، كما سنرى، وكما كانت تعبر بلقيس من جنتها في ذات الشمال إلى جنتها ذات اليمين كما نفترض، في موعد محدد مرة واحدة في العام. هذا الموعد هو موعد الانقلاب الصيفي، الذي يتحدد بظهور الشعرى-إيزيس، في أغلب الظن. يؤكد ما نقول أنه عند عبور هذا الرجل، الذي هو كاهن الشعرى- إيزيس كما نفترض، (يعترضه ذوو الأسقام) طلبا للشفاء. وهذا يتوافق تماما مع ما نعرفه عن الشعرى. فطلوعها مرتبط بأمراض الصيف، لكنها، أي الشعرى- إيزيس، هي الشافية الأولى من الأمراض. بل إنها هي من (اكتشف الدواء) حسب ما يخبرنا ديودورس في:عن إيزيس وأوزيرس.

لكن هناك احتمالا ضئيلا لأن يكون الكاهن هذا هو كاهن أوزيريس، وأن عبوره تمثيل لعبور أوزيريس من الشتاء إلى الصيف. أوزيريس أيضا مسؤول عن حميات الصيف وعن الشفاء منها.

الشعرى والناقة

ويبدو أن الناقة كانت حيوان الشعرى في الجزيرة العربية. ذلك أن سهيلا زوجها مرتبط بالجمل. فهو يدعى (الفحل)، أي الجمل الذكر. يقول الزبيدي في تاج العروس:

(الفحل: سهيل، هكذا تسميه العرب على التشبيه لاعتزاله النجوم، كالفحل من الإبل فإنه إذا قرع الإبل اعتزلها، كذا في الصحاح، وفي الأساس: يقال: أما ترى الفحل كيف يزهر، يراد سهيل، شبه في اعتزاله الكواكب بالفحل إذا اعتزل الشول بعد ضرابِه... وقال ذو الرمة:

وقد لاح للساري سهيل كأنـه قريع هجان دس منه المساعر).[٢٦]

ويقول الجوهري في الصحاح: (والعرب تسمي سهيلا الفحل، تشبيها له بفحل الإبل، لاعتزاله النجوم؛ وذلك أن الفحل إذا قرع الإبل اعتزلها).[٢٧] ويضيف ابن دريد في جمهرة اللغة: (والعرب تسمي سهيلا الفحل، تشبهه بفحل الإبل لاعتزاله عن النجوم وعِظَمِه؛ لأن الفحل يعتزل الشول إذا قرعها فيكون منها حجرة).[٢٨]

والحق أننا لسنا أمام تشبيه أو مجاز، بل أمام حقيقة دينية يتبدى فيها سهيل الإله كجمل. أكثر من ذلك فإن التشبيه عموما بقايا طقس وبقية أسطورة. وما لم ننتبه إلى ذلك فإننا لن نفهم التشبيهات والاستعارات القديمة. ذلك أنها متحجرات أسطورية.

وإذا كان سهيل في الجزيرة العربية جملا فمن المنطقي أن تكون زوجته الشعرى ناقة. وتعلمنا المصادر العربية أنه يتم فصل وليد الناقة عن أمه عند طلوع سهيل، ويدعى حينها (فصيلا). يقول لنا الزبيدي في تاج العروس عن الشول: (قيل: الشول من الإِبِل: التي نقصت ألبانها، وذلك إذا فصِل ولها عند طلوعِ سهيل، فلا تزال شولا حتى يرسَل فيها الفحل).[٢٩] يضيف الصاحب بن عباد في المحيَط في اللغة: (والفصيل الذي فصل عن أمه عند طلوع سهيل).[٣٠] ويزيد المرزوقي في الأزمنة والأمكنة:

(قال الكلابي: إذا طلع سهيل من آخر القيظ ثم لأول ما لقح من المخاض عشرة أشهر فسميت العشار، وانقطع عنها ذكر المخاض. وقول الساجع: طلع سهيل. وبرد الليل، وللفصيل الويل. ويروى: ولأم الفصيل الويل). وفي مكان آخر ينقل السجع على النحو التالي: (وقيل أيضاً: إذا طلع سهيل طاب الثرى وحار الليل، وكان للفصيل الويل، ووضع كيل، ورفع كيل).[٣١]

أما الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء فينقل عن الأصمعي: (قال الأصمعي: وتقول العرب إذا طلع سهيل: طاب الليل ورفع الكيل وللفصيل الويل أي رفع كيلِ الحنطة وجاء كيل التمر وخل لسان الفصيل أي منع من أمه. والأعرابي إذا رأى سهيلاً لطم عين فصيله وقال مالك عندي قطرة).[٣٢]

ويزيدنا لسان العرب: (اللطيم: الصغير من الإبل الذي يفصل عند طلوع سهيل، وذلك لأن صاحبه يأخذ بأذنه ثم يلطمه عند طلوع سهيل، ويستقبله به، ويحلف ألّا يذوق قطرة لبن بعد يومه ذلك)، ويضيف عن الجوهري (اللطيم: فصيل إذا طلع سهيل أخذه الراعي، وقال له: أترى سهيلا؟ والله لا تذوق عندي قطرة، ثم لطمه ونحاه).[٣٣]

وعليه، فعند طلوع سهيل يمنع الصغير عن ضرع أمه، ويلطم كي يفهم بأن وقت الحليب قد انتهى. فطلوع سهيل يفصله عن أمه، أي يحوله إلى فصيل. والسبب أن أمه الناقة تنتظر الوصال الجنسي، بعد أن ظهر سهيل في الأفق. سهيل الفحل يأتي كي يقرع الشول، ويلطم الفصيل على عينه كي يبتعد عن أمه. ذلك أن ابتعاده عنها ضرورة لحملها الجديد. فالرضاعة طراز من منع الحمل؛ لذا يجب وقفها. أكثر من ذلك فإن الوصال الجنسي قبل ظهور سهيل أمر غير مقبول. إنه في الواقع زنا. إذ أن الذكر سهيل هو من يحدد وقت الوصال الجنسي. يقول لنا أبو العلاء المعري في معجز أحمد في تعليق على

twitter @baghdad_library

بيت المتنبي:

(وتنكر موتهم وأنا سهيلٌ طلعت بموت أولاد الزناء

يقول: أتنكر موت حسادي إذا رأوني؟! وأنا سهيل اليماني الذي بطلوعي تموت أولاد الزناء. وذلك أن العرب تزعم أن ما نتج من أمهار الخيل، إذا ضرب الفحل أمه من دون إذن صاحبه فإنه يموت إذا طلع سهيل، فكذلك تموت الحساد بسببي).[٣٤]

ويؤكد ما يقوله لنا التيفاشي في سرور النفس بمدارك الحواس الخمس العلاقة بين سهيل والجمال. إذ هو يحدثنا أن (الجمال ذكورها وإناثها إذا وقعت عينها بالاتفاق على القطب الجنوبي أو على سهيل ماتت في الحال فجأة أو مرضت، ثم تموت، والجمال التي تموت من ذلك تصلح لأعمال كثيرة ولها خواص: الأولى: إن المرأة التي احتبس طمثها إن تحملت في قطنة بشيء من دم ذلك الجمل أو من مرارته أدر طمثها على المكان. الثانية: إن سحِق شيء من عظامه من أي موضع كان من جسمه وطلي به رأس المصروع ملتوتاً بزيت أذهب عنه الصرع).[٣٥]

وهكذا فالنظر إلى سهيل أو القطب الجنوبي، وهو قطب سهيل، يؤدي إلى موت الجمال. لكن دم الجمل الذي يموت يصلح لإدرار الطمث، أي يعيد إنتاج البويضات.

الجمل الأورق

ويبدو أن أوزيريس الجزيرة العربية، أي سهيلا اليماني، كان يتمثل بجمل أسود. أو قل بجمل أورق. والورقة سواد به غبرة. وهناك الكثير من المواد التي تتيح قول ذلك. وأشد هذه المواد وضوحا الحديث الذي ينسب للرسول، والمرفوض من الغالبية. يقول ابن تيمية في درء التعارض عن هذا الحديث: (ومما يشبه ذلك حديث الجمل الأورق وأنه ينزل عشية عرفة على جمل أورق فيصافح المشاة ويعانق الركبان).[٣٦] وينقل الذهبي في تاريخ الإسلام الحديث الموضوع ويعلق عليه: (رأيت ربي بمنى على جمل أورق عليه جبة. هذا كذب على الله ورسوله).[٣٧]

ونحن نعتقد بالفعل أن هذا الحديث موضوع. لكن كونه موضوعا لا ينفي أهميته. فهو ينقل تقليدا جاهليا شديد العمق. وقد حافظت التقاليد الجاهلية على نفسها في كثير من الأحيان عن طريق إلصاق نفسها بالإسلام. ذلك أنه ما كان لهذه المواد أن تنجو من دون ذلك. أضف إلى ذلك أن الداخلين الجدد في الدين حملوا معهم خرافاتهم القديمة وأدمجوها بدينهم الجديد.

إذن، فثمة تقليد يقول: إن الله ينزل في يوم عرفة على جمل أورق عليه جبة، أو جبة صوف كما يضاف في أحيان كثيرة.

وانطلاقا من هذا التقليد يمكن قراءة القصة التي تتحدث عن مقدم الخليفة عمر على جمل أورق عند فتح بيت المقدس. جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة:

(أن عمر رضي الله عنه قدم عليهم الشام على جمل أورق بين عمودين، تلوح صلعته في الشمس، لا حقبة ولا خشبة، تصطفق رجلاه، ليس له ركابان، وطاؤه فروة كبش كرمى ذات صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، وحقيبة نمرة أو شملة محشوة ليفا هي وسادته إذا نزل وحقيبته إذا ركب، قال له رأس القرية: أنت ملك العرب وهذه دابة لا تصلح لهذا البلد، فأتي ببرذون فطرحت عليه قطيفة، فركب بغير سرج فأهزته، فقال: أمسك أمسك، أدن جملي، ما شعرت أن الناس يركبون الشياطين قبل يومي هذا، فدعي بجمله فركبه).[٣٨]

نحن نعتقد أن هذه القصة تلعب على التقليد القديم، تقليد قدوم الإله وقت الحج على جمل أورق. أي أنها تقرير ميثولجي وليست تقريرا واقعيا. طبعا هناك اختلافات محددة بين حكاية قدوم عمر على جمله الأورق. فلم يكن ممكنا أن يعلن التقليد أن عمر جاء بالضبط جيئة الإله الوثني ذاتها. عليه، فقد جاء عمر عاري الرأس (تلوح صلعته في الشمس) بدل أن يأتي مثل الإله الجاهلي (وعليه تاج يلمع). لكن جبة الصوف موجودة في فروة الكبش ذات الصوف.

ويربط تقليد الجمل الأورق بقس بن ساعدة الإيادي. إذ ثم من ينسب إلى الرسول أنه رأى قسا على جمل أورق في مكة: (رحم الله قسا كأني أنظر إليه على جمل أورق، تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه).[٣٩]

لكن هناك أحاديث تقول إن أحد أصحاب الرسول هو الذي قال إنه لا يحفظ كلامه، فقال الرسول حسب رواية البغداي في خزانة الأدب: (على رسلك يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق، وهو يتكلم بكلام ما أظن أني أحفظه. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، فإني أحفظه: كنت حاضرا ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته: يأيها الناس اسمعوا وعوا، فإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت).[٤٠]

ونحن نعتقد أن هذا الحديث أيضا موضوع. إذ ينقل البغدادي في الفصل ذاته عن أبي حاتم السجستاني قوله: (عاش قس بن ساعدة ثلثمائة وثمانين سنة وقد أدرك نبينا صلى

twitter @baghdad_library

الله عليه وسلم، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم حكمته؛ وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا، وأول من قال، أما بعد).[٤١] ثم يضيف عن المرزباني: (وقال المرزباني: ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة). ومن الواضح أنه يتم جعله من المعمرين الذين عاشوا مئات السنوات كي تصلح حكاية رؤية الرسول له في عكاظ.

وربط قس بن ساعدة بالجمل الأورق قد يشير إلى أن هذا الرجل كان كاهنا للإله الذي نحن بصدده. ذلك أن من الواضح أن الناس حين تقول إن الإله يأتي إلى الحج على جمل أورق، فإنما يقصدون أنه يفعل ذلك عبر ممثله البشري، أي كاهنه. فهو الذي يركب الجمل الأسود إلى سوق عكاظ، بل وعلى عرفة: (فيصافح المشاة ويعانق الركبان). بالطبع يبدو أن المصادر الإسلامية اعتقدت أن الإله الذي يتحدث عنه الحديث يشبه الإله الإسلامي المجرد الذي لا يتجسد.

وثم حديث منسوب للنبي من الصعب الشك فيه يوضح أن قبيلة طيء كانت تعبد جملا أسود. ينقل السهيلي في الروض الآنف: (وذكر في خبر زيد الخيل في رواية أبي علي البغدادي ما هذا نصه: خرج نفر من طيء يريدون النبي صلى الله عليه و سلم بالمدينة وفودا ومعهم زيد الخيل ووزر بن سدوس النبهاني وقبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين الجرمي وهو النصراني ومالك بن عبد الله بن خيبري بن أفلت بن سلسلة وقعين بن خليف الطريفي رجل من جديلة ثم من بني بولان فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد ودخلوا فجلسوا قريبا من النبي صلى الله عليه و سلم حيث يسمعون صوته فلما نظر النبي صلى الله عليه وسلم إليهم قال: إني خير لكم من العزى ولاتها ومن الجمل الأسود الذي تعبدون من دون الله ومما حازت مناع من كل ضار غير نفاع).[٤٢]

الجمل الأسود الذي تعبده طيء هو رمز للإله ذاته. إنه جمل الإله. لذا فحين يأتي كهنة هذا الإله إلى عرفة يأتون على جمل أسود. فهم يمثلون الإله. والإله يجب أن يركب حيوانه المحدد، أي الجمل الأورق- الأسود.

ويرد ذكر الجمل الأسود في حكاية (ابنة الخس) التي يمكن أن تضاف للإلهات الزرقاوات مثل زرقاء اليمامة والزباء والبسوس. فهي مثلهن إيزيس عربية، أو أنها الوجه الآخر لإيزيس.

يقول أبو عبيد البكري المقال في شرح كتاب الأمثال: (قيل لابنة الخس أي الجِمال شر قالت الأورق).[٤٣] ومن السهل فهم أن يتحول المقدس إلى مدنس. وقد رأينا هذا

في مسألة الخنزير. فهو ممثل للإله أوزيريس المصري، لكن الخنزير أشد الحيوانات قذارة في نفس الوقت. القداسة والقذارة ليسا عدوين، بل هما أمران شديدا الترابط. يتضح هذا من واقع أن الناقة الورقاء أيضا مشؤومة. يقول لسان العرب: يقال جمل أورق وناقة ورقاء. وفي حديث ابن الأكوع : خرجت أنا ورجل من قومي وهو على ناقة ورقاء. وحديث قس على جمل أورق. أبو عبيد: من أمثالهم إنه لأشأم من ورقاء وهي مشؤومة يعني الناقة، وربما نفرت فذهبت في الأرض. وليس هذا بالغريب، فالناقة الورقاء ممثلة إيزيس. فإذا كان حيوان الإله جملا أورق، فإن حيوان قرينته ناقة ورقاء أيضا.

الإشعار

ونظن أن الإشعار في الحج، بل وربما كلمة (المشاعر) ذاتها أيضا، ربما كانا على علاقة بالشعرى وبسهيل زوجها. فالتوافق اللفظي بين الإشعار والمشاعر الشعرى واضح وبين. ويجب أن نتذكر اسم أوزيريس بالمصرية (أسر، وسر) أو ما شابه. أي أن اسمها على علاقة لفظية قوية باسم الشعرى ذاته ولعل الاسم في الأصل هو (أشعر) في مقابل الشعرى. أي أننا أمام الشعرى، أو الشعراء، والأشعر. وهناك قبيلة عربية باسم أشعر.

أما الإشعار فهو جرح الهدي، أي الأضاحي، لتعليمها والإشعار بأنها ضحية للمعبد وإلهه. يقول لسان العرب:

(أشعر البدنة: أعلمها، وهو أن يشق جلدها أو يطعنها في أسنِمتِها في أحد الجانبين بِمِبضع أو نحوه، وقيل: طعن في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدي... وفي حَديث مقتل عمر رضي الله عنه: أن رجلا رمى الجمرة فأصاب صلعته بحجر فسال الدم. فقال رجل: أشعر أمير المؤمنين. ونادى رجل آخر: يا خليفة، فقال رجل من بني لهب: ليقتلن أمير المؤمنين. فرجع فقتل في تلك السنة. ولهب قبيلة من اليمن فيهم عيافة وزجر. وتشاءم هذا اللهبي بقول الرجل: أشعر أمير المؤمنين، فقال: ليقتلن. وكان مراد الرجل أنه أعلم بسيلان الدم عليه من الشجة، كما يشعر الهدي إذا سيق للنحر. وذهب اللهبي إلى القتل؛ لأن العرب تقول للملوك إذا قتلوا: أشعروا. وتقول للسوقة من الناس: قتلوا. وكانوا يقولون في الجاهلية: دية المشعرة ألف بعير، يريدون دية الملوك. فلما قال الرجل: أشعر أمير المؤمنين جعله اللهبي قتيلا فيما توجه له من علم العيافة، وإن كان مراد الرجل أنه دمي كما يدمى الهدي إذا أشعر. وحقت طيرته لأن عمر رضي الله عنه لما صدر من الحج قتل).[٤٤]

twitter @baghdad_library

نحن نعتقد أن تسمية تعليم الهدي بالإشعار نابعة من اسم الشعرى- إيزيس، أو من الأشعر- أوزيريس، أو منهما معا. وتدعى الأضحية بسبب ذلك بالشعيرة. يقول اللسان: (الشعِيرة: البدنة المهداة، سميت بذلك لأنه يؤثر فيها بالعلامات، والجمع شعائر).[٤٥] لكن يختلف على البدنة، أي الأضحية، فهل هي من الإبل فقط، أم أنها الإبل والبقر. والغالبية على أنها من الإبل. يضيف اللسان:

(البدنة من الإبلِ والبقر: كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة، الذكر والأنثى في ذلك سواء؛ الجوهري: البَدنة ناقةٌ أو بقرةٌ تنحر بمكة.... وفي حديث النبي، صلى الله عليه وسلم: أنه أُتِي ببدناتٍ خمسٍ فطفِقن يزدلِفن إليه بأيتِهن يبدأ؛ البدنة، بالهاء، تقع على الناقة والبقرة والبعير الذكر مما يجوز في الهدي والأضاحي، وهي بالبدن أشبه، ولا تقع على الشاة، سميت بدنةً لِعظمِها وسِمنِها).[٤٦] وليس غريبا أن تضاف الأبقار إلى الإبل في التضحية. ذلك ان إيزيس بقرة بقرنين أيضا. كما أن أوزيريس أيضا ثور. أي أنه يضحى للإلهين بحيوانات تمثلهما.

عليه، فالضحية، خاصة الناقة أو الجمل، هي ممثلة الإله- الملك أو الإلهة الملكة. أي أنها الإله- الملك ذاته. وهي تقتل رمزيا بالإشعار، قبل أن تقتل فعليا؛ لذا سمي قتل الملوك إجمالا إشعارا على التشبيه بالتضحية بحيوان الملك- الإله، وحيوان الملكة الإلهة. وهذا مغزى قصة إشعار الخليفة عمر. فقتل الملوك، أو التضحية بهم إشعار.

ولعل سنام الجمل لعب دورا في ربط الجمل بعبادة إيزيس وأوزيريس في الجزيرة العربية. فهو يشبه هرما على ظهره. إنه مثل التلة الأولى البدئية.

كوكب الخرقاء

يدعى سهيل اليماني عند العرب باسم (كوكب الخرقاء). يقول الشاعر:

إذا كوكب الخـرقاء لاح بسحرة سهيل، أذاعت غزلها في القرائب

وحسب المصادر العربية فقد كان هناك امرأة غزالة خرقاء كسول لا تقوم بعملها في الصيف، أي في الوقت المحدد، فتضطر عند طلوع سهيل الشتوي، أن توزع غزلها على قرائبها كي يساعدنها على القيام بمهمة غزل الصوف بسرعة، استعدادا للشتاء الذي حل. يقول البغدادي في خزانة الأدب: كوكب الخرقاء سهيل. ويضيف:

(الخرقاء هي المرأة التي لا تحسن عملاً، والأخرق: الرجل الذي لا يحسن صنعة وعملا... وليس الخرقاء هنا المرأة الحمقاء كما توهم – فأضاف الكوكب إلى الخرقاء،

بملابسة أنها لما فرطت في غزلها في الصيف ولم تستعد للشتاء استغزلت قرائبها عند طلوع سهيل سحراً).(٤٧)

وهكذا، فعند طلوع سهيل سحرا، وهو طلوعه الشتوي لا الصيفي، لأن طلوعه الصيفي يكون أول الليل في عز الصيف، تذيع هذه الخرقاء غزلها في قرائبها تطلب مساعدتهن. ويضيف المرزوقي في الأزمنة والأمكنة: (ويسمى سهيل كوكب الخرقاء. قال الشاعر:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة سهيل أذاعت غزلها في القرائب

يريد أن الخرقاء لعبت صنعها، وضيعت وقتها، ولم تغزل، فلما طلع سهيل وجاء الشتاء وضاق الوقت استغزلت قرائبها).(٤٨) كلام المرزوقي واضح في حديثه عن طلوع سهيل الشتوي: (فلما طلع سهيل وجاء الشتاء).

ونحن نعتقد أن المرأة الخرقاء التي ينسب إليها سهيل هي الشعرى العبور اليمانية، أخته وزوجه.

لكننا سنختلف مع تفسيرات المصادر العربية في أمرين اثنين:

أولا: مسارعة الخرقاء إلى الغزل في الشتاء

الثاني: معنى كلمة خرقاء.

وسوف نستند في ذلك إلى الآية ٩٢ من سورة النحل: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾.(٤٩) فنحن نعتقد جازمين، تقريبا، أن التي نقضت غزلها هي خرقاء سهيل، رغم أن المصادر العربية لم تفطن إلى هذا الأمر حسب علمنا. وإذا صح هذا الربط فإننا سنستطيع تفسير المناطق الغامضة في قصة خرقاء سهيل عبر قصة القرآن الكريم، والعكس أيضا. وفي قصة التي نقضت غزلها ثمة غزل ونقض وليس غزلا فقط.

يقول تفسير الجلالين عن التي نقضت غزلها: (وهي امرأة حمقاء من مكة كانت تغزل طوال يومها ثم تنقضه).(٥٠) من أجل هذا ضرب بها المثل في الخرق. يقول الميداني: (وهي التي قيل فيها «خرقاء وجدت صوفاً»).(٥١)

إذن فنحن أمام خرقاوين؛ خرقاء سهيل والخرقاء التي نقضت غزلها. يستتبع هذا أمرين:

أولا: أن خرقاء سهيل لم تدع بالخرقاء لأنها لا تحسن عملا، فالقرآن ذاته يصف غزل مثيلتها بأنها قوي ﴿ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾، بل لأنها تبدد عملها، وهذا يعني أنها حمقاء.

twitter @baghdad_library

ثانيا: أنه لا بد أن يكون هناك غزل ونقض للغزل أيضا في قصة خرقاء سهيل في الأساس. فهي الأخرى لها وقت كي تغزل وكي تنقض. ونحن نعتقد أن تفسير البيت السابق:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسهرة　　　أذاعت نسلها في القرائب.

على أنه يعني فرقت غزلها بين نسائها كي يغزلنه تفسير خاطئ تماما. فعند طلوع سهيل سحرا، أي عند طلوعه الشتوي، تعمد الخرقاء إلى تفريق غزلها بين هاتيك النسوة كي يفضضنه. إذ بعد قدوم الشتاء يأتي وقت يغادر فيه سهيل وتغادر فيه الشعرى ويغيبان ثم يطلعان في بداية الانقلاب الصيفي. تطلع الشعرى قبل سهيل بأسبوعين أو أكثر وتنتظره أسفل حزام الجوزاء. وفي وقت الانتظار تعمد مثيلتها الخرقاء إلى الغزل. دليل ذلك أن المرزوقي في الأزمنة والأمكنة يكمل خبره عن الخرقاء برجز يقول:

(علـك أن تنسجي وتـدأبي　　　إذا سهيل فاق كل كوكـب).[٥٢]

فهي ستنسج وتأب في نسجها في الوقت الذي يكون فيه سهيل قد فاق كل كوكب. وهذا الوقت هو وقت الصيف بالتأكيد. فسهيل يكون في هذا الوقت في قمة نوره. أي أنه يتفوق على كل كوكب بشدة إنارته، إذا استثنينا الشعرى، أي الخرقاء ذاتها.

وهكذا فخرقاء سهيل تغزل في الصيف وتفض غزلها في الشتاء، مثلها مثل الخرقاء التي وجدت صوفا، أي التي نقضت غزلها أنكاثا.

وتعطينا المصادر العربية شيئا معقولا عن التي نقضت غزلها على عكس الأمر مع خرقاء سهيل. فهي تذكر لنا اسمها على الأقل. يقول الميداني: (أخرق مِن ناكِثةِ غزلِها. ويقال: من ناقضة غزلها، وهي امرأة كانت من قريش يقال لها: أمِ ريطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهي التي قيل فيها : «خرقاء وجدت صوفا» والتي قال الله عز وجل فيها: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ قال المفسرون: كانت هذه المرأة تغزل وتأمر جواريها أن يغزلن ثم تنقض وتأمرهن أن ينقضن ما فتلن... فضرب بها المثل في الخرقِ).[٥٣]

ويضيف ابن الجوزي في أخبار الحمقى والمغفلين: (فمنهن التي نقضت غزلها قال مقاتل بن سليمان: هي امرأة من قريش تسمى ريطة بنت عمرو بن كعب كانت إذا غزلت نقضته قال ابن السائب: اسمها رايطة وقال أبو بكر بن الأنباري: اسمها ريطة بنت عمرو المرية ولقبها الجعرانة وهي من أهل مكة وكانت معروفة عند المخاطبين فعرفوها بصنعتها ولم يكن لها نظير في فعلها وكانت متناهية الحمق تغزل الغزل من القطن أو

الصوف فتحكمه ثم تأمر خادمها بنقضه. قال بعضهم: كانت تغزل هي وجواريها ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن).(٥٤)

إذن، فاسم المرأة ريطة أو رايطة أو أم ريطة. ونحن نعتقد أن هذه المرأة كانت كاهنة للشعرى. أي أنها كانت تقوم بدورها من غزل ونقض في موسمين محددين في السنة، موسم الانقلاب الصيفي وموسم الانقلاب الشتوي. وإذا سمح لنا أن نتكهن فسنقول إن اسمها يجب أن يكون هو (أم ريطة). فهذا الاسم يعني المرأة ذات الريطة، أي ذات الملاءة البيضاء. ذلك أن الريطة هي: (هذا الاسم مرتبط بالمُلاَءةُ إذا كانت واحدةً ولم تكن لفقْينِ، والجمعُ ريطٌ). كما يقول العباب الزاخر. أو أنه الثوب الرقيق كما يضيف: (كل ثَوْبٍ رقَيقٍ لّينٍ فهو رَيْطة).(٥٥) يقول الشاعر:

والبيض يرْفلنَ كالدمى في الرِيطْ والمذهبِ المصونِ

وكونها دعيت أم ريطة يعني أنها كانت ترتدي ريطة بيضاء في مهنتها ككاهنة.

وقد لحظ أكثر من باحث التشابه القوي بين بنيلوب اليونانية والخرقاء التي نكثت غزلها. ويحب كثير من هؤلاء أن يتحدثوا عن تأثر باليونان وأساطيرهم حين يبدو أي تشابه بين أسطورة عربية وأخرى يونانية. نحن لسنا من أنصار هذا المذهب أبدا.

على كل حال، فبنيلوب زوجة أوديسيوس، كانت تغزل هي وجواريها ثم تفض الغزل في انتظار عودة زوجها أوديسيوس، مثلها مثل ريطة التي (كانت... تغزل وتأمر جواريها أن يغزلن، ثم تنقض وتأمرهن أن ينقضن ما فتلن). وأوديسيوس يبدو لنا كما لو أنه سهيل- أوزيريس الذي يغيب ويعود. وبذا تكون بنيلوب زوجته هي الشعرى العبور- إيزيس. يؤيد هذا أن إيزيس تعتبر إلهة النسج والحياكة عن المصريين.

ليئة وراحيل

وقد أشرنا في فصل سابق إلى علاقة جوهرية بين قصة سهيل اليماني والشعريين وبين قصة يعقوب مع زوجتيه، ليئة وراحيل. بل إن قصة يعقوب معهما تكرر جوهر قصة الشعرى العبور والشعرى الغميصاء مع سهيل اليماني، وقصة إيزيس ونفتيس مع أوزيريس، بتنويعات وإضافات قليلة جدا. فبعد أن أمضى يعقوب سنوات طويلة يرعى غنم خاله (لابان) طلب منه أن يزوجه راحيل مقابل عمله عنده، فوافقه لابان على ذلك. لكنه خدعه فأرسل إليه في عتمة ليلة الدخلة ليئة بدل راحيل. وحين طلع الصباح اكتشف أنه خدع ونام مع ليئة لا راحيل: (وفي الصباح إذا هي ليئة فقال للابان ما هذا الذي صنعت

twitter @baghdad_library

بي أليس براحيل خدمت عندك فلماذا خدعتني).[٥٦]

وهذا في الحقيقة تكرار لقصة أوزيريس مع نفتيس. فقد ضاجعها أوزيريس بالخطأ، كما يقول المدافعون عنه، ظانا أنها إيزيس. في حين يقول من لا يدافع عنه إنه أقام علاقة غير شرعية معها. ومن هذه العلاقة المحرمة نتج (أنوبيس)، الذي أصبح تابعا لإيزيس وحارسها رغم أنه ابن نفتيس. يقول بلوتارخ: تخبرنا الأسطورة أن تايفون {سيث} كان قرينا لنفتيس، وأن أوزيريس أقام علاقة سرية معها. ومن هذه العلاقة غير الشرعية، أو الشرعية ربما، ولد أنوبيس، الذي يتماهى مع حورس. من أجل هذا فقد كان تايفون يتهم حورس بالنغولة: (راح تيفو {سيث} يتهم حورس علنا بالنغولة. ولكن شرعيته قد ثبتت تماما بقضاء من الآلهة أنفسهم، وبمساعدة هرمس).[٥٧]

وعليه، فقد فعل يعقوب كما فعل أوزيريس. لقد أقام علاقة مع ليئة وهو يظنها راحيل. وسوف نرى بعد قليل، أن هذه العلاقة أثمرت أيضا أنوبيسا ما يشبه أنوبيس نفتيس.

وما يؤكد أن ليئة هي الشعرى الغميصاء هو ضعف عينيها. يقول الإصحاح التاسع والعشرون من سفر التكوين: (وكانت عينا ليئة ضعيفتين).[٥٨]

وضعف عيني ليئة هو غمص عيني الغميصاء العربية، بالضبط. يقول المروزقي في الأزمنة والأمكنة: (كان سهيل والشعريان مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانيا، وتبعته العبور عبرت إليه المجرة وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل، حتى غمصت، والغمص في العين ضعف ونقص).[٥٩] الغمص، إذن، ضعف في العين ونقص، كما هو الأمر مع ليئة.

أكثر من ذلك، فإن معاني جذر (لأي) في العربية يتوافق مع وضع ليئة في القصة. ولننظر إلى ما يقول لسان العرب: (لويت أمري عنه...: طويته. ولويت عنه الخبر: أخبرته به عن غير وجهه. ولوى فلان خبره: إذا كتمه. والإلواء: أن تخالف بالكلام عن جهته[٦٠]

وهذا يتطابق بدقة مع وضع ليئة تماما. فقد كتم لابان عن يعقوب أنه سيزوجه ليئة بدل راحيل. كما أنه أخبر بالأمر عن غير جهته، إذ قال ليعقوب أنه سيرسل له راحيل، في حين كان يرسل ليئة.

وينقل اللسان عن ابن عباس تفسيره للآية ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ ﴾ أنه قال: (هو القاضي يكون ليه وإعراضه لأحد الخصمين على الآخر). وقد أعرض يعقوب عن ليئة لصالح راحيل، فما كان من لابان إلا أن مال لصالح ليئة. يقول سفر التكوين: (وأحب أيضا {يعقوب} راحيل أكثر من ليئة).[٦١]

زيادة على ذلك فالجذر نفسه يحمل معنى الإبطاء واللبث. يقول لسان العرب: (اللأي: الإبطاء) و(اللأي: اللبث. وقد لائيت في حاجتي...: أبطأتها).[٦٢] وفي العبرية فإن (لاءة) تعني تعب وجهد، وهو ما يفيد الإبطاء في النهاية. وهكذا فليئة هي التي أبطأت وتلبثت، كما أبطأت الغميصاء عن قطع النهر ولحوق سهيل. أما راحيل فقد (رحلت) إنها راحلة عابرة. أي بالضبط كما قال لنا المرزوقي في المقتبس السابق: (وتبعته العبور عبرت إليه المجرة وأقامت الغميصاء). الأولى عبرت راحلة خلف صاحبها، والثانية أقامت وتلبثت.

وهناك في الأسطورة المصرية ما ينبئ بأن إيزيس المحبوبة كانت عاقرا مثلها مثل راحيل: (وأما راحيل فكانت عاقرا).[٦٣] وعقر إيزيس واضح من تبنيها لأنوبيس. كما أن هناك جملة غريبة توصف بها نفتيس قد تشير إلى هذا. إذ تعاب بأنها (البديلة التي بلا رحم) رغم أنها ولود، إذ هي أنجبت أنوبيس. وبناء على ما قلناه للتو فإن الوصف يصبح مفهوما. فهي بلا رحم، بمعنى أن ما ينتجه رحمها هو لغيرها، أي لأختها، وليس لها. فرحمها، إذن، ليس رحمها بل رحم أختها إيزيس.

ومثل لابان الذي أحب راحيل بديلا من ليئة، فإن أوزيريس أحب إيزيس بديلا من نفتيس. لكن الحب لم يتوافق مع الخصوبة في الحالين. فالمنسية المتروكة نفتيس-ليئة هي الخصبة، بينما المحبوبة هي العاقر. يقول الكتاب المقدس: (ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها).[٦٤]

لقد عوض الله ليئة عن كونها غير محبوبة بأن (فتح) رحمها، مثلما فتح رحم نفتيس. وربما من أجل هذا ينسب للفاح التأثير في أمراض الرحم. يقول ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية: (وكذا يعرض أيضا من عصارته إذا أكثر منه السكتة وبزر اللفاح إذا شرب نقى الرحم، وإذا خلط بكرنب لم تمسه النار واحتمل قطع نزف الدم من الرحم).[٦٥]

وفي العربية يشير جذر (عبر) إلى عدم الحظوة. فالغميصاء استعبرت، أي بكت حتى غمصت عيناها. لكن المرأة المستعبرة هي أيضا: غير حظية. لقد استعبرت لأنها غير محبوبة وغير محظية مثلما أختها الشعرى العبور. وهكذا كان حال ليئة: (ورأى الرب أن ليئة مكروهة). كما أن الجذر عبر في العربية يعطي معنى الضرة. وإيزيس ونفتيس ضرتان بشكل ما. كما أن ليئة وراحيل ضرتان بالتأكيد. يقول الزبيدي في تاج العروس تفسيرا لجملة (عبر جارتها): («وعبر جارتها» أي أن ضرتها ترى من عفتها وجمالها ما يعبر عينها، أي يبكيها).[٦٦]

twitter @baghdad_library

لفاح أنوبيس

إذن، فزوجتا يعقوب، راحيل وليئة، هما مثيلتا الشعرى العبور والشعرى الغميصاء العربيتان، ومثيلتا إيزيس ونفتيس المصريتان، كما أن يعقوب طراز من سهيل العربي ومن أوزيريس المصري. ويخبرنا سفر التكوين في العهد القديم أن قصة ما جرت بين ليئة وراحيل حول اللفاح:

(ومضى رأوبين في أيام حصاد الحنطة فوجد لفاحا في الحقل وجاء به إلى ليئة أمه. فقالت راحيل لليئة : أعطيني من لفاح ابنك. فقالت لها : أقليل أنك أخذت رجلي فتأخذين لفاح ابني أيضا. فقالت راحيل إذا يضجع معك الليلة عوضا عن لفاح ابنك. فلما أتى يعقوب من الحقل في المساء خرجت ليئة لملاقاته وقالت إلي تجيء لأني قد استأجرتك بلفاح ابني. فاضطجع معها تلك الليلة).[٦٧]

والكلمة العبرية التي ترجمت عند غالبية الباحثين على أنها اللفاح هي (دوديم) . وسفر نشيد الأناشيد يدعم أنه اللفاح حقا. فهو يصف دوديم هذا بطيب الرائحة: (اللفاح يفوح رائحة وعند أبوابنا كل النفائس من جديدة وقديمة ذخرتها لك يا حبيبي).[٦٨]

واللفاح، أو ثمره، يستخدم للشم لأنه يملك رائحة طيبة نفاذة. يقول لسان العرب: (واللفاح نبات يقطيني أصفر شبيه بالباذنجان طيب الرائحة... الجوهري: اللفاح هذا الذي يشم شبيه بالباذنجان إذا اصفر).[٦٩]

إذن، فقد أرادت راحيل شيئا من لفاح الحقل الذي أحضره رأوبين ابن ليئة، فاتهمتها الأخيرة بأنها تريد أن تأخذ لفاح ابنها كما أخذت زوجها. ذلك أن يعقوب تزوج ليئة قبل أن يأخذ راحيل ضرة لها. وإذا انطلقنا من المشابهة بين راحيل وليئة وبين إيزيس ونفتيس، فربما يمكن لنا أن نقيم موازاة بين رأوبين وبين أنوبيس. فنفتيس هي التي حملت بأنوبيس-الكلب، لكن راحيل هي التي أخذته وتبنته وصار ابنا وحارسا لها. وإذا صح هذا يكون أخذ اللفاح رمزا لأخذ راحيل لرأوبين، كما أخذت إيزيس ابن نفتيس. أي أن اللفاح هو رأوبين. وثم في اللغة العربية ما يؤيد هذا الاستخلاص. فنحن نعرف أن اللفاح، أو تفاح المجانين هو نبتة هلوسة، وأن أكلها يؤدي إلى فتور أو نوم ما. يقول ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية عن ثمر اللفاح: (وتأكله الرعاة فيعرض لهم يسير سبات).[٧٠] ويضيف في مكان آخر: (وهو يسدر وينوم. الرازي: اللفاح بارد غير أنه يثقل الرأس ويسبت، وإن أكل غشى وأسبت وربما قتل. وقال في كتاب الحاوي:

أخبرني بعض مشايخ الأطباء ببغداد أن جارية أكلت خمس لفاحات خرت مغشيا عليها واحمرت وأن رجلا صب على رأسها ماء الثلج حتى أفاقت).[٧١]

وفي جذر (راب) العربي شيء مثل هذا بالضبط. يقول القاموس المحيط: (وراب روباً ورؤوباً: تحير، وفترت نفسه من شبع أو نعاس، أو قام خاثر البدن والنفس، أو سكر من نوم، ورجلٌ رائبٌ، وأروب وروبان، أعيا، وكذّب، واختلط عقله).[٧٢] وكل هذا يدعم من فكرة أن رأوبين يتماهى مع اللفاح. فكلاهما يعنيان شيئا من السبات والفتور. وهذا ما قد يشي إلى أن رأوبين هو الابن وهو اللفاح معا.

وهذا يعني أن جملة: (أقليل أنك أخذت رجلي فتأخذين لفاح ابني أيضا) يجب أن تفهم على أنها تعني: لقد أخذت رجلي والآن تريدين أخذ ابني؟ وهذا يعني أن علينا أن نفترض أن نفتيس كانت زوجة أوزيريس الأولى، وأن إيزيس كانت الثانية، كما هو الحال مع ليئة وراحيل.

إذا صح ما نقول فإن رأوبين يجب أن يكون هو الآخر كلبا مثله مثل أنوبيس. والحقيقة أن هناك ما يدعم ذلك. فاللفاح مرتبط بالكلاب بوضوح. وهناك من الباحثين من يشك أن الصوت الأخير في اسم رأوبين ربما يكون لاما. ويؤيد هذا أن جوزيفوس أول الاسم باللام (رأوبيل)، وأنه في هذه الحال يكون شبيها للاسم العربي (رئبال) الذي يعني: الذئب.[٧٣] والرئبال هو الذئب في العربية بالفعل. يقول لسان العرب: (الرئبال: من أسماء الأسد والذئب). وليس بين الذئب والكلب مسافة. فالكلب ذئب مدجن. وفي هذه الحال، قد يكون هذا الاسم العربي الغريب للذئب مركبا من رئب+ إل، أي (الإله رئب)، أو رأوب+ إل (الإله رأوب) في الصيغة العبرية المفترضة. أي أننا أمام إله كما هو الحال مع أنوبيس.

ولدينا، من المؤرخ الفلسطيني اليهودي من القرن الأول الميلادي، جوزيفوس، ما يربط بين الكلاب واللفاح. إذ يخبرنا أنه ليس سهلا اقتلاع جذر نبتة اللفاح. ومن أجل فعل ذلك لا بد أن يسكب بول امرأة أو دم عليه. ولا بد لمن يقتلعه أن يحذر لمسه. ولمسه قد يؤدي إلى الموت. لكنه يحدثنا عن طريقة أكثر أمنة لقلع هذه الجذور:

ويمكن الحصول على الجذور بطريقة أخرى ومن دون التعرض للخطر، وهي كما يلي: يحفرون حولها حتى ينكشف الجذر، ثم يلف حبل حوله ويربط بعنق كلب. بعد ذلك يجب أن يغادر من ربط الجذر بالكلب المشهد. وحين يحاول الكلب اللحاق به، يقتلع الجذر بسهولة، لكن الكلب يموت فورا كبديل عن الرجل الذي قلع الجذر.

twitter @baghdad_library

الكلب هنا عنصر حاسم. من دونه لن يتم اقتلاع النبتة. ومن الواضح أن الكلب يتمكن من قلع الجذر لأنه هو ذاته مرتبط بالنبتة. إنه رمز لرأوبين- أنوبيس. أو هو إياهما.



تصوير من العصور الوسطي يصور كلبا ربط بجذور اللفاح بحبل،
لأنه الوحيد القادر على قلع جذور لفاح أنوبيس

ولدينا كتاب مصور من العصور الوسطى، وبالتحديد من القرن الخامس عشر الميلادي، عن طب الأعشاب يدعى The Tacuinum Sanitatis يرسم عملية القلع التي تحدث عنها جوزيفوس ويزيد لنا الأمر وضوحا. ويعتد أن الكتاب بنى على كتاب ابن

بطلان (تقويم الصحة) من القرن الحادي عشر الميلادي. فهناك نبتة لفاح يأخذ جذرها ما يبدو وكأنه صورة طفل. هذا الجذر مربوط بعنق كلب يلعق حليبا، أو يأكل من صحفة. وإلى اليمين نرى رجلا يغادر المشهد إلى اليمين، ويبدو أنه يحث الكلب على أن يتبعه، مشيرا بإصبعه إلى الاتجاه الذي على الكلب أن يسير فيه. وهو رسم توضيحي لما قاله جوزيفوس. لكن الجديد فيه أن جذر اللفاح يأخذ شكل الطفل. هذا يؤكد أننا أمام الكلب- الطفل أنوبيس ابن نفتيس، الذي صار ابنا لإيزيس. وهذا الطفل هو مثيل رأوبين ابن ليئة. عليه، فلفاح رأوبين هو لفاح أنوبيس الطفل الكلب. وقد رأينا كيف أن اسم رأوبين يمكن أن يعني ذئبا.

ويعتقد أن اللفاح ينمو في العادة تحت (فزاعة المجرمين)، أي تحت شجرة أو خشبة تشبه الخشبة التي يشنق عليها المجرمون. والحق أن رئبال في العربية تعني: اللص، وهو ما يشير إلى عمل إجرامي. يقول لسان العرب: (ريابيل العرب: لصوصهم). وريابيل تسهيل لرئابيل. ويضيف: (وفلان يترأبل أي يغير على الناس ويفعل فعل الأسد؛ وقال أبو سعيد: يجوز فيه ترك الهمز؛ وأنشد لجرير:

ريابيل البلاد يخفن مني وحية أريحاء لي استجابا).[٧٤]

دودييم

غير أن علينا، فيما يبدو، أن نحاول أن نجد صلة ما بين الاسم العربي للفاح وبين الاسم العبري. إذ من الصعب التصديق أنه ثم قطيعة كاملة بين اسمين خلقا في بيئة واحدة. والاسم العبري للفاح، والذي ورد في سفر التكوين ونشيد الإنشاد، هو (دودييم) דודאים. ومن الواضح أنه بصيغة الجمع. عليه فالمفرد منه هو (دود) أو (دد). وقد فهم الاسم على أنه يعني: الحب، على أن جذر (دود) العبري يعني الود والحب، كما هو الحال في العربية تماما. فجذر (ودد) أو مقلوبه (دود) يعني الود والحب. بالتالي فقد اعتقد أن نبتة اللفاح هي نبتة الحب.

ولو حاولنا أن نلقي ضوءا على هذا الاسم عبر العربية لوجدنا أن القواميس العربية تعلمنا أن (دد) تعني المرح واللهو، وإن كان هناك غموض جدي يلف هذه الكلمة ومعناها. وقد ورد الاسم (دد) في حديث غامض جدا نسب إلى الرسول: (ما أنا من دد ولا الدد مني)، وقيل إن معناه: ما أنا من اللهو ولا اللهو مني، بمعنى ما أنا من الباطل في شيء. يقول الأزهري في تهذيب اللغة:

twitter @baghdad_library

(روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما أنا من دد ولا الدد مني». وقد مر تفسيره، وقال أبو عبيد: الدد اللهو واللعب: قال وقال الأحمر: في الدد ثلاث لغات، يقال: هذا دد على مثالي يد ودم، وهذا ددا على مثال قفا وعصا، وهذا ددن على مثال حزن. ثعلب عن ابن الأعرابي: يقال: دد، وددا وديد وديدان وددن وديدبون: اللهو. الحراني عن ابن السكيت: ما أنا من ددي ولا ددي مني، يريد ما أنا من الباطل ولا الباطل مني. قال: ومن العرب من يحذف الياء فيقول: ما أنا من دد ولا دد مني. وقال الليث: دد حكاية الاستنان للطرب، وضرب الأصابع في ذلك، وإن لم تضرب بعد الجري في بطالة فهو دد).[٧٥]

وقال الطرماح:

واستطربت ظعنهم لما احزأل بهم آل الضحى ناشطا من داعبات دد

والبيت رغم كل التفسيرات غامض. فمن هن (داعبات دد) هاتيك؟ وورد في الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري:

(ما لدد ما لدد ماله يبكي وقد نعمت باله؟

معناه ما للهو يبكي لعزوفي عنه وتركي إياه وقد نعمت باله أي استعملته زمانا)[٧٦]

والحقيقة أن البيت غامض إلى حد بعيد. وورد لعدي بن زبد العبادي:

أيها القلـب تعـلل بددن إن همي في سماع وأذن

والبيت يوحي، بشكل ما، بأن الددن إيقاع أو عزف ما. دليل ذلك أن الشطر الثاني يتحدث عن (سماع وأذن). وإذا كان الدد صوت آلة موسيقية فإن هذا يعيدنا إلى (كابو وابنها ذي الشرى). وقد توصلنا في فصول سابقة إلى أن كابو هذه تعني الطبل، وأن الطبل رمز للإلهة الأنثى، للحد الأوسط في الثالوث. ونحن في الواقع نتحدث عن الإلهة الأنثى حين نتحدث عن اللفاح. فقد حصلت راحيل على اللفاح، مقابل أن ينام يعقوب مع ليئة. مثلما أن إيزيس حصلت على الطفل أنوبيس بعد أن نام أوزيريس مع نفتيس. فتلك النومة أنتجت أنوبيس الطفل الذي أخذته إيزيس.

وبناء على هذا، يمكن لنا أن نتساءل عن رابط ما بين (ددوييم) وبين الدد أو الددن كأداة موسيقية. يبدو لنا أن هناك رابطا ما فعلا. فاللفاح اسم يحوي الأم والابن، أي يحوي رأوبين وأمه المتبنية راحيل. والاسم (دوديم) في الوقت الذي يعني النبتة، فهو يعني أيضا رأوبين وراحيل، أي إيزيس وأنوبيس. أي أننا أمام راحيل ورأوبين- الكلب. وبما أن الحد الأوسط المؤنث هو الكوبة- الطبل، فليس غريبا أن تعني (دودييم) الطبل أو الطبول أيضا.

ويدعم من فكرة وجود أنثى حين نتحدث عن (دد) ما أورده ابن فارس في مقاييس اللغة: و(دد فيما يقال اسم امرأة. والله أعلم).[٧٧]

ولأن الأمر كذلك، فإن جذور اللفاح تأخذ مرة شكلا أنثويا، وأخرى ذكوريا. فهي مرة تشبه راحيل، وثانية تشبه رأوبين. أي أنها جمع لأنوبيس وإيزيس. للطفل وأمه معا. فلا يؤخذ الطفل إلا مع أمه. ولا تؤخذ الأم إلا مع طفلها، كما رأينا في ذي الخلصة العربي الذي يضم الأم وابنها الكلب الأغضف معا، آخذين معا الاسم ذاته: (ذا الخلصة). كذلك يمكن أن نستشف هذا مع الشعرى العبور- إيزيس أيضا. فهي تدعى عند العرب باسم (كلب الجوزاء). أي أنها كلب، في حين أن الكلب هو ابن إيزيس وليس إيزيس ذاتها. هذا يعني أن الشعرى وابنها المفترض يتشاركان في اسم الكلب. كل منهما كلب في الواقع. إيزيس(الشعرى) كلب، وابنها (أنوبيس) كلب أيضا.

الإله نهم

يقول زر بن عبد الله بن كليب بن مرة بن فقيم بن جرير بن دارم في بيتين شهيرين له:

كأنك يوما كأنك لم تكن بي عالما ... فتسـأل يـوما في رجـال تمـيـم

ولا تذهب الشعري العبور بمالــه ... ولا الكـوكب الدري خل نجـوم

يشير البيت الثاني، كما ذكرنا سابقا، إلى الأوبئة التي يحملها طلوع كوكب الشعرى العبور اليمانية. فهي تطلع في أواخر حزيران أو أوائل تموز، ويكون طلوعها مؤشرًا على فيضان النيل وبدء السنة الشمسية. وفي هذا الوقت من السنة وما بعده تكثر الحميات والأمراض. يقول عبد الغني النابلسي في تعطير الأنام في تفسير الأحلام:

(وإن رأى {النائم} كلبة نباحة فتدل على مضرة. والكلب يدل على الحمى بسبب الكوكب الذي يسمى الكلب وهو الشعرى اليمانية التي هي علة الحميات).[٧٨]

بالتالي فالشطر الأول من البيت واضح تماما. فهو يقول إن طلوع الشعرى لا يؤدي إلى ذهاب مال الرجل المشار إليه، أي لا يؤدي إلى فناء دوابه وأغنامه بالحميات.

أما الشطر الثاني فيشير إلى أن الكوكب الدري أيضا مسؤول، مثله مثل الشعرى، عن فناء المال بالحميات، فهو يضيف (ولا الكوكب الدري) يفعل ذلك. لكن المصادر العربية لا تقول لنا من هو هذا الكوكب الدري بالضبط. بل إنها تبدو مثلنا كما لو أنها تتكهن بشأنه تكهنا. يقول لسان العرب: كوكب دري:

twitter @baghdad_library

(ثاقب مضيء... وفي التنزيل: كأنها كوكب دري. قال أبو إسحق من قرأه بغير همزة نسبه إلى الدر في صفائه وحسنه وبياضه، وقرئت دري بالكسر... وفي الحديث: كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء، أي الشديد الإنارة. وقال الفراء: الكوكب الدري عند العرب هو العظيم المقدار. وقيل هو أحد الكواكب الخمسة السيارة. وفي حديث الدجال: إحدى عينيه كأنها كوكب دري، ودري السيف تلألؤه وإشراقه، إما أن يكون منسوبا إلى الدر بصفائه ونقائه وإما أن يكون مشبها بالكوكب الدري).[٧٩]

هذا مختصر ما قيل عن الكوكب الدري. وهو لا يشفي الغليل أبدا. كما أنه لا يشفي غليلنا ما قيل عن (خل نجوم). فشبه الجملة هذه شديدة الإبهام. والاقتراح الوحيد الذي عرفنا به لحل لغز (خل نجوم) جاء من الآمدي في كتاب: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء. فقد قال عن التعبير (لعله مزاحف خلف نجوم).[٨٠]

بالتالي، فالتعبير (خلف نجوم)، ثم زحف، أي حذفت الفاء لضرورة شعرية ما ربما. ويبدو لنا أن من الصعب قبول أن يحذف حرف أصلي من الكلمة بهذه الطريقة. أضف إلى أن هذه التخريجة لا تزيد الأمور وضوحا. فما معنى خلف نجوم؟ وخلف أي نجوم يقع هذا الكوكب الدري؟ لا إجابة.

عليه، فنحن أمام مسألتين بحاجة إلى التوضيح: الأولى: من هو (الكوكب الدري)، والثانية: معنى جملة (خل نجوم). لدينا فرضيتان لحل هاتين المسألتين:

الفرضية الأولى: أن الكوكب الدري هو سهيل اليماني رفيق الشعرى وأخوها وزوجها. فحيث تكون الشعرى صيفا يكون هو أيضا. فطلوعه يأتي بعد طلوع الشعرى بعشرة أيام أو ما يقرب من ذلك. أي أن فترته هي فترة الشعرى، فترة الحميات، بذا فهو مرتبط بالحميات مثلها أيضا. عليه يكون المعنى أنه لا الشعرى ولا قرينها سهيل اليماني يذهبان بمال الرجل المشار عليه عبر حمياتهما.

يؤيد هذا الاقتراح أن الكوكب الدري فسر على أنه، كما رأينا، الكوكب الدري في أفق السماء، أي (الشديد الإنارة)، أو (العظيم المقدار) كما رأينا أعلاه. وليس هناك أضوأ من سهيل إلا الشعرى. وجملة (في أفق السماء) ربما تخص سهيل بالذات. فسهيل موجود دوما فوق خط الأفق. لذا فهو لا يرى كلما ذهبنا شمالا. يقول الزبيدي في تاج العروس: (سهيل يرى بالحجاز وفي جميع أرض العرب ولا يرى بأرض أرمينية).

حسن جدا؛ الكوكب الدري هو سهيل رفيق الشعرى. لكن ماذا بشأن المسألة الثانية الأعقد، والأشد غموضا، مسألة (خل نجوم)؟

نفترض أن كلمة (خِلّ) هنا لم تتعرض للحذف، ولم تتصحف، وأنها تعني ما تعنيه: فالخل هو الصديق والصاحب. لكننا قد نفترض أن الذي تعرض للتصحيف هو كلمة (نجوم). عليه، يكون الكوكب (خل...) شيء ما، أي صديق شيء ما، يحل محل كلمة نجوم المصحفة. وبما أن الشعرى وسهيل (الكوكب الدري) آلهة، فلا بد لخل الكوكب الدري أن يكون إلها ما. يعني أن ما نبحث عنه إله محدد. وحين نبحث عن إله نعرفه، ويمكن لاسمه أن يتحرف إلى (نجوم)، فسنجد أمامنا الإله المعروف: (نُهْم). وعليه فالكوكب الدري خل نهم، لكن للضرورة الشعرية كان لا بد من تصغيره، بحيث يصير البيت هكذا:

ولا تذهب الشعرى العبور بماله — ولا الكوكب الدري خل نُهيم

بناء على هذا الفرض فكلمة (نجوم) هي في الأصل (نُهيم)، أي تصغير لنهم.

ونهم صنم إله معروف في المصادر العربية كما قلنا، وإن كانت طبيعته غير معروفة البتة. يقول ابن الكلبي في كتاب الأصنام:

(وكان لمزينة صنم يقال له نهم. وبه كانت تسمى عبد نهم. وكان سادن نهم يسمى خزاعى بن عبد نهم، من مزينة ثم من بني عداء. فلما سمع بالنبي... ثار إلى الصنم فكسره، وأنشأ يقول:

ذهبت إلى نهـــم لأذبـح عنـده — عتيرة نسك، كالذي كنت أفعل

فقلت لنفسي حين راجعت علقها — أهذا إلـه أبـكم ليس يعـقــل؟

أبيت، فديني اليوم ديـــن محمد — إله السماء الماجـد المتفضـل

ثم لحق بالنبي... فأسلم وضمن له إسلام قومه، مزينة. وله يقول أيضا أمية بن الأسكر:

إذا لقيت راعيين في غنـم — أســـيدين يحلـفــان بـنـهـــم

بينهما أشلاء لحم مقتسم — فامض، ولا يأخذك باللحم القرم).[81]

ويزيد الميمني في سمط اللآلئ:

(قال ابن حبيب أخبرني أبو عبيدة قال: تميم كلها كانت تسمى في الجاهلية عبد نهم ونهم صنم كانوا يعبدونه).[82] إذا صح فرضنا، فهو سيمكننا من تحديد طبيعة (نهم) هذا. ذلك أننا بتنا نعرف أن سهيلا اليماني هو المظهر الصيفي لإله أوزيريسي الطابع. وهو مرتبط بمظهر ثان شتوي لهذا الإله ارتباطا دائما. عليه، يكون (نهم) هو القرين الشتوي

twitter @baghdad_library

لسهيل اليماني. وقد كنا ساوينا بين سهيل اليماني واللات الأول في ثالوث الغرانيق العلى: (اللات والعزى ومناة). وعليه، يكون نهم مثيل مناة. ذلك أن الحدين الأول والثالث في الثالوث هما مظهرا الإله الأوزيريسي. وبما أننا عرفنا أيضا أن العزى هي مثيل الشعرى، نكون أمام ثالوث مساو للغرانيق العلى:

الدري الشعرى نهم

اللات العزى مناة

إذن فالبيت الغامض قد يقدم لنا ثالوثا إلهيا!

ولدينا في اللغة ما يؤيد ما توصلنا إليه. ذلك أن جذر (درر) يعني الحذاء والمقابلة. يقول لسان العرب: (يقال داري بدرر دارك أي بحذائها إذا تقابلتا، ويقال هما على درر واحد بالفتح أي على قصد واحد، ودرر الريح: مهبها، وهو دررك: أي حذاؤك وقبالتك، ويقال دررك: أي قبالتك).(٨٣) والبيت الشعري يقول لنا إن الكوكب الدري (خل نهيم) أي حذاؤه ومقابله، أي نظيره وعديله ووجهه المقابل.

الفرضية الثانية: أن كلمة (خل) تعني المربوط اللسان أو الأنف بعود الخلال. ذلك أنه عند طلوع سهيل الفحل زوج الشعرى يفطم الفصيل ابن الناقة- الشعرى ويمنع عن ضرعها. إذ عليها أن تكون مستعدة لضراب فحلها سهيل. فهو يأتي للقاحها. ولقاحها يقتضي فطام الفصيل. فما دام الفصيل يرضع حليبها فإن حملها يكون بعيد الاحتمال. يقول الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء عن الأصمعي: (قال الأصمعي: وتقول العرب إذا طلع سهيل طاب الليل ورفع الكيل وللفصيل الويل، أي رفع كيل الحنطة، وجاء كيل التمر، وخل لسان الفصيل أي منع من أمه. والأعرابي إذا رأى سهيلاً لطم عين فصيله ويقول: مالك عندي قطرة).(٨٤) ويضيف لسان العرب: (الخِلال: عود يجعل في لسان الفصيل لئلا يرضع ولا يقدر على المص... وقيل: خله شق لسانه ثم جعل فيه ذلك العود. وفصيل مخلول إذا غرز خلالا على أنفه لئلا يرضع أمه، وذلك أنها تزجيه إذا أوجع ضرعها الخلال، وخللت لسانه أخله).(٨٥) عليه، فكلمة خل في البيت تعني الفصيل الذي عقد لسانه أو أنفه بعود الخلال كي لا يرضع. وهذا الفصيل هو ابن الشعرى العبور. وعليه يكون معنى البيت أنه لا الشعرى العبور ولا ابنها يضيعان المال بحمياتهما. لكن في هذه الحالة يجب أن تكون الكلمة التي صحفت إلى نجوم وصفا للشعرى- الناقة. والحق أن كلمة (نهيم) تظل صالحة حتى في هذه الحالة. ذلك أن الجذر نهم يعني الزجر. وهذا ما يتوافق مع أن الناقة زجرت ابنها ومنعته من ضرعها

استعدادا لقدوم الفحل.

يقول لسان العرب: (النهم والنهيم: صوت وتوعد وزجر، وقد نهم ينهم... والنهم، بالتسكين: مصدر قولك نهمت الإبل أنهمها، بالفتح فيهما، نهماً ونهيماً إذا زجرتها لتجد في سيرها... وفي حديث عمر أيضاً، رضي الله عنه: قيل له إن خالد بن الوليد نهم ابنك فانتهم أي زجره فانزجر).[٨٦] نهيم تصلح، وتصبح جملة البيت بها هكذا:ولا تذهب الشعرى العبور بماله/ ولا الكوكب الدري خل نهيم

أي أن الشعرى- الناقة الزاجرة ربطت خلالا في أنف ابنها أو لسانه زاجرة إياه ومانعة له من الرضاعة.لكن يمكن أن يكون هناك أكثر من احتمال لوصف الشعرى- الناقة بكلمة أخرى غير نهيم تحل محل كلمة (نجوم) التي نفترض أنها كلمة مصحفة. كما أن ما طرحناه حول البيت كله يظل في باب الفرض لا أكثر.

twitter @baghdad_library

فصل 8

الإلهات الزرقاوات

(كانت اليمامة زرقاء، وكانت الزباء زرقاء، وكانت البسوس زرقاء)

مجمع الأمثال- الميداني

لدينا في المقتبس من الميداني أعلاه ثلاث نسوة شهيرات جدا في التراث العربي، وكل واحدة منهن زرقاء. غير أنهن لسن وحدهن الزرقاوات في الحقيقة. فهناك زرقاوات أخر وإن لم تنص المصادر العربية بوضوح على زرقتهن مثل: هند بنت الخس الإيادية، صحر بنت لقمان، جمعة بنت حابس، وخصيلة ابنة عامر بن الظرب، وربما غيرهن. فمن هن هاتيك النسوة في الحقيقة؟ ولماذا هن زرقاوات؟

فيما يخص زرقتهن، فهي فيما يبدو على علاقة بزرقة أعينهن. يقول عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب عن زرقاء اليمامة: (واليمامة اسمها، فسميت البلدة باسمها. وقيل اسمها: عنز. وهي إحدى الزرق الثلاث أعينها، والزباء، والبسوس).[1]

أما من هن، فالجواب: كل واحدة منهن إلهة، كل واحدة منهن إيزيس عربية، لكن سلبية ومضادة. فزرقة الأعين هي، فيما يبدو لنا، رمز لإيزيس السلبية، إيزيس النافرة، المسترجلة، المشؤومة. أي أنهن جميعا إيزيسات مشؤومات.

ونود هنا أن نبدأ بثانية الزرقاوات، أي بالزباء، لننتقل بعد ذلك إلى الأخريين، لأن حكايتها أشمل، وأكثر قدرة على الإضاءة. لكننا سوف نتحدث أيضا عن زرقاء أخرى تدعى النضيرة، وتشتبك قصتها بشدة مع قصة الزباء. بذا فسنتحدث في الواقع عن أربع من الإلهات الزرق العربيات.

أ- الزباء

وعملت الزباء أنفاقا على تدبير اليرابيع في محافيرها

الجاحظ، الحيوان

تبدو الزباء مثل بلقيس-المقة، التي أوضحنا في فصول أخرى أنها إلهة من طراز إيزيسي. فهي مثلها عذراء بتول. إذ هي حسب ابن الجوزي: (كانت قد اعتزلت الرجال، فهي عذراء بتول)[٢]. كما أنها مثل بلقيس أيضا قتلت زوجها جذيمة الأبرش. فوق ذلك فهي مثل بلقيس، ومثل ليليث الأدب العبري، مشعرة أكثر مما ينبغي لامرأة عادية. وقد دعيت بالزباء بسبب هذا الشعر الكث بالذات، حسب ما تقول لنا المصادر العربية. يقول أبو الفرج في الأغاني: (وأخذ جذيمة فأدخل على الزباء فاستقبلته قد كشفت عن فرجها، فإذا هي قد ضفرت الشعر عليه، فقالت: يا جذيم، أذات عروس ترى؟ قال: بل أرى متاع أمة لكعاء غير ذات خفر)[٣].

ويرى ابن الكلبي أيضا أن اسمها جاء من طول شعرها. ينقل عنه الدميري: (قال ابن الكلبي: ولم يكن في نساء عصرها أجمل منها، وكان اسمها فارعة وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جللها، فسميت الزباء لذلك)[٤]. ويضيف الزبيدي في تاج العروس: (الزبّاء:... لقبت به لِكثرة شعرها؛ لأَنها كان لها شعر إذا أَرسلته غطى بدنها كله، فَقيل لها الزبّاء، كأَنه تأنِيث الأَزبّ للْكثير الشعر)[٥].

أما بلقيس فقصة شعرها مشهورة تماما. يقول ابن المطهر في البدء والتاريخ: (وتزوج بها سليمان ويقال بل زوجها من مقاول اليمن وردها إلى ملكها، قالوا وكانت زباء هلباء فأمر سليمان فبنوا لها صرحا من قوارير لتخوضه، فكشفت عن ساقيها وهي تظن أنه ماء حتى رأى سليمان الشعر عليها فأمر فاستخرجوا لها النورة والزرنيخ)[٦].

كثافة الشعر قد تشير في الواقع إلى النبات والخضرة، بالقدر الذي تشير فيه إلى الشيطنة والتمرد والاسترجال. يقال في العربية: عام أزَب: كثير النبت. كما أن الشعر والشعير في العربية من جذر واحد. ومن المحتمل جدا أن اسم نجم إيزيس العربي، أي الشعرى، على علاقة بالشَّعر والشعير. أي أنها مثلهما مشعرة أيضا، لكن بالمعنى الإيجابي. ويجب أن نشير أيضا إلى أن ملكة سبأ الحبشية، التي تدعى أيضا ملكة التيمن، تسمى باللهجة الأكسومية (أتايا أزيب)، ويترجم هذا الاسم على أنه يعني (ملكة الجنوب)، أي ملكة التيمن أيضا. فالتيمن هو الجنوب. فـ (أزيب) تعني الجنوب في الأكسومية. وهذا ما

twitter @baghdad_library

يتوافق مع العربية. ففي العربية تسمى ريح الجنوب (أزيب). يخبرنا المرزوقي في الأزمنة والأمكنة عن أسماء الرياح: (والتي تهب من جهة القطب الجنوبي هي الجنوب وتسمى الأزيب. والنعامي، وهي تهب من جهة القطب الشمالي، وتسمى الشمال، وهي الجربياء)[٧]. وهذا ما قد يتيح لنا الافتراض بأن اسم (الزباء) و(أتايا أزيب) يتناقضان، لكن انطلاقا من جذر (زبب). فبينما تكون أتايا أزيب جنوبية، فيما يبدو، هي الجنوبية، تكون الزباء، انطلاقا من الجذر ذاته، بمعنى المشعرة، أي المسترجلة. وفي الوقت الذي أزال سليمان شعر بلقيس بالنورة، أي أزال استرجالها وتمردها، فقد ظلت الزباء مشعرة مسترجلة. أي ظلت زباء نفورة، و(كل أزب نفور) كما يقول المثل العربي.

وهناك من يقول إن الزباء كانت تدعى نائلة أو ميسون. يقول ابن خلدون في تاريخه عن عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة: (وقامت بملكه من بعده ابنته الزباء بنت عمرو واسمها نائلة عند الطبري وميسون عند ابن دريد).[٨] ونائلة هو اسم الإلهة التي نصب صنمها مع صنم إساف في الكعبة. وكنا قد افترضنا أنهما إلهان من طراز أوزيريس وإيزيس. فوق ذلك، فإن اسم نائلة يتواصل لفظيا بقوة مع اسم (النيلام)، أي النجم الأوسط من نجوم الحزام، الذي توصلنا إلى أنه يمثل العزى-إيزيس. وإذ هي مرتبطة بإيزيس فإنها يجب أن تكون على علاقة بالفيضان. وجذر (نيل) العربي الذي اشتق منه اسم نائلة يعطي معنى الماء والفيضان. يقول لسان العرب: (والنِّيل: نهر مصر، حماها الله وصانها، وفي الصحاح: فيض مصر. ونِيل: نهر بالكوفة، وحكى الأَزهري قال: رأَيت في سواد الكوفة قرية يقال لها النّيل يخرقها خليج كبِير يتخلَّج من الفُرات الكبِير، قال: وقد نزلت بهذه القرية؛ وقال لبيد: ما جاوز النيل يوما أَهل إِبْلِلا. وجعل أُمية بن أَبي عائذ السحاب نيلا).[٩]

أما اسم ميسون فعلى علاقة بشجر (الميس)، الذي نراه في الجزء الثاني من اسم سميراميس، شبيهة الشعرى. وحسب القاموس المحيط فإن ميسون: نجم في الجوزاء، أو كل نجم زاهر. ورغم أنه لا يحدد مكان هذا النجم، فإنه يجعلنا في شك من أنه قد يكون على علاقة بالشعرى، التي هي كلب الجوزاء.

أنفاق الزباء

ترتبط الزباء بأنفاق يقال إنها قد حفرتها كي تستخدمها في حالات الحصار. يقول لنا ابن الجوزي في المنتظم نقلا عن ابن الكلبي: (وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين

من شرقي الفرات وغربيه، وجعلت بينهما نفقاً تحت الفرات، فكان إذا رهقها عدو أوت إليه وتحصَّنت به).[١٠] ويضيف الطبري في تاريخ الرسل والملوك: (واتخذت نفقاً من مجلسها الذي كانت تجلس فيه إلى حصن لها داخل مدينتها، وقالت: إن فجأني أمر دخلت النفق إلى حصني).[١١]

ويقول عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب: (وملكوا بعده عليهم ابنته الزباء، وكانت من أحزم النساء، فخافت أن يغزوها ملوك العرب، فاتخذت لنفسها نفقاً في حصن كان لها على شاطئ الفرات، وسكرت الفرات في وقت قلة الماء، وبنت في بطنه أزجًا من الآجر والكلس، متصلاً بذلك النفق، وجعلت نفقاً آخر في البرية متصلاً بمدينة أختها، ثم أجرت الماء عليه، فكانت إذا خافت عدواً دخلت النفق. أما نشوان الحميري في الحور العين فيقول: وكانت الزباء قد صور لها صورة عمرو قائماً وقاعداً وراكباً، وكانت قد اتخذت نفقاً قد أجرت عليه الفرات، من قصرها إلى قصر أختها زبيبة).[١٢]

إذن، فالزباء تعبر بين مدينتيها على شاطئي الفرات، من خلال النفق، هربًا من الحصار كما يقال. وهي قد حفرت أنفاقها هذه على مثال أنفاق اليربوع. يقول الخليل بن أحمد في العين:

(القاصِعاء: جحر اليربوع).[١٣] نسخة من الوراق. ويضيف الجاحظ في الحيوان: (اليرابيع ضَرب من الفأر، قال: ويقال: نفَّق اليربوع ينفِّق تنفيقا إذا عمل النافقاء، وهي إحدى مجاحره، ومحافره، وهي النافقاء والقاصعاء... فإذا طلِب من إحدى هذه الحفائر نافق، أي فخرج النّافقاء، وإن طُلِب من النافقاء قصَّع. ويضيف: وزعم أبو عَقيل بن دُرست، وشداد الحارثي، وحسين الزهري أن الزباء الرومية إنما عمِلت تلك الأنفاق... على تدبير اليرابيع في محافيرها هذه، ومخارِجها التي أعدتها ومداخلها، وعلى قدر ما يفجَؤُها من الأمر).[١٤] ويضيف الزمخشري في ربيع الأبرار عن: (اليربوع واحتياله بما يسوي من محافره التي إذا طلب من هذا خرج من هذا أخذت الزباء عمل الأنفاق.[١٥]

نعتقد أن الزباء كانت تعبر النفق تمثيلا لحدث فلكي. ونحن نعلم أن نجمة الشعري، ممثلة إيزيس في السماء، تغيب لما يقرب من سبعين يومًا، قبل أن تعود للظهور من جديد مؤشرة على الانقلاب الصيفي، وبدء السنة الجديدة. الفترة التي تقضيها نجمة الشعرى في غيبتها تصور هنا مع الزباء على أنها عبور لنفق. ويخبرنا ابن الجوزي في المنتظم أنه: (كان للزباء أخت يقال لها: زبيبة، فبنت لها قصراً حسنًا على شاطئ الفرات الغربي، وكانت تَشْتُو عند أختها، وتَرْبع ببطن النجار، وتصير إلى تَدمُر).[١٦]

twitter @baghdad_library

إذن، فالأمر يتعلق بالانقلابين الصيفي الشتوي. فهي تنتقل شتاء إلى قصر أختها غربي الفرات. وإذا ما قارنا بينها وبين الشعرى العبور، فإن علينا أن نفترض أن الزباء هي من تقيم غربي النهر صيفا، ثم تذهب نحو زبيبة شرقي النهر شتاء. فالغميصاء، أخت الشعرى، مثيلة زبيبة. في حين أن الشعرى العبور هي الزباء. والغميصاء هي التي تقيم شرقي نهر المجرة، في مجموعة الذراع، بينما تقيم الشعرى غربي نهر المجرة في برج الجوزاء. كما نفترض أن الشعرى، إذن، حين تغيب اثنين وسبعين يوما، تعبر النفق تحت نهر المجرة ذاهبة عند أختها على الضفة الشرقية.

وهكذا لدينا أختان متشابهتان:

العبور الغميصاء

الزباء زبيبة

وقد سميت الشعرى بالعبور في العربية لأنها تعبر السماء عرضًا، أي لأنها تعبر من غربي نهر المجرة إلى شرقيه، كما نفترض. يقول لسان العرب: والعرب تسمي الشعرى العبور لأنها تعبر السماء عرضًا. ويضيف ابن الجوزي في المنتظم في التاريخ عن أبي كبشة عابد الشعرى العبور: (هو أول من عبد الشعرى وكان يقول: إن الشعرى يقطع السماء عرضا ولا أرى في السماء شمسًا ولا قمرًا ولا نجمًا يقطع السماء عرضًا غيرها والعرب تسميها: العبور لأنها تعبر السماء عرضًا).[١٦]

طبعا، نحن نعلم أن الشعرى لا تقطع السماء عرضا. وعليه فالمقصود هو عبورها الميثولوجي المفترض في فترة غيابها إلى أختها على الضفة الشرقية لنهر المجرة. أي أنها تعبر كما تعبر الزباء النفق من غربي نهر الفرات إلى شرقيه. أي أن الزباء عبور هي الأخرى.

ونحن نظن أن مدينتي الزباء على الفرات؛ الشرقية والغربية، على علاقة ما بجنتي أهل سبأ، أي جنتي قوم بلقيس- إيزيس، اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.[١٧]

جنتان عن يمين وشمال! أي عن يمين مجرى الماء، أو نهر المجرة، وشماله. إنهما مثل مدينتي الزباء في شرقي الفرات وغربيه. وبالمناسبة فإن إحدى مدينتي الزباء تدعى (الخانوقة). يقول البكري في معجم ما استعجم: (الخانوقة على وزن فاعولة، هي المدينة التى بنتها الزباء على شاطئ الفرات، من أرض الجزيرة).[١٨]

والخنق على علاقة بالعنقاء، طائر إيزيس. فاسم العنقاء باليونانية، أي فونيكس، يعني الخانقة. كما أن اسم العنقاء في العربية على علاقة بالعنق، أي بموضع الخنق. كذلك نعلم أن ليليث، شبيهة إيزيس، أو ربما وجهها السلبي، في الأدب الرابيني العبري، كانت تخنق الأطفال.

جذيمة الأبرش

تبدو العلاقة بين الزباء وجذيمة الأبرش غريبة جدا. فهو خطيبها وزوجها، لكنه في الوقت ذاته عدوها الذي ترغب في تدميره. وقصة زواجه بها هي قصة حرب في الحقيقة. فكل واحد من الطرفين كان يريد استخدام هذا الزواج للإيقاع بالطرف الآخر. وقصة العلاقة بين جذيمة والزباء واحدة من أكثر أساطير الجاهلية تماسكا في حبكتها. إنها مثال على السرد الأسطوري المتقن، الذي يريد تعليم الديانة عبر سلسلة ألغاز متتالية. كل جملة لغز. كل كلمة لغز. كل مثل عقدة مفصلية في الأسطورة.

تأخذك الأسطورة خطوة بعد خطوة إلى مقتل الملك جذيمة، الذي سال دمه على الأرض، ثم إلى مقتل الزباء. وعند كل ذروة من ذروات الأسطورة ينبثق مثل مدهش لتصوير الوضع، واختصاره. بعض هذه الأمثال المتوالية الفريدة شديد الغموض. لكننا نعتقد أنه من دون فك مغاليقها لن نتمكن من فهم أعماق الأسطورة، بل ولن نتمكن من فهم أديان الجزيرة العربية قبل الإسلام بشكل دقيق. غير أن فك مغاليقها ليس بالأمر الهين. وسوف نعرض لمثل واحد على الأقل من هذه الأمثال. لكن قبل ذلك لنلاحق قصة جذيمة مع الزباء. يصف لنا الميداني في مجمع الأمثال كيف سار جذيمة إلى الزباء:

(استخلف عمرو بن عدي على ملكه وسلطانه، وجعل عمرو بن عبد الجن معه على جنوده وخيوله، وسار جذيمة في وجوه أصحابه، فأخذ على شاطئ الفرات من الجانب الغربي).[١٩]

لقد أقام على الشاطئ الغربي للفرات، كما هو الحال مع إيزيس وأوزيريس. إذ نحن نعلم أن أوزيريس-سهيل يقيم في برج الجوزاء غربي نهر المجرة، كما نفترض أن أوزيريس الميت يقيم في (رستاو) مقابر الجيزة غربي نهر النيل. ليس ذلك فحسب، بل إن جذيمة أقام معسكره في منطقة اسمها (بقة). يقول ابن الأثير في الكامل: (فلمّا انتهى كتاب الزبّاء إليه استخفّ ما دعته إليه وجمع إليه ثقاته، وهو ببقّة من شاطئ الفرات).[٢٠]

twitter @baghdad_library

ويضيف ياقوت في معجمه:

(بقةُ: بالفتح وتشديد القاف واحدة البق، اسم موضع قريب من الحيرة، وقيل حصن كان على فرسخَين من هيت كان ينزله جذيمة الأبرش ملك الحيرة. وإياه أراد قَصير وقد استشاره جذيمة بعد فوات الأمر وكان أشار عليه ألّا يمضي إلى الزباء فلم يطعه فلما قرب منها وأحاط به عساكرها قال جذيمة: ما الرأي يا قصير؟ فقال له: ببَقَةَ خَلفتَ الرأي، فضربت العرب ذلك مثلاً).[21] ويزيد ابن الجوزي في المنتظم: (فلما انتهى كتاب الزّباء إلى جُذيمة استخفه ما دعتْه إليه، ورغب فيما أطمعته فيه، وجمع إليه أهلَ الحجى، والنُّهى، من ثقات أصحابه، وهو بالبَقَة من شاطئ الفرات).[22]

إذن فهو مقيم في (بقة). وبقة تذكرنا بالبئر أو الشق الصخرية (بق، بقا) التي يقوم فوقها عرش أوزيريس الميت في أبيدوس. كما تذكرنا بالإله (ذي بكة) في بئر الكعبة. أي أن الأمر يتعلق بمكان ميثولوجي، لا بمكان محدد. لذلك يقول لنا الميداني في مجمع الأمثال عن قول قصير صاحب جذيمة: ببقة صرم الأمر: (بقة، موضع بالشام).[23] عليه، فبقة ليست في العراق فقط، بل هي أيضا بالشام. كما أنها في أبيدوس في مصر وفي مكة. وهذا ليس غريبا. فهي من ضرورات معابد إيزيس وأوزيريس. إذ كل معبد أوزيريسي يقام على هضبة صخرية ما بها شق طبيعي تنزل إليه أرواح الموتى. وهذا ما يشير إلى أن جذيمة كاهن إله من طراز أوزيريسي، أو أنه هو ذاته إله أوزيريسي. وقد وردنا في نقوش العربية الشمالية، بالفعل، اسم إله يدعى (جذيمة، جذيمت).

والمثل الذي ينسب لجذيمة بعد أن تأكد أنه سيقتل على يد الزباء: (ببقة تركت الرأي) أو (ببقة أبرم الأمر)، أو (ببقة صرم الأمر)، يعني بالضبط أن موته الفعلي حصل ببقة، كما هو الحال مع أوزيريس الميت في أبيدوس بمصر. ذلك أنه اتخذ قرار الذهاب إلى الزباء ببقة. أي أنه اتخذ قرار موته ببقة. وبقة هي الموت، موت الإله.

ولا يجب أن يذعرنا أن نرى الزوجين الإلهين، جذيمة والزباء، أي إيزيس وأوزيريس يتصارعان حتى الموت. فنحن أمام الإلهين في صيغتهما السلبية، صيغة شجرة الخلاف، لا شجرة الوفاق والإثمار، أي شجرة الثبات والنبات. وضمن هذه الصيغة السلبية، نجد الإلهات في لحظتهن يقتلن أزواجهن. حدث هذا مع بلقيس في جانبها السلبي، ومع سميراميس التي قتلت أزواجا كثيرين. أكثر من ذلك، فقد حدث مع شبيهة إيزيس أيضا. فثم واحدة شريرة دعيت (آسو) شاركت سيث- تايفون في حبس أوزيريس في صندوق وفي قتله:

(وقد ارتكب تايفون مؤامرة خيانية ضده {ضد أوزيرس}، مكونا مجموعة من ٧٢من المتآمرين. وقد ساعده في ذلك ملكة إثيوبية تدعى آسو، كانت موجودة وقتها).[٢٤]

(آسو) هذه إيزيس السلبية، إيزيس المضادة. واسمها يتواصل مع (العزى) ومع لفظ إيزيس بالمصرية (إيزه). هذه المرأة أيضا شبيهة الزباء.

عصا جذيمة

تحدثنا أسطورة الزباء وجذيمة أن قصيرا رفيق جذيمة أعد له فرسا ليهرب على صهوتها، إذا ما كانت الزباء قد أعدت له فخا. فرس جذيمة هذه تدعى (العصا). وهو اسم غريب حقا! يروي الطبري في تاريخه قول قصير لجذيمة: (فاركب العصا- وكانت فرساً لجذيمة لا تجارى- فإني راكبها ومسايرك عليها. فلقيته الخيول والكتائب، فحالت بينه وبين العصا، فركبها قصير، ونظر إليه جذيمة مولياً على متنها، فقال: ويل أمة حزماً على ظهر العصا! فذهبت مثلاً، فقال: يا ضل ما تجرى به العصا! وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت، وقد قطعت أرضاً بعيدة، فبنى عليها برجاً يقال له برج العصا).[٢٥]

فما هي هذه العصا التي لو ركبها جذيمة لنجا؟

الحق أن هذه العصا تعيدنا فيما يبدو إلى الأشجار الإلهية التي خبرناها من قبل، مثل سمرة العزى، ومثل صفصافة إنانا، وخلصة ذي الخلصة. لكننا نجدها هنا تأخذ شكل فرس. غير أن على هذا ألّا يربكنا. فقصة مقتل جذيمة سلسلة من الأحاجي والألغاز اللغوية، التي عليك أن تحلها حتى تفهم الأسطورة. إنها فرس حقا، لكنها تسمى (العصا). والعصا من جذر (عص) الذي يعني الشجرة في اللغات السامية. وفي العربية: العيص: الشجر الملتف. إنها إذن شجرة، وليست فرسا. وقد توصلنا في فصل خاص عن بنات أيوب إلى أن أيوب ذاته كان أيضا مرتبطا بشجرة. فهو من أرض (عوص)، أي الشجرة.

و (عصا) جذيمة، التي فشل في أن يركبها، وفي أن ينجو من الموت بها، فركبها قصير ونجا، تبدو قريبة من عصا موسى. يقول الطبري عن عصا موسى أن شيخ مديان:

(أمر إحدى ابنتيه أن تأتيَه بعصا فأتته بعصا، كانت تلك العصا عصا استودعها إياه ملَك في صورة رجل، فدفعها إليه. فدخلت الجارية فأخذت العصا فأتته بها، فلما رآها الشيخ قال لها: لا، ائتيه بغيرها، فألقتها، فأخذت تريد أن تأخذ غيرَها فلا يقع في يدها إلا هي، وجعل يردها، فكل ذلك لا يخرج في يدها غيرها، فلما رأى ذلك عمد إليها

twitter @baghdad_library

فأخرجها معه، فرعى بها. ثم إن الشيخ قدم وقال: كانت وديعة. فخرج يتلقى موسى فلما لقيه قال: أعطني العصا، فقال موسى: هي عصاي، فأبى أن يعطيَه، فاختصما بينهما ثم تراضيا أن يجعل بينهما أولَ رجُل يلقاهما، فأتاهما ملك يمشي فقضى بينهما فقال: ضعاها في الأرض فمن حمَلها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطقها، وأخذها موسى بيده فرفعها، فتركها له الشيخ، فرعى له عشر سنين).[٢٦]

لم يتمكن حمو موسى من رفع العصا، في حين رفعها موسى لأن العصا- الشجرة الواقفة تعني النهوض والحياة. وأن ترفع العصا يعني أن تنهض إلى الحياة من الموت. وقد كان الشيخ قد أسن في حين كان موسى فتيا.

وكلمة السر في الديانة المصرية القديمة هي النهوض من الوضع الأفقي إلى الوضع العمودي، استنادا إلى عمود الشجرة. تقول إحدى منطوقات نصوص الأهرام عن إيزيس: أنتِ يا سلم السماء أتيت لتبحثي عن أخيك أوزيريس، لأن أخاه سيث طرحه على جانبه. وتقول منطوقة أخرى إيزيس ونفتيس: أبصرا أوزيريس مطروحا على جانبه فوق الضفة... انهض... يا أخي، فقد رأيتك. وتضيف ثالثة: جاء حورس، ظهر تحوت... أنهضا أوزيريس من رقدته على جانبه وجعلاه يقف...السماء أعطيت لك، الأرض أعطيت لك. من أجل هذا وضعت عصا موسى منطرحة على الأرض: (ضعاها على الأرض)، ثم (أخذها موسى فرفعها).

ويضيف لنا الطبري عن عصا موسى: أول شجرة غرسها الله في الأرض هي العوسجة التي اقتطع منها موسى عصاه. إنها الشجرة البدئية. شجرة إيزيس وأوزيريس. وابنة الشيخ المدياني كانت تلعب دور إيزيس. فهي قدمت العصا لموسى، الذي جعلها تقف بعد أن كانت منطرحة على الأرض. وقد ذكرنا التيفاشي في سرور النفس بمدارك الحواس الخمس أن هذه الشجرة سماوية، أي مكونة من نجوم. فقد أخبرنا أن: (أهل الأندلس يسمون الجوزاء عصا موسى).[٢٧] ونحن نعتقد أن عصا موسى ليست برج الجوزاء كله، بل نجوم حزام الجوزاء، حيث يذهب الآلهة كي يتجددوا وينبعثوا.

إذن فليس صدفة أن تسمى الفرس عصا. فهذه العصا هي، فيما يبدو، فرع الشجرة الذي يمثل الإله في انبعاثه، أي في فيضه الصيفي، أي الإله في مظهره الناجي لا الميت. لذا فحين فشل جذيمة في ركوب الشجرة- العصا قتل. أما قصير فقد ركبها ونجا. ولأن الفرس ليست فرسا فحين سقطت بعد أن جرى بها قصير فرسه كما رأينا: (بنى عليها برجاً يقال له برج العصا).[٢٨] وأن يبني للفرس برجا، يعني أن يبني عليها ما يشبه المعبد. ذلك أن العصا-الشجرة عصا إلهية، مثلما هي الحال مع شجرة العزى وشجرة إنانا

وشجرة ذي الخلصة. فمعبد العزى كان شجرة بأفرع ثلاثة. وكذا المر مع ذي العزة وإنانا السومرية. فالمعبد في نهاية الأمر شجرة.

قصير

أما قصير، الذي نجا على العصا، فهو ابن عم جذيمة، أو غير ذلك. وهو يدفع إلى الحيرة باسمه وبدوره الميثولوجي. فهو يبدو تابعا لجذيمة من ناحية، لكنه يبدو، من ناحية ثانية، كما لو أنه نقيضه. فمهمته أن يجاري جذيمة بالعصا- الفرس كي يمكنه من الهروب من الموت. لكنه هو من يهرب بالعصا وينجو، بينما يفشل جذيمة في ركوب العصا فيقتل. وهذا ما قد يدفع إلى اقتراح أن قصيرًا هذا ربما مثّل النغمة الصيفية الفيضية العالية، في حين أن جذيمة هو النغمة الشتوية القارة. يؤيد هذا أن النغمة الفيضية للنيل (قصيرة) لا تزيد على ثلاثة أشهر. أما النغمة غير الفيضية والشتوية فطويلة تمتد للأشهر الباقية من السنة. وقد أوضحنا في فصول غير هذا أن النغمة العالية الفيضية تتمثل بالمسافة بين نجم النطاق والنيلام في حزام أوريون- ميزان الطاقة في الكون. في حين أن النغمة الشتوية الواطئة غير الفيضية تتمثل بالمسافة بين النيلام والمنطقة، وهي تقارب ضعف المسافة الأولى.

وعليه، فقد يكون قصر (قصير) قصرًا فلكيًا ميثولوجيًا، وقصرًا يتعلق بقصر فترة ماء الفيضان، الماء السفلي. لكن هناك احتمالا آخر يعطيه لنا جذر (قصر) العربي. فالقصر كما يقول لنا لسان العرب: والقَصَرُ أُصول النخل والشجر وسائِرِ الخشب، وقيل: هي بقايا الشجر، وقيل: إِنها ترمي بشرر كالقَصْر، وكالقَصَر، فالقَصَر: أَصول النخل والشجر. يضيف: والمِقْصَرَة خشبة القَصَّار. وهي في العادة جذع شجرة، أو جزء كبير من جذع شجرة. كما أن الخشب الذي يؤخذ من جذوع الأشجار للتدفئة يدعى: القصر. وهذا يتوافق مع كون أوزيريس الصيفي الفيضي يتمثل بعمود يدعى (عمود جد). وهذا العمود يبدو كجذع شجرة في العادة، أو أنها مجموعة من الأغصان السميكة تجمع معا لتشكل حزمة أو عمودا. عليه، فقصير قد تكون هنا بمعنى: الجذع.

لكن الأكثر إثارة للحيرة هو أنف قصير. فلماذا جدع قصير أنفه؟: (لأمر ما جدع قصير أنفه). وما معنى هذا؟ نحن نعرف، بالطبع، أنه فعل ذلك كحيلة. لكن ما معنى هذه الحيلة ميثولوجيا؟ وإلى أي شيء تشير؟ هذا ما لا ندريه. وعدم قدرتنا على إدراك معنى جدع الأنف، يجعل من قدرتنا على تحديد وضع قصير محدودة. غير أن قصة مسروق

twitter @baghdad_library

مع عمر بن الخطاب يدلل على أن الجدع صفة ميثولوجية تحيل إلى إله ما. قال مسروق: قدمت على عمر فقال لي: ما اسمُك؟ فقلت: مَسروقُ بن الأَجْدَع، فقال: أَنت مسروق بن عبد الرحمن، حدثنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أَنَّ الأَجدع شيطان. وحين يقال شيطان هنا، فإن المرء يفترض إلها جاهليا.

وإذا كان جذيمة فيما عرضناه يبدو وكأنه يمثل نغمة واحدة من النغمتين الكونيتين، فإنه في بعض الأحيان يبدو كما لو أنه يحتوي النغمتين معا. وسوف نرى لاحقا، أنه يقيم مع نديمين في شمال السماء، أي داخل حزام سيث، في حين أن نقيضه يقيم، بنغمتيه، في جنوب السماء، في حزام الجوزاء.

المارد والأبلق

وترتبط الزباء بحصنين محددين، هما حصنا مارد والأبلق، اللذان عناهما المثل الذي ينسب للزباء: (تمرد مارد وعز الأبلق). يقول الميداني في مجمع الأمثال:

(تمرد مارد وعز الأبلق: مارد، حصن دومة الجندل. والأبلق، حصن للسموأل بن عاديا. قيل وصف بالأبلق؛ لأنه بني من حجارة مختلفة الألوان بأرض تيماء. وهما حصنان قصدتهما الزباء ملكة الجزيرة فلم تقدر عليهما. فقالت: تمرد مارد وعز الأبلق. فصار مثلاً لكل ما يعز ويمتنع على طالبه).[٢٩]

هذان الحصنان غامضان، وإن كان من المحتمل جدا أن يكونا تمثيلًا معماريًا لحدي الثالوث الأول والأخير، أي لوجهي الإله الأوزيريسي ومظهريه. أي أنهما مثيلا ضيزني جذيمة. وثم في المصادر العربية ما يشي بهذا. إذ نعرف كاهنا واحد على الأقل باسم الأبلق؛ لأن به برصًا. يقول لنا الجاحظ في البرصان والعرجان: (ولذلك {بسبب البرص} سموا الأبرص الأسيدي الراقي المتكهن أبلق. وإياه عنى ذو الرمة، فقال:

وعندي أسيدي عليه علامة ... من السوء لا تخفى على من توسما).[٣٠]

إنه كاهن وأبرص. وجذيمة نفسه أبرص. فاسمه يحمل معنى الجذام، الذي هو طراز من مرض جلدي. إضافة إلى أن المصادر العربية تقول لنا إنه أبرص، مسوية بين برش جذيمة والبرص. ويضيف الجاحظ: (ومن البرصان الأشراف من الملوك جذيمة بن مالك صاحب الزباء وقصير وكان يقال له جذيمة الأبرص فلما ملك قالوا على وجه الكناية: جذيمة الأبرش فلما عظم شأنه قالوا: جذيمة الوضاح ولم يقولوا: جذيمة الأوضح؛ لأنهم يضعون هذا الاسم في موضع الكناية عن الأبرص، وذلك كثير. وليس

في الأرض أبرص يقال له الوضاح غير جذيمة ومن يقال له الأوضح كثير والكناية إذا طال استعمالهم لها صارت كالأوضاح)[٣١].

كما نعرف أن موسى النبي كان وضاحا أبرش فيما يبدو. جاء في سفر الخروج:

(ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا. وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع. ثم يخرج ويكلم بني إسرائيل بما يوحى إليه. فإذا رأى بنو إسرائيل أن جلده كان يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه).[٣٢]

فوق هذا فحين أدخل موسى يده في جيبه خرجت بيضاء من غير سوء: اسُلك يدَك فِي جيبِك تخرج بيضاء من غير سوء، كما يقول القرآن الكريم. وهذا البياض يشير إلى برص ما، ولو كان حميدا. بل إن الطراز الديني من البرص يجب أن يكون حميدا. كما أن جلد موسى اللماع دليل على مثل هذا البرص. وكهنة الديانة الأوزيريسية عادة ما يتقنعون ويتبرقعون، ربما لإخفاء هذا البرص الحميد، أو ربما لأنهم ممثلون للإله الذي لا ينبغي لأحد رؤية وجهه. وجدّ النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب كان يدعى (شيبة الحمد). ويقال إن هذا اسمه الأصلي. لكن آخرين يقولون مإنه نسب إلى عمه بهذا الاسم. غير أن الدلائل تشير إلى أنه لقب مرتبط ببرش ما يجعل جزءا من شعره أبيض لماعا. كما أن الأسود العنسي كان أبرص فيما يبدو، لأنه كان يضع خمارا على وجهه. برص كل هؤلاء ربما يشير إلى لون ضوء النجوم التي تمثل أوزيريس.

وعليه، فثم كان يدعى الأبلق باسم واحد من حصني الزباء. ولا يقال لنا لأي إله يكهن الأسيدي هذا. لكن كونه أبرص يمنحنا الحق في أن نفترض أنه كاهن لإله أوزيريسي الطابع. أما المارد فشأنه أكثر غموضا، وإن كنا لا نستبعد ربطه بالنمرود. بهذا يمكن للزباء أن تكون حدًا أوسط في الثالوث، بينما المارد والأبلق هما الحدان الطرفيان، أي أنهما يمثلان إلهًا ذا طابع أوزيريسي في نغمته العالية ونغمته الواطئة.

لكن هناك ما ينبئ أن البلق يمثل النغمة الشتوية القارة الساكنة. يدل على ذلك جذر (عزز) العربي. فهو من الأضداد، أي يعطي معاني متضادة، فهو يعني: القوة والضعف. وقد رأينا في فصل سابق كيف أن اللات الذي يمثل النغمة العليا يتماهى مع عزيز، الذي يمثل النغمة العالية. لكننا نعتقد أن كلمة عز في جملة (عز الأبلق) تعني ضعف وفتر. و (عزّ الشيء يعز عِزاً وعِزة وعَزازة وهو عَزيز: قَل حتى كاد لا يوجد)، كما يخبرنا لسان العرب. يضيف اللسان (وفي التنزيل العزيز: وعَزَّني في الخِطاب؛ أَي غلبني في الاحتجاج....

twitter @baghdad_library

والعِزُّ: المطر الغَزير، وقيل: مطر عِزٌّ شديد كثير لا يمتنع منه سهل ولا جبل إلا أَساله. وقال أَبو حنيفة: العِزُّ المطر الكثير. أَرض معزوزة: أَصابها عِزّ من المطر. والعَزَّاء: المطر الشديد الوابل).[٣٣] وبهذا المعنى، معنى الضعف، يقول أبو العلاء المعري:

وأصبحت هينا كل شيء يعزني

أي أصبحت ضعيفا يؤذيني وينتصر علي. وهكذا فنحن أمام المطر، أي أمام الشتاء، مما يدل على أن عز في هذا الموضع تعني الضعف لا القوة. وعليه، يكون المارد الذي تمرد هو النغمة الصيفية الخمرية الجامحة المتمردة. وهذا يتوافق مع ترتيب المثل (تمرد مارد، وعز الأبلق) فالمتمرد يكون قبل الضعيف. ومن النادر جدا ألّا يعكس ترتيب الثواليث والثوانين (جمع ثانون، إذا ما نحتنا من اثنين صيغة على وزن فاعول) في الأخبار وضعها الفعلي. أي من النادر أن يحصل خطأ يجعل أول الثالوث تاليه.

وبالمناسبة فإن بعض نواحي فلسطين، وبالأخص القدس وضواحيها، ما زالت تسمي البَرَد باسم (حب عزيز)، أي حب المطر فيما نظن، مما يدل على أن الأبلق مرتبط بالشتاء والعواصف المطرية.

الضيزنان

قلنا إن جذيمة يوحي وكأنه يمثل النغمة الشتوية من نغمتي إله أوزيريسي الطابع. من أجل هذا فهو موجود في شمال السماء لا في جنوبها. لكننا مع ذلك نجد أنه مصحوب برفيقين. إذ تحدثنا المصادر العربية عن صنمين محددين كانا له. أما الصنمان فاسمهما (الضيزنان). يقول ابن الجوزي في المنتظم: (وكان جذيمة قد تنبأ وتكهن، واتخذ صنمين، يقال لهما: الضيزنان ومكانهما بالحيرة معروف وكان يستسقي بهما ويستنصرهما على العدوّ).[٣٤]

جذيمة متكهن له صنمان يعبدهما. أي أنه يمثل إلها بصنمين، أو إلها بمظهرين كما لنا أن نقول. وهذان الصنمان مرتبطان بالمياه والرطوبة، كما الحال بالنسبة إلى أوزيريس، في فيضه الصيفي وفي مطره الشتوي، ولأننا لا نعرف شيئا عن هذين الصنمين سوى علاقتهما بالماء، فإننا سنحاول استقراء المعنى اللغوي لكلمة (ضيزن) بالعربية، ذاهبين إلى ما جمعه لسان العرب من معانٍ لهذه الكلمة:

(قيل: الضيزنانِ المستقيان من بئر واحدة، وهو من التزاحم. وقال اللحياني: كل رجل زاحَمَ رجلاً فهو ضيزن له. والضيزن: الساقي الجلد. والضيزن: الحافظ الثقة.

وفي حديث عمر، رضي الله عنه: بعث بعامل ثم عَزَله فانصرف إلى منزله بلا شيء، فقالت له امرأته: أينَ مَرافِقِ العمل؟ فقال لها: كان معي ضَيْزنانِ يحفظان ويعلمان؛ يعني الملكين الكاتبين، أرْضَى أهلَه بهذا القول وعَرَّضَ بالملكين، وهو من معاريض الكلام ومحاسنه... والضيزن: ضدّ الشيء: قال: في كل يوم لك ضيزنانِ. وضيزن: اسم صنم، والضيزنانِ: صنمانِ للمُنْذِر الأكبر كان اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحانا للطاعة. والضيزن: الذي يسميه أهل العراق البُندار، يكون مع عامل الخَراج. وحكى اللحياني: جعلته ضيزنا عليه أي بُندارا عليه، قال: وأرسلته مُضغِطا عليه، وأهل مكة والمدينة يقولون: أرسلته ضاغِطا عليه.... الضيزن: النخاس، والضيزن: الشريك، وقيل: الشريك في المرأة. والضيزن: الذي يزاحم أباه في امرأته).[٣٥] ويؤكد الأزهري في تهذيب اللغة المعنى قبل الأخير: (قال الليث: الضيزن: الشريك في المرأة).[٣٦]

إذن، فالضيزن هو: الضد والمزاحم، الساقي الجلد القوي، الملاك المراقب، أو المراقب الضاغط على من يعمل في الخراج أو غيره، والحافظ الثقة، والشريك في المرأة، وشريك أبيه في امرأته. وأغلب هذه المعاني تشير إلى وجهي إله أوزيريسي. فالضيزنان هما الشريكان في المرأة. ولنتذكر دوما أن الآلهة من طراز أوزيريسي تتمثل بحدين طرفيين في ثالوث حده الأوسط امرأة. فهما يحيطان بها من الجهتين. إنهما يتشاركان في المرأة، كما هو الحال في ثالوث (اللات والعزى ومناة). فاللات ومناة الذكران يحيطان بالعزى الأنثى. وهما في الواقع زوجاها. أو هما في الواقع زوجها بمظهريه. وهاروت وماروت الذكران يحيطان بالمرأة- الزهرة ويتشاركانها. ومن أجل هذا نفهم لم كان الضيزن: (الشريك في المرأة).

من ناحية ثانية يمكن لنا أن نفهم أيضا لم يكون الضيزنان (المستقيان من بئر واحدة). البئر هنا هي البئر الكونية، بمائها العلوي، الشتوي، ومائها السفلي، ماء الفيضان، والساقيان هما أوزيريس الصيفي، الفيضي، وأوزيريس الشتوي الممطر. الكون بئر ماء، وأوزيريس شادوف هائل بركوتين تنضحان ماءه. في حين أن إيزيس هي نقطة التوازن في هذا الشادوف. وحين تنزل ركوة الصيف يحدث الفيضان. وحين تنزل الركوة الثانية يهطل مطر السماء، وهكذا فالشادوف يهبط وينزل، والساقيان ينشلان ويصبان. إنهما ساقيان يتباريان على السقاية. ضيزنان واحد على الشمال وواحد على اليمين. قال الراجز:

في كل يـوم لك ضيزنـانِ عند إزاء الحوض مِلْهـَزانِ

أما لمن يتساءل: لم يكوِّن الضيزن في اللغة هو من يتزوج امرأة أبيه، نجيب بالقول:

twitter @baghdad_library

بأن الوجه الثاني للإله، أي الرجل الثاني، يتحول أحيانا إلى ابن، كي نكون أمام الآب والابن والروح القدس. . والإله مين، اي أوزيريس- النيل في لحظته الواطئة، يتماهى في بعض اللحظات مع حورس. أي أن مين هو حورس في لحظة معينة، أي أنه الزوج والأب يتحدان في لحظة ما؛ لذا تلعب إيزيس في احتفال الإله مين دور (أم الثور)، أي أم الإله مين ذاته، رغم أن هذا الثور هو الإله. ومن أجل هذا تظهر الإلهة الخلصة في التراث العربي وكأنها أم ذي الخلصة، لكنها تظهر في لحظة ثانية كعشيقته، كما رأينا في فصل آخر.

من ناحية ثانية، فنحن نعرف أن سهيلا يدعى بالعشار عند العرب، أي جامع ضرائب ومكوس. لقد كان عشارًا ظالمًا باليمن، فمسخه الله نجمًا في السماء. من أجل هذا حمل لنا جذر (ضزن) معنى المراقبة والضغط كما رأينا: (الضيزن: الذي يسميه أَهل العراق البُندارِ، يكون مع عامل الخَراج. وحكى اللحياني: جعلته ضيزنا عليه أَي بندارا عليه، قال: وأَرسلته مُضغِطا عليه، وأهل مكة والمدينة يقولون: أَرسلته ضاغِطا عليه). فأوزيريس إله يجمع مكوسه وخراجه، وضيزناه هما بنداراه، أي ضاغطاه.

إذن، فالضيزنان هنا هما وجها الإله الأوزيريسي ومظهراه. هذان المظهران يتمثلان بفرقدين أيضا فيما يبدو. ذلك أن جذيمة يدعى (نديم الفرقدين).

نديم الفرقدين

يقول ابن المطهر في البدء والتاريخ:

(وهذه قصة جذيمة الأبرش، وزعموا أن منزل جذيمة الأبرش كان بالأنبار والحيرة، وكان لا ينادم أحدا ذهابا بنفسه أن يكون له نظير، وينادم الفرقدين. فإذا شرب قدحا صب لهذا قدحا ولهذا قدحاً. وكان له أخت مكينة عنده يقال لها رقاش أم عمرو. وكان أخص خدمه وأقربهم من لخم يقال له عدي بن نصر بن الساطرون وصاحب الحضر بأرض الجزيرة ملك السريانيين، فعشقته رقاش أخت جذيمة، وحملت منه. فلما خافت الفضيحة قالت لعدي أخطبني من الملك إذا سكر، ففعل ذلك، فزوجه، ودخل بها. فلما صحا جذيمة ندم فأمر بعدي فضرب عنقه، وظهر الحمل برقاش، فقال جذيمة:

أصدقيني رقاش لا تكذبيني

بحـــرّ حملت أم بهـجيـــن

أم لدون فأنت أهـــل لـدون

فقالت حملت ممن زوجتني به، فلم يلبث أن ولدت عمر بن عدي فتبناه جذيمة وعطف عليه. فلما نشأ استهوته الجن فتاه في الأرض، فجعل جذيمة لمن يأتي به حكمه فخرج في طلبه رجلان يقال لأحدهما مالك والآخر عقيل، ولم يزالا يطلبانه حتى أتيا به فقال لهما جذيمة احتكما فقالا : ننادمك ما عشت فنادماه أربعين سنة).[٣٧]

إذن، فلجذيمة نديمان هما مالك وعقيل. كما أن الأسطورة تسميه بنديم الفرقدين. وعليه فنحن ملزمون أن نرى أن هذين الفرقدين هما مالك وعقيل أيضا، رغم أننا نعرف تماما أن المصادر العربية لم تتجرأ على ربط مالك وعقيل بالفرقدين.

لكننا نعلم أيضا أن الفرقدين نجمان معروفان في نعش بنات نعش. إذن، كيف يمكن لجذيمة أن ينادم فرقدين في السماء إن لم يكن سماويا مثلهما؟! كيف له أن يصب كأسا له وكأسين لهما من دون أن يكون قربهما؟ لكي تحل الأمر، فالمصادر العربية تأخذ كلام الرواية مأخذا مجازيا، أي أن جذيمة كان بشريًا لكنه يرفض أنفةً أن ينادم بني البشر؛ لذا كان يقعد ويتظاهر بأنه يصب كأسين لنجمي الفرقدين!

لكن كل واحد يعرف بالأساطير ومنطقها يدرك، منذ النظرة الأولى، أن وجود الفرقدين إلى جانب جذيمة يشير إلى أن جذيمة ذاته كائن إلهي سماوي، مرتبط بهذين النجمين السماويين. إنه يتبدى كبشري، كما يتبدى الفرقدان كبشريين هما مالك وعقيل، لكن هذا يأتي في سياق الكهانة، أي في سياق تمثيل أرضي للإله وفرقديه.

وما دام جذيمة كائنا سماويا، ينادم كائنين سماويين هما الفرقدان في بنات نعش، فلا بد أن يكون هو قريبا من بنات نعش كي يمكن له أن ينادمهما. أو قل إنه لا بد أن يكون في بنات نعش في الحقيقة كي تتم المنادمة. وإذا كان الأمر كذلك فنحن نتحدث عن إله ميت. أي عن أوزيريس السماء الشمالية. فمربع بنات نعش يدعى (النعش). ووجود النعش يدل على الموت. وعليه، فمربع بنات نعش هو نعش جذيمة. هناك يصب الكأس لنفسه ولنديميه مالك وعقيل.

الغريان

وكنا تحدثنا في فصل سابق عن بنّاءَيْن في العراق هما (الغريان). وتوصلنا إلى أنهما شبيها الصفا والمروة، أي أنهما ممثلا النغمة العالية والسافلة للكون. ويخبرنا لسان العرب نقلا عن آخرين عن هذين البناءَيْن بقوله: الغريان (بناءان طويلان، يقال إنهما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش).[٣٨] حسن جدا؛ الغريان بناءان طويلان، نصبان. لهذا فقد

twitter @baghdad_library

رأينا أنهما ممثلا نغمتي الكون الأساسيتين. وها نحن نراهما كقبري مالك وعقيل نديمي جذيمة! أي أن نديمي جذيمة يشبهان مجوز الريح ومطعم الطير. ولا بد أن أحدهما كان قتيلا، كما هو الحال مع نديمي النعمان بن المنذر. ذلك أن الغريين ينسبان أيضا للنعمان هذا. وليس ذلك بالغريب، فالنعمان هو نسخة من جذيمة، أو العكس:

(كان المنذر بن ماء السماء قد نادمه رجلان من بني أسد، أحدهما خالد بن المضلل، والآخر عمرو بن مسعود ابن كلدة، فأغضباه في بعض المنطق، فأمر بأن يحفر لكل واحد حفيرة بظهر الحيرة، ثم يجعلا في تابوتين، ويدفنا في الحفرتين، ففعل ذلك بهما، حتى إذا أصبح سأل عنهما، فأخبر بهلاكهما، فندم على ذلك، وغمه.... ثم ركب المنذر، حتى نظر إليهما، فأمر ببناء الغريين عليهما، فبنيا عليهما، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين، يسمي أحدهما يوم نعيم، والآخر يوم بؤس، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شوما أي: سودا، وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود، ثم يأمر به، فيذبح ويغرى بدمه الغريان، فلبث بذلك برهة من دهره).[٣٩]

مالك وعقيل يتحولان مع النعمان إلى خالد بن المضلل وعمرو بن مسعود. الأسماء تتغير فقط. أما الفكرة فهي ذاتها: الإله يتمثل بمظهرين، والبناءان يمثلان هذين المظهرين.

وقد يكون الاسم بالباء في اعتقادنا (الغربان). وفي الحقيقة فإن هذا أقرب للمنطق. إذ أن الغربان في اللغة تعني: الدلوان. والغرب: الدلو العظيمة. وهذا ما يتوافق مع ضيزني جذيمة- أوزيريس. فجذيمة كان يستخدم ضيزنيه للاستسقاء. إنهما دلوان- غربان، أو ضيزنان للسقاية لا فرق. أي أنهما وجها الإله الصيفي والشتوي. وكونهما غرِيَّيْن، بالياء، لا يناقض فكرتنا. فالغري صنم أو نصب تذبح عليه الذبائح. أي أن الغريين نصبان دينيان. طبعا هناك أيضا احتمال معقول لأن تكون الكلمة (العزيان) بالزاي. وبالفعل يخبرنا الزبيدي في تاج العروس أنهما بالزاي. يقول: والعزيان مثنى هما بظاهر الكوفة حيث قبر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه زعموا أنهما بناهما بعض ملوك الحيرة. والعزي هو الشيطان كما يخبرنا ابن الكلبي في نسب معد واليمن الكبير عند حديثه عن عزي سلمة الكاهن: وهو الكاهن الذي يقال له عزي سلمة، وإنما اسمه سلمة، وعزي شيطانه. وعليه، يكون لجذيمة عزيان، أي شيطانان كما هو حال رحمن اليمن، الأسود العنسي، الذي لديه شيطانان: شريق وسحيق.

وبالمناسبة، فإن الفرقد في العربية هو ولد البقرة، أي العجل، الثور. ونحن نعلم من بلوتارخ أن أوزيريس كان يتمثل بثورين أبيض وأسود: أبيس ومنفيس. أي أن الفرقدين في الغالب هما هذان الثوران.

لكن قبل أن ننهي حديثنا عن جذيمة لا بد من الإشارة إلى قصة أخته رقاش. ونحن نعتقد أن رقاش هذه هي الأخرى طراز من إيزيس. أي أننا أمام قصتين لجذيمة مع امرأتين من طراز واحد. ولا يجب أن يربكنا أن رقاش هي أخت جذيمة. فإيزيس أيضا هي أخت أوزيريس وزوجته في لحظة واحدة. ويبدو واضحا لنا أن (عمرو بن عدي الساطرون) خادمه الذي تزوج أخته من غير إرادته، هو الوجه المقابل لجذيمة. أي أنه النغمة العليا الخمرية. وسوف نرى، بعد قليل في قصة (النضيرة والساطرون)، أن (الساطرون) بالذات، الذي يوضع هنا كجد لعمر بن عدي، هو النغمة الخمرية العالية للكون. دليل ذلك أن الخمر في العربية تدعى المسطار، الاسم المأخوذ من الساطرون. أي أننا أمام مظهري إله أوزيريسي.

يؤيد ما نقول أن لدينا في الأساطير العربية كاهنة، وربما ملكة، تدعى رقاشا. يقول لنا مرتضى الزبيدي في تاج العروس عن رقاش هذه: (كانت امرأة تغزو، قال ابن بري: قال المفضل: هي رقاش الكنانية كانوا يتيمنون برأيها، وكانت كاهنة لها حزم ورأي، فأغارت طيء -وهي عليهم- على إياد بن نزار بن معد يوم رحى جابر، فظفرت بهم وغنمت، وكان فيمن أصابت من إياد شاب جميل، فاتخذته خادما، فرأت عورته، فأعجبتها، فدعته إلى نفسها فحبلت، فذكر لها الغزو فقالوا: هذا زمان الغزو فاغزي إن كنت تريدين الغزو فقالت: رويد الغزو ينمرق، فأرسلتها مثلًا أي: أمهل الغزو حتى يخرج الولد، ثم جاءوا لعادتهم، فوجدوها نفساء مرضعا قد ولدت غلاما، فقال شاعرهم:

نبئت أن رقـاش بعد شمـاسـهـا　　　حبلت، وقد ولدت غلامـا أكحـلا

فالله يحظيهـا ويرفع بضـعـهـا　　　والله يلقحهـا كشـافـا مـقبـلا

كانت رقاش تقود جيشا جحفـلا　　　فصبت وأحر بمن صبا أن يحبلا).[٤٠]

وما يثير في الأبيات الشعرية أنه يتم الحديث عن رقاش كما لو أنها ناقة (والله يلقحها كشافا). وتقول المعاجم العربية: (الكِشاف: أَن تَلْقَح الناقة في غير زمان لَقاحها، وقيل: هو أَن يَضْرِبها الفحل وهي حائل... قال أَبو منظور هذا التفسير خطأ، والكِشاف أَن يُحمل على الناقةَ بعد نتاجها وهي عائذ قد وضَعت حديثاً).[٤١]

وقد ورد في النقوش النبطية الاسم (ر ق و ش المعروف في النقوش الثمودية بصيغة ر ق ش والحضرمية بصيغة ر ق شم... وهو يعادل اسم العلم المعروف في المصادر

twitter @baghdad_library

العربية القديمة رقاش. على كل حال، الرقش هي الناقة كما يذكر ابن دريد).[٤٢]

إذن فرقاش ربما كانت ناقة. ونحن نعلم أن الشعرى- إيزيس العربية تتمثل بناقة. عليه، فرقاش أخت جذيمة إلهة-ناقة، أو كاهنة الإلهة-الناقة. فهي كاهنة، وهي تقود قومها في الغزو. وقد أحبت أسيرا كما أحبت رقاش جذيمة خادمها، وجامعته من غير زواج مثلها، ثم أولدها ولدا مثل عدي بن عمرو.

ولدينا مثل عربي معروف يقول: (اسق رقاش، فإنها سقّاية)، أي أحسن لمن هو من المحسنين. ويربط المثل برقاش أخت جذيمة. ونحن نعتقد أن المثل يتحدث عن رقاش-إيزيس. فإيزيس (سقّاية) لأن ظهورها الصيفي بعد غياب سبعين يوما هو إعلان عن فيضان النيل. وعليه، فابن رقاش هو ابن أخت جذيمة، كما أنه ابنه في الحقيقة. ذلك أن جذيمة وعمرَ وجهان للإله ذاته.

بهذا، فنحن، على الأغلب، أمام قصتين مختلفتين عن إله أوزيريسي وعن أنثاه، ربطتا معا، وتداخلتا. إذ أن رقاش، في نهاية الأمر، تبدو وجها آخر للزباء.

ب- الضيزن والنضيرة

(عليك بحمامة ورقاء مطوقة فاكتب على رجلها بحيض جارية بكر زرقاء ثم أرسلها فإنها تقع على سور المدينة فيخرب)

النضيرة

تتشابك قصة الزباء- جذيمة، صاحب الضيزنين، أحيانا، مع قصة النضيرة والضيزن. فزباء جذيمة تبدو أحيانا وكأنها بنت ضيزن النضيرة. يقول الدينوري:

(فلم يزل جذيمة ملكاً بالخورنق زماناً حتى دعته نفسه إلى تزوج مارية ابنة الزباء الغسانية، وكانت ملكة الجزيرة، ملكت بعد عمها الضيزن الذي قتله سابور، وكان له ولها حديث مشهور، فقتلت جذيمة، ثم قتلها قصير مولاه).[٤٣]

هنا يبدو وكأن قصة الزباء وجذيمة استمرار لقصة أخرى، فيها ضيزن آخر هو عم الزباء.

والربط بين أسطورة هذا الضيزن وبين جذيمة بضيزنيه نابع، في أغلب الأمر، من الشعور القوي بأن الأسطورتين تتحدثان عن موضع واحد رغم اختلاف الأسماء، ورغم أن الرواية الأكثر شيوعا لا تربط جذيمة الأبرش بالضيزن.

تقول أسطورة الضيزن هذا: إنه كان ملك الحضر، فحاصره سابور ذو الأكتاف، أو سابور من دون أكتاف، فقتله بعد أن خانته ابنته النضيرة، وسلمت الحصن لسابور، الذي تزوجها ثم قتلها. ويمكن لنا أن نأخذ مختصر قصة الضيزن من ابن الأثير في الكامل في التاريخ:

(كانت بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر، وكان بها ملك يقال له الساطرون، وكان من الجرامقة، والعرب تسميه الضيزن، وهو من قضاعة. وكان قد ملك الجزيرة وكثر جنده، وإنه تطرق بعض السواد إذ كان سابور بخراسان، فلما عاد سابور أخبر بما كان منه، فسار إليه وحاصره أربع سنين، وقيل: سنتين، لا يقدر على هدم حصنه ولا الوصول إليه.

وكان للضيزن بنت تسمى النضيرة، فحاضت، فأخرجت إلى ربض المدينة، وكذلك كان يفعل بالنساء، وكانت من أجمل النساء، وكان سابور من أجمل الرجال، فرأى كل واحد منهما صاحبه فتعاشقا، فأرسلت إليه: ما تجعل لي إن دللتك على ما تهدم به سور المدينة؟ فقال: أحكمك وأرفعك على نسائي. فقالت: عليك بحمامة ورقاء مطوقة فاكتب على رجلها بحيض جارية بكر زرقاء ثم أرسلها فإنها تقع على سور المدينة فيخرب، وكان ذلك طلسم ذلك البلد. ففعل وتداعت المدينة، فدخلها عنوةً وقتل الضيزن وأصحابه، فلم يبق منهم أحد يعرف اليوم، وأخرب المدينة، واحتمل النضيرة فأعرس بها بعين التمر فلم تزل ليلتها تتضور، فالتمس ما يؤذيها فإذا ورقة آس ملتزقة بعكنة من عكن بطنها، فقال لها: ما كان يغذوك به أبوك؟ قالت: بالزبد والمخ وشهد الأبكار من النحل وصفو الخمر. فقال: وأبيك لأنا أحدث عهداً بك وآثر لك من أبيك! فأمر رجلاً فركب فرساً جموحاً ثم عصب غدائرها بذنبه ثم استركضها فقطعها قطعاً).(٤٤)

وثم تفصيلات كثيرة واختلافات تضيفها هذه الرواية أو تلك. لكن هذا هو جوهر الحكاية. وكما نلحظ، فنحن في المسرح ذاته تقريبا، مسرح الزباء وجذيمة: الجزيرة، الحصون، والمرأة الزرقاء، والفرس، والشجرة. من أجل هذا فقد ربطت بعض المصادر القصتين معا.

والغريب في القصة أن (الضيزن) يسمى بـ (ساطيرون)، أي (زحل) اليوناني. لكن المصادر العربية إذ تعطيه اسم الساطيرون، فإنها لا تربطه مباشرة بزحل، أي لا تقول لنا إن الضيزن هو زحل. لقد منحوه اسم زحل، لكنهم لم يتصرفوا معه على أنه زحل. عليه، فما الذي أدخل زحل هنا؟ هناك احتمالان:

twitter @baghdad_library

الأول: أن المصادر اليونانية تربط ساتيرون- زحل بهرمس- تحوت الشديد الصلة بإيزيس وأوزيريس. فهو كان مستشارا لهما. كما أن تحوت الذي يبدو كأب لإيزيس أحيانا، يتماهى مع أنوبيس- الكلب.

الثاني: أن المقصود هو Satyr وليس زحل- ساتيرون. ونحن أميل إلى هذا. وتصور الميثولوجيا اليونانية (ساطير، ساتير) المرتبط دوما بـ(بان)، على هيئة رجل بأقدام تيس. كما تصوره بأذيال كثيفة وطويلة، وهي إما أذيال أغنام أو خيول. كما ترسم لنا الساتيرات بنبات اللبلاب، أي العشقة (الآيفي)، يكلل رؤوسها، وبصولجان أو رمح ديونيسوس المتوج بكوز صنوبر. وكل هذه الأشياء مرتبطة بقوة بعبادة ديونيسوس. إنها رموز الديانة الأوزيريسية- الديونسيسية. وككائنات ديونيسوسية فإن السيترات مغرمة بالخمر؛ لذا تصور بكأس خمر في أيديها. كما كثيرا ما تصور عازفة وراقصة.(٤٥)

الساتير هذا تابع لأوزيريس- ديونيسوس. إنه في الحقيقة نغمة أوزيريس العليا. ونحن نعرف من بلوتارخ أن أول من علم بموت أوزيريس الفاجع هو بان وساتير هذا:

(وكانت البانات والساتر الذين يستوطنون إقليم خميس {Chemmis} أول من علم الخطب الذي اكتنف ملكهم. وإذ راحوا على الفور يحيطون الناس علما بالنبأ المروع فقد هيئوا الفرصة لظهور مصطلح «المروّعات البانية» Panic Terrors، وهو مصطلح أشيع استعماله منذ ذلك الحين ليدل على أي ذعر أو انشداهٍ مريع).(٤٦)

ساتير وبان هما نغمتا أوزيريس. سيتر هو النغمة العالية الخمرية، الذي هو مثيل المكاء العربي، شرّيب الخمر السكران، وبان هو النغمة الواطئة الشتوية، من أجل هذا فهو بكاء مذعور من اسمه أخذ الذعر والانشداه؛ لأنه يمثل أوزيريس الميت الشتوي. وهما مثيلا اللات ومناة. ولدينا من ديودورس ما يؤكد أن بان هو أوزيريس. يقول:

(أوزيريس دعي سرابيس عند بعضهم. غير أنه سمي ديونيسوس عند البعض الآخر، وبلوتو عند غيرهم... وكثيرون يعتبرون بان هو هذا الإله ذاته).(٤٧) وبما أن ديونيسوس هو أوزيريس، فبان هو أوزيريس إذن. لكنه أوزيريس في نغمته الواطئة، فيما نرى. أما ساتير فهو أوزيريس في نغمته العالية.

بناء عليه، فمن الواضح أن الضيزن- ساطيرون هو ساتير. فهو سكير متهور مثله. يقول ابن هشام في سيرته عن الضيزن: (فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر، وكان لا يبيت إلا سكران).(٤٨) إنه أيضا مثل المكاء الخمري، ولا يستطيع العيش من دون الخمر. وقد ذكرنا من قبل أن الخمرة تدعى المسطار بالعربية، الأمر الذي لا بد أن يكون على

علاقة بساتير أو ساطيرون هذا. يقول لسان العرب:

(المُسْطَار الخمر الحامض، بتخفيف الراء، لغة رومية، وقيل: هي الحديثة المتغيرة الطعم والريح، وقال: المسطار من أسماء الخمر التي اعتصرت من أبكار العنب حديثاً بلغة أهل الشام، قال: وأُراه روميًّا لأنه لا يشبه أبنية كلام العرب؛ قال: ويقال المسطار بالسين، قال: وهكذا رواه أبو عبيد في باب الخمر وقال: هو الحامض منه. قال الأزهري: المسطار أظنه مفتعلاً من صار قلبت التاء طاء. الجوهري: المسطار، بكسر الميم، ضرب من الشراب فيه حموضة).[٤٩]

أما عن ارتباط الضيزن بالخيل وذيولها، كما هو الحال مع سيطر، فقد رأينا ما أخبرنا به ابن الأثير من أنه قتل النضيرة بربطها من غدائرها بفرس: فأمر رجلاً فركب فرساً جموحاً ثم عصب غدائرها بذنبه ثم استركضها فقطعها قطعا.

فوق هذا. فإن ورقة الآس التي وجدها الساطيرون- الضيزن (ملتزقة بعكنة من عكن بطنها)، فقتلها بسببها يحيل إلى نبتة اللبلاب. فجميع النباتات المتسلقة ذات طابع أوزيريسي. وفي:

(مهرجان الفاكهة في فلسطين القديمة، وهو طقس يرقى إلى أيام الكنعانيين، كان المحتفلون يحملون الترسوس باليد اليمنى، وأغصان السفرجل باليد اليسرى، ويدورون حول المذبح. وكان الترسوس {صولجان أو رمح يتوج بحلية على شكل كوز صنوبر، ويلف أحيانا بأعواد الكرمة وأغصان الفاكهة} يزين بثلاثة أغصان: الآس في اليمين، وسعفة النخيل في الوسط، وغصن الصفصاف في اليسار).[٥٠]

الغصن الأوسط هو إيزيس. فنحن نعلم أن النخلة رمز لها ولطائرها العنقاء. (فالنخلة باليونانية فينيقس phoenix. وتقال هذه الكلمة للعنقاء أيضا. كما تعني هذه اللفظة (أرجوان) أو (أحمر بلون الدم). و(إنما سميت العنقاء فينيقس لأنها، كما تقول الأسطورة، تتوالد على نخلة).[٥١]

أما شجرة الصفصاف فقد رأينا من قبل أن أوزيريس الفيضي في النصوص المصرية هو الذي يقف على قمة شجرة الصفصاف. عليه يتبقى أمامنا الآس الذي هو نقيض الصفصاف؛ لذا وضع في الكفة الموازنة له، أي أنه النغمة المعاكسة للنغمة الصفصافية العالية.

وإكمالا لطقس الترسوس، أي الصولجان برأس الصنوبر، فقد:

(قطعت حواء الثانية- بعد ليليت العفريتة التي تزعم الأساطير العبرية أنها كانت

twitter @baghdad_library

زوجة آدم الأولى- غصن آس وتشممته، فقالت: «إنها نبتة تصلح تعريشة للحب» لأنها كانت على أحر من الجمر لعناق آدم. ثم قطعت سعفة وضفرت منها مروحة، ثم قالت: «وهذه مروحة لإذكاء النار». ثم قطعت سعفة أخرى اتخذتها صولجانا وقالت: «سأعطي هذا الصولجان لآدم، وأقول له: اتخذه أداة لتسود بها علي. أخيرا قطعت غصن صفصاف وقال: «وهذه أغصان تصلح للمهد»).(٥٢)

هنا أيضا ثلاث أشجار: النخلة، التي هي ليليث، والآس الذي يربط بينها وبين آدم، ثم الصفصاف العالي. ليليث هي إيزيس، وآدم هو أوزيريس بمظهريه. وليس غريبا أن تقول ليليث إن نبتة الآس (تصلح تعريشة للحب). ذلك أن اللبلاب، لبلاب أوزيريس، يدعى في العربية أيضا (العشقة). واللفظة تعني التسلق والتعريش، من جهة، والعشق والحب، من جهة ثانية.

وعليه فنحن أمام ثالوث يفصح عن نفسه بأشجار ثلاث هذه المرة، لا بشجرة واحدة بأفرع ثلاثة. ولو قارنا بين هذا الثالوث الشجري والثالوث العربي:

صفصاف نخيل آس

اللات العزى مناة

لبدت لنا الصورة واضحة تماما. فليليث هي الحد الأوسط مثل العزى، والصفصاف والآس هما الحدان الطرفيان، أي ممثلا إلهين يشبهان اللات ومناة.

وعليه، يمكن لنا أن نفهم سبب غضب الساطرون من رؤية الآس على بطن النضيرة، التي تشبه العزى- إيزيس- ليليث. فهو يعني أنه غاضب على ارتباطها بنقيضه الذي يتمثل بشجرة آس. إنه غاضب على الضيزن الثاني. فهنا أيضا ضيزنان مثل ضيزني جذيمة، أي ذكران، يتشاركان في امرأة واحدة. فالضيزن هو الشريك في المرأة، كما عرفنا من قبل. الضيزن الأول هو الساطيرون الذي يقف على قمة شجرة الصفصاف، أي أنه يمثل النغمة الخمرية العالية، مثل المكاء العربي، والثاني مرتبط بشجرة الآس. وبما أن عديل الضيزن، أو الكفة الموازية له، يتحول أحيانا إلى ابن، يصبح الصراع بين الرجلين على الحد الأوسط، أي على المرأة، كما لو أنه صراع بين الابن وأبيه على امرأة واحدة. وقد دعي النكاح الذي يتزوج فيه الابن الأكبر زوجة أبيه بعد وفاته باسم (نكاح الضيزن)، نسبة إلى ضيزننا هذا. كما أنه دعي بـ(نكاح المقت) انطلاقا من الآية التي حرمته في القرآن: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾.(٥٣)

وبمناسبة الحيض المذكور في رواية ابن الأثير: (وكان للضيزن بنت تسمى النضيرة، فحاضت، فأخرجت إلى ربض المدينة، وكذلك كان يفعل بالنساء)، فإن علينا أن نتذكر نساء مدينة هرات الفارسية اللواتي كانت غلمتهن تستثار بزهر شجرة الغبيراء فيخرجن إلى خارج المدينة. أما شجر (السمر) الموجود في اسم (سميراميس) و (سمرجد) فيحيض كما تحيض المرأة. يقول السيوطي في المزهر عن هذا الحيض: (شيء يخرج من السَّمُر كالدم؛ والعرب تسميه حيض السَّمُر). ومن المؤكد أن حيض النضيرة- الزباء على علاقة بحيض شجرة السمر.

النضيرة الزرقاء

وعلينا أن نشير هنا إلى أن النضيرة ابنة الضيزن أشارت إلى سابور باستخدام يمامة زرقاء من أجل فتح قلعة أبيها الضيزن، كما يقول لنا ابن الجوزي في المنتظم:

(قالت: عليك بحمامة وَرْقاء مُطوَقة، فاكتب في رجليها بحيْض جارية بكْرٍ زرقاء، ثم أرسلها، فإنها تقع على حائط المدينة، فتتداعى المدينة، وكان ذلك طِلَّسْماً المدينة لا يهدمُها إلَا هذا، ففعل وتداعت المدينة، ففتحها عَنْوة، وقتل الضيزن، وأخرب المدينة).[٥٤]

ويضيف ياقوت في معجمه: (قالت فاعمد إلى حيض امرأة زرقاء واخلط به دم حمامة ورقاء واكتب به واشدده في عنق ورشان {طراز من الحمام} فأرسله فإنه يقع على السور فيتداعى ويتهدم ففعل ذلك فكان كما قالت فدخل المدينة).[٥٥]

ويذكر هذا فورا بزرقاء اليمامة. فثم (حمامة ورقاء) أو (ورشان) وثم كتابة بدم حيض (جارية بكر زرقاء). كل هذا يذكر بما قاله لنا الجاحظ في الحيوان: كانت اليمامة زرقاء، وكانت الزباء زرقاء، وكانت البسوس زرقاء. وهكذا فالزباء زرقاء والنضيرة مرتبطة بامرأة زرقاء. والحق أنها هي المرأة الزرقاء والحيض حيضها.

twitter @baghdad_library

ج- زرقاء اليمامة

(أرى رجلا في شجرة)

زرقاء اليمامة

أما ملكة الزرقاوات ورأسهن في التراث العربي فهي (زرقاء اليمامة). ويختلف على اسمها. يقول الكثيرون أن اسمها هو اليمامة أو يمامة: (واليمامة اسمها، وبها سُمي البلد. وذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لقمان بن عاد وأن اسمها عنز، وكانت هي زرقاء، وكانت الزباء زرقاء، وكانت البسوس زرقاء).[٥٦]

وكذا يقول ابن الجوزي في المنتظم: (وكانت فيهم الزرقاء، واسمها: اليمامة، وبها سُمي بلدها: اليمامة، وهي من بنات لقمان بن عاد، وقيل: هي من جديس وطسم).[٥٧] أما المسعودي في مروج الذهب فيخبرنا أن: (اسم أخت رباح يمامة بنت مرة).[٥٨] وكونها من اليمامة نقطة يجب ألّا تغيب عن البال أبدا. فاليمامة بلد مسيلمة الكذاب (رحمن اليمامة). وإذا كان اسمها اليمامة، فيجب أن يكون معنى الاسم: اليمامة الزرقاء.

غير أن روايات أخرى كثيرة تعطينا أسماء أخرى لها. فالجاحظ في الحيوان يخبرنا أن: (زرقاءُ اليمامَة، وهي عَنْزِ، من بنات لُقمان بن عادِيا).[٥٩] ويضيف لسان العرب عن آخرين: (وذكر أَن عندهم امرأَة يقال لها عَنْز).[٦٠] ويزيد: (وعنز اسم امرأة يقال لها عنز اليمامة).[٦١]

واسم (عنز) كاشف وخصب، فيما يبدو لنا. بل لعله الاسم المركزي في الأسطورة هنا؛ لذا فمعانيه المتشعبة قد تلم لنا شظايا الأسطورة جميعها. فالعنز هي: أنثى العقاب! يقول لسان العرب تعليقا على البيت:

إذا ما العَنْزُ من مَلَقٍ تَدَلَّتْ

والعنز: (هي العُقاب الأُنثى).[٦٢] ونحن نعرف أن العرب تقول أن عين العقاب زرقاء. وهكذا فزرقاء اليمامة زرقاء مثل عين العقاب، أي أننا مع الزرقة دوما. وكنا قد رأينا من قبل أن الزباء على علاقة بالعقاب فهي: (من عقاب الجو أمنع). وليس فقط أنها تشبه بالعقاب فقط، بل إنها من (عقاب الجو) بالذات أمنع. والجو هو الاسم القديم لليمامة، كما أخبرتنا المصادر العربية. يقول البغدادي في خزانة الأدب: (واليمامة: بلاد الجو،

وأصل اليمامة اسم امرأةٍ، وهي جاريةٌ زرقاء وكانت تبصر من مسيرة ثلاثة أيام، وهي مشهورةٌ، سمي الجو باسمها).[٦٣] ويضيف في مكان آخر: (وقال ابن المستوفي: كانت زرقاء اليمامة تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام، ويضرب بها المثل، يقال: أبصر من زرقاء اليمامة. واليمامة بلد، وكان اسمها الجو فسميت باسم هذه المرأة، لكثرة ما أضيف إليها، وقيل: جو اليمامة).[٦٤] ويزيد اللسان عن الجوهري: (وفي الصحاح: كان اسمُها الجَوَّ فسُمِّيت باسم هذه الجارية لكثرة ما أُضيفَ إليها، وقيل: جوُّ اليمامة).[٦٥] وعليه، فعبارة (أمنع من عقاب الجو) التي وصفت بها الزباء قد تعني (أمنع من زرقاء اليمامة)، التي هي إيزيس السماوية. أي أننا لسنا هنا أمام تشبيه بل أمام إشارة ميثولوجية.

العنزة أيضا طراز من العصا. يضيف اللسان: (والعَنَزَة: عصاً في قَدر نصف الرمح أَو أَكثر شيئا فيها سنان مثل سنان الرمح، وقيل: في طرفها الأَسفل زج كزج الرمح يتوكأ عليها الشيخ الكبير، وقيل: هي أَطول من العصا وأَقصر من الرمح والعكازة قريب منها).[٦٦] وهذا لا بد أن يذكرنا بفرس جذيمة التي تدعى بالعصا. إضافة إلى أن العصا تذكرنا بالعيص وأشجاره، أشجار العزى والخلصة وسميراميس.

وسوف نرى في فصل (الأحقاف) أن إيزيس هي (العنز الكسول) أيضا. فوق هذا فإن (عزى وعزازيل) كلاهما عنز مشعر في الأدب الرابيني التوراتي. كما أن الاسم يذكر (بعنيزة) التي دبرت مقتل ناقة صالح، والتي سوف نرى أنها ممثلة إلهة من طراز إيزيسي.

أكثر من هذا، يقول لسان العرب: (والعَنْزُ وعنز، جميعاً: أكمة بعينها).[٦٧] إذن، فالعنز أكمة، أي تلة أو كثيب رملي. وهذا يعني أننا نعود إلى التلة الأولى. وقد رأينا من قبل كيف أن العنقاء، طائر إيزيس، مرتبط بتلة ما. فالعنقاء في اللغة تعني فيما تعنيه: الجبل، أو قمة الجبل.

وعليه، فكلمة واحدة قادرة على فتح جميع أبواب أسطورة الإلهات الزرقاوات أمامنا. إنها مثل خلية (دي إن إي) تحمل شفرة الصفات الوراثية كلها.

وإذا كانت العنزة هي العصا، والعصا هي العيص والشجرة، فإن أسطورة زرقاء اليمامة كلها تقوم على الأشجار. فهي قد رأت رجالا يرتدون أشجارا، لكن قومها لم يصدقوها فأخذوا غرة. يقول الطبري في تاريخه إنها أجابت قومها حين سألوها عمّا رأت: (أرى رجلا في شجرة).[٦٨] وفي الأغاني أنها قالت (أرى شجراً يسير)[٦٩]، بعد أن اقتلع أعداء قومها: (شجراً تستر كل شجرة منها الفارس إذا حملها؛ فقطع كل واحد منهم بمقدار

twitter @baghdad_library

طاقته وساروا بها).[٧٠] ولا نريد أن نزيد في الاقتباسات بشأن الشجر المتحرك، فهي كثيرة جدا. فما يهمنا هنا معنى الشجر المتحرك. ومن خبرتنا طوال الفصول الماضية، فإن الأشجار تشير إلى الديانة الأوزيريسية. فمعبد العزى كان به ثلاث سمرات، أو شجرة بثلاثة أفرع، وشجرة إنانا كانت شجرة مثلثة، وعلى الأغلب فإن معبد الإله ذي الخلصة كان فيه شجرة بثلاثة أفرع. نحن نعتقد بقوة أن الرجال الذين ارتدوا الأشجار وجاءوا إلى قوم الزرقاء هم آلهة يتمثلون بأشجار. فنغمات الكون الثلاث تتمثل في شجرة بثلاثة أفرع. ولأوزيريس فرعان من هذه الأفرع الثلاثة. من هنا قالت الزرقاء: (أرى رجلا في شجرة). لقد رأت أوزيريس الشجرة. وهذا القول اختصار كامل للديانة الأوزيريسية، ولديانة العرب قبل الإسلام. أوزيريس يتجسد في شجرة، أو يرتدي شجرة. إنه رجل-شجرة. وهو (الذي يقف على قمة شجرة الصفصاف)، حسب ما تقول منطوقة مصرية. وحسب بريستد فقد كان يصور بـ(شجرة تنمو من قبره).[٧١]

ومجيء أعداء الزباء وقومها (أي حسان تبع على رأي كثير من المصادر) مثل مجيء جذيمة إلى الزباء. الفارق أن المنتصر هذه المرة هو الإله الذكر. والجيش الذي يرتدي أشجارا ليس خدعة حربية، بل هو طقس ديني يتم فيه ارتداء شجرة في عيد الإله.

وكل هذا يذكر بعصا جذيمة التي هي شجرة وبأيوب الشجرة (عوص).

في كل حال، علينا أن نعيد التذكير بأن الزرقاء يمامية، وأن مسيلمة الكذاب يمامي. كما أن قرينته سجاح يمامية أيضا. فهل تكون سجاح على علاقة بزرقاء اليمامة؟ أم أن سجاحًا نقيض زرقاء اليمامة؟ نحن نعتقد أن سجاحًا نقيض زرقاء اليمامة، لكن الصراع الديني حولها إلى واحدة مشؤومة كالزرقاوات. لكن علينا أن ندرك أنهما متشابهتان، رغم أن واحدة منهما مشؤومة والأخرى ليست كذلك. وكنا قد ذكرنا من قبل أن الاسم سجاح يعني: الحمامة، اليمامة. يقال: سجعت الحمامة، وسجحت الحمامة. وعليه، فسجاح يمامة أيضا، مثلها مثل زرقاء اليمامة. ولعل سجع الكهان في العربية جاء من هنا، أي من تقليد صوت الإلهة اليمامة. وهناك من ادعى أن اسم زرقاء اليمامة هو (حذام). وهذا لا يبعدنا عن الحمام. ذلك أن (الحذم) في اللغة هو طراز من الطيران، أو أنه طيران مقصوص الجناحين. ونحن نعلم أن مسيلمة زوج سجاح كان: صاحب نيروجات يقال إنه أول من أدخل البيضة في القارورة وأول من وصل جناح الطائر المقصوص. ويبدو أن هذا كان يتعلق بطقس ديني، ما دام أن حذام تعني المقصوص الجناحين.

وتقول لنا المصادر العربية إن حسان تبع قد فقأ عيني الزرقاء بعد أن انتصر على قومها. يقول الميداني في مجمع الأمثال: (فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم

حسان فاجتاحهم فأخذ الزرقاء فشق عينيها فإذا فيهما عروق سود من الإثمد، وكانت أول من اكتحل بالإثمد من العرب).(٧٢) ويضيف النويري في نهاية الأرب: (ثم إن حساناً أمر باليمامة فنزع عينيها فإذا في داخلها عروق سود، فسألها عن ذلك فقالت: حجر أسود كنت أكتحل به يقال له الإثمد فثبت لي بصري. وقيل: إنها أول من اكتحل بالإثمد، فأمر بها فصلبت على باب جو. وقيل: سمى جو باليمامة من ذلك الوقت).(٧٣) وحسب الطبري في تاريخه فإن حسان بن تبع أتى بزرقاء اليمامة، التي نبهت قومها من على البعد بمجيء جيشه: (فأمر بها ففقئت عيناها، فإذا فيها عروق سود، فقال لها: ما هذا السواد في عروق عينيك؟ قالت: حجير أسود يقال له الإثمد، كنت أكتحل به. وكانت فيما ذكر أول من اكتحل بالإثمد، فأمر حسان أن يسمى {منطقة} جو باليمامة).(٧٤)

والغريب أن المصادر العربية تورد لنا أبيات شعر تظهر فيها سجاح كما لو أنها عمياء، رغم ألّا أحد يقول إنها عمياء إلا هذه الأبيات. الأبيات تنسب للأغلب العجلي، ويقول فيها هاجيا سجاح:

قَدْ أَبصرت سجاح من بعد العمى تاح لها، بعدك، حنزاب وزى

والسؤال: بأي معنى تكون سجاح قد (أبصرت بعد العمى)؟ هل يكون ذلك مجرد استعارة ما، أم أن سجاح أيضا لها علاقة بالعمى؟ الحق أننا لا نستبعد أن يكون لها أمر مع العمى. فهي تشبه زرقاء اليمامة. إذا صح هذا، فيبدو أن البيت السابق يشير إلى تفصيل في تقليد سجاح يشير إلى عمى ما طقسي.

د- البسوس

(فدعا الله تعالى على البسوس أن يجعلَها كلبة نباحة)

الأزهري

البسوس زرقاء أخرى بين الزرقاوات. يقول البكري في معجم ما استعجم: (وكانت {زرقاء اليمامة} زرقاء، وكانت الزباء زرقاء، وكانت البسوس زرقاء).(٧٥)

وفي فصل سابق كنا قد قلنا إن معبد العزى يدعى (بساء) أو (بس)، ورأينا أن هناك من حاول أن يربط الاسم بالناقة، والناقة في مركز أسطورة البسوس. ذلك أن ناقتها تدعى بهذا الاسم. أي أن المرأة والناقة لهما الاسم عينه. يقول الخليل في العين: (والبسوس: كانت ناقة ترعى فرماها كليب التغلبي فقَتَلها، ويقال: بل اسم المرأة).(٧٦)

twitter @baghdad_library

وحول ربط اسم معبد العزى بالنوق يقول ياقوت في معجم البلدان: (بساء: بالضم والتشديد والمد، بيت بنته غطفان {للعزى} وسمته بساء مضاهاة للكعبة وهو من قولهم لا أفعل ذلك ما أبس عبد بناقة، وهو طوَفانه حولها ليحلبها، وأبس بالإبل عند الحلب إذا دعا الفصيل إلى الناقة يستدرها به فكأنهم كانوا يستحلبون الرزق في الطواف حوله).(٧٧) وعليه، فقد دعيت هذه الكعبة (بسا) لأن الناس تدور حولها كما يدور الباس حول الناقة لحلبها. فكأن عابدي العزى يطوفون حول معبدها (يستحلبون الرزق في الطواف حوله). تشبيه يحمل أثر علاقة ما بين (بساء) والناقة. وليس هذا بالغريب، فقد عرفنا من قبل أن الجمل رمز لسهيل- أوزيريس في الجزيرة العربية، وأن الناقة رمز للشعرى-إيزيس. والعزى إيزيس مكية. لذا دعي بالفحل، أي الجمل الذكر. وما دام سهيل فحلا، فليس غريبا أن تكون زوجته إيزيس- الشعرى ناقة.

ويعطي جذر (بسّ) المصري القديم ما يدعم هذا. فهو على علاقة بالحلب، وبالأسرار المقدسة؛ بس: اطلع على سر مقدس، دفن. بس: سر مقدس، شكل مستور وسري. بس: تدفق بوفرة وغزارة.(٧٨)

إذن، فالبس الحلب، والبس كشف سر مقدس، أي هتكه. ويمكن الافتراض أن كليبا قد هتك سرا مقدسا حين ضرب ضرع الناقة بالسهم. فقد خلط الدم بالحليب.

فوق هذا كله نحن نعرف أن مكة تدعى الباسة. وهو أمر معروف عند الجميع. يقول الفيروزآبادي: (والباسَّة والبسَّاسة: مكة شرفَها الله تعالى).(٧٩) ويقول الأزرقي في أخبار مكة:

(أسماء مكة: مكة وبكة وأم رحم وأم القرى والباسة والبيت العتيق والحاطمة).(٨٠) وهكذا فبيت العزي يدعى (بس) أو (بساء)، كما أن مكة هي (الباسة)، والاثنان يتواصلان مع البسوس الناقة والمرأة. ونظن أنه ليس غريبا أن تحمل مكة اسم (باسة) الذي يتواصل مع الناقة ومع البسوس. فالكعبة الجاهلية معبد العزى، والعزى-إيزيس ناقة. ويعني الجذر بس العربي أيضا زجر الدواب وسوقها. وهذه على علاقة بمهنة الكلب الذي يزجر الدواب. والشعرى-إيزيس هي (كلب الجوزاء)، كما نعلم جيدا.

ولدينا زوج من الآلهة المصرية يدعى (بس وبسيت)، و(كأم إلهية فإن بسيت يمكن أن تكون طرازا من إيزيس أو حتحور).(٨١) أي أن (بسيت) تتماهى مع إيزيس، وتأخذ اسمها أحيانا، ربما. وهناك، بعد هذا كله، ما يوحي بأن للبسوس علاقة ما بشجرة محددة. يقول الزبيدي في تاج العروس نقلا عن الليث: (البسبس: شجر تتخذ منه

الرِّحال. قاله الليث).[٨٢] ويضيف (الصوابُ السبسب بالباء، وقد تَصحَّفَ على الليث). غير أن الخليل في العين يؤكد أنه البسبس وليس السبسب: (والبسبس: شجر تتخذ منها الرحال).[٨٣]، أي أنه مثل شجر الميس، الذي تتخذ منه الأرحل، أرحل الإبل، أيضا. وهكذا فنحن نعود على الربط بين البسوس والإبل.

وعليه، فليست ناقة البسوس طارئة على الأسطورة، بل هي في مركزها. فهي حيوان الإلهة التي تتجسد في امرأة تدعى البسوس. وحين نتحدث عن البسوس وجساس وكليب فإننا نتحدث عن أسطورة دينية في الأساس.

البسوس الكلبة

وتنقل لنا المصادر العربية خبرا غريبا جدا عن بسوس تبدو وكأنها بسوس غير بسوس حرب البسوس. يقول الأزهري في تهذيب اللغة:

(وفي البسوس قول آخر روي عن ابن عباس وهو أشبه بالحق. حدثنا محمد بن إسحاق عن المخزومي عن سفيان بن عيينة عن أبي سعد الأعور، عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾ الآية. قال: هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيها، وكانت له امرأة يقال لها البسوس، وكان له منها ولد، وكانت له محبة، فقالت: اجعل لي منها دعوة واحدة قال: فلك واحدة، فماذا تأمرين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئا آخر، فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة، فذهب فيها دعوتان، وجاء بنوها فقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبة تعيرنا بها الناس، فادع الله أن يردها إلى الحالة التي كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث في البسوس، وبها يضرب المثل في الشؤم فيقال: أشأم من البسوس).[٨٤]

الدعوات الثلاث تذكرنا بالشجرات الثلاث للعزى. لكن ما يشير إلى احتمال ارتباط هذه البسوس الفريدة هذه بإيزيس هو الدعوة الثانية، أي الوسطى. ففيها طلب الزوج من الله أن يجعلها (كلبة نباحة)! إنه طلب غريب حقا. لكنه يذكرنا فورا بأن الحد الأوسط في الثالوث هو أنثى مع ابنها الكلب. إيزيس السماوية مع كلبها أنوبيس. والشعرى العربية تدعى (نجمة الكلب) عند اليونان. وهي عند العرب (كلب الجوزاء). كما أن الخلصة الإلهة، كانت مع ابنها الكلب الأغضف أيضا. وعليه، فالبسوس ذات الدعوات الثلاث يمكن أن تكون طرازا من إيزيس- العزى.

twitter @baghdad_library

أكثر من ذلك، فإن بلقيس تبدو كلبة، بشكل ما. ذلك أن أباها، كما يخبرنا ابن الأثير في الكامل في التاريخ، تزوج من جنية: (فولدت له غلامًا فألقته في النّار فجزع لذلك وسكت للشرط ثمّ حملت منه. فولدت جارية فألقتها إلى كلبة فأخذتها فعظم ذلك عليه وصبر للشرط {بينه وبينها}... {وفي النهاية كشفت له الأمر فقالت}: أما ابنك فدفعته إلى حاضنة تربيه وقد مات وأمّا ابنتك فهي باقية وإذا بجويرية قد خرجت من الأرض وهي بلقيس وفارقته امرأته وسار إلى عدوّ فظفر به).(٨٥)

إذن، فبلقيس ألقيت إلى كلبة. ويستطيع المرء أن يتكهن أن الكلبة ربتها. أي أنها في الواقع كلبة. وهكذا فالإلهات الإيزيسيات كل واحدة منهن ناقة وكلبة في الوقت عينه. وإن لم تكن واحدة منهن كلبة فهي مرتبطة بكلب هو ابنها.

براقش

ويمكن للمرء أن يحدس أن براقش، الكلبة العربية الشهيرة في المثل المعروف (على أهلها جنت براقش) أو (على نفسها جنت براقش) هي كلبة من طراز الكلبات اللواتي نتحدث عنهن، أي أنها كلبة إلهة، أو مرتبطة بإلهة محددة. دليل ذلك أن لدينا امرأة بالاسم ذاته توحي بعلاقة بالديانة الأوزيريسية. فهذه المرأة مرتبطة بالإبل، مثلها مثل البسوس والشعرى. يقول لسان العرب: (وقال الشَّرقي بن القَطامي: براقش امرأَة لقمان بن عاد، وكان بنو أَبيه لا يأْكلون لحوم الإبل، فأَصاب من براقشَ غلاماً فنزل لقمانُ على بني أَبيها فأَوْلَمُوا ونحروا جزورا إكرامًا له، فراحت براقش بِعَرْقٍ من الجزور فدفَعته لزوجها لقمانَ فأكله، فقال: ما هذا؟ ما تَعرّقتُ مثلَه قط طيبا، فقالَت براقش: هذا من لحم جزور، قال: أَو لحوم الإبلِ كُلها هكذا في الطيب؟ قالت: نعم، ثم قالت له: جَمّلنا واجتَمِل، فأَقبل لقمان علىَ إَبلها وإبلِ أَهلهاِ فأَشرع فيها وفعل ذلكِ بنو أَبيه، فقيل: على أَهلها تجني براقش، فصارت مثلًا. وقال أَبو عبيدة براقش اسم امرأَة وهيِ ابنة ملك قديم خرج إلى بعض مغازيه واستخلَفها على ملكه فأشار عليها بعض وزرائها أَن تبني بناء تذكر به، فَبنت موضعين يقال لهما براقش ومعين، فلما قَدم أَبوها قال لها: أَردت أَن يكون الذكر لكِ دُوني).(٨٦)

براقش امرأة لقمان بن عاد. ولقمان شخصية إلهية، فيما يبدو لنا. أما عاد فقد تحدثنا عنه في فصل آخر. كما أنها (ابنة ملك قديم). أي أنها ذات طابع ملكي، وليست كلبة عادية. وهي مرتبطة بالإبل. فقد قدمت للقمان لحم الإبل فسر به. وأغلب الظن أن القصة

تتحدث عن الحيوان المقدس للقمان- الجمل. ذلك أن الحيوان المقدس لا يؤكل إلا مرة في العام في عيد الإله الذي يمثله. وعليه، فالوجبة التي أعدتها براقش للقمان، إما أن تكون وجبة آثمة، أي أكرهته على أكل حيوانه في غير يومه السنوي، فحصل الشؤم بذلك. أو أنها قدمته له في موعده السنوي، فلذلك أحبه. لكن المهم أن الجمل على علاقة ببراقش، التي هي بسوس أخرى. وثمة مدينة يمنية قديمة يدعوها الإخباريون باسم براقش: (وورد اسم هذا الملك في كتابة أخرى عثر عليها في «براقش»، وهي مدينة «يثل» من مدن معين، دونت عند بناء بناية في عهده، فذكر هو وابنه «وقه آل صدق» «وقه إيل صديق» فيها، تيمناً باسمها وتثبيتاً لتأريخ البناء).[٨٧]

هذه المدينة، أو الحصن، تبدو على علاقة ببراقش المرأة الكلبة. أي أنها مدينة على علاقة ببلقيس- المقة- الكلبة. وربما كان البناءان اللذان بنتهما (براقش ومعين)، يشبهان مدينتي الزباء شرقي نهر الفرات وغربيه، ومثل جنتي أهل سبأ.

أما عرق الجزور، أي الجمل، الذي أكله لقمان وتعرقه فيذكرنا بما رأته زرقاء اليمامة. فقد رأت شجرا يسير، ورأت: (رجلا ينهس كتفاً أو يخصف النعل). عرق الجزور هو الكتف الذي ينهس. والرجل الذي نهسه هو حسان تبع الذي أعمى زرقاء اليمامة وقتلها.

أما ما هو الشيء الذي جعل الجمل والناقة يصلحان لتمثيل إيزيس وأوزيريس، فيبدو أنه سنام الجمل. فالسنام يبدو مثل هرم. أي الجمل والناقة يحملان على ظهريهما الهرم، أي الأكمة أو التلة الأولى التي انبثقت بعد الطوفان.

وفي النهاية، لا بد من الإشارة إلى أمرين بخصوص براقش، الأول: أنها مشؤومة مثل البسوس وزرقاء اليمامة، والثاني: أن اسمها يوحي بخلطة ألوان. فالبرقشة تطلق على الأشياء التي فيها خلطة ألوان، مثلما هو الحال مع بلقيس، التي يعني اسمها البلق، أي الخليط من لونين، واسم رقاش أخت جذيمة، التي يعني اسمها الشيء ذاته تقريبا.

بل إن اسم البسوس ذاته يوحِي بفكرة خلط شيئين مختلفين: بَسَّ السويق والدقيق وغيرهما يبسه بسا: خلطه بسمن أو زيت، وهي البسيسة. والبسيسة الشعير يخلط بالنوى للإبِل. وفي القرآن: وبست الجبال بسا، قال الزجاج: بست لتّت وخلطت، وقال ثعلب: معنى وبست الجبال بسا: خلطت بالتراب. وهذا يعني أن البس، خلط شيئين مختلفين، جزء رئيس من معنى الجذر بس.

twitter @baghdad_library

وربما كان كل هذا، أي ارتباط الإلهات الإيزيسيات بخلط شيء بشيء، نابعا من أن إيزيس هي نغمة التعادل، أي أنها خليط من النغمتين العليا والسفلى، أي النغمة الصيفية والشتوية. فهي نغمة الربيع والخريف. وهما يبدوان كما لو أنهما ترقيش أو برقشة مكونة من الصيف والشتاء.

جساس

يبدو وكأن اسم جساس بن مرة الشيباني، قاتل كليب، يشير إلى العنصر الشرير في الأسطورة. لكن قبل ذلك علينا أن نذكر أن بعض الروايات تربط زرقاء اليمامة ببني مرة. فهي (يمامة بنت مرة)، كما سبقت الإشارة. وأبو مرة كنية إبليس. يقول القاموس المحيط: (وأبو مرة كنية إبليس، لَعنه الله تعالى). وقد رأينا في فصل سابق أن إبليس هو النغمة العليا للكون، لكن برائحة سلبية. من أجل هذا فإبليس يربط بالمزمار. ومزمار إبليس أشهر من نأتي عليه باستشهادات. ومزماره مثل صوت المكاء، ممثل النغمة الصيفية الخمرية. ولأن كلا من إبليس وجساس على علاقة بـ (بمرة)، فإن جذر (جسس)، الذي منه جساس، يحمل طعم الرائحة السلبية لإبليس. يقول لسان العرب: (والجاسوس: صاحب سِرّ الشر، والناموس: صاحب سرِّ الخير). أما (الجَسَّاسَة: دابة فِي جزائر البحر تجُس الأَخبار وتأتي بها الدجال، زعموا. وفي حديث تميمِ الداري: أَن الجساسة، يعني الدابة التي رآها في جزيرة البحر، وإنما سميت بذلك لأنها تجُس الأَخبار للدجال).[88] والأعور الدجال هو نقيض المسيح، أو المسيح الكاذب، أو المسيح المضاد. وهكذا فالمسيح يواجه المسيح المضاد فيتصارعان. النغمة العليا تواجه السفلى، فتقتل أحداهما الأخرى، وتزيحها. جساس يقتل كليبا ويزيحه. وهذا هو المشهد الذي رأيناه على طول الكتاب. نغمتان تتصارعان، والواحدة تزيح الأخرى، وتقتلها.

هذا هو جوهر أسطورة البسوس وحربها. فحرب البسوس هي حرب الصراع على الناقة-الإلهة إيزيس، على الحد الأوسط الأنثوي، بين مظهري الإله، بين ضيزنيه، بين دلويه، بين نغمتيه الصيفية والشتوية. جساس هو النغمة العليا، الغاضبة، القاتلة، الخمرية، وكليب هو النغمة السفلى القتيلة. جساس هو مجوز الريح، وكليب هو مطعم الطير الذبيح. وحتى لو أخطأنا وقلبنا الأمور، أي ثبت أن كليب هو النغمة العالية وجساس هو الواطئة، فإن هذا لا يغير الأطروحة المركزية حول وجهي الإله:

جساس	البسوس	كليب
اللات	العزى	مناة
مكو	ليليث	بكو
هاروت	الزهرة	ماروت

لكن عندما تحولت الأسطورة الدينية إلى أدب شبه علماني، صار من غير السهل التعرف على ملامحها الدينية، إلا بالجهد والكد.

أما الزير سالم فهو مثيل عمر بن عدي في أسطورة الزباء. فكلاهما كان يريد أن ينتقم من القاتل الإلهي.

البسوس- الطائر

وكنا قد رأينا أن شبيهات البسوس الزرق على علاقة بطائر ما. فزرقاء اليمامة يعكس اسمها علاقة باليمام- الحمام. أما النضيرة شبيهة الزباء فقد دلت عشيقها على الطريقة التي يقتحم بها حصن أبيها عن طريق: حمامة وَرْقاء مُطَّوَقة، يكتب في رجليها بحيْض جارية بِكْرٍ زرقاء. أما البسوس فلا تخلو أسطورتها من حمامة محددة. ذلك أن كليبا حين ضرب ناقةَ البسوس، خالة جساس، فإنما كان ذلك بسبب حمامة. يقول الميداني في مجمع الأمثال: كانت لها ناقة يقال لها، سراب، فرآها كليب وائل في حماه، وقد كسرت بيضِ حمام كان قد أجاره، فرمى ضرعها بسهم. ويضيف لسان العرب: (والبسوس: اسم امرأة، وهي خالة جساس بن مرة الشيباني: كانت لها ناقة يقال لها سراب، فرآها كليب وائل في حِماه وقد كسرت بيض طير كان قد أَجاره، فرمى ضرعها بسهم، فَوثب جساس على كليب فقتله).[٨٩]

ثمة، إذن، حمامة. وهذه الحمامة على علاقة بناقة البسوس وبالبسوس. ونستطيع أن نفترض، رغم أن الأسطورة تتخذ مسارب غامضة ومعقدة للإعراب عن نفسها، أن الناقة تساوي الحمامة. فقد ضرب كليب الناقة وأسال دمها ردا على كسرها بيض الحمامة. فهذه تعادل هذه. والعديل مساو في قانون السن بالسن والعين بالعين. وهذا يعني أن الحمامة والناقة رمزان للبسوس. ودم الحمامة الورقاء عند النضيرة يظهر هنا ككسر لبيض الحمامة، وإسالة للدم من ضرع الناقة.

twitter @baghdad_library

قتل كليب الناقة. والناقة هي الشعرى-إيزيس. أي أنه قتل الإلهة. قتل الناقة، إذن، موضوع أساسي في ديانة إيزيس وأوزيريس في الجزيرة العربية، لكن في الجانب المشؤوم السلبي. ولا يجب أن يغيب عن بالنا مقتل ناقة صالح، التي عرضت في القرآن: ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ ﴾. والغريب، أن الصخرة التي خرجت منها ناقة صالح تدعى (الكاتبة). يقول لنا ابن كثير في مختصر ابن كثير:

(وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرِج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا اللّه عزَّ وجلَّ، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء، يتحرك جنينها بين جنبيها).[٩٠]

الصخرة تدعى الكاتبة! وفي المحيط في اللغة للصاحب بن عباد: عرمس اسم الصخرة وبه نعتت الناقة الصلبة.

ألا يذكر هذا بالوصف الذي يوصف به المقة-بلقيس اليمني؟ فقد وصف المقة بأنه: (القمة ذ قلم). ومن المعلوم أن تحوت، الذي يتماهى من أنوبيس ابن إيزيس، يوصف بأنه الكاتب دوما. فوق ذلك فإن جذر لمق، الذي منه أخذ المقة، يعطي معنى الكتابة في بعض لهجات العربية: (اللمق الكتابة في لغة بني عقيل).[٩١]

وهذا الوصف يشجعنا على افتراض أن الإله (الكتبي) النبطي الثمودي، ربما كان على علاقة مباشرة بإيزيس- الشعرى. أي أنه مظهر من مظاهرها في الغالب. وإن لم يكن كذلك فهو مرتبط بتحوت عند الغالبية. وتحوت جزء أصيل من الديانة الأوزيريسية. فهو يتماهى مع أنوبيس ابن إيزيس وخادمها.

ويجب أن نتذكر هنا أن ناقة صالح تتقدم إلينا مع فصيلها، أي مع ابنها. إنهما معا. وهذا يذكر بذي الخلصة وابنها الأغضف وبذي الشرى وأمه كابو، وبمريم والمسيح، وبإيزيس وحورس الطفل. الإلهة الأم وابنها يؤخذان معا دوما. هكذا هن الإلهات الإيزيسيات في الواقع.

الناقة المبصرة

عرفنا أن ناقة صالح قد ولدت، أو انبثقت، من صخرة. ميثولوجيًا هذا يعني أنها صخرة، أي تتمثل بصخرة. وهذا ليس غريبا فالديانة الأوزيريسية كلها تقوم على الدخول في صخرة أو الانبثاق من صخرة. وقد رأينا هذا في اللات أوزيريس، الذي دخل في الصخرة. كما رأينا أصحاب الكهف يدفنون في كهف صخري. وفوق هذا عرفنا كيف أن الأهرام الثلاثة أقيمت على هضبة صخرية، فيها شقوق طبيعية تنتهي بحجرات دفن تدفن فيها الآلهة، أو أرواحهم.

كما تعرفنا إلى المنطوقة رقم ٢٥٠ من نصوص الأهرام التي تقول: (وقفت أمام الآلهة الذين شهدوا تحول جسد رجل إلى جسد روح، والذين شهدوا البعث عندما دخلت جثة أوزيريس الجبل، وعندما خرجت روح أوزيريس نيّرة).

وثم آية قرآنية غامضة في القرآن في سورة الإسراء حول الناقة الآية: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾.[٩٢] وقد أثارت كلمة (مبصرة) جدالا واسعا حول معناها. ويختصر لنا لسان العرب هذا الجدال:

(وقوله تعالى: وآتينا ثمود الناقةَ مبصرة؛ قال الفراء: جعل الفعل لها، ومعنى مبصرة مضيئة، كما قال عز من قائل: والنهار مبصرا؛ أي مضيئا. وقال أبو إسحق: معنى مبصِرَة تبصِّرهم أي تبين لهم، ومن قرأ مُبْصِرَةً فالمعنى بيِّنَة، ومن قرأ مُبْصَرَةً فالمعنى متبينة... الأخفش: مُبْصَرَة أي مُبْصَراً بها. وقال الأزهري: والقول ما قال الفرّاء أراد آتينا ثمود الناقة آية مُبْصِرَة أي مضيئة. الجوهري: المبصرة المضيئة؛ ومنه قوله تعالى: فلما جاءتهم آياتنا مُبْصِرَةً؛ قال الأخفش: إنها تُبَصِّرهم أي تجعلهم بُصَر والمَبْصَرَةُ، بالفتح: الحُجَّة. والبَصِيرَةُ: الحجةُ والاستبصار في الشيء).[٩٣]

وجذر بصر واسع المعاني وشديد التعقيد. لكننا نعتقد أن كلمة مبصرة في هذه الآية بالذات تعني حائضا. أي أننا نفترض أن الناقة ليست (عشراء تمخض)، كما أخبرنا ابن كثير في مختصره. ذلك أن جذر بصر يعطى معنى الدم أو دم الحيض. يقول لسان العرب:

(يقال: هذه بَصِيرة من دم، وهي الجَدِيَّةُ منها على الأرض. والبصيرة: مقدار الدرهم من الدم... وقيل: البصيرة من الدم ما لم يسل، وقيل: هو الدُّفْعَةُ منه، وقيل: البصيرة دم البكر؛ قال:

twitter @baghdad_library

راحوا، بصائرهم على أَكتافهم وبصيرتي يَعْدُو بها عَتَدٌ وَأَى

يعني بالبصائر دم أَبيهم؛ يقول: تركوا دم أَبيهم خلفهم ولم يثأَروا به وطَلَبْتُه أَنا؛ وفي الصحاح: وأَنا طَلَبْت ثَأْري... ابن الأَعرابي: راحوا بصائرهم يعني ثِقْل دمائهم على أَكتافهم لم يَثْأَروا بها. والبصيرة: الدِّيَةُ. والبصائر: الديات في أَوَّل البيت، قال أَخذوا الديات فصارت عاراً، وبصيرتي أَي ثَأْري قد حملته على فرسي لأَطالب به فبيني وبينهم فرق. أَبو زيد: البَصيرة من الدم ما كان على الأَرض والجَدِيَّةُ: ما لَزِقَ بالجسد. وقال الأَصمعي: البَصيرة شيء من الدم يستدل به على الرَّمِيَّةِ. وفي حديث الخوارج: ويَنْظُر في النَّصْلِ فلا يرى بَصِيرَةً أَي شيئاً من الدم يستدل به على الرمية ويستبينها به).[٩٤]

واعتقادنا أن مبصرة في الآية تعني حائضا نابع من أن ناقة صالح هي الشعرى- إيزيس. ونحن نعلم أن صغار الإبل تفصل عن أمهاتها عند ظهور سهيل. فظهور سهيل مؤشر على أنه على الناقة- الشعرى أن تكون مستعدة للقاح. أي أن عليها أن تكف عن إرضاع ابنها، وأن تبدأ بإنتاج البويضات، أي أن يأتيها الحيض. وقد ناقشنا هذا في فصل خاص بعبادة الشعرى العبور. لكن لا بأس من المرور عليه مرورا.

يقول لنا الزبيدي في تاج العروس عن الشول: (قيل: الشّول من الإبِل: التي نقصت أَلبانها، وذلك إذا فصل ولدها عند طُلُوعِ سهيلٍ، فلا تزال شولاً حتى يرسَل فيها الفحل[٩٥]

يضيف الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة: (والفصِيل الذي يفصل عن أمه عند طلوعِ سهيل).

ويزيد المرزوقي في الأزمنة والأمكنة: (قال الكلابي: إذا طلع سهيل من آخر القيظ تم لأول ما لقح من المخاض عشرة أشهر فسميت العشار، وانقطع عنها ذكر المخاض. {ويقول} الساجع: طلع سهيل. وبرد الليل، وللفصيل الويل. ويروى: ولأم الفصيل الويل).[٩٦] وفي مكان آخر ينقل السجع على النحو التالي: (وقيل أيضاً: إذا طلع سهيل طاب الثرى وحار اللّيل، وكان للفصيل الويل، ووضع كيل، ورفع كيل).[٩٧]

أما الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء فينقل عن الأصمعي: (قال الأصمعي: وتقول العرب إذا طلع سهيل طاب الليل ورفع الكيل وللفصيل الويل، أي رفع كيل الحنطة، وجاء كيل التمر، وخل لسان الفصيل أي منع من أمه. والأعرابي إذا رأى سهيلاً لطم عين فصيله وقول: مالك عندي قطرة).[٩٨]

وعليه، فعند طلوع (سهيل الفحل) كما تسميه المصادر العربية، يفطم الفصيل الصغير ويمنع عن ضرع أمه، لأن على أمه أن تكون مستعدة للقاح من جديد. وحين تتوقف عن الإرضاع، فهي (شول) حتى يقرعها الفحل سهيل. كل هذا يدل على أن (الناقة المبصرة) هي الناقة التي عليها دم الحيض، وليس العشراء، أي الناقة التي عادت تنتج البويضات استعدادا للقاح والحمل من جديد. وعليه، يمكن للمرء أن يرى أن المأساة التي حلت بفصيل ناقة صالح، نابعة من قدوم سهيل. فبقدومه لطم على عينه، وفصل عن جنة أمه وحضنها. إذن، فالآية القرآنية تعني أننا أرسلنا الناقة إلى ثمود مستعدة للحمل.

ولدينا زرقاوات أخر غير الزرقاوات الثلاث. فهناك زرقاء تدعى بنت (الخس)، وإن اختلف على اسمها. يقول الجاحظ في البيان والتبيين:

(بنت الخُسّ وبنت الخُصِّ وبنت الخُسف وهي الزَّرقاء وقال يونس: لا يقال إلاّ بنت الأخَس وقال أبو عمرو بن العلاء: داهيتا نساءِ العرب هند الزرقاء وعنز الزرقاء وهي زرقاء اليمامة).(٩٩)

لا شك عند الجاحظ أن بنت الخس هذه، أو هند، من الزرقاوات. بل لا شك عنده أنها هي وزرقاء اليمامة على قدم المساواة. فهما داهيتا العرب. ولا شك أيضا أن الزباء الزرقاء كانت داهية كبرى. وثمَّ نساء أخريات من هذا النوع كثيرات. فهناك واحدة تذكر دائما مع بنت الخس هي جمعة، أو خمعة، بنت حابس. والمصادر كثيرا ما تخلط الاثنتين ببعضهما. يقول الميداني في مجمع الأمثال: (وقد ذكر في الموضع الثاني حكام العرب، وزاد عمن ذكرهم المؤلف هنا فارجع إليه إن شئت، وهند بنت الْخُسّ، وجمعة بنت حابس، وابنة عامر بن الظَّرِب الذي يقال له »ذو الحلم»).(١٠٠)

لكننا لا ننوي أن نقضي عمرنا مع هاتيك الزرقاوات.

الزرقة المشؤومة

يتبقى علينا أن نعيد التأكيد على أن الزرقة لون مشؤوم ميثولوجيا. فزرقاء اليمامة انتهت نهاية مشؤومة، وليس ثمة من هو (أشأم من البسوس). كما أن الزباء مشؤومة، فقد قتلت خطيبها، ثم قتلت. فوق هذا فقد ذكرت لنا الأخبار أن العرب كانوا يئدون كل بنت زرقاء العين. وعليه، فكل شيء يوحي بأن الزرقة تعني الشؤم! ونحن لا ندري السبب الأصلي لذلك. لكننا نعتقد أن النساء الزرقاوات رمز إيزيس السلبية، أي إيزيس النافرة التي لا تتوافق مع ذكر، بل تصارعه وتقتله مثل الزباء. ولدينا خبر عن أن والد (سودة بنت

twitter @baghdad_library

زهرة) الكاهنة، وهي عمة وهب، والد آمنة أم الرسول، أرسل بها إلى مقبرة الحجون بمكة لوأدها، لأنها كانت زرقاء، ثم تركها في قصة يروونها، وصارت كاهنة شهيرة. وهذا قد يعني أنه كان يتم اختيار كاهنات من الزرقاوات، كي يمثلن الشؤم، أي كي يمثلن إيزيس المعاكسة والمضادة، إيزيس حزام سيث لا حزام حورس. وقد تكون البسوس والزباء وغيرهما من هذا الطراز من الكاهنات. أي أن الشرط الأساسي لكهانتهن هو أن يكن زرق الأعين. وأن تكون سودة بنت زهرة الكاهنة قد أخذت إلى الحجون فإنما يرمز إلى أنها تمثل عالم الموت لا عالم الانبعاث مثل إيزيس. وعالم الموت مرتبط بالحزام المضاد، حزام سيث، كما في فصل آخر من هذا الكتاب.

وجذر (زرق) العربي له معانٍ في غاية التنوع والتعقيد. أحد هذه المعاني يشير إلى اختلاط السواد بالبياض في العين. يقول لسان العرب عن الزرقة: (وقيل: هو أَن يتغشَّى سوادَها {العين} بياض).[١٠١]

وغشيان السواد للبياض ثيمة مركزية في أسطورة زرقاء اليمامة. فبعد أن أسرها حسان تبع وجد في عينها عرقا أسود. يقول الميداني في مجمع الأمثال: (فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان فاجتاحهم فأخذ الزرقاء فشق عينيها فإذا فيهما عروق سود من الإثمد، وكانت أول من اكتحل بالإثمد من العرب).[١٠٢] ويضيف النويري في نهاية الأرب: (ثم إن حساناً أمر باليمامة فنزع عينيها فإذا في داخلها عروق سود، فسألها عن ذلك فقالت: حجر أسود كنت اكتحل به يقال له الإثمد فثبت لي بصري. وقيل: إنها أول من اكتحل بالإثمد، فأمر بها فصلبت على باب جو. وقيل: سمى جو باليمامة من ذلك الوقت).[١٠٣] وحسب الطبري في تاريخه فإن حسان بن تبع أتى بزرقاء اليمامة، التي نبهت قومها من على البعد بمجيء جيشه: (فأمر بها ففقئت عيناها، فإذا فيها عروق سود، فقال لها: ما هذا السواد في عروق عينيك؟ قالت: حجير أسود يقال له الإثمد، كنت أكتحلُ به. وكانت فيما ذكر أول من اكتحل بالإثمد، فأمر حسان أن يسمى {منطقة} جو باليمامة).[١٠٤]

إذن، فالسواد الذي يغشى العين له علاقة بالكحل المأخوذ من حجر الإثمد. وزرقاء اليمامة هي أول من اكتحل بالإثمد. هذا معنى واحد من معاني الكلمة. لكننا يجب أن ننتبه إلى أن السواد والبياض على علاقة ببلقيس. فاسمها يوحي بالبلق، أي اختلاط السواد بالبياض. كما أن علينا أن نذكر أن الزباء على علاقة بالبلق أيضا، فواحد من الحصنين اللذين عزا أن تقدر عليهما يدعى الأبلق كما رأينا: (تمرد مارد، وعز الأبلق). وفي الحقيقة فإن الحد الأوسط الأنثوي، أي إيزيس وأمثالها، هو تركيب من نغمتين عليا

وسفلى، أي من نغمتي الصيف والشتاء، أي من الأسود والأبيض. يقول لسان العرب: (أبو عبيدة: الزَّرَق تحجيل يكون دُون الأَشاعر، وقيل: الزرق بياض لا يُطِيف بالعظم كله ولكنه وضح في بعضه).(١٠٥) أي أننا أمام بياض مع لون آخر.

وثم آية قرآنية عن الزرقة، لكنها تزيد الغموض غموضا تقول: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.(١٠٦)

يحشر المجرمون يوم القيامة زرقا!

الكلمة في هذا الموضع تدعم فكرة التشاؤم المرتبطة بالزرقة، كما عند البسوس: (أشأم من البسوس). فالمجرمون زرق. لكن لا اتفاق على ما تعنيه هذه الكلمة. وينقل لنا لسان العرب بعض أوجه الخلاف حول معنى الكلمة: (فسره ثعلب فقال: معناه عِطاش). عليه، فزرقا ربما تعني عطاشا هنا. ثم يضيف: (قال ابن سِيدَه: وعندي أَن هذا ليس على القصد الأَول، إِنما معناه ازْرَقَّت أَعينُهم من شدة العطش). يزيد: (وقيل: عميا يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أَول مرة ويعمون في المحشر، وإنما قيل زرقا لأن السواد يزرق إذا ذهبت نواظرهم).(١٠٧) عليه فزرقا قد تعني عميا أيضاً. ذلك أنهم يعمون يوم القيامة. وعند العمى ينتشر السواد ويغشى أعينهم. وقد أعميت زرقاء اليمامة بعد أن دهمها ودهم قومها الأعداء.

ورغم الخلاف، فلا بد أن نلحظ علاقة ما بين السواد الذي يصيب أعين المجرمين يوم الحشر بالسواد الذي عثر عليه حسان تبع في عين زرقاء اليمامة، عندما شق عينها، ثم قتلها. فكأن الزرقة، أي غشيان السواد لبياض العين، مرتبطة بالموت.

في كل حال، فإنه من المؤكد أن الزرقة شؤم عند العرب، وأن الأعين الزرقاء مشؤومة. والإلهات الزرقاوات كلهن بأعين زرق، أي أن كلهن كاهنات زرقاوات، مثل (سودة بنت زهرة)، يمثلن إيزيس المضادة، إيزيس السلبية، أي الإلهة المضادة المشؤومة، أي ليليث شجرة صفصاف إنانا، ليليث حزام سيث كما سنرى. إنها الحد الأوسط في شجرة الخلاف والشقاق. من أجل هذا سمي الصفصاف خلافا في العربية. وأفضل مثل على إيزيس المضادة هي ليليث الأدب الرابيني التوراتي. فهي زوجة آدم الأولى التي عصته، وحاجته وأنها يجب أن تكون الأعلى، أي رفضت أن تخضع له اجتماعيا وجنسيا، كما ترى النزعات النسوية الحديثة. وعليه، فهي المتمردة المشؤومة الملعونة.

لكن هناك احتمالا لأن يكون حديث القرآن عن المجرمين الزرق هو حديث عن الديانة الأوزيريسية بعموم. فربما كان هؤلاء الآلهة يصورون زرقا بعموم. فنحن نعرف،

twitter @baghdad_library

مثلا، أن لحورس عين زرقاء: (كذلك نجد لعبتين للإله أحدهما «حورس ذو العينين الزرقاوين».... والآخر «حورس ذو العينين الحمراوين»).[١٠٨] وفي المنطوقة ٢٤٦ من متون الأهرام: (حورس بعينيه الزرقاوين يواجهك. احم نفسك من حورس ذي العين الحمراء).[١٠٩]

لكن الأرجح أن الزرقاوات يمثلن الوجه السلبي لإيزيس. إنهن زرقاوات زباوات. و(كل أزبّ نفور) كما يقول المثل العربي.



twitter @baghdad_library

فصل 9

الأحقاف

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾

قرآن كريم

يربط القرآن الكريم، كما تربط المصادر العربية أيضا، بين النبي هود وقوم عاد. فهود هو نبي قوم عاد، الذين كان مسكنهم في الأحقاف. وقد سميت إحدى سور القرآن باسم منازل قوم عاد المفترضة (الأحقاف). جاء في السورة: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.[1] وورد في سورة هود ما يؤكد أن أخا عاد هو هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾.[2]

وعليه، فهود نبي عاد الساكنين بالأحقاف. أي أننا أمام ثلاثة أسماء رئيسة: هود، الأحقاف، عاد؛ لذا فسنذهب إليها واحدا واحدا كي نحاول التعرف عليها، بادئين بهود النبي.

هود وسلسلته

يقدم لنا النويري في نهاية الأرب أوسع مسرد لقصة هود:

(كان ملك عاد الأكبر اسمه الخلجان بن عاد بن العوص بن إرم ابن سام؛ وكان قومه يرجعون إلى فصاحة وشعر، وكان له ثلاثة أصنام: صدا وهبا، وصمود. وكان ملكهم قد حلى هذه الأصنام بأنواع الحلي، وطيبها، وجعل لها عدة من الخدم بعدد أيام السنة؛ فعتوا

في المعاصي، وانهمكوا على عبادة الأصنام. وكان فيهم رجل من أشرافهم اسمه الخلود ابن معيد بن عاد، وكان له بسطة في الخلق وقوة في الجسم، مع الحسن والفصاحة. وكان إذا قيل له: لم لا تتزوج وقد بلغت سن أبيك؟ يقول: رأيت في المنام كأن سلسلة بيضاء قد خرجت من ظهري، ولها نور كالشمس، وقيل لي: إذا رأيت هذه السلسلة قد خرجت من ظهرك ثانية فتزوج بالتي تؤمر بتزوجها. ولم أرها بعد، وقد عزمت على التزوج. وقام ليعبر بيت الأصنام يدعو بالتوفيق في التزوج، فلما هم بالدخول لم يقدر، وسمع هاتفاً يقول: يا خلود، ما لمن في ظهرك والأصنام؟ فلم يعد إليها. ثم رأى بعد ذلك في منامه السلسلة وقد خرجت من ظهره وقائلاً يقول: «قم يا خلود فتزوج بابنة عمك» فانتبه وخطبها وتزوجها، وواقعها فحملت بهود؛ وأصبح القوم وهم يسمعون من جميع النواحي: هذا هود قد حملت به أمه، ويلكم، إن لم تطيعوه هلكتم. ووضعته أمه في ليلة الجمعة، فوقعت الرعدة على قبائل عاد).[٣]

إذن، فثم سلسلة مضيئة تخرج من ظهر الخلود بن عاد، فيعلمه خروجها بموعد زواجه من ابنة عمه. هذا الزواج سيعطينا هود النبي، الذي سيترافق ميلاده مع رعدة محددة تقع على قومه.

نعتقد، انطلاقا مما قدمناه سابقا، أن (السلسلة المضيئة) في ظهر الخلود هي سلسلة فلكية سماوية. فنحن نتكلم عن مواقع فلكية وعن نجوم سماوية حين نتحدث عن عاد وعن هود. وبشكل أكثر تحديدا، نحن نرى أنه هذه السلسة هي حزام الجوزاء، التي تدعى أيضا نطاق الجوزاء، أو فقار الجوزاء. والفقار هو: سلسلة الظهر في العربية. وعليه، فمن حقنا أن نفترض أن السلسلة البيضاء التي خرجت من ظهر الخلود هي (فقار الجوزاء).

إذا صح هذا، فإن زواج الخلود يترافق مع طلوع برج الجوزاء، الذي يحوي فقار الجوزاء. وطلوع برج الجوزاء يؤذن ببدء الصيف، أو هو في الحق بدء الصيف. فهي تطلع في حزيران: يقول المسعودي في مروج الذهب: (وأيار برجه الثور، وحزيران برجه الجوزاء، وتموز برجه السرطان، وآب برجه الأسد).[٤] ويضيف الجواليقي في شرح أدب الكاتب.

(اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة مستوية، إذا نقص من النهار شيء زاد في الليل مثله حتى يستوفي اليوم والليلة أربعا وعشرين ساعة. فإذا نزلت الشمس الحمل اعتدلا وسمى الاعتدال الربيعي ويكون في النصف الأخير من آذار، ثم يزيد النهار إلى أن تبلغ الشمس آخر الجوزاء وذلك في النصف الأخير من حزيران فيكون هذا انتهاء طول النهار وقصر الليل).[٥]

twitter @baghdad_library

حزيران برج الجوزاء. وحزيران هو بدء الانقلاب الصيفي. لكن، الأهم أن طلوع الجوزاء بحزامها، ينذر بطلوع نجمة الشعرى العبور، نجمة إيزيس، الذي يتبعها طلوع سهيل سريعا بعد ذلك.

عليه، فربما كان الزواج الذي يحدث بعد طلوع سلسلة ظهر الخلود هو زواج الشعرى بسهيل، أي زواج إيزيس بأوزيريس. وقد عرفنا، وسوف نزداد معرفة في فصول لاحقة، علاقة حزام الجوزاء الوطيدة بأوزيريس وإيزيس. فأوزيريس في مظهريه يتمثل بنجمين من نجومها: النطاق والمنطقة، في حين أن إيزيس تتمثل بنجم واحد هو نجم النيلام.

وحين نقترح أن الزواج الذي حصل بين الخلود وبين ابنة عمه ربما يكون زواج سهيل بالشعرى، فلا نقترح ذلك عبثا. إذ تقول لنا المصادر العربية إن هودا هو ابن عابر أيضا. يقول ابن بطوطة في رحلته: (وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعاً مكتوبًا عليه: هذا قبر هود بن عابر).[٦] وهذا يعني ميثولوجيًا أن الخلود يساوي عابر. وقد توصلنا من قبل إلى أن عابر هو سهيل اليماني أو الشعرى. وعليه، فإن هود يكون ابن أوزيريس وإيزيس. أو هو ابن لأبوي إيزيس وأوزيريس.

على كل حال، فإن جذر (هد) المصري القديم يدعم فكرة أن هودا نجم سماوي. فجذر (هد) يعني فضة. وهذا يذكر بأن سلسة ظهر الخلود بيضاء، أي فضية. كما يعني الرجفة والرعدة (أهد: الرجفة، الارتجاف).[٧] ويتوافق هذا الجذر، ما تورده قصة هود. فمولد هود تبعته رعدة: (ووضعته أمه في ليلة الجمعة، فوقعت الرعدة على قبائل عاد).

الأحقاف

الأحقاف منازل قوم عاد. والأحقاف هي الرمال. أو هي طراز من التلال الرملية.

وتعلمنا أغلب المصادر العربية أن الأحقاف، التي فيها منازل قوم هود، تقع في اليمن. لكن هناك من يذكر فلسطين والشام. وحين يختلف على مكان ما بهذا القدر من الاختلاف، نكون أمام مكان ميثولوجي في غالب الظن. يقول الزبيدي في تاج العروس عن الأحقاف: (وهي ديار عاد. وقال ابن عرفَةَ: قَوم عاد كانت منازلهم في الرمال، وهي الأحقَاف... وقال ابن إسحاق: الأَحقَاف: رمل فيما بين عمان إلَى حضرموت، وقال قَتادة: الأَحقَاف: رِمال مَشرِفَة علَى البحر بالشّحْرِ من أَرضِ اليمنَ).[٨]

ويقول ابن بطوطة عند الحديث عن ظفار: (وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف، وهي منازل عاد. وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر، وحوله قرية

لصيادي السمك. وفي الزاوية قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعاً مكتوبًا عليه: هذا قبر هود بن عابر).[٩] أما القرطبي في تفسيره فيقول: (هي جبال مشرفة بالشحر، والشحر قريب من عدن، يقال: شحر عمان وشحر عمان، وهو ساحل البحر بين عمان وعدن).[١٠] غير أن الحميري في الروض المعطار يقول لنا إنها ربما كانت في اليمن أو في الشام: (هي منازل عاد. قيل كانت بالشام. وقيل هي بلاد رمل بين مهرة وعدن. وقيل في بلاد الشحر الموصلة للبحر اليماني. وقيل هي من حضرموت وعمان. والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ولهم كانت إرم ذات العماد).[١١]

منزل عاد، أي قوم هود، بالأحقاف، إذن، والأحقاف هي الرمال. لكنها رمال مرتفعة قليلا، أي أنها هضاب رملية. وحسب القرطبي فهي: (رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالا).[١٢] وهذا أمر تجب ملاحظته. إذ أن المعابد الأوزيريسية تبنى على هضبة قليلة الارتفاع في أرض صحراوية رملية، كما هي الحال مع أهرام الجيزة الثلاثة، في هضبة الجيزة. أي أن منازل عاد كانت على أرض شبيهة بأرض الجيزة في مصر.

الظبي الحاقف

وترتبط الأحقاف عند المصادر العربية، بشكل ما، بالظباء. يدل على قصة الظبي الحاقف التي يدعى أنها حدثت مع الرسول وأصحابه في إحدى الغزوات. وهي قصة شهيرة جدا في المصادر العربية. وكنا قد قلنا من قبل أكثر من مرة إن هذه المصادر تلقط تقاليد جاهلية وتنسبها إلى الرسول (ص) على شكل أحاديث أو قصص. أي أننا نعتقد أن هذه القصة تنسب تقليدا جاهليا للرسول، أو تربطه به. يقول لسان العرب ناقلا هذه القصة:

(إنه، صلى اللّه عليه وسلم، مر هو وأَصحابه وهم محرمون بظبي حاقف في ظل شجرة؛ هو {أي الظبي الحاقف} الذي نام وانحنى وتثّنى في نومه، ولهذا قيل للرمل إذا كان منحنِياً حقف، وكانت منازل قوم عاد بالرمال... والحِقف: أَصل الرمْل وأَصل الجبل وأَصلَ الحائط).[١٣]

إذن، فالأحقاف هي الرمال المعوجة المتقوسة، أي هي الكثبان الرملية التي ضربتها الريح وعوامل التعرية الأخرى فقوستها. كما أن الحقف أصل الرمل وأصل الجبل أو التلة. والظبي الحاقف كان يحقف جسده لينام أو يكنس نائمًا أو كانسًا، كما يقول الزبيدي في تاج العروس: (هو الذي نام وانحنى، وتثّنَى في نومه. المحقَف: من لا يأكل ولا

twitter @baghdad_library

يشرب).[١٤] ويقول اللسان: (ظبي حاقف فيه قولان: أَحدهما أَن معناه صار في حقف، والآخرِ أَنه ربضٍ واحقوقف ظهره. الأزهري: الظبي الحاقف يكون رابضا في حقف من الرمل أَو منطوياً كالحقف).[١٥] فهو يتطوى متخذا شكل الكثيب الرملِي المتقوس.

وتختلف المصادر في سرد قصة الظبي الحاقف اختلافًا بينًا. ففي رواية لسان العرب السابقة كان الظبي نائما. لكن روايات أخرى تؤكد لنا أنه الظبي الحاقف ضرب بسهم. ففي المغازي للواقدي تنتهي إلى أحد الصحابة: (لما كنا دون خيبر نظرت إلى ظبي حاقف في ظل شجرة، فأتفرد له بسهم فارميه فلم يصنع سهمي شيئاً، وأذعر الظبيَ فيلحقني عامر ففوق له السهم فوضع السَهم في جنب الظبي، وينقطع وتر القوس فيعلق رصافه بجنبه، فلم يخلصه إلا بعد شد).[١٦]

هنا يرمي الظبي الحاقف بسهم. لكن عقاب ذلك يحصل فورا. إذ ينقطع وتر القوس، فيعلق رصافه في جنب الرجل فلا يخلص منه إلا بعد جهد. هذا يعني أنه ما كان ينبغي صيد الظبي الحاقف، فصيده إثم ديني.

ويتحدث ابن حزم في المحلى عن ظبي وسهم أيضا، لكن الرسول (ص) يجد الظبي مصابا فيحاول أن يحميه. فقد مر الرسول (ص) بالأثاية و(إذا ظبي حاقف في ظل وفيه سهم فأمر صلى الله عليه وسلم رجلاً يثبت عنده لا يريبه أحد من الناس).[١٧] الرسول يضع عند الظبي الحاقف الجريح أحدا ليحرسه. يحرسه مِمَّن؟ لا ندري. لكن ربما حتى لا تسول نفس أحد مِمَّن معه أن يأخذه ويأكله. ولا تضيف رواية ابن الأثير المؤرخ في أسد الغابة التي تنتهي إلى عمير بن سلمة كثيرا إلى الأمر: (ثم مضى، فلما كان بالإثابة مر بظبي حاقف في ظل شجرة فيه سهم، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم ألّا يهيجه إنسان، فنفذ الناس وتركوه).[١٨]

وتضع رواية للمتقي الهندي في كنز العمال القصة بكلمات أوضح: (حتى إذا كنا بالأثاية إذا نحن بظبيٍ حاقف على جبل فيه سهم فنظر إليه الناس فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال: قف ههنا حتى يمر الرفاق لا يريبه أحد بشيء فجعل يذب الناس عنه حتى نفدوا).[١٩] الرسول (ص) هنا يذب الناس عن الظبي الحاقف ويمنع الجميع عنه. أي لا علاقة لأحد من أصحابه بالسهم الذي ضرب الظبي. إنه يبعد عنه أصحابه ليترك في سلام. ويكرر الخطيب البغدادي في الأسماء المبهمة الأمر ذاته: (إذا ظبي حاقف في ظل فيه سهم، فأمر رجلاً يقيم عليه حتى يجيز آخر الناس ألّا يتعرض له أحد[٢٠].

مجمل القول، إذن، أن الروايات رغم اختلافها تشير إلى أن الرسول أراد أن يحمي الظبي، وأن يمنع أحدا من تنفيره وإيذائه. فالظبي الحاقف، فيما يبدو، حيوان له قدسية ما، ولا ينبغي إيذاؤه أو إزعاجه. ويكاد المرء يعتقد أن الرسول كان يرى أن من رمى السهم قام بعمل آثم، لأن الظبي الحاقف رمز ديني ما، لا يجوز التعرض له. وإذا أخذنا قصة شبيهة أخرى عن ظبي فسوف يتضح بالفعل أن إيذاء الظبي عمل مرعب دينيا. يقول الدميري في حياة الحيوان الكبرى من خبر عن مجاهد:

(دخل قوم مكة تجارا من الشام في الجاهلية بعد قصي بن كلاب، فنزلوا بوادي طوى تحت سمرات يستظلون بها، فاختبزوا ملة لهم ولم يكن معهم أدم، فقام رجل منهم إلى قوسه فوضع عليها سهما ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى، فقاموا إليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها، فبينما هم كذلك وقدرهم على النار تغلي بها وبعضهم يشوى إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعا ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التي كانوا تحتها).(٢١)

الظبية هنا حيوان مقدس لا يجب أن يؤذى؛ لذا الاعتداء عليه أوصل إلى الكارثة. ولا بد من أن نلحظ أن اسم الوادي الذي حدث فيه الحدث يدعى (طوى). وهذا يذكر بالوادي المقدس طوى. كما أن هناك سمرات مثل سمؤات العزى.

من أجل هذا يمكن فهم لم وضع الرسول حراسا لحماية الظبي الحاقف. وخبر الواقدي السابق في المغازي يشير إلى مثل هذا تقريبا: (وينقطع وتر القوس فيعلق رصافه بجنبه، فلم يخلصه إلا بعد شد). فحين أطلق سهم على الظبي تقع القوس، ذلك أن القوس وصاحبها أثما بتعرضهما للظبي الحاقف. فالظبي الحاقف رمز لشيء مقدس عند الجاهليين، كما أنه مقدس في الديانة الأوزيريسية، كما سنرى بعد قليل.

العنز الكسول

فما أمر الظبي الحاقف هذا؟ ولأي شيء يرمز؟ وما معناه الديني؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، ربما ينفعنا أن نذهب إلى اليونان القديمة كي نحاول فهم المعنى الديني للظبي الحاقف العربي. وهناك سنجد أن (كلمة Aegyptus اليونانية التي تطلق على القطر المصري Egypt تعنى باللغة اليونانية «عنز مستلق، أو كسول»؛ ولعلها مما يدعى بالمشترك الفظي؛ لأنها تذكر بكلمة «ح ك ف ت» التي كانت تطلق على ممفيس المصرية القديمة، وهي أصل كلمة Egypt).(٢٢)

twitter @baghdad_library

هذه حقيقة شديدة الأهمية؛ كلمة إيجيبتوس تعني: العنز المستلقي الكسول، كما تعني مصر. وهذا يعني أن هناك علاقة ما بين اسم (العنز الكسول أو المستلقي) وبين اسم مصر (حكفت). ويعتقد علماء المصريات أن الاسم Egypt مأخوذ في الأصل من جملة (حكفبتاح)، التي كانت اسما لمدينة ممفيس القديمة، والتي تعني: (بيت الإله بتاح) أو (فتاح). هذا يعني، إذن، أن ثم علاقة ما بين الظبي الكسول وبيت الإله بتاح.

وليس يخفى على أي عين مدققة التواصل بين الكلمتين اليونانية، إيجيبتوس، والمصرية، حكفت، أو حكفبتاح، وبين جذر (حقف) العربي، المرتبط بالظباء. هذا التوافق اللفظي والمعنوي، يرغمنا على الافتراض أن الظبي الحاقف العربي على علاقة بالعنز الكسول اليوناني. يؤيد هذه الفرضية ما جاء عند الفيروزآبادي في القاموس المحيط: الحُكوف، بالضم: الاسترخاء في العمل. وهكذا فجذر حكف العربي، الذي هو تنويع على حقف، يعنَي الكسل والاسترخاء في العمل. وعليه، فالظبي الحاقف العربي ربما يكون هو الظبي المستلقي المتكاسل، مثله مثل العنز الكسول اليوناني.

ويجب ألّا يغيب عن البال أن بعض الظباء العربية هي طراز من العنز البري، في حين أن بعضها، كالمها مثلا، طراز من الأبقار. وفي فصل (الإلهات الزرقاوات) بينا أن إلهات من طراز إيزيس كان اسمهن (عنز). فقد ذكر الجاحظ أن زرقاء اليمامة، التي هي إيزيس عربية، كانت من بنات لقمان بن عاد، وأن اسمها عنز. إنها من بني عاد، أي من قوم عاد، الذين نحن بصددهم، كما أنها: عنز. وهذا ما قد يشير إلى العنز الكسول المستلقي، أو الظبي الحاقف، ربما كان على علاقة بإيزيس.

إيزيس: البقرة الحاقفة

والظبي الحاقف العربي، مثله مثل العنز الكسول اليوناني، على علاقة ببيت الإله بتاح، أو فتاح.

ولدينا صورة فرعونية يمكن لها أن تبت هذه العلاقة. بل إنها قادرة على الفك النهائي للغز الترابط بين: الظبي الحاقف، العنز الكسول، وحكفت، أي بيت الإله فتاح. ترسم لنا الصورة إيزيس على شكل بقرة مستلقية، أو حاقفة، أي متقوسة مثل كثيب رملي، أو حقف رملي، مديرة برأسها للخلف نصف إدارة. على ظهر البقرة نرى نجمين، بينما نرى نجما ثالثا بين قرنيها تماما. النجوم الثلاثة تتموضع تقريبا كما تتموضع نجوم حزام الجوزاء: نجمان قريبان من بعضهما، ونجم ثالث أبعد قليلا ويميل إلى اليسار. وهذا

يعني أن إيزيس تحقف في حزام الجوزاء، الذي هو بيت أفله بتاح، أو بوابة بيت الإله بتاح السماوية كما أوضحنا في فصل آخر. إذن فالظبي الحاقف العربي، والعنز الكسول اليوناني يرمزان لإيزيس الحاقفة في بيت الإله بتاح.



البقرة الوحشية- إيزيس، (تحقف) في حزام الجوزاء، أي تكنس آخذة شكل الحقف الرملي. نجمتا النطاق والنيلام على ظهرها، ونجمة المنطقة بين قرنيها. إنها الظبي الحاقف العربي. وهي تدير رأسها إلى الخلف نصف استدارة مثله تماما.

من أجل هذا فكل ظبي حاقف في الرمل، أي يستلقي هناك كما يستلقي العنز الكسول، هو تمثيل لاستلقاء إيزيس- البقرة في نجوم الثلاثة لحزام الجوزاء. من أجل هذا فهو ظبي مقدس. وعليه، فقصة الظبي الحاقف مع الرسول تعكس تقليدا جاهليا أبعد بكثير من وقت ظهور الإسلام.

وعليه فالأحقاف العربية، منازل قوم عاد، تمثيل أرضي لمكان فلكي، يقع في حزام الجوزاء في الأصل. أي أن هذه الأحقاف هي بيت الإله فتاح على الأرض.

بناء عليه، نقترح أن كلمة (أحقاف)، أحقاف قوم عاد، أو مفردها (حقف)، هو مختصر عربي لجملة (حكففتاح) أو (حكفبتاح) المصرية. أي أن أحقاف قوم عاد هي بيت الإله بتاح. ولأنها كذلك فهي هضبة رملية محقوقفة مثل هضبة الجيزة التي أقيمت عليها الأهرام العظيمة الثلاثة.

twitter @baghdad_library

ويجب ألّا يفوتنا أن جذر حقف العربي يصور التفاتة الظبي- الحاقف إيزي. فهو يعني أيضا الانعطاف إلى الخلف قليلا. وهذا ما يتوافق مع وضع بقرة إيزيس التي تعطف رأسها إلى الوراء نصف عطفة. يقول الزمخشري في الكشاف: (ومررت بظبي حاقف وهو المنعطف في منامه).[٢٣] ويضيف ابن سيدة في المخصص: (وقيل: حاقف منعطف).[٢٤] ويؤكد الزمخشري في الفائق في غريب الحديث والأثر: (هو المحقوقف؛ وهو المنعطف المنثني في نومه).[٢٥] ويوضح الأمر لسان العرب بشكل أفضل: (ظبية عاطف: تعطف عنقها إذا ربضت، وكذلك الحاقف من الظباء).[٢٦] وهذا هو حال بقرة إيزيس تماما. فهي تعطف رأسها إلى الوراء، كما رأينا في الرسم المصري القديم.

وربما كان إكناس الظباء عند طلوع الجوزاء، أي في عز الحر، هو الذي أوحى بعلاقة ما بين حزام الجوزاء والظباء، أو الأبقار، الكانسة الحاقفة. فالعرب تقول، كما يخبرنا الآبي في نثر الدرر: (إذا طلعت الجوزاء ترقدت المعزاء وكنست الظباء فلا تزال تقيل في مكانسها حتى تطلع العذرة).[٢٧] والترقد والكنس هو طراز من الحقف. عليه، يمكن ترجمة الجملة: إذا طلعت الجوزاء حقفت المعزاء والظباء.

وفي ظننا أن للظبي الحاقف علاقة ما بغزال الكعبة الذهبي الشهير، الذي تروى عنه روايات كثيرة. فهو ربما ظبي إيزيس الحاقف. ونحن ندري أن مكة الجاهلية كانت معبدا أوزيريسا بامتياز. ويقال إن عبد المطلب وجد هذا الغزال عندما حفر بئر زمزم. ويقال أحيانا إنهما غزالان اثنان. ويدعى أن أبا لهب المعروف سرق هذا الغزال. لكن هناك من يقول إنه أبو إهاب. وإلى هذا يذهب الزمخشري في ربيع الأبرار:

(ذكر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: أن بابك بن ساسان كان يغشى البيت، وآخر ما زاره دفن فيه غزالاً من ذهب، عيناه من ياقوت وفي أذنيه شنفان من ذهب بدرتين، والسيوف القلعية التي لم تكن إلا لفارس. وهو الغزال الذي سرقه أبو إهاب. وذلك أنه كان أبو إهاب وديك ودييك موليان لخزاعة يشربون، فنفذ شرابهم، فقال أبو إهاب والله ما نعول على شيء إلا على غزال الكعبة، فسرقوه، فعظم ذلك على قريش وقطعوا المولِيين، ولم يقووا على أبي إهاب، وفيه يقول حسان:

أبا إهاب فبين لي حـديثـكـم   أين الغزال عليه الدر من ذهب)[٢٨]

غير أن الغالبية تقول إن أبا لهب هو من سرق الغزال، واشترى به خمرا، وشنف

جاريتين مغنيتين به. ومن الواضح أنه كان لهذا الغزال مغزى ديني عميق. يدل على ذلك قول الشاعر أبو مسافع:

أبلغ بني النضر أعلاها وأسفلها   أن الغزال وبيت الله والركــن

أمست قيان بني سهم تقسمــه   لم يغل عند نداماهن في الثمن

فههنا يربط الغزال ببيت الله وركنه.

أخيرا، لا بد من التذكير أن مسيلمة، رحمن اليمامة، كان يدعي أنه كان لديه ظبية تأتيه من الجبال. وهذا يعني أن إلهه المدعو رحمن لا بد أن يكون مرتبطا بالظبي. وأغلب الظن أن الظبي الذي يأتيه من الجبال هو زوجة هذا الإله. وحين يكون الظبي هو إيزيس، فلا بد أن يكون الرحمن هذا هو أوزيريس.

أصنام قوم عاد

أما فيما يخص اسم عاد، فسوف نرى في مكان آخر أن عادا هو الآخر يماني مثله مثل سهيل، أي أنه طراز من أوزيريس. لكننا الآن نرغب في التعرض لأصنام قوم عاد الثلاثة المشهورة.

يقول الزمخشري في الكشاف: (وقصتهم أن عاداً قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت. وكانت لهم أصنام يعبدونها. صداء. وصمود، والهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبياً).(٢٩)

يضيف الطبري في تاريخ الرسل:

(فأما عاد فإنّ الله عز وجل أرسل إليهم هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح. ومن أهل الأنساب من يزعم أن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وكانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها، يقال لإحداها: صداء، وللآخر صمود، وللثالث الهباء).(٣٠)

ومشهورة أبيات مرثد بن سعد عن هذه الأصنام:

أتـانا والقـلوب مصمدات   على ظلم، وقد ذهب الضياء

لنـا صنم يقال له صمـود   يقابلـه صـداء والهـبـاء

ويبدو أن الهمزة زيادة في اسمي (صداء والهباء)، ذلك أن ابن الأثير في الكامل في التاريخ يوردهما من دون الهمزة: وكانوا أهل أوثان ثلاثة يقال لأحدها صدا وللآخر صمود وللثالث الهبا.

twitter @baghdad_library

اعتقادنا أن هبل العربي هو، في الأغلب، عديل (ال هبا)، أو (هبا) إذا أزلنا أل التعريف. فاسم هبل في الأساس مكون من كلمتين: (هب إيل= هب إل)، ويعني الإله هب. أما (صدا) فهو فربما عديل الحية (الصدى) التي رأيناها عند تعرضنا للآية القرآنية وإذا كان صدا هو نغمة التصدية الواطئة، فلا بد أن نفترض أن هب هو نغمة الكون العالية، رغم وجود ما يشير إلى عكس ذلك أحيانا. وهذا ما يشير إليه كون هبل في الأعلى، بينما صدا- الحية في الأسفل. والاثنان معا (هبا وصدا) مظهرا إله أوزيريسي الطابع بنغمتيه العالية والواطئة.

سد-هب

وهناك احتفال مصري قديم غامض وشهير، يدعى احتفال (سد-هب) المصري. ولنقرأ ما تقوله عنه إحدى موسوعات مصر القديمة عن هذا الاحتفال:

(احتفال ملكي قديم، بدأ في عهد ما قبل الأسرات، وظل معروفا طوال تاريخ مصر. يمثل الاحتفال تجديدا رمزيا لطاقة الملك الجسدية والسحرية. وهو يقام في العادة في السنة الثلاثين من حكم الملك، ثم يقام كل ثلاث سنوات بعد ذلك. تفاصيل السد هذا غامضة لأن الاحتفال تغير عبر الزمن... وخلال الاحتفال يزور الملك معابد الآلهة، وهو يرتدي رداء قصيرا يغطي جذعه كاملا وذراعيه. ويقوم خلال ذلك بطقس «الدوران حول الحائط»، فيركض، ويرقص، ويقفز مظهرا تجدد شبابه).[٣١]

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل هذا الاحتفال الغامض، لكننا نعتقد أنه على علاقة بـ(صدا) و(هبا)، صنمي قوم هود، كما أشرنا. وربما كان هدف الاحتفال توحيد مظهري الإله أوزيريس (سد وهب)، أي أوزيريس الفيضان الصيفي وأوزيريس التراجع والانسحاب الشتوي في وقت ميثولوجي ما. وربما كان الدوران حول الحائط في هذه الحال مشابها لطواف الجاهلية في الكعبة يمكون ويصدون.

وحول اسم (عاد)، فنحن نعلم أن المصادر العربية ترى أن الهرمين الأكبرين هما قبرا: عاديمون وهرمس. وهم تصف عاديمون، باني الهرم الأكبر، بأنه عاديمون المصري. اسم عاديمون هذا، فيما نعتقد يعني: عاد اليماني، أي عاد الجنوبي. وقد وصفت المصادر العربية باني الهرم الأكبر بأنه المصري كي تقول لنا إنه شبيه عاد العربي، فيما نفترض. فهناك عاديمون مصري وعاديمون عربي. لا بل إن هناك عاديمون يونانيًا هو الذي ذكره هيرودتس في تواريخه بصيغة أيادمون Iadmon. فقد أنكر هيرودتس ما ذكره بعض

اليونانيين من نسبة بناء الهرم الثالث، هرم منقرع، إلى (بائعة الهوى رودوبيس). لكنه يحاجج ضد وجهة النظر هذه بشدة. فهو يحاجج ضد هذا قائلا عن رودوبيس:

(إنها كانت تراقية المولد، في خدمة أيادمون بن هيفاستوبوليس، في جزيرة ساموس ورفيقه أيسوب صاحب الحكايات في العبودية. والدليل الماثل على أن إيسوب كان عبدا لأيادمون هو دعوة أهل دلفي مرارا لصاحب الحق بالمطالبة بدية أيسوب، بناء على نبوءة العرافة جزاء لمقتله، فكان الرجل الوحيد الذي تقدم بهذه المطالب حفيد أيادمون، وهو يحمل الاسم ذاته).[٣٢]

(أيادمون) هذا هو في رأينا (عاديمون)، أي عاد اليماني. وربما كان هو وحفيده أيادمون يمثلان عاد الأولى والثانية. وكل هؤلاء (العادون) هم طراز من أوزيريس.

القينتان

وثم قينتان، أي مغنيتان، تدعيان (الجرادتين) لهما علاقة بقوم هود. فحسب الإخباريين أن المطر حبس عن قوم عاد ثلاث سنين، فبعثوا وفدا كي يستسقوا، لكن الوفد تلهى بالشراب، وبغناء هاتين القينتين، ونسي المهمة. يقول ابن خلدون في تاريخه:

(وبعثوا الوفود من قومهم إلى مكة يستسقون لهم، وكان في الوفد على ما قاله الطبري نعيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن صدا بن عاد. وقيل ابن عنز منهم، وحلقمة بن الخسري ومرثد بن سعد بن عنز. وكان ممن آمن بهود واتبعه. وكان بمكة من عاد هؤلاء معاوية بن بكر وقومه، وكانت هزيلة أخت معاوية عند نعيم بن خزال، وولدت له عبيدا وعمر وعامرا، فلما وصل الوفد إلى مكة مروا بمعاوية بن بكر وابنه بكر، ونزل الوفد عليه. ثم تبعهم لقمان بن عاد، وأقاموا عند معاوية وقومه شهرا لما بينهم من الخئولة، ومكثوا يشربون وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية بن بكر وابنه بكر. ثم غنتاهم شعرا تذكرانهم بأمرهم، فانبعثوا ومضوا إلى الاستسقاء، وتخلف عنهم لقمان بن عاد ومرثد بن سعد فدعوا في استسقائهم وتضرعوا، وأنشأ الله السحب، ونودي بهم أن اختاروا فاختاروا سوداء من السحب، وانذروا بعذابها فمضت إلى قومهم وهلكوا كما قصه القرآن).[٣٣]

وفي القرآن، فإنهم قد هلكوا بالريح، لما قال قائلهم: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[٣٤] وحسب المصادر العربية، فقد تغنت القينتان بهذا الشعر الجميل ترثيان عادا وتبكيانهم:

ألا يا قَيل ويحك قم فهينم   لعل الله يمطرنا غماما

twitter @baghdad_library

فيسقي أرض عـــاد إن عـــــادا قَـد أمسوا لا يبينون الكـلاما
من العطش الشديد فليس نرجـو بـه الشيخ الكبير ولا الغـلاما
وإن الوحـش تأتي أرض عـــــاد فـلا تـخشى لراميهم سـهاما

والحق أن الأبيات توحي بحديث عن مملكة آلهة متعبة، مرهقة كسلى. لعلها مملكة الآلهة الموتى قبل أن تنبعث أرواحهم ويتوهجون من جديد. لذا قال خالد بن سنان العبسي، وهو واحد أوزيسي عربي أيضا: (إذا أنا مت فادفنوني في حقف من هذه الأحقاف، وهي تلول عظام من الرمل)، حسب ما رواه الزبيدي في تاج العروس.

لكن من هاتان القينتان الجرادتان؟ هل هما النغمتان الأصليتان للكون، العالية والواطئة، القمة والقرار، المكاء والصدى؟ أم هما مثيلتا إيزيس ونفتيس، اللتين بكتا أوزيريس ورثتاه عند موته؟ ليس لدينا إجابة أكيدة عن هذا السؤال.

لكننا أميل إلى الاحتمال الأول، احتمال أن يكونا ممثلتين لنغمتي الكون- الإله الشتوية والصيفية. يدعم هذا الاحتمال ما أورد النويري في نهاية الأرب عن الغريين: (وأما الغريان فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة. بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، علِى جاريتين كانتا قينتين تغنيان بين يديه. فماتتا، فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغريين).[٣٥]

وكنا قد رأينا في فصل آخر كيف أن الغريين (أو الغربين كما نظنهما) يمثلان نغمتي الكون العالية الفيضية والواطئة الشتوية. وعليه، فحين يقيم النعمان الغريين فوقهما، فهو يقيم نصبا مثل مجوز الريح ومطعم الطير، ومثل الصفا والمروة، ومثل الهرمين الأكبر والأصغر المؤزر الملون. أي أنهما في الواقع عديلا صنمي: هبا وصدا.

وهاتان المغنيتان ربما تكونان على علاقة بغزال الذهب الذي شنفت بثمنه جارتا أبي لهب أو غيره.

وفي النهاية يجب أن نلفت نظر القارئ إلى علاقة محتملة بين البيت الذي تغنت به القينتان وبين السهم الذي أصاب الظبي الحاقف:

وإن الوحش تأتي أرض عـاد فـلا تـخشى لراميهم سـهاما

الوحش هنا تأتي أرض عاد فلا يطلق أحد عليها سهم، لأن قوم عاد أجهدهم العطش والجوع. لكن المنطق الميثولجي يقول إن أرض عاد، أي الأحقاف، هي أرض مقدسة لا يجوز أن يُرمى فيها حيوان بسهم، خاصة إذا كان هذا الحيوان ظبيا حاقفا. فالظبي الحاقف رمز لبيت الإله بتاح، ورمز لإيزيس البقرة الحاقفة فيه. من أجل هذا فقد أراد

النبي (ص) وصحبه حماية الظبي الحاقف المصاب بالسهم. كانوا يدركون أن ضربه بالسهم إثم، وكانوا يتمنون شفاءه من جرحه. ومن أجل هذا أيضا انقطع وتر من رمى الظبي بسهم فور انطلاقة سهمه.

twitter @baghdad_library

فصل 10

هبل ذو اليد المكسورة

(يده لا تضرب بالذهب)

منطوقة مصرية

علمنا من الروايات العربية أنه كانت لهبل يد مكسورة، فاستبدلتها قريش بيد من ذهب، حسب ما أخبرنا هشام ابن السائب الكلبي في الأصنام: (وكان أعظمها {الأصنام} عندهم هبل. وكان فيما بلغني من عقيق أحمر، على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى. أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب).[١]

وقد شكك البيروني في الجماهر في معرفة الجواهر، انطلاقا من معرفته بأديان الهند، بهذا الخبر، مستغربا أن يستجيز أهل مكة صنما مكسور اليد، وأن يتعبدوه: (قيل إن صنم هبل، الذي كان في الكعبة أيام الجاهلية، كان من عقيق مكسور اليد اليمنى قد أضافوا إليه يدا من ذهب. وذلك عجب، فإن أهل الهند لا يستحسنون من أصنامهم ما أصابته آفة من كسر أو نقر وأمثالهما، ويبعدونه. فكيف استجاز أهل مكة تعظيم صنم أقطع؟!).[٢]

شك البيروني في محله تماما. إنه شك خبير بأديان القدماء. فإله مكسور اليد شؤم لا يمكن احتماله. هذا يقود إلى أن كسر يد هبل كان كسرًا ميثولوجيًا، أي كسرا يرمز إلى معنى ديني، وليس كسرا واقعيا. وهذا يعني، ربما، أن يد هبل اليمنى كانت منذ البدء يدًا من ذهب لسبب ديني محدد. نقصد أن هذا الإله يجب أن يكون دوما بيد ذهبية. فيده الذهبية تقع في جوهر الأسطورة من لحظتها الأولى.

وفي هذا الفصل سنتحدث عن علاقة محتملة بين هبل العربي الأقطع وبين أهود التوراتي أحد شخصيات سفر القضاة. هذه العلاقة قد تمنحنا فرصة لمزيد من الفهم لهبل المكي الأقطع. كما أنها قد تنفعنا في توضيح أمر النبي هود صاحب قوم عاد، والذي لا يخفى التواصل بين اسمه واسم أهود التوراتي.

وحسب سفر القضاة في إصحاحه الثالث، فإن يد أهود اليُمنى كانت تعاني من خلل ما. لكن هذا الخلل غير واضح، أو غير مفهوم. إذ اختلف على ترجمة الجملة التي تتحدث عن هذا الخلل. جاء في ترجمة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ما يلي:

(وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب فشدد الرب عجلون ملك موآب على إسرائيل لأنهم عملوا الشر في عيني الرب. فجمع إليه بني عمون وعماليق وسار وضرب إسرائيل وامتلكوا مدينة النخل. فعبد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثماني عشرة سنة. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب، فأقام لهم الرب مخلّصا أهود بن جيرا البنياميني رجلا أعسر. فأرسل بنو إسرائيل بيده هدية إلى ملك مؤاب. فعمل أهود لنفسه سيفا ذا حدين طوله ذراع وتقلده تحت ثيابه على فخذه اليمنى. وقدم الهدية لعجلون ملك موآب. وكان عجلون رجلا سمينا جدا. وكان لما انتهى من تقديم الهدية صرف القوم حاملي الهدية. وأما هو فرجع من عند المنحوتات التي لدى الجلجال وقال: لي كلام سرّ إليك أيها الملك. فقال صه. وخرج من عنده جميع الواقفين لديه. فدخل إليه أهود وهو جالس في علية برود كانت له وحده. وقال أهود. عندي كلام الله إليك. فقام عن الكرسي. فمدّ أهود يده اليسرى وأخذ السيف عن فخذه اليمنى وضربه في بطنه).(٣)

وسوف نناقش هنا جملة: (أهود بن جيرا بن هيميني، إيش أطر يد- يمينو):

אֵהוּד בֶּן-גֵּרָא בֶּן-הַיְמִינִי, אִישׁ אִטֵּר יַד-יְמִינוֹ;

التي ترجمت هذه الجملة على أنها (أهود بن جيرا البنياميني رجلا أعسر)، أي أنه كان يستخدم يده اليسرى.

من الواضح أن هذا مجرد تفسير من خارج النص. فجملة (يد- يمينو) تعني بوضوح تام: اليد اليمنى. عليه، فلا يمكن ترجمتها بـ (رجل أعسر). فالجملة يجب أن تترجم هكذا: (أهود بن جيرا البنياميني رجلا أطر اليد اليمنى). وهي ترجمة تترك كلمة (أطر) كما هي في العبرية. وقد ترجمت الجملة على أنها تعني أعسر انطلاقا من الجملة التي تلي في النص: (فمد أهود يده اليسرى وأخذ السيف عن فخذه اليمنى). فإذ استخدم أهود يده اليسرى بدل اليمنى، فقد اقترح أن ذلك يعني أنه أعسر. وهذه الترجمة مضللة تماما. فإذ تَبْهم كلمة (أطر) أمامها فتتحدث عن يد عسراء متناسية جملة: (يد- يمينو)، التي تعني (اليد اليمنى). وهكذا تخلو الترجمة من ذكر اليد اليمنى مطلقا! ولو كان الحديث عن العسر، أي عن اليد اليسرى، لما كان النص قد ذكر اليد اليمنى (يد يمينو) أصلا. إذ لا

twitter @baghdad_library

حاجة لذكر اليد اليمنى لو أن النص أراد بالفعل أن يتحدث عن عسر أهود.

وهناك اقتراحات أخرى لترجمة الجملة كاملة، أكثرها شيوعا تقول إن يد أهود اليسرى كانت مشلولة: (وكان على أهود أن يستخدم يده اليسرى؛ لأن يده اليمنى مشلولة).[٤] هنا لا يتم تجاهل اليد اليمنى (أطر يد- يمينو)، بل يفترض أن (أطر يد- يمينو) تعني (يده اليمنى مشلولة)، بمعني أن كلمة (أطر) تعني مشلولة. فما دام أهود لم يستخدم يده اليمنى، فلا بد أن يكون قد اعتراها عرض ما، عله شلل. لكن لأن كلمة (أطر) لم ترد في التوراة إلا في هذا المكان فقط، فليس بالإمكان تأكيد مثل هذه الترجمة مطلقا. أي أنها تظل ترجمة افتراضية.

ويجب أن نشير إلى أن مقترحات الحلول السابقة قديمة وليست حديثة. وهي مذكورة في بعض المصادر العربية. فقد جاء عند الطبري في تاريخ الرسل والملوك أن أهود كان أشل اليمنى. يقول: ثم ملك: (عليهم ملك يقال له عجلون فملكهم ثماني عشرة سنة، ثم تنقذهم منه - فيما قيل- رجل من سبط بنيامين يقال له أهود بن جيرا الأشل اليمنى، فقام بأمرهم ثمانين سنة).[٥]

أما اليعقوبي في تاريخه فيعلمنا بوجود حل توفيقي آخر: (ثم ارتدت بنو إسرائيل إلى الكفر، فسلط الله عليهم عقلون ملك مؤاب، خمس عشرة سنة، ثم تابوا، فبعث الله لهم رجلا يقال له أهود بن جيرا، من سبط إفرائيم، فقتل عقلون ملك مؤاب، وكان يقاتل بشماله ويمينه، فسموه ذا اليمينين، وهو أول من طبع السيوف ذوات الحدين، وكانت قبله ذوات أقفية).[٦]

هنا يستخلص من النص كله أن جيرا كان يستخدم يديه الاثنتين معا. أي أنه لم يكن أعسر أو مشلولا. وهذا بالطبع لا يقدم حلا لمشكلتنا، مشكلة (أطر يد- يمينو).

وبما أنه لا يوجد نص توراتي آخر ترد فيه كلمة (أطر)، فإن من المشروع أن نقترح فهما محددا لها انطلاقا من العربية. وسوف نرى كيف أن العربية يمكن أن تلقي ضوءا قويا على هذه الجملة الغامضة، وعلى شخصية أهود الميثولوجية عموما.

جذر أطر في العربية يعطي معاني متقاربة عموما. وغالبها يشير إلى أذى ما. فحسب الزبيدي في تاج العروس فإن أطرّ تعني قطع: (أَطَرَّ يده: قطع).[٧] ويقال: ضربه فأَطَرَّ يده أي قطعها. وحسب لسان العرب: (الأَطْر: عَطف الشيء تَقْبِضُ على أَحد طرفيه فَتعوِّجه... وأَطَّرَه فَتَأَطَّر: عطَفه فانعطف كالعُود تراه مستديراً إذا جمعت بين طرفيه... وفي الحديث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه ذكر المظالم التي وقعت فيها بنو إسرائيل والمعاصي فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأخذوا على يدي الظالم وتأطروه

علي الحق أَطرا؛ قال أَبو عمرو وغيره: قوله تأطروه علي الحق يقول تَعطفوه عليه؛ ... وتَأَطَّر الرمح: تثنى؛ ومنه في صفة آدم، عليه السلام: أنه كان طُوالاً فَأَطَّر الله منه أَي ثناه وقَصَّره ونَقَص من طُوله. يقال: أَطَرت الشيء فانأَطَر وتأطر أَي انثنى... أَبو زيد: أَطَرتُ القَوس آطرها أَطْراً إذا حنيتها....وفي حديث علي: فأَطَرتها بين نسائي أَي شققتها وقسمتها بينهن).[٨]

عليه، فالجذر أطر قد يعني: قطع، عطف الشيء أوله على آخره بقوة، ثناه، قصّره ونقص منه. وكل هذه المعاني تشير إلى طروء وضع مخالف على وضع أصلي، أو خلل ما عليه.

بناء على ذلك، فجملة (إيش أطر يد- يمينو) يمكن أن تترجم هكذا (رجلا مثني اليد اليمنى) أو (رجلا قصير اليد اليمنى). أو (رجلا أقطع اليد اليمنى). ونحن أميل إلى الصيغة الأخيرة: رجلا أقطع اليد اليمنى!

وإذا كان الأمر كذلك، فإن أهود بن جيرا أقطع مثله مثل هبل المكي تماما. وهذا يعني احتمال أنه كان بيد من ذهب أيضا! وسوف نرى أن اليد الذهبية لا تضرب، وأنه لهذا استخدم أهود يده اليسرى حين قتل عجلون. ويبدو أنه لا يضرب باليد الذهبية كما سنرى. من أجل هذا لم يستخدم أهود يده اليمنى لضرب عجلون، بل يده اليسرى.

على كل حال، نحن نرى آلهة مثل بعل وهدد ونعرمر المصري (الذي هو في رأينا إله لا ملك) تقف في وضع من يرفع بيده اليمنى مقرعة أو عصا صاعقة ويهدد بالضرب بها. هي تهدد لكننا لا نراها وهي توقع الضرب. فاليد اليسرى هي التي تعمل، وتسفع بالناصية. وربما يكون لهذا الأمر علاقة بما نقول.



صورة نعرمر على الوجه الأول من صلايته، يهدد باليمنى ويسفع باليسرى

twitter @baghdad_library

لكن قبل أن نكمل حول اليد الذهبية، علينا أن نؤكد على التواصل اللفظي القوي، الذي أشرنا إليه، بين اسم (أهود) التوراتي و (هود) العربي، نبي قوم عاد. هذا التواصل ليس صدفة، فيما نعتقد. وكنا قد اقترحنا أن هودًا قوم عاد يماني، أي جنوبي، مثل سهيل اليماني. ويبدو أن أهود التوراتي هو أيضا يماني- جنوبي. فهو هيميني: (أهود بن جيرا بن هيميني، إيش أطر يد- يمينو). وقد ترجمت (هيميني) على أنها تعني البنياميني: (أهود بن جيرا البنياميني) أي من قبيلة بنيامين. وتبدو لنا الترجمة غير سليمة. فأهود هو (بن هيميني)، وليس (هبنياميني) حتى يقال إنه البنياميني. أي أنه (ابن اليميني) لا (البنياميني). يؤكد هذا أن أهود ليس من قبيلة بنيامين حتى يوصف بأنه بنياميني: (أهود لم يكن بنيامينيا).[٩] لذا يقترح غوستا أهلشتروم أن (الجملة بن- هيميني تحيل إلى رجل من أرض يميني).[١٠]

أي أنه رجل ما من بلد أو أرض تدعى يميني. أما نحن فنعتقد أن الجملة تعني هنا (اليماني) أي الجنوبي، وهو الوصف ذاته الذي يطلق على سهيل (سهيل اليماني)، زوج الشعرى، الأمر الذي قد يعني أن أهود وسهيل متماثلان، أي أنهما يمانيان، أي جنوبيان. أهود ابن اليماني، أي ابن الجنوبي، وليس البنياميني. وهناك في الآية ٢٦ من الإصحاح ذاته في سفر القضاة ما قد يشير إلى علاقة بين أهود والشعرى اليمانية:

וְאֵהוּד נִמְלַט, עַד הִתְמַהְמְהָם; וְהוּא עָבַר אֶת-הַפְּסִילִים, וַיִּמָּלֵט הַשְּׂעִירָתָה.

وتترجم الآية ترجمات مختلفة. وفي الترجمة العربية: (وأما أهود فنجا إذ هم مبهوتون وعبر المنحوتات ونجا إلى سعيرة).[١١] وفي هذا النص كلمتان غامضتان هما: فسيليم pesilim وهشعيره ha-seirath. وقد ترجمت فسيليم على أنها تعني المنحوتات. ذلك أن جذر فسل في العبرية، وفي عدد من اللغات السامية، يعطي معنى النحت. أما الكلمة الثانية فلم تترجم واعتبرت اسم مكان محدد. وهناك من يترجم فسيليم على أنها صور أو محاجر أو علامات حدود. لكن من الواضح أن هذه الترجمات تجعل الجملة بلا معنى. إذ ما معنى: (عبر المنحوتات ونجا إلى سعيرة)؟!

وعليه، فنحن نعتقد أن (هسعيرة، هشعيرة) هنا هي الشعرى، الشعرى اليمانية بالذات. فقد فعل أهود فعلته، أي قتل عجلون، وانضم إلى الشعرى اليمانية، زوجته. لقد أزاح نظيره عجلون، أي الشتاء، وعاد هو إلى الشعرى اليمانية في برج الجوزاء، وعاد معه

الصيف. أي أننا نظن أن فسيليم تعني برج الجوزاء. يؤيد ذلك أن برج الجوزاء أو الجبار يدعى في العبرية باسم فسيل. يقول د. جواد علي:

(وعرفت مجموعة أخرى من النجوم باسم «جبار». وتسمى «جبارا» Gabbara في السريانية، وبـ «نفله» Nephla في الكلدانية، و«فسيل» في العبرانية.. ويظهر أنها من الأبراج السماوية القديمة المعروفة عند الساميين).[١٢]

(فسيل) تعني الجوزاء. ويبدو أن فسيل هي مفرد فسيليم. وعليه يكون أهود بن جير قد عبر إلى برج الجوزاء ونجومه والتحق بالشعرى اليمانية التي تنتظره هناك. وهذا ما يفعله سهيل كل عام: يعبر في الصيف إلى برج الجوزاء ذاهبا إلى الشعرى، التي تكون بانتظاره هناك أسفل حزام الجوزاء. وهذا يعني أن أهود هو مثيل سهيل اليماني. وعليه، يجب أن تترجم الجملة على هذا النحو، بشكل ما: (وعبر {أهود} إلى برج الجوزاء وانضم إلى الشعرى).

وبما أن أهود يماني كسهيل، فلا بد أن هبل كان يمانيا أيضا؛ لأنه مثله بيد قطعاء. وهذا يعني أن هبل ممثل النغمة الكونية العالية للكون، أي الصيفية الجنوبية؛ ولعل هذا أن يقودنا إلى افتراض أن هبل كان منصوبا في داخل الكعبة في جهة الركن اليماني، أي الجنوبي.

وهكذا، فنحن أمام أربعة يمانيين: سهيل اليماني، أهو التوراتي، هود قوم عاد، وهبل المكي. كل واحد من هؤلاء يماني، أي جنوبي، أي ممثل للنغمة الصيفية العالية.

اليد القاسية

توصلنا في فصل سابق إلى أن النغمة الصيفية العالية، أي أوزيريس الفيضي، أي سهيل اليماني في النهاية، يتمثل بطائر يدعى المكاء، الذي أخذ من اسمه طقس المكاء حول الحرم المكي. ونحب أن نلفت الانتباه إلى أن الجذر (مكا)، الذي أخذ منه اسم المكاء الطائر، يعطي معنى ثخن اليد وقساوتها من العمل. يقول لسان العرب: (قد مكيت يده تمكي مكي، إذا مجلت من العمل).[١٣] ويضيف القاموس المحيط: (ومكِيت يده تمكى مَكاً: مَجِلَت من العمل)[١٤]، أي ثخنت وقست. عليه، فالمكاء الطائر يبدو هو أيضا على علاقة بتعب ما يخص اليد، من ناحية الجذر على الأقل.

ويعطي الجذر (كنب) في العربية المعنى ذاته الذي يعطيه جذرا مكا ومجل. أي أن

twitter @baghdad_library

مكيت ومجلت وكنبت تعني: اليد التي ثخنت من العمل. ونحن نعرف أن الجذر (كنب) قد يشير إلى الذهب. يقول لسان العرب: (وقال أبو زيد: كانب كانز، يقال: كنب في جرابه شيئاً إذا كنزه فيه. والكَنَب: غِلَظٌ يعلُو الرجل والخف والحافر واليد؛ وخص بعضهم به اليد إذا غَلُظتِ من العمل). ويضيف: (وكَنب الشيء يكنبه كنْبا: كنز).[١٥] إذن، فكنب تعني كنز. وكنز قد تشير إلى كنز الذهب. ويد هبل كانت ذهبية. أي أننا مع الذهب حين يتعلق الأمر بهبل وأمثاله. فهل تكون يدا هبل وأهود قد استُبْدِل بهما يدان من ذهب، حتى لا تخثنا من العمل، أو لأنهما قد ثختنا من العمل؟ فالذهب معدن قوي يظل على حاله.

ولا بد أن نشير إلى أن جذر (كنب) على علاقة واضحة علاقة بـ (كنوبوس) اليوناني قبطان أوزيريس، الذي هو سهيل العربي. وهناك من يقول لنا إن اسم كنوبوس اليوناني يعني: الأرض الذهبية. وإذا كان كنوبوس على علاقة بالذهب، فإن سهيل العربي يجب أن يكون على علاقة بالذهب. أي أننا مع الذهب هنا أيضا. فوق هذا، فإن جذر (كنب) على علاقة بإله مصري يدعى (كنب). ولدينا من رسائل من حصن ألفانتاين في مصر، حيث كانت تقيم جماعة فلسطينية تعبد يهوه في القرن الخامس قبل الميلاد، رسالة يبدو أنه تماه بين يهوه والإله (كنوب): (ليباركك يهوه وكنوب I bless you by Yaho and Khnub).[١٦]

يهوه هنا يقرن بشكل ما بكنوب المصري. وهذا ما قد يشير إلى أن عباد يهوه كانوا يماهون بينه وبين كنوب، ويرون أنهما شيء واحد تقريبا. وقد ورد اسم هذا الإله في رسالة أخرى من رسائل ألفنتاين:

(وقد تآمر كاهن كنوب في حصن ألفنتاين مع فدرانغ، الذي هو القائد هنا لإزالة معبد يهوه في حصن ألفنتاين... والآن، فإن أجدادنا قد بنوا هذا المعبد في ألفنتاين من أيام مملكة مصر. وعندما جاء قمبيز إلى مصر وجده مشيدا).[١٧]

ويبدو أن نهاية السيطرة الفارسية على مصر حملت معها نزعة وطنية مصرية أدت إلى أن المصريين، الحانقين على الاحتلال الفارسي الطويل، صاروا حساسين تجاه من يعتبرونهم أجانب ومن آلهتهم، حتى لو كانت هذه الآلهة موجودة في مصر منذ ما قبل الفرس، وهذا ما تشير إليه الرسالة؛ لذا فقد دمروا معبد المجموعة الفلسطينية من عباد يهوه، الذي يتماهى في الواقع مع إلههم كنوب. ويحدثنا يوسيبيوس القيساري، نقلا عن فيلون الجبيلي، عن الإله كنوب هذا فيخبرنا أنه مرتبط بحية وطائر فيقول:

(فهذا الحيوان {الثعبان، الحية} لا يموت موتا طبيعيا، بل يموت بضربة عنيفة فقط. ويسميه الفينيقيون «الإله الجان». وبالمثل، يسميه المصريون «كنب»، ويضيفون له

رأس صقر، بسبب قوة الصقر. أبيس «الذي يُدعى بالكاهن والكاتب المقدس، والذي ترجمه إلى اليونانية آريوس هيراكليبوليس، يتحدث عنه.. بالقول: «الأول والأكثر سموًا بين الآلهة هو حية برأس صقر»).[١٨] والحق أن الصقر الذي برأس حية هو أوزيريس بمظهريه، أي المكاء الطائر والحية، اللذين يرتبطان بالصنمين مجوز الريح ومطعم الطير. وفي فصل آخر كنا قد أسسنا أن صولجان أوزيريس، أو محجنه بالعربية، كان مكونًا في قمته من طائر، وفي أسفله من حية. وعليه، فكنب ومجل ومكا تشير جميعا إلى إله أوزيريسي الطابع. أما أهود وهُبل وهود فهي الطائر لا الحية، أي المظهر الصيفي للإله المكون من حية برأس صقر.

أوزيريس- النيل بيد ذهبية أيضا!

في (ترنيمة إلى النيل) التي يقدر بأنها تعود إلى فترة الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين وردت الجملة الغريبة التالية: (يده لا تضرب بالذهب).[١٩] واضح تماما أن هذه الجملة علاقة بما نحن فيه. فالنيل، هابي، لا يضرب بيد من ذهب. وأهود الذي يبدو أنه بيد من ذهب أيضا لا يضرب بهذه اليد أيضا. وعليه، فلنا أن نفترض أن هُبل لا يضرب بيده الذهبية أيضا؟ اليد اليمنى إذن ذهبية ولا تضرب. هي ربما تهدد بالضرب كما في صلاية نعرمر، لكنها لا تضرب، كما هو الحال مع هابي الذي (يده لا تضرب بالذهب).

لكن لماذا لا تستخدم اليد اليمنى الذهبية للضرب! هذا ما لا جواب لنا عليه.

نحن لا ندري لماذا لا تضرب اليد الذهبية. ندري الآن أنها مرتبطة بأوزيريس في نغمته الصيفية العالية، لكننا لا ندري لمَ لا تصلح للضرب. السبب غير واضح لنا.

معنى اسم هُبل

رأى بعضهم أن هُبل مأخوذ من الكلمة الآرامية والعامية (هبال) والتي تعني الروح والبخار. في حين أن آخرين رأوا أن الكلمة تعني: سمين، لاحم، أو ثقيل، ربما انطلاقًا من الجذر (هبل) العربي الذي يعني السمنة والضخامة. فهابل تعني: الكثير اللحم والشحم. والهِبل: الضخم المسنّ من الرجال والأنعام والإبل، أو الثقيل المسن الكبير من الناس والإَبل. كذلك فالهبل: الرجل العظيم. وهذا لا يتعارض مع توصلنا إليه. فالبخار إشارة إلى الرطوبة. كما أننا نعرف أن النيل يمثل عادة بشخصين سمينين متهدلي العضلات.

twitter @baghdad_library

وإله النيل المصري القديم يدعى (هابي). ونحن لا نعرف كيف نطق المصريون هذا الاسم بسبب غياب الحركات فقد يكون: هابي، هب، هاب، أو ما شابه. وعليه، فربما كان (هبل) أي (هب إل) هو الإله هب، هابي.

وفي أغلب الظن فإن هابيل بن آدم هو (هبل) العربي، فكلاهما يعني (الإله هب، أو هاب) في حين أن قابيل هو نقيضه، والمظهر المعاكس له.

إذا صح كل ما قلناه، فهل تكون آلهة قوم عاد ثالوثا؟ أي هل تتساوى باللات والعزى ومناة؟ هذا محتمل لكنه ليس أكيدًا، أبدًا. ذلك أن جذر (صمد) في العربية لا يؤكد لنا أن (صمود) يمكن أن تكون الحد الثاني في ثالوث، أي شبيهة العزى. اللسان:

(الصَّمَد، بالتحريك: السيد المطاع الذي لا يُقضى دونهِ أَمر، وقيل: الذي يُصمد إليه في الحوائج أَي يقصد. وقيل: هو المُصْمَت الذي لا جَوْفَ له. والمُصمد: لغة في المُصمت وهو الذي لا جوف له).[٢٠]

كل هذه المعاني توحي بالارتباط بذكر لا بأنثى. ونحن ندري، من جهة ثانية، أن أوزيريس يتمثل بعمود أجوف، انطلاقا من أن جذع شجرة حوى الصندوق الذي وضع فيه رفاته. وعليه فالأغلب أن صمود اسم لإله من طراز أوزيريسي؛ لذا قد يكون صدا والهباء مجرد مظهرين لصمود. أي أن صمود = صدا + الهبا. يدعم هذا الفرض ما أورده لنا البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة، من أن للهند ملكا سماويا يدعى (سمدت):

(لم أسمع منهم في القطب الجنوبي إلا أن ملكا كان لهم يسمى سومدت قد استحق الجنة بحسن أعماله).[٢١] وسوف نتحدث عن هذا النص الخطير جدا لاحقا.

من الممكن جدا هنا أن (سمدت) الملك شبيه أوزيريس المصري، الذي تقيم روحه في برج الجوزاء. إنه أوزيريس المنبعث في جنوب السماء، مقابل أوزيريس الميت- الخالد في الشمال. ونحسب أن التوافق اللفظي بين (صمود) و (سمدت) ليس صدفة؛ وبذا لا يكون صداء وصمود والهباء ثالوثا. فهبا وصدا هما مظهرَا صمود، ويساويان اللات ومناة، أي أنهما مظهر الإله الذكر لا غير. وبالمناسبة فإن وصف سومدت الهندي يدلل على قرابته من اللات. فحين طلب طلبه الغريب القاضي بأن يأخذ جسده معه، سخروا منه: (وصيروه جندالا مشنف الأذنين بقرطق جديد). أي صيروه صخرة. وقد رأينا كيف أن اللات تحول إلى صخرة، أو بتعبير المصادر العربية (دخل في الصخرة). فالآلهة الأوزيريسيون يدخلون الصخرة في موتهم، ثم يصعدون نجومًا في بعثهم.

واستنتاجنا بأن اللات يساوي هبل، سيحل لنا عدة مشاكل في وقت واحد:

أولا: يفسر لنا لم يكون اللات إلها مهما للمكيين وللعرب جميعا ثم لا نجدهم ينصبون له صنما في الكعبة. ذلك أن اللات هو هبل نفسه الذي يأخذ موقعه في المكان الملائم في الكعبة.

ثانيا: يفسر لم تفاخر أبو سفيان بهبل والعزى في غزوة أحد (أعل هبل، أعل هبل... لنا العزى ولا عزى لكم). إذ المنطقي أن يذكر اللات مع العزى، لا هبل. لكن بما أن هبل هو اللات يصبح الأمر مفهوما. فالعزى هي قرينة هبل- اللات.

ثالثا: وهو يفسر لنا لم يكون هبل إلها خطير الشأن عند العرب والمكيين في حين أن النصوص عن اللات أكثر توفرا من النصوص عنه. فالحديث عن اللات هو، في النهاية، حديث عن هبل. فهبل هو اسم آخر للات لا غير.

twitter @baghdad_library

فصل 11

أوزيريس نجم أم نجمان؟

(أريد أن أعمل عالما آخر وجنة أخرى بسبب هذا الملك الصالح يبلغ فيها مشتهاه. وابتدئ بعمل القطب وبنات نعش التي في الجنوب)

البيروني- تحقيق ما للهند

معروف من النصوص المصرية القديمة أن (ساه) أو (ساهو)- هو تجسيد سماوي لأوزيريس السماوي. لكن ثم خلافات شديدة حول ساه هذا؛ فهل هو نجم أم مجموعة نجوم؟ وإن كان نجما واحدا فأي نجم هو؟ وأين موقعه؟ وهل هو أحد نجوم حزام الجوزاء، أم أنه يقع خارج نجوم هذا الحزام؟

وترى الغالبية من الباحثين الغربيين حاليا أن مجموعة أوريون، أي الجوزاء العربية، هي (ساه) هذا: (واحدة من النظريات المقبولة عموما عند علماء المصريات هي أن قدماء المصريين ماهوا إلههم أوزيريس ببرج أوريون. هذا الربط بينهما صار معترفا به أحد أنه أصبح بلا معنى مناقشة وجهة النظر السائدة هذه).[١] لكن هذا الرأي لا يتفق مع ما أخبرنا به بلوتارخ الذي قال لنا بوضوح تام إن المصريين يسمون)روح حورس أوريون {الجوزاء}، وروح تايفون {سيث} الدب).[٢]

المهندس البلجيكي روبرت بوفال، القادم من خارج الحقل، يقف اليوم على رأس من يقول بنظرية أوزيريس- أوريون. لكنه يشوشنا قليلا في آرائه. فهو يرى أن: (النظير السماوي لأوزيريس هو أوريون- وهو الكويكبة التي عرفها المصريون باسم ساه، أي الواسع الخطى، والتي تصور بشكل دائم على شكل حزام من نجوم ثلاثة).[٣] لكنه يضيف في مكان آخر: (بالنسبة للمصريين القدماء فإن برج أوريون، وعلى الأخص نجوم حزامه الثلاثة، مرتبطة بقوة أوزيريس، إله الانبعاث والميلاد الجديد).[٤] ثم يعود فيقول: (الكوة الشمالية {في حجرة الملك في الهرم الأكبر}... تتجه نحو نجم النطاق،

زيتا أوريانس، أضوأ نجوم حزام الجوزاء، وأدناها أيضا، والذي ماهاه المصريون القدماء بأوزيريس).[٥]

وهكذا فأوزيريس هو: أوريون كله، أو حزام أوريون بالتحديد، أو نجم النطاق بشكل خاص، أي النجم الأول من نجوم الحزام. غير أن بوفال يكاد ينتهي إلى أن أوزيريس هو نجم النطاق فقط. وبناء على نظريته التي ترى أن أهرام الجيزة الثلاثة هي الصورة المعمارية لنجوم حزام أوريون، فإن نجم النطاق هو نظير الهرم الأكبر على الأرض: (الهرم الأكبر – النظير الأرضي لنجم النطاق).[٦]، انطلاقا من أن المنطوقة ٦٠٠ المشهورة من هرم أونيس التي تصف هرم الملك بأنه أوزيريس: (الملك هو أوزيريس. هرم الملك هذا هو أوزيريس. ومبناه هو أوزيريس).

وهناك من يرى أن إشارة كلمة (ساه) إلى برج أوريون أتت متأخرة عن المصريين القدماء، وأن الأصل عندهم أن أوزيريس نجم واحد فقط: (ورغم أنه في الأزمنة المتأخرة تم توسيع معنى كلمة ساه، والجمع ساهو، لتشير إلى مجموعة أوريون ككل، فإن المصريين لم يضيعوا أبدا فكرة أن نجما واحدا فقط في المجموعة هو الذي يمثل روح أوزيريس).[٧]

لا يمكن، في نظرنا، لوم بوفال ولا لوم معارضيه على التردد بصدد أوزيريس السماوي. فأوزيريس يتبدى أحيانا وكأنه فعلا على علاقة بنجم النطاق في حزام أوريون. لكنه في أحيان أخرى يتبدى كما لو أنه على علاقة بأكثر من نجم من نجوم الحزام. فوق هذا فهناك أدلة قوية جدا على ارتباطه بنجم سهيل اليماني، أي كنوبوس، الذي يقع على طرف الجوزاء.

وفي المصادر العربية بالذات لا يوجد أي شك حول ارتباط أوزيريس بنجم سهيل. ذلك أن سهيلا هو زوج نجم الشعرى العبور اليمانية. يقول القرطبي في تفسيره: (إن سهيلا والشعرى كانا زوجين، فانحدر سهيل فصار يمانيا).[٨] وثمة إجماع على أن الشعرى العبور هي النظير العربي لسوبدت المصرية، نجم إيزيس المصرية، وهذا يعني أن سهيلا زوجها لا بد أن يكون أوزيريس. ولأن سهيلا هو أوزيريس فإنه مثله مرتبط بالماء والفيضان. تقول العرب: (إذا طلع سهيل خيف السيل). وقد أكد لنا بلوتارخ أن المصريين يربطون بين أوزيريس وكنوبوس، الذي هو نظير سهيل اليماني العربي: (أكثر من ذلك، فإنهم يلقبون أوزيريس بالجنرال، كما أنهم يسمونه ربان كنوبوس، الذي أخذ منه اسم النجم {أي اسم كنوبوس}).[٩]

twitter @baghdad_library

والشبه اللفظي الواثق بين سهيل و (ساه) دليل لا يمكن تجاهله على علاقة الاثنين بعضهما ببعض. ويتضح التشابه إذا ما انتبهنا إلى أن اسم سهيل مكون من جزأين: (سه + يل)، أي (سه+ إل). وهذا يعنى أن معنى اسمه هو: الإله سه أو الإله ساه.

ويوافق فيليب كوبنز، الذي يعاكس الاتجاه العام السائد، على أن ساه هو كنوبوس- سهيل وليس أوريون. يقول متهكما: (علم المصريات، بالمعنى الأوسع، يشبه صناعة الموسيقى كثيرا: بعض النجوم مشهورون وبعضهم لا- والشهرة لا تدوم).[١٠]

وهو يلعب هنا على كلمة نجم التي تعني نجوم الغناء ونجوم السماء. فكنوبوس ليس مشهورا عند الغربيين، إذ الشهرة لأوريون، لأن كنوبوس- سهيل ليس نجما شماليا، أي لأنه لا يرى في بلدان أوربا الشمالية. فهو يقع تحت خط الأفق بالنسبة إليهم. ويضيف كوبنز:

(مركز الجدال هو الاسم المصري: ساه، نجم أوزيريس. وسهل أو سهيل هو الاسم العربي لكنوبوس. وهاتان الكلمتان {ساه وسهيل} متماثلتان فعليا. لكن تماثل الكلمات يبدو علميا غير ذي أهمية {يقصد عند الغالبية}! وتقول المنطوقة ٤٤١ من نصوص الأهرام إن سوثيس {أي الشعرى} سوف تقود الملك، الذي هو ساه. فإذا كان ساه هو أوريون فكيف يمكن ذلك؟ فالذي يقود يكون في المقدمة. وفي هذه الحالة فإن أوريون هو الذي في المقدمة، فهو يبزغ قبل الشعرى. ومن المفترض أن يظهر ساه بعد الشعرى، وأوريون لا يصلح لمثل هذا الوصف).[١١] وهكذا فهو يأتي بدليل من نصوص الأهرام على صعوبة أن يكون أوزيريس متماهيا مع أوريون. أما سهيل اليماني فيطلع بعد نجمة الشعرى بما يقرب من أسبوعين؛ لذا فهي تصلح أن تقود الملك ساه.

لكن، من الناحية الثانية، علينا ألّا نتجاهل الدلائل المعقولة على أن لأوزيريس علاقة أكيدة بحزام الجوزاء، وبنجم النطاق فيه على وجه الخصوص، رغم علاقته المؤكدة بسهيل- كنوبوس. فقد رأينا كيف أن الكوة الجنوبية في حجرة الملك في الهرم الأكبر كانت بناء على حسابات بوفال، في وقت بناء الأهرام، تتجه إلى الحزام، وإلى نجم النطاق بالذات، وهو النجم الذي يماثل الهرم الأكبر حسب فرضية بوفال. وإذا صح هذا فمن المستحيل أن يكون صدفة.

وتؤكد لنا المصادر العربية أن لسهيل-ساه علاقة ما بحزام الجوزاء أيضا، مما يدعم فكرة ارتباط أوزيريس بهذا الحزام. يقول الميداني في مجمع الأمثال: لقد حدث، أن (سهيلا ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها).[١٢]

هذا يعني أن الحزام، الذي يمثل وسط الجوزاء، هو من فعل سهيل- كنوبوس بشكل ما. وقد تعني جملة (قطع وسطها) بحزام الجوزاء. يعزز هذا الاحتمال أن لدينا تقليدا ثانويا يقول إن سهيلا تزوج الجوزاء مرة (فبرك عليها وكسر فقارها). يقول الآبي في نثر الدرر:

(وذلك أنهم يزعمون أن الشعريين هما أختا سهيل، وأن سهيلا تزوج بالجوزاء، فبرك عليها وكسر فقارها، فهو هارب نحو الجنوب ولائذ بكبد السماء، وأن العبور عبرت المجرة إلى سهيل، وتسمى اليمانية لأن مغيبها في شق اليماني ويسمى أيضا كلب الجبار لأنه يتبع الجوزاء أبدا).[١٣]

وفقار الجوزاء هو حزام الجوزاء، أي حزام أوريون، عند العرب. وهذا يدل على أن لأوزيريس فعلا علاقة بحزام الجوزاء. وكلمة (برك) في النص مهمة. فالجمل هو الذي يبرك. وسهيل العربي مرتبط بالجمل. فالجمل هو حيوانه. لذا فهو يدعى بالفحل، أي الجمل. يقول اللسان: (والعرب تسمي سهيلا الفحل تشبيها له بفحل الإبل وذلك لاعتزاله عن النجوم وعظمه).[١٤] ويضيف الزمخشري في أساس البلاغة: (يقال: أما ترى الفحل كيف يزهر؟ يراد سهيل، شبهه في اعتزاله الكواكب بالفحل إذا اعتزل الشول بعد ضرابه).[١٥] ويضيف أبو العلاء في الصاهل والشاحج: (وإن كنت يماني المولد فلا قدر لك أن تنظر إلى الفحل سهيل).[١٦] وبالمناسبة فإن كلمة (برك) بلغة مهريوت، وهي لغة سامية تستخدمها قبائل يمنية وظفارية، تعني: (في، داخل). ولو فسرنا جملة (برك عليها) لعنت أن أوزيريس هو في حزام الجوزاء!

وهكذا، فهناك ما يوحي بقوة أن كنوبوس موجود في مكانين اثنين في السماء لا في مكان واحد، أي في مكانه على طرف برج الجوزاء، وفي منتصف الجوزاء، أي في فقارها.

أوزيريس ذو النجمتين

كيف نحل هذه المشكلة، إذن، مشكلة وجود سهيل- كنوبوس في مكانين اثنين في السماء في لحظة واحدة؟

فرضيتنا لحل هذه المشكلة تقوم على أمور ثلاثة:

الأول: أن لأوزيريس وجودًا يتأرجح بين شمال السماء وجنوبها. جنوب السماء، أي أوريون- الجوزاء، إذا صدقنا بلوتارخ، هو حورس، وشمالها هو سيث، أي بنات نعش.

twitter @baghdad_library

أي أن أوزيريس موجود في برج الجوزاء وفي بنات نعش. في الصيف يكون موجودا في الجوزاء الجنوبية، باسم سهيل اليماني، وموجود في الشتاء عند الدب، أي عند بنات نعش، باسم نجم الثعبان، الذي كان نجم القطب وقت بناء الأهرام. أي أنه هو القطبان معا؛ الجنوبي والشمالي. أوزيريس الجنوبي هو الصيف وفيضان النيل، وأوزيريس الشمالي، هو الشتاء والمطر والسكون والقرار. وجوده الجنوبي يأخذ شكل طائر، ووجود الشمالي يأخذ شكل حية. أي أنه تركيب من طائر وحية؛ أعلاه طائر، وأسفله حية. نغمته الفيضية الصيفية العالية تتخذ شكل طائر في الأعالي، ونغمته الشتوية الواطئة تأخذ شكل حية تسعى ملتصقة بالأرض.

الثاني: أن حزام الجوزاء، حزام أوريون، هو (سكتش) مختصر لهذا الوضع، تخطيط مصغر له. إنه صيغة مختصرة لوضع الطاقة الكونية في شمال السماء وجنوبها. أو قل إنه ميزان الطاقة الكونية. لأوزيريس في هذا الميزان الكفتان، أي نجما النطاق والمنطقة. النطاق يمثل سهيلا الجنوبي الصيفي، الطائر، لذا فهو الجنوبي في صف نجوم الحزام. والمنطقة يمثل سهيلا الشمالي الشتوي الذي يمثله نجم الثعبان، لذا فهذا النجم شمالي في صف نجوم حزام الجوزاء. وسر التوافق اللفظي بين (النطاق والمنطقة) نابع من كونهما يمثلان إلها واحدا بمظهرين، صيفي وشتوي. من أجل هذا تتجه كوتا حجرة الملك الجنوبية والشمالية في الهرم الأكبر نحو نجمي النطاق والثعبان. أي نحو أوزيريس الجنوبي والشمالي.

الثالث: أما إيزيس، التي هي نجم الشعرى، فهي الحد الأوسط داخل الحزام- الميزان. أي أنها نجم النيلام. وهي تملك، مثلها مثل أوزيريس، وجودا شماليا وجنوبيا. وكوتا حجرة الملكة تشيران إلى وجودها الجنوبي والشمالي؛ أي إلى نجم الشعرى أسفل حزام الجوزاء، وإلى نجم (عناق- ميزار) في ذيل بنات نعش، كما نفترض، وكما سنناقش لاحقا بتفصيل أكبر. لكنها لا تتأرجح مثل أوزيريس بين الشمال والجنوب، بل تتحرك بين الشرق والغرب. أي أن رحلتها بين الصيف والشتاء هي رحلة على ضفتي نهر المجرة. وهذا أمر واضح جدا في الميثولوجيا العربية. يقول لسان العرب: (والعرب تسمي الشعرى العبور لأنها تعبر السماء عرضا).[١٧] ويضيف ابن الجوزي في المنتظم في التاريخ عن أبي كبشة عابد الشعرى العبور: (هو أول من عبد الشعرى وكان يقول: إن الشعرى يقطع السماء عرضا ولا أرى في السماء شمسا ولا قمرا ولا نجما يقطع السماء عرضا غيرها والعرب تسميها: العبور لأنها تعبر السماء عرضا).[١٨]

وسوف نرى في فصل خاص عن الكوى الأربع في حجرتي الملك والملكة في الهرم

الأكبر، أن كوتي حجرة الملكة، أي حجرة إيزيس، مغلقتان من أجل الإشارة إلى أن إيزيس لا تتأرجح بين وجوديها الشمالي والجنوبي، كما يفعل أوزيريس، أو من أجل منعها من التأرجح. فحركتها عرضية، أي أنها حركة شرقية- تقطع بموجبها نهر المجرة، مشكلة صليبا أو إشارة ضرب مع حركة أوزيريس.

السماء كمرآة

وأوزيريس موجود في شمال السماء وجنوبها لأن السماء، في نظر القدماء، تكرر ذاتها كما تكرر المرآة صورة من يقف أمامها. وفي أيدينا نص للبيروني من كتابه تحقيق ما للهند من مقولة، أشرنا إليه سابقا، يؤكد ما نقول. ولعل هذا النص أن يكون نصا تأسيسيا من أجل فهم أفضل لمعتقدات القدماء، ومن أجل فك بعض ألغاز الديانة المصرية القديمة:

(ولم أسمع منهم {الهنود} في القطب الجنوبي إلا أن ملكا كان لهم يسمى «سومدت» قد استحق الجنة بحسن أعماله، ولم يطب قلبه بنزع بدنه عن نفسه عند انتقاله فقصد بسشت الرش وأعلمه أنه يحب بدنه ولا يريد مفارقته، فآيسه عن حمل البدن الأرضي من الدنيا إلى الجنة. وعرض أيضا حاجته على أولاد بسشت فجبهوه ببزقهم، وسخروا به، وصيروه جندالا مشنف الأذنين بقرطق جديد. فجاء إلى بشفامتر الرش على تلك الحالة، فاستفظعها، وسأله عنها، فأخبره بها وقص عليه القصة بأجمعها، فغضب امتعاضا له، وأحضر البراهمة لعمل قربان كبير وأولاد بسشت فيهم وقال لهم: إني أريد أن أعمل عالما آخر وجنة أخرى بسبب هذا الملك الصالح يبلغ فيها مشتهاه. وابتدأ بعمل القطب وبنات نعش التي في الجنوب. وخافه «أندر» الرئيس والروحانيون، فجاءوا إليه متضرعين يسألونه إهمال ما ابتدأ فيه على أن يحملوا سومدت ببدنه كما هو إلى الجنة وفعلوا ذلك، فترك عمل العالم الثاني إلا ما كان عمل منه إلى وقتئذ. ومعلوم أن القطب الشمالي يوسم عندنا ببنات نعش والجنوبي بسهيل. إلا أن في بعض من يشبه العوام من أصحابنا من يزعم أن في ناحية الجنوب من السماء بنات نعش على هيئة الشمالي تدور حول ذلك القطب).[١٩]

النص يعلمنا أن جزءا من جنوب السماء يشابه شمال السماء. إذ إن الشخص السماوي الذي غضب على الظلم الذي حل بـ (سومدت)، بدأ بعمل عالم جديد يستنسخ السماء الشمالية في الجنوب، لكنه توقف و(ترك عمل العالم الثاني، إلا ما كان عمل منه إلى

twitter @baghdad_library

وقتئذ). أما ما عمله إلى وقتئذ فهو (القطب وبنات نعش التي في الجنوب). لقد استنسخ شمال السماء، جزئيا، في الجنوب، صانعا قطبا جنوبيا، وبنات نعش جنوبية!

إعلان هندي مهم وخطير!

ويؤكد لنا البيروني في النص أن هناك، من العرب والمسلمين في وقته، من كان (يزعم أن في ناحية الجنوب من السماء بنات نعش على هيئة {بنات نعش} الشمالي تدور حول ذلك القطب {الجنوبي}). أي أنهم كانوا يملكون قناعة تشبه قناعة الهنود تماما، تقول بأن ثمة في جنوب السماء قطبا وبنات نعش جنوبية تدور عليه. ويصف البيروني هؤلاء بأنهم (أشباه عوام). أي أنه يستخف بهم، ويرفض أفكارهم. ومعه الحق في ذلك. لكن بخصوص فهم الأديان القديمة، فإن أشباه العوام هؤلاء أكثر فائدة لنا من البيروني. فهم حملة المعتقدات الدينية الخرافية القديمة.

ولا يقول لنا نص البيروني أين تقع بنات نعش الجنوب في نظر الهنود، أو في نظر أشباههم من العرب والمسلمين. غير أننا نعلم أنه كان ينظر إلى سهيل على أنه نجم القطب الجنوبي. بالتالي فسهيل هو القطب الجنوبي، أو نجم القطب الجنوبي. أما بنات نعش فنستطيع أن نحدس أنها النجوم السبعة في برج الجوزاء؛ أي أنها نجمات (نطاق الجوزاء) الثلاثة وشبه المستطيل المكون من النجوم الأربعة التي تحيط بها. أي مجموعة أوريون كما تدعى عند الغربيين، التي ترسم كخمسة نجوم عند الأوربيين.

مجموعة النجوم هذه عديل بنات نعش السبع في شمال السماء. وكما نعلم فبنات نعش، تتكون من أربع نجمات على شكل مربع تدعى (النعش)، ترتبط بها ثلاثة نجمات كالذيل تدعى (البنات). الفارق هو أن البنات تقع داخل المربع، أو المستطيل، في الجنوب، بينما تقع خارج المربع {النعش} في الشمال. أي، وبكلمات بلوتارخ، أن لدينا سيث- تايفون، الذي هو بنات نعش، وحورس الذي هو مجموعة أوريون. ومجموعة أوريون هي بنات نعش الجنوب.

من دون فهم هذه النظرة المرآوية للسماء، لن نتمكن من فهم الديانة الأوزيريسية المصرية. فالكون يكرر ذاته كما لو أنه يقف أمام مرآة. فقد رأى المصريون القدماء أن الأرض- أرض مصر ونيلها هي صورة مرآوية للسماء. فالسماء أرض أخرى ونهرها هو درب المجرة. أو أن مصر سماء أخرى ونيلها هو نهر المجرة. ومن جهة ثانية، فإنهم يقسمون السماء إلى سماوين؛ شمال وجنوب. وفي هذا التقسيم يبدو جنوب السماء كما لو أنه صورة مرآوية ما لشمالها، مع تذكر أن صورة المرآة مشابهة جدا، ومخالفة أيضا

للصورة الأصلية. أكثر من ذلك، فإن شمال السماء يكرر ذاته. فهناك بنات نعش صغرى وبنات نعش كبرى، كأنها عكسها.

وجود أوزيريس في السماوين تؤكده النصوص المصرية القديمة. فتبعا للمنطوقة ٤-١٧٣ فإن أوزيريس: (قد جال حول السماوين، ودار حول الضفتين).[٢٠] جال حول السماوين، أي حول سماء الشمال وسماء الجنوب. أما المنطوقة ٦-١٧١١ فتقول: (أبحر صاعدا إلى ثنايت. طف حول أبيدوس في شكلك الروحي الذي حددته الآلهة لك، لعل سلما يصعد إلى عالم الآلهة يقام لك، إلى حيث ساهو).[٢١]

في هذا النص يصعد الملك الميت- أوزيريس إلى ساهو، أي إلى جنوب السماء. ذلك أن أوزيريس الجنوبي هو ساهو. أما المنطوقة ٦-١٠١٢ فتقول: (لعلك ترفع نفسك إلى عرشك الحديدي، لعلك تقطع البحيرة، لعل وجهك يغتسل (؟؟) في السماء الشمالية).[٢٢] وفي المنطوقة ٨٧٦ نجد ما يلي: (النجوم التي لا تزول تنتظرك).[٢٣]

وجه أوزيريس يغتسل في السماء الشمالية. والنجوم التي لا تزول تنتظره. هذه النجوم كما نعلم هي نجوم القطب الشمالي. إنها نجوم الخلود- الموت. في حين أن نجوم القطب الجنوبي نجوم تظهر وتختفي. فسهيل يغيب ويعود. والشعرى تختفي ثم تظهر من جديد مع بدء السنة الشمسية. والجوزاء تغيب وتظهر من جديد. أما نجوم الشمال فقارة دائمة الظهور.

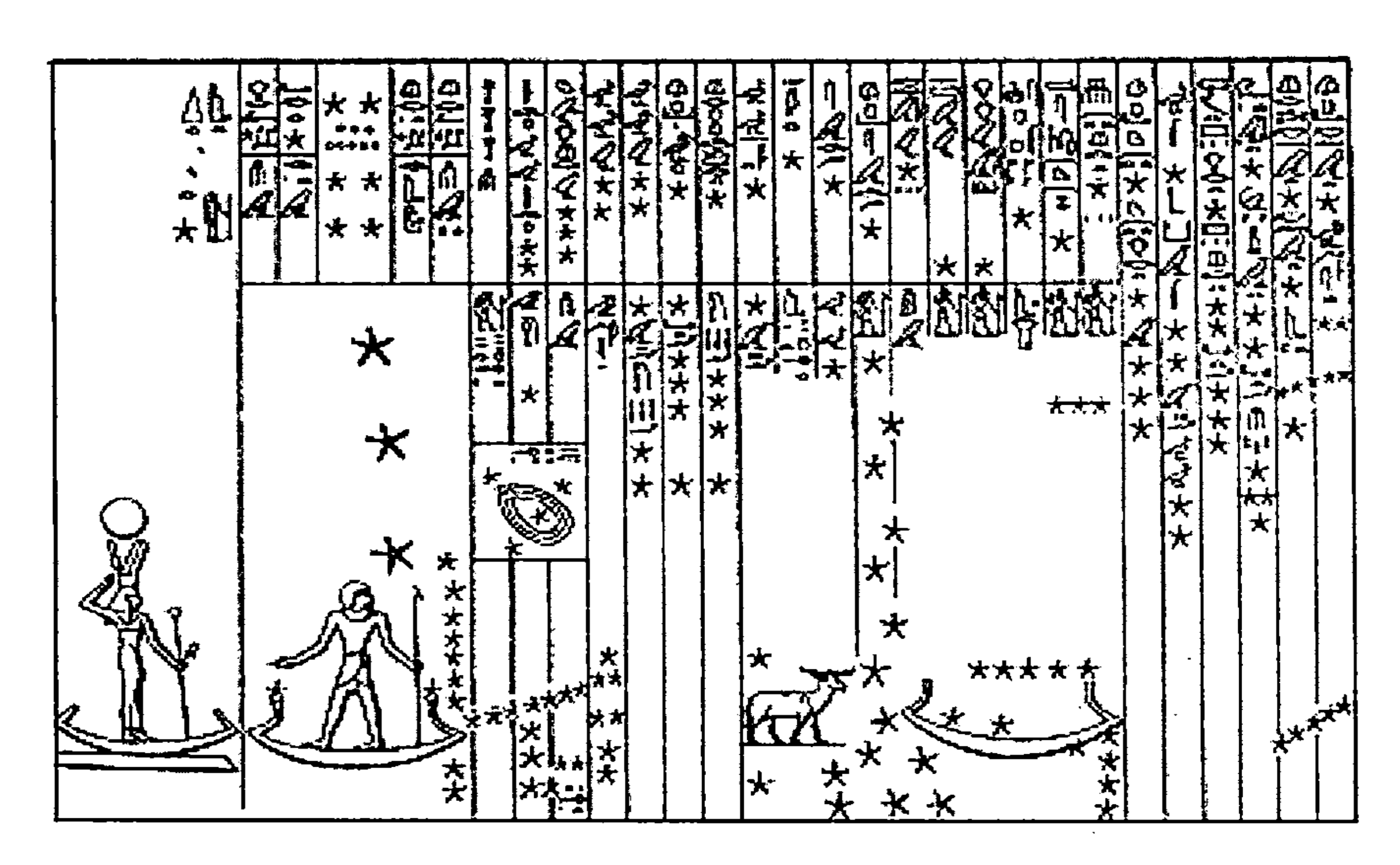
أوزيريس، إذن، يتجول في السماء الشمالية والجنوبية. (لك التجلة يا خالق الآلهة، يا ملك الشمال والجنوب، يا أوزيريس المظفر).[٢٤]

إنه موجود في القطبين معا. أو أنه في الواقع هو قطبا السماء معا، الجنوبي والشمالي.

صور مصرية

وربما كان علينا أن نعود إلى صورتين لإيزيس أوزيريس من ضريح (سنموت) كي نتمعن فيهما من أجل التأكد ممّا نقول. الصورتان تصوران إيزيس وأوزيريس كلا على زورقه الخاص، لكن مع اختلافات محددة.

twitter @baghdad_library



صورة من قبر سنموت تصور أوزيريس تحت نجوم حزام الجوزاء، وإلى اليسار إيزيس بقرص الشمس على رأسها

لذا علينا أن نركز على الاختلافات بين الصورتين:

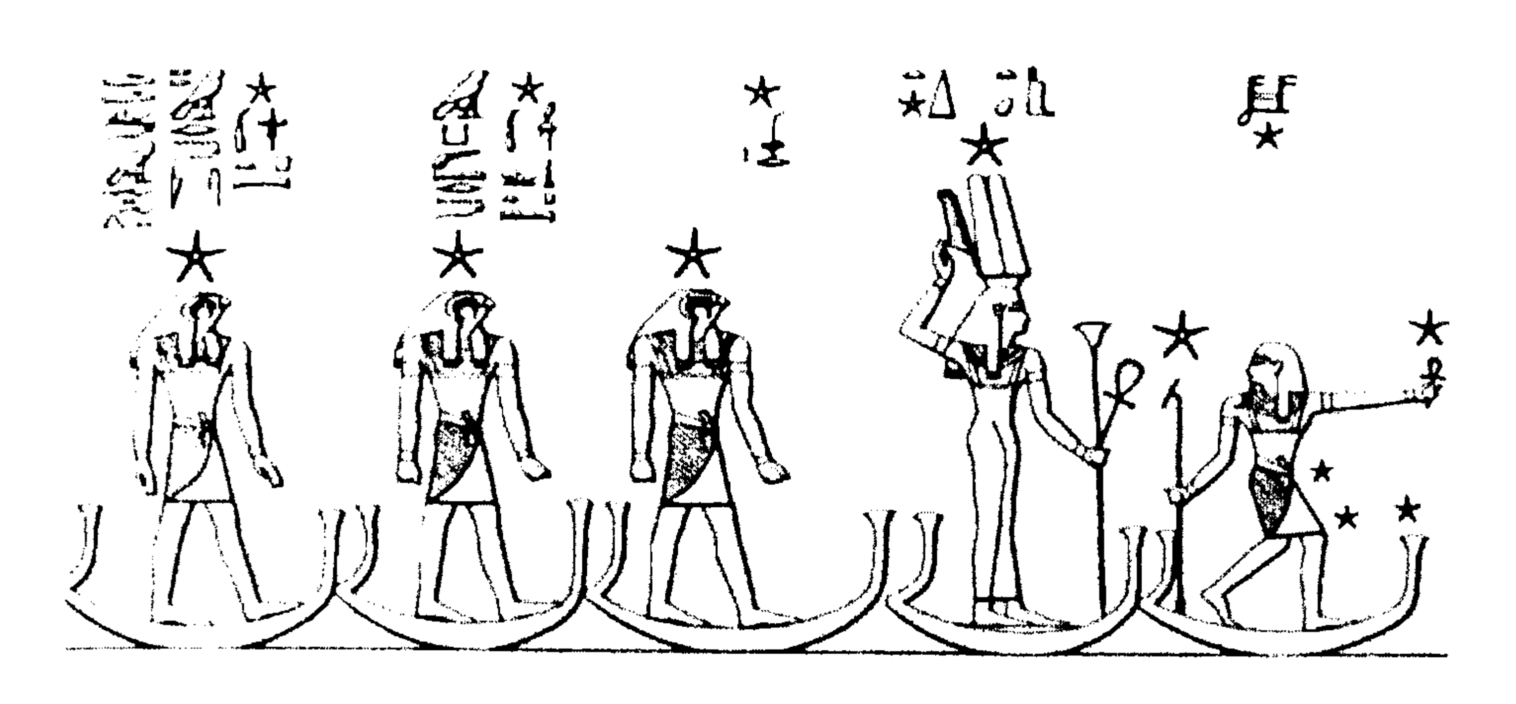
أولا: في الصورة الأولى يقف أوزيريس على زورقه، تحت نجوم الحزام الثلاثة، وعلى مؤخرة الزورق ومقدمته، المعقوفتين للأعلى، يقف نجمان. وفي الصورة الثانية تترك النجمتان مقدمة الزورق ومؤخرته، وترتفعان فوق رأس أوزيريس لتحيطا به من اليمين واليسار.

يجب، في رأينا، الاهتمام بواقعة ارتفاع النجمين للأعلى. أوزيريس في الحالين يسير مع نجمين لا مع نجم واحد. هذا يدل على أنه مرتبط بنجمين لا بنجم واحد، أو على أنه ينقسم إلى نجمين. نحن نفترض أن هذين النجمين هما الأول والثالث في نجوم الحزام. ولو أحضرنا النجم الثالث الغائب ووضعناه فوق رأس أوزيريس بالضبط لتبدى لنا صف من النجوم مساو تماما لصف نجوم الحزام!

النجم الغائب هذا هو الذي يقف فوق رأس إيزيس إلى شمالنا في الصورة. إذا صح هذا، وهو صحيح في رأينا، يكون الثنائي أوزيريس وإيزيس، في هذه الصورة، قد اقتسم النجوم الثلاثة؛ فأخذ أوزيريس نجمتين وأخذت إيزيس نجمة واحدة.

والتوافق اللفظي بين اسمي النجمين الأول والثالث في نجوم الحزام بالعربية (النطاق والمنطقة)، دليل قوي على ما نقول. فهو ليس توافقا صدفيا. إنه دليل على ارتباطهما معا. أي دليل على أن الأول والثالث من نجوم الحزام هما أوزيريس: في نغمته العالية ونغمته الواطئة.

ثانيا: أن النجمين في زورق الصورة الثانية يتخذان وضع النجمين الأول والثالث في نجوم الحزام؛ أي نجمي النطاق والمنطقة. فالنجم الثاني أصغر، وهو أعلى قليلا من مستوى النجم الأول. ولو رسمنا خطا مستقيما من منتصف النجم الأول الأصغر، وسرنا به لمر بأعلى رأس أوزيريس، لكنه لن يلمس النجم الأصغر بل سيقع تحته، أي أن النجم سيرتفع فوقه. وهذا يعني أن هذا النجم ينحرف عن الخط الذي يصل بين قمة رأس أوزيريس وبين النجمة الأولى، كما تنحرف نجمة المنطقة، الثالثة في نجوم الحزام. وهكذا فهذا النجم أصغر ويميل عن الخط، متخذا وضع النجمة الثالثة من نجوم الحزام.



أوزيريس في المقدمة على زورقه، محاطا بنجمتيه: نجمة النطاق والمنطقة. أما إيزيس التي تتبعه، فهناك نجمة واحدة فوق رأسها. ذلك أن حزام الجوزاء مقسوم بينهما بنسبة ١:٢.
لإيزيس نجمة واحدة، ولأوزيريس اثنتان.

ثالثا: أن أوزيريس في الزورق الأول يبدو ماشيا، في حين أنه في الزورق الثاني يبدو راكضا، أو مهرولا. إذ يرتفع كعب إحدى قدميه عن الأرض ليعطينا معنى الركض أو الهرولة. ويذكرنا هذا بأن معنى اسم نجم أوزيريس (ساه) عند علماء المصريات: الواسع الخطى، أو المسرع Far Strider. بناء عليه، يمكن القول أن الصورة الأولى تمثل

twitter @baghdad_library

أوزيريس البطيء الشتوي، في حين تمثل الثانية أوزيريس الصيفي المندفع.

رابعا: يؤكد ما نقول أن إيزيس في الصورة الأولى تضع قرص الشمس على رأسها، في حين أنها تضع في الثانية نجما. والمعنى: أن أوزيريس السريع الخطى، الراكض، أو المهرول، مرتبط بظهور نجمة أوزيريس، التي هي نجمة الشعرى (سبدت). ونحن نعلم أن فيضان أوزيريس، أي أن نغمته العالية السريعة، يتحدد بظهور الشعرى في الصيف، في تموز بعد غياب ما يقرب من سبعين يوما. وظهور الشعرى في تموز قبيل شروق الشمس يؤشر على بدء السنة المصرية. لذا حين نرى قرص الشمس وحده على رأس إيزيس، فذلك يعني أن إيزيس الحقيقية لم تظهر بعد، وأنه لم يحن أوان أوزيريس الفياض السريع الخطى. أي أنه ما زال في نغمته الشتوية البطيئة المنسحبة.

هكذا، تمكنت هاتان الصورتان من حل مسألة تجسيد أوزيريس وإيزيس في حزام الجوزاء. فلأوزيريس نجمتان، ولإيزيس نجمة واحدة. هذا هو جذر المفهوم الديني عن أن (للذكر مثل حظ الأنثيين). إنه مفهوم يغوص في أعمق أعماق الديانات. ومن لديه شك في هذا فليأخذ هذا النص من العصامي في سمط النجوم العوالي: (فسبقت حواء إلى الشجرة، فتناولت منها خمس حبات، فأكلت واحدة وخبأت واحدة وأعطت آدم ثلاث حبات، فأعطى حواء منها واحدة وأمسك حبتين).[٢٥] آدم يحصل على ثلاث حبات، فيحتفظ لنفسه باثنتين، ويعطي حواء واحدة. للذكر ضعف الأنثى. للأنثى نصف الرجل، أي (للذكر مثل حظ الأنثيين).

المحجن والعنخ

لكن ربما ساعدتنا هاتان الصورتان على حل لغز أداتين من أدوات أوزيريس: الصولجان، أو العصا المعقوفة، والعنخ. ونحب أن نسمي هذه العصا بالمحجن. فالعصا ذات العقفة هي المحجن بالعربية. ما هو مثير أن وضع هاتين الأداتين في الصورتين مختلف. فالمحجن والعنخ تتبادلان المواقع في الصورتين. في الصورة الأولى يقع المحجن، العصا المعقوفة، ناحية النجمة الثانية (أي الثالثة من نجوم الحزام كما نفترض)، أي بعيدا عن إيزيس. في حين أنه يقع في الناحية الأخرى في الصورة الثانية، أي عند النجمة الأولى، نجمة النطاق كما نفترض، وقريبا من إيزيس. أما العنخ فيقع عند النجمة الأولى في الصورة الأولى، أي قريبا من إيزيس، وعند النجمة الثانية، أي بعيدا عن إيزيس، في الصورة الثانية.

ليس ذلك فحسب، بل إن اتجاه وجه المحجن يختلف في الصورتين. فهو ينظر عكس إيزيس في الصورة الأولى، وباتجاه إيزيس في الصورة الثانية. أي أن المحجن حين يبتعد عن إيزيس يبعد وجهه عنها أيضا. فماذا يعني هذا؟

توصلنا سابقا إلى أن الصورة الثانية تمثل أوزيريس السريع الفيضي، الذي يثيره ظهور نجمة إيزيس (الشعرى، سبدت، سوثيس)، في حين أن الصورة الثانية تمثل أوزيريس المنسحب، في غياب نجمة إيزيس. عليه يصح لنا أن نفترض أن تموضع المحجن بعيدا عن إيزيس، وإدارته لوجهه عنها، يعني أن أوزيريس يعيش نغمته الواطئة، مظهره غير السريع، غير الفيضي. في حين أن تموضعه في الجانب الآخر، القريب من إيزيس، وبمواجهتها، يعني أن أوزيريس في نغمته العالية، في وقت فيضانه وسرعته. ولو افترضنا أن النجمتين اللتين على طرفي الزورق في الصورة الأولى هما النجمتان اللتان حول رأس أوزيريس في الصورة الثانية، فيمكننا أن نقول إن أوزيريس يكون في فيضه، في نغمته العالية، حين يكون المحجن عند النجمة الأولى، أي النطاق، وأنه يكون في نغمته الواطئة البطيئة، حين يكون المحجن عند النجمة الثانية (أي النجمة الثالثة في صف نجوم الحزام)، أي المنطقة.

إذن، فنجم النطاق هو أوزيريس العالي، ونجم المنطقة هو أوزيريس الواطي. وأوزيريس العالي هو أوزيريس عند ظهور الشعرى.

الحية والطائر

لكن ماذا يصور المحجن في الأصل؟

ثمة خلاف شديد حول هذا الأمر. فهناك من يرى أنه يمثل طائرا، وهناك من يراه حية. وهناك أيضا من يرى أنه رأس غزال. وهناك من يعتقد أنه العصا ذات الشعبتين (الشعوب) الذي تُمسك به الحية. بل إن بعضهم يرى أنه يمثل الإله سيث، لأن هناك رسومًا تمثل الإله سيث برأس قريب الشكل من عقفة المحجن.

twitter @baghdad_library



صولجان أوزيريس

نحن نعتقد أنه مكون من حية وطائر معا. أي أنه يمثل أوزيريس بمظهريه. فأوزيريس طائر في الجنوب، أي في الصيف، وحية في الشمال، أي في الشتاء. أي كما هو الحال مع المكاء الطائر والحية اللتين عرفناهما في مكة.

ولدينا دلائل قوية في تأكيد علاقة صولجان (محجن) أوزيريس بالحية. وأقرب مثال إلينا عصا موسى. نحن نعتقد أن عصا موسى هي مثيل صولجان أوزيريس في لحظة محددة. وقصة عصا موسى معروفة من القرآن الكريم. فقد ألقى موسى عصاه فصارت حية: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾.[٢٦] وجاء في القرآن أيضا: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.[٢٧] كما جاء في القرآن أيضا: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.[٢٨]

والمصادر العربية توضح لنا، بلا لبس، أن عصا موسى هذه محجن، مثل محجن أوزيريس. يقول الطبري في تاريخه: (قال ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى، قد صار شعبتاها فمها وصار محجنها عرفا لها).[٢٩] ويضيف في رواية أخرى: (وكانت عصا

ذات شعبتين فصارت الشعبتان لها فما وصارت حية تسعى أي تنتقل وتمشي وتلتقم الحجارة).[٣٠]

وهكذا فالعصا بمحجن، أي بعقفة، من أعلى وبشعبتين من أسفل. أي بالضبط مثل صولجان أوزيريس. وفي هذا تأكيد على صحة من رأى في صولجان أوزيريس حية. وللتدليل على أننا نتحدث عن النجوم حين نتحدث عن صولجان أوزيريس نورد ما نقله لنا التيفاشي في سرور النفس بمدارك الحواس الخمس: (وأهل الأندلس يسمون الجوزاء «عصا موسى». قال أبو الحسن ابن سعيد:

وشقت عصا موسى من الليل لجة   تموج بها موج السحاب الذي يسري).[٣١]

وعليه، فعصا موسى تتعلق بالنجوم، وبنجوم برج الجوزاء خاصة. ونحن نعتقد أنها تتعلق بنجوم حزام الجوزاء بشكل محدد.

إذن، فلدينا دلائل على أن صولجان أوزيريس يتبدى كحية. وعليه يتبقى علينا أن نأتي ببرهان يقود إلى الطائر. وهذا ما نجده عند فيلو الجبيلي فالصقر والحية معا يمثلان عنده الإله (كنب) المصري:

(فهذا الحيوان {الثعبان، الحية} لا يموت موتا طبيعيا، بل يموت بضربة عنيفة فقط. ويسميه الفينيقيون «الإله الجان». وبالمثل، يسميه المصريون «كنب»، ويضيفون له رأس صقر، بسبب قوة الصقر. ويتحدث عنه أبيس «الذي يدعى بالكاهن والكاتب المقدس، والذي ترجمه إلى اليونانية آريوس هيراكليبوليس»... بالقول: «الأول والأكثر سموا بين الآلهة هو حية برأس صقر»).[٣٢]

حية برأس صقر! هذا هو أوزيريس في مظهريه. هذا أوزيريس المكتمل، الأول والأكثر سموا بين الآلهة. وصولجان ملكه يجب أن يصور الحية والطائر معا. ومن الواضح أن وصف فيلو لهذا الإله بأنه (الإله الجان)، يتوافق مع ما جاء في القرآن حول عصا موسى التي انقلبت إلى حية وأخذت (تهتز كأنها جان)! من ناحية ثانية فالإله (كنب) المصري هو في أغلب الظن (كنوبوس) اليوناني، والتوافق اللفظي بينهما بيّن تماما. وكنوبوس له علاقة بالحيات. فقبطان مينلاووس الأسطوري في حرب طروادة يحمل اسم كنوبوس أيضا. وقد مات بعقصة حية في شمال مصر وأقيم له نصب هناك في مدينة يظن أنها كانت على فم النيل وتدعى كنوبوس. وحين يقال إن رجلا أسطوريا باسم الإله ذاته مات بعقصة حية فهذا يعني أن دخل في طوره الشتوي، أي أنه صار هو بذاته حية. إذ أن الآلهة الأوزيريسيين يأخذون شكل حية في بياتهم الشتوي. عليه، فكنوبوس الذي يحمل

twitter @baghdad_library

اسم النجم كنوبوس (سهيل اليماني) مات في شمال مصر. يعني: لقد تحول من جنوبي صيفي إلى شمالي شتوي. إذن الإله كنوبوس في مظهره الشتوي يأخذ شكل حيه. لكن حين (يضيفون له رأس صقر) فإنه يمثل الإله في مظهريه الشتوي والصيفي. أي أنه يكون طائرا وحية معا. وحين يصبح: (حية برأس صقر) يكون الأكثر سموا بين الآلهة، حسب فيلو، أي يكون أوزيريسيا كاملا بمظهريه.

وقد عرضنا للصراع بين الصقر والحية في باب سابق، أي الصراع بين أوزيريس في مظهريه: الصيفي والشتوي، حيث الصيفي يتمثل بطائر، مثل المكاء المكي، والشتوي يتمثل بحية، مثل حية الصدى. وربما علينا أن نعيد واحدة من القصص حول الصراع بين الطائر والحية: ففي السيرة الحلبية أن حية أخافت أهل مكة، الذين أرادوا هدم الكعبة لتجديد بنائها:

(قيل هابوا هدمها من أجل تلك الحية العظيمة فكانوا كلما أرادوا القرب منه أي البيت ليهدموه بدت لهم تلك الحية فاتحة فاها فبينا هي ذات يوم تشرف على جدار الكعبة، كما كانت تصنع، بعث الله طائرا أعظم من النسر فاختطفها وألقاها في الحجون فالتقمتها الأرض).[٣٣] وهكذا أرسلت الحية إلى الحجون. والحجون في مكة مقبرة معروفة. يقول لسان العرب: (قال الجوهري: الحجون، بفتح الحاء، جبل بمكة وهي مقبرة).[٣٤]

وعليه، فأوزيريس حية وطائر، حية برأس طائر. وهكذا يجب أن يكون صولجانه. غير أن علينا أن نعترف أن تصميم صولجان أوزيريس تصميم ملغز حقا. إذ أنه يمكن أن يرى برأس طائر من الأعلى وشعبتي حية من الأسفل. لكنه يمكن أن يرى كحية في أعلاه وفي أسفله. فأسفله شعبتا الحية، وأعلاه عرفها. إذ أن للحيات، أو بعضها، عرف عند العرب. فهناك الأعرف من الخيل والحيات يقال: فرس أعرف؛ كثير شعر المعرفة، وكذا حية أعرف. لذا فقد قال لنا الطبري في المقتبس أعلاه: صار شعبتاها فمها وصار محجنها عرفا لها.

غير أننا يمكن أن نرى الصولجان كطائر. فأعلاها رأس طائر بمحجن معقوف، أي بمنسر معقوف، وأسفلها مخلبان يمسك بهما. أي أن الصولجان تصميم يريد أن يتبدى لك كحية وكطائر في الوقت ذاته. ولأنه كذلك فهو تصميم ملغز محير حقا. حيرته نابعة من أنه يريد أن يصور الحية والطائر معا، وفي لحظة واحدة.

صاحب المحجن

وتحدثنا المصادر العربية عن شخصية غريبة وغامضة تدعى (صاحب المحجن). وهو رجل كان يسرق الناس في مكة وقت الحج بمحجنه، أي بعصاه المعقوفة الحجناء. وتعلمنا هذه المصادر عن هذه الشخصية من خلال حديث منسوب للرسول نعتقد أنه حديث موضوع. ينقل المتقي الهندي في كنز العمال هذا الحديث كما يلي:

(ولقد أدنيت النار مني حتى جعلت أتقيها خشية أن تغشاكم... حتى رأيت فيها راعي صاحب السبتيتين أخا بني الدعدع يدفع بعصا ذات شعبتين في النار، وحتى رأيت فيها صاحب المحجن الذي كان يسرق الحاج بمحجنه، فإذا علموا به قال: لست أنا أسرقكم إنما تعلق بمحجني متكئا على محجنه في النار يقول: أنا سارق المحجن).[٣٥]

وفي لسان العرب زيادة تتعلق بأن المحاجن تمسك بالرجال يوم القيامة: (صاحب المحجن في الجاهلية: رجل كان معه محجن، وكان يقعد في جادة الطريق فيأخذ بمحجنه الشيء بعد الشيء من أثاث المارة، فإن عثر عليه اعتل بأنه تعلق بمحجنه، وقد ورد في الحديث: كان يسرق الحاج بمحجنه. فإذا فطن به قال تعلق بمحجني، والجمع محاجن. وفي حديث القيامة: وجعلت المحاجن تمسك رجالا).[٣٦]

لدينا في هذا الحديث شخصيتان: راعي صاحب السبتيتين وصاحب المحجن؟ الأول يدفع بعصا ذات شعبتين، مثل أسفل عصا موسى، والثاني يخطف بمحجنه الناس ويسرقهم، كما خطف الطائر الحية. وهكذا انحل، فيما يبدو، التصميم الملغز للصولجان إلى مكونيه: عصا بشعبتين، أي حية (يدفع بعصا ذات شعبتين) لكن من دون عقفة، ومحجن (يسرق الحاج) أي يخطف كما يخطف منسر الطائر المعقوف.

صاحب السبتيتين

نأتي الآن كي نفصّل عن راعي صاحب السبتيتين، أخي بني الدعدع الذي يدفع بعصا ذات شعبتين في النار. فمن هو صاحب السبتيتين هذا؟ ومن هو راعيه، ولماذا يدعى أخا بني الدعدع؟ وما هي سلسلة الأسماء الغريبة الملغزة هذه حقا؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، إن استطعنا ذلك، علينا أن نبدأ بصاحب السبتيتين، أي بصاحب النعلين. ففي حديث آخر منسوب للنبي يجري الحديث عن سبتيتين. يقول لسان

twitter @baghdad_library

العرب إن النبي صلى الله عليه وسلم، (رأى رجلا يمشي بين القبور في نعليه، فقال: يا صاحب السبتيين، اخلع سبتيتيك).[٣٧] ويورد ابن حزم في المحلى الحديث ذاته عن رواية لبشير بن الخصاصية على الشكل التالي: (قال: بينا أنا أمشي بين المقابر وعلي نعلان، إذ ناداني رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا صاحب السبتيتين، يا صاحب السبتيتين، إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك، قال: فخلعتهما).[٣٨] إذن، فالسبتيتان ترتبطان بالمقابر، أي بعالم الموتى. وهذا ما يؤيد أننا مع النغمة الشتوية القارة. ويختلف البعض على معنى النعال السبتية اختلافا بسيطا. وحول النعال السبتية يقول لسان العرب: (قال أبو عمرو: النعال السبتية هي المدبوغة بالقرظ... قال الأزهري: كأنها سميت سبتية، لأن شعرها قد سبت عنها أي حلق وأزيل بعلاج من الدباغ، معلوم عند دباغيها. ابن الأعرابي: سميت النعال المدبوغة سبتية، لأنها انسبتت بالدباغ أي لانت).[٣٩] وهكذا فالنعال السبتية هي، إجمالا، النعال الناعمة الطرية التي دبغت وأزيل عنها الشعر.

لكن المهم هي الإضافة في صيغة ابن حزم للحديث: (إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك)[٤٠]. وتميل التفسيرات إلى القول بأن النهي عن لبس النعلين في المقابر هو احترام للموتى. لكن المرء لا يسعه إلا أن يتذكر قول الله لموسى في القرآن: ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[٤١] حين يرى الرسول يقول لأحدهم اخلع سبتيك في المقبرة. وهذا قد يتيح القول بأن الرسول طلب من الرجل خلع نعليه، قياسا على الآية. فقد طلب من موسى خلع نعليه لأنه (في الواد المقدس طوى). وعليه، فموسى كان أيضا يلبس نعلين، ومن المحتمل جدا أنهما سبتيتان مثل سبتيتي الرجل الذي نتحدث عنه. وبالتشابه يمكن افتراض أن الوادي المقدس طوى ربما كان مقبرة، أي أنه ينتمي إلى الحياة الأخرى.

أكثر من ذلك فإن الاسم (السبتين) يشير إلى ارتباط ما بالموت والمقابر. جاء في اللسان:

(وأسبت الحية إسباتا إذا أطرقت لا تتحرك، وقال: أصم أعمى، لا يجيب الرقى. والسبت: الراحة. وسبت يسبت سبتا: استراح وسكن. والسبات: نوم خفي، كالغشية. وقال ثعلب: السبات ابتداء النوم في الرأس حتى يبلغ إلى القلب. ورجل مسبوت، من السبات، وقد سبت، على ابن الأعرابي؛ وأنشد:

وتركت راعيها مسبوتا قد هم، لما نام، أن يموتا

من طول إطراق وإسبات. والمسبوب: الميت والمغشي عليه).[٤٢]

إذن، نحن مع الموت بوضوح في جذر (سبت)، مما يجعلنا نعتقد أن الاسم (السبتين) يشير إلى الآخرة وإلى عالم الأموات السماوي. فالمسبوت هو الميت. وربما كان طلب الرسول من الرجل أن يخلع نعليه إشارة على أن ارتداء النعلين السبتين نبوءة بالموت.

وأخيرا، لكن ليس آخرا، لا بد لنا أن نذكر أن المصادر العربية تخبرنا أن نعلي موسى كانا من جلد حمار ميت. يقول القرطبي في تفسيره: (كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف وكمة صوف وسراويل صوف وكانت نعلاه من جلد حمار ميت). ويضيف ابن عربي في الفتوحات المكية: (وأما نعلا موسى عليه السلام.... فروينا أنهما كانتا من جلد حمار ميت).[٤٣] والحمار، كما رأينا في فصل سابق مرتبط أوزيريس الواطئ النغمة، أي بذي بكة في إله بئر الكعبة الجاهلي.

أما آخرا، فيبدو أن علينا أن نفرق بين صاحب السبتيتين وبين راعيه. يدفعنا إلى هذا أننا نجد على وجه صلاية نعرمر الأول، نعرمر وهو يهوي بمقرعته وخلفه على بعد يقف رجل يحمل سبتيتين. نحن نعتقد أن نعرمر في هذا الوجه هو مثيل أوزيريس الصيفي الفيضي. نحن نعرف، بالطبع، أن الغالبية الساحقة تعتقد أن نعرمر هو ملك تاريخي مفترض يدعى مينا موحد القطرين، لكن هذه الغالبية لا تخيفنا، ولا تمنعنا من التوصل لهذا الاستنتاج، خاصة بعد أن رأينا في فصل سابق أن هناك في النقوش العربية إلها يدعى (نعر)، وأن هذا الإله يتماهى مع (جد)، أي مع أوزيريس الفيضي، في صيغة (نعر- جد).

على كل حال، ما يهمنا هو الشخص الذي يحمل النعلين، اللتين تبدوان لنا كسبتيتين. ونحن مع هاتين السبتيتين المصنوعتين من جلد حمار، أي من جلد أوزيريس الشتوي. فهل تكون السبتيتان لنعرمر، لكنه خلعهما لأن من المفترض أن على الفصل الصيفي الحي الفياض المندفع ألّا يلبس نعلين؟ ربما. أو قل هكذا يبدو الأمر. يدعم هذا الاحتمال الأحاديث التي تدعو الأحياء إلى خلع النعلين في المقبرة. إذ أن لبسهما يعني الموت، ولا يعني عدم احترام الموتى. وعليه، فأوزيريس الميت هو الذي يجب أن يرتدي نعلين من جلد حمار. ومن المحتمل أن حامل نعلي نعرمر هو راعي صاحب السبتيتين، وأنه يقدمهما للإله عند قراره الشتوي. إنه ينتظر هناك بعيدا إلى أن يأتي الوقت الذي يستعمل فيه هاتين النعلين.

في كل حال، ما زال أمر هاتين النعلين بحاجة إلى نقاش، أي أننا لا نحسم بشأنهما. ما نحن متأكدون منه أنهما على علاقة بشكل ما بالحمار، أي بأوزيريس الشتوي.

twitter @baghdad_library

بنو الدعدع

لكن لم يوصف صاحب السبتيتين بأنه (أخو بني الدعدع)؟ وما هذا الوصف الغامض الملغز، بل والأشد إلغازا من صاحب السبتيتين ذاته! أخو بني الدعدع تعني أنه من بني الدعدع. إذن، فصاحب السبتيتين منسوب إلى بني الدعدع. فمن هم هؤلاء؟

إذا عدنا إلى معنى كلمة (دعدع) في العربية، نجدها تحمل طيفا واسعا من المعاني:

الزمخشري في أساس البلاغة: (دعدع المكيال وغيره: حركه حتى يكتنز)[٤٤]. الخليل في العين: (الدعدعة: عدو في بطء والتواء)[٤٥]. ابن منظور في اللسان: (دعدعت الشيء: ملأته... دعدعت بالصبي دعدعة إذا عثر فقلت له: دع دع أي ارتفع... والدعدعة: قصر الخطو في المشي مع عجل... ودعدع الرجل... عدا عدوا فيه بطء والتواء... ابن الأعرابي: يقال للراعي دع دع، بالضم، إذا أمرته بالنعيق بغنمه، يقال: دعدع بها).[٤٦]

إذن، ثَم جملة من المعاني. لكن فيها خيطا رئيسا يربطنا بما نحن فيه: كلمة تقال عند العثار كأن فيها دعوة للنهوض، نداء على الغنم، نداء للحث، حركة فيها بطء وقصر خطو، ثم تحريك الجوال كي يمتلئ.

جزء رئيس من هذه الأشياء يحيلنا إلى المظهر الساكن الفاتر للإله. فهو بطيء، قصير الخطو، عاثر. لكننا بحاجة إلى أكثر من ذلك، وربما وجدناه عند الجاحظ في الحيوان فهو يعلمنا أن أهل الجاهلية: (كانوا إذا دخل أحدهم قرية من جن أهلها، ومن وباء الحاضرة، أشد الخوف، إلا أن يقف على باب القرية فيعشر كما يعشر الحمار في نهيقه، ويعلق عليه كعب أرنب، ولذلك قال قائلهم:

لا ينفع التعشير في جنب جرمة ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب

الجرمة: القطعة من النخل، وقوله: دعدع كلمة كانوا يقولونها عند العثار. وقد قال عروة بن الورد، في التعشير، حين دخل المدينة فقيل له: إن لم تعشر هلكت فقال:

لعمري لئن عشرت من خيفة نهاق حمار إنني لجزوع).[٤٧]

نحن هنا أمام أعمال سحرية لتجنب المخاطر. إذ يدعدع للعاثر كي ينهض سليما، ويعلق كعب أرنب على الشخص كي يحميه. ويدفع المرء للنهيق كالحمار، أي التعشير، كي يضمن نجاته من الأوبئة. والنقطة الأخيرة ليست بمستغربة، فقد وجدنا في الرسومات الفرعونية حمارا طويلا يقف بالقرب من (الجد)، أي عمود أوزيريس، وبشكل يبدو فيه

الحمار وكأنه الوجه النقيض للجد، أي لأوزيريس العالي النغمة. وعليه، فربما يكون طقسا الدعدعة والتعشير مرتبطين ببعضهما؛ أي أنهما على علاقة بأوزيريس الحمار، أوزيريس الشتوي.

أما بخصوص الدعدعة بمعنى تحريك الجوال (الشوال) حتى تتسع طاقته فهو يحيل أيضا إلى أوزيريس. ذلك أن الدعدعة هي عمل المكاسين، أي العشارين جامعي الضرائب. ونحن نعلم أن سهيل اليماني، نجم أوزيريس، كان (عشارا باليمن)، كما تقول المصادر العربية. أي جامع ضرائب ومكوس. يقول الجاحظ في الحيوان:

(وأما قوله {أي أمية بن أبي الصلت}:

مسخ الضب في الجدالة قدما وسهيل السماء عمدا بصغر

فإنهم يزعمون أن الضب وسهيلا كانا ماكسين عشارين، فمسخ الله عز وجل أحدهما في الأرض، والآخر في السماء).[٤٨]

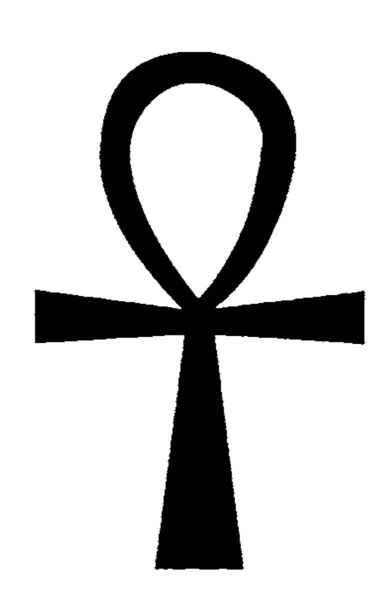
كما أن جذيمة الأبرش، وهو أوزيريس الواطئ، كان عشارا أيضا. ذلك أنه كان يملك ضيزنين ضاغطين كي يجمعا له المكوس والأعشار. ولا يخفى عن العين الجامع اللفظي بين (العشار) و(التعشير). فالمكس هو أيضا (تعشير)، أي أخذ للعشر. ولا بد للعشار من أن يدعدع كيسه وجواله حتى يملأه تماما!

وعليه، فالتعشير مرتبط بأوزيريس. لكنه يبدو مرتبطا بمظهريه معا. أي مظهره السماوي العالي (سهيل السماء)، الذي نفترض أنه يأخذ شكل طائر، ومظهره الأرضي المتمثل في (ضب الجدالة) أي الأرض. والضب هنا يحل محل الحية. فكلاهما أرضي يعيش في الشقوق والثقوب.

العنخ

فهمنا، إذن، شيئا معقولا عن صولجان أوزيريس، أي عن محجنه. لكن ماذا بشأن (العنخ)؟ يبدو لنا أنه يشير إلى السرعة. وتدعم الصورتان من قبر سنموت هذا الفرض. ذلك أنه لا يختلف وضع العنق حسب اختلاف تموضع المحجن فقط، بل إنه يرتفع في الصورة الثانية إلى أعلى مقارنة بالصورة الثانية. ففي الصورة الأولى يبدو العنخ فوق مؤخرة الزورق مباشرة. أما في الثانية فترفعه يد أوزيريس عاليا. أكثر من ذلك فهو يأخذ في الصورة وضعا أفقيا، في حين أنه يأخذ وضعا عموديا في الثانية. ونظن أن هذا إشارة إلى النغمة العالية السريعة لأوزيريس.

twitter @baghdad_library



العنخ، أو العنق كما نحب أن نسميها

تدعم اللغة العربية ما نقول. فجذر (عنق) يعطي معنى السرعة والارتفاع. يقول الزبيدي في تاج العروس: (العنق: وهو السير الفسيح).[٤٩] ويواصل: (وفي الحديث: فانطلقنا معانيق إلى الناس نبشرهم)، أي مسرعين. ويزيد ابن سيدة في المخصص: (العنق وقد تقدم أنه السير السريع). [٥٠] أما بخصوص الطول والارتفاع فيقول ابن دريد في جمهْرة اللغة: (ورجل أعنق: طويل العنق، ومعنق أيضا، والأنثى عنقاء ومعنقة: طويلة العنق).[٥١]

نحن نرى أن كلمة (العنخ) المصرية عديل كلمة (العنق) العربية. أي أن الكلمة المصرية تعني المسرع، أو الفسيح الخطى، أي الواسع الخطى. وهذا هو الوصف الذي يطلق على أوزيريس: Far Strider أي الفسيح الخطى. وهذا يعني أن الحرف المصري يجب أن يكون أقرب على القاف العربية. وربما من الأحسن أن يلفظ كجيم قاهرية.

وعليه، فأداة العنخ رمز للسرعة، أي رمز لأوزيريس السريع. وهذا ما يتوافق مع وضع أوزيريس في الصورة الثانية. فهو يبدو رافعا كعبه عن الأرض، مسرعا.



twitter @baghdad_library

فصل 12

حزام سيث

(والمؤتفكة أهوى)

قرآن كريم

يخبرنا الفرعون شاباكا المصري، الذي حكم في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، أنه عثر على نص قديم جدا كتبه الأجداد، وأعاد نسخه من جديد على حجر يدعى الآن باسمه (حجر شاباكا). يفخر شابكا في مقدمته التي كتبها أنه أعاد النص القديم الذي كان تالفا إلى صورته الأصلية، أو إلى صورة أفضل من الصورة الأصلية في الحقيقة. والغالبية من علماء المصريات على أن النص منسوخ بالفعل عن نص أصلي يعود إلى حدود ٢٧٠٠ قبل الميلاد، أي إلى ما قبل فترة بناء الأهرام بما يقرب من ٣٠٠ سنة.

يحدثنا حجر شاباكا هذا عن صراع بين حورس وسيث على ملكية الكون، وعن قسمة على مرحلتين لهذه الملكية بينهما، وعن مصالحة. قسمة المرحلة الأولى تمت برعاية الإله (جب) وقسمة المرحلة الثانية حصلت برعاية الإله (بتاح). أي أننا أمام زمنين اثنين، زمن يلعب فيه (جب) الدور الأول، وزمن يلعب آخر فيه بتاح الدور الأول. وعدم إدراك اختلاف الزمنين قد يشوش فهمنا لنص شابكا الكاشف والخطير. يقول النص حول فترة (جب):

(واجتمعت الآلهة حوله {حول الإله جب}، فحكم بين حورس وسيث. منعهما من النزاع بعد، ورسم سيث ملكا على مصر العليا في أرض مصر العليا، حيث المكان الذي ولد فيه، سو. ثم عين حورس ملكا على مصر السفلى في أرض مصر السفلى، في المكان الذي غرق فيه والده {أوزيريس}، بزشيت- تاوي. وهكذا وقف حورس في مكان، ووقف سيث في مكان، وتصالحا فيما بينهما حول الأرض... وصارت كلمة

جب لسيث: «اذهب إلى مسقط رأسك». سيث-مصر العليا. وصارت كلمة جب إلى حورس: «اذهب إلى المكان الذي غرق فيه والدك». حورس- مصر السفلى. وقال جب لحورس وسيث: «لقد حكمت بينكما». مصر السفلى والعليا).[١]

وهكذا قسمت الأرض بين سيث وحورس بقرار من إله الأرض (جب) ذاته. حصل سيث على الجنوب وحورس على الشمال. لكن هذا الإله ذاته عاد فاكتشف أن هذه القسمة ليست عادلة، فأجرى تعديلا على القسمة كما يخبرنا النص في الصفحة ذاتها: (ثم بدا لجب أنه من غير المناسب أن تكون حصة حورس مساوية لحصة سيث. وهكذا فقد أعطى إرثه كله لحورس، الابن البكر لابنه الأول... {أوزيريس}. بذا حكم حورس على كل الأرض. وبذا وحدت الأرض، وأعلنت بالاسم العظيم: «تا-تينين، جنوب حائطه، سيد الأبدية (Ta- tenen, South of His Wall, the Lord of Eternity[٢]

وهكذا، فقد أعطيت الأرض كلها لحورس بقرار من جب. لقد حسم الأمر ووحدت الأرض تحت حكم حورس. أي وحدت الأرضين التحتيتين، جنوب مصر وشمالها. ولم يعد لسيث أي حق بالمطالبة لا بشمال مصر ولا بجنوبها. وإن كان له أي حق فهو في السماء لا على الأرض. ويبدو بالفعل أن الصراع بين حورس وسيث على ملكية الكون قد انتقل إلى السماء بعد أن حسم موضوع الأرض. روبرت بوفال، واستنادا إلى آراء بعض من سبقوه، يفترض أن حديث النصوص المصرية عن وحدة مصر العليا والسفلى، ربما يكون في أحد مستوياته حديثا عن وحدة السماء والأرض. وهذا أمر نوافق عليه من حيث المبدأ: (ألا يجدر بنا أن نضع احتمال أن الحديث عن «مصر العليا» و»مصر السفلى» مع أنه من الواضح أنه في أحد مستوياته يشير إلى شمال وجنوب في بلد أرضي، ربما يشير في مستوى ثان يقصد السماء والأرض).[٣] ويضيف: (لقد قدمنا، في عملنا الحالي {رسالة أبي الهول} دلائل إضافية تدعم رأي سيلرز في أن «الأرضين» محل الجدال هما في الحقيقة «السماء» و»الأرض»).[٤]

بذا فهو يعتقد أن الوحدة أو المصالحة التي يتحدث عنها حجر شاباكا هي مصالحة بين الأرض والسماء. وهذا يعني، حتى لو لم يقصد بوفال، أن سيث يسيطر على السماء، ما دام حورس قد سيطر على الأرض. والحق أن الأمر لا يبدو كذلك. فهناك ما يدل على أن سيث موجود في السماء، كذلك هناك ما يدل أيضا على أن لحورس حصة من السماء. أي أن أمر السماء ليس محسوما، حتى يخوض سيث باسمها حربا ضد الأرض. وإذا كان موضوع الأرضين، شمال مصر وجنوبها، قد حسم في زمن جب، فإن الصراع الذي حل في زمن بتاح، يجب أن يكون الصراع بين الأرضين العلويين، أي شمال السماء وجنوبها.

twitter @baghdad_library

أما وجود سيث في السماء فثابت في النصوص المصرية. ففي نص أحدث من حجر شاباكا يجري البحث عن مكان لسيث بعد أن خسر ملكية الأرض، فيتم إرساله إلى السماء:

(ثم قال بتاح العظيم، الذي هو شمال حائطه، سيد الأرضين: «ما الذي سنفعل بسيث؟ لأن حورس، كما ترون، قد وضع في مكان أوزيريس والده. عندها قال رع-حر-أختي:» لأعطَ أنا سيث بن نوت، لكي يعيش معي ويكون ابنا لي، وسوف يتحدث من السماء، وسوف يخشاه الناس).(٥)

وهكذا، فقد رفع سيث إلى مكان ما في السماء عند رع أختي في زمن الإله بتاح. وقد أكد هذا الإله وأقر ما فعله (جب) بإعطائه الأرض لحورس: (حورس، كما ترون، قد وضع في مكان أوزيريس والده)، أي كحاكم لشمال مصر وجنوبها. إذن، فمن المؤكد أن سيث موجود في السماء، وأنه يحكم بعض مناطقها على الأقل. ونقول (بعض مناطقها) لأننا علمنا من بلوتارخ من قبل أن حورس موجود في جنوب السماء. فهو يقول لنا إن المصريين:)يدعون أوريون حورس {الجوزاء}، ويدعون الدب تايفون {سيث}(.(٦)

ونعلم أن الجوزاء في جنوب السماء، في حين أن الدب في شمال السماء. وهكذا يبين لنا بلوتارخ أن السماء مقسومة بين حورس وسيث. حورس في جنوب السماء، وسيث في شماها. بالتالي، فإن من المنطقي أن تكون المصالحة التي حدثت بين حورس وسيث، والتي يتحدث عنها حجر شاباكا، هي مصالحة بين جنوب السماء وشمالها، لا بين الأرض والسماء كما يفترض بوفال:

(وقد حدث أن القصب والبردي وضعا على البوابة العظيمة المزدوجة لبيت الإله بتاح. وهذا يعني أن حورس وسيث، اللذين تصالحا وتوافقا، أقيمت بينهما الصداقة وانتهى خلافهما في المكان الذي بلغاه، اتحدا في بيت بتاح، «ميزان الأرضين»، الذي وزنت فيه مصر العليا والسفلى...).(٧)

وهكذا، فقد حل الإله بتاح الصراع بين حورس وسيث على ملكية السماء، بعد أن كان الإله (جب) قد حل الصراع على الأرض. حل (جب) كان بطرد سيث من الأرض، أما حل بتاح فكان بإجراء مصالحة بين حورس وسيث، عند البوابة المزدوجة لبيته. فقد وقفا على هذه البوابة ثم تصالحا واتحدا داخل بيته، الذي هو (ميزان الأرضين).

إذن، فبتاح لم يكن يقيم مصالحة بين الأرض والسماء، كما ظن بوفال، بل بين حورس وسيث في السماء، أي بين مصر العليا ومصر السفلى السماويتين. ذلك أن الصراع بين

مصر العليا والسفلى الأرضيتين كان قد حل في زمن الإله (جب)؛ لذا فزمن الإله جب لم يكن زمنا للسلام. كان زمنا انتقل فيه الصراع من الأرض للسماء. زمن الإله بتاح هو الذي كان زمن السلام المطلق، الذي تصالح فيه سيث وحورس، واتحدا، داخل بيته.

وهذا الاستخلاص يوصل إلى نظرية بوفال حول الأهرام الثلاثة.

التعاكس

تقوم نظرية بوفال المركزية حول الديانة المصرية، كما أوضحنا من قبل، على التأكيد التالي: أهرام الجيزة الثلاثة تمثيل معماري لنجوم حزام الجوزاء الثلاثة. إنها نسخة أرضية لحزام الجوزاء.

لكن هذا التأكيد يوصلنا إلى ما يلي: إذا كانت الأهرام نسخة معمارية لحزام الجوزاء، فهذا يعني أنه لا يوجد صراع كي يحل من الأساس. فلا مجال للحديث عن صراع بين الشيء ونسخته، في حين أن حجر شاباكا يحدثنا عن صراع، وعن مصالحة بين حورس وسيث. وإذا كانت الأهرام نسخة، ونسخة فقط، لحزام الجوزاء، فهذا يعني أن سيث أخرج من الموضوع، ذلك أن حزام الجوزاء هو حورس، ومن المفترض أن نسخته الأرضية هي حورس أيضا. من أجل هذا يتجاهل بوفال، عند التعرض لنص شابكا، أي حديث عن الصراع بين سيث وحورس. ذلك أن وجود حورس سيفجر نظريته.

وعليه، فإن فرضيته تنقاد، حتما، إلى الحديث عن المصالحة مع تجاهل الحديث عن الصراع. فحين يرى أهراما يشبه تصميمها حزام الجوزاء يصل إلى الاستنتاج بأن المصريين أرادوا توحيد منطقة حزام الجوزاء وما حولها بمنطقة أهرام الجيزة وما حولها. أي (حزام أوريون- برج الأسد- برج الثور) في السماء و(الجيزة-هليوبوليس-ممفيس) على الأرض.

لكن ما يفشل فيه بوفال هو أن يرينا الصراع بين هذين المثلثين كي يتصالحا؟ فبأي معنى، مثلا، يكون هناك مصالحة بين أول المثلث السماوي (حزام أوريون) وأول المثلث الأرضي (أهرام الجيزة)، إذا لم يكن هناك نزاع بينهما أصلا؟ فأهرام الجيزة هي، حسب تأكيده، نسخة معمارية أرضية لنجوم حزام أوريون، أي صورة أرضية لها. فكيف نتحدث عن مصالحة بين الصورة والأصل؟ المصالحة تقتضي نزاعا. وبوفال يفشل في أن يرينا النزاع بين مثلثيه.

twitter @baghdad_library

فوق ذلك فإن وحدة هذين المثلثين تتجاهل وجود سيث على خشبة المسرح. فأين هو سيث في هذا كله؟ وما علاقة المصالحة بين هذين المثلثين، وبين الصراع الذي عرض أمام بوابة الإله بتاح، وحل داخل بيته؟

لا جواب لدى بوفال. إذ المنطقي أن يقول لنا مثلًا إن الأهرام هي سيث، ما دام حزام الجوزاء هو حورس. أو بشكل أدق إن منطقة الجيزة، التي تحوي الأهرام الثلاثة، هي سيث، في حين أن منطقة برج الجوزاء، التي تحوي حزام الجوزاء، هي حورس. لكنه لا يقول ذلك؛ لأنه يلغي الصراع من أساسه. فكرته تقوم على التماثل لا على الصراع. تماثل حزام الجوزاء مع أهرام الجيزة الثلاثة.

لكننا نحن نستطيع أن نقول ما لم يجرؤ بوفال على قوله. ونحن نقوله عبر السؤال التالي: ما دمنا نتحدث عن صراع بين سيث وحورس، أتكون أهرام الجيزة الثلاثة على علاقة بسيث، ما دامت نجوم حزام الجوزاء على علاقة بحورس، كما فهمنا من بلوتارخ؟ أي: أتكون أهرام الجيزة نصبا يمثل سيث، في مواجهة حزام الجوزاء الذي يكون هو نصب حورس في هذه الحال؟ أو بشكل أكثر دقة: أتكون الأهرام الثلاثة رمزا للسماء الشمالية، أي بنات نعش، في مواجهة حزام أوريون الذي هو رمز السماء الجنوبية، التي هي الجوزاء.

يبدو أن الأمر كذلك فعلا. فنجوم الحزام ليست إلا عند النظرة الأولى فقط نسخة لحزام الجوزاء، لكنها في جوهرها نقيض لهذا الحزام. إنها حزام مضاد بالأحرى!

حزام الشمال وحزام الجنوب

إذن، فالأهرام منشأة أقيمت لتمثيل جزء من السماء، وهو الجزء الشمالي، لا الجنوبي كما يفترض بوفال. منشأة السماء الجنوبية موجودة بقوتها فوق رؤوسنا، أي حزام الجوزاء. وقد بنيت منشأة الجيزة، أي الأهرام الثلاثة، على غرارها، لا كنسخة منها. بوفال اعتقد أن الأهرام نسخة أرضية من حزام الجوزاء، أي أنها رسم، أو إنزال، لجنوب السماء على الأرض. وهذا ما أدى إلى كل الاضطراب في نظريته. لم تكن كذلك. كانت إنزالا لشمال السماء على الأرض.

نتيجة مفاجئة! نتيجة تقلب الصورة جذريا! الأهرام إذن، حزام مضاد لحزام الجوزاء. إنها عدو حورس وخصمه. أي أن لدينا حزامين اثنين:

١ - حزام الجوزاء، وهو حزام حورس.

٢- حزام الأهرام الثلاثة، وهو حزام سيث.

وهما يتواجهان أمام البوابة المزدوجة العظمى للإله بتاح. إنها مزدوجة لأنها مصنوعة من قسمين متواجهين: قسم في السماء (حزام الجوزاء) وقسم على الأرض (أهرام الجيزة الثلاثة). أي أن بتاح يملك حزام الجوزاء الجنوبي، وحزام الأهرام الشمالي. إنه يوحدهما بداخله، أو بداخل بيته كما يقول نص حجر شاباكا. أي أن بتاح هو وحدة حورس وسيث معا. أو هو السلام بينهما.

بوفال، إذن، رأى لكنه رأى نصف الحقيقة. رأى أن تصميم الأهرام الثلاثة يشبه تصميم حزام الجوزاء، من حيث العدد والترتيب، لكنه لم يفطن إلى أنها نجوم حزام مضادة ومعكوسة. معكوسة تماما.

أما البرهان الأشد قوة على أن الأهرام الثلاثة مرتبطة بشمال السماء لا بجنوبها، أي على أنها مرتبطة أي ببنات نعش الشمالية لا بحزام الجوزاء الجنوبي، فهو أن أبوابها جميعا تتجه نحو الشمال. ولو كانت تمثل حزام الجوزاء لكان على هذه الأبواب أن تنفتح جنوبا، حيث حزام الجوزاء.

الأهرام تفتح أبوابها على بنات نعش الشمالية، على سيث، على النجوم الثابتة التي لا تتغير، لا على نجوم القطب الجنوبي؛ لأنها تمثل بنات نعش الشمالية. أما حزام الجوزاء فلو طرح بالمعمار على الأرض لكانت أبوابه ستنفتح بالتأكيد على الجنوب، على برج الجوزاء، على النجوم التي تظهر وتغيب، النجوم المنبعثة كل عام، لا على النجوم الثابتة في شمال السماء.

بهذه الفرضية يمكن التغلب على عدد من الأسئلة التي تواجه نظرية بوفال.

والسؤال المركزي الذي يطرح هو: إذا كانت الأهرام نسخة من حزام الجوزاء في جنوب السماء، فلم تطرح في شمال مصر بدل جنوبها؟ والجواب الوحيد الممكن عند بوفال هو القول إن الأهرام هي ممثل الأرض في مقابل نجوم الحزام التي تمثل السماء. وهذا جواب لا يدعمه سوى تصريح الفقرة من حجر شاباكا التي تتحدث عن منح حورس شمال السماء في البداية، قبل أن يغير جب الأمر:

(واجتمعت الآلهة حوله {حول الإله جب}، فحكم بين حورس وسيث. منعهما من النزاع بعد، ورسم سيث ملكا على مصر العليا في أرض مصر العليا، حيث المكان الذي ولد فيه، سو. ثم عين حورس ملكا على مصر السفلى في أرض مصر السفلى، في المكان الذي غرق فيه والده {أوزيريس}، بزشيت- تاوي. وهكذا وقف حورس في

twitter @baghdad_library

مكان، ووقف سيث في مكان، وتصالحا فيما بينهما حول الأرض).

إذا استندنا إلى هذا النص يكون حورس هو شمال مصر وجنوب السماء في وقت واحد، لكن قبل أن يلغي جب القسمة القديمة. أي أن علينا أن ننسى أن جب غير القسمة وأعطى شمال مصر وجنوبها جميعا لحورس. ولو وافقنا بوفال على ذلك، فإن الأمر لن يكون ممكنا عمليا. إذ أن نص حجر شاباكا يتحدث عن صراع بين حورس وسيث، بين القصب والبردي، وعن مصالحة بينهما، لا عن مصالحة بين حورس جنوب السماء وحورس شمال الأرض المتعاكسين. أي أن الجواب يفترض مواجهة بين الأرض التي يحكمها ملك مصر، الذي هو تجسيد لحورس على الأرض، وبين حورس السماء. وهذا أمر يصعب جدا قبوله.

ولأن بوفال يرى، بالفعل، أن الأهرام تمثل برج الجوزاء، أي أنها ترسم منطقة حورس السماوية على الأرض، فإنه يرى المصالحة كجمع بين الجوزاء والأهرام، أي جمع طرفين لا صراع بينهما، من دون أن يتطرق لحورس أو سيث. فذكرهما يرغمه على أن يفترض أن الأهرام تمثل سيث. وهو غير قادر على قول ذلك؛ لأنه يهدد فرضيته الأصلية؛ أي فرضية أن الأهرام نسخة أرضية لنجوم الحزام.

أما فرضيتنا فترى أن الأهرام منشأة أقيمت لتمثيل شمال السماء. ومن أجل هذا فقد وضعت في شمال مصر. ومن أجل هذا فأبواب الأهرام كلها تتجه نحو السماء الشمالية لا الجنوبية. إنها تمثيل للسماء الشمالية في مواجهة السماء الجنوبية. تمثيل لسيث في مواجهة حورس، والبردي في مواجهة القصب.

ومن أجل هذا توصلنا إلى أن الأهرام حزام جوزاء مضاد ومعاكس. إنها تنزيل للسماء الشمالية على الأرض، وليست تنزيلا للسماء عموما على الأرض، أو تنزيلًا لجنوبها. أي أن الأهرام أقيمت لعرض الصراع بين سيث وحورس، هذا الصراع الذي حل في داخل الهرم الأكبر كما سنرى.

إعادة التوازن للكون

لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، أي عند وجود حزام الأهرام في شمال مصر، بل يتعداه إلى مفارقة أشد قوة، وهي أن صف أهرام الجيزة الثلاثة ينطرح في تعاكس تام مع صف نجوم حزام الجوزاء. وبهذا الانطراح تكمل الأهرام ذاتها كحزام معاكس تماما لحزام الجوزاء.

هذا التعاكس كان قد رماه مثل مفرقعة خطرة الفلكي إي. سي. كرب، بوجه بوفال وهانكوك حين أعلن أن نظريتهما تقلب خارطة مصر عاليها أسفلها من أجل أن تقيم تشابها بين حزام أوريون وأهرام الجيزة الثلاثة. إذ رأى، محقا، أنه لا يكفي أن يقال لنا: انظروا إلى الأعلى كي تشاهدوا كيف أن نجوم الحزام تماثل الأهرام الثلاثة. فإذا أردت أن تنزل نجوم حزام الجوزاء من السماء إلى الأرض، أي أن ترسمها على خارطة، فإن ذلك يقتضي منك زلقها نحو الأفق الجنوبي، ثم سحبها من ثم على الأرض. وحين تفعل ذلك ستجد أن لديك صفا من النجوم يتجه من الجنوب إلى الشمال، مقابل صف من الأهرام يتجه من الشمال إلى الجنوب. أي أننا أمام صفين متواجهين ومتعاكسين تماما. وعليه، فالأهرام تشبه نجوم الحزام لكن بطريقة عكسية تماما.

من هذه النقطة المركزية ينطلق (كرب) ليصل إلى نفي الشبه بين الأهرام ونجوم الحزام نفيا تاما: (أعتقد، إذن، أنه من غير المحتمل أن تكون أهرام الجيزة تمثيلا لنجوم الحزام). ويضيف بتهكم مر: (كل ما أعرفه أنها يمكن أن ترمز للفئران العمي الثلاثة، لإلهات الجمال الثلاث، للحكماء الثلاثة، أو للجواسيس الثلاثة)![٨]

أي أن التشابه فقط يكمن في الرقم ثلاثة لا غير.

وقد حاول أنصار نظرية بوفال رفض هذه الملاحظة الذكية، أو تجاهلها، لكنها ظلت معلقة على رؤوسهم كالسيف، ولم يتمكنوا من تقديم تفسير مقنع لها. فنظرية بوفال تقوم على التماثل المطلق، من حيث المبدأ، بين الأهرام ونجوم الحزام، أي على أن الأهرام= نجوم الحزام، هكذا مباشرة. وهم يظنون أنهم إذا ما قبلوا بفكرة التعاكس فإن النظرية كلها سوف تنهار.

نحن نعتقد أنه لا يجب تجاهل الواقع أو رفضه. فإذا كانت الأهرام تمثيلا معكوسا لحزام أوريون فيجب القبول بهذه الحقيقة، ثم محاولة تفسير ذلك من داخل النظرية ذاتها، نظرية بوفال ذاتها. فعلى النظرية أن تبرر هذا الوضع إذا كانت نظرية سليمة. أي أنه يجب التمسك بالتشابه الواضح بين الأهرام ونجوم الحزام من حيث العدد ومن حيث الترتيب والحجم، من جهة، ثم القبول بأن هذا التشابه معكوس، من الجهة الثانية.

رفض رؤية التعاكس لإنقاذ النظرية سوف يؤدي إلى منعنا من التقدم. أكثر من ذلك، ربما كان القبول بهذه الحقيقة هو مدخلنا لفك لغز الأهرام كلها. أي أن ما يرى على أنه نهاية لفرضية بوفال، ربما يكون وسيلة لإنقاذها، تعميقها، وتمكينها من فك ألغاز الأهرام.

twitter @baghdad_library

لا يمكن تجاهل حقيقة التعاكس بين أهرم الجيزة ونجوم حزام الجوزاء. كما لا يمكن اتهام المصريين القدماء بأنهم لا يعرفون قوانين رسم الخرائط. على العكس علينا أن نفترض أنهم يعرفون جيدا كيف ترسم الخرائط، وأنهم أرادوا أن يظهروا الأهرام نطاق جوزاء معكوسا!

وهكذا فليس أن الأهرام طرحت في شمال مصر، في حين أن حزام الجوزاء مطروح في جنوب السماء، بل إنها تصطف من الشمال إلى الجنوب، على عكس حزام الجوزاء الذي يصطف من الجنوب إلى الشمال. واصطفاف الأهرام من الشمال للجنوب تأكيد آخر على أنها تريد أن تمثل السماء الشمالية لا الجنوبية، وعلى أنها تعاكس حزام الجوزاء وتحاربه. أي أنها حزام شمالي مقابل الحزام الجنوبي.

الحزام الشمالي؟!

ونظن أن القدماء ما كانوا ليرفعوا حواجبهم دهشة عند الحديث عن حزام شمالي. بل يبدو أنهم كانوا يرون أن حزام الجوزاء ذاته كان تقليدا، أو بديلا مضادا، لحزام أصلي ما في الشمال. أي على عكس الصورة التي يفترضها بوفال، والقائلة إن الأهرام تقليد لحزام الجوزاء. أو قل إنهم كانوا يرون الحزام الجنوبي حزاما أحدث منه في الكون والوجود. وقد أعطانا البيروني برهانا على ما نقول في كتابه: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة. هذا النص شديد الأهمية، ونحن مضطرون إلى العودة إليه مرة بعد مرة. ففيه يؤكد لنا أن الهنود كانوا يرون أن هناك سماوين؛ شمالية وجنوبية:

(لم أسمع منهم في القطب الجنوبي إلا أن ملكا كان لهم يسمى سومدت قد استحق الجنة بحسن أعماله، ولم يطب قلبه بنزع بَدَنِه عن نفسه عند انتقاله {إلى السماء}، فقصد بسشت الرش، وأعلمه أنه يحب بدنه، لا يريد مفارقته، فآيسه عن حمل البدن الأرضي من الدنيا إلى الجنة. وعرض أيضا حاجته على أولاد بسشت فجبهوه ببزقهم، وسخروا به، وصيروه جندالا مشنف الأذنين بقرطق جديد {قباء جديد}. فجاء إلى بشفامتر الرش على تلك الحالة، فاستفظعها، وسأله عنها، فأخبره بها وقص عليه القصة بأجمعها. فغضب امتعاضا له، وأحضر البراهمة لعمل قربان كبير وأولاد بسشت فيهم، وقال لهم: إني أريد أن أعمل عالما آخر وجنة أخرى بسبب هذا الملك الصالح، يبلغ فيها مشتهاه. وابتدأ بعمل القطب وبنات نعش التي في الجنوب. وخافه أندر الرئيس والروحانيون، فجاءوا إليه متضرعين يسألونه إهمال ما ابتدأ فيه، على أن يحملوا سومدت ببدنه كما

هو إلى الجنة. وفعلوا ذلك، فترك عمل العالم الثاني، إلا ما كان عمل منه إلى وقتئذ. ومعلوم أن القطب الشمالي يوسم عندنا ببنات نعش والجنوبي بسهيل إلا أن في بعض من يشبه العوام من أصحابنا من يزعم أن في ناحية الجنوب من السماء بنات نعش على هيئة الشمالي تدور حول ذلك القطب).[٩]

هذا نص خطير وتأسيسي.

وهو يلقي ضوءا هنديا كاشفا على الديانة المصرية، التي كانت فيما يبدو تشترك في عناصر كثيرة مع ديانة الهند. بل لعل الديانة المصرية القديمة كانت قد انتشرت ووصلت إلى الهند. والنص يوضح لنا كيف أصر (سومدت)، الذي من الواضح أنه طراز من أوزيريس، على ألّا يتخلى عن جسده إذ صعد إلى السماء. فهو يحب جسده، ولا يريد مفارقته. لكنه كان مكتوبا في قانون الآلهة أنه يمنع أي كان أن يأخذ جسده معه إلى السماء. غير أن (بشفامتر الرش) تعاطف مع رغبة سومدت، وهدد الآلهة بأنه سيبني كونا آخر يمكن سومدت من التوحد مع جسده. وبدأ فعلا ببناء هذا العالم في جنوب السماء. بعدها استسلم من رفض طلب سومدت، وسمحوا له بأخذ جسده معه إلى الجنة، بعد أن رجوا بشفامتر الرش أن يتوقف عن بناء العالم المضاد، إلا ما كان قد أنجزه منه فعليا. وما كان قد أنجزه يقع فهو كون جنوبي مواز لجزء من الكون الشمالي ومماثل له. أي مواز لشمال السماء، الذي تذهب إليه الأرواح وحدها ومن دون أجسادها عند سيث. وما دام قد بني في الجنوب (القطب وبنات نعش التي في الجنوب)، فهذا يعني أن سومدت كان سيذهب في البدء إلى الشمال، أي إلى بنات نعش. وبما أنه غير مسموح لأحد أن يأخذ جسده معه، حيث الشمال وبنات نعش هما مقر الأنفس لا الأجساد كم قلنا، فقد صنع بشفامتر الكون المضاد في الجهة المعاكسة لشمال السماء، أي في جنوب السماء. الكون الجديد في جنوب السماء مماثل تماما للكون الأول الشمالي، لكنه يختلف معه في نقطة واحدة: أن سومدت يستطيع أن يأخذ بدنه إليه، أي يستطيع فيه أن يجمع نفسه وبدنه معا.

وقد يفسر لنا هذا إصرار المصريين القدماء على تحنيط جسد الميت، في عملية تدعى (ساه) من أجل إرساله إلى السماء. فهناك سيلتقي البدن، أي الجسد المحنط، بالروح التي صعدت للسماء. هناك، في جنوب السماء، سيلتقي الإله بجسده، ويبعث كما كان من جديد. وإلى هناك في هذا الكون الجديد المضاد سوف يرتفع الجسد المحنط، ويستعيد طزاجته وحيويته من جديد. سوف يتحول إلى غرنوق جديد غض. فقد رأينا من قبل، عند الحديث عن الغرانيق العلى، أن الغرنوق تعني: (الشاب الناعم الأبيض).

twitter @baghdad_library

وأنه (الناعِم المنتشر من النبات). وأن الغرنوق هو النبات الجديد هو (لَين النبات) وهو (الذي يكون في أصل العوسج اللين النبات).

وعليه، فالكون الجديد في الجنوب هو مكان بعث الأجساد، أو المكان الذي تلتقي فيه الروح الخالدة بالجسد، ومكان تجديدها. إنه المكان الذي (يعود فيه الشيخ إلى صباه). لذا فالجنوب هو مكان السعادة، كما رأينا من قبل.

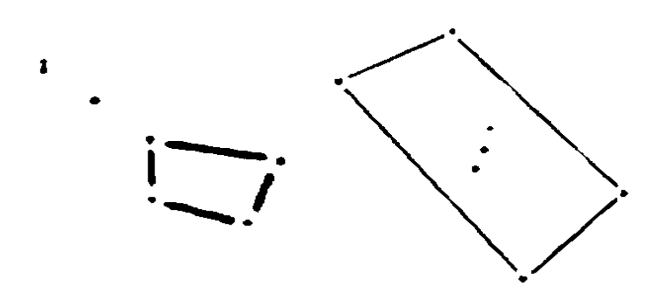
على كل حال، فبعد أن (ابتدأ {بشفامتر الرش} بعمل {الكون الثاني، وأنجز عمل} القطب وبنات نعش التي في الجنوب)، أوقف عمله بعد أن تضرعت إليه الآلهة الأخرى: (فترك عمل العالم الثاني، إلا ما كان عمل منه إلى وقتئذ).

إذن، فالهنود كانوا يعتقدون بوجود بنات نعش جنوبية وقطب جنوبي، كما هو الحال في الشمال. لكن ليس الهنود وحدهم هم من كانوا مقتنعين بوجود بنات نعش في جنوب السماء، بل إن العرب والمسلمين أيضا، أو بعضهم على الأقل، كانوا يرون ذلك. وهذا ما يؤكده البيروني في النص ذاته: (ومعلوم أن القطب الشمالي يوسم عندنا {عند العرب والمسلمين} ببنات نعش والجنوبي بسهيل. إلا أن في بعض من يشبه العوام من أصحابنا من يزعم أن في ناحية الجنوب من السماء بنات نعش على هيئة الشمالي تدور حول ذلك القطب).

وعليه، فهناك من زعم بوجود بنات نعش جنوبية تدور حول قطب جنوبي، كما تدور بنات نعش الشمالية حول نجم القطب الشمالي! وعليه، فلا ترفعوا حواجبكم دهشة. صحيح أن من أسماهم البيروني بأشباه العوام من العلماء في عصره هم من كانوا يعتقدون أن هناك بنات نعش في الجنوب تماثل بنات نعش في الشمال، لكن هذا بحد ذاته دليل أفضل على أنهم كانوا يعكسون معتقدات القدماء. فالعوام وأشباههم هم الأقرب إلى المعتقدات الميثولوجية للقدماء مما هو حال مع العلماء الحقيقيين أمثال البيروني.

لكن ما هو بالدقة الجزء الذي عمله بشفامتر في الجنوب؟ إنه: (القطب وبنات نعش التي في الجنوب)، كما يخبرنا البيروني. أما القطب الجنوبي فنحن نعرفه؛ إنه سهيل اليماني. والبيروني ذاته يؤكد لنا ذلك: (ومعلوم أن القطب الشمالي يوسم عندنا ببنات نعش، والجنوبي بسهيل). فسهيل هو القطب الجنوبي. لكن، أين (بنات نعش الجنوبية) التي عملها (بشماتر)، والتي تحدث عنها أشباه العوام المسلمين في زمن البيروني؟ نظن أنه ليس من الصعب معرفتها والتكهن بمكانها، ما دمنا نعرف أنها في جنوب السماء. إنها حزام الجوزاء مع النجوم الأربعة التي تحيط به، أي ما يسميه اليونان أوريون- مع أنهم

يجعلون النجوم خمسا بدل أن تكون أربعا-. نجوم الحزام الثلاث مع المربع حولها تساوي بنات نعش الصغرى في شمال السماء، التي هي مكونة أيضا من سبع نجوم: ثلاثة تدعى (بنات) ومربع يدعى (نعش).



الصورة إلى اليمين (بنات الله)، أي حزام الجوزاء، في داخل مربع مكون من أربعة نجوم. وإلى اليسار (بنات نعش) الثلاثة خارج المربع. ونسميه مربعا تجاوزا في الحالتين، فهو أقرب إلى شبه منحرف. المربع الجنوبي هو: المهد- سلة القصب. أما المربع الشمالي فهو (النعش)، كما يسمى بالعربية. البنات الثلاث خرجن من النعش وأفرغنه كي يرقد فيه الإله الميت. وجود البنات الثلاث داخل المربع الجنوبي، رمز لانبعاث الإله، الفتي الغض اللحم. ووجودهن خارج المربع الشمالي كـ(بنات نعش)، أو بنات النعش، أو ذيل بنات نعش، رمز للإله الميت. الإله المنبعث في الجنوب، والإله الميت في الشمال. المربع الجنوبي هو الصيف الفيضي الدفاق السريع. والمربع الشمالي هو الشتاء القار الساكن البطيء.

الإله الشمالي ميت في نعشه، لكن له وجودا رمزيا فوق النجم الأوسط في ذيل بنات نعش تماما، أي فوق نجم (عناق)، الذي يمثل إيزيس الشمالية في طورها الشتوي. واسمه هناك (السها). والسها نجم خفي يمتحن الناس به أبصارهم، فهو ما يكاد يرى. أي أن وجوده رمزي. أو كأن البنات، ومنهن عناق، يرفضن أن يضعنه في النعش على أمل بعثه لاحقا. لكنه حين يحل الصيف ينزل إلى الجنوب، أو تنزل نسخة منه، ليصبح (سهيل اليماني)، المنبعث.

وكنا قد توصلنا من قبل إلى أن العرب يدعون نجوم حزام الجوزاء باسم (بنات الله). أي أننا في الجنوب أمام (بنات الله) وفي الشمال أمام (بنات نعش). يعني: ثمة بنات في الحالين. الفارق أن البنات داخل المربع في الجنوب، في حين أنها خارجه في الشمال. وحين يكون الإله ميتا تكون البنات خارج النعش. من أجل هذا دعي المربع باسم (النعش). وحسب الأسطورة العربية فالبنات يحملن نعش أبيهن رافضات دفنه حتى يصلن إلى قاتله. ولأنه ميت فهناك كوكبان يدعيان (الفارطين) أمام مربع بنات نعش، تشبيها بالفارط الذي يبعث لحفر القبر، أي حفار القبور.

وحين تكون البنات داخل المربع يكون الإله في طوره المنبعث. وهذا يعني أن حزام الجوزاء، أو (بنات نعش) الجنوبيات، رمز للإله المنبعث. إنهن معا يمثلن الإله المنبعث.

المربع الشمالي، إذن، نعش، والمربع الجنوبي مهد. المربع الجنوبي هو سلة القصب

twitter @baghdad_library

التي حمت الإله حورس الطفل، حتى نما وكبر، وصار أوزيريسا جديدا، والمربع الشمالي هو الصندوق، أو (النعش) الذي حبس فيه سيث المتآمر وعصابته أوزيريس الملك.

الشمال لحد، والجنوب مهد.

وبما أن الأهرام شمالية فهي لحد، أي مقابر. في حين أن حزام الجوزاء هو المهد الذي تولد فيه الآلهة الجديدة وتنبعث بعد أن تلتقي أرواحها بأجسادها. وعليه، فالصراع بين الأهرام وحزام الجوزاء، أي بين سيث وحورس، هو صراع بين اللحد والمهد، بين الموت والانبعاث.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن يكون أبو الهول، وكما أوضحنا في فصل آخر، هو فاتح أبو-أوت (فاتح طريق الشمال) في حين أن نظيره السماوي هو (فاتح طريق الجنوب). إذ قد علمنا من ولاس بدج: أن الإلهين ابن آوى- أنبو وأنوبيس، اللذين يمثلان شكلين لنفس، حيث كان أنبو «فاتح طريق الجنوب قوة الأرضين» وأبوات «فاتح طريق الشمال قوة السماء.

الأهرام، إذن، في جانب منها هي نصب الموت، في حين أن حزام الجوزاء هو نصب الانبعاث والحياة. نقول (في جانب منها) لأن الهرم الأكبر ماكنة كونية جبارة متعددة الفعاليات. ومطروح ضمن الصف هو جزء من حزام سيث. لكن تصميمه الداخلي شيء آخر، شيء عجيب آخر.

حضن حورس يضم أوزيريس المنبعث، في حين أن نعش سيث معد لأوزيريس الميت. أوزيريس المنبعث هو الصيف، وأوزيريس الميت هو الشتاء. من أجل هذا كان برج الجوزاء رمزا للصيف، وبنات نعش الشمالية رمزا للشتاء. أي أننا لسنا فقط أمام صراع بين حورس وسيث، بل أمام صراع بين مظهري أوزيريس- الكون الصيفي والشتوي، أوزيريس الفيضي وأوزيريس المنسحب غير الفيضي.

الخلاصة:

أهرام الجيزة الثلاثة هي نصب الشمال، نصب سيث، والنعش.

حزام الجوزاء: نصب الجنوب، نصب حورس، والمهد.

الشجرة المقلوبة

لكن، لماذا يضطر المصريون إلى طرح حزام شمالي على أرض الجيزة معماريا؟ لماذا يضطرون إلى إقامة هذا المشروع المهلك التكاليف؟

سؤال مشروع تماما. وللإجابة عنه يجب أن ندرك الكون من وجهة نظر القدماء مكون من شجرتين؛ طيبة وخبيثة. وأنه من دون الشجرة الخبيثة لا يمكن إدراك الكون، ولا رسمه. فحتى تتضح الشجرة الطيبة يجب أن نرى بموازاتها الشجرة الخبيثة، كما جاء في القرآن: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.[١٠]

لسنا هنا أمام مثل. بل نحن أمام تقرير للحقيقة الميثولوجية التي تحدثنا عنها، وهي أن الكون مكون من هاتين الشجرتين؛ الشجرة الطيبة أصلها ثابت في الأرض، وفرعها في السماء، أما الشجرة الخبيثة فمقلوبة؛ فرعها على الأرض، وجذرها في السماء، أي في الماء العلوي. الخبيثة ضد الطيبة وعكسها في كل شيء. والأهرام فروع الشجرة الخبيثة المقلوبة وتاجها الساقط على الأرض. جذرها هناك في السماء الشمالية. أما الشجرة الطيبة فتاجها هو برج الجوزاء، وجذرها ثابت في الأرض في كل معبد أوزيريسي. فالمعبد الأوزيريسي هو بالأساس معبد جنوبي، أي حورسي، أي أنه معبد يمثل الانبعاث والحياة. وهذا يعني أن نماذج هذا المعبد مطروحة في كل مكان، كما هو الحال في الكعبة المكية الجاهلية، التي هي رسم لحزام الجوزاء على الأرض، أو هي ظل للحزام وجذر لشجرته. وبما أن الشجرة المقلوبة هي سيث، وهي الموت، فلا بد أن يكون تاجها ومبناها الحجري على الأرض. إذ لن يدفن الجسد في السماء. وعليه، فالأهرام، أي بوابة حورس الشمالية، هي في النهاية مدفن، هي بوابة الموت. وهذا الوضع يرغم على طرحها على الأرض.

وحين تقول لنا النصوص المصرية إن أوزيريس يقف على قمة شجرة الصفصاف، فهذا يعني أن الحديث يجري عن الشجرة المقلوبة، أي عن الأهرام، أي عن أوزيريس الميت لا المنبعث. أي يجري الحديث عن نظير نجم النطاق في حزام الجوزاء. أي عن طائر الزو في شجرة إنانا.

وسوف نخصص فصلا خاصا للحديث عن الشجرتين الكونيتين.

المؤتفكة

ونحن نعتقد أن موضوع (المؤتفكة) في التراث العربي على علاقة بما نحن فيه، أي بالحزام المقلوب، الحزام الشمالي.

twitter @baghdad_library

وتجمع المصادر العربية تقريبا على أن المؤتفكة تعني: المنقلبة، وتعتقد أنها مدن قوم لوط التي قلب عاليها أسفلها. يقول الزمخشري في الكشاف: («والمؤتفكة» والقرى التي ائتفكت بأهلها، أي: انقلبت، وهم قوم لوط، يقال: أفكه فائتفك: وقرئ {في الآية القرآنية} والمؤتفكات أهوى: رفعها إلى السماء على جناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض أي: أسقطها).[11] والإشارة هنا إلى سورة النجم في القرآن: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾.[12] فالمؤتفكة هنا تهوي إلى أسفل، وتهوي منقلبة فيما يبدو. وفي سورة الحجر يتبين أن المؤتفكة هي مدائن قوم لوط بالفعل: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.[13]

جعل الأعلى في الأسفل. وهذا قد يتضمن أن المؤتفكة كانت في السماء ثم وضعت على الأرض. كما قد يعني أن الأمور قد عكست، فما كان في الأعلى في الوضع العادي صار أسفل وأدنى، في حين ارتفع ما كان هابطا. أو أنه يعني الأمرين معا. بل إن القلب ليس مكانيا فقط، بل جنسي أيضا. فقوم لوط، أصحاب المؤتفكة، مثليون جنسيون: ﴿ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ ﴾. يعني أننا أمام قلب كامل، أمام تعاكس مطلق. وهذا هو حال الأهرام مقارنة بحزام الجوزاء.

ونبهنا قبل قليل إلى أن القلب قد يعني تغير المواقع بين السماء والأرض. أي أن المؤتفكة كانت في السماء ثم وضعت على الأرض. وعند الكثيرين أن الرفع والوضع لا يعني أن المؤتفكة كانت في السماء، بل يعني أن المؤتفكة رفعت عاليا ثم أهويت مقلوبة. يقول الطبري في تاريخ الرسل والملوك: (حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني ابن إسحاق، قال: حدثني محمد بن كعب القرطبي، قال: حدثت أن الله تعالى بعث جبرئيل إلى المؤتفكة قرية قوم لوط التي كان لوط فيهم، فاحتملها بجناحيه ثم أصعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها).[14]

هنا رفعت المؤتفكة إلى السماء، لكن بصورة مؤقتة، ثم أهوي بها إلى الأرض. أي أن المؤتفكة لم تكن في السماء أصلا. أما لسان العرب فيقول: (وقوله عز وجل: والمؤتفكة أهوى؛ يعني مدائن قوم لوط أي أسقطها فهوت أي سقطت).[15] وهنا لا يتم الحديث عن رفع المؤتفكة، الأمر الذي يوحي أنها كانت في الأعلى في الأصل. لكن الزمخشري في الكشاف يقول لنا إن الضراح، أي البيت المعمور الأصلي، الذي يوجد في السماء، يقع حذاء الكعبة، بحيث لو سقط لسقط عليها، كان في الأصل موجودا على الأرض:

(وقيل: لما هبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات).[١٦] ويزيد ياقوت الحموي في معجم البلدان: (وقيل هي الكعبة رفعها الله وقت الطوفان إلى السماء الدنيا فسميت بذلك لضرحها عن الأرض أي بعدها).[١٧] ويزيد الزمخشري في الكشاف: اختلفوا في البيت المعمور وفي مكانه، فقال قوم: هو البيت الذي بناه آدم أول ما نزل إلى الأرض، فرفع إلى السماء في أيام الطوفان.

هذه الأخبار يمكننا ربما أن تقترح شيئا ما، وهو أن عملية رفع ووضع قد جرت في الزمن الأول، تم فيها رفع المعبد الأصلي إلى السماء، وإسقاط المعبد المضاد، أي ما تمثله أهرام الجيزة، في اعتقادنا، إلى الأرض. أي أن الأعلى أصبح أسفل، والأسفل أصبح أعلى.

طبعا، يجب أن ننتبه إلى أنه بعد أن رفع البيت المعمور إلى السماء، وضع له ظل على الأرض هو الكعبة. وضع حذاءه أي تحته مباشرة على الأرض بحيث، كما يقول ابن الجوزي في تاريخ بيت المقدس، لو وقعت منه أحجار وقعت على الكعبة. وضع هذا المعبد أرضا كان مثل وضع الظل. فالكعبة الجاهلية لا تعاكس البيت المعمور، بل تؤكد وجوده، كما يؤكد الظل أصله. وإذا طبقنا هذا على أهرام الجيزة وحزام الجوزاء يكون الأمر كما يلي: المعبد الأصلي كان على الأرض. لكن بعد الطوفان تم رفعه إلى السماء، وأنزل بالمقابل معبد مضاد، أي- الأهرام على الأرض. أي قلب الأمر كله. فما كان في السماء صار على الأرض، وما كان على الأرض صار في السماء. وهذا ما يؤيد فكرتنا عن أن الأهرام هي حزام سيث منزلا إلى الأرض، أي السماء الشمالية مطروحة بالحجر على الأرض. وفي الآيات القرآنية التي أوردناها أعلاه ما قد يؤيد هذه الفكرة:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.[١٨]

الكون هنا مكون من شجرتين. والحزامان اللذان نتحدث عنهما هما هاتان الشجرتان. أو قل إن حزام الجوزاء هو فروع الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. أما - الأهرام فأصلها في السماء الشمالية، أي في الفضاء، في حين أن فرعها منكفئ على الأرض. إنها شجرة مقلوبة تماما. ما يقوله القرآن ليس على المجاز، بل على الحقيقة الميثولوجية. ثمة شجرتان- معبدان- حزامان. أحد المعبدين ارتفع إلى السماء مع الفيضان، فيما طاح الثاني على الأرض. أو قل ارتفع فرع الأولى إلى السماء، وانكب وجه الثاني على الأرض.

twitter @baghdad_library

أما فيما يخص مدينتي قوم لوط الأساسيتين (سدوم وعمورة) كما وردتا في التوراة، فهما، فيما يبدو، يمثلان مظهري أوزيريس الصيفي والشتوي، لكن في حزام سيث، أي الحزام الشمالي. ويشير اسم سدوم في العبرية إلى التوهج والاحتراق، في حين يشير اسم عمورة إلى الدفن. وهذا يتوافق مع النغمتين: العالية المتوهجة والميتة للكون. وفي العربية فإن البعير (المسدم) هو البعير الهائج، او الممنوع من الضراب. وينقل لنا لسان العرب عن: (الجوهري: والسدم الفحل القطيم الهائج).[١٩] وقد رأينا من قبل أن الجمل الفحل هو حيوان أوزيريس. أما جذر عمر فيعطي معنى الحية. فالعوامر هي الحيات. وهذا ما يشير إلى النغمة الواطئة.

في كل حال، فإن احتمال ارتباط الأهرام بالمؤتفكة ومدائن قوم لوط التي انقلبت أعلاها أسفلها، كما هو الحال مع الأهرام التي قلبت فاصطفت من الشمال إلى الجنوب، بدل أن تصطف من الجنوب إلى الشمال، بحاجة إلى تعميق.

الأهرام المطروحة صفا أفقيا على أهرام الجيزة هي حزام سيث. لكن داخل الهرم الأكبر، أي تصميمه الداخلي، قصة أخرى. فهو آلة كونية عظمى وجبارة.

الآلة الكونية العظمى

يبدو أن عملية المصالحة التي تحدث عنها نص شاباكا، تأخذ شكل إعادة توازن كونية، أو شكل تعديل للموازين الكونية. فكلمة المصالحة تعني الوزن أو الموازنة تماما. أي أن المصالحة هي عملية موازنة، أو لنقل عملية يصنع فيها ميزان جديد من دمج الطرفين المتصارعين، بما يقيم زمنا بدئيا كامل الانسجام، أو بما يعيد إلى زمن بدئي كان في الماضي ثم جرى الانحراف عنه. وهو ما نص عليه المقتبس السابق من حجر شاباكا: (وقد حدث أن القصب والبردي وضعا على البوابة العظيمة المزدوجة لبيت الإله بتاح. وهذا يعني أن حورس وسيث، اللذين تصالحا وتوافقا، أقيمت بينهما الصداقة وانتهى خلافهما في المكان الذي بلغاه، اتحدا في بيت بتاح، «ميزان الأرضين»، الذي وزنت فيه مصر العليا والسفلى...).

فالخصمان، حورس وسيث، اتحدا داخل بيت بتاح، الذي هو ميزان الأرضين! بيت بتاح هو ميزان الأرضين. وهما اتحدا داخل ميزان الأرضين. ويمكن للمرء أن يفترض أن كلا من جور وسيث كان يملك ميزانه الأرضي الخاص. حورس كان يملك ميزانه، أي (حزام الجوزاء)، الذي هو ميزان لطاقة العالم. وسيث كان يملك ميزانه، أي (حزام

الأهرام)، الذي هو ميزان مضاد لطاقة العالم. وفي بيت بتاح دمج الميزانان، كي يخرج منهما ميزان واحد للأرضين، أي للكون كله. أي أنه صار لدينا ميزان واحد للكون بدل الميزانين المتعاكسين. وهذا الميزان هو تأسيس لزمن أول أو عودة إلى زمن أول.

ونعلم من نص شاباكا إلى أن عملية إعادة التوازن والمصالحة كانت تتم في نقطة محددة تدعى أيان (عيان؟) حسب حجر شاباكا. فهناك تم قسمة الأرضين بين حورس وسيث، وتمت المصالحة. وقد توصل روبرت بوفال إلى أن هذه العملية كانت تتم في الهرم الأكبر بطريق التفافي. فاستنادا إلى المنطوقة رقم ١٧ من نصوص الأهرام التي تقول: (حورس ابن أوزيريس وإيزيس... عين حاكما في مكان والده أوزيريس، في اليوم الذي وحدت فيه الأرضان. وهذا يعني أن توحيد الأرضين تم في مدفن أوزيريس).[٢٠]

وبما أن مدفن أوزيريس حسب بوفال موجود في الجيزة، فإن المصالحة تمت هناك: (وبما أننا أوضحنا أن «أرض بيت سقر» هي روستو، أي مقابر الجيزة، فإننا نتوصل، عبر تبديل بسيط للقاموس السماوي-الأرضي، إلى أن موازنة الأرض كانت تتم في الجيزة، وعلى الأغلب قرب أو بداخل الهرم الأكبر، الذي هو البيت «الأصلي» لسقر-أوزيريس).[٢١]

نحن نعتقد أن (سقر) التي تقرأ عادة Sokar على علاقة بسقر القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾.[٢٢] إنها نار الجحيم القرآنية.

وما دامت عملية الموازنة كانت تتم بداخل الهرم الأكبر، فهذا يعني أن الهرم الأكبر وأهرام الجيزة تقع ضمن بين الإله بتاح. ذلك أن المصالحة- الموازنة حدثت داخل بيت بتاح. بل ويمكن اقتراح أن أهرام الجيزة ونجوم الجوزاء، هما معا بيت الإله بتاح، أو هما البوابة العظيمة المزدوجة لهذا البيت. فحزام الجوزاء هو البوابة الجنوبية، والأهرام هي البوابة الشمالية. ومن شبه المؤكد بالنسبة لنا أن الهرم الأكبر هو مركز بيت الإله بتاح، أو صالته الرئيسة الكبرى. وفي داخل هذا الهرم تم الاتحاد الذي تحدث عنه نص شاباكا.

الأهرام، أهرام الجيزة، مقر أوزيريس الميت، لا أوزيريس المنبعث. أوزيريس المنبعث في حزام الجوزاء، أي في البوابة الجنوبية لبيت الإله بتاح. بالتالي، حين يصبح اسم أوزيريس سقر، نكون أمام أوزيريس الميت. لكن أهرام الجيزة تركيب معقد من بتاح-سقر- أوزيريس الناهض المنبعث. أوزيريس المنبعث يقع داخل الهرم الأكبر. بينما يقع أوزيريس الميت في الغرف التحت أرضية في الأهرام.

twitter @baghdad_library

من ناحية أخرى فقد أوضحنا في فصل عن الأحقاف، أي منازل قوم عاد، أن حزام الجوزاء هو منازل هؤلاء القوم. وقلنا إن (الأحقاف) جمع (حقف)، وأن حقف هي اختصار لكلمة (حكفبتاح) أي (بيت بتاح) أو (بيت روح بتاح). أي أن (حقف) تعني (بيت)، إشارة إلى بيت الإله بتاح. كما توصلنا إلى أن (الظبي الحاقف) الشهير في المصادر العربية رمز لبيت الإله بتاح في برج الجوزاء. ولن نعيد تكرار ما قلناه هنا.

على كل حال، فقد حدس روبرت بوفال أن الهرم الأكبر ربما كان الآلة التي تم من خلالها إعادة التوازن إلى الكون، لكنه لم يفهم هذه العملية تماما: (ربما نظر إلى الهرم الأكبر، النظير الأرضي لنجم النطاق، كقطعة توازن أو «أداة» في محاولة ما، غير مفهومة بعد، لإعادة «التوازن» أو النظام الكوني إلى العالم، الذي يعني مات- العدالة، كما كانت في الزمن الأول).[٢٣]

نحن نعتقد بقوة أن الهرم الأكبر بالفعل صنع ليكون بالفعل أداة لتحقيق المصالحة والتوازن الكوني. ليس ذلك فقط، بل نحن نوشك أن نقول إن عملية التوازن والمصالحة الكونية ما زالت معروضة أمامنا، بكل وضوحها، داخل هذا الهرم. أي أن الصراع الذي تحدثنا عنه بين الشمال والجنوب، بين حورس وسيث، بين حزام الجوزاء وحزام الأهرام، قد حل داخل الهرم الأكبر بطريقة معمارية. فلغة الأهرام هي لغة المعمار. وما تحدث لنا عنه حجر شاباكا باللغة، أي النزاع والمصالحة، يعرضه لنا الهرم الأكبر بلغة معمارية.

وفيما يخص (عيان)، فنظن أنها النقطة التي يفترض أن يلتقي فيها الحزام الجنوبي- حزام الجوزاء، مع الحزام الشمالي- حزام الأهرام، أي خط النجوم الثلاثة في السماء مع خط الأهرام الثلاثة على الأرض، كي يظهرا تصادمهما ثم كي يتحدا معا. وهي نقطة ميثولوجية في الأساس، ثم يتم رسمها على الأرض. فقبل الأهرام كانت في منطقة ممفيس. أما بعد بنائها فقد صارت تقع داخل الهرم الأكبر.

وهذان الخطان يذكران بخطي (ابني عيان) في العربية. يقول لنا لسان العرب مختصرا كلام المصادر العربية عن هذين الخطين: (ابنا عيان خطان يخطان في الأرض يزجر بهما الطير، وقيل: هما خطان يخطونهما للعيافة ثم يقول الذي يخطهما: ابني عيان أسرعا البيان، وقال الراعي:

وأصفر عطـاف إذا راح ربـه   جرى ابنا عيان بالشواء المضهب

وإنما سميا ابني عيان لأنهم يعاينون الفوز والطعام بهما، وقيل: ابنا عيان قدحان

معروفان: وقيل: هما طائران يزجر بهما يكونان في خط الأرض، وإذا علم أن القامر يفوز قدحه قيل: جرى ابنا عيان).[٢٤]

خطان مثل خطي الأهرام وحزام الجوزاء، يخطان على الرمل؟ رمل مثل رمل هضبة الجيزة ورمل أحقاف قوم عاد المعوج؟ ربما! وإذا صح هذا، ربما يكون المصريون القدماء قد دعوا أهرام الجيزة وحزام الجوزاء بابني عيان، أي الخطين اللذين يتوحدان في (عيان)!

لكن لنذهب للطواف داخل الهرم الأكبر، داخل ميزان الأرضين. لنذهب إلى هناك كي نفهم ما حدسه بوفال وهانكوك ولم يفهماه، أي كي نجيب عن سؤال بوفال: (لكن لم نظر إلى الهرم الأكبر كـ «أداة» يتم بواسطتها موازنة «الأرضين»- السماء والأرض- في نقطة محددة: عيان- ممفيس؟).[٢٥]

وكي نفهم: (المحاولة غير المفهومة بعد لإعادة التوازن). لنذهب إلى هناك لنرى كيف اتحد حورس وسيث، كيف اندمج الحزامان المتضادان، ليكونا معا ميزان الأرضين. إذ كل حزام منهما ميزان بنفسه. وحين دمجا تكون منهما ميزان واحد: ميزان الأرضين.

الحجرات الثلاث

وفي ذهابنا سنجد أن الهرم الأكبر يحمل في داخله ما هو مثير وغامض: مخطط الحجرات الثلاث في داخله! ففي داخل الهرم الأكبر ثلاث حجرات: عليا تدعى حجرة الملك، ووسطى تدعى حجرة الملكة، وثالثة تحت أرضية.

فأي معنى تحمله هذه الحجرات؟

ولم لا نجد مثلها داخل الهرمين الآخرين؟

والأهم، هل هناك من علاقة ما بين ثلاث حجرات داخل الهرم وثلاثة أهرام على الأرض وثلاثة نجوم في السماء؟ أي هل ينتمي النظام الثلاثي في داخل الهرم الأكبر، أي الحجرات الثلاث، إلى النظام الثلاثي خارجه، أم أن كونه ثلاثيا هو مجرد مصادفة؟

نحن نعتقد أنه ينتمي إليه، وأنه على علاقة به.

فليس ثمة صدف في هندسة الأهرام الثلاثة.

لا يوجد حجرات ثلاث في الهرمين الثاني والثالث؛ لأن الهرم الأكبر هو ميزان الأرضين، وليس غيره. في الهرمين الثاني والثالث توجد حجرة تحت أرضية فقط.

twitter @baghdad_library

والحجرات الثلاث داخل الهرم تنتمي إلى النظام الثلاثي الأشمل، الذي نراه في الأهرام الثلاثة وفي نجوم حزام الجوزاء الثلاثة. الدليل على ذلك أن الكوى الأربع في الهرم الأكبر ترتبط بنجوم محددة في السماوين الشمالية والجنوبية. فالكوة الجنوبية للحجرة العليا، حجرة الملك، كانت تربط نفسها وقت بناء الأهرام بواحد من نجوم أوريون، وهو نجم النطاق، مثلا. وهذا يعني أن ثمة رابطا مؤكدا بين تصميم داخل الهرم وحزام الجوزاء. في حين أن الكوة الشمالية تربط نفسها بنجم الثعبان في شمال السماء، وهكذا..

نحن نعتقد أن الحجرات الثلاث هي الميزان الذي نشأ من دمج ميزان حزام الجوزاء وميزان حزام بنات نعش الشمالية، أي الأهرام الثلاثة، أي نشأ من دمج حزامي حورس وسيث، أو أوزيريس الميت بأوزيريس المنبعث.

لقد أدمجا ببعضهما فتكون ميزان جديد مختلف عن الميزانين هو (ميزان الأرضين). من أجل هذا الواقع بالذات دعي الهرم الأكبر باسم: ميزان الأرضين. فبهذا الميزان داخل الهرم تمت استعادة التوازن والمصالحة بين شمال السماء وجنوبها، بين سيث وحورس، بين الموت والانبعاث. لذا فهو ميزان مربوط بالشمال والجنوب معا. أما ميزان سيث، أي الأهرام الثلاثة، فمرتبط بشمال السماء، في حين أن ميزان حورس موجود في جنوب السماء.

لكن السؤال المركزي هنا هو: إذا كان النظام الثلاثي داخل الهرم الأكبر، أي الحجرات الثلاث، على علاقة بالنظام الثلاثي خارجه، فلم لا يتشابه وضع الحجرات الثلاث تشابها تاما مع وضع نجوم حزام أوريون الثلاثة، ووضع أهرام الجيزة الثلاثة؟ إننا نرى حجرات ثلاث، مثلها مثل النجوم الثلاثة والأهرام الثلاثة، لكن ترتيبها لا يتوافق تماما مع ترتيب الأنجم والأهرامات. إنها مثلها من ناحية، لكنها تختلف عنها من ناحية ثانية. فالحجرات تصطف من حيث القرب والبعد عن بعضها مثل اصطفاف الأهرام الثلاثة والنجوم الثلاثة: حجرتان قريبتان من بعضهما، أي حجرة الملك وحجرة الملكة، ثم حجرة أبعد. وهكذا الأهرام: هرمان متقاربان، ثم هرم ثالث أبعد عنهما. وهكذا هي نجوم الحزام أيضا. فالعنصر الثالث أصغر، وبعيد عن شقيقيه، دوما.

لكن التطابق لا يكتمل. إذ ثمة أربعة اختلافات يمكن رؤيتها بين التصميم الثلاثي في داخل الهرم، وبين التصميم ذاته في الأهرام والنجوم:

١ : إزاحة العنصر الأول، أي حجرة الملك، عن موقعه الذي نراه في النجوم والأهرام. فحجرة الملك أبعدت جنوبا، ولم تعد على خط واحد مع حجرة الملكة. أي أن العنصر الأول في الحجرات الثلاث لم يعد يأخذ وضع العنصر الأول في الأهرام وفي نجوم الحزام. فالهرم الأكبر والأوسط يقعان على خط واحد. كما أن نجمي النطاق والنيلام يقعان أيضا على خط واحد. حجرة الملك أبعدت لتبتعد عن محور حجرة الملكة، ودفعت جنوبا، في حين ظلت حجرة تتموضع على الخط النازل من رأس مثلث الهرم إلى قاعدته.

وقد كاد بوفال وهانكوك أن يحلا هذا الموضوع بالذات. فقد أدركا، بغموض، أن حجرة الملك تبدو وكأنها أزيحت من مكانها: (ثمة ما يثير الفضول حول وضع الحجرتين اللتين تنطلق منهما الكوى. فحجرة الملكة على محور مركز الهرم. لكن، من جهة أخرى، فإن حجرة الملك أزيحت بشكل ما إلى جنوب المحور، كما لو أن «كفة» ميزان ضخم أزيحت لليسار من أجل تحقيق «التوازن»).[٢٦]

لكنهما لم يفهما سبب هذه الإزاحة. فهما لم يربطا تصميم الهرم الداخلي بالنظام الثلاثي خارجه. وسوف نرى، بالفعل، أن الإزاحة قد حصلت لتحقيق توازن جديد ما.

٢: جرى تعديل محدد على حجم غرفة الملكة، أي على حجم العنصر الثاني في التصميم الداخلي للهرم. فحجم هذا العنصر صار أضأل مقارنة بحجم العنصر الأول في الأهرام وفي الحزام. فالهرم الثاني قريب في الحجم من الهرم الأكبر، لكنه من حيث العلو يبدو للعين أعلى من الهرم الأول لأنه مقام على أرض أكثر ارتفاعا (إضافة إلى أن الهرم الأكبر فقد جزءا من كسوته الجيرية التي ظل جزء منها في قمة الهرم الثاني فزاده طولا)، كما أن النجم الثاني في نجوم الحزام أضوأ من النجم الأول. أي أن العنصر الثاني يبدو أكثر تميزا من العنصر الأول (سواء في الطول كما يتراءى للعين، أو في شدة الإضاءة) في الأهرام والنجوم. أي يبدو وكأنه ينافسه على الأولية. لكنه يتخلى عن هذه الميزة في التصميم الثلاثي داخل الهرم. فالعنصر الثاني أصغر، أي حجرة الملكة، بوضوح من العنصر الأول. لقد ضغط ولم يعد ينافس العنصر الأول من حيث الحجم.

٣: تم قلب الوضع إذا ما قارنا وضع الغرف الثلاث بنجوم حزام الجوزاء. فنجم النطاق هو النجم الأسفل، أي الأدنى إلى الأرض في صف النجوم الثلاثة. فمنذ طلوع نجوم الحزام في الأفق الشرقي يتدلى نجم النطاق إلى الأسفل في حين يرتفع نجم المنطقة إلى الأعلى. وحتى حين يبلغ الحزام سمته، أي أعلى نقطة له في السماء، وينطرح أفقيا تقريبا، يظل نجم أدنى إلى الأرض من النجمين الآخرين. قلب هذا الوضع في الحزام.

twitter @baghdad_library

فحجرة الملك، نظير نجم النطاق، صارت في الأعلى، في حين صارت الغرفة التحت أرضية، نظير نجم المنطقة، في الأسفل.

لقد قلب الوضع رأسا على عقب. الأسفل صار أعلى، والعكس. أما فيما يخص الأهرام فقد كان من المستحيل إظهار الأدنى والأعلى فيها وهي مطروحة على الأرض. لكن بما أن أرض مصر تنحدر من الجنوب إلى الشمال، فإن الهرم الأكبر يكون هو المنحدر، فهو يقف أول الصف من الشمال. أي أنه الأوطأ والأخفض بين الأهرام الثلاثة.

٤: تحويل الوضع الأفقي إلى وضع عمودي. فالأهرام منطرحة أفقيا على الأرض، كما أن نجوم الحزام تنطرح في سمتها أفقيا من الجنوب للشمال، في حين حجرات الهرم الثلاثة تنطرح عموديا. لقد انتقلنا من الأفقي إلى العمودي.

وهكذا قدم لنا تصميم الهرم الداخلي تعديلات على النظام الثلاثي في الخارج، أي على وضع نجوم الحزام، وعلى صف الأهرام الثلاثة.

هذا أكيد تماما، ونراه أمام أعيننا. ومن لا يستطيع أن يراه ولن يتمكن من فهم الآلة الكونية الجبارة التي تدعى الهرم الأكبر. يجب أن نرى الاختلاف بين الحجرات الثلاث من جهة، وبين الأهرام الثلاثة ونجوم حزام الجوزاء من جهة ثانية. فعلى رؤية هذا الاختلاف يتوقف فهمنا لهذه الآلة الجبارة، وفهمنا للديانة المصرية القديمة، بل ولكل أديان المنطقة العربية.

لكن لم يحدث ذلك؟ وما معناه؟

هذا هو السؤال الذي ينبغي أن نجيب عنه.

الأطروحة الثالثة

جوابنا هو أن حجرات الهرم الأكبر هي، فيما يبدو، ميزان. فإذا كان حزام الجوزاء والأهرام ميزانين كونيين متعاكسين، وهما كذلك، فإن حزام أوريون هو ميزان للعالم، ميزان للطاقة الكونية، لكن من وجهة نظر حورس، أما الأهرام الثلاثة فهي الميزان ذاته من وجهة نظر سيث. إذن، إذا كان الأمر كذلك، وكان تصميم حجرات الهرم الأكبر يُبنى على أساس هذين الميزانين ويغيرهما، فإن هذا يدفعنا إلى افتراض أن من صمموا حجرات الهرم الأكبر أرادوا بناء ميزان مختلف عن الميزان ومخالف لهما. ميزان أكثر ثباتا وعدالة ربما. إنهم بمعنى ما يصححون الميزانين. وهذا يعني أن المصريين القدماء

كانوا، ربما، يعتقدون بوجود اختلالات في الميزان الكوني الذي يختصر صورته حزاما أوريون والأهرام. وما دام الحزامان يملكان التصميم ذاته، لكن مطروحا بالعكس، فإننا نستطيع أن نتحدث عنهما كما لو أنهما حزام واحد، أي كما لو أننا نتحدث عن حزام الجوزاء- أوريون. ثمة اختلالات في هذا الميزان لا بد من تصحيحها، حتى يعتدل الكون. هكذا افترض بناة الأهرام فيما يبدو لنا من خلال طرحهم للتصميم الداخلي للهرم الأكبر. لكن ربما أنهم أرادوا العودة إلى ميزان كوني أكثر عدالة كان في زمن أول، وأن الميزانين السابقين انحرفا عنه. أي أن مقصدهم كان أن يعيدوا الوضع إلى ما كان عليه في الزمن الأول. وهذا ما قد يفترض أن تصميم حجرات الهرم الأكبر على علاقة بالزمن الأول.

والخطوة الأولى من أجل بناء ميزان جديد، هي أن يطرحوا الصراع بكل وضوحه. أي أن يطرحوا الحزامين في مواجهة بعضهما، أي أن يطرحوا القصب أمام البردي، حورس أمام سيث، الأهرام الثلاثة أمام نجوم حزام الجوزاء وفي مقابلها. وقد فعلوا ذلك عمدا وعن قصد، كي يظهروا أن كل حزام يعارض الآخر ويخرب عليه ويبطل مفعوله. وبلغة هيغلية: ثمة أطروحة في مواجهة أطروحة، أطروحة السماء الشمالية في مواجهة أطروحة السماء الجنوبية، أطروحة (سقر)، أي الجحيم، في مواجهة أطروحة الجنة. أطروحة ضد أطروحة. أما الأطروحة التي تنشأ عن دمج هاتين الأطروحتين وتجاوزهما، أي أطروحة التركيب، فموجودة في داخل الهرم الأكبر. الأطروحة الثالثة التي تتجاوز الأطروحتين موجودة داخل الهرم الأكبر، وفي تصميم حجراته الثلاث. من أجل هذا فهمنا نص حجر شاباكا عن (ميزان الأرضين) على أنه يعني الهرم الأكبر بالذات. فالهرم الأكبر، بتصميمه الداخلي، هو ميزان الأرضين الحقيقي.

وكل اختلاف بين التصميم الداخلي لحجرات الهرم وبين حزام الجوزاء أو الأهرام الثلاثة هو إشارة إلى تعديل أجراه المصريون القدماء في النظام الثلاثي، وتعديل لهذا الخلل بالملموس، في الآن ذاته.

لذا فنبدأ بعرض الاختلافات، وتفسيرها، واحدا واحدا. وقد كان من المفترض أن نبدأ بالتغيير الأول: أي إزاحة العنصر الأول، غرفة الملك، عن محورها المشترك مع العنصر الثاني، غرفة الملكة. لكن بسبب التعقيد البالغ لهذه النقطة، فقد ارتأينا أن نؤجلها إلى وقت لاحق، وأن نبدأ بالتغيير الثاني: وهو تقليص حجم العنصر الثاني، أي حجرة الملكة، مقارنة بالوضع في نجوم الحزام والأهرام.

twitter @baghdad_library

الهرم الأوسط هو الأعلى، فلماذا؟

نحن نعلم أن الهرم الأول هو الأضخم، كمنشأة، بين الأهرام الثلاثة. أما ارتفاعه فيبلغ ٤ , ٤٨١ قدما، في حين أن ارتفاع الهرم الثاني يقدر بـــ٤٧١ قدما. لكننا نعلم أيضا أن الهرم الثاني يبدو للعين أطول حين ننظر إليه، وذلك لعدة أسباب:

أولا: أنه أقيم على قاعدة صخرية أعلى من القاعدة التي أقيم عليها الهرم الأكبر.

ثانيا: أن درجة انحدار سفحه أحدّ من درجة انحدار الهرم الأكبر، الأمر الذي يجعله يبدو أطول من شقيقه.

ثالثا: ويزيد من الإحساس بأنه أطول من الهرم الأكبر أن الهرم الأكبر فقد طبقة الجير التي تكسو حجارته، في حين احتفظ الثاني بجزء منها على قمته مما منحه عدة أقدام زائدة مقارنة بالأول.

بذا نحن أمام وضع أصلي (يبدو) فيه الهرم الثاني أطول من الهرم الأكبر. فهل هذا مجرد مصادفة، أم أن بناة الأهرام كانوا يعون ذلك ويقصدونه؟

فيما يخص تصميم الأهرامات، علينا ألّا نلجأ إلى الصدفة لتفسير أي شيء رئيس. لا توجد صدف هنا. هنا خطة ميثولوجية تطرح بالحجر. يعني خطة معروفة مسبقا من المفترض على المعمار أن ينفذها. الميثولوجيا تقود المعمار، وتحدد له طريقه. وهذا يعني أن السؤال عن المعنى هنا ضروري حاسم. وهذا يوصل إلى أننا نعتقد، بقوة، أن بناة الأهرام كانوا يقصدون أن يظهر الهرم الثاني أكثر ارتفاعا من الأول، وأنهم اختاروا عمدا البقعة الأكثر ارتفاعا كي يقيموه عليها بحيث (يبدو) أكثر ارتفاعا من الأول. كما أنهم اختاروا درجة الانحدار الحادة كي يصير إحساس العين بارتفاعه عن شقيقه أكثر وضوحا.

وقد تساءل بعض الباحثين عن سبب ترك مهندسي الهرم الأكبر للبقعة الأعلى والأكثر مركزية في هضبة الأهرام كي يقام عليها الهرم الثاني. كان هذا غير مفهوم لهم. فإذا أردت ان تبني منشأة هائلة لا أحد يشكك بجلالها، فقد كان عليك أن تقيمها فوق المكان الذي أقيم فيه الهرم الثاني. لكن بناة الأهرام لم يفعلوا ذلك. لقد تركوا البقعة الأعلى للهرم الثاني. ولم يكن هذا غباء معماريا. كان هذا استجابة لأمر ميثولوجي ديني قاهر. فقد تركوا البقعة المركزية عمدا للهرم الثاني، كي يعكسوا تصميم نجوم الحزام. والأهرام كما قلنا حزام جوزاء مضاد، أي أنه يأخذ تصميم حزام الجوزاء تماما، لكنه يعاكسه من

حيث انطراحه في الشمال، واصطفافه من الشمال إلى الجنوب. وفي حزام الجوزاء فإن النجم الثاني، أي النيلام، أضوأ من النجم الأول، أي النطاق؛ لذا فعلى الأهرام أن تعكس هذه الحقيقة، بحيث يبدو الهرم الثاني أعلى من الهرم الأول. أي أن شدة الإضاءة تتمثل، هنا، بالطول الظاهر، بالعلو. لذا فالهرم الثاني (يبدو) أعلى من الهرم الأول، مثلما أن النجم الثاني أعلى إضاءة من الأول رغم كونه ثانيا في الصف. وهذا يعني أن تصميم الأهرام الثلاثة كان معروفا منذ البدء. قبل بناء الهرم الأكبر. أي أنه كان مشروعا معدا منذ وقت طويل قبل الشروع في بناء مجمع الأهرام.

ولعل هذا التوضيح يبطل نقدا محددا يوجه لفرضية بوفال القائلة بأن الأهرام هي نجوم حزام أوريون مطروحة معماريا. يقول هذا النقد ما يلي:

(إذا كانت أهرام الجيزة تقصد أن تمثل نجوم حزام أوريون، فعلينا أن نتوقع أن يكون لحجم كل هرم علاقة ما بقوة إضاءة كل نجم. وبشكل محدد، فإن الحجم يجب أن ينعكس في قوة الإضاءة. لكن، على أي حال، يبدو غريبا أن النجم الأشد إضاءة لا يتمثل بالهرم الأضخم).[٢٧]

النقد هنا يقول: إذا كانت الأهرام تمثل فعلا نجوم الحزام، فيجب أن يكون الهرم الثاني هو الأضخم؛ لأن النجم الثاني، أي النيلام، هو الأشد إضاءة. لكننا لا نجد هذا. فالهرم الثاني، نظير النجم الثاني، ليس هو الأضخم. لقد كان من المفترض أن يكون هذا الهرم هو الأضخم. وعليه فالمشابهة بين الأهرام والنجوم باطلة من الأساس.

وقد أجبنا عن هذا النقد أعلاه. فالهرم الثاني يبدو للعين أطول من الهرم الأكبر، كي يعكس حقيقة أن النجم الثاني أضوأ من الأول. أي أن شدة الإضاءة انعكست في الأهرام بالطول لا بالضخامة. ولأن الهرم الثاني (يبدو) أطول من الأول، لكنه ليس الأطول فعليا، فإن من المنطقي أن نفترض أن بناة الأهرام رأوا أن النجم الثاني، نجم النيلام، ليس هو الأضوأ، بل إنه (يبدو) كأنه الأضوأ. أي أنه انطلاقا من أمر ديني لا يجب أن يكون الأضوأ، رغم أنه يتظاهر بذلك. إنه (يبدو) الأول في الإضاءة، في حين أنه (في الحقيقة) ليس كذلك. وإذا كان قادرا على التظاهر بأنه الأضوأ فهذا يعني أن ثمة خللا ما جعله (يبدو) الأضوأ. وعلى غراره (يبدو) الهرم الثاني أطول من الهرم الأول، أي يتظاهر بأنه الأطول، رغم أن الهرم الأكبر (في الحقيقة) أضخم وأطول.

ولو كان بوفال رأى أن نجم النيلام يمثل إيزيس داخل الحزام لسهلت عليه الإجابة عن هذا النقد. فنجمة الشعرى- إيزيس، في موقعها خارج حزام الجوزاء، أشد إضاءة من

twitter @baghdad_library

نجم سهيل- أوزيريس في السماء، رغم أن أوزيريس هو الأول كملك. وهي لذا تتبدى في موقعها في وسط حزام الجوزاء أضوأ من نجم النطاق- سهيل اليماني- أوزيريس الفياض. لكن بوفال لم يستطع أن يفهم هذا، لأنه اعتقد أن إيزيس لا يمكن أن تكون في مكانين في السماء في وقت واحد: أي في نجمة الشعرى، ونجمة النيلام. كما أنه اعتقد أن كل نجوم حزام الجوزاء هي أوزيريس. أي أنه لم يفهم كيف أن حزام الجوزاء هو ميزان الطاقة الكوني، أو هو تخطيط للطاقة الكونية. أي أنه مكون من المبدأين المذكر والمونث. حيت يمثل نجما النطاق والمنطقة أوزيريس في نغمتيه العالية والواطئة، الصيفية والشتوية، في حين يمثل نجم النيلام إيزيس التي لها مظهر واحد ثابت فقط. وكذلك الأمر مع الأهرام، وإن كانت الصورة معاكسة، أو سلبية.

لذا فليس غريبا أن يكون النجم الثاني أول من حيث الإضاءة. فهو يمثل إيزيس. وهنا تكمن المشكلة: فالأول في الصف، والأول في القيمة الاجتماعية والدينية، أي أوزيريس، هو الثاني إضاءة. وقد عمل تصميم الهرم الأكبر الداخلي على تصحيح هذا الخطأ عن طريق تصغير الحجرة الوسطى، حجرة الملكة، بحيث تكون أصغر من حجرة الملك، بوضوح شديد. لم تعد هذه الحجرة، التي تمثل إيزيس، (تبدو) وكأنها أكبر من حجرة الملك. لقد صار الثاني في الصف ثانيا بكل تأكيد ووضوح. الأول هو الأول، والثاني هو الثاني، ولا مجال للتشوش حول هذا الوضع.

وعليه، فالهرم الأكبر من هذه الناحية ميزان اجتماعي، يحدد للذكر والأنثى موقعهما. صحيح أن خط الملوكية يأتي عبر الأنثى، لكن حين يعتلي الملك العرش فهو الأول، ولا مجال لمنازعته على هذا.

ليليث زوجة آدم

ويمكن رؤية الصراع الميثولوجي بين الأول والثاني على المكان الأول في قصة ليليث زوجة آدم الأولى في الأدب التلموذي. وأحسن من يعرض لنا هذا الصراع هو كتاب رابي تلمودي، يدعى (كتاب بن سيرا) Alphabet of Ben Sira من العصور الوسطى. إذ يقدر أنه كتب في فترة تقع ما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادي. يقول نص (بن سيرا) الهام:

(وبعد أن خلق الله آدم، وكان وحيدا، قال: إنه ليس حسنا أن يكون الرجل وحده... ثم خلق امرأة لأدم من الطين، كما خلق آدم نفسه، وسماها: ليليث. وابتدأ آدم وليليث

بالشجار. قالت: أنا لن أستلقي تحتك. فقال هو: أنا لن أستلقي تحتك، بل فوقك فقط. فردت ليليث: نحن سواء لأننا خلقنا من الطين. ولم يستمعا لبعضهما بعضا. وعندما رأت ليليث ذلك، نطقت بالاسم الذي لا ينطق وطارت في الهواء. أما آدم فوقف يصلي أمام خالقه. قال: يا إله الكون، المرأة التي أعطيتني هربت. وعلى الفور، فإن الواحد المقدس، ليتبارك، أرسل ثلاثة رسل لإعادتها.

وقال الواحد المقدس لآدم: إذا وافقت على العودة كان به، وإن لم توافق فسوف تقبل أن يموت مئة طفل من أطفالها كل يوم. وغادر الملائكة الإله وذهبوا إلى ليليث، حيث أمسكوا بها في وسط البحر، في المياه الجبارة، حيث قدر للمصريين أن يغرقوا، وأخبروها بكلمات الله. لكنها رفضت العودة. فقالت الملائكة: سوف نغرقك في البحر.

فقالت: اتركوني. لقد خلقت من أجل أن أسبب المرض للأطفال. فإذا كان الطفل ذكرا فإن لدي عليه سلطة لثمانية أيام. وإن كانت أنثى فلعشرين يوما.

وعندما سمع الملائكة كلمات ليليث، فقد أصروا على عودتها. لكنها أقسمت لهم باسم الإله الحي الأزلي قائلة: عندما أرى أسماءكم أو أشكالكم على التعويذة «القلادة» فسوف لن يكون لي سلطة على الأطفال. كذلك فقد وافقت على أن يموت مئة طفل من أطفالها كل يوم. لذا يموت مئة عفريت كل يوم. ولذا نكتب أسماء الملائكة على تعويذة الأطفال الصغار. وعندما ترى ليليث أسماءهم تتذكر قسمها، ويشفى الأطفال).[٢٨]

ليليث هذه هي ذاتها ليليث شجرة إنانا، أي أنها العنصر الأوسط في المعادلة، لكن في شجرة الخلاف لا في شجرة الوفاق. وهي هنا تتعارك مع آدم، الذي يشبه أوزيريس، على الموقع الأول، أي على من يكون الأعلى. فهي ترى نفسها مثل النجم الثاني (أشد النجوم إضاءة لأنها النجم الثاني في الحزام. كما أنها الهرم الثاني الذي يبدو للعين وكأنه أطول من الهرم الأكبر. عليه، فهي لن ترضى أن تتخذ وضعا جنسيا دونيا. يجب أن تكون الأعلى دوما.

هذا الصراع حسم في تصميم الهرم الأكبر. فالأول والأعلى، هو أوزيرس، أي الحجرة الأعلى داخل الهرم الأكبر. أما الحجرة الثانية، أي إيزيس، فقد صارت ثانية بوضوح. هي بعد الآن لن (تبدو) للعين أكبر من الأولى. لقد ألغي الوضع الشاذ في تصميم الأهرام الثلاثة، وفي تصميم نجوم حزام الجوزاء الثلاثة. الأول هو الرجل، والثاني هو المرأة. انتهى الأمر. ثم نقطة، وبعدها سطر جديد.

وهذا يعني أن الهرم الأكبر ميزان للضبط الاجتماعي وليس الكوني فقط.

twitter @baghdad_library

وعليه، فقد تم دمج ميزان حزام الجوزاء وميزان الأهرام، للخروج بصيغة تتخطاهما، صيغة ذات بعد اجتماعي وكوني. ومن يشك أن هذه الأحزمة أو الثواليت تعتبر موازين اجتماعية فليتذكر قاعدة الوراثة في الإسلام: (للذكر مثل حظ الأنثيين). ومن لديه شكل في هذا فيأخذ هذا النص من العصامي في سمط النجوم العوالي: (فسبقت حواء إلى الشجرة، فتناولت منها خمس حبات، فأكلت واحدة وخبأت واحدة وأعطت آدم ثلاث حبات، فأعطى حواء منها واحدة وأمسك حبتين).[٢٩] آدم يحصل على ثلاث حبات، فيحتفظ لنفسه باثنتين، ويعطي لحواء واحدة. للذكر ضعف الأنثى. للأنثى نصف الرجل، أي (للذكر مثل حظ الأنثيين).

هذه القاعدة ذات أصل كوسمولوجي. ففي حزام الجوزاء ثم نجمان لأوزيريس ونجم واحد لإيزيس. وفي الأهرام، التي هي حزام شمالي مضاد، ثمة هرمان لأوزيريس، السلبي، الميت، هما الهرم الأكبر والأصغر، وهرم واحد لإيزيس السلبية-ليليث، أي إيزيس، أو إيزيس شجرة الخلاف.

أوزيريس ينهض واقفا

وعليه، فقد أزيح العنصر الأول عن محوره المشترك مع الثاني- وسوف نحاول لاحقا أن نتكهن بالسبب الذي جعل المصريين يرون خللا في وقوع الأول والثاني على محور واحد. ثم تم صحيح الخلل الثاني، الذي جعل الثاني يبدو أولا، عبر تصغير العنصر الثاني نسبة إلى العنصر الأول.

نصل الآن إلى التعديل الثالث، الذي هو في حقيقة الأمر تعديلان معا. إنه طرح الحجرات الثلاث عموديا داخل الهرم الأكبر، وجعل حجرة الملك هي العليا. ماذا يعني هذا بالضبط؟ هل مجرد أمر عادي، أم أنه تعديل يحمل معنى ميثولوجيًا؟ نقصد لماذا كان على مهندسي الأهرام أن يطرحوا الحجرات الثلاث عموديًا؟ لقد كان بإمكانهم أن يطرحوها أفقيا، كما هو الحال مع نجوم حزام الجوزاء، وأن يجعلوا الحجرة العليا جنوبية والحجرة السفلى شمالية؛ كي تتشابه مع نجوم حزام الجوزاء. لكنهم لم يفعلوا ذلك بل طرحوا الحجرات عموديا، وجعلوا حجرة الملك في الأعلى، وهو ما يخالف، مرة أخرى، الوضع في حزام الجوزاء.

فنجم النطاق، الذي هو النغمة العالية لأوزيريس، يبدو أوطأ من النجمين الآخرين دوما. إنه حتى عندما يصل الحزام إلى سمته يظل هو الأدنى، أي الأقرب إلى الأرض

من نجم المنطقة. وعليه، (فالأعلى) اجتماعيا وروحيا هو (الأدنى) من الأرض. أي أن أوزيريس يبدو مقلوبا تماما، أي واقفا على رأسه في نجوم حزام الجوزاء. فرأسه، أي نجم النطاق، يقع في الأسفل، في حين أن رجليه، أي نجم المنطقة، يقع في الأعلى.

أيكون هذا هو الذي أدى إلى طرح الحجرات الثلاث عموديا؟ أيكون ترتيب الحجرات عموديا توضيحا لفكرة التراتب بين نغمات الكون ممثلة بالحجرات؟ ثم، أيكون رفع حجرة الملك، نظير نجم النطاق، إلى الأعلى، وإنزال نجمة المنطقة إلى الأسفل تصحيحا للأمور وإعادتها إلى نصابها المفترض؟ أيكون هذا (قيامة) لأوزيريس على ساقيه، كما (قام المسيح) تماما؟

هذا احتمال قائم وجدي، ونحن أميل إليه، لكننا لا نستطيع أن نؤكده. ويؤيد هذا الاحتمال أن النصوص المصرية لا تكف عن تذكيرنا بأن أوزيريس المنطرح على جنبه، أي المنطرح أفقيا، هو أوزيريس الميت، وأن إيقافه على رجليه مهمة دينية عظيمة. يقول نص من بردية آني:

(لتتمجد، أنت يا من يجعل الأرواح نقية كي تدخل إلى بيت أوزيريس. {اجعل} الكاتب آني، ذي الكلمات الصادقة، يدخل معك إلى بيت أوزيريس. دعه يسمع كما تسمع. دعه يرى كما ترى. دعه يقف كي يجلس على عرشه كما تجلس أنت).[٣٠]

ثمة هنا بيت خاص لأوزيريس يجلس فيه على عرشه. ويريد الكاتب آني أن يدخل إليه ويقف كي يجلس على كرسيه كما يقف أوزيريس ويجلس على كرسيه. جلوس أوزيريس على عرشه لا يمكن أن يحدث وهو منطرح على الأرض. لا بد من وقوفه عموديا حتى يجلس على عرشه. لذا يقول آني عن نفسه: (دعه يقف كي يجلس على عرشه كما تجلس أنت). الوقوف مسألة مرتبطة بالجلوس على العرش وتسلم المهام. ولدينا الكثير من النصوص التي تتحدث عن وجود أوزيريس منطرحا، قبل أن يتم رفعه وإيقافه. فهذا نص آخر يتحدث لإيزيس: (أنت يا سلم السماء أتيت لتبحثي عن أخيك أوزيريس، لأن أخاه سيث طرحه على جانبه).[٣١] طرح سيث أوزيريس على جانبه. لكن إيزيس ونفتيس تأتيان لإنهاضه كما يقول نص آخر: («لقد رأيت»، قالت إيزيس. «لقد وجدت» قالت نفتيس، فهما قد أبصرا أوزيريس مطروحا على جانبه فوق الضفة... انهض... يا أخي، فقد رأيتك).[٣٢]

أوزيريس مطروح على الأرض، وإيزيس ونفتيس يقولان له: انهض، قف، ارتفع.

وثَم نص ثالث يرفع فيه حورس وتحوت أوزيريس من رقدته: (جاء حورس، ظهر تحوت... أنهضا أوزيريس من رقدته على جانبه وجعلاه يقف... السماء أعطيت لك،

twitter @baghdad_library

الأرض أعطيت لك).[٣٣]

هذه النصوص ترينا، بلا لبس، كيف يرفع أوزيريس المطروح على جانبه، أي الميت، ليأخذ شكلا عموديا. وهو حين ينهض من رقدته هذه ويقف على رجليه تعطى له الأرض والسماء معا، كما يقول النص. أي يجلس على عرشه في مملكة العالم الآخر.

الانطراح على الجانب هو كلمة السر في الديانة الأوزيريسية. ذلك أن: (مقتل أوزيريس قد يشار إليه بالقول إن سيث «طرحه على جانبه». وفي المقابر الملكية تظهر المشاهد المصورة الإله حورس... يرفع عمود جد كي يساعد والده أوزيريس على النهوض من الموت).[٣٤]

لكن كلمة السر الثانية في الديانة المصرية تتعلق بالنهوض أي بالانتقال من الوضع الأفقي، من السقوط، إلى الوضع العمودي؛ لذا فالنصوص التي قرأناها ما تنفك تحث أوزيريس بالقول: انهض، انهض. النهوض من السقوط هو مقصد الديانة المصرية القديمة. وقد أنهض تصميم الداخلي للهرم أوزيريس على قدميه.

إذن، ألا يحق لنا أن نرى أن طرح الحجرات الثلاث عموديا في الهرم الأكبر هو إيقاف لأوزيريس على قدميه، هو قيامة له من الموت؟ إن صح هذا يكون الهرم الأكبر هو بيت أوزيريس. والكاتب آني يريد أن يدخل إليه، وأن يرتفع ليجلس على عرشه فيه، أن يقوم كما قام أوزيريس على قدميه. يريد أن ينهض ويستوي على عرشه، كما حصل مع أوزيريس. والاستواء على العرش هو إعادة التوازن إلى العالم. أوزيريس بقيامه يسيطر على العالم ويصحح خلله من جديد.

الهرم الأكبر، إذن، هو (بيت أوزيريس)، لكنه في الوقت ذاته هو مدخل (بيت بتاح) خالق الآلهة، أو قل الصالة المركزية في بيت بتاح. ذلك أن بيت الإله بتاح موجود في السماء وفي الأرض. من أجل هذا فله بوابة مزدوجة: واحدة شمالية عند أهرام الجيزة، وواحدة جنوبية، تقع في برج الجوزاء، أي حزام الجوزاء. وثم في نص شاباكا ما يؤيد أن أوزيريس يقيم في بيت بتاح هذا: (وهكذا فقد وجد أوزيريس في الأرض في «بيت الملك» في الجانب الشمالي من الأرض، الذي وصل إليه).[٣٥] بيت الملك هنا يبدو كما لو أنه بيت بتاح في شمال مصر. بيت بتاح هذا بمدخلين؛ واحد على الأرض، وهو الهرام، والثاني، في السماء وهو حزام الجوزاء. بتاح هو تركيب المتناقضين في داخله، احتواء لهما. لذا فهو السلام المطلق. أما أنوبيس، أي أبو الهول كما سنرى في فصل آخر، فهو الوحيد الذي يتجول بين البوابتين الشمالية والجنوبية، فهو حارس جبانة الأهرام، وهو المسؤول عن تحنيط جسد الملك الميت وإرساله إلى برج الجوزاء كي يتم الانبعاث.

وهو يأخذ اسم حير- مانوبيس في وقت متأخر:

(هذا الإله المزدوج تم تمثيله على هيئة رجل برأس ابن آوى. ومن المستحيل تمييزه بصورته هذه عن الإلهين ابن آوى انبو وأنوبيس، اللذين يمثلان شكلين لنفس الإله، حيث كان أنبو «فاتح طريق الجنوب قوة الأرضين» وأبوات «فاتح طريق الشمال قوة السماء).(٣٦)

فاتح طريق الشمال هو أبو الهول الذي يقف أمام الأهرام، أي البوابة الشمالية، وفاتح طريق الجنوب هو مثيله في برج الجوزاء.

أما لوكيوس أبوليوس في الفصل الأخير من (الحمار الذهبي) وفي سياق وصفه للاحتفال السنوي للإلهة إيزيس، فيحدثنا عن أنوبيس، الذي يتقدم أمه البقرة-إيزيس، باعتباره جوالا بين الأرض والسماء بلونيه الأسود والذهبي: (وظهر الآلهة بعد ذلك بقليل وقد تكرموا بالمشي على الأرجل البشرية {عبر ممثليهم البشريين في الاحتفال}. فها هو الرحالة بين العالم العلوي والعالم السفلي بوجهه السامي، الذي يتعاقب عليه اللونان الأسود والذهبي، وبرأسه الكلبي المرفوع، أنوبيس «ابن أوزيريس» وقد مسك بيسراه عصا المنادي وبيمناه منشة من السعف الأخضر. وتبعته مباشرة بقرة منتصبة القامة، تمثل خصوبة الإلهة باعتبارها أما للجميع).(٣٧)

العالم السفلي هو عالم الموت، أي مقابر الجيزة، والعالم العلوي هو عالم حزام الجوزاء. أي أنه يتنقل بين بوابتي الشمال والجنوب. ونحن نظن أن أنوبيس- أبو الهول يتمثل في السماء بأوريون نيبولا Orion Nebula أسفل نجوم حزام الجوزاء. فهو يتخذ موقعه أسفل نجوم الحزام كما يتخذ أبو الهول موقعه قرب الأهرام. ويخبرنا الفلكيون الآن أنه ليس نجما واحدا في الحقيقة بل هو غيمة سديمية.

وعليه، فقد كان روبرت بوفال واهما جدا، حين أخذنا في رحلة من الحسابات الكمبيوترية كي يقول لنا إن الزمن الأول (زب تيبي)، هو زمن كان في عام ١٠,٥٠٠ قبل الميلاد. أي الوقت الذي كانت فيه نجوم حزام الجوزاء منطرحة أفقيا تماما على خط الأفق، تماما كما هي الأهرام مطروحة أفقيا في هضبة الجيزة:

(أكثر من ذلك، فبما أن هدف الملوك- الحورسيين لم يكن فقط العثور على «الجسد» السماوي لأوزيريس، بل العثور عليه كما كان في «الزمن الأول»، فإن علينا ألّا نندهش من حقيقة أن الأهرام، كما رأينا في الفصل الأول {من كتاب رسالة أبي الهول}، طرحت على الأرض بالشكل الذي كانت فيه في البداية {أي في الزمن الأول}).(٣٨)

وهذا وهم لأن الانطراح الأفقي هو الموت. ولا يمكن لأوزيريس الميت، المنطرح

twitter @baghdad_library

على جانبه أن يكون ممثلا للزمن الأول. لقد كانت رحلته عبر الحاسوب بحثًا عن الزمن الأول الفلكي رحلة بلا جدوى حقًا. فالزمن الأول هو الزمن الذي وقف فيه أوزيريس على قدميه. وهو الزمن الذي رآه في داخل الهرم الأكبر أمام عينيه، لكنه لم يدركه ولم يدرك مغزاه. لقد أدرك في لحظة من حدس أن عملية تعديل التوازن الكوني تتم داخل الهرم الأكبر أو قربه، لكنه لم يفهمها:

(وبما أننا قد أوضحنا أن «أرض بيت سقر» هي مقابر الجيزة، فإنه يمكننا عن طريق تبديل بسيط للقاموس السماوي- الأرضي، أن نصل إلى أن «وزن» أو « موازنة» الأرض كانت تجرى بشكل ما في الجيزة، وفي أكبر الاحتمالات قرب أو بداخل الهرم الأكبر، البيت «الأصلي» لأوزيريس-سقر).(٣٩)

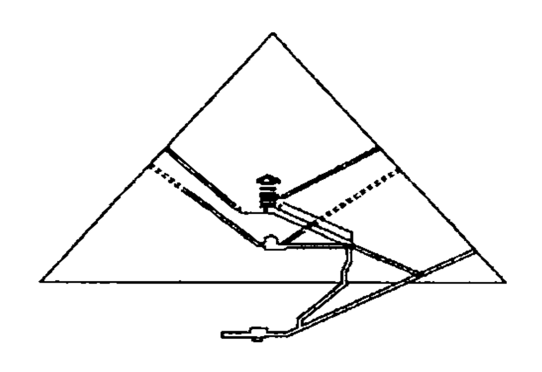
أدرك بوفال أن عملية إعادة التوازن للكون يجب أن تتم قرب الهرم الأكبر، أو داخله. لكنه لم ير أن هذه العملية كانت معروضة أمام عينيه في تصميم حجرات الهرم الأكبر. وأنها كانت عملية تتضمن أساسا إيقاف أوزيريس على قدميه، وإنهاضه من وضع الانطراح الأفقي على جانبه. لقد أنكر ما رأى، ونسي اقتراحه بأن العملية ربما كانت تتم داخل الهرم الأكبر، وذهب إلى برامج الكمبيوتر كي يبحث عن زمن أول فلكي مفترض، تاركا هذا الزمن أمامه في بطن الهرم الأكبر «ميزان الأرضين»!

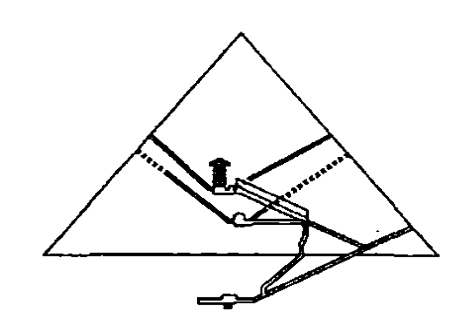
وعليه، فالأهرام، كجسد أوزيريس، لا تطرح على الأرض بالشكل الذي كان فيه هذا الجسد في البداية، أي في الزمن الأول، بل كما كان لاحقا. أي كما بدا عندما قتله سيث وطرحه على الأرض. إنها، أي الأهرام، أوزيريس الميت، المطروح على الأرض. أوزيريس بين فكي سيث. أوزيريس في نعش بنات نعش في شمال السماء. إنها أوزيريس- سقر، أي أوزيريس الجحيم، لا أوزيريس الجنة.

وقد أدرك بوفال أن النصوص المصرية تقسم أوزيريس إلى قسمين: (عندما يدعى اسمه سقر) و (عندما يصير اسمه ساهو). كما أدرك أن بيت أوزيريس سقر هو الأهرام، وبيت ساهو هو نجوم حزام الجوزاء. لكنه ظن أن سقر يمثل الأرض، وأن حزام أوريون يمثل السماء. أي أن الصراع هو بين السماء والأرض، وأن الوحدة التي تحدث عنها حجر شاباكا هي وحدة منطقة الجيزة وما حولها مع منطقة برج أوريون وما حوله. وهذا ما لم يكن صحيحا. فالصراع هو صراع بين شمال السماء وجنوبها. أي صراع بين سيث وحورس. أي الصراع بين الموت والانبعاث، بين اللحد (نعش بنات نعش) وبين المهد (برج الجوزاء، سلة القصب التي وضع فيها حورس الطفل وموسى وسرجون وغيرهم). الأهرام أطروحة سيث السماوي، وليست أطروحة الأرض.

نأتي الآن إلى التعديل الأول الذي أجلنا الحديث عنه إلى الآن، أي إلى النقطة الأشد تعقيدا وغموضا في الموضوع كله: أي إزاحة حجرة الملك عن محورها المشترك مع حجرة الملكة داخل الهرم الأكبر.

فقد دفعت الحجرة جنوبا، وانفصلت بذلك عن المحور المشترك مع الحجرة الوسطى، حجرة الملكة. ولو أعدناها إلى موقعها المفترض، لرأينا، كما هو مبين في الشكل أدناه، صفًا من الغرف يماثل صف نجوم برج الجوزاء، وصف الأهرام: حجرتان قريبتان من بعضهما تقعان على محور واحد، ثم حجرة أبعد وأصغر، وتنحرف إلى اليسار قليلا كما هو الحال في نجوم الحزام والأهرام الثلاثة.





الشكل الأعلى يمثل وضع الحجرة العليا المفترض قبل أن تزاح عن محورها المشترك مع الحجرة الثانية. الشكل الأدنى يمثل وضعها أن أزيحت إلى الجنوب. في الشكل الأول تتموضع الحجرات كما تتموضع الأهرام، وكما تتموضع نجوم الجوزاء؛ اثنتان على محور واحد، والثالثة أصغر وتميل إلى اليسار. في الشكل الثاني، ابتعدت الحجرة الأولى عن المحور الذي يجمعها مع الثانية، ولم يعد ترتيب الحجرات مثل ترتيب الأهرام

twitter @baghdad_library

فلماذا تم تعديل هذا الوضع؟ لماذا أزيحت حجرة الملك إلى الجنوب؟ لماذا فصلت عن محورها المشترك مع حجرة الملكة؟ وأي خلل رآه المصريون القدماء في وقوع العنصر الأول والثاني على محور واحد؟

قبل محاولة تلمس الإجابة، لا بد من التذكير بأن روبرت بوفال وهانكوك لاحظا إزاحة حجرة الملك جنوبا، لكنهما لم يدركا معناها:

(ثمة ما يثير الفضول حول وضح الحجرتين اللتين تنطلق منهما الكوى. فحجرة الملكة على محور مركز الهرم. لكن، من جهة أخرى، فإن حجرة الملك أزيحت بشكل ما إلى جنوب المركز، كما لو أن «كفة» ميزان ضخم أزيحت لليسار من أجل تحقيق «التوازن»).[٤٠]

حجرة الملك أزيحت جنوبا، كما لو أن (كفة) أو (وزنة) ميزان ضخم أزيحت لليسار من أجل تحقيق توازن ما. لكن بوفال وزميله لا يقولان لنا استنادا إلى أي وضع يمكن الحديث عن الإزاحة. فحين نتحدث عن إزاحة فلا بد أن هناك وضعا أصليا حدثت الإزاحة عنه. لكنهما لا يشيران إلى هذا الوضع الأصلي، ولا يتحدثان عنه، ولا يربطانه بترتيب الأهرام ونجوم الحزام. فهما لا يربطان النظام الثلاثي داخل الهرم؛ أي الحجرات الثلاث، بالنظام الثلاثي خارجه؛ أي بنجوم حزام الجوزاء والأهرام. لكننا في موقع نستطيع أن نقول معه إن الإزاحة أجريت لتعديل وضع العنصر الأول في نجوم الحزام والأهرام.

وهذا يعني أن المهندسين والثيولوجيين المصريين رأوا خللا ما في وقوع العنصر الأول على محور مشترك مع العنصر الثاني، كما رأوا أن هذا الخلل يجب أن يتم تجاوزه. أو قل أنهم رأوا أن وقوع الاثنين على محور مشترك لم يكن هو الوضع الأصلي في الزمن الأول المفترض. وبما أن تصميم الهرم الأكبر هو الزمن الأول، أو هو عودة للزمن الأول، فلا بد من أن فصل الحجرتين عن محورهما المشترك قد يلغي الانحراف عن هذا الزمن. وقد ألغي الانحراف، أو الخلل، فعلا، وأزيحت حجرة الملك بعيدا عن المحور. لقد أزيحت (الوزنة)، أو الكفة، وأعيد الميزان إلى وضعه الأمثل.

وهذا تأكيد جديد على أن المصريين نظروا إلى الهرم الأكبر على أنه ميزان. من أجل هذا سموه (ميزان الأرضين).

حجرة الملك هي نظير نجم النطاق والهرم الأكبر، كما أوضحنا. وهي بهذا تمثل النغمة العليا للكون، أي أوزيريس الفيضي. أوزيريس الجنوبي الصيفي العالي النغمة هو

سهيل اليماني. أي أن سهيلا هو الحجرة العليا، حجرة الملك. وسهيل يدعى (الوزن) عند العرب. و(الوزن)، أو الوزنة بالعامية، هي القطع الحجرية أو المعدنية التي توضع في كفة الميزان كي توزن بها الأشياء، أو هي الميزان ذاته. وأحيانا يطلق هذا الاسم (الوزن) على نجم قريب من سهيل وقرين له. يقول المثل: (أخلفك الوزن وسهيل لا يرى). إذاً يقال إن الوزن: نجم يطلع في مطلع سهيل، يشبه سهيلا في الضوء، فيظنه الناس سهيلا. كما أنا نعلم أن العرب يرون أن سهيلا كان عشارا، أي جامع مكوس، فمسخه الله نجما في السماء على ظلمه في تعشيره. يقول الهيتمي في مجمع الفوائد: (عن ابن عمر إنه كان إذا رأى سهيلاً قال لعن الله سهيلاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان عشاراً من عشاري اليمن يظلمهم فمسخه الله فجعله حيث ترون. وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر سهيلاً فقال كان عشارا ظلوماً فمسخه الله شهاباً).(٤١) والموازين هي شغلة العشارين، دوما. وعليه، فليس غريبا أن يرى بوفال أن إزاحة حجرة الملك جنوبا، كما لو أنه إزاحة كفة ميزان ضخم. فنحن في الواقع نتحدث عن موازين. فالهرم الأكبر هو (ميزان الأرضين). وسهيل اليماني- الحجرة العليا، هو كفة في هذا الميزان ذي الكفتين.

فهل نستطيع أن نفترض أن كفة الميزان، الحجرة العليا، أزيحت إلى الجنوب كي يتمكن الميزان من العمل بشكل جيد؟ ذلك أن ميزانا ذا كفتين يجب أن تكون نقطة الوسط فيه وحدها على المحور، أي على عمود الميزان. أما النقطتان الأخريان، أي الكفتان، فيجب أن ينزلا عن المحور. فما لم ينزلا فلن يتمكن الميزان من العمل. وبإزاحة حجرة الملك جنوبا نكون قد حصلنا على ميزان ذي كفتين. ويمكن رؤية هذا الوضع لو تخيلنا حجرات الهرم وقد طرحت أفقيا. فحين نطرحها أفقيا يتكون لنا ميزان بكفتين: حجرة الملك كفة أولى، وهي هابطة بقوة لأنها الأكبر والأثقل، والحجرة التحت أرضية التي تهبط بدرجة أقل لأنها الأصغر والأخف. والتحت أرضية تكون في هذه الحالة، أي في الحالة الأفقية، شمالية.

إذن، فقد عدل الميزان، وأخذت كفتاه تهبطان وترتفعان.

اشتغل ميزان الإلهة ماعت، ربة العدالة. ذلك أننا نعتقد أن (ميزان الأرضين) في الهرم الأكبر هو ميزان ماعت ذاته. ولدينا دليل نصي على هذا. إذ ثَم فقرة غريبة في نص حجر شاباكا، تشير إلى عرش أوزيريس، الذي رأينا أنه داخل الهرم، بالتأنيث:

(العرش الأعظم الذي يبهج قلوب الآلهة، التي في بيت بتاح، الذي هو سيدة الحياة كلها، في أهرام الإله).(٤٢)

twitter @baghdad_library

(العرش الأعظم)، الذي نعتقد أنه عرش أوزيريس، يقع في (بيت الإله بتاح). والهرم الأكبر هو بيت الإله بتاح، وصالته الكبرى. لكن لم يدعى العرش الأعظم في بيت الإله بتاح باسم (سيدة الحياة كلها)؟ لم يكون العرش الأعظم ذا طابع مؤنث؟ نحن نعتقد أنه دعي بهذا الاسم لأن هذا العرش هو (عرش أوزيريس). ويبدو أن إيزيس ذاتها هي عرش أوزيريس: (الإلهة إيزيس، أخت أوزيريس، لم تكن طبقا لنظرية هذه العقيدة الأوزيريسية إلا تجسيدا لعرش أوزيريس، حيث إن الاسم «إيزيس» «بالمصرية القديمة إيست Eset يعني في الحقيقة عرشا أو مقعد).(٤٣)

إذن، فإيزيس هي عرش أوزيريس. واسمها بالمصرية القديمة يؤكد هذا. لذا فليس غريبًا أن يدعى العرش العظيم في بيت بتاح باسم (سيدة الحياة كلها)! لقد اختلط الإله بالإلهة، وصارا شيئا واحدا. من أجل هذا فحجرات الهرم الثلاث معا، هي أوزيريس الناهض الجالس على عرشه. والعرش هو إيزيس ذاتها. وإيزيس، أو إيزيس ونفتيس، يتماهيان مع ماعت، التي هي مفهوم العدالة بميزانها الشهير. وعليه فعرش أوزيريس هو ذاته ميزان ماعت.

حارس ضد الطوفان

لكن ما يثير الاهتمام هو أن المصادر العربية، التي تنقل عن مصادر قبطية، تصر إصرارا لا لبس فيه ولا تهاون، على أن أهرام الجيزة قد بنيت لتلعب دور (مانعة الطوفان)، إذا استعرنا المصطلح الكهربائي المعروف (مانعة الصواعق) لهذا الوضع. هذه هي مهمتها المركزية عند المصادر العربية. وكل ما عدا ذلك مهمات ثانوية مقارنة بهذه المهمة المائية. يقول النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب عن إبراهيم بن وصيف شاه، المصدر الأبرز بين المصادر التي نقلت عن القبطية:

(ونحن الآن نذكر من خبرها { الأهرام} خلاف ما قدمناه مما أورده إبراهيم بن القاسم الكاتب مما اختصره من كتاب العجائب الكبير لإبراهيم بن وصيف شاه. قال: كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة... كان سبب بنائها أن الملك سوريد رأى رؤيا أفزعته؛ رأى كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس يخرون على رءوسهم، وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضاً بأصوات هائلة مفزعة... ثم رأى بعد ذلك بأيام كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صور طيور تنصب وكأنها لتخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأن الجبلين انطبقا عليهم، وكأن الكواكب النيرة مظلمة كاسفة، فانتبه أيضاً مذعوراً فزعاً، فدخل إلى هيكل الشمس وجعل يمرغ خديه ويبكي.

ولما أصبح أمر بجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر فاجتمعوا... فنظروا فأخبروه بأمر الطوفان).(٤٤)

ثم أمر ببناء الأهرام لكي تحمي مصر من الطوفان القادم.

ويقول المقريزي، في خططه عن الهرمين الأول والثاني: (وقد ذكر قوم أنهما قبران وليس كذلك، وإنما حمل صاحبهما على عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن في مثلهما، فخزن ذخائره وأمواله فيهما، وأتى الطوفان، ثم نضب).(٤٥)

ويضيف أبو الريحان البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية: (والفرس والمجوس تنكر الطوفان. وأقر به بعض الفرس، لكنهم قالوا: كان بالشام والمغرب منه شيء في زمان طمهورث ولكنه لم يعم العمران كله، ولم يتجاوز عقبة حلوان، ولم يبل ممالك الشرق، وأن أهل المغرب لما أنذر به حكماؤهم بنوا أبنية كالهرمين بمصر ليدخلوها عند الآفة، وإن آثار ماء الطوفان وتأثيرات الأمواج كانت بينة على أنصاف الهرمين لم تتجاوزهما).(٤٦)

يضيف: (وكان عندهم علم بحدوث الطوفان من أيام سوريد وبنائه الأهرام لأجل ذلك).

ويزيد النويري في نهاية الأرب من جديد:

(قال قوم: بانيهما سوريد بن سهلوق بن سرناق. بناهما قبل الطوفان لرؤيا رآها، فقصها على الكهنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث في العالم، فأقاموا مراكزها في وقت المسألة. فدلت على أنها نازلة من السماء تحيط بوجه الأرض. فأمر حينئذ ببناء البرابي والأهرام). ويضيف: (ويقال إن هرمس المثلث بالحكمة «وهو الذي يسميه العبرانيون أخنخ، وهو إدريس عليه السلام» استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان، فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم وما يخاف عليه الذهاب والدثور). ويزيد:(قال: كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة).(٤٧)

ويقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط: والهرمان (بناءان أزليان بمصر، بناهما إدريس، عليه السلام، لحفظ العلوم فيهما عن الطوفان، أو بناء سنان بن المشلشل، أو بناء الأوائل لما علموا بالطوفان من جهة النجوم).(٤٨)

وفي حسن المحاضرة للسيوطي: (ويقال: إن هرمس المثلث الموصوف بالحكمة- وهو الذي تسميه العبرانيون أخنوخ، وهو إدريس عليه الصلاة والسلام - استدل من

twitter @baghdad_library

أحوال الكواكب على كون الطوفان يوجد، فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم وما يخاف عليه من الذهاب والدثور).(٤٩)

وهكذا فثم إصرار عجيب على أن الأهرام بنيت بسبب طوفان قادم، وكمصد له وحماية منه: استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يوجد، فأمر ببناء الأهرام.. وأن أهل المغرب لما أنذر به {الطوفان} حكماؤهم بنوا أبنية كالهرمين بمصر ليدخلوها عند الآفة.. وإنما حمل صاحبهما على عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن في مثلهما.. كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة.

إذن، فكل شيء يشير إلى أن الأهرام حارس ضد الطوفان، تمنع من وقوعه، أو تحد من تأثيراته، وتبقي على شيء من علم الإنسان في حال وقوعه. وهذا ما يتوافق مع ما توصلنا إليه من أن زمن الإله فتاح هو زمن الطوفان أو بعده مباشرة.

أما النص الأكثر إضاءة فهو النص المنقول عن ابن وصيف شاه. فهو يشرح لنا بتفصيل معقول الأحداث التي أدت إلى اتخاذ قرار بناء الأهرام من وجهة نظر قبطية؛ لذا فمن الأفضل لنا أن نناقشه بتوسع.

تصادم النجوم

بدأ الأمر، إذن، بحلم، برؤيا ليلية، للملك سوريد. رأى سوريد هذا أن (الكواكب تتساقط، ويصدم بعضها بعضا بأصوات مفزعة)! ثمة كواكب تتساقط. فما هي هذه الكواكب؟ ومن أين تساقطت؟ يبدو أن هذه الكواكب كانت في شمال السماء. ذلك أن حلم سوريد يتم إكماله في الأيام التالية، لتتضح الصورة: (ثم رأى بعد ذلك بأيام كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صور طيور تنصب وكأنها لتخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين). الكواكب الثابتة هي كواكب السماء الشمالية، كواكب بنات نعش الكبرى والصغرى وما حولها. أما الكواكب التي تظهر وتغيب، فهي كواكب الجنوب، أي كواكب برج الجوزاء، ومعها سهيل.

تساقطت كواكب السماء الشمالية. لكن إلى أين مضت في سقوطها، وما هي بالتحديد الكواكب التي سقطت من الشمال؟ هذا سؤال صعب، لكن يمكننا أن نقدم افتراضات للإجابة عنه. فهل يكون الحديث هنا عن سهيل- ساه، الذي كان شماليا ثم انحدر فصار جنوبيا، كما تخبرنا المصادر العربية؟ ثم إن الكواكب الثابتة حين تساقطت أخذت شكل

طيور. وكنا قد أوضحنا من قبل أن أوزيريس وإيزيس في مظهرهما الصيفي الجنوبي يأخذان شكل طيور، في حين أنهما في مظهرهما الشتوي يأخذان شكل أفاع وحيات. وقلنا إن هذه الطيور هي الغرانيق العلى، أي طيور البلشون البيضاء. وكنا قد توَصلنا إلى أن الغرانيق العلى، (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)، وأن هذه الآلهة تتمثل بنجوم حزام الجوزاء في السماء. وظهور الجوزاء يؤشر على بدء الصيف، الذي يجلب طوفان النيل. لقد جاء الصيف إذن، واقترب موعد فيضان النيل، وحل الخوف من أن يتحول الفيضان إلى طوفان. فمن يضمن ألّا يخرج النيل عن طوره ويغرق الأرض كلها؟

ومع نهاية الصيف، سوف تعود النجوم الثابتة إلى مقرها. سوف يغيب سهيل، وتغيب الشعرى، وتفكك الجوزاء غزلها، ويحل الشتاء والمطر.

أيكون الأمر هكذا؟ ربما!

وفي هذه الحال، يجب النظر إلى تصميم الهرم الأكبر ليس على أنه ميزان بكفتين فقط، بل على أنه شادوف عظيم بدلوين: دلو شتوي ودلو صيفي. الدلو الشتوي للشادوف، أي الحجرة الدنيا، تهبط لتغرف ماءها، بعد أن يرتفع الدلو الصيفي إلى الأعلى، فيحل الشتاء. ثم تهبط الدلو الصيفية، أي الغرفة العليا، لتغرف من الماء الأرضي فيحل الفيضان. هكذا مرة وراء مرة.

لكن، يجب ضمان ألّا يحدث خلل يؤدي إلى اضطراب الميزان، وإلى أن يعمل الدلوان معا، وفي لحظة واحدة. أي ألّا يجتمع الماء الشتوي، المطر، بالماء الصيفي، ماء الفيضان، ماء السماء بماء الأرض، الماء التحتي بالماء العلوي، فتحل الكارثة ويحدث الطوفان. الطوفان هو اجتماع هذين الماءين في لحظة واحدة. جاء في القرآن عن هذا الاجتماع: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.[٥٠] وهكذا انهمر ماء السماء وتفجر ماء الأرض، (فالتقى الماء)، وحل الطوفان، طوفان نوح. أو كما يقول الطبري في تاريخه في تفسيره لجملة (فالتقى الماء على أمر قد قدر): فصار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الأرض.

وحين أراد الله للطوفان أن يتوقف أمر الأرض والسماء معًا بحبس مائهما: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.[٥١]

twitter @baghdad_library

السؤال هو: هل كان في تصميم الشادوف الجنوبي (حزام الجوزاء) وفي تصميم الشادوف الشمالي (الأهرام الثلاثة) خطأ ما يمكن أن يؤدي إلى هذا اجتماع الماءَيْن معًا، الأمر الذي يؤدي إلى حصول الطوفان؟ أم أن وجود ميزانين للكون كان سيؤدي إلى اصطدام النجوم وانفراط عقد الكون، وحصول الطوفان؟ ربما يكون الأمران معا؛ لذا يجب تعديل وضع الميزانين عن طريق صناعة ميزان جديد وموحد.

فالنقطتان الأولى والثانية في الشادوف- الميزان قريبتان جدا من بعضهما، وتقعان على محور واحد. وقد يكون هذا وضعا مهددا. فلو انزلقت النقطة الأولى قليلا لاصطدمت بالثانية وانهار الميزان. ويبدو أن هذا ما قد حدث في وقت سوريد كما أخبرنا بن وصيف شاه: (الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضاً بأصوات هائلة مفزعة). الاصطدام هذا يعني أن عمل الشادوف قد اضطرب، وأن الكون مهدد بالطوفان. النجمة الأولى اصطدمت بالثانية، ثم اصطدمت الثانية بالثالثة، فحصلت فرقعة عظمى، ونزل الدلوان معا لغرف الماء. المغرفة الصيفية والمغرفة الشتوية، ينضحان الماء معا، فحل الطوفان. هذا مجرد احتمال، مجرد فرض، قد يكون صالحا وقد لا يكون.

وفي هذه الحال يكون الإله بتاح قد تقدم وأعاد الأمور إلى نصابها. أعاد الشادوف إلى وضع أصلي مفترض لا تكون فيه النقطتان الأولى والثانية على محور واحد. بني الهرم الأكبر، وصمم الشادوف الصحيح، مبعدا الحجرة العليا إلى الجنوب، مانعا حدوث طوفان جديد مثل الطوفان الأول. فبقاء الحجرة العليا مكانها يهدد دومًا بالطوفان. يهدد بأن تصطدم النجوم ببعضها مما يؤدي إلى اختلال الشادوف بحيث تبدأ كفتاه بالعمل معا. لقد منع فتاح هذا الخطر، أبعد الحجرة العليا عن الحجرة الوسطى، وحدث كما قيل في القرآن: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾. أي توقفي أيتها المياه السفلى الأرضية، وأيتها المياه العليا المطرية عن أن تدفقا معا. وبالفعل (غيض الماء) وتوقف الطوفان!

تصادمت الكواكب وتساقطت، وتحولت إلى غرانيق كما يقول ابن وصيف شاه، وأخذت تتخطف الناس وتلقيهم بين جبلين. الجبلان هذان، بناء على هذا الفرض، هما الهرم الأكبر والأصغر، جبلا الصفا والمروة، نجم النطاق، أي مظهرا الإله أوزيريس الصيفي والشتوي، أي أوزيريس الذي في حضن سيث وأوزيريس الذي في حضن حورس. هذان (الجبلان انطبقا) على بعضهما البعض. أي اجتمع ماء الشتاء بماء الصيف، ماء السماء بماء الأرض وحدث بالطوفان.

لكن بعد الآن لن يحصل طوفان. لن يجتمع الماء السماوي مع الماء الأرضي من جديد. لن تغرف ركوتا الصيف والشتاء معا. فقد عمل شادوف جديد. شادوف أكثر دقة وتوازنا. شادوف لن يسمح للشتاء والصيف أن يجتمعا في لحظة واحدة، ولن يسمح لسيث أن يكب ماءه السماوي في الوقت الذي يدفع حورس بمائه الأرضي.

غير أن من الممكن أن يكون اصطدام النجوم تعبيرًا عن تصادم الحزام الشمالي والحزام الجنوبي. هذا الاصطدام، أي التلاقي مواجهة في وقت واحد، أدى إلى (التقاء الماء) واجتماعه فحصل الطوفان.

النجمتان اللتان سقطتا

ولدينا في التلموذ البابلي تأكيد على أن تساقط النجوم الذي حدثنا عنه إبراهيم بن وصيف شاه عبر المقريزي، هو سبب الطوفان. فتبعا للراب نحماني: Rabbi bar Nachmani من القرن الثالث الميلادي، فإن فيضان نوح حصل عن طريق تغيير موقع نجمتين: (عندما أراد الإله... أن يحل بالطوفان في العالم، أخذ نجمتين من كمه وأرسل الطوفان إلى الأرض).[٥٢]

وهكذا فقد (أسقطت) نجمتان من مكان ما في السماء إلى مكان آخر فحل الفيضان على الأرض. وقد ترجمت كلمة (كمه) عند الكثيرين على أنها تعني (الثريا). لكن نصا في التلموذ البابلي يشي بأنها بنات نعش في شمال السماء: (لولا حر كسل لما احتمل العالم برد كمه، ولولا برد كمه لما احتل العالم حر كسل).[٥٣]

لدينا هنا (حر كسل) في مقابل (برد كمه). ونعتقد بقدر كبير من الثقة أن الحديث يجري عن حر الجوزاء الجنوبية مقابل برد بنات نعش الشمالية. كمه هي بنات نعش، وكسل هي الجوزاء. وعليه، فقد (سقطت) نجمتان من بنات نعش نحو الجنوب فحل الطوفان. وربما أنهما سقطتا في غير موعدهما نتيجة خلل ما. وآيا كان هذان النجمان، فإن تساقط النجوم واقعة ميثولوجية مؤكدة.

وكنا في فصل سابق قد تحدثنا عن الأسطورة العربية الشهيرة، جذيمة الأبرش والزباء. وقد توصلنا إلى أن جذيمة هو أوزيريس عربي، وأن ضيزنيه هما مظهراه الشتوي والصيفي. كما بينا أن الضيزنين تعني الساقيين اللذين ينضحان الماء من بئر. وهذا يشبه ركوتي الشادوف. قال الراجز:

في كل يـومٍ لك ضيزنـان عند إزاء الحوض ملهـزان.

twitter @baghdad_library

كما قلنا إن هناك بناءين يدعيان (الغريان) كانا قبري نديمي جذيمة، مالك وعقيل، اللذين هما الممثلان البشريان لضيزنيه. وتوصلنا إلى أن (الغريان) يجب أن تكون (الغربان) بالباء، أي الدلوان. فالغرب هو الدلو. بالتالي، فضيزنا جذيمة هما، في غالب الأمر، دلوه، باعتباره أوزيريسا. كما أن البناءَين المدعوين (الغربين) هما مثيلا الهرم الأكبر والأصغر، أي مثيلا الصفا والمروة.

يقول معجم البلدان لياقوت عن غريي الكوفة هذين، موضحا لنا ما يعنيه الاسم:

(والغريان {بياء كما نرى وليس بباء} طربالان. وهما بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة... قال ابن دريد: الطربال قطعة من جبل أو قطعة من حائط تستطيل في السماء وتميل... وقيل: الطربال القطعة العالية من الجدار والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل... والغريان أيضا خيالان من أخيلة حمى فيد بينهما وبين فيد ستة عشر ميلا يطؤهما طريق الحاج عن الحازمي. والخيال ما نصب في أرض ليعلم أنها حمى فلا ترب).[٥٤]

إذن، فالغري صومعة- منارة، أو جبل، أو جزء من جبل، أو خيال. أي أنه نصب ما. ونحن نعلم أن الصفا والمروة جبلان، أو صخرتان ضخمتان تشكلان جبلين صغيري الحجم نسبيا. كما نعلم أن الأهرام الثلاثة جبالٌ. بل إن ياقوت في معجمه يؤكد لنا أن غربي الكوفة بنيا على غرار غربي مصر: (بني الغريان اللذان في الكوفة على مثل الغريين اللذين بناهما صاحب مصر). ويضيف في مكان آخر: (وروى الشرقي بن القطامي قال: الغري الحسن من كل شيء وإنما سميا الغريين {بالياء} لحسنهما وكان المنذر قد بناهما على صورة غريين كان بعض ملوك مصر بناهما).[٥٥]

شادوف إنانا

ويبدو أننا سنجد دعما لنا في قضية الشادوف من أسطورة إنانا، التي هي على علاقة بشجرتين لا شجرة واحدة. فهناك إضافة إلى شجرة الصفصاف- الخلاف التي تحدثنا عنها شجرة أخرى على علاقة بإنانا. شجرة مثمرة. ففي حكاية إنانا والبستاني (شوكاليتودا) نجد بستانيا أخرق يفشل في ري البستان، فتموت الأشجار جميعها:

(لكن ما من نبتة بقيت، ليس حتى نبتة واحدة. لقد قلعهن من جذورهن ودمرهن. ثم ماذا جلبت رياح الإعصار؟ لقد عفرت غبار الجبال في عينيه).[٥٦]

ورغم أن النص تالف في كثير من أجزائه، فإننا نفهم أن الإله إنكي يتقدم ويأمر الغراب بزراعة نخلة. يخضع الغراب للأمر ويزرع النخلة. لكنه لا يفعل ذلك فقط، بل يشغل الشادوف كي يسقي النخلة، وينجح في ذلك نجاحا باهرا. يعمل الشادوف بشكل متقن بين يديه، ويسقي الشجرة، التي هي نخلة، ثم يأكل من تمر النخلة الحلو. يقول النص:

(أن يقوم طائر كالغراب، بعمل إنسان، وأن يجعل كفتي الشادوف تصعدان وتهبطان، ويجعلهما تهبطان وتصعدان! فمن رأى مثل هذا يحصل من قبل؟).[٥٧]

والحقيقة أن من الأصلح ربما أن نقول دلوا الشادوف، أو مغرفتاه، بدل كفتيه؛ لأننا أمام شادوف ينضح الماء من نهر أو بئر.

لقد عمل الشادوف. صعدت ركوتاه وهبطتا بالتتابع، وسقيت النخلة. نجح الغراب الذي استعمل الشادوف بطريقة سليمة، وتمكن من موازنته. وكنا قد رأينا سابقا أن شجرة صفصاف إنانا تمثل بالكائنات الثلاثة التي سكنتها نجوم حزام الجوزاء:

طائر الزو ليليث الحية

نجم النطاق النيلام المنطقة

كما ذكرنا أن أوزيريس الجنوبي يتمثل بطائر والشمالي الشتوي يتمثل بحية. لكن شجرة صفصاف إنانا شجرة سلبية. أي أنها مثل ميزان نجوم حزام الجوزاء الذي هو بحاجة إلى تعديل. من أجل هذا فالصفصاف يدعى (الخلاف) بالعربية، أي الشقاق، والتضارب الذي يؤدي إلى الطوفان. أما الشجرة التي زرعها الغراب، وهي النخلة، فهي شجرة الوفاق المثمرة. وفي نص إنانا والبستاني، يقال عن هذه الشجرة:

(هناك تقف في ذلك المكان شجرة ظليلة. والشجرة الظليلة هي من حور الفرات. ظلها لا يزول في الصباح، وهي لا تتغير في الظهيرة أو المساء).

إنها شجرة الثبات الأبدي، الشجرة الخضراء دوما. وفي سياق النص نكتشف أنها هي النخلة التي زرعها الغراب في غالب الظن:

(شجرة تنمو إلى الأبد. أوراقها الإبرية تحيط بقلبها. طلوعات فسائلها تصلح مقياسا للمساحين، ولحدائق الملوك. أغصانها تستخدم كمكانس لتنظيف القصور الملكية. وتمرها الذي يكوم قرب الشعير المنقى، يصلح لمعابد الآلهة العظام).

طبعا علينا أن نقول هنا إن ثمة ترجمات للفقرة السابقة لا تظهر فيها حكاية الشادوف. ففي (ديوان الأساطير) تقدم ترجمة عربية للفقرة تقول:

twitter @baghdad_library

(وطائر كهذا الغراب

الذي أنجز عمل رجل:

قذف في الهواء جرفات من التربة

لكي يكسحها،

وقلب جرفات من التربة لكي يكومها

لم يشهد ذلك قبلًا أحد قَط!).[٥٨]

ولسنا نعرف بالضبط عن أي مصدر غربي ترجم الشواف، لكننا نرى أن هذه الترجمة لا تبدو متوافقة مع معنى القصة كلها. فما معنى أن الغراب قذف جرفات التربة وكومها؟ إنها تبدو بلا معنى حقا. ويبدو انعدام المعنى حين نواصل قراءة الأسطر التي تلي في ترجمة الشواف ذاتها:

وبعد كل ذلك، انطلق الغراب (؟) من ...

وتسلق النخلة المورقة (؟)

وملأ فمه بالتمور ذات الحلاوة

وأخذ ينقر

هذه النخلة وليدة مجرى الماء

الشجرة الأبدية، لم يشهدها قبلا أحد قَط).[٥٩]

هنا يتضح أن الأمر يتعلق بالفعل بنجاح الغراب في استخدام أفضل للشادوف. لقد وازنه وسقى الشجرة على أفضل وجه، ثم أكل من ثمارها. وجملة (هذه النخلة وليدة مجرى الماء) تؤكد أن الأمر يتعلق بماء وشادوف وسقاية لا بجرفات رمل.

إذن هنا رأينا (الشجرة الأبدية)، شجرة التوازن الأبدي كنقيض لشجرة الخلاف. إنها الشجرة التي تشبه تصميم حجرات الهرم الأكبر الثلاث.

إذن، وباختصار، فالهرم الأكبر بتصميمه الداخلي ماكينة متعددة الأغراض تعمل:

١ - كميزان اجتماعي، أي كقوة ضبط اجتماعي، تحدد من هو الأول، الذكر أم الأنثى، ومن هو الأعلى مرتبة.

٢- ميزان للعدالة الكونية. ميزان يضبط سيث وحورس، الموت والحياة، البعث والخلود.

٣- شادوف هائل، أي قوة ضبط للماء الكوني، أي أنه مانعة طوفان، حارس ضد الطوفان.

من أجل هذا فقد دعي الهرم الأكبر باسم (ميزان الأرضين).

الأهرام الثلاثة إذن هي حزام سيث الجبار.

أما الهرم الأكبر فهو ميزان الكون كله. إنه أعظم آلة دينية- معمارية أنتجتها البشرية.

twitter @baghdad_library

فصل 13

الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة

(زعموا أنه {أي الصفصاف} سمّي خِلافاً لأَن الماء جاء بِبَذره سبيّاً)

ابن البيطار

أشرنا على مدى الفصول السابقة، وفي لحظات مختلفة، إلى أن الكون مكون من شجرتين؛ طيبة وخبيثة. الشجرة الطيبة هي مبدأ الثبات والوفاق والإثمار. والشجرة الخبيثة هي مبدأ عدم القرار، والشقاق، وعدم الإثمار. وقلنا إن ثمة إشارات في القرآن إلى وجود هاتين الشجرتين: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.[1] وهناك في العهد القديم ما قد يشير إلى وجود هاتين الشجرتين، رغم أن قصة سقوط آدم وحواء تتحدث عن شجرة واحدة:

(وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة: أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحيّة من ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا. فقالت الحيّة للمرأة لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهيّة للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان).[2]

الحديث هنا شجرة واحدة. لكن يبدو أن القصة الأصلية كانت تتحدث عن شجرتين لا عن شجرة واحدة. أي أن دمجا ما قد حصل بين الشجرتين فحصلت هذه الصيغة.

ذلك أن حواء التي أغرتها الحية تبدو أقرب في ملامحها إلى ليليث زوجة آدم الأولى، التي عرضنا عنها عند الحديث عن (كتاب بن سيرا) والتي لا شك أنها مثيلة ليليث شجرة صفصاف إنانا. ويقترح جيمس فريزر في الغصن الذهبي أن القصة الأصلية كانت تحوي، بالفعل، شجرتين اثنتين:

(يمكننا أن نفترض أن القصة الأصلية أشارت إلى شجرتين: شجرة الحياة وشجرة الفناء، وأنه كان للإنسان الخيار في أن يأكل من الشجرة الأولى وأن يعيش خالدا إلى الأبد، أو أن يأكل من الشجرة الثانية ويصبح إنسانا فانيا).[٣]

شجرة الحياة هي الشجرة الطيبة. أما شجرة الفناء فهي الشجرة الخبيثة. وقد أكل آدم وحواء من الشجرة الخبيثة، فسقطا من الجنة. والشجرة الخبيثة هذه هي شجرة خلاف وجدال وعداء. لذا قال الله في سورة الأعراف: ﴿ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾.[٤] وفي سورة طه: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾.[٥] فآدم وحواء وإبليس والحية يشتبكون في نزاع مرير بينهم فوق شجرة الجنة هذه وتحتها. غير أن الخلط بين الشجرتين هو الذي جعل حواء تبدو كليليث، وشجرة الزقوم، شجرة الجحيم، تبدو كشجرة الجنة. وبسبب الشقاق والخلاف والنزاع فقد سقطوا جميعا على الأرض. سقط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض، كما سقطت ليليث وطائر الزو عن شجرة الصفصاف- الخلاف عندما سحق جلجامش الحية، كما مر:

(سحق الحية عند قاعدة الشجرة/

وفي قمة الشجرة هرب طائر الزو مع فراخه نحو الجبال/

ونقضت ليليث بيتها وهربت إلى الصحاري).

والشجرة الخبيثة، شجرة الموت، ليس لها ثمر، لأن الشقاق والخلاف لا يثمر؛ لذا تكون شجرة صفصاف في العادة أو أمثالها مثل شجرة الزقوم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾.[٦]

الشجرة الطيبة

إذا كانت صفصافة إنانا هي الشجرة الخبيثة- والحق أنها صفصافة ليليث وليست صفصافة إنانا، فإن الشجرة الثانية التي وجدناها في القصة السومرية (إنانا والبستاني

twitter @baghdad_library

شوكالتودا) هي الشجرة الطيبة. يقول النص عن هذه الشجرة إنها من حور الفرات: (هناك تقف في ذلك المكان شجرة ظليلة. والشجرة الظليلة هي من حور الفرات. ظلها لا يزول في الصباح، وهي لا تتغير في الظهيرة أو المساء).[٧] إنها شجرة الخضرة الدائمة الأبدية. شجرة الثبات لا شكل الطروء والخلاف والتغير. أي أنها على الضد من شجرة الخلاف- الصفصاف، التي تسقط أوراقها شتاء، ويخترقها النزاع والشقاق، والتي (ما لها من قرار). ورغم أن النص يقول عنها إنها من حور الفرات، فإنه يتضح في مكان آخر من القصة أنها نخلة:

(شجرة تنمو إلى الأبد. أوراقها الإبرية تحيط بقلبها. طلوعاتها تصلح مقياسا للمساحين، ولحدائق الملوك. أغصانها تستخدم كمكانس لتنظيف القصور الملكية. وتمرها الذي يكوم قرب الشعير المنقى، يصلح لمعابد الآلهة العظام).[٨]

هذه هي الشجرة الطيبة. إنها شجرة ملكية؛ فهي لحدائق الملوك، وأغصانها مكانس لقصورهم، كما أن تمرها يشبه القمح الذي يقدم قربانا للآلهة في أهميته. والأهم من ذلك أن (طلوعاتها تصلح مقياسا للمساحين). أي أنها مستقيمة لا معوجة. وهذا يذكرنا بالميزان الأعظم لماعت، الذي يدعى مخة (مقة). فـ(المعنى الأصلي لكلمة ماعت هو القصبة أو العصا التي تستعمل كمقياس).[٩]

وعليه، فالكون شجرتان تقف إحداهما في مواجهة الأخرى: النخلة والصفصافة، رغم أن الأمور تغيم أحيانا فتختلط الشجرتان كما رأينا في قصة سقوط آدم في التوراة.

ومن شبه المؤكد أن الشجرة الطيبة التي يتحدث عنها القرآن هي النخلة ذاتها التي تحدثت عنها قصة إنانا والبستاني. يروي لنا الزمخشري في الكشاف:

(عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي { أي أخذوا يسمون شجر البادية}. وكنت صبياً، فوقع في قلبي أنها النخلة، فهِبت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم. وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إنها النخلة).[١٠]

وعند القرطبي في تفسيره أنها النخلة: (ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي- ثم قال - هي النخلة).[١١]

إنها النخلة رمز الثبات. فورقها لا يسقط مثل شجر الصفصاف، بل يظل أخضر دوما. كما أن كل جزء منها نافع كما في الحديث النبوي الذي ينقله لنا الدميري في حياة الحيوان: (« إن مثل المؤمن كمثل النخلة إن صاحبته نفعك، وإن شاورته نفعك، وإن جالسته نفعك وكل شأنه منافع، وكذلك النخلة كل شأنها منافع »).[١٢] وهذا يشبه النخلة التي زرعها الغراب في قصة البستاني، إذ كل جزء منها له نفعه: (طلوعاتها تصلح مقياسا للمساحين، ولحدائق الملوك. أغصانها تستخدم كمكانس لتنظيف القصور الملكية. وتمرها الذي يكوم قرب الشعير المنقى، يصلح لمعابد الآلهة العظام).

النخلة، إذن، هي الشجرة الطيبة. الشجرة التي (أصلها ثابت، وفرعها في السماء)، كما يقول القرآن. ويجب أن نأخذ التعبير القرآني هنا لا كتعبير مجازي فقط. ذلك أن الشجرة الخبيثة شجرة مقلوبة، أي أن أصلها لا ينغرس في الأرض، بل هو طائر في الهواء، في حين أن فرعها على الأرض، وليس صاعدا في السماء. إنها وجود مقلوب تماما.

وحين نصل إلى أهرام الجيزة الثلاثة وما تمثله فسوف نفهم معنى الشجرة المقلوبة. لكن يمكن أن نختصر فنقول إن فروع الشجرة الطيبة الثلاثة موجودة بالفعل في السماء، حيث حزام الجوزاء. فنجوم الحزام الثلاثة هي فروع الشجرة الطيبة. أما فروع الشجرة المقلوبة فتمثلها أهرام الجيزة الثلاثة. لقد سقطت الشجرة الخبيثة على الأرض منكفئة على وجهها، وانطرحت كأهرام ثلاثة.

الشجرة المهاجرة

الشجرة الخبيثة شجرة مهاجرة غريبة. لذا فللصفصاف في العربية اسمان آخران يعطيان معنى الشقاق والاغتراب: الخلاف والغرب. يقول ياقوت في معجم البلدان: (الغَرَب وهو الخلاف... أهل بغداد فلا يعرفون الغَرَبَ إلا شجر الخلاف).[١٣] وهذان الاسمان يعكسان الطابع البدئي لهذه الشجرة: الخلاف والشقاق، والغربة والاغتراب. الخلاف والاغتراب هما مبدأ الشجرة الخبيثة. يقول لسان العرب: (زعموا أنه {أي الصفصاف} سمّي خِلافاً لأَن الماء جاء بِبَذره سبيّاً فنبت مُخالِفاً لأَصْله فسمّي خِلافاً).[١٤] ويضيف ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، نقلا عن أبي حنيفة: (إنما سمي خلافاً لأن السيل يجيء به شيئاً فينبت من خلاف).[١٥] إذن فالصفصاف يأتي سبيا، أي غريبا مجلوبا من مكان بعيد. وهذا ما يؤكده الاسم العربي الآخر للصفصاف: الغرب. فقد سمي الغرب

twitter @baghdad_library

غربا لأنه غريب مهاجر. ولعل هذا ما قصدته الآية القرآنية السابقة حين وصفت الشجرة الطيبة بأنها (أَصلُها ثابت وفَرعها فِي السماء)، في حين قالت عن الشجرة الخبيثة إنها (اجتثت مِن فَوقِ الأَرضِ ما لَها من قَرار).

أي هي بلا جذر في الأرض، تسبح في الماء، تنتقل من مكان إلى مكان، ما لها من قرار.

ويبدو أن غربة الشجرة المهاجرة هي التي أهلتها كي تستخدم لمعابد الآلهة. فهي تجتث من فوق الأرض لهذا الغرض. وقد رأينا كيف أن عرش إنانا وكرسيها صنعا من شجرة الصفصاف الغريبة، التي كانت رمت بها مياه الفيضان على شط الفرات:

وفي العاصفة هوت شجرة الخلبو {الصفصاف}/ على ضفاف الفرات/ ونمت البذور شجرة بعد أن غرقت، مياه الفرات/ في يوم العاصفة، قلعت الريح الجنوبية/ جذور الشجرة/ وحين انهارت الشجرة/ سقطت في الفرات.

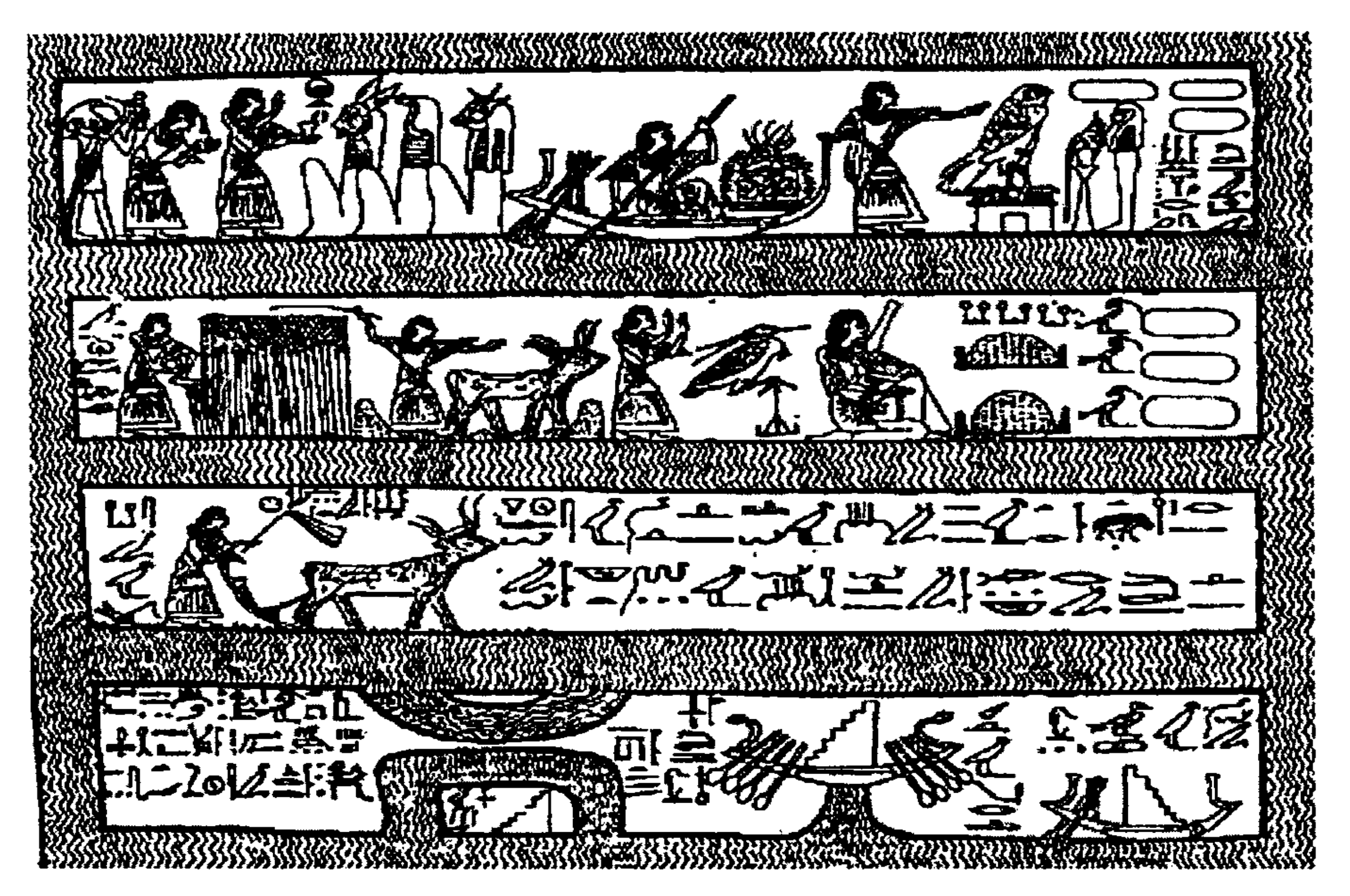
خشب المجيم

ويبدو أن عرش سليمان هو الآخر قد صنع من شجرة غريبة مهاجرة، أو على الأقل من خشب غريب مهاجر. يقول سفر الملوك الثاني عن زيارة ملكة سبأ للملك سليمان:

(وأعطت الملكة سليمان مئة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة. لم يأت بعد مثل ذلك الطيب الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان. وكذا سفن حيرام التي حملت ذهبا من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيرا جدا وبحجارة كريمة. فعمل سليمان خشب الصندل درابزينا لبيت الرب وبيت الملك وأعوادا وربابا للمغنين. لم يأت ولم ير مثل خشب الصندل ذلك إلى اليوم).[١٦]

وهكذا فقد حضر خشب بيت الرب وبيت الملك عبر البحر في سفن حيرام. أي أنه خشب مهاجر غريب. لكن لنركز انتباهنا هنا على الأشياء التالية: خشب الصندل، درابزين، الأعواد والربابات! وكي نفهم هذه الأشياء، يلزمنا أن نعود للأصل العبري للكلمة التي ترجمت على أنها (خشب الصندل). والأصل العبري هو خشب (المجيم). وخشب (المجيم) ومفردها (المجة) يحيل فيما يبدو إلى (المقة) و(مكة)، وإلى (مقة) ميزان الإلهة ماعت. أي أنه خشب الميزان، أو خشب الموازين التي تقام منه معابد الآلهة. أما الأعواد والربابات التي عملت من هذا الخشب فهي مثيلة آلتي جلجامش: مكو وبكو. فهذا النص يعيدنا إلى ثيمة الشجرة المهاجرة، كما في صفصافة إنانا، التي

صنعت منها عرشها، ثم صنع منها جلجامش مكو وبكو.



في المستوى الأسفل من الصورة تظهر الشجرة المهاجرة؛ جذرها في الماء، وهي تتوحد مع سفينة، وتتحول من شجرة إلى عرش يرتفع فوق درج. البحر، والسفينة، والشجرة، والعرش، كل هذا يؤخذ معا، كي تتشكل الأسطورة. الصورة مختصر لقصة إنانا وشجرة الصفصاف، وقصة السفينة التي جلبت الخشب لسليمان: شجرة يجلبها الماء، أو يجلب خشبها على ظهر سفينة في البحر، فيصنع منها عرشا للآلهة. والصورة من بردية آني.

شجرة إيزيس المهاجرة

ثم لنتذكر شجرة إيزيس المصرية؛ فبعد أن خدع سيث أوزيريس وحبسه في الصندوق رماه في أحد فروع النيل، الذي أخذه إلى البحر. ويروي لنا بلوتارخ كيف قامت إيزيس برحلة طويلة للبحث عن أوزيريس المحبوس في الصندوق، حيث وجدته في جوف شجرة:

(ومع طول المدة تلقت إيزيس المزيد من الأنباء التفصيلية عن الصندوق. فقد حملته أمواج البحر إلى بيبلوس. وهناك احتبسته بلطف أغصان شجرة الطرفاء التي استحالت في برهة وجيزة إلى شجرة جميلة ضخمة، التفت حول الصندوق وأحاطت به من كل جهة، بحيث لم يعد في الإمكان أن يرى. وعلمت إيزيس أن ملك ذلك الإقليم أذهله

twitter @baghdad_library

الحجم اللامألوف لتلك الشجرة فقطعها وجعل ذلك الجزء من جذعها الذي خبأ الصندوق عمودا يدعم به سقف بيته. أما وقد علمت إيزيس هذه المعلومات بطريق استثنائية بواسطة الشياطين، فقد ذهبت إلى بيبلوس على الفور).(١٧)

وفي النهاية طلبت من ملكة الإقليم:

(أن تمنحها العمود الذي يدعم السقف، فأخذته وفتحت جوفه بسهولة. وبعد ما أخذت منه ما تريد فقد لفت بقية الجذع بقماش جميل وصبت عليه الزيت المعطر ودفعت به إلى أيدي الملك والملكة. وهو ما انفك حتى اليوم قطعة خشبية محفوظة في معبد إيزيس، يعبدها أهل بيبلوس. وبعد ذلك رمت بنفسها على الصندوق وراحت في الوقت نفسه تنوح نواحا عاليا....وكان الوقت صباحا تقريبا، وكان نهر فادوس يطلق هواء حادا فظا، ولكن غضب إيزيس قد جفف التيار. وسرعان ما وصلت إلى مكان مقفر... وعلى الفور فتحت الصندوق، وألقت بوجهها على زوجها وعانقت جثمانه وبكت بمرارة).(١٨)

نود هنا أن نثير انتباه القارئ إلى النقاط التالية في هذا النص:

أولا: أن جذع الشجرة كان في غاية الضخامة. وهذا ما يتوافق مع شجرة إنانا التي كانت من الضخامة بحيث لم تستطع قطعها بنفسها، فقطعها لها جلجامش.

ثانيا: أن الملك ملكاروث، الذي هو الإله ملكارت، قطع الجذع وصنع منه (عمودا يدعم سقف بيته). أي جعله قطعة أساسية في بيته كإله. وهذا يشبه ما فعله شلومو الذي صنع من المجيم درابزينا لبيت الرب.

ثالثا: أن ما تبقى من جذع الشجرة بعد أن أخذت إيزيس منه صندوق زوجها تحول إلى عمود في معبد إيزيس في بيبلوس. وعمود معبد أوزيريس يشابه عرش إيزيس الذي صنع من شجرة الصفصاف. إذن فقد تحول عمود بيت ملكارث إلى عمود في معبد إيزيس.

رابعا: أن الشجرة وخشبها غريبان. فقد حملت أمواج البحر الصندوق الذي يحمل جسد أوزيريس إلى بيبلوس. وهناك احتبسته بلطف أغصان الشجرة البيبلوسية. لقد كان عليه أن يسافر إلى أرض أخرى كي يعثر على الشجرة التي تشبه نعشه.

ويذكرنا هذا برحلة (ون آمون) المصري الذي عبر فلسطين إلى بيبلوس (جبيل)، في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، كي يشتري خشبا لمعبد الإله آمون. ذلك أن خشب العرش، أو المقام والمحراب، في المعبد يجب أن يكون غريبا.

وفي قصة إعادة بناء الكعبة الجاهلية، التي يقال إنها حدثت قبيل الإسلام، حصل البناء بخشب غريب مهاجر. فقد كان خشبا جاءت به سفينة (خجتها) الريح أي شقتها وحطمتها، ورمتها على شاطئ البحر في جده. يختصر الدكتور جواد علي الروايات عن الأمر قائلا: (ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل من تجار الروم رمى البحر بسفينته إلى الساحل إلى «الشعيبة»، وهو مرفأ السفن من ساحل الحجاز، وكان مرفأ مكة، ومرسى سفنها قيل «جدة». فجاءوا بالخشب إلى مكة، وكان بها نجار «قبطي»، استعين به في تسقيف البيت بذلك الخشب. وذكر أن الذي سقف البيت علج كان في السفينة، يحسن النجارة اسمه «باقوم»، فجيء به مع الخشب، وسقف الكعبة).[١٩]

خشب العبد المكي جاء غريبا في سفينة عبر البحر. والنجار- وفي رواية أخرى صاحب الخشب- اسمه (باقوم). وباقوم تذكر ب(بكة) (بق). وفوق ذلك فهو قبطي مصري. نحن هنا أمام تكرار للحكاية الميثولوجية عن بناء المعبد الأول، لا عن تاريخ. والمعبد الأول، أو العرش الذي فيه، يجب أن يقام بخشب غريب مهاجر.

عليه، فثم نقاط مشتركة، لا تخطئها العين المدققة، بين خشب سفينة الكعبة وخشب بيت رب شلومو وخشب شجرة إنانا وخشب شجرة إيزيس. وجوهر نقاط اللقاء يقوم على أن الشجرة التي يبنى منها عرش الآلهة في طورها الميت يجب أن تكون شجرة غريبة مهاجرة. شجرة لا يقر لها قرار تسبح فوق الماء على سفينة، كما هو الحال مع شجرة إنانا التي جلبها الفيضان، وكما هو الحال مع خشبها الذي جلبته السفن من أوفير، وكما هو الحال مع خشب الكعبة الذي جاء في سفينة غريبة رمتها الريح على الشاطئ. ولأنها غريبة وبلا قرار، فإنها تجتث وتصنع منها عروش الآلهة الموتى. أما الشجرة الطيبة، النخلة، فأصلها ثابت وفرعها في السماء، ولا أحد يجتثها.

twitter @baghdad_library

فصل 14

الأهرام وصفصافة إنانا

(هو ذاك الذي فوق شجرة الصفصاف)

منطوقة مصرية عن أوزيريس

هذا فصل قصير جدا، لن يزيد على صفحتين.

وهدفه لمّ الإشارات التي وردت سابقا متفرقة حول علاقة الأهرام بشجرة إنانا، وصياغتها بوضوح تام، كالتالي: إذا كانت الأهرام هي الشجرة المضادة، فإنها تشبه تماما شجرة صفصاف إنانا! (والأصح أن نسميها شجرة ليليث. لكن درج القول أن يقال إنانا وشجرة الخلبو- الصفصاف).

نعم: الأهرام هي شجرة إنانا مطروحة بالحجر على أرض الجيزة.

هكذا، بالضبط! الأهرام = شجرة إنانا.

شجرة إنانا تخطيط بقلم الرصاص، سكتش، وضع لينفذ بالحجر. وقد نفذ هذا التخطيط في هضبة الجيزة بعظمة لا تتفوق عليها عظمة.

الأهرام صفصافة إنانا المصرية مطروحة بالحجر. كما أن صفصافة إنانا العراقية هي حزام سيث، أي أهرام الجيزة، مطروحة بقلم الرصاص.

هذا يعني أن الأهرام الثلاثة تماثل الكائنات الثلاثة التي سكنت على شجرة إنانا، شجرة الصفصاف. الهرم الأكبر يساوي طائر الزو، وهو النغمة الصيفية العالية للكون، والهرم الأوسط يساوي ليليث، وهو نغمة الاعتدال والتوازن الربيعية- الخريفية الأنثوية، والهرم الثالث يساوي الحية، أي نغمة القرار الشتوية المنسحبة. هذه الأفرع الثلاثة للشجرة المضادة، شجرة سيث، في مقابل الأفرع الثلاثة في شجرة حورس.

الأهرام وصفصافة إنانا هما (الغرانيق الدنى) في مقابل (الغرانيق العلى)، أي حزام الجوزاء.

وليس لأحد أن يرفع حاجبه دهشة لأن الأهرام، التي هي تركيب من أوزيريس وإيزيس، أي المبدأين المذكر والمؤنث، هي شجرة. فنحن نعلم أن أوزيريس كان يمثل في عهد الأسرة الأولى: (على هيأة شجرة جذعها مستقيم، وقد ربطت فروعها طبقات فوق بعض).[٣]

كما أنه كان يمثل (مستلقيا على الأرض وينبت القمح من جسده { أو أن} شجرة نبتت من قبره أو تابوته).[٤] كذلك نحن نعلم أن ديونسيوس اليوناني، عديل أوزيريس المصري، كان مرتبطا بالشجرة. وحسب جيمس فريزر فإن: (كل الإغريق تقريبا كانوا يضحون لـ «ديونسيوس الشجرة». وفي بوتيكا فإن واحدا من أسمائه هو «ديونيسيوس الذي في الشجرة).[٥]

كما نعلم من ضريح الملك أوناس أن أوزيريس: (هو ذاك الذي فوق شجرة الصفصاف).[٧] شجرة صفصاف مثل شجرة إنانا.

ولدينا حفر من فترة ما قبل الأسرات يستطيع أن يحسم الأمر تماما. فهو يظهر لنا الأهرام كشجرة لها ثلاثة أفرع بالضبط. كل فرع من أفرعها الثلاثة هرم:



حفر من فترة ما قبل الأسرات تظهر تصميما تبدو فيها شجرة فروعها الثلاثة أهرام مشابهة لأهرام الجيزة

twitter @baghdad_library

هذا النقش، هذا التصوير، لا يدع مجالا للشك في أنه كان ينظر إلى الأهرام كشجرة بثلاثة أفرع. الفارق بين شجرة الأهرام هذه وشجرة إنانا أن الكائنات الثلاثة على الشجرة تبدو فوق بعضها بعضا، بينما تطرح فروع شجرة الأهرام أفقيا. وهذا ليس مشكلة. فالشجرة الطيبة في مكة كانت مطروحة أفقيا وعموديا. أفقيا في الخط بين الصفا والمروة، والنقطة الثالثة بينهما. وعموديا داخل الكعبة، حيث النغمة الواطئة، نغمة ذي بكة والحية تقع أسفل الكعبة.

الأهرام شجرة صفصاف بأفرع ثلاثة مثل أفرع سمُرة العزى الثلاثة. لكن الأهرام غرانيق دنى، في حين أن شجرة العزي، تمثيل للغرانيق العلى، أي اللات والعزى ومناة.

سيث الرهيب يعلق حزام الأهرام الثلاثة على وسطه، وحورس يعلق حزام الجوزاء على وسطه. والكون هو هذان الحزامان. هو صراعهما، الذي حاول بتاح ضبطه في أعظم آلة ميثولوجية- معمارية هي الهرم الأكبر، أو أنها بشكل أدق في داخل الهرم الأكبر.

كأننا، بالكاد، بدأنا ندرك هذا.

أي ندرك أنفسنا وتاريخنا.

كأن أبا الهول والهرم الأكبر ينطقان بعد صمت دهور!



twitter @baghdad_library

فصل 15

زمن الفطَحَل

(زمن الفطحل: أي حين كانت الحجارة رطبة)

المرزوقي، الأزمنة والأمكنة

تحدث لنا رؤبة بن العجاج في إحدى أرجوزاته عن زمن ميثولوجي غريب يدعى (زمن الفطحل). وحسب ابن الأعرابي الذي ينقل عنه الميمني في سمط اللآلىء، فإنه لم يرد ذكر لهذا الزمن إلا عند رؤبة: (وقال ابن الأعرابي: لم يسمع بزمن الفطحل إلاّ في شعر رؤبة هذا).[١] تقول القصة، حسب لسان العرب، إن رؤبة (نزل ماء من المياه فأراد أَن يتزوَّج امرأَة فقالت له المرأَة: ما سِنُّك؟ ما مالُك؟ ما كذا؟)[٢]، فأنشأ هذه الأرجوزة:

لما ازدرت نقدي وقلت إبلي
تألفت، واتصلت بعَكل
تسألني عن السنين كم لي
فقلت: لو عمرت عمر الحسل
أَو عمر نوح زمن الفِطَحْل
والصخر مبتل كطين الوحل
أو أَنني أوتيت علم الحُكْل
علم سليمان كلام النمل
كنت رهين هرم أَو قَتل

ويخبرنا الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب أن رؤبة سئل عن قوله (زمن الفطَحْل فقال: أيام كانت الحجارة فيه رِطابا، وإذ كل شيء ينطق).[٣] ويقول لنا الجاحظ في الحيوان إنه زمن كانت الصخور فيه: (رطبة لينة، وإن كل شيء قد كان يعرف وينطق، وإن الأشجار والنخل لم يكن عليها شوك).[٤] ويخبرنا أبو العلاء في الصاهل

والشاحج أن: (الأنيس عندهم أن زمن الفطحل زمان كان بعد الطوفان عظم فيه الخصب وحسنت أحوال أهله).[٥] أما القاموس المحيط فيقول: (الفِطَحْل... دهر لم يخلَق فيه الناس بعد، أو زمن نوحٍ عليه السلام، أو زمن كانت الحجارةَ فيه رطابا).[٦]

زمن الفطحل، إذنً، زمن بدئي. زمن للانسجام والتوافق الكوني. زمن السلام المطلق. هذا الزمن الميثولوجي الديني منسوب، في اعتقادنا، إلى الإله المصري القديم الشهير (فتاح، بتاح). فالاسم فطحل يعني: (فطح إيل) أي (فتح إل)، (فتاح إيل)، أي الإله فتاح، أو بتاح. بالتالي فزمن الفحطل هو زمن الإله فتاح، أو الزمن الذي بدأه الإله فتاح، زمن البداية الحقيقية للكون. لقد تحولت التاء إلى طاء عربية فقط، رغم أننا لا نعرف بالدقة كيف كانت تنطق كلمة (بتاح، فتاح) في المصرية القديمة.

وحسب نصوص (ديانة ممفيس) المصرية، التي نقشت على (حجر شاباكا)، فقد كان هناك بالفعل زمن بدئي أوجد برعاية الإله فتاح. فقد تمت المصالحة الكونية بين الإلهين حورس وسيث المتصارعين، وحل السلام والتوازن، أمام بيت الإله فتاح، هذا البيت الذي يدعى بميزان الأرضين:

(لقد حدث أن القصب والبردي وضعا على البوابة العظيمة المزدوجة لبيت الإله فتاح. وقد عنى هذا أن حورس وسيث، اللذين تصالحا واتحدا، بحيث توافقا وانتهى خلافهما في المكان الذي بلغاه، قد اتحدا في بيت بتاح، «ميزان الأرضين» الذي توزن فيه مصر العليا والسفلى...).[٧]

بيت الإله فتاح أو بتاح هو ميزان الأرضين، أي ميزان السماء والأرض، وميزان الشمال والجنوب. وفي هذا البيت، أو قدامه، حصلت المصالحة الكبرى بين سيث وحورس، أي بين السماء والأرض. بالتالي فزمنه هو زمن السلام والتوازن والمصالحة الأبدية الثابتة. وبيت الإله فتاح مكان ميثولوجي في الأصل، لكنه يتجسد داخل الهرم الأكبر من أهرام الجيزة الثلاثة. فداخل هذا الهرم، وفي تصميم حجراته الداخلية على وجه الخصوص، حقق التوازن الكوني معماريا، أي حقق الزمن الأول، زمن الفطحل، زمن فتاح إيل. ويبدو أن هذا كان عقب الطوفان الكبير. فقد عمل الإله فتاح، المهندس الأكبر، على إيجاد توازن يمنع حدوث الطوفان مرة أخرى. أي عمل على إرساء زمان جديد غير مهدد بالطوفان.

والإله فتاح هو، حسب نص مصري، هو: (سيد الحرف، حامي الحجارين، والنحاتين، والحدادين، والمهندسين المعماريين، وباني السفن). كما (يعتقد أن بتاح

twitter @baghdad_library

هو من اخترع حرفة البناء).[٨] هذا إضافة إلى أنه هو خالق الآلهة. ولأنه زمن أول، زمن ما بعد الطوفان البدئي، فإن رؤبة يربط بينه وبين نوح وزمنه. ذلك أن نوحا عاصر الطوفان ونجا منه بالسفينة:

أَو عمر نوح زمـن الفِطَـحْل

وكلام رؤبة يعني أن نوحا كان موجودا زمن الفطحل، أي الزمن الذي تلا الطوفان مباشرة، الأمر الذي يشير إلى أن زمن نوح وزمن الفطحل شيء واحد. والمصادر العربية تؤكد لنا، بالفعل، أن زمن الفطحل هو زمن نوح. يقول لسان العرب: (وزمن الفطحل هو زمن نوح النبي).[٩] وهذا يعني أن نوحا هو فتاح إيل. ونوح كما نعرف هو من بنى السفينة للخلاص من الطوفان. كما أن فتاح هو أيضا (باني السفن)، كما رأينا قبل قليل.

ولأن زمن الفطحل هو زمن ما بعد الطوفان، فليس غريبا أن تكون فيه الحجارة رطبة بعد، كما أخبرنا رؤبة. فهو زمن يتخلق بعد أن غرق العالم في ماء الطوفان، أو يتخلق من الماء الذي جعل كل شيء مثل (طينِ الوحلِ)، كما يقول رؤبة.

ورغم أن أحدا لم يتحدث مباشرة عن زمن الفطحل غير رؤبة، فإن هناك ما يدل على أنه كان معروفا. إذ ينقل لنا الثعالبي أبياتا لأمية بن الصلت يبدو أنها تتحدث عن هذا الزمن بالذات، مؤكدة أنه زمن كانت الحجارة فيه رطبة، كما فهمنا من رؤبة:

وإذ هـم لا لبوس لهم عـراة وإذ صم السلام لهم رطـاب

بآية قـــام ينطق كـل شـيء وخان أمانة الديك الغـــراب

والسلام في البيت هي الحجارة. فقد كانت الحجارة رطبة، وكان الناس في هذا الزمن الأول عراة بلا ملبس، كما لو أنهم آدم وحواء، كما أن الكائنات كلها كانت قادرة على النطق.

ويجب أن نتذكر أن المكان الأول فيما بعد الطوفان في الديانة المصرية، هو تلة أولى ترتفع من الماء كي تكون مقرا للإلهة. ولا بد أن هذه التلة هي ذاتها التي وقفت عليها حمامة نوح بعد أن بدأت مياه الطوفان في الانحسار. وحسب الأسطورة فقد جاءت الحمامة برجلين ملطختين بالطين بعد أن وقفت على هذه التلة. هذه التلة الأولى مرتبطة بالأهرام. إنها هرم بشكل ما، أو أنها الهرم الأول في الحقيقة.

ويحدثنا هيرودتس عن فرعون يدعى أسيخس بنى هرما على شاكلة هذه التلة:

(ولما شاء أسيخس أن يتميز عن أسلافه على العرش، كان خياره أن يشيد هرما من القرميد تخليدا لذكرى عهده. فلما تم النصب وضع لوحة من الحجر وعليها العبارات

التالية: «لا تقلل من شأني بمقارنتي بالأهرامات المشادة بالحجر. فلقد نصبوا عمودا في بحيرة فلما تجمع حوله الطين جعلوا منه القرميد. وهكذا شيدوني. فأنا فوق هذه الأهرامات مثلما يفوق رع جميع الآلهة»[10]

يبدو لنا أن هذا محاولة لوصف هرم يشابه التلة الأولى التي برزت بعد انحسار مياه الطوفان. فالهرم بني بـ (طين الوحل)، أي كما نشأت التلة الأولى؛ لذا فلا يستطيع أحد أن يستخف به. فهو فوق الأهرام جميعا؛ لأن كل هرم بني على مثاله. إنه الهرم الأول.

الحكْل

لكن ما هو الحكل الذي تتحدث عنه قصيدة رؤبة:

فقلت: لو عمرت عمر الحِسْل أَو عـمـر نوح زمـنَ الفِطَحْل

والصخر مبتـل كطين الوحــل أو أَنني أوتيـت علـم الحُكْل

علـم سليمـان كـلامَ النَّمْـــل كنت رهيـن هـرم أَو قَـتْـــل

تقدم لنا المصادر العربية عددا من الخيارات في تفسير معنى (الحكل) هذا. لكن جزءا كبيرا منها يعتقد أنه الكلام الخفي الملغز المبهم الذي يشكل على الفهم، أو الخفيض الذي بالكاد يسمع. يقول الزبيدي في تاج العروس: (الحُكْلُ- بالضم- مِن الحيوان: ما لا يسمع صوته كالذّر والنمل. وقيل: العجم مِن الطيور والبهائم). ويقول لسان العرب: (وكلام الحكل: كلام لا يفهم؛ حكاه ثعلب. واحكل واحتكلَ: التبس واشتبه). لكن بعضها يعتقد أن الحكل هو النبي سليمان نفسه. ينقل الزبيدي عن الليث: (قال اللَّيثُ: الحُكْلُ في رجز رؤبةَ: اسم لسليمان عليه الصلاة والسلام). ربما لأن بعض المفسرين اعتبر أننا يجب أن نقرأ الشطرين هكذا: أو أَنني أوتيـت علـم الحُكْل، أي علـم سليمـان كـلام النمل، بحيث يكون الشطر الثاني مجرد شرح للأول. وبذا فهموا أن الحكل هو سليمان النبي. والحق أن النبي سليمان كان به رتة، أي حكلة. أي أن كلامه لم يكن يبين. وهذا ما يبرر افتراض المصادر العربية بأن الحكل هو سليمان. ونحن نعلم أن موسى كان يعاني من رتة في لسانه، أي من عجمة ما. فقد ورد في القرآن: {واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي}.[11]

وفي الجامع لأحكام القرآن: (فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها في فيه على لسانه، فكانت الرتة... ثم اختلف هل زالت تلك الرتة؛ فقيل:

twitter @baghdad_library

زالت بدليل قوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ {طه: ٣٦} وقيل: لم تزل كلها؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ {الزخرف: ٥٢}).(١٢) وفي الكشاف للزمخشري: (﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الكلام لما به من الرتة).(١٣) وفي القاموس المحيط: (الرُّتَّةُ بالضم: العجمةُ، والحُكْلَةُ في اللِّسانِ).(١٤) ويزيد لسان العرب: (وقيل: هي العُجْمة في الكلام، والحُكْلة فيه).(١٥)

وهكذا فسليمان كان حكلا، أي أنه كان يقول كلاما ملغزا لا يبين. وهذه طريقة كهنة الآلهة في معابدهم. فهم يطلقون تكهنات ملغزة، وعليك أن تفهمها. أو أنه كان يفهم كلام الحكل، أي كلام كهنة الإلهة. وقد روى الزبيدي الأبيات بشكل مختلف عن الرواية السائدة:

لو أنني أوتيت علم الحكل
علمت منه مستسر الدخل
علم سليمان كلام النمل
ما رد أروى أبدا عن عدلي

وترتيب الأبيات هنا يوحي بأن (الحكل) له علاقة بالطاقة التنبؤية التي تحدثنا عنها. ذلك أن الحكل يكشف (مستسر الدخل). يؤكد القاموس المحيط أن جذر حكل يشير إلى التنبؤ. يقول: (الحاكِلُ: المخمّن).(١٦) وهو ما ينقله لنا الزبيدي أيضا: (ابنُ الأعرابي: الحاكِلُ: المُخمّن، نقلَه الأزهري).(١٧)

لكن (الحكل) هنا تبدو كما لو أنها صيغة مبالغة. فهناك (حاكل) شديد الحكل يدعى (الحكل) هو الذي تتحدث عنه القصيدة فيما يبدو، وليس مجرد مخمن متنبئ عادي. لكن ربما كان صوت النبوءة هذه خفيضا جدا كما هو صوت دبيب النمل. فهي تريد أن تقدم السر، أو النبوءة، من دون أن يشعر أحد بذلك. وعليه، فربما عنت (حكل) معنى التنبؤ والكلام الغامض، والكلام الهامس. وهناك في قصة الطوفان السومرية ما يوحي بأن سرّا ما، لعل له علاقة بالطوفان المقبل، تم الإعلان عنه بطريقة غامضة وملغزة لزيوسودا، مثيل نوح السومري:

(في المعبد....الإله وراء سياج/ وسمع زيوسودا بالقرب منه/ بينما كان يقف وراء الحاجز {سياج القصب في نصوص أخرى}/ وإلى يساره.../ «أيها الحاجز أنا أكلمك. استمع إلى كلماتي/ انتبه مصغيا إلى تعليماتي/ سوف يبيد الطوفان تجمعات السكان/ ويغمر عاصمتهم/ بغية إهلاك الجنس البشري»).(١٨)

ويبدو أن هذه الكلمات التي قيلت للجدار قيلت همسا. لكن زيوسودا فهمها وصنع السفينة التي أنقذته. ويعلق جيمس فريزر على هذه الفقرة بقوله: (الإله الطيب الذي لم يشأ أن يفشي قرار الآلهة للإنسان الفاني بطريق مباشر، اصطنع حيلة إفشاء السر إلى حائط البوص، الذي كان على زيود سودو {زيوسودا} أن يقف إلى جانبه الآخر، وبذلك علم الإنسان الطيب بالسر الخطير عن طريق استراق السمع، في حين استطاع الإله أن يدعي فيما بعد أنه لم يفش القرار الذي اتخذته الإلهة في مجتمعها).[١٩] بالتالي فكلام الحكل، أي الكلام الملغز الواطئ مثل أصوات النمل وغيرها في أرجوزة رؤبة يشير إلى واقعة في وقت الطوفان.

الكحل- الفينيق

لكن لعل كلمة (الحكل) تحمل لنا أكثر من هذا. فهناك كلمة غريبة وردت في سفر أيوب في الإصحاح التاسع والعشرين قد تكون على علاقة بهذا الحكل. فقد جاء في السفرِ:

(فقلت إني في وكري أسلم الروح ومثل السمندل أكثّر أياما. أصلي كان منبسطا إلى المياه والطل بات على أغصاني).[٢٠]

السمندل هنا عديل كلمة الفينيق في الترجمات الأوربية. وحسب إحدى الترجمات الإنجليزية:

«Then I said: 'I shall die with my nest, and I shall multiply my days as the phoenix.'"

والسمندل طراز من الفينيق. أما الكلمة العبرية التي ترجمت بالفينيق أو السمندل فهي: cholأي كحل. وهي كما نرى قريبة جدا من حكل. والفرق بينهما هو القلب. لكن لا بد من القول بأن الاختلافات قوية جدا حول ترجمة كلمة (كحل). فهناك من يترجمها على أنها تعني: الفينيق، النخلة، أو الرمال. أما ترجمتها على أنها نخلة فقد وردت في ترجمة جيروم اللاتينية للتوراة، أي في Septuagint.

وأصل ترجمتها على أنها طائر الفينيق قديمة جدا. فقد فسرها على هذا النحو في القرن الحادي عشر اليهودي الفرنسي شلومو يتسحاقي، أو راشي كما يختصر، قائلا: (إنه طائر يسمى كحل، وليس للموت سلطة عليه؛ لأنه لم يأكل من ثمرة شجرة المعرفة {التي أكل منها كل من آدم وحواء}. وفي نهاية كل ألف سنة فإنه يجدد نفسه، ويعود إلى شبابه).[٢١]

twitter @baghdad_library

وقد استند هذا الشرح إلى التلمود البابلي، وهو شروحات بالآرامية على أسفار التوراة. ففي مقطع من قصة الطوفان في التلمود عن الطوفان يقول سام بن نوح: (أما فيما يخص الفينيق فقد اكتشف والدي أنه يربض على مقود السفينة. سأله: «ألست تريد طعاما؟»، فأجاب: «قد رأيتك مشغولا، فقلت لنفسي سوف لن أزعجك». «ربما كانت مشيئة الله ألّا تفنى»، هكذا قال، كما هو مكتوب «فقلت إني في وكري أسلم الروح ومثل السمندل أضاعف أيامي).[٢٢]

والفينيق ترجمة لكلمة كحل. لكن (القسم الأول من القصة {قصة الطوفان} استخدم كلمة مختلفة كليا لطائر الفينيق، هي أُرشينا urshina التي لا علاقة لفظية لها بكحل).[٢٣]

ونجد في كتاب شروحات مصور عن سفر أيوب من القرن الثامن عشر لألبريخت شولتنز Albrecht Schultens's Liber Jobi (Leiden, 1737) صورة تمثل هرما نقشت عليه كتابة من سفر أيوب، وعلى جانبيه نخلة وطائر الفينيق أي الكحل. أما الكتابة فهي: (فقلت إني في وكري أسلم الروح ومثل الكحل أكثّر أيامي. أصلي كان منبسطا إلى المياه والطل بات على أغصاني)[٢٤]، أي الآية التي نحن بصددها، آية الفينيق.

وهكذا اجتمعت النخلة وطائر الفينيق معا، كما رأينا من قبل في الكلمة اليونانية (فونيكس) التي تعني: النخلة، طائر الفينيق، اللون الأحمر. وكلها رموز ترتبط بالديانة الأوزيريسية، وبإيزيس على وجه الخصوص. والهرم الذي في الصورة يؤكد هذا. كما أن الهرم يعيد تذكيرنا بالهرم الطيني الذي تحدث عنه هيرودتس، والذي بني من طين تجمع على عمود غرس في الماء:

(فلقد نصبوا عمودا في بحيرة فلما تجمع حوله الطين جعلوا منه القرميد. وهكذا شيدوني. فأنا فوق هذه الأهرامات مثلما يفوق رع جميع الآلهة). يبدو لنا أن العمود هذا يشير إلى النخلة، التي في الرسم التوضيحي لسفر أيوب. ولنتذكر أن أيوب بعد أن تحدث عن مضاعفة أيامه كما الكحل: (فقلت إني في وكري أسلم الروح ومثل الكحل أكثّر أيامي)، عاد في الآية التي تلي ليقول: (أصلي كان منبسطا إلى المياه والطل بات على أغصاني). الحديث يتم عن شجرة وعن طائر في نفس الوقت. هذه الشجرة التي أصلها في الماء هي النخلة في الرسم التوضيحي. كما أنها هي العمود الذي غرز في البحيرة كي يتجمع حوله (طين الوحل)، فقد (نصبوا عمودا في بحيرة فلما تجمع حوله الطين).

ولا بد أن نذكر هنا أن النخل غير غائب عن زمن الفطحل العربي. إذ يخبرنا الجاحظ في الحيوان أن: (الأشجار والنخل لم يكن عليها شوك) في هذا الزمن.

وما دمنا نتحدث في سفر أيوب وفي رجز رؤبة، إذن، عن ثلاثة أشياء متشابهة: نوح، الطوفان، ثم (حكل) أو (كحل)، فإنه فربما حق لنا أن نتساءل إن كان من علاقة بين (حكل) رؤبة و (كحل) سفر أيوب؟

ونحن نعتقد أن ثم علاقة، وأن حكل رؤبة هو ربما يكون هو كحل سفر أيوب. يدعم ما نقول أن طائر السفر قد أشير إليه باسم آخر في التلموذ هو (أرشينا). ولدينا في العربية طائر يدعى الورشان وهو طراز من الحمام مرتبط بشكل ما بنخلة شهيرة، دعا لها الرسول، تدعى المشان، ويدعى ثمرها بالمشان أيضا. وحول هذه النخلة لدينا المثل الغامض الذي يقول: (بحجة الورشان يأكل ثمر المشانٍ). ورغم أن هناك تفسيرات متضاربة للمثل، فإن وجود طائر له اسم قريب جدا من أُرشينا، ووجود نخلة يسمح لنا بالافتراض أننا نتحدث عن عالم واحد وأسطورة واحدة.

فوق هذا فلنتذكر المقطع الذي أوردناه سابقا من التلمود البابلي عن الطائر الذي جاء في وجبة الأكل: (أما فيما يخص الفينيق فقد اكتشف والدي أنه يربض على مقود السفينة. سأله: «ألست تريد طعاما؟»). إذ نلحظ هنا طائرا لم يكن متوقعا مجيئه كي يعد له الطعام. أي كما لو أنه تطفل على مائدة السفينة. وحسب لسان العرب، فإن (رشن الرجل فهو راشن يرشن رشونا، فهو راشن، وهو الذي يتعهد مواقيت طعام القوم فيغترهم اغترارا، وهو الذي يقال له الطفيلي. الجوهري: الراشن الذي يأتي الوليمة ولم يدع إليها، وهو الذي يسمى الطفيلي. وأما الذي يتحين وقت الطعام فيدخل على القوم وهم يأكلون فهو الوارش). [٢٥]

كل هذا يشجعنا على القول بأن حكل رؤبة ربما يكون طائرا من طيور الفينيق، رغم أنه لا توجد في نص الأرجوزة دلالة مباشرة على ذلك.

لكن الحديث يدور حول العمر وطوله. وقد رأينا كيف أن كحل سفر أيوب يضاعف أيامه، ويطيل عمره. ورغم أن الضب يوصف بطول العمر أحيانا لكن وصفه بطول الذماء أكثر شيوعا. ذلك أنه بعد قتله قد تستمر بعض أعضائه بالحركة لأيام ثلاثة كما تقول المصادر العربية. لذا يقال: أحيا من ضب. فوق هذا فإن طول العمر ينسب إلى الحسل ابنه وليس الضب الأب. وهذا غريب نوعًا ما. وكل هذا يجعلنا نشك في أن تصحيفا ما حصل وحول (الحكل) إلى (حسل)، أي عبر تحويل الكاف إلى سين. بذا فلعل

twitter @baghdad_library

الأرجوزة كانت تقول في الأصل: فقلت:

لو عمرت عمر الحكـــــل

أو عمر نوح زمـن الفِطـحـل

والصخر مـبتل كطين الوحـل

وهكذا صار لدينا روايات تحوي الحسل وأخرى تحوي الحكل. ويبدو أنه تم لاحقا جمع الروايات المختلفة معا، فصرنا أمام الحسل والحكل معا. يشجع على هذا الاقتراح أن أبيات رؤبة تروى باختلافات. إذ رواها بعضهم على الوجه التالي:

فقلت: لو عُمّرت عمر الحسل

وقد أَتـاه زِمـن الفِطَحـل

والصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كطِين الوَحْل

أو كنت قد أوتيت علمِ الحكل

كنـت رهيـن هَرَمٍ أو قـتل

كما رويت بهذا الشكل أيضا:

لو أنني أوتيت علم الحـكل

علمت منه مستسر الـدخل

علم سليمان كـلام الـنمل

ما رد أروى أبدا عن عدلي

وفي الرواية الأخيرة لا وجود للحسل، مما يجعل فرضنا فرضا مقبولا، وإن كان مجرد فرض. ولو صح هذا الفرض لصارت الأمور أوضح فنحن مع طوفان نوح ومع طائر الكحل، الذي قلب في العربية إلى حكل.

في كل حال، حتى لو لم يكن هناك تصحيف، فإن الحسل أيضا على علاقة بالديانة الأوزيرسية فيما يبدو. فالحسل ابن الضب، والضب يبدو وكأنه على ارتباط ما بالمكاء طائر أوزيريس. فجحر الضب يدعى (المكو). يقول ابن دريد في جمهرة اللغة:

(والمَكْو والمَكا واحد، وهو جُحر الضب...).[٢٦]

كما أن المكاء في لحظة من اللحظات يدخل جحر الضب. يقول ابن قتيبة الدينوري في المعاني الكبير: (قال كثير يذكر ناقة:

تمطو الجديلَ إذا المكاكي بادرتْ جُحل الضبابِ محافر الأدحـالِ

يقول يدخل المكاء جحر الضب لشدة الحر، جُحل جمع جَحل وهو العظيم من

الضباب والأدحال جمع دحل وهو الغار).[٢٧]

ولا يمكن للمكاكي، جمع مكاء، أن تبادر جحل الضباب إلا لصلة ما بينهما. أكثر من هذا، فإن الضب يبدو زميل سهيل اليماني ونظيره. وسهيل هو أوزيريس الصيفي. يقول أمية ابن الصلت، أو الحكم بن عمرو البهراني:

مسخ الضب في الجدالة قدما وسهيل السماء عمدا بصغر

ويقول الحاحظ في الحيوان تعليقا على هذا البيت: (فإنهم يزعمون أن الضب وسهيلا كانا ماكسين عشارين، فمسخ الله عز وجل أحدهما في الأرض، والآخر في السماء، والجدالة: الأرض، ولذلك يقال: ضربه فجدله أي ألزقه بالأرض، أي بالجدالة).[٢٨]

إذن، فنحن أمام إله بمظهريه؛ الأرضي والسماوي، بنغمتيه العليا والسفلى. أي أن الضب هو أوزيريس السفلي، الأرضي، مثله مثل الحية.

وهكذا فربما كان هناك حكل وحسل في الأرجوزة. لكننا نعتقد أن الحديث عن العمر أقرب إلى المنطق أن يكون مرتبطا بالحكل لا بالحسل في الأرجوزة. على كل حال فالضب مشهور بأن سنه لا يسقط. تقول العرب: (لا آتيك سن الحسل)، أي أبدا.

وإذ وصلنا إلى أوزيريس ومكائه، فإنه يمكن فهم لم اعتبر أن (الحكل) هو النبي سليمان عند بعض المصادر العربية. يقول القاموس المحيط: (الحكل، بالضم ما لا يُسْمَعُ صَوتُهُ، كالذَّرِّ، واسمٌ لسُليمانَ).[٢٩] ذلك أن سليمان طراز من أوزيريس في الحقيقة. أو أنه كاهن لأله أو أوزيريسي. هكذا تفهمه المصادر العربية وليس نحن.

twitter @baghdad_library

فصل 16

إيزيس وأنفاق الزباء

(اليربوع يحفر بين النافقاء والقاصعاء حفرا مستقيما إلى أسفل ثم يعدل عن يمينه وشماله عروضا يعترضها يعميه فيخفى مكانه بذلك الإلغاز)

الزبيدي- تاج العروس

توصلنا على طول صفحات الكتاب إلى أن الحد الأوسط في الثواليث التي رأيناها هو حد أنثوي، دائما. كما توصلنا في فصل خاص إلى أن الحجرات الثلاث في الهرم الأكبر ثالوث مع تعديلات، الأمر الذي يعني أن الحجرة الوسطى هي حد أوسط أنثوي، أي أنها حجرة إيزيس. بذا فليس خطأ تسميتها بحجرة الملكة. أما الحجرتان العليا والسفلى فهما حجرتا الغلام الأمرد والشيخ، حسب المصادر العربية، أي أوزيريس في مظهره الفتي الصيفي العالي المندفع والشتوي الهرم القار الساكن.

كذا توصلنا إلى أن حجرات الهرم الأكبر تعمل كميزان كوني أو كشادوف جبار. وحين تميل الكفة الجنوبية للميزان، أي حين يحل الصيف، ينحدر أوزيريس متجها نحو الجنوب. أي ينحدر من نجم الثعبان إلى نجم النطاق عابرا الكوة الشمالية إلى داخل حجرة الملك، ثم مندفعا إلى داخل الكوة الجنوبية نحو نجم النطاق. نجم الثعبان هو أوزيريس الشتوي. ونجم النطاق هو أوزيريس الصيفي. نجم الثعبان هو الكون في قراره، ونجم النطاق هو الكون في قمته. كفتا الميزان تصعدان وتهبطان. الدلوان ينزلان ويطلعان كي ينشلا الماء الصيفي والشتوي، الماء العلوي والماء السفلي.

وكنا قد قلنا، في أكثر من مكان، أن أوزيريس الصيفي يتمثل بطائر، في حين أن أوزيريس الشتوي يتمثل بحية. من أجل هذا تتجه الكوة الشمالية لحجرة الملك نحو نجم الثعبان، أي الحية. أما الكوة الجنوبية فتتجه إلى نجم النطاق. ونجم النطاق طائر. ذلك أننا قد علمنا أن نجوم حزام الجوزاء الثلاثة تدعى (الغرانيق العلى)، أي طيور

البلشون أو الكراكي. وهي تمثل: (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى).

وعليه، فكوى حجرة الملك، الحجرة العليا، صارت مفهومة لدينا. صار مفهوما معناها ولم وجدت. لكن المشكلة تكمن في كوتي حجرة الملكة. فهما اللغز الأشد غموضا من بين ألغاز الأهرام كلها. فهما:

أولا: مغلقتان من نهايتيهما. إذ هما تنغلقان قبل الوصول إلى سطح الهرم الخارجي. الجنوبية منهما تنغلق قبل الوصول إلى الخارج بعدة أمتار. ونحن نعرف تقريبا المكان الذي كانت ستنفتح منه لو واصلت طريقها إلى السطح. لكننا لا نستطيع أن نحدد مثل هذه النقطة بخصوص الكوة الشمالية؛ لأن طريق الكوة لم تكتشف بكاملها بعد. فما زال هناك ما يقرب من عشرين مترا لم تكتشف فيها بعد. يقول غانتبرنك الذي كشف بروبوته آبوأوت الباب المغلق: (نحن لا ندري أين تنتهي الكوة الشمالية).[1] أي أننا لا ندري إن كانت ستعدل مسارها في هذه المسافة؛ لذا فتحديد اتجاهها النهائي هو أمر تخمين وتكهن لا أكثر.

ثانيا: مغلقتان أيضا عند جدار حجرة الملكة من الداخل. فقبل الدخول إلى الحجرة بعدة إنشات أغلقت الكوتان. وبسبب ذلك لم يتم اكتشاف وجودهما إلا في أواخر القرن التاسع عشر، عندما تم حفر ثقب في حجرة الملكة، للتأكد من فرض وجود كوتين مثل كوتي حجرة الملك، أي الحجرة العليا. وقد تم التأكد من وجودهما فعلا.

ثالثا: كما أنهما تنغلقان من الداخل أيضا. فبعد ما يقرب من ستين مترا من سير الكوة الجنوبية نفاجأ بباب مغلق، ثم نفاجأ بباب مغلق آخر وراءه. أما الشمالية فنفاجأ ببابها المغلق بعد ٦٥ مترا. ويعتقد أن وراءه بابا مغلقا أيضا، انطلاقا من التشابه المفترض من الكوة الجنوبية.

الكوتان، إذن، متاهة مقفلة، أو عدة متاهات مقفلة!

ولم تقدم حتى الآن فرضية مناسبة تماما لتفسير وجود هاتين الكوتين المغلقتين من نهايتيهما الداخلية والخارجية، في تضاد تام مع كوتي حجرة الملك المفتوحتين على السطح وعلى الحجرة. الاتجاه العام، منذ البدء وحتى قبيل نهايات القرن العشرين، كان أن الكوى كلها هي فتحات تهوية. لكن انغلاق كوتي حجرة الملكة كان يضرب في الصميم هذه الفرضية. فلماذا يتم إغلاقهما إن كانتا فتحتي تهوية؟

وقد بينا نحن الهدف الفعلي من وجود كوتي حجرة الملك. وهو هدف ديني لا شك فيه. لكن يتبقى علينا أن نفسر سبب انغلاق كوتي حجرة الملكة. وليس لدينا أي شك في

twitter @baghdad_library

أنه سيكون سببا دينيا لا معماريا. وعليه، ففرضنا الأول: ثمة سبب ديني ميثولوجي وراء إغلاق الكوتين وتحويلهما إلى ما يشبه المتاهة. وبما أنهما فتحتا حجرة إيزيس، فلا بد أن يكون للأمر علاقة بإيزيس. هذا هو الفرض الثاني.

وإذا ما قبلنا أن حجرات الهرم الأكبر تمثل ميزانا- وقد علمنا، بالفعل، أن الهرم الأكبر يدعى: ميزان الأرضين- فلا يمكن منطقيا لنقطة توازن الميزان أن تنزل وتصعد مثل الكفتين. هذه النقطة يجب أن تكون على المحور، محور الميزان. من دون ذلك فإن الميزان لن يعمل بكفتيه. من أجل ذلك فحجرة الملكة هي الوحيدة من بين الحجرات الثلاث التي تقع بالضبط على محور الهرم الأكبر، أي على الخط النازل من رأسه الهرم إلى قاعدته. أما حجرة الملك فتميل جنوبا بقوة، في حين أن الحجرة التحتأرضية تنحرف إلى اليسار، أي شمالا، مقارنة بحجرة الملك.

ويمكن للصورة أن تتضح لنا لو تصورنا الحجرات مطروحة في الهواء أفقيا. عندها سيتضح أن الحجرتين العليا والسفلى، أي حجرتي أوزيريس تهبطان عن المحور، في حين أن حجرة إيزيس تثبت عليه. الحجرتان العليا والسفلى كفتا الميزان. والحجرة الوسطى، أي حجرة إيزيس، هي نقطة التوازن في هذا الميزان الكوني. إنها ميزان العدالة، ميزان ماعت الذي يدعى (مقة).

إذن، لا تستطيع نقطة التوازن في الميزان أن تتأرجح بين الشمال والجنوب. أوزيريس بمظهريه يفعل ذلك. وعليه فمن المنطقي أن تكون كوتا حجرة الملكة مغلقتين قبل الوصول إلى سطح الهرم. ففتحهما سيؤدي إلى تمرجح إيزيس، نقطة التوازن، شمالا وجنوبا. وهذا غير ممكن؛ لأن الميزان سيخرب. عليه، وبناء على فرض بوفال، فهما تشيران إلى نجوم محددة في السماء الشمالية والجنوبية. لكنهما لا تنفتحان على هذه النجوم. لأن إيزيس، أو روحها، لن تنزلق من الشمال إلى الجنوب عند الصيف، أو من الجنوب إلى الشمال عند مجيء الشتاء. وسوف نناقش مسألة إلى أي نجم تتجه الكوة الشمالية في حجرة الملكة لاحقا.

الشعرى العبور والكوى

لكن، إذا كانت إيزيس لا تتحرك على محور شمال- جنوب مثل أوزيريس فكيف يمكن وصف حركتها، وكيف يمكن تبين هذه الحركة في تصميم الأهرام؟

كي نجيب عن هذا السؤال، سنذهب إلى نجمة الشعرى العبور اليمانية، التي هي إيزيس العربية، علّها تساعدنا في فهم أمر كوى الحجرة. ولا خلاف على أن الشعرى العبور هي إيزيس. وفي المصادر العربية سوف نكتشف أن حركة الشعرى-إيزيس هي حركة عرضية، لا طولية كما هو الحال مع حركة أوزيريس. يعني أنها تتقاطع مع حركة أوزيريس الشمالية الجنوبية ولا توازيها. يقول لسان العرب:

(الشعريان؛ العبور التي في الجوزاء، والغميصاء التي في الذراع. تزعم العرب أنهما أختا سهيل. وطلوع الشعرى على إثر طلوع الهقعة... ويقال: إنها عبرت السماء عرضا ولم يعبرها عرضا غيرها، فأنزل الله تعالى وأنه هو رب الشعرى، أي رب الشعرى التي تعبدونها. وسميت الأخرى الغميصاء، لأن العرب قالت في أحاديثها إنها بكت على إثر العبور حتى غمصت).[2] يضيف اللسان: (والعرب تسمي الشعرى العبور لأنها تعبر السماء عرضا). ويقال إن شخصا يدعى أبا كبشة، كان يعبد الشعرى، قال في تبرير عبادته لها: (إن الشعرى تقطع السماء عرضا، ولا أدري في السماء شيئا؛ شمسا ولا قمرا ولا نجما، يقطع السماء عرضا غيرها).[3] ويوضح المروزقي في الأزمنة والأمكنة أن عبور السماء يعني عبور نهر المجرة: (كان سهيل والشعريان مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانيا، وتبعته العبور عبرت إليه المجرة وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل، حتى غمصت، والغمص في العين ضعف ونقص).[4]

الشعرى العبور- إيزيس، إذن، تقطع نهر المجرة عرضا. تعبر السماء، عرضا لا طولا! أي أن حركتها شرقية غربية، تقطع نهر المجرة وتتصالب مع نهر المجرة، وتتصالب مع حركة أوزيريس. ولعل هذا أن يكون جذر مفهوم الصليب كما نعرفه في المسيحية. فالإله، أي المبدأين المذكر والمؤنث، معا، يشكلان صليبا.

أما لماذا افترض أن الشعرى-إيزيس تعبر السماء عرضا، في فترتيْ اختفائها، فنحن لا ندري حقا. لكننا ندري من علماء الفلك أن الشعرى العبور كانت تقع على الضفة الشرقية لنهر المجرة قبل ألوف مؤلفة من السنوات. فهل يعود الحديث عن العبور إلى هذه الفترة؟ أي هل عرف القدماء أنها كانت يوما على الضفة الشرقية لنهر المجرة؟ وهل بني الاعتقاد بعبورها السنوي الخفي إلى الضفة الشرقية على هذا الحدث الفلكي القديم؟ ربما!

كفتا الميزان إذن، أي أوزيريس الصيفي والشتوي، تتحركان شمالا وجنوبا، بين نهايتي نهر المجرة (درب التبانة). أما حركة الشعرى فقطع لدرب التبانة وعبور عليه، شرقا وغربا. وحين تنزل نحو الشرق يحل الشتاء. وحين تعود إلى الغرب تدفع الصيف

twitter @baghdad_library

وتؤشر إليه. وهذا أمر معروف جيدا لنا. فحين تظهر نجمة الشعرى (سوبدت، سيثوس) على الضفة الغربية لنهر المجرة بعد غياب أكثر من شهرين، يكون ظهورها بدء السنة الشمسية. أي أن لها زمانين أيضا، لكنهما زمانان تجلبهما حركتها العرضية، أي بين شرق المجرة وغربها، لا الطولية بين شمال السماء وجنوبها. من أجل هذا سميت نجمتها بالعربية (الشعرى العبور) لأن حركتها المفترضة هي حركة عبور دائم لنهر المجرة، أي حركة من الشرق للغرب، والعكس.

لكن حركة إيزيس- الشعرى بين الشرق والغرب لا يعني أن إيزيس ليست موجودة في الشمال كما الحال مع أوزيريس. إنها في الشمال وفي الجنوب مثله. من أجل هذا تؤشر كوتا حجرة الملكة المغلقتان نحو الجنوب والشمال، وإن أغلقتا. لكن وجودها بين الشمال والجنوب ليس نشطا. لذا صنعت كوتا حجرتها ثم أغلقتا.

هذا الوصف لحركة الشعرى يتوافق مع وضع حجرة الملكة في الهرم. فهي تقع على محور الهرم، وتبدو لنا الحركة الممكنة منها حركة شرقية غربية. فهي منفتحة على الحجرة التحتأرضية عبر فتحة تنزل للأسفل هي (فتحة البئر) أو (كوة البئر). هذا الفتحة تنزل بشكل مستقيم أولا، ثم تتعرج ذاهبة إلى يسار المشاهد في الرسم.

الزباء وحجرة الملكة

لكن يبدو أن علينا أن نذهب إلى الزباء العربية، زوجة جذيمة الوضاح وغريمته، كي نفهم حجرة الملكة في الهرم الأكبر.

والزباء، كما أوضحنا في فصل (الإلهات الزرقاوات)، هي إيزيس عربية مثل الشعرى. إنها الشعرى العبور باسم آخر. لكن ما هو أهم في موضوع الزباء أنها ترتبط باليربوع حيوان الصحراء، الحفار المعروف. إنه بشكل ما حيوانها، أو أنه حيوان يشبهها. وبما أنها مثيلة إيزيس، أو بما أنها إيزيس باسم آخر، فمن المنطقي أن نفترض أن هذا الحيوان على علاقة بإيزيس. إذا جربنا القبول بهذه الفرضية، فربما أمكنتنا طاقة هذا الحيوان كحافر أنفاق عظيم على فهم ألغاز حجرة الملكة.

لكن لنبدأ أولا بعرض نصوص تتحدث عن علاقته بالزباء. يقول الجاحظ في الحيوان: (اليرابيع ضرب من الفأر، قال: ويقال: نفَّق اليربوع ينفِّق تنفيقا إذا عمل النافقاء، وهي إحدى مجاحره، ومحافره، وهي النافقاء والقاصعاء... فإذا طلِب من إحدى هذه الحفائر نافق، أي خرج النّافقاء، وإن طُلِب من النافقاء قصَّع. ويضيف: وزعم أبو عَقيل بن

دُرست، وشداد الحارثي، وحسين الزهري أن الزباء الرومية إنما عمِلت تلك الأنفاق... على تدبير اليرابيع في محافيرها هذه، ومخارجِها التي أعدتها ومداخلها، وعلى قدر ما يفجَؤُها من الأمر).[٥]

ويضيف الزمخشري في ربيع الأبرار عن: (اليربوع واحتياله بما يسوي من محافره التي إذا طلب من هذا خرج من هذا أخذت الزباء عمل الأنفاق).[٦]

إذن، من اليربوع (أخذت الزباء عمل الأنفاق)، و(الزباء عمِلت تلك الأنفاق... على تدبير اليرابيع في محافيرها)! الأمر في منتهى الوضوح، إذن: الزباء حافرة أنفاق. تفعل كما يفعل اليربوع. تعلمت صنعته وقلدتها. إذن، فالذهاب إلى أنفاق اليربوع قد يفيدنا في فهم أنفاق مثيلتها إيزيس، وفي فهم أنفاقها في الهرم الأكبر.

وفي البدء، نود أن نتحدث عن نفق معروف من أنفاق الزباء، لا بد أنها أخذته من اليربوع، ثم نذهب إلى اليربوع ذاته لنتحدث عن أنفاقه هو خاصة. تخبرنا مصادر عربية لا حصر لها أن الزباء حفرت نفقا لها بين قصرين على ضفتي الفرات. يقول ابن الجوزي في المنتظم نقلا عن ابن الكلبي: (وابتنت على... الفرات مدينتين متقابلتين من شرقي الفرات وغربيه، وجعلت بينهما نفقاً تحت الفرات، فكان إذا رهقها عدو أوت إليه وتحصَّنت به).[٧] ويضيف: (كان للزباء أخت يقال لها: زبيبة، فبنت لها قصراً حسنا على شاطىء الفرات الغربي، وكانت تشتو عند أختها، وتَرْبع ببطن النجار، وتصير إلى تدمر).[٨] ويضيف نشوان الحميري في الحور العين فيقول: (اتخذت نفقاً قد أجرت عليه الفرات، من قصرها إلى قصر أختها زبيبة).[٩]

إذن، فالزباء تعبر بين مدينتيها على شاطئي الفرات، من خلال النفق، هربًا من الحصار كما يقال. وهي قد حفرت أنفاقها هذه على مثال أنفاق اليربوع

الزباء، إذن، حفرت نفقًا ما ليأخذها من شرقي الفرات إلى غربية، والعكس. نحن نعتقد أن نهر الفرات هنا هو مثيل نهر المجرة، درب التبانة. إذ لا يعقل أن يكون شتاء الزباء وصيفها على بعد عدة مئات من الأمتار فقط بين شطي الفرات. وعليه، فنهر الفرات هو تمثيل لنهر المجرة. والرحلة بين شرقيه وغربيه تمثيل لرحلة الشعرى في عبورها نهر المجرة ذاهبة وراجعة. لكننا نظن أن ابن الجوزي أخطأ حين قال إن زبيبة أخت الزباء كانت في غربي الفرات. فمن يقيم غرب الفرات- المجرة هو الزباء في الحقيقة. أما زبيبة فتقيم شرقي نهر المجرة. ذلك أن الزباء وزبيبة هما مثيلتا الشعرى العبور وأختها الغميصاء:

twitter @baghdad_library

الزباء زبيبة

العبور الغميصاء

والغميصاء موجودة في كوكبة الذراع شرقي نهر المجرة كما يعلم الجميع. وعليه، فلا بد لزبيبة مثيلتها أن تكون هي من يقيم على الضفة الشرقية. ولا بد أن الزباء كانت تعبر النفق إلى أختها على الضفة الشرقية. وذهابها إلى هناك مؤشر على حلول الشتاء، كما هو واضح من النص، فقد: (كانت تشتو عند أختها). في الصيف تكون في قصرها غربي الفرات، وفي الشتاء تذهب لتشتو في قصر أختها شرقي نهر المجرة. لكن متى تتم هذه الرحلة بالضبط؟

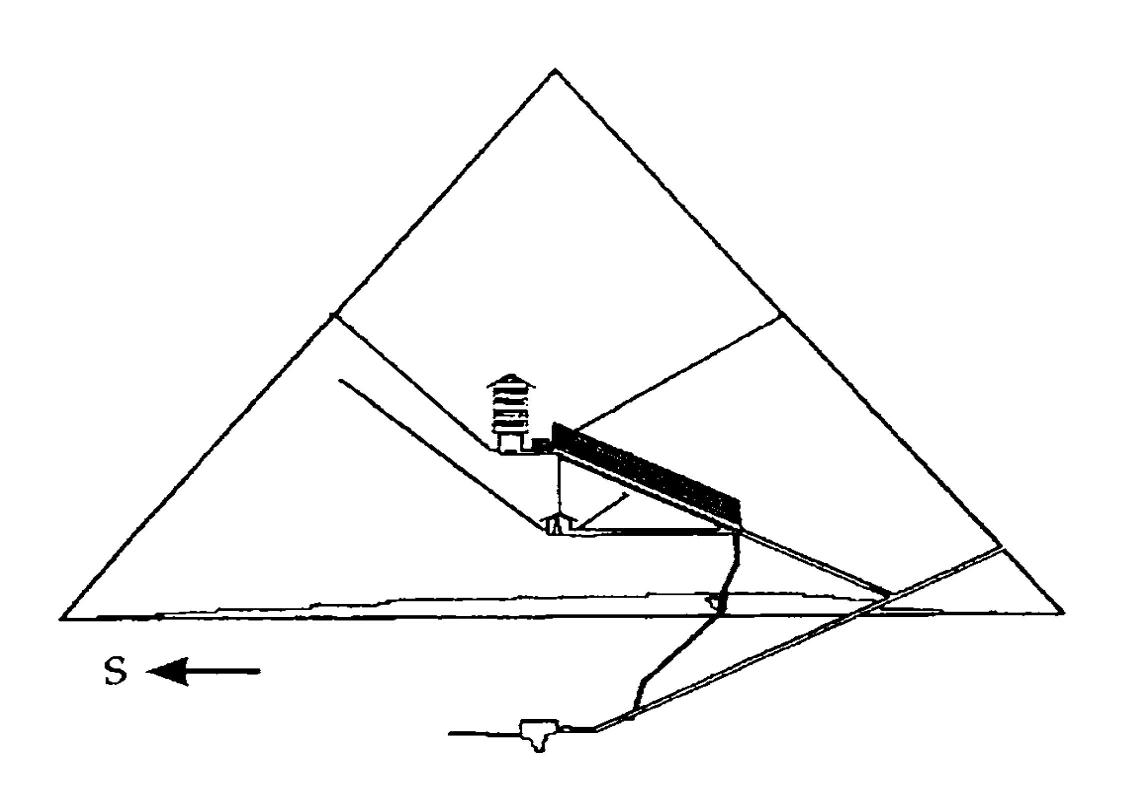
نحن ندري أن للشعرى مثيلة الزباء نوءين عند العرب: نوءا صيفيا ونوءا شتويا. ومثلها يجن أن يكون حال الزباء. يقول الميمني في سمط اللآلئ:

(وللشعرى زمنان؛ لكل زمان منهما حال مخالف للآخر، وكل ذلك منسوب إليها. فمنهما زمان طلوعها بالغداة وأوّل ذلك لعشرين يوماً من تمّوز وهو وقت صميم الحر، فوغراته وبوارحه منسوبة إليها... والزمان الثاني وقت طلوعها عشاء وذلك في كانون الآخر إذا كان النوء للذراع وهو وقت صميم البرد. فأصراره وصنابره منسوبة إليها).(١٠)

من أجل هذا لها عيدان؛ عيد طلوعها الصباحي الصيفي في تموز- آب في هذه الأيام-، وعيد طلوعها المسائي الشتوي في كانون الآخر، أي الثاني. ومن أجل هذا رأينا أن عيد ذي الشرى وأمه كابو (مثيلة إيزيس وابنها) كان على حسب أفيفانيوس في كانون الثاني، أي أنه كان يتحدث عن عيد طلوعها المسائي، أي الشتوي.

نوؤها الشتوي إذن مرتبط بالذراع، الكوكبة التي تحوي أختها الغميصاء. لكننا نعرف أن الشعرى في كانون الثاني تكون ما زالت غربي نهر المجرة، أي أنها لم تغادر قصرها إلى قصر أختها بعد. نوؤها هو نوء الذراع حيث أختها. لكنها بعد ليست هناك في قصر أختها. فمتى تكون هناك في اعتقاد القدماء؟ لا بد أن يكون ذلك وقت غياب الشعرى. فالشعرى تغيب ولا تعود ترى مدة سبعين يوما، ثم تطلع قبيل الشمس في تموز. وبطلوعها ذاك تبدأ السنة الشمسية. ولا بد أنها أثناء هذه الأيام السبعين تعبر النفق في هذه الفترة وتذهب إلى قصر أختها على الضفة الشرقية لنهر المجرة. إنها تعبر النفق مختفية كي تشتو في قصر أختها. وهذا يعني أنها لا تقضي الشتاء بأصراره وصنابره كله على الضفة الشرقية. نوؤها الشتوي هو نوء الذراع، لكن تمضي فقط سبعين يوما على الضفة الشرقية عند أختها في الذراع. تعبر النفق، ثم لا تعود ولا نعود نراها قبل حزيران.

حسن جدا. الزباء لديها نفق يرسلها إلى الضفة الشرقية لنهر المجرة، ويعود بها منها. وبما أن الزباء إيزيس، فليس من الخطأ أن نبحث عن هذا النفق في الهرم الأكبر، المليء بالأنفاق. ويبدو أن النفق الذي تعبره لتختفي بعدها سبعين يوما، يتمثل في الهرم الأكبر بما يسمى (كوة البئر) أو (الكهف) التي تبدأ من أسفل الصالة الكبرى لتنزل مستقيمة لمسافة ثم تنحرف إلى الجنوب. وقد افترض بعضهم أن هذه الكوة فتحت كي يخرج العمال منها بعد أن بنوا الحجرة التحتأرضية، على فرض أن هذه الحجرة بنيت بعد الصالة الكبرى. لكن الاتجاه الآن أنها بنيت مع بدء بناء الهرم. أي أنه لم يكن من حاجة لبناء ممر للعمال، فطريقهم مفتوح. وحتى لو كانوا بنوها لاحقا، فقد كان بإمكانهم ردمها بعد خروج العمال. لكن ذلك لم يحصل.



لاحظ كيف تتعرج كوة البئر. فهي تنطلق من الحجرة ذاهبة يمينا، حيث تلتقي بالرواق الكبير، ثم تنحدر سافلا مع ميل متواصل لليسار، ثم يتوقف الميل وتهبط للأسفل كي ترتبط بممر الحجرة التحتأرضية، صانعة متاهة ملغزة

هذه الكوة هي النفق الذي كانت تعبره الشعرى في غيابها المعروف لمدة سبعين يوما. ثم تعود راجعة في النفق ذاته حين يأتي حزيران. وقد وضع هناك من أجل فتح الممر لإيزيس، أو روحها، للهبوط إلى الأسفل، أي شرقا، كي يحل الشتاء. فحين تنزل إلى هناك تقترب من أوزيريس الشتوي، في الحجرة التحتأرضية. وهذه الحجرة شمالية

twitter @baghdad_library

إذا قورنت بحجرة الملك، الحجرة العليا. إنها تقع إلى جنوب محور الهرم قليلا، لكنها شمالية بالتأكيد إذا قورنت بالحجرة العليا. وربما أزيحت حجرة الملك أصلا عن المحور إلى الجنوب كي تكون جنوبية نسبة إلى الحجرة التحتأرضية. أي كي نظل أمام شمال وجنوب بالنسبة لحجرتي أوزيريس العليا والسفلى.

عليه، وضعت الكوة، أو النفق لتمثيل عبور الشعرى إلى الضفة الشرقية لنهر المجرة، عند كوكبة الذراع. وكوكبة الذراع تقع شرق المجرة، لكنها تعتبر شمالية بالنسبة إلى برج الجوزاء، حيث تقيم الشعرى-إيزيس الصيفية.

إذن، فإيزيس- الزباء تهبط من (كوة البئر) أسفل، أي شرقا، كي تكون قريبة من أوزيريس الشتوي، الميت، الشمالي، في حجرته التحتأرضية، أي في (مربع بنات نعش) في شمال السماء. ففي ذلك المربع يقيم أوزيريس الشمالي الميت، نظير جذيمة الوضاح (نديم الفرقدين). أي أن أوزيريس هو أيضا نديم الفرقدين اللذين يحيطان بنعشه. والفرقدان هما (العجلان) بالعربية. ونحن نعرف أن أوزيريس تمثل بعجلين أبيض وأسود. أي أن العجلين مظهراه. أحد هذين العجلين يدعى Koshab بالإنجليزية. ويرى كثيرون أن الكلمة في الأصل عربية، وأنها تحريف لكلمة (كوكب). نحن نرى أنها تحريف لكلمة (حوشب). والحوشب في العربية هو العجل. يقول لسان العرب: (الحوشب: العِجل).[١١]

إيزيس تذهب عبر كوة البئر كي تكون قريبة من أوزيريس الشمالي، لكنها تعود فتصعد، أي تذهب غربا، كي تكون قريبة من أوزيريس المنبعث الفيضي، أي نجم النطاق في حزام الجوزاء. يعنى تقترب من الحجرة العليا، التي هي نظير نجم النطاق. مع الحركة الأولى نكون أمام إيزيس الشتوية، شرقي نهر المجرة مع ميل جيد إلى الشمال، أي حيث تقترب من أوزيريس في نعشه ومن أختها نفتيس- الغميصاء في الذراع، ومع الحركة الثانية نكون أمام إيزيس الصيفية غربي نهر المجرة.

وعليه، فإيزيس لا تتحرك شمالا وجنوبا كما هو أوزيريس، بل تتحرك على محور الهرم طالعة نازلة، أي حركة شرقية غربية. وهذا يفسر جزئيا سبب إغلاق الكوتين الشمالية والجنوبية في حجرة الملكة، حجرة إيزيس. إذ لا ضرورة لهما. وهما هنا يشيران إلى وجود شمالي جنوبي لإيزيس، لكن هذا الوجود خامل وغير نشط. الوجود الشرقي الغربي هو النشط، هو الذي يفعل في الكون.

إذن، فقد تعرفنا على النفق الوحيد ، تقول لنا المصادر العربية مباشرة إن الزباء حفرته. لكن المصادر العربية تستفيض في الحديث عن أنفاق اليربوع. ولا بد أن الزباء كانت تصنع مثل هذه الأنفاق، حتى لو لم تقل لنا المصادر العربية إنها قلدت هذا النفق أو ذلك. فهي تعلمت صنعة اليرابيع. وهي تحفر حفرها.

لكن ثمة نفقا واحدا تتحدث عنه المصادر العربية، ويبدو كما لو أنه هو الذي قطعته الزباء للعبور إلى أختها زبيبة على الضفة الشرقية لنهر المجرة، أي أنه يشبه (كوة البئر) أو (كوة الكهف). بعض المصادر دعت هذا النفق باسم (السابياء). غير أن ابن سيدة في المخصص يقول إن وجود الاسم (السابياء) نابع من خطأ محدد: (وقال محمد بن يزيد السابياء جحر اليربوع وهذا خطأ منه ووهم إنما رأى باب فاعلاء في المصنف وفيه السابياء: النتاج بعد ذكر القاصعاء والنافقاء فنتج له أن السابياء من الجحرة).[١٢] أما المبرد في الكامل في اللغة والأدب فيقول إن اسم السابياء اسم آخر لنفق شهير ومعروف هو القاصعاء: (ويقال للسابياء: القاصعاء، وإنما قيل له السابياء؛ لأنه لا ينفذه فيبقي بينه وبين إنفاذه هنة من الأرض رقيقة).[١٣] ويذكر الأزهري في تهذيب اللغة ما قاله المبرد: (وقال المبرد: القاصعاء من جحرة اليربوع يقال له السابياء. وقال: سمى سابياء لأنه لا ينفذه فيتبقى بينه وبين إنفاذه هنة من الأرض رقيقة).[١٤]

وسوف نتحدث لاحقا عن الهنة الرقيقة من الأرض هذه التي تسد القاصعاء. لكن ابن سيدة إذ ينفي وجود اسم (السابياء) لا ينفي وجود النفق الثالث، بل ينفي أنه يسمى السابياء. ويقول إن هذا النفق يدعى اللغز: (واللغز شعبة من جحره يشعبها ثم يحدرها سفلا فإذا أعيت عليه مذاهبه كنس في الآخر).[١٥]

يضيف الزبيدي في تاج العروس: (اللغز.. وكذلك اللغيزاء... حفرة يحفرها اليربوع في جحره تحت الأرض. وقيل: هو جحر الضب والفأر واليربوع بين القاصعاء والنافقاء: سمي بذلك؛ لأن هذه الدواب تحفره مستقيما إلى أسفل ثم تحفر في جانب منه طريقا وتحفر في الجانب الآخر طريقا وكذلك في الجانب الثالث والرابع فإذا طلبه البدوي بعصاه من جانب نفق من الجانب الآخر).[١٦] ويزيد في مكان آخر: (اليربوع يحفر بين النافقاء والقاصعاء حفرا مستقيما إلى أسفل ثم يعدل عن يمينه وشماله عروضا يعترضها يعميه فيخفى مكانه بذلك الإلغاز).[١٧]

twitter @baghdad_library

أما الجوهري في الصحاح في اللغة فيقول: (وأصل اللغز جحر لليربوع بين القاصعاء والنافقاء، يحفر مستقيما إلى أسفل، ثم يعدل عن يمينه وشماله عروضا يعترضها، فيخفي مكانه بتلك الألغاز).[١٨]

يدعى هذا النفق أو الجحر إذن: اللغز واللغز واللغيزي والألغوزة. وهو ينحدر سافلا، وبشكل مستقيم قبل أن يميل وينحرف. وهذا هو حال (كوة البئر) أو (كوة النفق). فبعد أن ينطلق شمالا انطلاقة مبدئية، فيما يسمى بالممر الأفقي، ليرتبط بأسفل الصالة الكبرى، ينحدر باستقامة تامة، ثم يسير جنوبا، ثم يعود لسير شبه مستقيم إلى أسفل. ثم ينحدر بميل جنوبي حتى يلتقي بالممر الموصل إلى الحجرة التحتأرضية، قبيل أن ينكسر الممر ويتحول إلى خط أفقي. بذا يمكن القول بأن حركته المركزية هي حركة سافلة. تنتهي إلى أن تكون على شمال محور الهرم. ولو أضفنا إلى ذلك أنه يرتبط بالممر الصاعد إلى الصالة الكبرى وبالممر النازل نحو الحجرة التحتأرضية، فإنه يتحول إلى لغز فعلا. إذ يمكن الخروج منه من جهات مختلفة يقول ابن الجوزي في غريب الحديث عنه: (أصل اللغيزى من اللغز وهي جحرة اليرابيع تكون ذات جهتين تدخل من جهة وتخرج من جهة أخرى).[١٩]

وتركيز المصادر العربية على أن هذا النفق بالذات (يحفر مستقيما إلى أسفل)، ربما يكون إشارة مباشرة إلى أن الأنفاق الأخرى لليربوع لا تذهب إلى الأسفل، بل إلى الأعلى أو على الجانبين. وهذا هو الوضع في أنفاق حجرة الملكة. فنفق البئر هو الذي يذهب سافلا فقط، في حين تذهب الكوتان الأخريان إلى اليمين والشمال ثم تصعدان إلى الأعلى. كما أن هذا النفق هو الوحيد من أنفاق الحجرة الثانية الذي يمكن دخوله من جهة والخروج منه من جهة أخرى مختلفة.

أنفاق داخل أنفاق

اليربوع حفار محترف عظيم. وتختلف المصادر العربية حول عدد أنفاقه في المتاهة التي يصنعها لحماية نفسه. فالجاحظ في الحيوان يعدد لنا أربعة أنفاق، وإن كان لا يقول إنها كل أنفاقه: (وفي احتيال اليرابيع بالنافقاء، والقاصعاء، والداماء والراهطاء، وفي جمعها التراب على نفس باب الجحر، وفي تقدمها بالحيلة والحراسة، وفي تغليطها لمن أرادها).[٢٠] ويبدو أن هذه المعلومة تعود إلى الأصمعي أساسا. يقول ابن قتيبة في غريب الحديث:

(قال الزيادي عن الأصمعي: وله أربعة جحرة. والنافقاء وهو هذا الذي ذكرناه. والقاصعاء تسمى بذلك لأنه يخرج تراب الجحر ثم يقصع ببعضه، كأنه يسد به فم الجحر... والداماء

سمي بذلك لأنه يخرج التراب من فم الجحر ثم يدم به فم الآخر كأنه يطليه به... والراهطاء ولم يذكر اشتقاقه. قال وإنما يتخذ هذه الحجرة عددا له فإذا أخذ عليه بعضها خرج من بعض وكأن النافقاء هو الذي يخرج منه كثيرا لم يدخل فيه كثيرا. قال أبو زيد هي التي يخرج منها إذا فزِّع).[٢١]

ويعيد هذا الكلام مع قليل من الاختلاف أبو بكر الأنباري في الزاهر في معاني كلمات الناس:

(وقال الأصمعي: لليربوع أربعة جحرة الراهطاء والنافقاء والقاصعاء والداماء. فأما النافقاء والراهطاء فلا اشتقاق لهما. وأما القاصعاء فإنما قيل له ذلك؛ لأن اليربوع يخرج تراب الجحر ثم يسد به فم الآخر من قولهم قد قصع الجرح بالدم إذا امتلأ به. قال: وقيل له داماء؛ لأنه يخرج تراب الجحر كأنه يطلي به فم الآخر قال وهو مشتق من قولهم أدمم قدرك بشحم أو بطحال أي اطلها به).[٢٢]

لكن لسان العرب يخبرنا عن ابن بري أنها سبعة أنفاق: (قال ابن بري: جحرة اليربوع سبعة: القاصعاء، والنافقاء، والداماء، والراهطاء، والعانقاء، والحاثياء، واللغز، وهي اللغيزى أيضا).[٢٣]

غير أن الثلاثة الأشهر من الأنفاق هي النافقاء والقاصعاء واللغز. ويبدو في بعض الأحيان وكأن الأنفاق الأخرى نوع من الإضافة على هذه الأنفاق الثلاثة. فالداماء مثلًا كما يقول الأنباري وغيره: (وقيل له داماء لأنه يخرج تراب الجحر كأنه يطلي به فم الآخر). هنا يبدو الداماء كما لو أنه طين من جحر يتم طلاء جحر آخر به.

وفي كل حال، فإذ استفدنا من أنفاق الزباء واليربوع في فهم بعض ألغاز أنفاق حجرة الملكة، فليس خاطئا أن ننظم المعلومات عن أنفاق اليربوع انطلاقا من هذه الحجرة وكواها. ونحن بلا شك أمام ثلاثة أنفاق في هذه الحجرة؛ الكوتان الشمالية والجنوبية، ثم كوة البئر التي قد لا تبدو في البداية كما لو أنها كوة ثالثة للحجرة، ذلك أن الهدف منها ألّا تبدو كذلك من النظرة الأولى. وهذا ما يتوافق مع أن الأنفاق المركزية لليربوع ثلاثة: (النافقاء والقاصعاء واللغيزى). فهناك أساسا النافقاء والقاصعاء، ثم هناك اللغز أو اللغيزى الذي لا يريد أن يبدو كنفق. فهو أداة للتضليل والمغالطة.

twitter @baghdad_library

ويبدو لنا أن زيادة عدد الأنفاق إلى سبعة ربما كان على علاقة بالأبواب الداخلية التي اكتشفت في داخل الكوتين الشمالية والجنوبية لحجرة الملكة. فقد علمنا أن هناك بابين في الحجرة الجنوبية وبابًا واحدًا في الحجرة الشمالية. وهناك من يفترض وجود باب آخر في هذه الحجرة. وكل باب يقسم الكوة إلى كوتين أو نفقين فعليا. وعليه فالكوة الجنوبية هي عمليا ثلاثة أنفاق. في حين أن الكوة الشمالية نفقان حتى الآن. وإذا اكتشف باب ثالث، نكون أمام ثلاثة أنفاق. وهكذا فلدينا خمسة أنفاق في الكوتين، قد تصبح ستة إن اكتشف باب آخر في الكوة الشمالية. ولو أضفنا اللغيزى، أي نفق البئر، فسنصبح أمام سبعة أنفاق. وهذا قد يجعلنا نفهم لماذا تبدو أنفاق اليربوع وكأنها ثلاثة أو سبعة. فحين يتم الحديث عن سبعة أنفاق فإن ذلك يشمل فيما يبدو الأبواب الوهمية التي تقطع الأنفاق فتضاعف عددها.

ولعل ما يورده لسان العرب عن أبي زيد يؤكد ما نقول. فالأنفاق حسب أبي زيد: (هي النافِقاء والنُّفَقاء والنُّفَقة والرُّهطاء والرُّهَطة والقُصَعاء والقُصَعة).[٢٤] وتشابه الأسماء هنا يعطي الانطباع بأن كل مجموعة أسماء متشابهة تخص نفقًا واحدًا وتفريعاته الداخلية:

المجموعة الأولى : النافقاء والنفقاء والنفقة

المجموعة الثانية : الرهطاء والرهطة

المجموعة الثالثة : والقصعاء والقُصعة

مجموعة الأنفاق هنا توحي بأننا في كل مجموعة نتحدث عن نفق واحد وتفريعاته. التفريعات هذه قد تكون حديثا عن الأنفاق وراء الأبواب داخل الكوتين الشمالية والجنوبية. ويختلف حول الراهطاء. وتبدو أحيانا كما لو أنها هي اللغيزي، أو أنها شيء يتبع القاصعاء. يقول لسان العرب: (الراهطاء... من جحرة اليربوع وهي أول حفيرة يحتفرها. زاد الأزهري بين القاصعاء والنافقاء يخبئ فيه أولاده).[٢٥] وهذا يشبه الحديث عن اللغيزى. لكنه يضيف نقلا عن أبي الهيثم: (الراهطاء التراب الذي يجعله اليربوع على فم القاصعاء وما وراء ذلك وإنما يغطي جحره حتى لا يبقى إلا على قدر ما يدخل الضوء منه قال وأصله من الرهط وهو جلد يقطع سيورا يصير بعضها فوق بعض ثم يلبس للحائض تتوقى وتأتزر به).[٢٦] وكل هذا يشير إلى أن الراهطاء ليس نفقا أصليا فيما يبدو. وعليه نكون أمام نفقين ينقسمان إلى أقسام: النافِقاء والنُّفَقاء والنُّفَقة، ثم: والقُصَعاء والقُصَعة. أي أننا أمام خمسة أنفاق. وإذا أضفنا إلى ذلك نفق اللغيزى، الذي يرى البعض أنه الرهيطاء، نكون أمام ستة أنفاق. لكن إذا وافقنا على أن اللغيزى هو

الرهطاء، فلا بد أن يكون قد نظر إلى اللغيزى على أنه مقسوم إلى قسمين، بالتالي نكون في الوقع أمام سبعة أنفاق:

هي النافقاء والنفقاء والنفقة والرهطاء والرهطة- أي اللغيزى- والقصعاء والقصعة. وإذا قارنا ذلك مع أنفاق حجرة الملكة نكون أمام الصورة التالية:

الكوة الجنوبية، المقسومة ببابين، يحولانها إلى ثلاثة أنفاق= النافقاء والنفقاء والنفقة

الكوة الشمالية، المقسومة بباب واحد، يحولها إلى نفقين = القصعاء والقصعة

كوة البئر، التي يمكن قسمتها إلى قسمين = اللغيزى، أي الرهطاء والرهطة.

كوة البئر تقع بين الكوتين الشمالية والجنوبية، كما يقع اللغيزي بين النافقاء والقاصعاء تماما. فقد عرفنا من الجوهري أن: (اللغز جحر لليربوع بين القاصعاء والنافقاء، يحفر مستقيما إلى أسفل)، كما رأينا أن لسان العرب، نقلا عن أبي زيد، يضع الراهطاء في الوسط بين المجوعتين متشابهتي الأسماء: (النافقاء والنفقاء والنفقة، والرهطاء والرهطة، والقصعاء والقصعة).

أما أن كوة البئر يمكن قسمتها إلى نفقين فأمر واضح. فمن حجرة الملكة يمكن الانطلاق عبر الصالة الكبرى نحو حجرة الملك، ومنها يمكن الانطلاق سافلا نحو الحجرة التحتأرضية.

إذن، يمكننا أن نسمى الكوة الجنوبية: النافقاء، والشمالية: القاصعاء، وكوة البئر: اللغز أو اللغيزى!

وفي هذه الحالة، وإذ صحت حساباتنا لأنفاق اليربوع، فلن نعثر أبدا على باب جديد في الكوة الشمالية. يعني أن الكوة الشمالية ستظل بباب واحد، وسوف تقسم إلى قسمين لا ثلاثة. وإذا ثبت هذا يكون دليلا شديد القوة على أن لكوى حجرة الملكة علاقة أكيدة بأنفاق الزباء واليرابيع.

حفر وإغلاق

إذن لدينا كوى أو أنفاق تنطلق من حجرة الملكة، ثم تغلق من داخلها بأبواب صانعةً أنفاقًا جديدة. وهذا ما تعلمنا به المصادر العربية حول سلوك اليرابيع. فهي تحفر أنفاقها وتغلقها.

twitter @baghdad_library

والتقصيع، الذي أخذ منه القاصعاء، يعني الحفر والسد معا. يقول ابن سيدة في المخصص: (والقصعة، والقصعاء، والقاصعاء: كله جحر يحفره اليربوع، فإذا فرغ ودخل فيه، سد فمه بتراب، لئلا تدخل عليه حية أو دابة. وقيل: هي باب جحره، ينقبه بعد الداماء في مواضع أخر. وقيل: قاصعاؤه: تراب يسد به باب الجحر. وقصع الضب: سد باب جحره. وقيل: كل ساد مقصّع).[٢٧] ويضيف في مكان آخر: (فأما القاصعاء فإنه يحفر جحره فإذا فرغ ودخل فيه سد فم الجحر بتراب يجيء به وإنما يفعل ذلك لكيلا تدخل عليه حية ولا دابة وقد قصع وسد باب جحره).[٢٨] ويؤكد لسان العرب هذا: (وقصع الضب سد باب جحره وقيل كل ساد مقصّع).[٢٩] وهكذا فثم هنا حفر لأنفاق من جهة، وسد لها من جهة أخرى. إذ لا بد لليربوع أن يحفر نفقا للهروب، وأن يتركه مخفيا في اللحظة ذاتها. وهذا يقتضي أن يغلقه إغلاقا خفيفا يستطيع أن يزيحه بسرعة عند الخطر. وتتحدث المصادر العربية عن هذا الإغلاق الخفيف. ويبدو لنا أن السابياء التي ظن بعضهم أنها جحر من أجحرة اليربوع هي في الواقع اسم للإغلاقة الخفيفة. وهذا يتوافق مع أن السابياء هو اسم للغشاء الرقيق الذي يحيط بالجنين في بطن أمه. يقول المبرد: (ويقال للسابياء: القاصعاء، وإنما قيل له السابياء لأنه لا ينفذه فيبقي بينه وبين إنفاذه هنة من الأرض رقيقة).[٣٠] الكلام غامض قليلا، لكننا قد نفترض أن السابياء اسم للهنة الصغيرة على باب القاصعاء. ويبدو أن هذه الهنة الرقيقة لا تخص القاصعاء وحده، بل تتكرر في النافقاء حسب ابن سيدة: (وأما النافقاء فإنه يعمد إلى مكان من داخل جحره فيرقه فإن دخلت عليه دابة أو حركه إنسان ضرب ذلك برأسه فهشمه وخرج منه فذهب).[٣١] ويضيف: (فإن حرك في جحره من قبل القصعة {أي القاصعاء} أو غيرها ضرب برأسه النافقاء فانطلق يعدو في الأرض).[٣٢] إذن، فالنافقاء أيضا مرقق في مكان ما؛ كي يسهل فتحه. أي أن هنة رقيقة من الطين على بابه لتخفيه.

نحن نعتقد أن هذه الهنة الرقيقة تتمثل في كوتي حجرة الملكة بالإنشات القليلة التي تمنع الكوتين من الانفتاح على الحجرة. وقد تمكن واينمان ديكسون، في نهاية القرن التاسع عشر، من ثقب هذه الإنشات القليلة بالإزميل فانفتحت الكوتان على الحجرة. الإنشات القليلة، أو الهنة الرقيقة من الأرض، باب يوحي بالإغلاق. لكن اليربوع- إيزيس يستطيع إزاحتها كي يعبر على الكوة- النفق إذا داهمه الخطر. لقد صنعت الزباء- إيزيس كما فعل اليربوع. جعلت هنة رقيقة من الحجر تسد النفق- الكوة. أو قل: لقد صنع اليربوع كما تصنع الإلهة. فكل واحد منها هو باب خديعة، تستطيع إيزيس أن تدفعه برأسها وتهرب عند الخطر، أي كما يفعل اليربوع بالضبط.

بهذا نتمكن من فهم الأبواب الداخلية في الكوتين، ونتمكن من فهم لم أغلقت الكوتان عند مدخل الحجرة. فإيزيس تقصّع، أي تحفر وتسد. إنها تؤمن نفسها، كما هو حال الزباء، وكما هو حال اليربوع. الإنشات القليلة التي تسد الأنفاق مسألة حياة أو موت لليربوع والزباء. ويبدو أنها كانت لإيزيس في الحجرة الوسطى من الهرم الأكبر.

قصيعة

أهذا سيناريو خيالي ممتع، أم أنه بناء ميثولوجي حقيقي يعكس تصورًا فلكيًا لا ندرك كل أبعاده بعد؟ لا، ليس سيناريو خياليًا فقط. ويأتينا دليل قوي جدا على ما نقول من العهد القديم، ومن سفر أيوب على وجه التحديد. وكنا قد أفردنا بابا خاصا لهذا السفر في كتابنا. وفي هذا الباب كنا قد ناقشنا أسماء بنات يعقوب الثلاث: (يميمة، قصيعة، قرن هفوك). وتوصلنا إذ ذاك إلى أننا مع هذه الأسماء أمام ثالوث حده الأوسط، أي قصيعة، أنثى، مثل إيزيس والعزى. كما افترضنا أن اسم الابنة الوسطى (قصيعة) الذي لم يتوصل الباحثون إلى فهم معناه، على علاقة بأنفاق الزباء واليربوع. أي أنه على علاقة باسم (قاصعاء) أو (قصعة) الذي يعطى لأحد أهم أنفاق اليربوع. كما أنه على علاقة بالفعل قصع وقصّع، الذي رأينا أنه يعني: الحفر والسد. عليه فإن معنى اسم (قصيعة)، الابنة الوسطى من بنات أيوب: التي تحفر وتسد. أو التي تدخل من نفق لتخرج من آخر. أو التي تختفي (تقصع) في أنفاقها. وعليه، فالأغلب أن يكون الاسم هو (قاصعة). يقول لسان العرب:

(قَصَّعَ الرجلُ بيته إذا لزمه ولم يبرحه... وقَصَّعَ الضبُّ: سدّ باب جحره، وقيل: كل سادٍّ مُقَصِّع. وقَصَّعَ الضبُّ أيضاً: دخل في قاصعائه... ابن الأعرابي: قُصَعَةُ اليَرْبُوعِ وقاصعاؤه أن يَحْفِرَ حَفِيرةً ثم يسد بابها.. وقَصَّعَ أَوَّلُ القوم من نَقَب الجبل إذا طلعوا).[٣٣]

هذا يعني أن بنت أيوب الوسطى مثل الزباء وإيزيس حافرة أنفاق ومغلقتها. وعليه، فاسمها يجب أن يكون في الأصل (القاصعة).

إذن، فنحن لا نتخيل. نحن نعرض أسطورة حقيقية تتجسد ماديا، بالمعمار، في الهرم الأكبر.

twitter @baghdad_library

أين تتجه الكوة الشمالية لحجرة الملكة؟

يفترض بوفال بناء على حساباته أن كوة حجرة الملك الجنوبية كانت تتجه وقت بناء الأهرام نحو الشعرى اليمانية في جنوب السماء. في حين أن الكوة الشمالية كانت تتجه نحو أحد الفرقدين في نعش بنات نعش، أي النجم (كوشاب)، على فرض أن الكوة، التي لم تكتشف بعد نهائيا، ستظل على الزاوية التي اتخذتها حتى تنغلق قبيل الوصول إلى سطح الهرم.

فرضيتنا تعارض بقوة هذا التقدير. ذلك أن من المنطقي أن نصدق أن كوتي حجرة الملك تتجهان إلى نجم النطاق في الجنوب وإلى نجم الثعبان في الشمال. فنجم النطاق هو أوزيريس الجنوبي، أي أنه سهيل داخل حزام الجوزاء، في حين أن أوزيريس الشتوي، أي الشمالي، يتمثل كما قلنا بحية، وهذا ما يتوافق مع نجم الثعبان. فهو حية أيضا. كما أن من المنطقي أن تتجه الكوة الجنوبية نحو الشعرى-سوبدت، فهي نجمة إيزيس في جنوب السماء. لكن لماذا تتجه الكوة الجنوبية نحو نجم كوشاب؟ وكنا قد بينا قبل قليل أن كوشاب هو أحد الفرقدين، أي أحد مظهري أوزيريس؟ وكنا افترضنا في فصل سابق أن كلمة (كوشاب) هي على الأغلب تحريف لكلمة (حوشب) العربية التي تعني: العجل. والفرقد هو العجل أيضا. وعليه فالفرقدان عجلان، أي ذكران. ويكون السؤال: لماذا تتجه كوة في حجرة إلهة أنثى إلى نجم مذكر، في حين أن كوتي حجرة الملك أوزيريس تتجهان فقط إلى نجميه المذكرين؟

هذا السؤال يجعلنا نشك في أن الكوة الشمالية تتجه إلى نجم كوشاب. وعليه، يجب علينا أن نفترض أن الكوة سوف تغير اتجاهها في المسافة غير المكتشفة كي تتجه نحو نجم مرتبط بإيزيس. وفي هذه الحال، ليس أمامنا في السماء الشمالية غير نجم (عناق)، أي النجم الأوسط في ذيل بنات نعش. هذا يعني أن على الكوة أن تنحرف غربا من جديد، كي تتجه إلى هذا النجم، نجم عناق. وبذا يكون قد اعتدل الأمر. فكوتا حجرة أوزيريس تتجهان نحو نجميه الشمالي والجنوبي، وكوتا إيزيس تتجهان نحو نجميها الجنوبي والشمالي: الشعرى وعناق، لكن من دون أن تفتحا عليهما، لأن حركتها شرقية- غربية لا شمالية جنوبية. وكنا قد أوضحنا من قبل أن نجم عناق، الذي يدعى ميزار في الغرب، يوحي بارتباط واضح بالعنقاء العربية، التي هي طائر إيزيس، أو هي إيزيس الشمالية. وتصديقا لهذا يخبرنا البكري في معجم ما استعجم أن واحدة من مدينتي الزباء، المار

ذكرهما، تدعى الخانوقة: (الخانوقة على وزن فاعولة، هي المدينة التي بنتها الزباء على شاطئ الفرات، من أرض الجزيرة، وعمدت إلى الفرات عند قلة مائه فسكر، ثم بنت في بطنه أزجا جعلت فيه نفقا إلى البرية، وأجرت عليه الماء فكانت إذا خافت عدوا دخلت في النفق، وخرجت إلى مدينة أختها الزبيبة).[٣٤] والخنق على علاقة بالعنقاء، طائر إيزيس. فاسم العنقاء باليونانية، فونيكس، يعني الخانقة. كما أن اسم العنقاء في العربية على علاقة بالعنق، أي بموضع الخنق. وعليه، فإحدى مدينتي الزباء- إيزيس على علاقة بالعنقاء- عناق.

فرضيتنا إذن تتوقع اتجاه الكوة الشمالية النهائي. وإذا صح توقعها تكون هذه الفرضية سليمة من حيث المبدأ. اختبارها، إذن، يكمن في هذه النقطة. فإذا ما اكتشف أن الكوة الشمالية كانت تتجه، وقت بناء الأهرام، نحو نجم عناق تكون قد ثبتت صحتها.

السهوات

نفضل أن نسمي الكوى في حجرتي الملك والملكة بالسهوات، الواحدة سهوة. فالكوة في العربية تدعى: السهوة. يقول لسان العرب: (والسهوة: الروشن. والسهوة: الكوة بين الدارين).[٣٥] وهذه مسألة ليست قليلة الأهمية. فهي تربط الكوة باسم الإله أوزيريس بالمصرية (ساه، ساهو). كما تربطه باسمه المشابه بالعربية: سهيل، الذي يعني (سه إل، ساه إل). ونحن نعلم أنه كان يتم تحنيط جثة الملك الميت في عملية تستغرق سبعين يوما وتدعى (ساه، ساهو). ويعتقد أن الجثة كانت توضع في الهرم الأكبر، في حجرة الملك، كي تنطلق روح الملك نحو السماء. وانطلاقا من فصل سابق فقد أوضحنا أن الجثة تحنط كي ترسل هي إلى السماء الجنوبية. واستندنا في ذلك إلى نص هندي من البيروني في (تحقيق ما للهند من مقولة)، يقول: إن إلها يدعى (سومدت) رفض أن يتخلى عن جسده فصنع له الإله الأكبر منطقة في السماء يستطيع فيها أن يأخذ جسده معه. هذه المنطقة هي جنوب السماء، حيث أوزيريس المنبعث. لذا نعتقد أن الجثة كانت توضع عند الفتحة الجنوبية في حجرة الملك؛ كي تتمكن من الصعود على جنوب السماء. من أجل هذه دعيت الكوة بالعربية (سهوة) كي ترتبط بساهو-أوزيريس، وكي تشير إلى عملية التحنيط (ساهو).

twitter @baghdad_library

فصل 17

الهرم المؤزر

(فوثبت الصخرة تسعى وموسى يقول: إزاري صخرة، إزاري صخرة)

الجاحظ- الحيوان

توصلنا فيما سبق إلى أن الهرم الثالث يمثل أوزيريس في مظهره الساكن الشتوي، وأنه نظير نجم المنطقة في حزام أوريون المقلوب، أي الحزام الشمالي. وتدعو المصادر العربية هذا الهرم، الذي هو الأصغر من بين أهرام الجيزة، الثلاثة باسم (الهرم المؤزر). ولم يتم التصدي لتقديم تفسير مقنع ومقبول لهذا الاسم. يقول معجم البلدان لياقوت الحموي: (ولهذه الأهرام أبواب في آزاج تحت الأرض، طول كل أزج منها مائة وخمسون ذراعاً، فأما باب الهرم الشرقي {الأكبر} فمن الناحية البحرية وأما باب الهرم الغربي {الهرم الأوسط} فمن الناحية الغربية وأما باب الهرم المؤزر {الهرم الأصغر} فمن الناحية القبلية).[١] ويؤكد الزبيدي في تاج العروس التسمية: وهناك (أهرام صغار كثيرة منها الهرم الثالث ويسمى بالموزر).[٢]

السؤال هو: لم سمي هذا الهرم بالمؤزر، وما معنى هذا الاسم، وهل له إشارة ميثولوجية دينية؟

نحن نعتقد أن لهذا الاسم علاقة بالغلاف الصواني غير المكتمل الذي يحيط بالهرم. فالهرم الأصغر وحده من بين الأهرام الثلاثة الذي بنيت طبقة من حجر الصوان عليه، ترتفع إلى أقل من نصفه، ثم تتوقف. وقد قيل الكثير عن هذه الطبقة وعن سبب وجودها، ثم عدم اكتمالها. وكمثل على هذا يقول د. زاهي حواس: (الهرم مميز لأنه الوحيد من الأسرة الرابعة الذي كُسي بستة عشر مدماكا من الغرانيت. وقد خطط منقرع ليغطي كل السطح بالغرانيت لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب موته المفاجئ).[٣]

أما نحن فنظن أنه فيما يخص الأهرام الثلاثة بالذات، فإن علينا أن نلجأ إلى الميثولوجيا لحل كل لغز من ألغازها، قبل أن نلجأ إلى أي فرضية أخرى. يجب البدء بالسؤال عن المغزى الديني أولا، ثم استقراء ما بأيدينا من نصوص ميثولوجية علها تفسر اللغز. وإن عجزنا يمكن، بعد ذلك، الذهاب إلى فرضيات معمارية أو اقتصادية، مثل أن الفرعون منقرع {منكاورع} مات قبل أن يكمله، أو أن نفقاته كانت أكثر مما يحتمل. فالأهرام مشروع ميثولوجي هائل أولا، ثم هي بعد ذلك أي شيء. المغزى الميثولوجي، المعنى، المراد، قبل الصنعة المعمارية أو غيرها. وإلا انتهينا إلى ما انتهى إليه: الفقيه عمارة اليمني في حديثه عن الأهرام:

(تنزه طرفي في بديـع بنائـها ولـم يتنزه في المراد بها فكري).[٤]

و(المراد بها) هو الأساس هنا. يجب ألّا نسأل: لماذا لم يكتمل الإزار الحجري؟ بل يجب أن نسأل: ما المقصود من إزار حجري غير مكتمل؛ لأن السؤال الأول يسوقنا نحو جواب متضمن فيه. فهناك شيء (منع) اكتمال الإزار. وهذا السبب لا بد أن يكون متعلقا بكل تأكيد بموت الملك أو بوضع دولته الاقتصادي أو ما شابه. وكذا حدد السؤال الإجابة. أما حين نسأل: ما المغزى الديني من عدم اكتمال الإزار؟ فنحن نوافق على أن هناك قصدا من وراء عدم اكتماله، يدفعنا إلى إعادة البحث والتنقيب في المادة المتوفرة علنا نصل إليه. من أجل هذا نحن نفترض أن للغلاف الغرانيتي الناقص المحيط بالهرم الثالث مغزى ميثولوجيًا دينيًا، وأن تسمية المصادر العربية له بالمؤزر على علاقة بهذا الغلاف.

يعطينا جذر (أزر) بالعربية معنى التقوية والمعاونة والتعضيد، ومعنى ارتداء المئزر أو الإزار، ثم معنى التغطية. يقول لسان العرب: (أزر النبت الأرض: غطاها).[٥] وآزر اسم والد النبي إبراهيم. جاء في القرآن: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً).[٦] وهناك من يدعي أن آزر اسم صنم أيضا. ونحن نعتقد أن المصادر العربية أطلقت على الهرم الأصغر اسم المؤزر بمعنى الذي يرتدي الوزرة، أو المقوى بإزار من الصخر. ولا نعتقد أن المصادر العربية اختلقت هذا الاسم على حسابها، بل نفترض أنها تابعت المصادر القبطية في ذلك.

لكن المهم أن نقول إن الإزار- الصخرة ليس أمرا غريبا في ميثولجيا المنطقة أبدا. فهو ثيمة ميثولوجية معروفة. ويخبرنا الجاحظ في البرصان والعرجان عن:

twitter @baghdad_library

(يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن علي بن يزيد، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: «لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن موسى كان إذا دخل الماء ليغتسل دخل وعليه إزاره، فإذا بلغ الماء منه عورته خلع الإزار فوضعه على صخرة. قال: فقالت بنو إسرائيل: إن موسى إنما يفعل هذه لأنه آدر، فلما كان ذات يوم جاء ليغتسل فتناول الإزار فوثبت الصخرة تسعى وموسى يقول: إزاري صخرة إزاري صخرة، وهو يضربها بعصاه، فلما ضرب أثر ذلك فيها حتى مر على الملإ من بني إسرائيل، فعلموا أنه ليس بآدر).[٧]

أما الآدر حسب القاموس المحيط فهو نوع من الفتاق: من ينفتق صفاقه فيقع قصبه في صفنه، ولا ينفتق إلا من جانبه الأيسر، أو من يصيبه فتق في إحدى خصيتيه. ويضيف الجوهري في الصحاح في اللغة: (الأدرة: نفخة في الخصية. يقال: رجل آدر بين الأدرة[٨]

صيحة موسى الميثولوجية (إزاري صخرة، إزاري صخرة) هذه صيحة كاشفة مدهشة. وكنا قد توصلنا في فصول سابقة إلى أن موسى طراز من أوزيريس، وإلى أنه يوحي، بشكل خاص، إلى أنه أوزيريس في نغمته العالية. لكنه هنا غامض، ويصعب الإمساك به وبطبيعته. فهو (كان إذا دخل الماء ليغتسل دخل وعليه إزاره، فإذا بلغ الماء منه عورته خلع الإزار). فهو يظل مرتديا إزاره إلى أن يرتفع الماء إلى عورته. وحين يرتفع الماء يلقي إزاره على الصخرة. وهي الصخرة ذاتها التي رأينا طوال الوقت في فصول هذا الكتاب أنها الصخرة التي تذهب أرواح من شق فيها إلى الأعماق. ارتفاع الماء هنا ربما كان إشارة إلى فيضان النيل. فحين يبدأ النيل بالارتفاع يلقي موسى إزاره على الصخرة. أما حين يبدأ الماء في الانحسار فإنه يعود إلى ارتداء الوزرة فيما يبدو. رمي الوزرة على الصخرة إذن قد يكون رمزا لانسحاب النيل في طوره الشتوي. فحين يرمي موسى إزاره على الصخرة يكون النيل في قمة فيضانه، ويكون هو مفتوقا، أي يندلع داخله كما تندلع المياه. وحين يرتدي إزاره، أي حين يكون مؤزرا، يكون الانقلاب الشتوي قد حل. إنه يلعب الدورين معا. مرة يكون صيفا فياضا ومرة شتاء.

أما أن الآلهة يتحولون إلى صخرة أو جبل عند موتهم، فهذا ما تقوله لنا المنطوقة ٢٥٠ من نصوص الأهرام: (وقفت أمام الآلهة الذين شهدوا تحول جسد رجل إلى جسد روح، والذين شهدوا البعث عندما دخلت جثة أوزيريس الجبل، وعندما خرجت روح أوزيريس نيّرة... عندما خرج من الموت شيئا منيرا). جثة أوزيريس تدخل الجبل، ثم تنبعث وتتحول إلى روح منيرة. لكن المهم هنا أن التأزير رمز للشتاء. وثم صدى

لأسطورة موسى وإزاره في سفر إرميا أيضا. ففي الإصحاح الثالث عشر من السفر طلب الرب من أرميا شيئا غريبا:

(هكذا قال الرب لي اذهب واشتر لنفسك منطقة من كتان وضعها على حقويك ولا تدخلها في الماء. فاشتريت المنطقة كقول الرب ووضعتها على حقوي. فصار كلام الرب إلي ثانية قائلا خذ المنطقة التي اشتريتها التي هي على حقويك وقم انطلق إلى الفرات واطمرها هناك في شق صخر. فانطلقت و طمرتها عند الفرات كما أمرني الرب. وكان بعد أيام كثيرة أن الرب قال لي قم انطلق إلى الفرات وخذ من هناك المنطقة التي أمرتك أن تطمرها هناك. فانطلقت إلى الفرات وحفرت وأخذت المنطقة من الموضع الذي طمرتها فيه وإذا بالمنطقة قد فسدت لا تصلح لشيء).[٩]

هكذا طلب من إرميا أن يشتري (منطقة) أي إزارا، ويذهب به ويطمره في (شق صخر عند الفرات). وبالفعل أخذ المنطقة ووضعها في الشق، ثم عاد بعد فترة فاستخرجها فوجدها فاسدة لا تصلح لشيء. ولا بد من لفت الانتباه إلى أن الكلمة التي ترجمت إلى منطقة هي (يزور) أي (إزار) أو (مئزر). لكن ترجمتها إلى المنطقة موفقة. ذلك أنها تذكر بنجم المنطقة في نجوم الحزام، أي نجمة القرار الشتوي. ونحن هنا نتحدث عن الهرم (المؤزر) نظير نجم المنطقة.

المهم أن إرميا ذهب إلى منطقة الفرات ودفن المنطقة، إي المئزر، في شق في الصخر. أي تقريبا كما فعل موسى. الفارق أن موسى رمى المئزر على الصخرة، في حين أن إرميا دفنه فيها. ومن خلال الفصول السابقة فإن الدفن أو الرس في شق صخرة تعبير عن دخول الإله في بياته الشتوي. لكن في نهاية سفر إرميا يعود الإله في مظهره الفيضي الدفاق. فإرميا يكتب كتابا يوصي فيه أحد الملوك قائلا له: (ويكون إذا فرغت من قراءة هذا السفر أنك تربط به حجرا وتطرحه إلى وسط الفرات. وتقول: هكذا تغرق بابل ولا تقوم من الشر الذي أنا جالبه عليها)[١٠]

وكذا تدفق الفرات وصار قادرا على الإغراق.

ولدينا دليل فلكي عربي على أن أوزيريس الشمالي، الشتوي، على علاقة بالمئزر. فأوزيريس لا يوجد في مكان واحد أو اثنين في السماء، بل في أكثر من ذلك. فهو موجود في الجنوب ممثلا بنجم سهيل. كما أن له موجدًا داخل حزام الجوزاء، وإن لم يكن يملك حزام الجوزاء كله. فحزام الجوزاء تركيب من المبدأين المذكر والمؤنث بنسبة اثنين إلى واحد. اثنان لأوزيريس وواحد لإيزيس. النطاق يمثل أوزيريس الجنوبي في

twitter @baghdad_library

حزام الجوزاء. والمنطقة تمثل أوزيريس الشتوي لكن في حزام الجوزاء. كذلك هو موجود في الشمال. وجوده الشمالي يتمثل بنجم (السها) في مقابل وجوده الجنوبي المتمثل في نجم (سهيل)، كما أنه موجود في نجم الثعبان الذي يعادل نجم المنطقة في حزام الجوزاء. وفوق هذا فمن المحتمل جدا أن يكون موجودا في نعش بنات نعش. فالإله الميت، الذي هو تركيب من مؤنث ومذكر، يموت شتاء ويوضع في النعش، مثلما أنه يوضع في الصيف في (المهد) الجنوبي الذي يمثله حزام الجوزاء.

المهم أن (ساه) الشمالي هو نجم (السهى). وكما أوضحنا من قبل فسهيل هو (ساه) المصري، أي أوزيريس. إنه (ساه إل) أي الإله ساه. أما (السها) فهو (ساه) من دون (إل). أو أنه مقلوب لسهيل؛ فبدل ساه إل، نحن أمام إل سها، أي أمام إل ساه. هذا ساه الصيفي وذاك ساه الشتوي.

ويرتبط السها الشمالي هذا عند العرب بنجم آخر هو نجم (المئزر). وهما معا يشكلان توأما. وحين يقال السها فإنه يشار إلى النجمين معا في كثير من الأحيان. وهذا يعني أن السها، أي أوزيريس الشمالي، مؤزر، بالضبط كما هو الحال مع موسى.

وتتبدى أهمية التأزير بالصخر للهرم الثالث من أنه الوحيد بين الأهرام الثلاثة الذي يملك حزاما من طراز خاص من الحجارة الصوانية. وإذا أخذنا النظرية الجديدة التي تقول إن الأهرام ربما تكون بنيت بمكعبات من الطين بعد أن شويت بالنار، نكون أمام واقعة شديدة الأهمية، وهي أن الصخر الفعلي يخص الهرم الثالث فقط. أما الهرمان الآخران فهما من الطين. الهرم الثالث أيضا بني من الطين، لكنه الوحيد الذي تأزر بالصخر. صاحب النظرية هو الفرنسي Joseph Davidovits وهو يفترض أن الطين ومواد أخرى أُخذت من تربة نهر النيل ووُضعت هذه المواد معاً في قوالب حجرية محكمة، ثم سخنت لدرجة حرارة عالية، مما أدى إلى تفاعل هذه المواد وتشكيلها حجارة تشبه الحجارة الناتجة عن البراكين أو التي تشكلت قبل ملايين السنين، وقد أثبتت تحاليله وجود كميات من الماء في هذه الحجارة. ومثل هذه الكميات غير موجودة في الأحجار الطبيعية. كما لاحظ أن هناك تناسقا في البنية الداخلية للأحجار، الأمر الذي يجعل من غير المعقول أن تكون قد جلبت ثم نحتت بهذا الشكل.

نحن نعتقد أن هذه النظرية جديرة بالاعتبار، وأنه يجب عدم المسارعة إلى رفضها. فهناك ما يؤيدها من التقاليد الميثولوجية حول الأهرام. وقد رأينا من قبل كيف أن الأهرام منشأة ميثولوجية قبل أن تكون معمارية. فإذا قالت الميثولوجيا إن الهرم يجب أن يبنى بالطين. فهذا أمر ديني لا يمكن التلاعب به، أو تجاوزه أبدا. المعمار هنا خاضع

للميثولوجيا. ولا سبيل له لفك أسره.

ومن أجل ذلك سوف نذهب إلى هيرودتس كي نستقرئ خبره عن هرم أسيخس الغريب:

(ولما شاء أسيخس أن يتميز من أسلافه على العرش، كان خياره أن يشيد هرما من القرميد تخليدا لذكرى عهده. فلما تم النصب وضع لوحة من الحجر وعليها العبارات التالية: «لا تقلل من شأني بمقارنتي بالأهرامات المشادة بالحجر. فلقد نصبوا عمودا في بحيرة فلما تجمع حوله الطين جعلوا منه القرميد. وهكذا شيدوني. فأنا فوق هذه الأهرامات مثلما يفوق رع جميع الآلهة).[١١]

إذن، فهرم أسيخس شيد من الطين. ويبدو لنا أن فعل ذلك يشابه التلة الأولى التي برزت بعد انحسار مياه الطوفان. لذا فلا يستطيع أحد أن يستخف بهذا الهرم. فهو فوق الأهرام جميعا. لأن كل هرم بني يمثل التلة الأولى. إنه الهرم الأول والتلة الأولى. وما هي الأهرام إن لم تكن تلالا أولى.

أما في المصادر العربية فقد مر معنا في فصل (زمن الفطحل) كيف أن الزمن الأول هو الزمن الأول، زمن الفيضان. هو زمن الطين. يقول رؤبة بن العجاج في أرجوزته الميثولوجية الخطيرة التي لا يمكن فهم الزمن الأول المصري من دونها:

تسألني عن السنين كم لي   فقلت: لو عمرت عمر الحسل

أَو عمر نوح زمن الفِطَحْل   والصخر مبتل كطين الوحل.

إذن فزمن الفطحل، الذي أوضحنا من قبل أنه زمن (بتاح إيل)، أي الزمن البدئي الأول، تكون فيه الحجارة رطبة: (والصخر مبتل كطين الوحل)! الصخر، صخر الأهرام إذن، وهي نصب الزمن الأول، كانت صخورا مثل طين الوحل. ويخبرنا الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب أن رؤبة سئل عن قوله (زمن الفطَحْل فقال: أيام كانت الحجارة فيه رِطابا، وإذ كل شيء ينطق).[١٢]، أي كانت الحجارة فيه مثل (طين الوحل). ويضيف الجاحظ في الحيوان عن هذا الزمن أن الصخور فيه: (رطبة لينة، وإن كل شيء قد كان يعرِف وينطق، وإن الأشجار والنخل لم يكن عليها شوك).[١٣] ويخبرنا أبو العلاء في الصاهل والشاحج أن: (الأنيس عندهم أن زمن الفطحل زمان كان بعد الطوفان عظم فيه الخصب وحسنت أحوال أهله).[١٤] أما القاموس المحيط فيقول: (الفِطَحْل... دهر لم يخلَق فيه الناس بعد، أو زمن نوحٍ عليه السلام، أو زمن كانت الحجارة فيه رطابا).[١٥]

twitter @baghdad_library

وينقل لنا الثعالبي أبياتا لأمية بن الصلت يبدو أنها تتحدث عن هذا الزمن بالذات، مؤكدة أنه زمن الحجارة الرطبة:

وإذ هم لا لبوس لهم عـراة وإذ صم السلام لهم رطـاب

بآيـــة قام ينطق كـل شـيء وخان أمانة الديك الغـراب

والسِلام هي الحجارة. وعليه فقد كانت الصخور رطبة في أيدي الناس في الزمن الأول. وعليه، فالزمن الأول هو زمن الفيضان، أو بعده فورا، حيث كان كل شيء غارقا في الماء، وحيث لم يكن إلا الصخور الرطبة. لذا فإن استعادة هذا الزمن تقتضي البناء بـ(طين الوحل). تأسيس الزمن الأول يقتضي العمل بمواده، أي البناء بالطين. ميثولوجيا لم يكن هناك حجارة أصلا في الزمن الأول. كان هناك طين فقط. أول تلة ظهرت بعد أن (غيض الماء) كانت تلة طينية؛ لذا عادت حمامة نوح ملوثة الأقدام بالطين حين وقفت عليها. وهذا ما يجعل من فرضية دافيدوفيتش أمرا ذا معنى؛ التلال الثلاثة الأولى، أي الأهرام، شيدت بالطين. والوحيد منها الذي أزر بالصوان هو الهرم الثالث. إنها فرضية قد تكون فتحت الباب لحل لغز بناء الأهرام، ولغز اختلاف الهرم الثالث.

أما فيما يخص الكسوة من الحجر الصواني الأحمر، التي يعتقد أنها جلبت من أسوان، فهي الأخرى فيما نظن ذات معنى ميثولوجي. إذ يذهب الناس مئات الكيلومترات إلى أسوان كي يحضروا صوانيا أحمر هكذا من أجل المتعة. وبسبب هذه الكسوة فقد سماه العرب بالأحمر إضافة إلى المؤزر. يقول المقريزي في الخطط: وكان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه، سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر، فأخرج إليه النقابين والحجارين وجماعة من أمراء دولته وعظماء مملكته وأمرهم بهدمه. ويضيف عن حجارة الصوان: وأما الثالث: فصغير عنهما نحو الربع لكنه مبني بحجارة الصوان الأحمر المنقط الشديد القوة والصلابة، ولا يكاد يؤثر فيه الحديد إلا في الزمان الطويل.

ويدل على أن الحد الثالث في الثالوث يجب أن يكون أحمر أو محمرا أن أحد أخشبي مكة، أي جبليها المركزيين، اللذين رأينا أنهما نصبا من قبل الإله ذي بكة يوم أقيم البيت، يدعى الجبل الأحمر. وهو الجبل الشمالي. أما الجنوبي فهو أبو قبيس. الجبل الأحمر مثل المروة، أما أبو قبيس فمثيل الصفا. والحق أن الصفا جزء منه. الجبل الشمالي في المعبد الأوزيريسي، معبد حزام الجوزاء، يجب أن يكون أحمر اللون. ومثيله في حزام سيث، أي أهرام الجيزة الثلاثة، يجب أن يكون أحمر أيضا. لذا فهرم منقرع يرتدي مئزرا

أحمر من حجر الصوان. الفارق هو أن الهرم الأحمر، أي هرم منقرع، جنوبي وليس شماليا. ذلك أنه مثيل الجبل الأحمر في الحزام المقلوب، سيث. لذا يجب أن يكون عكس الجبل المكي تماما.

وكنا قد توصلنا سابقا إلى أن الهرم الثالث هو هرم الإله أوزيريس في قراره الشتوي، لكن في الحزام المضاد. أي أنه شبيه مناة العربي، لكن مقلوبا. ولأنه شبيه مناة فإن هذا يدفعنا إلى الشك في أن وجود ملك أرضي يدعى منكاورع بنى الهرم المؤزر. فاسمه يوحي بأنه الإله- الملك مينا، شبيه مناة. فهو (من- كاو- رع). كما أن اسمه الكامل منكاورع يدل على ذلك، فهو يعني: مين، الذي هو «كا» رع. أي مين، روح الذي هو روح رع.

ويزداد شكنا قوة حين نعلم أن: (الاسم منكاورع وجد على جُعل يعود إلى الأسرة السادسة والعشرين، الأمر الذي قد يشير إلى أنه عبد في هذه الفترة).[١٦]، حسب ما يخبرنا الدكتور زاهي حواس. والسؤال هو: كيف يتاح للناس أن يعبدوا ملكا عاش قبلهم بألفي سنة تقريبا؟! هذا السؤال يضع علامات شك حول فكرة أن منكاورع ملك حقيقي بنى الهرم الثالث.

أما موته فقد حدث حسب نقش على مدخل هرمه يقول إنه (مات في اليوم الثالث والعشرين من الشهر الرابع من الصيف).[١٧]

وإذا علمنا أن المصريين القدماء قسموا السنة إلى فصول ثلاثة:

١ - أخِت (الفيضان) ويبدأ من ٢١ حزيران وحتى ٢١ أكتوبر،

٢- بيريت (الشتاء) من ٢١ أكتوبر إلى ٢١ شباط،

٣- شمنو (الصيف) من ٢١ شباط إلى ٢١ حزيران.

فإن منكاورع يكون قد توفي في الثالث والعشرين من حزيران. أي أن موته يتوافق، تقريبا، مع بداية الانقلاب الصيفي، الذي يحل في توقيتنا الحالي في الحادي والعشرين من حزيران. وهو الوقت المفترض عموما لظهور الشعرى اليمانية، الذي يؤشر لبدء السنة الشمسية، وبدء فصل فيضان النيل تقريبا. واختلاف يومين يدخل فقط في باب الاختلافات في وقت ظهور الشعرى. ذلك أن طلوعها يختلف باختلاف السنين. وفي كل حال فهي تظل تطلع في الفترة ما بين ٢١ حزيران والعاشر من تموز تقريبا. وللمرء أن يتساءل، إذن، أنحن نتحدث هنا عن موت ملك أم موت إله؟!

twitter @baghdad_library

في كل حال، فإنه عند الحديث عن أنصاب الآلهة ومقارها لا يمكن الحديث عن ملوك بنوا وشيدوا. فالآلهة هي التي تبني هذه الأنصاب وليس الملوك، حتى لو أن ملكا هو الذي أحضر الحجر والطين والرمل. ميثولوجيًا، هذه الأنصاب بنتها الآلهة.



twitter @baghdad_library

فصل 18

لغز أبو الهول

(والقبط تزعم أنهما والهرم الصغير الملون قبور. فالهرم الشرقي فيه سوريد الملك، وفي الهرم الغربي أخوه هرخيت)

السيوطي- حسن المحاضرة

شهد عقد التسعينيات من القرن الماضي إعادة فتح ملف أبو الهول من جديد، وبقوة. فبعد أن بدا وكأن الأسئلة القديمة حول ملغزاته قد نحيت، ونصب كتمثال للفرعون خفرع، الباني المفترض للهرم الثاني، حطمت تساؤلات روبرت بوفال هذه القناعة. ورغم أن بوفال لم يقدم أي إجابة معتبرة للغز، فإن باب المراجعة والسؤال صار مفتوحا أكثر من أي وقت مضى.

من هو إذن أبو الهول، وماذا يمثل؟ من هو طلسم الرمل والزمن هذا؟

نحن نعتقد أن أبو الهول هو أنوبيس، هكذا مباشرة.

أبو الهول تمثال أنوبيس. أنوبيس ابن نفتيس، أخت إيزيس، الذي صار ابنا لإيزيس وحارسا لها بعد أن تبنته فور أن تخلت عنه أمه ورمته. ونحن نرى ذلك استنادا إلى حقيقتين:

الأولى: ميثولوجية، وهي ارتباط الهرم الثاني بإيزيس. فالهرم الثاني، هرم خفرع، هو هرم إيزيس. إنه إيزيس، لكن في حزام سيث. وهو مثيل النجم الثاني في نجوم حزام الجوزاء، الذي هو إيزيس، لكن في حزام حورس. إيزيس السلبية، مثيلة ليليث، لها الهرم الأوسط، وإيزيس الإيجابية، مثيلة إنانا، لها النجم الثاني في حزام الجوزاء- حزام حورس. وقد أسسنا لهذا الاستنتاج في فصول سابقة.

الثانية: معمارية، وهي أن أبو الهول مرتبط معماريا بالهرم الثاني. فأبو الهول، قطعة

من مجمع يشمل: الهرم الثاني، المعبد الجنائزي لصق الهرم، معبد الوادي، الممر، ثم ما يسمى معبد أبو الهول. يقول الدكتور سليم حسن: (وعندي أن أبو الهول العظيم إنما أقيم من بعد إتمام هرم خفرع {الهرم الثاني} وملحقاته). ويضيف: (أبو الهول كان إضافة لاحقة على هرم خفرع).[1] ويؤكد هذه العلاقة بين أبو الهول والهرم الثاني القِران الواضح بين معبديهما: (فالقسم الجنوبي من وهدة أبو الهول تشكل الطرف الجنوبي من ممر {هرم} خفرع عندما تمر بأبو الهول وتدخل معبد الوادي ل{هرم} خفرع).[2] كما أن (معبد الوادي الخاص ب{هرم} خفرع يقف على نفس المصطبة التي يقف عليها معبد أبو الهول. ومقدمتا المعبدين ومؤخراتهما يقعان على الخط ذاته).[3]

وقد كان هناك من يعتقد أنه يوجد نفق ما يصل بين أبو الهول والهرم الثاني: (ومن المفترض أن مهندسي حملة نابليون على مصر قد أجروا تنقيبات هامة أمام أبو الهول، وأنهم في اللحظة الأخيرة التي أجبروا فيها على وقف العمل قد كشفوا عن باب. وقد أنبأ بعض سكان المنطقة الذين ادعوا أنهم عاصروا هذا الكشف... أنهم رأوا هذا الباب، وقالوا إنه يؤدي إلى جوف أبو الهول. وقد غالى بعضهم فادعى أنه يؤدي إلى الهرم الثاني).[4]

ورغم أن لهجة سليم حسن تستخف بهذا الخبر، إلا أن واقع ارتباط أبو الهول بالهرم الثاني لا يستبعد وجود نفق يؤدي من التمثال إلى الهرم الثاني، بل لعلها تفترض وجوده.

هذه الحقيقة المعمارية البسيطة، حقيقة ارتباط أبو الهول بالهرم الثاني، يتم تناسيها في أحيان كثيرة. وحتى حين يتم تذكرها والتأكيد عليها، تبدو وكأنها لا تعني سوى أنهما بنيا في فترة واحدة، أو أن بانيهما هو الفرعون ذاته. يعني أن ليس للارتباط بين الأثرين المعماريين أي معنى ديني بتاتا.

نحن نعتقد أن هذه الحقيقة المعمارية تعكس، بالضرورة، ارتباطا ميثولوجيا دينيا بين الأثرين. فمجمع أهرام الجيزة كله ليس نتاج سلسلة مصادفات تعلقت بحياة هذا الفرعون أو ذاك، بل نتاج خطة دينية معروفة منذ البدء. أي أن مكان كل كتلة أساسية في هذا المجمع كان معروفا مسبقا وفق هذه الخطة الدينية. كل كتلة فيه كانت مطروحة في الميثولوجيا قبل أن تطرح معماريا على أرض الجيزة. أي أن الميثولوجيا هنا تقود المعمار، وترغمه. ولأننا نتجاهل هذا في غالب الأحيان، فنحن نفشل في فهم الكثير من ألغاز الأهرام.

twitter @baghdad_library

هناك معنى ما ديني يجب توضيحه وراء وجود كل منشأة ذات قيمة في المجمع، ووراء وضعها في المكان الذي هي فيه، ووراء الألغاز التي تحويها. وهذا يعني أن للقران بين الهرم الثاني وأبو الهول سببا دينيا يجب العثور عليه. والميثولوجيون لا المهندسون المعماريون يأتون أولا هنا.

الإلهة الأم مع ابنها دوما

وكما تبين لنا سابقا عندما عرضنا لآلهة الجزيرة العربية، فإن الإلهات المؤنثات البتولات يقعن في وسط الثالوث دوما، ويؤخذن مع أبنائهن دوما، كما هو الحال مع ذي الخلصة وذي الشرى، بل وحتى مع مريم العذراء التي تؤخذ مع ابنها دوما. فذو الشرى يقع في وسط الثالوث، وهو يضم الإلهة الأم وابنها، أي العذراء كابو وابنها، كما أخبرنا أفيفانيوس القبرصي. كما أن ذا الخلصة هو الحد الأوسط في الثالوث، ويضم العذراء الأم، الخلصة، وابنها الأغضف، أي ذي الأذنين الكلبيتين. بل إن اسم ذا الخلصة ذاته يطلق على الأم وعلى ابنها، في اللحظة ذاتها. فهو ذو الخلصة، وهي ذو الخلصة أيضا. طبعا نحن نتحدث هنا عن ثواليث كالثالوث المكي (اللات والعزى ومناة)، لا ثواليث العائلة المقدسة (الآب والابن والروح القدس). ونفضل أن نسمي الطراز الأول من الثواليث باسم: الغرانيق، أما الثاني فهو العائلة المقدسة. في ثالوث الغرانيق الحد الأوسط أنثى، والطرفان مذكران. والحد الأوسط يشمل الإلهة الأم وابنها، بإضمار أو بوضوح.

إيزيس مثيلة هاتيك الإلهات، فهي حد أوسط تؤخذ مع ابنها الطفل دوما. من أجل هذا فإن هرمها، الهرم الثاني، هو الهرم الوحيد من الأهرام الثلاثة الذي له بابان، يتجهان نحو الشمال: (نجد لهذا الهرم مدخلين، وكلاهما في واجهته البحرية { الشمالية}. والمدخل الذي اكتشفه «بلزوني» يرتفع ١١ مترا عن سطح الأرض. أما المدخل الثاني فهو مقطوع في الصخر في مستوى الأرض، على بعد أمتار قليلة من قاعدة الهرم).[٥] أما الهرمان الآخران فيملك كل واحد منهما بابا واحدا فقط. وهذا مؤشر قوي على وجود روحين تقيمان في الهرم الثاني. ونحن نفترض أن الروحين هما روحا إيزيس وابنها. فالأهرام الثلاثة في الأصل مدافن آلهة لا مدافن بشر.

كذلك عثر على (رسم غريب على قدح من الفيوم، يمثل اثنين من أبو الهول يواجه أحدهما الآخر، بينهما نخلة تقليدية... ولكن أغرب ما في التمثالين أن الوجه لأنثى على حين أن الجسد لإله ذكر).[٦]

الوجه وجه أنثى، والجسد جسد ذكر. أي أن أبو الهول ذاته يظهر كخليط من الأنوثة والذكورة. وظهور أبو الهول كخليط من ذكر وأنثى يجعلنا نفكر بأنوبيس وأمه- خالته. وسنزيد الحديث عن التماثيل المؤنثة لأبو الهول لاحقا.

حر أخت

نعلم أن المصريين القدماء سموا تمثال أبو الهول بعدة أسماء أشهرها (حور مأخت، حور- أم- أخت، حورماخت) و (حور أخت، حور أختي). يقول لنا سليم حسن: (ما زال أقدم رأي أصيل في تمثال أبو الهول ذلك الذي انحدر إلينا عن أمنحتب الثاني. غير أن هذا الرأي لم يسجل إلا بعد نحو ألف وأربعمائة سنة من إقامته، وذلك من دون ذكر لمنشئه. على أن أمنحتب يشير في لوحته الكبيرة التي أقامها من الحجر الجيري إلى أهرام «حور مأخت». وهو اسم لعله يبين ما كان يراه من أن أبو الهول إنما كان أقدم من الأهرام. كما أنه يشير إلى أبو الهول باسم «حور ماخت» و «حور أختي»).[٧]

ولفظ («حور مأخت» إنما يعني حور في الأفق. إذ تعني كلمة «أخت» أصلا «الأفق». ولكن هذه الكلمة منذ الأسرة الرابعة قد صارت تستعمل مرادفة لكلمة «قبر».... ولذلك فربما عنى اسم «حورم أخت» ببساطة «حور في الأفق» كما رأينا من قبل، وهو أقرب دلالة على إله الشمس، أو كان أعمق كنها بكونه «حور في الجبانة» وهو الذي بدقة تمثال أبو الهول في الجيزة لأنه في جبانة الصحراء الغربية حيث يستقر التمثال، وحيث الصحراء الغربية هي الأفق الغربي لإله الشمس... ولذلك فإن العلاقة الأصيلة بين أبو الهول وجبانة الجيزة قائمة في اسمه المتأخر).[٨]

إذن فتمثال أبو الهول هو (حورمأخت) و(حور أخت، حورأخت). وهو يعني: (حورس في الأفق) أو: (حورس في مقابر الجيزة). أو أنه يعنيهما معا. ثم يخبرنا د. سليم حسن بأنه عثر على لوح يتماهى فيه أبو الهول مع أنوبيس: (وفي لوح المنكوب الأمير «أمن-م-أيت» الذي عثر عليه في حفائرنا كان أبو الهول تحت اسم «حورم أخت» يحتل مكانة أنوبيس الإله الجنائزي القديم في صيغة القربان حيث يوجه إليه الدعاء كالإله الذي يتوقع الموتى منه المدد من قرابين الطعام والشراب في العالم الآخر).[٩] هذه نقطة مهمة جدا: فالدعاء الذي يوجه لأنوبيس وجه لأبو الهول، حورم أخت! أنوبيس، إذن يتماهى مع أبو الهول، ويلعب دوره. أنوبيس، إذن، هو أبو الهول، وأبو الهول هو أنوبيس، أي أنه ابن أخت إيزيس، الذي صار ابنها وتابعها وحارسها. وعليه، فأنوبيس هو (حورس في

twitter @baghdad_library

الأفق) أو (حورس في الجبانة) أي في مقابر الجيزة.

إذا كان الأمر بهذه البساطة، فلماذا، إذن، لم يتمكن روبرت بوفال، الذي نقض بشدة المنطق السائد حول الأهرام، أن ينطق بهذه الجملة البسيطة: أبو الهول هو أنوبيس؟ لماذا لم يفعل ذلك، رغم أن أنوبيس الكلب جزء مركزي من ديانة الأهرام؟ لماذا عجز ودار ليصل بنا إلى أن أنوبيس هو مثيل برج الأسد في السماء؟ نظن أن ما أبعد بوفال عن هذه الحقيقة البسيطة هو أنه غير قادر على أن يتصور أن إيزيس موجودة في مكانين في السماء؛ وسط حزام الجوزاء، أي نجمة النيلام، وأسفل هذا الحزام، أي نجمة الشعرى. هذا حيره تماما، لذا لم يتمكن من أن يرى أن الهرم الأوسط هو إيزيس، لكن في حزام سيث. وحين لم ير إيزيس في الهرم الأوسط فقد كان منطقيا أن يفشل في رؤية أنوبيس الذي يربض قرب هرمها.

أبو الهول، إذن، أنوبيس. أنوبيس الذي يتماهى مع حورس. أنوبيس الذي هو حورس، أو هو، على الأقل، حورس في الأفق وحورس في الجبانة. وهذا ما يجعل من حكاية وجود حورس كابن لإيزيس منفصلًا عن أنوبيس، في رأينا، حكاية بحاجة إلى المراجعة من أساسها.

حور أخت في المصادر العربية

لكن، لنذهب إلى المصادر العربية، لعلنا نجد عندها شيئا عن (حور أخت) وعن مسكنه.

وعند البحث عن هذا الاسم، فإن هذه المصادر ترسلنا إلى الهرم الثاني بالذات. وعليه، فقبل أن نصل إلى حور أخت، لا بد لنا من المرور مجددا على الهرم، الذي رأينا أنه شديد الارتباط بأبو الهول. فهما يمثلان معا وحدة ما.

تقدم لنا المصادر العربية، رغم كل ما يبدو عندها من اضطرابات، معلومات قيمة تؤكد بعض ما توصلنا إليه. فحين تحدثنا، مثلا، عن روحانيات الأهرام الثلاثة، أي عن الأرواح التي تمثلها هذه الأهرام تكاد تتفق جميعا على أن روحانية الهرم الثاني بالذات، هرم خفرع، هي روحانية أنثى. وهذا ما يؤكد أن الحد الأوسط حتى في ثالوث الأهرام هو حد أنثوي. يخبرنا المقريزي في الخطط بما يلي:

(وحكى القبط في كتبهم: أن روحانية الهرم الشمالي {الأكبر}، غلام أمرد، أصفر اللون عريان في فمه أنياب كبار، وروحانية الهرم الجنوبي: امرأة عريانة بادية الفرج

حسناء في فمها أنياب كبار تستهوي الإنسان إذا رأته، وتضحك له حتى يدنو منها، فتسلبه عقله، وروحانية الهرم الملون: شيخ في يده مجمرة من مجامر الكنائس يبخر بها).[١٠]

إذن، فالهرمان الأكبر والأصغر يتمثلان في ذكرين؛ أي في غلام وفي شيخ. في حين أن الهرم الأوسط، أي الشمالي حسب المقريزي، يتمثل في (امرأة عريانة بادية الفرج... تستهوي الإنسان). والمصادر العربية تسمي الهرم الأكبر شماليا والهرم الأوسط جنوبيا، أحيانا. لكنها في الغالب تسميهما الشرقي والغربي، بسبب ميلان محورهما بالطبع عن شمال- جنوب، في حين تسمي الهرم الأصغر بالمؤزر أو الملون. ويؤكد النويري في نهاية الأرب هذا القول:

(والقبط يذكرون أن روحانية الهرم الغربي {الهرم الثاني} في صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج حسناء لها ذؤابتان، فإذا أرادت أن تستنفذ الإنسي ضحكت إليه، فاختلسته إلى نفسها، فيدنو منها، فتستهويه ويزول عقله. قال: وقد رأى جماعة هذه المرأة تدور حول الهرم وقت القائلة وعند غروب الشمس. وروحانية الهرم الشرقي {الأكبر} غلام أمرد أصفر عريان له ذؤابة. قال: وقد رأوه أيضاً يطوف حوله. وروحانية الهرم الملون في صورة شيخ يرى عليه برطلة وفي يده مجمرة من مجامر الكنائس وهو يبخر).[١١]

نحن، إذن، أمام الثالوث التقليدي: ذكران طرفيان، أمرد وشيخ، بينهما أنثى كحد أوسط. ومن تكون الأنثى التي تسكن الهرم الوسط إن لم تكن إيزيس؟ إذن، فالمصادر العربية تدعم فكرة أن الهرم الثاني هو هرم إيزيس. والحقيقة أن رواية هيرودتس حول الهرم الثاني توحي بعلاقة مع عنصر مؤنث. يقول في التواريخ ناسبا الهرم الأكبر لخوفو:

(لكن خوفو لم يكن بالرجل الذي يثنيه عن غرضه رادع. إذ لما أعوزه المال أرسل ابنته إلى ماخور وأمرها ألّا تعود إلا معها المبلغ المطلوب- ولست أدري مقداره، لأن محدثي لم يكشف لي عن هذا الأمر- وقد نفذت الصبية أمر أبيها، وزادت عليه ليخلد ذكرها بعد موتها. وكانت وسيلتها إلى ذلك أن تطلب من زبائنها كتلا من الحجارة، وبها شيد الهرم الأوسط من الأهرامات الثلاثة).[١٢]

لكن رواية هيرودتس بعد أن تضطرب تعود لتنسب بناء الهرم الثاني: (وجدير بالذكر أن هرم خفرع يقع قريبا من هرم خوفو الكبير، ثم إنه دونه ارتفاعا بنحو أربعين قدما).[١٣]

الهرم الأوسط، إذن، شيد بمال امرأة، وبأجرة بغائها المقدس. وهذا، في رأينا، إشارة إلى الطابع المؤنث للهرم.

twitter @baghdad_library

وحين تتحدث هذه المصادر العربية عمَّن دفن في الهرم الثاني فإنها تعطينا تقليدين:

الأول: يقول لنا إن الهرمين هما قبرا عاديمون وهرمس. وهذا مثل عليه من المسعودي في التنبيه والإشراف: (وأحد هذين الهرمين قبر أغاديمون والآخر قبر هرمس وبينهما نحو من ألف سنة- أغاديمون المتقدم).[١٤]

الثاني: أنهما قبرا سوريد وشخصية أخرى تضطرب المصادر في ضبط اسمه. فهو: هرجيب، هوحيت، هوجيب، أو ما يشبه ذلك. يقول ياقوت في المعجم: أن سوريد: (بنى لنفسه الهرم الشرقي وبنى لأخيه هوجيب الهرم الغربي).[١٥] ويقول المقريزي في الخطط: (فلما مات الملك سوريد بن سهلوق دفن في الهرم الشرقي، ودفن هوحيت في الهرم الغربي).[١٦] ويضيف في مكان آخر: (فلما تم اليقين من ذلك عندنا قلنا لملكنا سوريد بن سهلوق: مر ببناء أفروشات وقبر لك وقبر لأهل بيتك، فبنى لهم الهرم الشرقي، وبنى لأخيه هوحيت الهرم الغربي). ويضيف السيوطي في حسن المحاضرة: (والقبط تزعم أنهما والهرم الصغير الملون قبور. فالهرم الشرقي فيه سوريد الملك، وفي الهرم الغربي أخوه هرجيب).[١٧]

وبناء عليه، فإن الهرم الأكبر هو قبر سوريد أو عاديمون. في حين أن الهرم الأوسط هو قبر هرمس أو وهرجيب. وإذا ربطنا التقليدين ببعضهما، فيمكن لنا أن نساوي بين هرمس وهرجيب، وبين عاديمون وسوريد:

هرمس = هرجيب (هوجيب، هوحيت).

سوريد = عاديمون

وفي مكان آخر كنا قد أوضحنا أن عاديمون الذي يسكن الهرم الأكبر هو طراز من أوزيريس، أو هو أوزيريس في نغمته العالية. وعليه، وفيما يخص الهرم الثاني، فنحن أمام استخلاص محدد نحصل عليه من المصادر العربية: الهرم الثاني مسكن لاثنين: المرأة ذات الأنياب، وهرمس- هرجيب. وعليه، فإما أن تكون المرأة ذات الأنياب هي ذاتها هرمس- هرجيب، أو أننا أمام ساكنين اثنين للهرم الثاني. ومن خلال ما قدمناه أعلاه فإن فكرة وجود ساكنين اثنين في الهرم الأوسط تصير هي الأقوى. وبما أننا توصلنا إلى أن المرأة ذات الأنياب هي إيزيس، فيبقى علينا أن نحدد من هو هرجيب هذا، لأننا نعرف من هو هرمس، فهو يتماهى مع تحوت، الذي يتماهى مع أنوبيس، كما أنه كان مستشارا لإيزيس وأوزيريس.

هرجيب؟!

ماذا يعني هذا الاسم الغامض الذي تفشل المصادر العربية في ضبطه: هرجيب، هوحيت، هوجيب؟

من دون أن نطيل، نعتقد أن هذا الاسم الذي نقلته المصادر العربية عن مصادر قبطية أقدم هو تحريف لـ (حورأخت) Horakhet الاسم الذي نناقشه هنا. أي أنه (هُرَخيت)، صحفه الناسخون والناقلون إلى (هرجيب، هوحيت، هوجيب).

إذا صح هذا، تكون المصادر العربية قد أعطتنا معلومة خطيرة جدا: أن (حور أخت= حُرَخيت) يسكن أيضا في الهرم الثاني. و(هرخيت، حرخيت) هو (حور-ام-أخت)، أي أبو الهول. عليه، فأبو الهول يسكن الهرم الثاني! إنه لا يسكن فقط في أبو الهول كما أعلمنا بليني، بل يسكن في الهرم الثاني أيضا!

نتيجة مهمة ولا شك. فهي تعني أن الهرم الثاني مسكن إيزيس، أي المرأة ذات الأنياب، ومسكن أبو الهول معا. وبما أن أبو الهول هو ذاته أنوبيس، فهذا يعني أن الهرم الثاني هو مسكن إيزيس وابنها، أو ربيبها، أنوبيس. إنه مسكن حورس الذي في الأفق، أو حورس الجبانة وأمه!

وهكذا عدنا إلى التقليد ذاته. التقليد الذي يأخذ الطفل مع أمه. يأخذهما معا كوحدة واحدة: الخلصة وابنها، كابو وابنها ذو الشري، مريم وابنها، وإيزيس وابنها. ومن أجل هذا كان الهرم الثاني ببابين لا بباب واحد كما هو حال الهرمين الآخرين.

حورس المؤنث!

ولدينا تقدير بأن هرمس، الذي يسكن الهرم الثاني حسب المصادر العربية قد يكون اسما يطلق على الأم وابنها معا، إيزيس وأنوبيس، كما هو الحال مع ذي الخلصة العربي. فذو الخلصة هو الإلهة وابنها الكلب- الأغضف معا. بل وربما كان الاسم (هرخيت) أو (حور-ام- أخت) يطلق على إيزيس وابنها أنوبيس- أبو الهول معا. طبعا، نعرف من قبل أن هرمس يتماهى مع تحوت، وتحوت يتماهى مع أنوبيس. وهكذا فهرمس هنا هو أنوبيس. وهذا ما يؤكده لنا بلوتارخ. فهو يعلمنا أن هرمس يأخذ صورة كلب مثله مثل أنوبيس: (وفي الحقيقة فإنهم لا يسمون الكلب هرمس باعتباره اسما حقيقيا له، لكنهم

twitter @baghdad_library

يربطون أفضل صِفات هذا الحيوان، صفة الحراسة واليقظة والحكمة، بآلهتهم).[١٨]

أما أن الاسم هرمس قد يطلق على إيزيس أحيانا فهذا ما نملك دليلا عليه من بلوتارخ أيضا. فقد أطلقت إيزيس سراح سيث-تيفو الذي أسره حورس ووضعه تحت إشرافها، فغضب حورس لذلك: (بيد أن إيزيس التي وضع تيفو تحت إشرافها لم تفكر إطلاقا بقتله، بل فكت قيوده وأطلقت حريته. ولكن هذه الفعلة التي فعلتها إيزيس قد أثارت سخط حورس، فأمسكها بيديه واختطف شارة الملك التي كانت تضعها على رأسها، وألبسها بدلا منها صورة لهرمس مصنوعة على شكل رأس ثور).[١٩]

وهكذا لبست إيزيس صورة هرمس. لقد تماهت معه.

هرمس وأنوبيس شيء واحد. وإيزيس هي هرمس أيضا، بعد أن ارتدت صورة هرمس. أي أن هرمس هنا اسم للأم وابنها معا! من أجل هذا أخبرتنا المصادر العربية أن هرمس يسكن الهرم الثاني، وهي تقصد الأم وابنها، أي إيزيس وأنوبيس.

وإذا كان هرمس اسما لاثنين، فإن حورس الأفق، أي (حور أخت، حورمأخت) ربما يكون هو أيضا اسما للأم وابنها معا. إذ أن إيزيس دعيت أيضا باسم حورس المؤنث في أكثر من نص:

(حورس المؤنث، المحبوبة من حورس العظيم، أم حورس، التي خلقها آتوم، العروس الملكية العظيمة، المنضمة إلى رع، التي تحمي شقيقها أوزيريس).[٢٠]

هنا، لا مجال للشك في أن إيزيس تعامل كحورس، فهي (حورس المؤنث). ولا نظن أنها أعطيت هذا الاسم صدفة أو مجازا. ذلك أن البزوغ الشمسي لإيزيس، أي بزوغها بعد غياب سبعين يوما، عند الفجر وقبيل ظهور الشمس في الصيف، هو الذي يحدد بدء السنة الشمسية. عليه فهي شمس أخرى مؤنثة تحدد للشمس الأصلية المذكرة (رع) بدء توقيتها. إنها الشمس الحقيقية التي يبدأ الزمان بها. وربما دعيت إيزيس باسم حورس الأفق لأنها تصبح شمسا فقط في لحظة بزوغها الشمسي ذاك، أي في اللحظة التي تكون فيها عند الأفق. إنها، إذن، شمس الأفق، لا الشمس الدائمة.

يدعى أبو الهول إذن (حور-ام-أخت آتوم)، أي الصورة الحية لآتوم- كما يترجمها المصرولوجيون. لكننا لا نستبعد أن هذا الاسم يشمل إيزيس أيضا. بل إننا نعتقد أنه ربما يكون في الأساس اسما لها. فهي عندما تطلع في نهاية حزيران تحدد بدء السنة الشمسية، أي أنها الصورة الحية المتجددة لآتوم قرص الشمس، ولرع- آتوم. إنها هي من يحدد بدء السنة الشمسية، وليس آتوم أو رع.

وكما ذكرنا، قبل قليل، فإن المصادر العربية تشير أحيانا إلى الهرم الأكبر على أنه الشرقي، والهرم الثاني على أنه الغربي. ومن المحتمل أن المصريين القدماء سموهما هكذا. ذلك أننا نجد أن مسلة الجردة، أو لوح الإحصاء Inventory Stela التي اكتشفت قرب الهرم الأكبر في القرن التاسع عشر، وتنسب لخوفو، تشير إلى إيزيس بأنها (سيدة الجبل الغربي) و (سيدة الهرم). وفي رأي الكثيرين فإن هذا اللقب يشير إلى (الهرم الأكبر). لكننا نعتقد أنها إشارة إلى الهرم الثاني، أي الهرم الأوسط. فالهرم الأول، أي هرم أوزيريس، هو الهرم الشرقي، حسب المصادر العربية التي تنقل عن القبط، في حين أن الهرم الثاني- الغربي هو هرم إيزيس. وعليه، نعتقد بقوة أن جملة (سيدة الجبل الغربي) تعني (سيدة الهرم الغربي)، أي سيدة الهرم الأوسط.

الإله حول

ثمة اسم آخر لأبو الهول هو: حول. يقول سليم حسن: (وقد سمى سيتي {الأول} أبو الهول «حول» كما سماه «حور مأخت»).[٢١] يضيف في وصف لبعض الألواح التي عثر عليها في جوار أبو الهول ومعبده: (ويبين اللوح رقم ١٣ رجلا وامرأة يقدمان القربان لأبو الهول الذي يدعى باسم «حول»... أما في اللوح رقم ٣٤ فقد خوطب أبو الهول على هذا اللوح باسم «حول» و «حول أتوم»).[٢٢]

ويعتقد سليم حسن أن الاسم (أبو الهول) على علاقة بالاسم حول. يقول: (وواقع الأمر أن الاسم {أبو الهول} لا علاقة له بالأب ولا بالفزع إلا فيما وقع من عفوي الصوت، وإنما هو ببساطة تحريف لاسم مصري قديم هو «بر- حول» أو «بو حولي»، بمعنى «مكان حول». ولدينا منه شكل آخر هو «بر حورون» على لوح الإحصاء).[٢٣]

اقتراح ربط اسم أبو الهول بالاسم (حول) قابل للنقاش، فيما نرى. وسوف نحاول مناقشته لاحقا. ما يهمنا هنا هو الإله (حول) الذي يتماهى مع أبو الهول. وهذا الإله سامي كما نعلم من سليم حسن. فاللوحات التي أوردت اسمه كانت لوحات أهداها للإله أناس غير مصريي الأصل: (كانت تلك اللوحات مفاجأة لنا، فلقد وجدنا أن كثيرا منها مهدى من أجانب استوطنوا مصر. وهي تحمل الأسماء المختلفة التي كان يعرف بها أبو الهول في زمن الأسرة الثامنة عشرة).[٢٤]

twitter @baghdad_library

هذا الإله السامي (حول) كان معروفا بالاسم ذاته في اليمن. وقد كان اسما آخر للمقة فيما يبدو. يخبرنا الدكتور جواد علي أنه: (قد أشير إلى المقة بأنه (هلل) بمعنى هلال و(ربع)، أي الربع الأول من الشهر، و(حول) بمعنى تمام الشهر، أي القمر كاملا).[٢٥]

إذن كان يشار للمقة على أنه: (حول). وقد أوضحنا من قبل أن المقة- بلقيس هي إيزيس يمنية. وهكذا، فالساميون الذين ذهبوا للحج إلى مقابر الجيزة سموا أبو الهول باسم حول. وكان هؤلاء الساميون في اليمن يسمون المقة- إيزيس باسم حول. وعليه، فهناك احتمال عالٍ لأن تكون إيزيس سميت باسم: حول. أي أن القرابين السامية لأبو الهول كانت تقدم لأبو الهول وإيزيس، أي للطفل أنوبيس وأمه. الأم وابنها يؤخذان معا، بل ويسميان باسم واحد في أغلب الأحيان، كما هو الحال مع ذي الخلصة العربي. لا يؤخذان منفصلين أبدا.

وهذا ما يؤكده لنا لوكيوس أبوليوس في الفصل الأخير من (الحمار الذهبي) في سياق وصفه للاحتفال السنوي للإلهة إيزيس. في هذا الاحتفال يكون أنوبيس حاضرا، بل إنه يتقدم أمه البقرة إيزيس: (وظهر الآلهة بعد ذلك بقليل وقد تكرموا بالمشي على الأرجل البشرية {عبر ممثليهم البشريين في الاحتفال}. فها هو الرحالة بين العالم العلوي والعالم السفلي بوجهه السامي، الذي يتعاقب عليه اللونان الأسود والذهبي، وبرأسه الكلبي المرفوع، أنوبيس «ابن أوزيريس» وقد مسك بيسراه عصا المنادي وبيمناه منشة من السعف الأخضر. وتبعته مباشرة بقرة منتصبة القامة، تمثل خصوبة الإلهة باعتبارها أما للجميع).[٢٦]

أنوبيس، ثم البقرة، التي لا شك أنها إيزيس. الأم وابنها في الاحتفال ذاته. الابن يتقدم الأم في الاحتفال، الذي يبدو مكرسا لها وله، كما يتقدم تمثال أبو الهول أمام الهرم الثاني. بل إنه يحمل سعفة النخلة التي هي رمز إيزيس.

ونعتقد أن جملة: (الرحالة بين العالم العلوي والعالم السفلي بوجهه السامي) التي تصف أنوبيس، ربما عنت (حورس في الأفق) و (حورس في الجبانة) اللقبين اللذين يطلقان على أبو الهول، كما أخبرنا سليم حسن. ذلك أن أبو الهول- أنوبيس في مقابر الجيزة هو (حورس في الجبانة). أما (حورس في الأفق) فهو هناك في برج أوريون- الجوزاء، أو بالضبط أسفل حزام الجوزاء، يقف هناك كي يحرس الآلهة المنبعثين، كما يحرس (حورس في الجبانة) الآلهة الأموات في أهرام الجيزة الثلاثة. ولعل حورس الأفق أن يكون فيما يدعى بـ (أوريون نيبولا) الذي يتخذ موقعا أسفل حزام الجوزاء شبيها بالموقع الذي يتخذه أبو الهول عند الأهرام.

لذا يمثل أبو الهول دوما بصورة مزدوجة. ففي (لوحة كثيرة الطرافة عليها أذن بالنقش البارز، وفي أسفلها حفرت صورتا صقرين يحمل كل منهما التاج المزدوج، ويقفان وجها لوجه كأنهما يتهامسان).[٢٧]

ونحن نعرف أيضا أن أبو الهول يدعى باسم (سشب عنخ) أو (شسب عنخ). وفي قصة سنوحي المعروفة يظهر هذا الإله بتمثالين أيضا. يقول الدكتور سليم حسن: (ورد في قصة سنوهي... من أوائل الأسرة الثانية عشرة كلمة سشب عنخ للدلالة على تمثالين لأبو الهول يحرسان باب قصر «سنوسرت الأول». إذ يقول البطل «لقد مسَسْت بجبهتي الأرض بين تمثالي أبو الهول «سشب عنخ»).[٢٨]

وربما كان (حير- مانوبيس)، الذي هو في رأينا تركيب من - حور-ام- أخت + أنوبيس، والذي وصف بأنه: (فاتح طريق الجنوب، وفاتح طريق الشمال)، يمثل (حورس في الأفق) و (حورس في الجبانة). فحورس في الأفق هو فاتح طريق الجنوب، جنوب السماء، أي طريق الانبعاث والتجدد في برج الجوزاء- أوريون، أي في جنوب السماء، في حين أن حورس في الجبانة هو فاتح طريق الشمال، أي شمال السماء، أي طريق الموت الأبدي، عند بنات نعش، مع ملاحظة أن الأهرام هي نصب السماء الشمالية مطروحا على الأرض، مقابل نصب السماء الجنوبية، الممثل بحزام الجوزاء، المطروح في السماء. يخبرنا والاس بدج عن: حير- مانوبيس هذا بقوله:

(ولكن بجانب خصائص الإله الحورية كان حورس ابن إيزيس موهوبا بصفات آلهة الأخرى. فهو حور-إم- أنبو، أي حورس مثل أنوبيس... وتطور اسمه بعد ذلك ليصبح «حير-مانوبيس» الذي ذكره كل من بلوتارخ وديودوروس. هذا الإله المزدوج تم تمثيله على هيئة رجل برأس ابن آوى. ومن المستحيل تمييزه بصورته هذه عن الإلهين ابن آوى- أنبو وأنوبيس، اللذين يمثلان شكلين لنفس الإله حيث كان أنبو «فاتح طريق الجنوب قوة الأرضين» وأبوات «فاتح طريق الشمال قوة السماء).[٢٩]

ولا يجري الحديث هنا عن حورس الشمس، كما يظن بدج، بل عن حورس-أنوبيس ابن إيزيس. فأنوبيس هنا مثيل حورس- الشمس. إنه حورس الشمس في لحظة ما. والحق أن وجود حورس كابن منفصل لإيزيس مسألة مشكوك فيها جدا، بالنسبة لنا. فابنها حورس هو فيما يبدو أنوبيس ذاته. والطفل الذي في حضنها دوما هو أنوبيس، الذي يشبه ابن الخلصة الكلب- الأغضف.

twitter @baghdad_library

والحق أننا توصلنا في فصل آخر إلى أن الأهرام الثلاثة هي نصب السماء الشمالية على الأرض، في مقابل حزام الجوزاء الذي هو نصب السماء الجنوبية. وبما أنها كذلك، فلا بد أن يكون أنوبيس الذي قربها هو (فاتح طريق الشمال) بالتأكيد.

أما تفسير (حول) على أنها تعني (تمام الشهر)، فهذا تفسير من يعتقد أن المقة إله للقمر. إذ أن جذر حول العربي يعني: العور والتغير والالتفات والقوة، الحيلة والحذق والدهاء. وكثير من هذه المعاني يمكن أن يكون مرتبطا بأبو الهول وإيزيس. كما أن الحول قد يعني التلون والبرقشة. يقال: هو أحول من أبي براقش. وأبو براقش طائر يتلون ألوانا. كما يقال: أحول من أبي قلمون، الذي هو ثوب يتلون ألوانا، كما يقول لنا لسان العرب. وسوف نرى لاحقا أن لاسم أبو الهول علاقة بالألوان في العربية. كذلك فإن جذر حول يحمل معنى العجب مثل جذر (هول) العربي بالضبط. كما أن الجذر يحمل معنى عدم الحمل. يقال: حالت الناقة والفرس والنخلة والمرأة والشاة وغيرهن إذا لم تحمل. وينبغي أن نتذكر هنا أن أنوبيس هو ابن إيزيس. لكن أختها نفتيس هي من حملته لها في رحمها. فوق هذا فالجذر يحمل معنى الحرارة. وهو ما قد يربطه بإيزيس التي يمثل ظهورها بدء الصيف. يقال: حولت المجرة: صارت في شدة الحر في وسط السماء.

لوحات الآذان

لكن الأشد غرابة فيما عثر عليه الدكتور سليم حسن في تنقيباته هو (لوحات الأذن)! فقد عثر على عدد كبير جدا منها: (ومن بين الأمثلة الجديرة بالاهتمام من لوحات الأذن التي عثر عليها في أعمال التنقيب التي قمنا بها نذكر.... {لوحة} من الحجر الجيري والتي يظهر عليها أذنان للإله محفورتان حفرا غائرا وبينهما الإله «حور-مأخت» «حورس صاحب الأفق» في صورة صقر).[٣٠]

ولوحة أخرى (أعلاها مستدير، حفر عليها ما لا يقل عن ثلاثين أذنا. وفي الجزء الأسفل منها منظر يمثل المهدي راكعا أمام أبو الهول، وفوق أبو الهول النقش الآتي: «حور-مأخت الإله العظيم يسمع»).[٣١]

حور-ماخت، أو حور- أخت، إذن، إله يوصف بأنه الإله الذي يسمع، أي أنه إله سميع. وهذا ما يؤكد صلة هذا الإله بالمقة-حول اليمني، أي بلقيس شبيهة إيزيس. يقول دكتور جواد علي: (وقد أشير إليه {المقة} بـ «هلل» و بـ«ربع» وبـ «حول»... ومن صفاته «سمع»، أي أنه سميع).[٣٢]

الاثنان، إذن، سميعان: حورأخت والمقة! وإذا أضفنا إلى هذا أن الاثنين يدعيان حول فمعنى هذا أننا نتحدث عن إله واحد. أي أن حورأخت يطلق على مؤنث أيضا.

لكن لم هذا الإصرار الكبير على هدايا الأذن من عباد لأبو الهول تحت اسم حور- أخت أو حول أو حورون؟ هل لأن الكلب- أنوبيس يملك أذنين كبيرتين، كما هو حال ابن الإلهة الخلصة؟ أغلب الظن أن نعم. فأذن الكلب أنوبيس أشهر ما فيه. لهذا كان ابن الخلصة، أي الإله ذا الخلصة أغضف، أي بأذنين متدليتين. لكن لعل للأمر علاقة ما بالنعامة. فقد أوضحنا في فصل سابق أن الإله ذا الخلصة، أي الإله وابنها معا، كان يمثل بنعامة. بل إن ابن ذا الخلصة كان فيما يبدو نعامة. ينقل لنا الأزرقي في أخبار مكة: (نصب عمرو بن لحي الخلصة بأسفل مكة فكانوا يلبسونها القلايد ويهدون إليها الشعير، والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون عليها بيض النعام).[٣٣]

ويكرر ياقوت في المعجم القول ذاته: (فكانوا يلبسونه القلائد، ويعلقون عليه بيض النعام، ويذبحون عنده).[٣٤] ويخبرنا أبو العلاء المعري في رسالة الصاهل والشاحج أن:

(من أحاديث الجاهلية أن الطاغوت الذي يسمى ذا الخلصة في اليمن، كان امرأة وكانت فاجرة ساحرة، فدعت غلاماً من أهل اليمن إلى نفسها فأبى عليها، فسحرته فصار نعامة).[٣٥]

أكثر من ذلك، فإن إيزيس نفسها توصف في النصوص المصرية بأنها نعامة: تقول المنطوقة رقم ٣٠٤:

(المجد لك يا ابنة أنوبيس التي تقف على نافذة السماء، صديقة تحوت، التي تقف على جانبي السلم. افتحي الباب لعل أوناس يمر. المجد لك، أيتها النعامة الواقفة على شاطئ النهر المعوج، افتحي الطريق لأوناس عله يعبر).[٣٦]

إيزيس، التي توصف هنا بأنها ابنة أنوبيس لا أمه، لأن أنوبيس يتماهى مع تحوت- هرمس نعامة تقف على شاطئ النهر المعوج.

والنعامة عند العرب مقطوعة الأذنين رغم شدة سمعها. يقول لسان العرب: (ويقولون للذي يرجع خائباً: جاء كالنعامة، لأن الأعراب يقولون إن النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها فجاءت بلا أذنين؛ وفي ذلك يقول بعضهم:

أو كالنعامة، إذ غدت من بيتها لتصاغ أذناهـــــا بـغـيـر أذين

فاجتثت الأذنان منها، فانتهت هيماء ليست من ذوات قرون).[٣٧]

twitter @baghdad_library

ويقول شاعر آخر عن الظليم:

أصك مصلم الأذنين لـه بالسي تنوم وآء

النعامة مقطوعة الأذنين إذن. لكنها سميعة، أي شديدة السمع. فهل يكون عباد حور-أخت يهدون الإله النعامة، أو الإلهة النعامة أذنين بديلتين للتين صلمتا؟ ثم هل تكون النعامة قد أرادت قرنين لأنها تعرف أنها تمثل إيزيس-البقرة ذات القرنين؟ إن هذا لممكن حقا.

أبو الهول المؤنث

رأينا أعلاه أنه عثر على (رسم غريب على قدح من الفيوم، يمثل اثنين من أبو الهول يواجه أحدهما الآخر، بينهما نخلة تقليدية... ولكن أغرب ما في التمثالين أن الوجه لأنثى على حين أن الجسد لإله ذكر). ويخبرنا الدكتور سليم حسن كذلك: (كانت تماثيل أبو الهول المصرية عادة من الذكور، وكانت الإناث قلة).

إذن، فثم تماثيل لأبو الهول تظهره كخلطة من ذكر وأنثى، كما أن ثم تماثيل مصرية له تظهره كأنثى، حتى وإن كانت هذه التماثيل قليلة، نسبة إلى التماثيل المذكرة. فإذا كان أبو الهول تمثالا لخفرع أو تمثالا لإله الشمس، فلماذا نرى تماثيل مؤنثة له؟ لماذا تتشوش فكرة ذكورته بهذه التماثيل؟!

وحسب الدكتور حسن فقد كانت التماثيل المؤنثة لأبو الهول من عدة طرز (الطراز المصري الصريح، ويختلف عن ذكر أبو الهول فقط في الرأس الأمرد المؤنث... {و} طراز خاص تبدو فيه مؤثرات سورية أو كنعانية، سنسميه اصطلاحا أبو الهول السوري. ولهذا الطراز من أبو الهول فضلا عن لباس الرأس الغريب جسم اللبؤة... ولعل صورة أبو الهول السورية تمثل الإلهة عشتارت).[٣٩] أما الإغريق فقد أخذوا التقليد المؤنث لأبو الهول، وجعلوه تقليدا وحيدا. فقد افترضوا أن أبو الهول، أي السفينكس، أنثى دوما. وهو ما يثير استغراب من يؤمنون بذكورة أبو الهول مثل الدكتور سليم حسن: (لقد كان أبو الهول الإغريقي دائما أنثى. وقد يبدو عجيبا أن يلتقط الإغريق ذلك الطراز الذي كان قلة ولا يمثل أبو الهول عامة)[٤٠] كي يحولوه إلى نموذجهم الأساسي.

إذن، فهناك تمثال لأبو الهول هو خليط من امرأة ورجل. ثم هناك تماثيل مصرية قليلة تظهره كأنثى، ثم هناك تماثيل سورية الطابع تمثله كأنثى. ثم يجيء اليونانيون كي يزيدوا الطين بلة، فيصبح أبو الهول مؤنثا تماما. إنه أمر يثير الاستغراب.

لكن هذا لا يثير الاستغراب بناء على نظريتنا. ذلك أن أبو الهول يوحي بارتباط جدي مع إيزيس. أبو الهول ينوس بين الذكورة والأنوثة حتى في مصر ذاتها. يتبدى مرة ذكرا وأخرى أنثى؟ ويتبدى أنثى بشكل دائم في اليونان. فلماذا كل هذا إن لم تكن طبيعته مزدوجة، أي طبيعة تعكس الإلهين اللذين يمثلهما، أي الأم إيزيس وابنها أنوبيس؟

نعم، لماذا يصور الإغريق أبو الهول على أنه أنثى؟ لماذا يخطئون هذا الخطأ الفظيع، رغم أنهم على صلة وطيدة بمصر وآلهتها؟ وهل هم المخطئون حقا أم نحن بعدم إدراك الجانب الأنوثي الأصيل في أبو الهول، الإله المزدوج؟

والدكتور سليم حسن، رغم إيمانه بأن أبو الهول ممثل لإله الشمس، يقدم لنا اقتراحا غريبا عن نماذج أبو الهول السورية: (ولعل صورة أبو الهول السورية تمثل الإلهة عشتارت). أبو الهول السوري يمثل عشتار، الإلهة الأنثى وعشتار هي إيزيس كما نعرف! إنه اقتراح يتناقض بشدة مع فكرة حسن الأساسية. حاسته الداخلية تقول له إنه ربما يكون أنثى في تناقض مع الفهم السائد الذي يتبناه.

ومن الصعب أن يكون السوريون قد اخترعوا أبو هول أنثى يمثل الإلهة عشتارت في تضارب تام مع التقليد المصري. أي أن التقليد المصري ذاته لا بد أن يكون قد ربط نماذج أبو الهول المؤنث، المصرية الطابع، بإيزيس مثيلة عشتارت. وهذا يتوافق مع فكرة الإغريق عن أبو الهول. ويضيف سليم حسن عن لوحة أخرى: (يبدو كأنما يوحي وجه الأنثى وجسم الأسد الذكر ورأس التمساح محل الصدر البصري بمخلوق ذكر وأنثى في وقت واحد؛ ناسل ومطعم ومنتج).(٤١)

في كل خطوة يظهر لنا أبو الهول جانبه الأنثوي، بشكل يدفع الدكتور سليم حسن إلى وضع اقتراحات تعارض فكرته الرئيسة عن أبو الهول باعتباره ممثلا لإله الشمس. فهو هنا يبدو تركيبا من ذكر وأنثى. وكل هذا يؤيد فكرتنا بأن أبو الهول يمثل إلهين معا، ذكرا وأنثى، هما إيزيس وأنوبيس.

معنى اسم أبو الهول

وترى الغالبية من الباحثين في شئون الديانة المصرية القديمة أن اسم أبو الهول ربما كان يعني: أبو الرعب، انطلاقا من أن جذر (هول) العربي يحمل هذا معنى الخوف والرعب. لكننا سوف نرى لاحقا كيف أن هذا الجذر لا يعني فقط الرعب والإخافة، بل يعني أشياء أخرى أيضا، وأن هذه المعاني يمكن لها أن تكون أيضا على علاقة مع أبو الهول.

twitter @baghdad_library

لكننا نظن أن تخريجة سليم حسن ليست مقنعة تماما. وربما تكون التفسيرات القديمة للاسم أقرب إلى الصحة منها، وإن كانت لا تأخذ المشهد كله. ونحن سننطلق من افتراض أن اسم أبو الهول وصف للتمثال وليس اسما له. ذلك أن (أبو) العربية قد تعني (أب، والد)، لكنها تعني بالتأكيد (ذو) في موضع مثل هذا. وهذا ما يفشل المترجمون العرب والأجانب، في غالبيتهم، في الانتباه له. فهم يترجمونه (أبو) على أنها والد، بذا فالاسم أبو الهول يعني بالنسبة لهم Father of Terror وهذا ليس دقيقا. فالاسم يعني (ذو الهول) بالضبط، مهما كان معنى كلمة الهول. وجذر (هول) العربي لا يحمل معنى الرعب فقط، بل يعني أيضا التلوين والألوان، كما يعني الإدهاش، كما هو الحال مع جذر (حول) الذي تحدثنا عنه أعلاه. وعليه فقد يعني الاسم (ذو الألوان)، أي الكثير الألوان، أو (العجيب المدهش). ولعل اسم أبو الهول يحمل كل هذه المعاني: الرعب، الإدهاش، التلوين.

وحول معني التلوين في الجذر هول، لنرَ ما يقوله لسان العرب:

(والتهويل: التفريع... والهولة من النساء: التي تهول الناظر من حسنها... ووجهه هولة من الهول أي عجب... والتهاويل: زينة التصاوير والنقوش والوشي والسلاح والثياب والحلي، واحدها تهويل... والتهاويل: الألوان المختلفة من الأصفر والأحمر. وهولت المرأة: تزينت بزينة اللباس والحلي... والتهاويل: ما على الهوادج من الصوف الأحمر والأخضر والأصفر؛ ويقال للرياض إذا تزينت بنورها وأزاهيرها من بين أصفر وأحمر وأبيض وأخضر).[٤٢]

عليه فجذر (هول) يحمل معنى: التخويف والتلوين والعجب والإدهاش المرتبط بالمعنيين الأولين. أي أن اسم (أبو الهول) قد يعني الملون، إضافة إلى أنه المخيف. وهناك بقايا لون خلف أذن أبو الهول ظلت حتى الآن، وربما كانت تدعم ما نقول. أما المقريزي في المواعظ والاعتبار فيخبرنا بأن: (في وجهه حمرة ودهان يلمع، عليه رونق الطراوة).[٤٣]

وهذه المعاني تتطابق مع ما توصف به العنقاء العربية، التي هي الفينيق طائر إيزيس.

العنقاء والرعب

ونحن نعلم أن العنقاء مرعبة في الوقت الذي هي مدهشة بألوانها. ولنأخذ هذه المقتبسات في المصادر العربية عنها:

الميداني- مجمع الأمثال: (وكان بأرضهم جبل يقال له ديخ {؟} مصعده في السماء ميل، وكانت تنتابه طائرة كأعظم ما يكون، لها عنق طويل من أحسن الطير فيها من كل لون، وكانت تقع منتصبة فكانت تكون على ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكله، فجاعت ذات يوم وأعوزت الطير فانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغرب).[٤٤]

الزبيدي- تاج العروس: (كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان، وكان بأرضه جبل يقال له دمخ {؟}، مصعدٌ في السماء ميل، فكان ينتابه طائر كأعظم ما يكون، له عنق طويل كأحسن ما يكون، فيه من كل لون، وكانت تقع منقضة على الطير فتأكلها فجاعت وانقضت على صبي فذهبت به، فسميت عنقاء مغربا).[٤٥]

العصامي- سمت النجوم العوالي: (ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم لها عنق طويل من أحسن الطيور، كان فيها من كل لون فسميت: العنقاء؛ لطول عنقها).[٤٦]

إذن، فالعنقاء التي على علاقة بالشعرى-إيزيس طائر مرعب، لكنه بهيج الألوان. إنه يحمل الرعب ودهشة الجمال معا، أي المعنيين الرئيسين لجذر (هول).

فوق هذا كله، فقد نقل الزبيدي في تاج العروس عن لغويين رفضهم اعتبار العنقاء طائرا:

(قال أبو مالك: العنقاء المغرب: رأس الأكمة في أعلى الجبل الطويل، وأنكر أن تكون طائرا).

والحقيقة أن أبا مالك لم يكن مخطئا تماما، لكنه كان يأخذ الأمور من جانب واحد. فالعنقاء المصرية- بنو مرتبطة بشكل لا فكاك لها منه بالتلة البدئية، التي تصور واقفة عليها في النصوص المصرية. ويعتقد أن هذه التلة هي ال (بن بن)، أي الهرم الأول، أو التلة الأولى التي بانت بعد الطوفان.

ويؤكد هذا المعنى الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة:

(والعنقاء المغرب: طائر. والعقاب: عنقاء؛ لطول عنقها، وقيل: لأنها تعنق بصيدها أي ترفعه ثم ترسله. والعنقاء: هضبة شاخصة).[٤٧] كما يؤكده أبو العلاء في الصاهل والشاحج: (والعنقاء: هضبة في الجبلين).[٤٨] ويجب أن نتذكر أن إيزيس- الهرم الثاني هي جبل بين جبلين، أو هضبة بين جبلين.

twitter @baghdad_library

ويبدو أن (الغول) تنويع على (العنقاء) الجميلة المخيفة. يقول المسعودي في مروج الذهب:

(وقد حكي عن بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان مشوه لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفرداً في نفسه وهيئته توحش من مسكنه، فطلب القفار، وهو يناسب الإنسان والحيوان البهيمي في الشكل. وقد ذهبت طائفة من الهند إلى أن ذلك إنما يظهر من فعل ما كان غائباً من الكواكب عند طلوعها، مثل الكوكب المعروف بكلب الجبار، وهي: الشعرى العبور، وأن ذلك يحدث داء في الكلاب، وسهيل في الحمل والذئب).[٤٩]

لاحظ هنا أمرين اثنين:

الأول: أن الغول (يناسب الإنسان والحيوان البهيمي في الشكل). وأبو الهول إنسان-حيوان.

ثانيا: ثم لاحظ أن هذا الكائن يظهر وقت ظهور الشعرى العبور وزوجها سهيل، أي وقت ظهور سبدت- إيزيس وساهو-أوزيريس. وهذا ما يدعم من فكرة ارتباط العنقاء والغول معا بأبو الهول. فالثلاثة ترتبط بالجمال والرعب.

ويخبرنا د. جواد علي عن العرب (الغول هو اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار، ويتلون في ضروب الصور والثياب، ذكراً كان أو أنثى، وقد قال كعب بن زهير الشاعر الصحابي، الذي مدح الرسول، في وصف تلون الغول:

فما تدوم على حال تكون بها　　كما تلون في أثوابها الغول).[٥٠]

أخيرا، يجب أن نشير إلى أنه لا يمكن قراءة هذا الفصل منعزلا عن فصل (أهل الكهف وعبادة الأهرام).



twitter @baghdad_library

فصل 19

أهل الكهف وأهرام الجيزة

﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾

قرآن كريم

قصة أهل الكهف قصة عربية بامتياز. فهي لم ترد إلا في القرآن، وفي المصادر العربية الأخرى كتعليق على ما ورد في القرآن وشرح له. لكنها لم تكن قصة إسلامية. فقد كانت، حسب المصادر العربية، في صلب النقاش بين اليعاقبة والنساطرة من المسيحيين العرب في الجزيرة قبل الإسلام، وفي فجره. كما كانت لها حصتها من الجدل بين الإسلام، الدين الجديد، والمسيحية العربية. غير أن كونها أسطورة عربية لا يعني أنها تتناول مسائل دينية تخص الجزيرة العربية فقط، بل هي على علاقة بجوهر أديان المنطقة، وعلى الأخص ديانة الأهرام.

ديانة الأهرام؟!

نعم، ديانة الأهرام. بل وأهرام الجيزة الثلاثة على وجه الخصوص أيضا. لكن قشة صغيرة فقط هي التي خبأت دوما العلاقة بين قصة أهل الكهف وبين أهرام الجيزة.

إزاحة هذه القشة سيجعل كل عين تفاجأ بأنها قادرة على رؤية الشبه الشديد بين القصة وديانة الأهرام. ونظن أنها قشة الحذر والخوف التي حجبت الصلة البينة بين ديانة الأهرام وأهل الكهف. فإذا ما أزحنا الخوف قليلًا، فسوف نجد أن هناك شبها، بل وشبها صاعقًا ربما بين الأهرام وأهل الكهف. أو قل سنجد أن قصة أهل الكهف مطروحة بالحجر، بالمعمار، في هضبة الجيزة!

ولنبدأ بالمشهد الذي يعرضه لنا القرآن حول أهل الكهف: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾.[1]

ثلاثة وكلب!

أليس هذا شبيها بالأهرام الثلاثة وبأبي الهول رابضًا أمامها؟ ألسنا مع أهرام الجيزة، ثلاثة أهرام قربها أسد- كلب، وثلاثة نائمون في كهف وكلبهم قربهم أيضا؟ ثمة على الأقل شبه شكلي لا يمكن إنكاره! صحيح أن القرآن لا يحسم أنهم ثلاثة مع كلبهم، لكنه أيضا لا يحسم أنهم خمسة أو سبعة.

لكن لنمض قليلًا مع الوصف القرآني؛ كي تزداد قناعتنا بالشبه الجدي بين ما يصفه القرآن وما هي عليه الأهرام وكلبها- أسدها: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾.[٢]

كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد! أليس هذا أفضل وصف يمكن تقديمه لوضع أبي الهول الذي يبسط ذراعيه مثل كلب أهل الكهف قدام الأهرام؟

إذا صح ما نقول، ونحن نرى أنه صحيح، فقد حل لغز أبي الهول تماما. فهو كلب لا أسد من حيث المبدأ. وبذا تكون آية قرآنية قد قدمت لنا حلا للغز أبي الهول.

الوصيد

لكن ما الذي تعنيه كلمة (الوصيد) في الآية القرآنية: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد؟

تختلف المصادر العربية حول معنى كلمة (الوصيد). فحسب لسان العرب: (الوصيد: فناء الدار والبيت... والوصيدة: بيت يتخذ من الحجارة للمال {الدواب} في الجبال. والوصاد: المطبق. وأَوصد البابِ وآصده: أَغلقَه... وفي حديث أَصحاب الغار: فوقع الجبلَ على باب الكهف فأَوصده أَي سدّه... والوصيدة كالحظيرةِ تُتخذ للمال إلا أَنها من الحجارة والحظيرة من الغِصنَة... ووَصَد النسَّاج بعض الخيْطِ في بعض وصَداً ووصَّده: أَدخل اللحمةَ في السدى. الوصَّادُ: الحائك... والوصيد: النبات المتقارب الأُصولِ. ووصَّدَه: أَغراه؛ وأَوصد الكلب بالصيد كذلك. والتوصيد: التحذير).[٣]

ويقول الزمخشري:

(باسطٌ ذراعيه بالوصيد: بالفناء وقيل: بالباب... وأوصد الباب: أغلقه. وأوصد القدر: أطبقها. وأوصدوا واستوصدوا: اتخذوا وصيدة للغنم: حظيرةً، وغنمهم في الوصائد).[٤] ويزيد الزبيدي في تاج العروس: (الوصيد والأصيد... الفناء... وقيل:

twitter @baghdad_library

الوَصيد: العتبة للباب والوصيد بيتٌ كالحظيرة من الحجارة يتخذ في الجبال، للمالِ أَي للغنم وغيرها، كالوصيدة، يقال: غنمهم في الوصائد... والوصيد أَيضاً: الجبل، أَورده المَصنّفَ في البصائر. والوصيد: النبَات المتقارِب الأُصول...والوصيد: المطبَق، كالوصاد. والوصيد: الذي يختَن مرتينِ، أَورده المصنفَ في البصائر. والوصيد: الحظِيرة من الغصنة). [٥]

وعليه، فالمعاني الأساسية لكلمة (الوصيد) في الآية هي: الفناء، الباب، العتبة، الجبل، التحويطة من حجارة حول الغنم. وكلها جائزة. ذلك أنه يمكن اعتبار أبي الهول باسطا ذراعيه في فناء الأهرام، أو في باب الأهرام، أو على عتبتها، أو في هضبة الأهرام (الجبل). لكن يبدو لنا أن الأكثر انطباقًا على أبي الهول هو الحظيرة التي تصنع من الحجارة للدواب في الجبال. طبعًا، نحن نعلم أنه لا يوصد للكلاب التي تحرس الماشية، بل للماشية نفسها. فالكلب يظل على باب الوصيد كي يحرسها. وعليه، فربما كانت بقعة الأهرام هي الوصيد، في حين أن المكان الذي يربض فيه أبو الهول- الكلب هو باب الوصيد، أو فناء الوصيد. غير أن هذا ليس أكيدًا، لسبب واحد: هو أن أبا الهول، بالذات يربض داخل تحويطة حجرية تحيط به، في موضعه الذي يقع (في وهدة) من الأرض مقارنةً بالأهرام، كما يخبرنا ابن فضل العمري: (أبو الهول؛ وهو اسم لصنم يقارب الهرم الكبير. وفي وَهدة منخفضة تقع دونه شرقًا بغرب. لا يبين من فوق سطح الأرض إلا رأس ذلك الصنم وعنقه). [٦] ويعيد السيوطي في حسن المحاضرة تكرار ما يقوله ابن فضل ويعدل فيه قليلا: أما أبو الهول فهو صنم بقرب الهرم الكبير في وهدةٍ منخفضة، وعنقه، أشبه شيء برأس راهب حبشي، على وجهه صباغ أحمر، لم يحل على طول الأزمان؛ يقال إنه طلسم يمنع الرمل عن المزارع. ويؤكد هذا الأمر باحث حديث هو الباحث المصري الشهير سليم حسن: (ويقع صنم أبو الهول نفسه عند الحافة الشمالية الشرقية في الجبَّانة في منخفض صخري تخلف عن عملية قطع الحجار لبناء هرم خوفو). [٧] ويضيف أن حول أبو الهول سورًا بناه فيما يفترض تحتمس الرابع. هذا السور الذي يدور حول الوهدة أو المنخفض هو الوصيد. ولو صح ذلك، يكون السور أقدم بكثير جدا من تحتمس الرابع. ربما رممه تحتمس، لكن الوصيد، التحويطة، موجود في الميثولوجيا قبل أن يوجد على أرض الجيزة. ووجوده هناك كان تنفيذًا لما تقوله الأسطورة.

أي أن الكلب، أو رابعهم، يجب أن يكون داخل تحويطة، أي داخل وصيد في المعابد الأوزيريسية القديمة، لسبب نجهله. وكما رأينا من قبل، فإن الوصيد يصنع

للمال، أي للدواب، في الجبال لحمايتها، لا للكلاب. لكن أبا الهول بالذات يكمن هنا داخل الوصيد، لا خارجه، أي بالضبط كما جاء في الوصف القرآني. فهو يبسط ذراعيه (بالوصيد)، أي داخله. إذ أن الباء هنا تعني (في). هذا إذا كان الوصيد بمعنى التحويطة.

وبالمناسبة فإن المصادر العربية تختلف حول لون كلب أهل الكهف. لكن رأيا شائعا قويًا يقول إن لونه كان خلنجيا. يقول الدميري في حياة الحيوان الكبرى عن الكلبي: وفي رواية عنه إنه أحمر، واسمه قطمير. وقال مقاتل: كان أصفر. وقال القرطبي: صفرته تضرب إلى الحمرة. وقال الكلبي: كان خلنجي اللون. واللون الخلنجي حمرة تضرب للصفرة، أو العكس. وهكذا، فهو فيما يبدو حمرة تخالطها صفرة. وهذا ما وصفه به المقريزي: في وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة. ومازالت بقايا دهان محمر ترى خلف أذن أبو الهول حتى اليوم.

وكما لحظنا في المصادر اللغوية العربية فإن (الوصيد) يقام في منطقة جبلية. والأهرام تقع في هضبة تدعى هضبة الجيزة. أي أننا نتحدث عن منطقة جبلية مقارنة بما حولها. وتتكون الكهوف الطبيعية عادة في المناطق الجبلية. من أجل هذا لا بد من افتراض أن كهف أهل الكهف كان في منطقة جبلية. وقد أدت اختبارات البروفيسور الفرنسي (جين كيرسل) بالأجهزة الحديثة إلى اكتشاف يقول: إنه يوجد تحت الممر النازل الموصِّل إلى الحجرة التي تحت مستوى الأرض في الهرم الأكبر: (كتلة كبيرة من الحجر الجيري فكّكتها المياه الجوفية- أي، بكلمات أخرى، كهف عميق).[٨]

ثمة، إذن، (كهف عميق) تحت الهرم الأكبر. كهف مثل كهف (أهل الكهف). ونحن نفترض أن الكهف يمتد تحت الهرمين الآخرين. وهذا الكهف هو المكان الذي تنزل إليه أرواح الآلهة الموتي، قبل بعثها المفترض. وجود هذا الكهف تحت الهرم الأكبر دليل على أن بالإمكان الاستناد إلى القصة القرآنية لحل بعض ألغاز عبادة الأهرام المصرية. لا يعني هذا أن القصة القرآنية كانت تتحدث عن أهرام الجيزة بالضرورة، بل يعني أن ثمة هندسة مفترضة للمعابد الأوزيريسية في الأسطورة، وأن الأهرام أقيمت بناءً على الأسطورة. في هذه الهندسة يجب أن يكون هناك تلة ما، وشق يوصل إلى بئر، أو كهف عميق ما. وفوق هذه المعالم يقام المعبد أو الأهرام، كما أقيم (المسجد) فوق فتية الكهف: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾.[٩]

twitter @baghdad_library

طيب. لكن هذا لا يكفي وحده لتأسيس القضية. لا يكفي للإقناع.

حسن. نحن نملك المزيد. فلننظر إلى ما تقوله لنا المصادر العربية عن باب الكهف. يعلمنا القرطبي في تفسيره أن: (كهفهم مستقبل بنات نعش... فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرها).[١٠] ويضيف ابن حبيب في المحبر: (وكان باب الكهف بحذاء بنات نعش).[١١] أي في مواجهة بنات نعش. وهذا يشير إلى ارتباطٍ ما للكهف وأهله ببنات نعش في شمال السماء. وبنات نعش هي روح سيث، ممثل الموت، في الديانة المصرية القديمة كما يخبرنا بلوتارخ. فإلى هناك تذهب أرواح الموتى. من أجل هذا ينفتح باب الكهف إلى الشمال. هذا ليس صدفة.

والحق أن ما جاء به القرطبي، وغيره أيضا، إنما هو توضيح لما تكاد تقوله مباشرة سورة الكهف: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ ﴾.[١٢] فالشمس عند طلوعها في الصبح (تزاورُ عنهم)، أي تتجنب باب كهفهم، في حين أنها (تقرضهم) في المساء، أي تلمسهم لمسا ما أو تقترب منهم عند غيابها. ومن الواضح أن الجهة الوحيدة التي يمكن لها أن تجعلهم في مبعدة عن أشعة الشمس هي جهة الشمال، لا غير. وهذا يعني أن باب الكهف شمالي فعلًا بتأييد من الآية القرآنية.

لكن ما هو أهم من كل هذا هو أن هندسة الأهرام عموما على علاقة بالقطب الشمالي، وببنات نعش على وجه التحديد. فقد (كان اتجاه أهرامات الدولة القديمة يخدم نفس الغرض للملوك. إذ أن مداخل هذه الأهرامات تواجه القطب الشمالي للسماء؛ كي تتمكن روح المتوفى من الصعود إلى منطقة النجوم «الثوابت» التي تدور حول القطب والتي لا يمكن أن تسقط تحت خط الأفق، وبالتالي لا يمكن أن يضطر إلى الهبوط في الأعماق المخيفة).[١٣]

مداخل الأهرام، أبوابها، تواجه القطب الشمالي، وتتجه إليه. والقطب الشمالي موسوم ببنات نعش. أي أن أبواب الأهرام تتجه نحو بنات نعش، بالضبط مثل كهف أهل الكهف.

ويؤكد لنا روبرت بوفال أن الكوة الشمالية من حجرة الملك في الهرم الأكبر، كانت تتجه وقت بناء الأهرام نحو نجم (الثعبان) في شمال السماء، الذي كان نجم القطب

وقتها، حسب رأيه. وروح الفرعون الميت- أوزيريس تذهب، بعد أن تقطع نهر المجرة إلى بنات نعش بالذات. ليس هذا فحسب، فقد أعلمتنا المصادر العربية أن نجم السهى المعبود، وهو ذاته سهيل القطب الشمالي فيما نعتقد، يقع خلف النجم الأوسط من ذيل بنات نعش، أي خلف النجم المدعو (عناق).

إذن، فقد بدأنا بثلاثة وكلب، ثم اكتشفنا أن الأهرام تقام على هضبة صخرية فيها كهف، أو كهوف؛ لنصل إلى أن أبواب الأهرام تتجه إلى الشمال، مثلها مثل باب كهف أهل الكهف!

نجوم أهل الكهف

من ناحية ثانية، ينقل لنا الدميري في حياة الحيوان الكبرى رواية توحي بإدراك ما العلاقة بين أهل الكهف ونجوم محددة في السماء. تقول الرواية إن الكلب كان في الواقع رجلًا:

(قال فرقة: كان أحدهم، وكان قد قعد عند باب الغار، طليعةً لهم فسُمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس، كما سُمي النجم التابع للجوزاء كلباً {أي نجم الشعرى الذي يدعى كلب الجوزاء}؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان. وهذا القول يضعفه بسط الذراعين، فإنه في العرف من صفة الكلب).[١٤]

ما هو مهم هنا أن الكلب الذي يبسط ذراعيه بالوصيد هو رجل في الأصل، يحرسهم ويقف في طليعتهم. هو ليس كلبا في الحقيقة إنما يأخذ صورة الكلب. أو أنه رجل- كلب. وهذا يشبه أنوبيس ابن نفتيس، الذي صار في الواقع ابنا لإيزيس، وأخذ صورة كلب. وهو يقف عند باب الغار، أي في طليعته، يقف مثلما يقف نجم (كلب الجوزاء)، الذي هو الشعرى، في طليعة نجوم الجوزاء. هذا التشبيه الغريب لكلب أهل الكهف بكلب الجوزاء دليل على أنه ظل في الوعي ما يربط أهل الكهف بنجوم السماء، ويربط بشكل خاص نجم الشعرى- إيزيس، بكلب أهل الكهف. وهذا الوصف لكلب أهل الكهف يشبه وصف بلوتارخ لأنوبيس. فهو يقول عنه: (أصبح حارسا لإيزيس وتابعا لها تحت اسم أنوبيس. ويقال إنه يحرس الآلهة كما يحرس الكلب الإنسان).[١٥]

إنه حارس إيزيس بشكل خاص، إلا أنه حارس الآلهة- النجوم في الأهرام.

وقد يسأل سائل: نحن نتحدث عن (بنات نعش) في شمال السماء فكيف أصبحنا عند الجوزاء في الجنوب؟ وقد أوضحنا في فصول سابقة أن المصريين كانوا يقسمون السماء

twitter @baghdad_library

إلى جنوبية وشمالية، وأن الجنوبية تكرر الشمالية. يقول لنا البيروني في كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) عن ديانة الهنود: (ومعلوم أن القطب الشمالى يوسم عندنا ببنات نعش والجنوبي بسهيل. إلا أن في بعض من يشبه العوام من أصحابنا من يزعم أن في ناحية الجنوب من السماء بنات نعش على هيئة الشمالى، تدور حول ذلك القطب).[١٦]

وهكذا فهناك من كان يعتقد حتى زمن البيروني، أن هناك بنات نعش في الجنوب تماثل بنات نعش الشمالية. وحين يموت الشخص تذهب روحه إلى بنات نعش، لكنها حين تنبعث تهبط إلى برج الجوزاء، أي تذهب إلى بنات نعش الجنوبية، كما سماها البيروني.

انقلاب الفصول

ولأننا نتحدث عن نجوم في السماء، مرتبطة بتغيرات الفصول، فإننا نجد أن حركة أهل الكهف في نومهم تشبه أن تكون حركة فصلية. يخبرنا ابن حبيب في المحبر قائلا: (وكانت لهم في السنة تقليبتان: واحدة في الشتاء وواحدة في الصيف).[١٧] ويؤكد القرطبي في تفسيره هذا بالكلمات ذاتها: (وكانت لهم في السنة تقليبتان: واحدة في الشتاء وواحدة في الصيف. وكان باب الكهف بحذاء بنات نعش).[١٨]

نحن نتحدث هنا، كما يبدو، عن الانقلابين: الصيفي والشتوي، لا عن حركات أموات في كهف فقط. فهناك تقليبتان فقط، تقليبة الصيف وتقليبة الشتاء. في الشتاء، تذهب الآلهة، أو أرواح الفتية، إلى الشمال، إلى بنات نعش عند سيث- الموت. أما في الصيف فتنحدر إلى الجنوب، إلى برج الجوزاء، الذي هو حورس كما يخبرنا بلوتارخ. حورس نقيض سيث. إنه ممثل الانبعاث. ومن أجل هذا فحجرة الملك- العليا في الهرم الأكبر تملك كوتين واحدة تتجه نحو القطب الشمالي، وواحدة تتجه نحو برج الجوزاء، ونحو حزام الجوزاء بشكل خاص. كما أن لحجرة الملكة- الوسطى كوتين تتجهان نحو الشمال والجنوب، وإن كانت نهاياتهما مغلقتين. هذه الكوى ضرورية كي تتحرك أرواح الملوك- الآلهة، أي أرواح فتية أهل الكهف، من الشمال إلى الجنوب، من الشتاء إلى الصيف، من الموت إلى الانبعاث.

وتعلمنا المصادر العربية الكلاسيكية أن الجدل دار بين المسلمين والمسيحيين من جهة، وبين المسيحيين اليعاقبة والنساطرة من جهة أخرى، وكان حول عدد أصحاب الكهف. يقول القزويني في آثار البد وأخبار العباد:

(وروي أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبياً: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب وكان نسطورياً: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين).[١٩]

أما نجران فكانت مركز (كعبة نجران) في الجاهلية. وفيها كانت تتركز عبادة المقة- إيزيس قبل المسيحية. وبذا فليس غريبا أن يكون (السيد والعاقب) النصرانيان على معرفة بأصحاب الكهف وقصتهم، التي صارت جزءا من النصرانية فيما يبدو. وفيما يخص عددهم، فإنه يبدو خلافا على عدد النجوم المقدسة. فهم إما ثلاثة وكلب مثل عدد الأهرام وأبي الهول ومثل عدد نجوم (حزام الجوزاء) بالإضافة إلى نجم يساوي أبو الهول- ونحن نظنه نيبولا أوريون أسفل حزام الجوزاء، فهو يتخذ موقعه بالنسبة للحزام كما يتخذ أبو الهول موقعه بالنسبة للأهرام. أو أن الرقم خمسة يعود إلى حاصل جمع الإلهين، الذكر والأنثى، اللذين ينحلان في الثالوث الشبيه باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. يعني أننا أمام اثنين+ ثلاثة، أي خمسة. والكلب هو السادس.

وتدعي المصادر العربية أن الله أكد الرقم سبعة في مقابل رقم ثلاثة اليعقوبي ورقم خمسة النسطوري. يقول المقريزي:

(وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين. وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لسان جبريل عليه السلام).[٢٠]

وهذا ليس دقيقا. فالقرآن لم يحدد عددهم وترك الرقم سرا: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.[٢١]

وسوف نرى أن عدد السنوات التي قضاها أهل الكهف في الكهف، يؤكد قول اليعاقبة، أي يؤكد أنهم ثلاثة رابعهم كلبهم. وفيما يخص هذه المسألة، أي مسألة عدد السنين التي

twitter @baghdad_library

قضـــاها أهل الكهف في كهفهـــم، فقد اقترب بعض المصادر العربيـــة من تقديم حـــل مـــرض لها. فالقرآن يقول حول مدى لبثهم: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾.[٢٢] وينقل المقريزي عن القاضي أبو الحسن علي بن القاضي المؤتمن ثقة الدولة أبي عمرو عثمان بن يوسف المخزومي في كتاب (المنهاج في علم الخراج) حلًا لمسألة السنوات التسع هذه: يقول إنه هو من توصل إلى حل هذه المسألة:

(فلما تقلدت لناصر الدين أبي أحمد طلحة الموفق رحمة الله عليه أعمال الضياع بقزوين ونواحيها لسنة ست وسبعين ومائتين، وكان مقيماً بأذربيجان وخليفته بالجبل والقرى جرادة بن محمد وأحمد بن محمد كاتبه واحتجت إلى رفع جماعتي إليه - ترجمتها بجماعة سنة ست وسبعين ومائتين التي أدركت غلاتها وثمارها في سنة سبع وسبعين ومائتين، ووجب إلغاء ذكر سنة ست وسبعين ومائتين. فلما وقفا على هذه الترجمة أنكراها، وسألاني عن السبب فيها، فشرحته لهما، ووكدت ذلك بأن عرفتهما أني قد استخرجت حساب السنين الشمسية والسنين القمرية من القرآن الكريم بعد ما عرضته على أصحاب التفسير، فذكروا أنه لم يأتِ فيه شيء من الأثر فكان ذلك أوكد في لطف استخراجي: وهو أن الله تعالى قال في سورة الكهف: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ فلم أجد أحداً من المفسرين عرف ما معنى قوله: وازدادوا، وإنما خاطب الله جل وعز نبيه بكلام العرب وما تعرفه من الحساب، فمعنى هذا أن الثلثماية كانت شمسية بحساب العجم ومن لا يعرف السنين القمرية، فإذا أضيف إلى الثلثماية القمرية زيادة التسع كانت سنين شمسية صحيحة، فاستحسناه).[٢٣]

إذن، فقد أضيفت إلى السنوات الثلاثمائة القمرية تسع سنوات أخرى: ٣٠٠+٩، لكي تصبح ٣٠٠ سنة شمسية. فالسنوات الشمسية الـ ٣٠٠ تساوي ٣٠٩ سنوات قمرية.

وهذا حل معقول جدا في الحقيقة للجملة القرآنية الغامضة (وازدادوا تسعا). فالفرق نابع من الاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية. وليس غريبًا أن من يدعي تقديم هذا الحل خبير بشئون الخراج، أي أنه يعرف الفرق بين السنة الزراعية الشمسية وبين السنة القمرية. لكننا لا ندري إن كان هو بالفعل من توصل إلى هذا الحل قبل غيره. فالفكرة شائعة في المصادر العربية. ويجب تحري إن كان هناك أحد قد سبق المخزومي إليها. يقول القرطبي:

(وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين ونحوه ذكر الغزنوي. أي باختلاف سنيِّ الشمس والقمر؛

لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين).[٢٤]
ويقول القزويني:

(وكان ذلك بعد ثلاثمائة سنة بحساب الروم، وزيادة تسع بحساب العرب؛ لأن حساب الروم شمسية وحساب العرب قمرية، يتفاوت في كل مائة سنة ثلاث سنين).[٢٥]
بل إن الصفوري في نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ينسب فكرة السنوات الشمسية والقمرية إلى الإمام علي بن أبي طالب:

(قال علي رضي الله عنه عن أهل الكتاب إن أصحاب الكهف لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر ثلثمائة قمرية والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة ثلاث سنين، فلذلك قال: وازدادوا تسعا).[٢٦]

لكن السؤال هو: لماذا يكون أصحاب الكهف قد مكثوا ثلاثمائة سنة شمسية؟ وما معنى هذا العدد؟ فنحن نعلم أن الأعداد في القصص الدينية الميثولوجية لا تأتي هكذا جزافًا كما لو أنها أسعار فواكه.

نحن نعتقد أن لعدد السنوات هنا علاقة بديانة الأهرام. لكن كي نوضح الأمر، ربما كان علينا أن نجري تعديلا على حل المخزومي، يقوم على قلب فرضيته. إذ نرى أن الآية القرآنية ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾، قد تعني أن هناك زيادة تسع سنوات في الثلاثمائة سنة. فقد زيدت تسع سنوات كي يصبح العدد ثلاثمائة سنة قمرية. وليس هناك ما يمنع في تركيب الجملة من وضع هذا الفرض. وعليه، فهي في الأصل، أي بالحساب الشمسي، مائتان وواحد وتسعون عاما. وإذا حولناها إلى قمرية تصبح ٣٠٠ سنة. بالتالي فالرقم ٣٠٠ فيه زيادة تسع سنوات. وبناء عليه يكون أصحاب الكهف قد لبثوا في كهفهم مائتين وواحدا وتسعين عاما شمسيا. ولو قسمنا هذا الرقم على أربعة (أي على: ثلاثة رابعهم كلبهم) لحصلنا على الرقم اثنين وسبعين وثلاثة أرباع الواحد. فماذا يعني هذا الرقم؟

الواقع أن الرقم ٧٢ هو أشد الأرقام تقديسا في الديانة الأوزيريسية. إنه رقم يتعلق بموت أوزيريس. فحسب ما يخبرنا بلوتارخ، الذي هو أكمل مصدر لدينا عن أسطورة أوزيريس، أن سيث (تايفون) شقيق أوزيريس وعدوّه دبر مؤامرة ضده:

(وقد ارتكب تايفون مؤامرة خيانية ضده {ضد أوزيرس}، عبر مجموعة من المتآمرين مكونة من ٧٢ فردا. وقد ساعده في ذلك ملكة إثيوبية تدعى آسو، كانت موجودة وقتها[٢٧]

twitter @baghdad_library

قامت المؤامرة على أساس صناعة صندوق جميل في طول أوزيريس، ثم إقناعه، بالخديعة، بالدخول فيه، ليرى إن كان يأتي على قده، ليأخذه. وقد خدع فعلاً ونام في الصندوق كي يجربه، فأغلق المتآمرون الغطاء عليه، ثم سمروه بالمسامير، وطرحوه في البحر.

الرقم ٧٢، إذن، مربوط بموت أوزيريس. والاثنان والسبعون شخصا المتآمرون يرمزون للأيام الاثنين والسبعين التي يقضيها أوزيريس في العالم السفلي، قبل إعادة بعثه. وقد أعطي لكل واحد من الأربعة هذا الرقم. وهكذا نام الجميع: ٧٢ في أربعة: أي ٢٨٨ يوما، ومع الكسور تصبح ٢٩١ يوما.

الفارق الوحيد هو أن قصة أصحاب الكهف تتحدث عن سنوات لا عن أعوام. غير أن من يقرأ الجدال في المصادر العربية حول مسألة عدد سنوات أهل الكهف فسيكتشف أن المسألة مثيرة للبس. فقد فهم بعضهم حين نزلت الآية أنها أيام، وليست سنوات. يقول القرطبي في تفسيره:

(وقال بعضهم: إنه لما قال «وازدادوا تسعا» لم يدرِ الناس أهي ساعات، أم أيام، أم جُمع، أم شهور، أم أعوام. واختلف بنو إسرائيل بحسبَ ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمة. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام).[٢٨]

وهكذا لم يحسم القرآن موضوع السنوات، لكن ظاهر الآية حسب القرطبي يشير إلى أنها سنوات. وهناك من قال إن الآية نزلت في البدء من دون تحديد إن كانت الـــ ٣٠٠ هي أيام أم سنوات. وعندما سئل الرسول إن كانت سنين أم أياما قال: سنين. من أجل هذا جاءت على غير القياس. فالقياس سنة وليس سنين. يقول الدميري في حياة الحيوان الكبرى:

(واختلفوا في قوله عز وجل: «ثلاثمائة سنين»، فقرأ أهل الكوفة بغير تنوين، بمعنى فلبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة. وقال الضحاك ومقاتل: نزلت «ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة» فقالوا: أياماً أو أشهراً أو سنين؟ فلذلك قال: سنين. ولم يقل سنة).[٢٩]

لكن هناك احتمالا آخر وهو أن السنوات هي مائتان وواحد وتسعون سنة شمسية، أي ٣٠٠ قمرية، وأن الزيادة قد تمت بالتالي على الـ ٢٩١، أي أن علينا أن ننقص منها تسع سنوات كي نصل إلى الرقم الأصلي:

٣٠٠ سنة هجرية= ٢٩١ سنة شمسية

في ٢٩١ هناك زيادة تسع سنوات

٢٩١ - ٩= ٢٨٢

ولو وقسمنا ٢٨٢ على أربعة، لحصلنا على الرقم ٥ , ٧٠ وهذا هو، تقريبا، عدد الأيام التي تغيبها نجمة الشعرى، قبل أن تعود للشروق من جديد في بدء السنة الشمسية، فهي تغيب سبعين يوما. وقد اعتبر أن هذا الرقم هو رقم غياب النجوم في العالم السفلي، عمومًا. كما أن الرقم ٧٠ هو المدة التي تستغرقها عملية تحنيط الفرعون الميت استعدادًا لانتقاله إلى السماء وتحوله إلى روح. هذه العملية تدعى (ساه). وقد جعلت العملية تستغرق سبعين يوما انطلاقًا من غياب الشعرى. فغيابها كان يعتبر فترة حمل ما، تلد بعدها حورس الملك، ابنها، من جديد.

أما الرقم ٢٨٢ فهو قريب جدا من الرقم المقدس ٢٨٠ في الديانة المصرية:

(وتتضمن نقوش ضريح سيتي الأول حسابات فلكية تشير إلى أن النجم يحتاج بعد العبور الزوالي إلى ٩٠ يوما ليصل إلى الأفق الغربي في ذلك الوقت من النهار، أي عند الغسق بعد غروب الشمس مباشرة. بعده يغيب لفترة ٧٠ يوما، على غرار ما يحصل للنجم سيثوس {الشعرى}. وكان ذلك يعني بالنسبة إليهم دخوله منطقة (الدوات)، أي العالم الآخر. بعده كان النجم يعود إلى الولادة من جديد في الأفق الشرقي قادما من (الدوات)، ويعبر السماء من الشرق إلى الغرب، ويستغرق ٨٠ يوما ليصل إلى خط الزوال هذه المرة عند الفجر وقبل شروق الشمس مباشرة. وبعد ١٢٠ يوما أخرى كان النجم يشاهد من جديد عند خط الزوال عند الغسق بعد الغروب. ويعتبر النجم حيًا أي روحًا بعد السبعين يوما. وقد تخيلت المتون المصرية ظهوره من جديد كما لو أنها ولادة بشرية ومن رحم أنثوي فلكي... معنى ذلك أن الروح تدخل عالم (الدوات) ثم تبدأ عملية مخاض كونية يليها البعث بعد ٢٨٠ يوما (٩٠+ ١٢٠+ ٧٠). والمصادفة المثيرة أن هذه الحسابات تتطابق مع فكرة تكوين الجنين في الرحم البشري، وهي حوالي ٢٨٠ يوما. كذلك من الملاحظ أن فترة غياب الروح- النجم لحين عودته وبعثه، هي ذات الفترة المخصصة لإعداد الميت للبعث عند الفراعنة، أي التحنيط، والذي يستغرق ٧٠ يوما بالضبط).[٣٠]

وهكذا فنحن مع أوزيريس وإيزيس في كلا الحالين. لكننا أميل إلى أن الرقم ٧٢ هو الرقم المركزي، ظانين أن المصريين كانوا يعتقدون أن إيزيس كانت أيضا تغيب ٧٢ يوما. إذا صح هذا الحساب، فإنه يكون دليلًا حاسمًا على علاقة أصحاب الكهف بعبادة الأهرام. وهو أمر يؤكد أهمية العودة إلى النصوص القرآنية حتى في أمور تبدو بعيدة بعدًا ساحقًا عن زمن القرآن.

twitter @baghdad_library

تظل نقطة يجب أن ننظر فيها، وهي قول المصادر العربية أن أهل الكهف كانوا فتية مطوقين. يقول الدميري في حياة الحيوان: (كان أصحاب الكهف فتياناً مطوقين مسوَّرين ذوي ذوائب).[٣١] ويضيف القرطبي في تفسيره: (وروي أنهم كانوا مطوقين مسوَّرين بالذهب ذوي ذوائب).[٣٢]

ويبدو لنا أن هذا الوصف أيضا على علاقة بالعبادة الأوزيريسية. فنحن نرى دوما عمود (جد)، رمز أوزيريس، مطوقا بأربعة أطواق في جزئه الأعلى. ولسنا ندرك بدقة سبب هذا التطويق. فهل هو نوع من سياج لتبيت أوزيريس الميت إلى أن يعود إلى الحياة، أم أنه مثل سياج المهد للطفل يمنع من وقوعه ويساعده على النهوض، عندما تقوى عضلات ساقيه قليلا؟

ولعل مسألة التطويق هذه على علاقة بالمثل العربي القديم المشهور: (شب فلان عن الطوق). وهذا المثل قاله أول مرة جذيمة الأبرش، الشخصية العربية الأسطورية التي بينا في فصل آخر أنها على علاقة بأوزيريس.. فقد استهوت الجن ابن أخته عمرو بن عدي، وأخذته. يقول الجاحظ عن الجن:

(واستهووا سنان بن أبي حارثة ليستفحلوه، فمات فيهم، واستهووا طالب بن أبي طالب، فلم يوجَد له أثر إلى يومنا هذا. واستهووا عمرو بن عدي اللخمي الملك، الذي يقال فيه: شب عمرو عن الطوق، ثم ردوه على خاله جذيمة الأبرش، بعد سنين وسنين. واستهوَوا عمارة بن الوليد بن المغيرة، ونفخوا في إحليله فصار مع الوحش).[٣٣]

والقصة مشهورة جدا. ويخبرنا أبو فرج الأصفهاني في الأغاني كيف نطق جذيمة بالمثل. فقد أحضر رجلان الولد المفقود بعد أن عثرا عليه:

(فقال: الرجلان: ومن أنت؟ فقال: إن تنكراني أو تنكرا نسبي، فإنني عمرو وعدي أبي، فقاما إليه فلثماه، وغسلا رأسه وقلَّما أظفاره، وقصَّرا من لمته، وألبساه من طرائف ثيابهما وقالا: ما كنا لنهدي إلى الملك هدية أنفس عنده ولا هو عليها أحسن صفدا من ابن أخته، فقد رده الله عز وجل إليه. فخرجا حتى إذا دفعا إلى باب الملك بشَّراه به، فصرفه إلى أمه، فألبسته ثياباً من ثياب الملوك، وجعلت في عنقه طوقاً كانت تلبسه إياه وهو صغير، وأمرته بالدخول على خاله، فلما رآه قال: شب عمرو عن الطوق فأرسلها

مثلاً. وقال للرجلين اللذين قدما به: احكما فلكما حكمكما. قالا: منادمتك ما بقيت وبقينا. قال: ذلك لكما. فهما نديما جذيمة اللذان ذكرهما متمم، وضربت بهما الشعراء المثل).(٣٤)

نديما جذيمة هذان هما الفرقدان النجمان في بنات نعش الشمالية. فجذيمة يدعى نديم الفرقدين. وليس من سبب يدعونا إلى عدم الاعتقاد بأن هذين النديمين ليسا الفرقدين. ولأن الأمر يتعلق بنجوم سماوية، فلا مجال للقول بأن الطوق الذي طوِّق به عمرو بن عدي هو طوْق عادي. إنه يبدو كما لو أنه طوق على علاقة بالبعث من جديد، والعودة إلى الحياة من الموت. فقد لبسه عمرو بعد أن عاد من عالم الجن. وقد كان هو ذاته طوق طفولته. ولبسه إياه تأكيد على عودته إلى الحياة بعد الموت، أو انبعاثه من جديد.

وسوف يكون لنا فصل خاص عن جذيمة الأبرش ونديميه.

لكن يجب أن نختم بملاحظة نهائية تقول إن الادعاءات بوجود كهف أهل الكهف في تركيا أو في الأردن أو فلسطين أو سوريا طبيعية جدا. فكل معبد أوزيريسي قديم رئيس هو في الواقع كهف أهل الكهف ومعبدهم، إذا تخطينا السياحة. ويبدو أن أهم معبد لأهل الكهف تتذكره المصادر العربية كان في تركيا، بعد أن ابتعد عن الأذهان أن الأهرام هي كهف أهل الكهف الأساسي، والأعظم.

twitter @baghdad_library

فصل 20

الضُّراح

تعلمنا أغلب المصادر العربية أن الكعبة المكية ليست هي المعبد الأول. إنها البيت الأول للناس، كما جاء في القرآن: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾. أما البيت الأول، المعبد الأصلي، الذي أقيمت الكعبة على غراره ومثاله، والذي لم يوضع للناس بل للملائكة، فموجود في السماء منذ البدء، أو أنه كان على الأرض ثم ارتفع إليها عند الطوفان قبل أن تبنى الكعبة. هذا المعبد يقع، بناءً على المصادر العربية، في السماء فوق الكعبة تماما، بحيث إذا سقط سقط فوقها. وهو (الضراح) عند الغالبية، والضريح عند الأقلية، كما أنه هو (البيت المعمور) عند الغالبية أيضا. يقول الهيتمي في مجمع الزوائد والفوائد: (عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: البيت المعمور في السماء يقال له: الضريح، على مثل البيت الحرام بحياله، لو سقط لسقط عليه... وإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة).[١]

الحديث المنسوب إلى النبي ينقل، في تقديرنا، تقليدا جاهليا حول تصور الجاهليين للكعبة والبيت المعمور؛ لذا فنحن نناقشه كتقليد جاهلي، وليس كتصور إسلامي. فاهتمام هذا الكتاب يتركز على الديانة الجاهلية، وبالتالي على تصور الجاهلية للكعبة المكية.

وهذا الحديث المنسوب للنبي معروف عند الجميع، ومنه عرف معنى الضُّراح. يقول السيوطي في المزهر: (لم يعرف تفسير الضراح إلا من الحديث. قال: هو بيت في السماء بإزاء الكعبة).[٢] وبناءً على هذا الحديث، تتحدث كل المصادر العربية عن الضراح باعتباره بيتا في السماء. يقول السهيلي في الروض الآنف: (البيت المعمور بيت في السماء السابعة يقال له الضراح).[٣] ويزيد لسان العرب: (الضراح، بالضم، بيت في السماء مقابل الكعبة في الأرض. قيل: هو البيت المعمور، عن ابن عباس. وفي الحديث: الضراح بيت في السماء حيال الكعبة. ويروى الضريح).[٤] ويقول النويري

في نهاية الأرب: (فوضع الله سبحانه تحت العرش بيتا على أربعة أساطين من زبرجد، وغشاه بياقوتة حمراء، وسميَ البيت الضراح، ثم قال للملائكة: طوفوا بهذا البيت).[٥]

ويروي لنا ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة واحدا من الأخبار التي تقول إن الكعبة كانت على الأرض ثم رفعت إلى السماء: (جاء في الخبر الصحيح أن في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضراح، وأن هذا البيت تحته على خط مستقيم، وأنه المراد بقوله تعالى: «والبيت المعمور»).[٦]

الغرانيق العلى

ما دام الضراح من وجهة نظر الجاهلية موجودا في السماء، فإن من المنطقي أن نفترض أنه يتظاهر كمجموعة نجوم. فالسماء مقرٌّ للنجوم، وليست مقرًا لأبنية حجرية. فأين هو هذا الضراح؟ وبأي نجوم يتمثل؟

نحن نعتقد بقوة أنه يتمثل بنجوم حزام الجوزاء. من أجل هذا نظر للكعبة على أنها يمانية، أي جنوبية، رغم أنها لا تعد يمانية جغرافيًا. ففي حديث ينسب للرسول، ونحن نظنه أيضا يعكس تقليدا جاهليا ألصق بالرسول إلصاقا: (الكعبة يمانية، والركن الأيمن يماني، والإيمان يماني).[٧] أما أن الركن الأيمن هو يماني فهذا ما لا شك فيه، فهو يتجه للجنوب واسمه اليماني، أي الجنوبي. لكن أن الكعبة الجاهلية يمانية، فهذا ما يجب فهمه على أساس ارتباط الكعبة بالضراح. إذ لا الكعبة يمانية ولا مكة يمانية، بل هما حجازيتان. وهما يمانيتان، أي جنوبيتان، فقط لأنهما ظل الضراح اليماني، أي الجنوبي، أي ظل حزام الجوزاء في جنوب السماء، فلو وقع شيء منه لوقع عليهما. أما أن الإيمان يماني، فهذا ما يشير إلى أهمية الجنوب في الديانة المكية، وفي كل الديانات الأوزيريسية.

وقد رأينا من قبل كيف أن الثالوث العربي المكي: (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)، الذي يدعى بالغرانيق العلى، دعي أيضا باسم (بنات الله). وبينا أن (بنات) هنا تعني الأصنام والملائكة والنجوم الصغار. يقول الزبيدي في تاج العروس: (الإناث: صغار النجوم).[٨] وعليه، فحين يقول القرآن عن عبادة الجاهلية للات والعزى ومناة (إن يعبدون إلا إناثا)، فهو يقصد يعبدون أصناما تمثل آلهة تتجسد في نجوم صغار. ونحن نفترض أن النجوم الصغار التي تجسد الغرانيق العلى هي نجوم حزام الجوزاء.

وإذا كان صحيحا أن الضراح هو نجوم حزام الجوزاء، فلا بد أن هندسة البيت المكي الجاهلي الأصلية، الذي كان عند الجاهلية معبدا للات والعزى ومناة، يجب أن تعكس

twitter @baghdad_library

(هندسة) نجوم حزام الجوزاء. أي أن على البيت المكي الأرضي، الحرم، أن يعكس هندسة البيت السماوي، الضراح. فقد أقيم المعبد المكي على غرار الضراح السماوي. بل إنه يشبه أن يكون ظلّه الذي يقع تحته. أما (هندسة) نجوم الحزام، فهي انطراحها السماوي، أي الشكل الذي تبدو عليه في السماء.

وقد أشرنا في الفصول السابقة، إشارات مقتضبة، وأحيانا غير مباشرة، إلى ذلك. فقد بينا كيف أن الصفا والمروة، أي نقطتي السعي، يمثلان نجمي النطاق والمنطقة، وأنهما يتخذان وضعا جنوبيا- شماليا مثل النجمين. فالصفا جنوبي والمروة شمال. وكذلك الأمر بالنسبة للنطاق والمنطقة. كما أن الصفا أكبر من المروة. فالصفا: (وهو: جبل صغير يبدأ منه السعي وهو في الجهة الجنوبية مائل إلى الشرق على بعد نحو ١٣٠ مترًا من الكعبة المشرفة، والمراد به هنا: مكانٌ عالٍ في أصل جبل أبي قبيس جنوب المسجد قريب من باب الصفا، وهو الآن شبيه بالمصلىً طوله ستة أمتار، وعرضه ثلاثة، وارتفاعه نحو مترين.). أما المروة فهو: (جبيل صغير من حجر المرو، وهو الأبيض الصلب، ويقع في الجهة الشرقية الشمالية على بعد نحو ٣٠٠ متر من الركن الشامي للكعبة المشرفة... شبيه بالمصلى، وطوله أربعة أمتار، في عرض مترين، وارتفاع مترين).[٩]

وهذا ما يتوافق مع شدة إضاءة النطاق بالنسبة إلى المنطقة. فضوء المنطقة يساوي ٥٣٪ من ضوء النطاق تقريبا. وقد افترضنا أن نجمي النطاق والمنطقة يتمثلان باللات ومناة في الثالوث المكي:

النطاق المنطقة

الصفا المروة

اللات العزى

مكة ميثولوجيًا ثلاثة جبال: جبل أبو قبيس، وهو جنوبي، ويمثل الإله صيفا، والجبل الأحمر (أو قعيقان)، وهو شمالي، يمثل شتاء الإله، ثم التلة الأصلية التي يقع عليها الحرم المكي، وهي نقطة التوازن. يقول الحميري في الروض المعطار عن قوم عاد: (وهم يعظمون موضع الكعبة، وكان بربوة).[١٠] ويضيف الطبري عن الكعبة أيام إبراهيم: (وهي إذ ذاك عضاه سلم وسمر، وبها أناس يقال لهم العماليق، خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة).[١١] ويزيد ابن الضياء، في تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام: (عن مجاهد: إنه كان موضع البيت قد خفي ودرس من الغرق بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. قال: فكان موضعه أكمة حمراء مدرة لا يعلوها السيول).[١٢]

جبلا أبو قبيس والجبل الأحمر هما الأخشبان. وقد جاء في نقش يزعم أنه عثر عليه في بئر الكعبة: (أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السموات والأرض والشمس والقمر، ويوم صغت هذين الجبلين، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها). الجبل الأحمر، الشمالي، أحمر مثل الهرم الثالث، هرم منقرع. فالهرم الثالث يدعى بالمؤزر أو الأحمر عند المصادر العربية.. يقول المقريزي في المواعظ والاعتبار: (وكان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه، سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر. وقد دعي بالأحمر لأنه مبني بحجارة صوان حمراء). يضيف المقريزي: (وأما الثالث: فصغير عنهما نحو الربع لكنه مبني بحجارة الصوان الأحمر المنقط الشديد القوة والصلابة، ولا يكاد يؤثر فيه الحديد إلا في الزمان الطويل). الفارق بين الجبل الأحمر والهرم الأحمر أن الهرم الأحمر جنوبي في صف الأهرام، في حين أن الجبل الأحمر شمالي. ذلك أن الأهرام تصميم مقلوب تماما للمعبد الأوزيريسي. والسبب معروض في مكان آخر من الكتاب. أبو قبيس يساوي الهرم الأكبر، لكن معكوسًا. ربوة الحرم الأصلية تساوي الهرم الأوسط.

السعي بين الصفا والمروة هو سعي بين وجهي الإله- الكون، الصيفي والشتوي، أي بين جبليه الجنوبي والشمالي، إذ الصفا يساوي أبو قبيس، والمروة الجبل الأحمر. أي أن خط السعي تصغير لهذين الجبلين. ولا بد من وجود نقطة بينهما ترمز إلى ربوة الحرم الأصلية. نظن أن هذه النقطة هي علامة الميل الأخضر، التي تدعى بالميلين أحيانا، والتي ينتهي عندها الرمل، أي الهرولة في السعي. والميل هو علامة، تشبه مسلة صغيرة، أو تشبه مرود كحلٍ، توضع كعلامة كي تحدد مسافة الرمل، أي الهرولة، ومسافة المشي في السعي بين الصِّفا والمروة. ويقال إن الميلين كان يأخذهما السيل، فوضع أحدهما في جدار المسجد الحرام.

قياسات حزام الجوزاء

إذا افترضنا أن خط السعي بين الصفا والمروة في الكعبة الجاهلية وتر موسيقي، فهو وتر مقسوم عربة واحدة، هي نقطة الميلين فيما يبدو، إلى قسمين بنسبة واحد إلى اثنين. ويبدو أن هذه النسبة نسبة ذهبية في الموسيقى: (وأكثر النغمات انسجامًا تولد حين تكون النسبة بين طول وتر وآخر كسرا بسيطا. وكلما قصر الوتر ارتفعت طبقة النغم... فإذا

twitter @baghdad_library

أخذنا نصف وتر فإننا نسمع نغمة أوكتاف octave أعلى. أما إذا ضاعفنا طول الوتر، فإنه يولد نغمة الأوكتاف الأخفض. إن للأوكتافات أبسط علاقة ممكنة ببعضها، إذ أن لأطوالها نسبة ١:٢. إنها تتحد لإصدار أكثر الأصوات انسجامًا: فالوتران المنفردان اللذان لهما نفس الطول يوحدان نفسيهما عندما ينقران، فالنسبة هنا: ١:١. أما إذا كانت نسبة طوليهما ٣:٢ فإننا نسمع أكثر المراحل التي تليها عذوبة، وهي الرابعة. بيد أنه إذا كانت نسبة الطولين ١٧٣:١٦٣ مثلًا فإن الصوت سيكون نشازا غير مستساغ. استخلص فيثاغورس من مثل هذه الملاحظات أن بعض النغمات تكون منسجمة لكون الأعداد التي تمثل أطوال أوتارها ترتبط بعضها بالبعض الآخر بنسبة بسيطة).(١٣)

وللأسف، ليس بين يدينا حسابات حديثة بالمتر للمسافات بين الصفا والمروة. فكل ما لدينا هو الرقم المتداول الشائع وهو ٤٧٠ مترا بالتقريب بين نقطتي السعي. لذا سنلجأ إلى القياسات القديمة. وسنأخذ قياسين: واحدًا بالذراع من ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، وواحدًا بالباع من أبو زكريا يحيى بن مسرة في القرن الرابع الهجري. يقول ابن بطوطة الذي قاس المسافة بخطواته الشخصية في رحلته الطويلة المشهورة:

(ومن باب الصفا الذي هو من أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة، وله أربع عشرة درجة علياهن كأنها مصطبة. وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة، ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة.

وللمروة خمس درجات، وهي ذات قوس واحد كبير، وسعة المروة سبع عشرة خطوة. والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي إلى المروة، والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب علي من أبواب الحرم، أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها، وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً).(١٤)

وباختصار ما قاله ابن بطوطة نرى ما يلي:

المسافة بين الصفا والمروة: ٤٩٣ خطوة = ١٠٠٪

من الصفا إلى الميل الأخضر: ٩٣ خطوة = ١٨,٩٪ تقريبا

من الميل الأخضر إلى الميلين: ٧٥ خطوة = ١٥,٢٪ تقريبا

ونحن نعتقد أن نقطة الميلين هي النقطة الثالثة الرئيسة بين الصفا والمروة. وقد قسمت المسافة من الصفا إليها إلى قسمين. لذا يمكن جمعهما معا:

بين الصفا والميلين: ١٦٨ خطوة = ٣٤,١٪ تقريبا

بين الميلين والمروة: ٣٢٥ خطوة = ٦٥,٣ ٪ تقريبا

وهذه نسبة قريبة جدا من النسبة الذهبية، نسبة واحد إلى اثنين. والفارق نابع فقط من عدم دقة القياس بالخطى البشرية. فلو قسمنا الرقم ٤٩٣ خطوة على ٣ للحصول نسبة واحد إلى اثنين لحصلنا على: ١٦٤,٣٣ : ٣٢٨,٦٧ خطوة. الفارق بين النسبة الذهبية هذه وقياسات ابن بطوطة يقع في حدود أقل من أربع خطوات.

أما حسابات أبو زكريا فقد أخذت بالباع وليس بالخطى، لذا فهي تبدو أكثر توافقًا مع النسبة الذهبية. ونحن نأخذ هذه القياسات من كتاب الصلة لابن باشكوال:

(وقرأت بخط أبي محمد بن ذنين قال لنا أبو زكرياء يحيى بن محمد بن وهب بن مسرة: ذرعت من الصفا إلى المروة فوجدنا فيه خمسة وخمسين باعا ومائتي باع. منها إلى الميل الأخضر خمسة وأربعون باعا، ومن الميل إلى الميل الثاني وهو بطن المسيل الذي فيه الهرولة أربعون باعا، وما بين المروة إلى العلم الأخضر وهو الذي يسمى الميل سبعون ومائة باع ذرعه أبو زكرياء في ذي القعدة سنة تسع وستين وثلاث مائة).(١٥)

ويبدو أن أبو زكريا يسمي الميل الثاني بعدة أسماء: الميل الثاني، الميل، العلم الأخضر. إذ يفهم من كلامه أن هذه هي أسماء لشيء واحد. والميل الثاني هو ما يشير له ابن بطوطة بالميلين. إذن، فلدينا ما يلي:

المسافة بين الصفا والمروة: ٢٥٥ باعا = ١٠٠٪

المسافة بين الصفا والميل الأخضر: ٤٥ باعا

المسافة من الميل الخضر للميل الثاني: ٤٠ باعا

وكما حصل مع ابن بطوطة فإن المسافة بين الصفا والميل الثاني مقسومة إلى قسمين، لذا سنجمعهما معا:

المسافة بين الصفا والميل الثاني: ٨٥ باعا = ٣٣,٣٣٪

المسافة بين العلم الأخضر (الميل الثاني) والمروة: ١٧٠ باعا = ٦٦,٦٦٪

وهذا يعني أن المسافة بين الصفا والمروة مقسومة إلى قسمين بنسبة واحد إلى اثنين: ١٧٠ : ٨٥ تماما. فـ ٢ × ٨٥ = ١٧٠. وهي النسبة الذهبية بالضبط.

twitter @baghdad_library

وعليه، فوتر الصفا والمروة مقسوم بالنسبة الذهبية بنسبة ٢:١. من القسم القصير من هذا الوتر، أي من ذلك الذي بين الصفا والميلين، تخرج نغمة (التمكية)، أي النغمة العالية، الأوكتاف العالي، أي صوت المكاء ذي النغمة العالية: ولأن هذا القسم من الوتر يمثل نغمة الكون العالية المتدفقة السريعة، لذا فهو يقطع (رملا) أي مشيا سريعا يقرب من الهرولة. لكن هذا القسم من الوتر مقسوم إلى قسمين. فعند أبو زكريا يتكون من مسافتين: ٤٥ + ٤٠ = ٨٥. أما عند ابن بطوطة فهو مقسوم بالخطوات إلى قسمين: ٩٣ + ٧٥ = ١٦٨ خطوة. وهذه هي مسافة الرمل أي المشي السريع. ويبدو أن الجزء الثاني هو المسافة التي يشتد فيها الرمل حتى يصبح قريبا من الركض. وهذا ما يؤكده ابن تيمية في شرح العمدة في الفقه: (قال الأثرم يسعى بين الميلين الأخضرين أشد من الرمل قليلا ويقول في رمله: رب اغفر وارحم، إنك أنت الأعز الأكرم).[١٦] ونحن نفترض أن هذا القسم يمثل الفترة التي يبلغ فيها النيل- الكون قمة فيضانه على أبواب الخريف. وفي هذه الفترة يكون النيل هو (جد الخريف)، حيث جد هو عمود أوزيريس- النيل. ويسمى أوزيريس في هذه الفترة: واسع الخطى Far Strider.

ومن المسافة الأطول من الوتر، أي التي بين نقطة الميلين والمروة، تخرج النغمة الواطئة، نغمة الأوكتاف المنخفض، أي نغمة التصدية، وهي نغمة طويلة جشاء فحيحية، تشبه صوت الحية الأجش، وصوت الصدى. ولأن هذا القسم من الوتر يمثل نغمة الكون الواطئة، لذا فهو يقطع مشيا. وقد اختصر القرآن أمر النغمتين بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾. وفي هذه الآية يحدد القرآن مفهوم الجاهلية للسعي ويستنكره. لذا فقد غير الإسلام جذريا مفهوم السعي. فالسعي بين الصفا والمروة هو سعي بين يدي الله. والصفا والمروة يشبه ميزانا ما بين السيئات والحسنات. فكل خطوة تكثر الحسنات وتقلل السيئات.

حسن، الخط بين الصفا والمروة، بين الوجود الجنوبي للإله في نجم النطاق، ووجوده الشمالي في نجم الثعبان، وتر مقسوم بنسبة واحد إلى اثنين. وبما أن الميزان الأرضي، أي المعبد المكي الجاهلي، أقيم على مثال الميزان السماوي، أي الضُّراح، فهل يعني أن الجاهليين نظروا إلى الوتر الذي يربط بين نجمي النطاق والمنطقة على أنه مقسوم بنجم النيلام إلى قسمين بنسبة واحد إلى ٢؟

منطق فرضيتنا يفترض أن من المنطقي أن الأمر يجب أن يكون هكذا بشكل من الأشكال. لكن إثبات هذا أو نفيه يعود للفلكيين. وبين أيدينا قياسات المسافة بين نجمي النطاق بالزاوية- درجة:

(المسافة بين مركزي هرم خوفو ومنقرع تبلغ ٩٤٢ مترا، والمسافة بين النجمين شبيهيهما {أي النطاق والمنطقة} هي ٢,٧٣ - ٢,٧٤ زاوية- درجة في عام ٢٦٠٠ {أي الوقت القريب من وقت بناء الأهرام)... هذا يعني أن زاوية- درجة تساوي {بالنسبة للأهرام} بين ٣٤٣,٨ -٣٤٥ مترا).(١٧)

ولو قسمنا ٢,٧٤ على ٣ للخروج بنسبة واحد إلى اثنين لكان لدينا: ٠,٩١٣ : ١,٨٣

ولو قسمنا المسافة التي جاء بها أبو زكريا بهذه النسبة لكان لدينا:

٠,٩١٣ : ٨٥ باعا

١,٨٣ : ١٧٠ باعا

قياسات الأهرام

هل يتبع وتر الأهرام نسبة وتر الصفا والمروة ذاتها، أم أن الأهرام كمعبد مضاد، أي كحزام لسيث، ينقض هذه النسبة ويرفضها؟ ليس بين أيدينا حسابات موثقة بالمتر كي نؤكد أو ننفي؛ لذا نترك الأمر للمختصين في هذه النقطة. غير أن شيئا واحدًا يؤكد علاقة وتر الأهرام بوتر الصفا والمروة. فالمسافة بين مركز الأول ومركز الثالث فيه، وهي ٩٤٢ مترًا، أو ما يقرب من ذلك حسب كل قياس، تساوي ضعف المسافة المتداولة بين الصفا والمروة، وهي ٤٧٠ مترا. وهذا أمر ليس بالقليل الأهمية. فهو يدل على أن طول وتر المعبد الأوزيريسي، سواء كان معبدا مضادا، حزاما حورسيا أم سيثيا، أم لا، يتبع نسبة ثابتة. تختلف المسافات، لكن بنسبة محددة وثابتة دائما. ومن المحتمل جدا، بل من المنطقي جدا، أن يكون هذا على علاقة برؤية المسافة بين نجوم حزام الجوزاء.

الخلية الأولى

وسواء كان الضراح على الأرض ثم ارتفع، أو كان منذ البدء في السماء، فإن لدينا حقيقة مؤكدة عن تصور الجاهليين؛ وهي أن الكعبة بيت أرضي بني للناس، على مثال بيت أصلي موجود في السماء الآن خصص للملائكة، يدعى الضراح. هذا الضراح يقع فوق الكعبة تماما، وله حرم بقدر حرم الكعبة، وأنه لو سقط لسقط فوق الكعبة تماما.

twitter @baghdad_library

ومن خلال جذر (ضرح) العربي رأى البعض أن الضراح تعني البعيد. يقول ياقوت الحموي:

(ضراح... وهو فعال من الضرح: وهو البعد والتنحية، أو من الضرح وهو الشق في الأرض).[18] في حين رأى بعض آخر أن الضراح تعني المقابل. يقول لسان العرب: (الضراح بيت في السماء حيال الكعبة. ويروى الضريح. وهو البيت المعمور، من المضارحة، وهي المقابلة والمضارعة).[19] ويقول الخليل في العين رابطا الاسم بالدفن: (الضرح: حفرك الضريح للميت، وهو قبر بلا لحد).[20] وهذا يوحي بأن البيت المعمور السماوي يعمل كمدفن للآلهة في موتهم، في قراراهم الشتوي. من أجل هذا يسميه بعضهم الضريح، أي القبر، أو البناء المقام على قبر. لكن لسان العرب يعمق لنا المسألة بتحديده لمعنى الضرح بشكل أكثر شمولا:

(الضرح...: الشق... والضريح: الشق وسط القبر، واللحد في الجانب الآخر... وقيل: هو قبر بلا لحد. والضرح حفرك الضريح للميت... قال الأزهري: سمي ضريحا لأنه يشق في الأرض شقا. ورجل ضريح:... بعيد... وقد ضرح: تباعد... والمضرحي من الصقور: ما طال جناحاه وهو كريم). يضيف (وقال غيره: المضرحي: النسر... وقد يقال للصقر: مضرح... والضرحي: الرجل السيد الكريم).[21]

حسنا، إن هذا لمدهش حقا! فها نحن من جديد نستعيد الأسطورة ونبنيها من جديد من خلال كلمة واحدة، كلمة واحدة لا غير: الضرح. فهذا الجذر يحوي كل العناصر التي يفترض أن معبدا أسطوريا يقام عليها:

أولا: أنه ضريح، أي قبر.

ثانيا: أن هذا القبر شق في الأرض. وهذا يذكر بالشق الصخري الذي تحت عرش أوزيريس في أبيدوس (بق، بقا). كما يذكر بالشق الصخري تحت الكعبة، أي بئرها، المرتبط بإله يدعى (ذا بكة).

ثالثا: أن الضرح هو البعد لأن الضراح هو المعبد البعيد في السماء.

رابعا: أن الضرح يعني النسر، أو الصقر الطويل الجناحين. وقد عرفنا كيف أن الآلهة الأوزيريسية (لإيزيس، أوزيريس، حورس) تتبدى في شكل طيور، من صقور وغيرها.

ولا يمكن هنا أخذ معنى ورمي معنى. كل هذه المعاني معا تظهر شيئا من طبيعة الضراح، وبالتالي من طبيعة المعبد الذي بني على مثاله، أي الكعبة.

ونعتقد أن الحسبة التي تنسب إلى زرقاء اليمامة حول الطيور تتحدث عن النسبة بين النقاط الثلاث هذه. يقول لنا الميداني في مجمع الأمثال عن حسابات الزرقاء:

(قال النابغة في زَرْقَاء اليمامة يخاطب النعمان:

واحكم كحكم فَتاة الحي إذ نظرت ... إلى حمام سرَاع وارد الثّمد

يحفّه جانبا نيق وتتبعه ... مثل الزجاجة لم تُكحل من الرمد

قالَت اَلاَ لَيتما هذَا الْحمام لَنا ... إلى حمامتنا أو نصفَه فَقد

فَحسّبوه فألفَوه كما ذكَرت ... تسعا وتسعين لم ينقص ولم يزد

وكانت نظرت إلى سرب من حمام طائر فيه ست وستون حمامة، وعندها حمامة واحدة، فقالت:

ليت الحمام ليهْ ... إلى حمامتيهْ

ونصْفه قديهْ ... تمّ الْحمام ميهْ).[٢٢]

الرقم مائة هو النسبة الذهبية للمعبد الأوزيريسي. أما الرقم تسعة وتسعون فهو حاصل جمع النسبة بين الأول والثاني وبين الثاني والثالث. أما الحمامة المضافة فهي حاصل جمع الكسرين المتبقيين من الجانبين، وهو يساوي واحد في المئة.

يضيف الميداني في خبره عن الحمامات: (أنها طارت بين نيقيْن، لأن الحمام إذا كان في مضيق من الهواء كان أسرع طيرانا منه إذا اتسع عليه الفضاء). والنيقين تعني: الجبلين، كما يوضح لنا أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني، الذي ينسب الحكاية إلى ابنة الخس، وهي زرقاء مثل اليمامة: (قال الأصمعي: سمعت أناساً من أهل البادية يتحدثون أن بنت الخس كانت قاعدةً في جوارٍ، فمر بها قطاً وارد في مضيقٍ من الجبل، فقالت:

يا ليت ذا القطا ليه ومثل نصفه معيه ... إلى قطاة أهلنا إذاً لنا قطاً مائه

وأتبعت فعدت على الماء فإذا هي ست وستون. وقوله: فقد، أي فحسب. ويحفه أي يكون من ناحية هذا الثمد، يقال: حف القوم بالرجل أي اكتنفوه. والنيق: الجبل. ومثل الزجاجة: يريد عيناً صافية كصفاء الزجاجة).[٢٣]

وهكذا فقد طارت الحمامة (بين نيقين)، أي بين جبلين، لأن (النيق: الجبل). الجبلان هذان هما، على الأغلب، جبلا أبو قبيس والجبل الأحمر، المصغران بالصفا والمروة،

twitter @baghdad_library

أو ما يشابههما من الجبال، أو ما يرمز لهما من الأهرام كالهرمين الأكبر والأصغر في الجيزة من دون شك. أما سرب الحمام فهو (الغرانيق العلى)، أي اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. أما زرقاء اليمامة، أي الحمامة في الواقع، فهي النقطة الوسطى، وهي تأخذ الكسور من هنا ومن هنا في المسافة بينها وبين الصفا، وبينها وبين المروة وتصنع الرقم واحد، أي حمامتها. وهذا ما يؤكد لنا أن زرقاء اليمامة هي العزى.

ونظن أن نعاج داود التي وردت في سورة ص، الآيات: ٢١- ٢٥ لها علاقة بما نتحدث عنه:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.[٢٤]

نعاج داود مثيل حمامات الزرقاء. فهناك تسع وتسعون نعجة وتسع وتسعون حمامة. ثم هناك النعجة التي تكمل المائة مثل حمامة زرقاء اليمامة. أما الخصمان المختلفان فيمثلان النسبتين: ٣٣,٣٣٪ و ٦٦,٦٦٪. وفي الحالين نحن نتحدث عن النسبة الذهبية للمعبد الأوزيريسي. وقد أضاف النعجة إلى النعجات التسع والتسعين فصار لديه مائة نعجة. إنها طريقة لتعليم الديانة بالألغاز.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الخط بين الصفا والمروة هو نجوم حزام الجوزاء مطروحة أفقيا. لكننا عرفنا أن هناك انطراحا عموديا للنقاط الثلاث داخل الكعبة. فلدينا في الأعلى هبل، الذي يمثل الصفا، كما لدينا ذو بكة الذي يمثل المروة. ولا بد أن تكون هناك نقطة بينهما تمثل العزى. المنطرح الأفقي هو أوزيريس الميت، المطروح على جانبه. أما المنطرح العمودي، فهو أوزيريس المتعالي، المرفوع، الناهض من الموت.

كذلك يمكن للواحد أن يفترض أن الطواف حول الكعبة كان في عرف الجاهلية نوعا من طواف حول الصفا والمروة. وفي هذا الطواف يمثل الركن اليماني، أي الجنوبي، جبل الصفا وجبل أبو قبيس، ويمثل الركن الشمالي جبل المروة والجبل الأحمر. ولأن الإله في مظهره الصيفي هو الأهم، وهو يتمثل بالصفا وأبو قبيس، إذ هو ممثل انبعاث

الكون. ويقال إن الحجر الأسود وضع في أبو قبيس أمانة في أيام الطوفان ثم أعاد أبو قبيس الأمانة بعد انحسار الطوفان؛ لذا سمي هذا الجبل بالأمين. وهذا يدلل على أن صلة الحجر الأسود بالجنوب عالية جدا، رغم أنه موضوع في الركن الشرقي للكعبة.

طبعا، نحن نتحدث عن مفهوم الجاهلية للكعبة، لا عن مفهوم الإسلام. وقد أعطى الإسلام معنى مغايرا لكل شيء. وحتى عندما أبقى على المشاعر والمناسك ذاتها، فإنه قلب معناها تماما. نقول هذا كي يتضح أننا نناقش هنا مفهوم الجاهلية للكعبة ومكة لا مفهوم الإسلام.

twitter @baghdad_library

فصل 21

الملكة الأم في الغرب:
السِّفَنج

ثمة أسطورة صينية شهيرة تتحدث عن زيارة قام بها ملك يدعى (ونغ مو) إلى أميرة أسطورية تدعى (سي ونغ مو) Sewang mu, Xiwang mu في بلادها في الغرب البعيد. وحين وصل إلى هناك احتفلت به الأميرة وغنت له، ثم عاد ظافرًا. وفي روايات أخرى أنه نسي نفسه ولم يعد إلا بعد وقت طويل. وقد أصبحت هذه الأسطورة جزءًا من الديانة البوذية، حيث أصبحت سي ونغ مو رمزًا للأبدية والخلود، كما يقال.

الاسم (سي ونغ مو، سيونغ مو، سي وونغ مو) يترجم على أنه يعني: الملكة الأم في الغرب، أو: ملكة الغرب الأم. حيث: سي تعني في الغرب، ونغ تعني ملكة، ومو تعني الأم.

وتقدم لنا النصوص التاريخية الصينية، وليس الميثولوجية، تحديدا للمكان الذي افترض الصينيون أن سي ونغ مو هذه كانت تقيم فيه. ففي مقطع من كتاب (تسجيلات المؤرخين الجغرافيين) جاء في تقرير كتبه مبعوث صيني رسمي، يدعى جان يانغ، وصل إلى بلاد فارس في حدود نهايات القرن الأول، وحسب ترجمة جون. إي. هل الباحث في الصينيات، ما يلي: (ويقال إنه إلى الغرب من هذه المملكة {مملكة تيوكي} يقع روشي «النهر الضعيف» ولوشيا «الرمال المتحركة» التي تقع بالقرب من المكان الذي تعيش فيه سي ونغ مو... والذي هو تقريبا عند مغرب الشمس).[١]

ويترجم لنا زياد منى المقطع ذاته عن الألمانية، وكما ورد في بحث للألماني المختص باللغة الصينية إ. فوركه: (ويقول البعض إنه يوجد، غربي هذه الإمبراطورية، الماء الخفيف، وصحراء رملية قرب ملكة سا الأم {ترجمة فوركه الخاصة للاسم سيونغ مو}، تقريبا قرب مغرب الشمس).[٢]

وحسب فوركه أيضا فقد أورد مؤرخ من سلالة (هان) أمر هذه الملكة بالصيغة التالية: (وقد سمع البارثيون المتقدمون في السن قولا بأنه يوجد في بلاد Tiao-chih «الماء الخفيف»، وأن ملكة سا الأم {ترجمة فوركه الخاصة للاسم} كانت هناك لكنهم لم يروها).(٣)

ويعتقد الباحث الألماني أن مملكة (تيوشه، تيوكه، تيوجه) هذه هي سوريا السلوقية. ذلك أنه قدر أن (الماء الخفيف) هو ماء البحر الميت في فلسطين. فملوحته الزائدة تجعل الجسد الإنساني يطفو على سطحه. غير أن جون.إي. هل يترجم (روشي) إلى (النهر الضعيف) بدل (الماء الخفيف)، كما رأينا أعلاه، ولا يمكن الحديث عن البحر الميت كنهر ضعيف. كذلك فإن غالبية الباحثين الحاليين يختلفون مع فوركه. فهم يعتقدون الآن، وبقوة، أن تيوكه هذه لا بد أن تكون واقعة على فم الخليج العربي، كما يقول لنا «هل» ذاته في مقدمة ترجمته لكتاب يو هاون (شعوب الغرب في ويلو): (كل الكتاب الحاليين تقريبا يتفقون على أن هذه البلاد- التي هي أبعد ما وصل إليه المبعوث الصيني جان يانغ في عام ٩٧ ميلادية، والتي كانت تابعة للبارثيين في ذلك الوقت- يجب أن تكون قريبة من مدخل الخليج الفارسي).(٤)

ولا نريد أن نغرق في الجدل حول تيوكه هذه، بل نكتفي بالقول، انطلاقًا من هذا التحديد، أن الصينيين كانوا يرون أن مقر سي ونغ مو، التي زارها الملك مو، يقع في الجزيرة العربية حسب أغلب الباحثين.

سي ونغ مو

فمن هي سيونغ هذه؟ أو ما هي؟

في ضربة حدس مدهشة قدم لنا إ. فوركه، في بحثه الذي أشرنا إليه، والذي كتبه قبل مائة عام تقريبا، وترجمه مشكورا عن الألمانية زياد منى، اقتراحًا مفاجئًا يقول: إن سي ونغ مو هذه هي ملكة سبأ اليمنية، صاحبة سليمان الملك، وأن الملك الصيني ونغ مو ذهب إلى اليمن في الجزيرة العربية لزيارتها، في حدود القرن العاشر قبل الميلاد!

هكذا مرة واحدة: سي ونغ مو هي ملكة سبأ!

ولا بد أن التشابه البين بين رحلة الملك الصيني وبين رحلة بلقيس ملكة سبأ إلى الملك سليمان هي التي قدحت في ذهن فوركه احتمال أن تكون رحلة الملك الصيني صوب الجزيرة العربية. فهناك في الحالين ملك وملكة ورحلة إلى منطقة بعيدة وأشياء

twitter @baghdad_library

عجيبة وفريدة. الفارق أن الرحلة مقلوبة؛ فالملك هو من يرحل نحو الملكة في الأسطورة الصينية، في حين أن الملكة هي من ترحل نحو الملك في العهد القديم.

لكن، بغض النظر عمَّا قدح الفكرة في ذهن فوركه، فإننا نعتقد أن اقتراحه يمثل ضربة حدس مدهشة وموفقة. أي أننا نوافق على اقتراحه بأن سي ونغ مو هي ملكة سبأ، لكن على الأرض التي أسسناها في فصولنا السابقة، والتي توصلنا فيها إلى أن ملكة سبأ هي ملكة- إلهة أسطورية من طراز إيزيس المصرية، لا على الأساس الذي ينطلق منه الباحث الألماني، الذي يرى أن ملكة سبأ ملكة تاريخية، وأن سليمان ملك تاريخي، وأن ونغ مو ملك تاريخي فوق ذلك أيضا. يقول: (وبعد كل هذا، فمن المسموح لنا النظر إلى رحلة الملك مو إلى أقصى الغرب...على أنها حدث تاريخي).[٥]

في رأينا ليس ثمة تاريخ لا فيما يخص سيونغ مو، ولا فيما خص سليمان وبلقيس أيضا. هناك ميثولوجيا فقط، وفقط. ورحلة الملك مو إلى سيونغ مو هي مثيلة رحلة أوزيريس (سهيل) إلى إيزيس (الشعرى) في مقرها في برج الجوزاء غربي نهر المجرة. أي رحلة أوزيريس الصيفية، التي تمثل الانقلاب الفصلي. فحين يحل الصيف يعود سهيل إلى الظهور عند برج الجوزاء، وتكون إيزيس- الشعرى هناك في استقباله. فهي تطلع قبله بأسبوعين أو ما شابه، ويكون طلوعها إيذانا ببدء السنة الشمسية، وبدء فيضان النيل. من أجل هذا فالمصادر الصينية تتحدث عن الملك الصيني على أنه (ابن السماء)، كما هو الحال مع أوزيريس السماوي، كما يخبرنا كتاب: («تقرير عن ابن السماء مو» العائد للقرنين الثاني والثالث قبل الميلاد).[٦]

إنه ابن السماء؛ لذا فنحن نتحدث عن ميثولوجيا فلكية، لا عن تاريخ. أو أننا نتحدث عن تاريخ فلكي إذا أحببتم، لا عن تاريخ بشري.

سي ونغ والنعامة

يبرهن فوركه على أن رحلة الملك ونغ مو إلى بلاد الغرب البعيدة، كانت رحلة إلى مملكة سبأ في الجزيرة العربية من خلال استقراء المعلومات التي يعتقد أنها واقعية في نص الأسطورة الصيني. فقد جاء في الكتاب الرسمي عن الجبال والأنهار:

(وفي الجزيرة الصحراوية المروية بشكل جيد يغرد طائر لونا Luna ويرقص طائر الفينيقيا دون أي سبب. ويأكل السكان بيض الفينيقيا ويشربون الطل الحلو، وتتحقق رغباتهم كلها بنفسها. وتتواجد هناك مختلف أصناف الحيوانات التي تعيش مع بعضها

البعض في قطعان شمالي أرض الأفاعي الأربع. ويحمل الناس بيضة واحدة بكلتا {!} اليدين، ويسبقهم طائران ويدلانهم على الطريق إليها).[٧]

من وجهة نظر فوركه، فليس هناك طائر على الأرض لا تكفي يد واحدة للقبض على بيضته سوى النعامة. عليه فإن الطائر الذي يتحدث عنه النص، أي طائر الفينيق الصيني، هو النعامة. بالتالي فالملك مو يجب أن يكون ارتحل نحو بلاد النعام: الجزيرة العربية، أو الحبشة على أبعد تقدير. ثم يقرر بناء على معطيات أخرى أن الرحلة كانت إلى اليمن لا إلى الحبشة. وبناء على هذا النص الذي يجعل من طائر الفينيق الصيني (فنج هنغ) يملك بيضة مثل بيضة النعامة، فإن فوركه يقرر أن النعامة هي أصل صورة الفينيق الصيني: (لا يوجد لديَّ أدنى شك بأن النعام وليس الديك البري هو الذي شكل في الأصل الصورة الأولى لطائر Feng-huang: أي ما يدعى طائر الفينيق الصيني).[٨]

وإذ يصل فوركه إلى أن زيارة الملك الصيني كانت إلى اليمن في العربية، فإنه يحاول أن يستنطق اللغة الصينية كي توافق على استنتاجه، مقررا أن مقطع (سي) في الاسم سي ونغ مو يمكن أن يقرأ (سا)، وأن سا هي في الواقع سبأ، حيث تأخذ اللغة الصينية، عادة، مقطعا من الاسم وتسمي به بدل أن تأخذ الاسم كله. وعليه يجب أن نقرأ الاسم على أنه (سا- ونغ- مو)، وعلى أنه يعني (ملكة سبأ الأم)، حيث سا تعني سبأ.

نحن نظن أننا لسنا بحاجة إلى هذا التخريج اللغوي كي نربط بين الأميرة الصينية وملكة سبأ الأسطورية وليس التاريخية المفترضة. ونقترح بدلا من ذلك التأمل في العلاقة بين معنى اسم الملكة الصينية وبين الصفات التي تطلق على إيزيس المصرية. فنحن نعلم أن إيزيس تدعى (سيدة الجبال الغربية)، و(سيدة الهرم الغربي)، حيث الهرم تمثيل للجبل في الواقع. كما نعلم أن مقابر الجيزة التي تضم الآلهة الموتى، بمن فيهم إيزيس وأوزيريس، تقع إلى غربي نهر النيل، وأن برج الجوزاء الذي يضم الآلهة المنبعثة، يقع أيضا إلى غربي نهر المجرة. وهذا يعني أن إيزيس مرتبطة بالغرب، وأن الغرب مقرها، كما هو الحال مع الملكة-الأم الصينية.

فوق هذا فنحن نعلم أن إيزيس هي الملكة الأم، أم حورس وأم أنوبيس بشكل ما. وهي تدعى أيضا (الأم الإلهية)، (أم العالم) و (أم الإله)، أي أم حورس. إذن فهي في الواقع (الملكة الأم في الغرب)، غرب نهر المجرة، وغرب نهر النيل، العديل الأرضي لنهر المجرة.

twitter @baghdad_library

فوق هذا كله، فنحن نعلم أن بعض المصادر اليونانية ترى أن أوزيريس وإيزيس قد دفنا في الجزيرة العربية على وجه التحديد، أي في المكان الذي اعتقد الصينيون أنه مقر سي ونغ مو. يقول لنا ديودورس الصقلي (حول إيزيس وأوزيريس):

(ويقولون إن أوزيريس كان أيضا مهتما بالزراعة، وأنه نشأ في مدينة نيسا وكابن لزيوس، فإن اسمه في اليونانية مشكل من اسم والده ومن اسم المكان الذي ولد فيه. وقد ذكرت نيسا في أنشودة الشاعر باعتبارها على حدود مصر:

وهناك نيسا محددة، عالية في الجبال

حيث الغابات الكثيفة بعيدا في فوينيس

قريبا من نهر إيجيبت

ويقال إن اكتشاف النبيذ تم بواسطته بالقرب من نيسا. ولأنه عرف الطريقة المثلى لمعالجة ثمرته، فقد كان أول من شرب الخمر).(٩)

ونيسا هذه في العربية. يضيف ديودورس في فقرة أخرى: (ولست أتجاهل أن بعض المؤرخين يورد لنا التالي حول إيزيس وأوزيريس: إن أضرحة هذين الإلهين موجودة في نيسا في العربية. ولهذا السبب فإن ديونيسوس يدعى نيسايوس).(١٠)

وهكذا، فإيزيس وزوجها أوزيريس مدفونان في العربية، أي في المنطقة التي حددها المبعوث الصيني إلى بلاد فارس كمقر لسيونغ مو.

سشب عنخ

لكننا في الحقيقة نملك ما هو أكثر من هذا، وأخطر.

فقد توصلنا في فصل سابق إلى أن كلا من إيزيس وأنوبيس- أبو الهول يؤخذان معا دوما، ويسميان بالاسم ذاته في أحيان كثيرة. فهما يسميان، مثلا، معا باسم (هر-أخت) أي حورس الأفق. ونحن نعرف أن أبا الهول يدعى أيضا باسم (شسفعنخ، شسفعنغ، شسفأنخ). يقول لنا الدكتور سليم حسن: (ورد في قصة سنوهي... من أوائل الأسرة الثانية عشرة كلمة سشب عنخ للدلالة على تمثالين لأبو الهول يحرسان باب قصر «سنوسرت الأول». إذ يقول البطل «لقد مسيت بجبهتي الأرض بين تمثالي أبو الهول «سشب عنخ»).(١١)

شسب عنخ، أو شسفعنخ هو اسم أبي الهول. وكنا توصلنا في فصل آخر إلى أن هذا الاسم (شسفعنخ) الذي يدعى به أبو الهول، كان يطلق على إيزيس أيضا. هذا الاسم تحول في اليونانية إلى Sphinx: (وقد أشير إلى أبي الهول دائما على أنه Seshep-ankh Atum أي الصورة الحية لآتوم... وفي الحقيقة فإن الاسم Sphinx الذي أسر اللاوعي الجمعي للشعوب الغربية منذ العصور الكلاسيكية، تكشف عن أنه ليس أكثر من تحريف لـ Seshep-ankh، عبر اليونانية).[١٢]

والآن، لنحاول أن نتأمل في التشابه اللفظي بين الاسم المصري، ونسخته اليونانية المحرفة، وبين اسم الملكة الصينية:

صيني : سيوونغ Sewang

مصري : شسفعنخ Shesshepankh

يوناني : سفنك Sphinx

ولنلاحظ أننا عند كتابة الصيغة اليونانية بالأحرف العربية حذفنا الزائدة اليونانية، أي السين، في الاسم (سفنكس).

إنه شبه واضح تماما.

ولا يمكن رد هذا الشبه إلى الصدفة وحدها. الصدفة وحدها لا تكفي لتفسر التشابه بين الأسماء الثلاثة في لغات ثلاث من عائلات لغوية مختلفة جدا.

وعلينا أن نتذكر أن رحلة الملك ونغ مو ربطت الملكة الأم الصينية بطائر الفنغ هنغ، أي بطائر الفينيق بنسخته الصينية. ونحن نعلم أن طائر الفينيق مرتبط بإيزيس. إنه طائرها وممثلها. كما علينا أن نتذكر ربط إ. فوركه ما بين طائر الفينيق الصيني ونعامة الجزيرة العربية. فأصل طائر الفينيق الصيني نعامة في رأيه. لذا فبيضته ضخمة كبيضة النعامة. وهذا يعني أن الملكة الصينية على علاقة بالنعامة. وهذا ما يتوافق مع وضع إيزيس المصرية، التي هي أيضا على علاقة وطيدة جدا بالنعامة. بل إنها تدعى بالنعامة بالضبط:

(المجد لك يا ابنة أنوبيس التي تقف على نافذة السماء، صديقة تحوت، التي على تقف جانبي السلم. افتحي الباب لعل أوناس يمر. المجد لك، أيتها النعامة الواقفة على شاطئ النهر الملتف، افتحي الطريق لأوناس عله يعبر).[١٣]

إيزيس نعامة تقف على شاطئ النهر الملتف، أو المتعرج. وهي هنا تدعى ابنة أنوبيس، رغم أنها أمه، أو خالته، لأن أنوبيس يتماهى مع تحوت. وقد علمنا في فصول سابقة أن الإلهة (الخلصة) العربية وابنها ذا الخلصة، شبيهة إيزيس وابنها أنوبيس، هما على علاقة

twitter @baghdad_library

وطيدة بالنعامة. ينقل لنا الأزرقي، في أخبار مكة:

(حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان ابن ساج قال: أخبرني ابن إسحاق قال: نصب عمرو بن لحي الخلصة بأسفل مكة فكانوا يلبسونها القلايد ويهدون إليها الشعير، والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون عليها بيض النعام).(١٤)

ويكرر ياقوت في المعجم القول ذاته: (فكانوا يلبسونه القلائد، ويعلقون عليه بيض النعام، ويذبحون عنده).(١٥) ويخبرنا أبو العلاء المعري أن: (من أحاديث الجاهلية أن الطاغوت الذي يسمى ذا الخلصة في اليمن، كان امرأة وكانت فاجرة ساحرة، فدعت غلاما من أهل اليمن إلى نفسها فأبى عليها، فسحرته فصار نعامة. وكانت له أم صالحة فدعت عليها الله فمسخت حجرًا).(١٦)

وهكذا، فليس أن الخلصة المرأة تتمثل بنعامة فقط، بل إن عشيقها يتمثل بنعامة أيضا. ونحن نعتقد أن الغلام الذي أحبته وسحرته نعامة هو في الحقيقة ابنها، وليس عشيقها- رغم أن الابن فيما يبدو يتحول لاحقا إلى عشيق في ميثولوجيا إيزيس وأوزيريس. ذلك أن الأم وابنها يؤخذان معا هنا كما هو الحال مع كابو وابنها ذي الشرى، وإيزيس وأنوبيس، ابن أختها وابنها. وحين تكون الأم نعامة يكون ابنها نعامة. ليس ذلك فحسب، بل إن الأم تصبح كلبا حين يكون ابنها كلبا. فالشعرى- إيزيس عند العرب هي (كلب الجوزاء)، رغم أن أنوبيس، ربيبها، هو الكلب في الأصل.

ولأننا نتحدث عن إلهة أم في كل هذه الحالات، فقد تحدثت الأسطورة الصينية عن (الملكة الأم)، رغم أنه لا يوجد ابن لها في الأسطورة، أي رغم أنها لا تبدو متزوجة. فمن ضرورات الأسطورة أن تكون الإلهة أما.

ويبدو أن ثمة أمرا خاصا بصوت النعامة وليس بشكلها المهيب فقط هو ما جعلها قادرة على أن تمثل إيزيس. ينقل لنا أ. فوركه رأي أحد الخبراء عن تصويت النعام:

(الأصوات الثلاثة التي تتكرر ثلاث مرات، والتي يقوم بتكرارها العديد من المرات، تذكر بزئير أسد بعيد، أو تطبيل عميق. وتكون الصرخة الثانية أعلى من الصرخة الأولى بعدة درجات، وتكون الثالثة أطول وأكثر عمقًا والتي تضعف قرب نهايتها).(١٧)

وصف النغمات الثلاث لصوت النعامة هنا يوحي بتشابه أكيد مع النظام الثلاثي الذي عشنا معه في بحثنا هذا طوال الوقت في نجوم النطاق، وفي الثالوث العربي: اللات والعزى ومناة، وفي الأهرام الثلاثة في الجيزة، حيث الثاني يبدو أضوأ من الأول أو

أعلى، في حين أن الثالث أخفت ضوءا وأبعد. فصرخة النعامة الثانية أعلى من الأولى، أما الثالثة فأطول وأضعف. إنها توحي بالتراجع والانسحاب والابتعاد. فهل يكون هذا التشابه بين صرخات النعام والميزان الثلاثي، أي ميزان ماعت، ميزان (مقة)، ميزان إيزيس، هو الأرضية التي جعلت من النعامة حيوان إيزيس في الجزيرة العربية؟ ثم أيكون وضع ريشة نعامة فوق رأس الإلهة ماعت دليلًا آخر على ما نقول؟

النعامة والنخلة

إذن، فالملكة الصينية على علاقة بالنعامة، بشكل ما. ونحن نعرف أن النعامة على صلة بالنخلة، التي هي على ارتباط أكيد بإيزيس. ففي اللغة اليونانية تعني كلمة فونيكس: النخلة وطائر الفينيق واللون الأحمر معا. ويخبرنا الأستاذ علي الشوك بأنه: (إنما سميت العنقاء فينقس لأنها تتوالد على نخلة).[١٨] والعنقاء هي صورة إيزيس، بشكل ما. والصلة بين النعامة والنخل شديدة الوضوح في المصادر العربية. ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ما يلي:

(ومن أعاجيبها- يقصد النعامة- أن الصيف إذا دخل، وابتدأ البسر{ يقصد البلح الأخضر} في الحمرة ابتدأ لون وظيفها{ساقها} في الحمرة. فلا يزالان يزدادان حمرة إلى أن تنتهي حمرة البسر. ولذلك قيل للظليم: الخاضب)[١٩]، أي المحمر الرجلين. ويضيف لسان العرب مؤكدا وموضحا: (وقد زعم رجال من أهل العلم أن البسر إذا بدأ يحمر بدأ وظيفا الظليم يحمران. فإذا انتهت حمرة البسرة انتهت حمرة وظيفيه. فهذا على هذا، غريزة فيه).[٢٠]

هذا على ذاك! أي أن حمرة الوظيف تبنى على الحمرة المتدرجة لنضوج بسرة النخلة. إنها تتبعها لحظة بلحظة، بحيث أن البسر يبدو كما لو أنه هو من يلون وظيفي النعامة، أو كأن لونه مجرد انعكاس للونه. والنخلة هي إيزيس- العنقاء. إذن، فالرابط الذي اقترحه فوركه بين سي ونغ والنعامة يدعم فكرة أن سي ونغ على علاقة بإيزيس. فكلاهما على علاقة بالنعامة.

لكن النخلة غير مذكورة في الأسطورة الصينية. فإذا كانت الملكة الأم الصينية على علاقة ما بالنخلة مثلها مثل إيزيس، فلِمَ لَمْ تشر المصادر الصينية إلى ذلك؟!

للإجابة عن هذا السؤال، يمكن القول بأن هناك ما يوحي بوجود النخلة في المقتبس الصيني: (وفي الجزيرة الصحراوية المروية بشكل جيد يغرد طائر لونا... ويرقص طائر

twitter @baghdad_library

الفينيقيا دون أي سبب. ويأكل السكان بيض الفينيقيا ويشربون الطل الحلو، وتتحقق رغباتهم كلها بنفسها).[٢١]

يتحدث النص هنا عن (طائر لونا). ويقول فوركه عن هذا الطائر، متفقا مع الجميع تقريبا، إن هذا الطائر ليس إلا (صنفا من طائر الفينيق الغامض).[٢٢] إنه طائر فينيق ما، إذن. ووجوده مع الفنج هنج، أي الفينيق الصيني، يجعلنا نظن أنهما بالفعل من طبيعة واحدة.

وأول ما يشد انتباهنا أن اسمه يشبه واحدا من أسماء النخل بالعربية. وهو اسم مشهور تماما، فقد ورد في القرآن: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾.[٢٣] ويقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط: (اللون: الدقل {أي النخل}، أو هو جماعة واحدتها لونة).[٢٤] ويضيف الزمخشري في الكشاف: (واشتريت من اللون، وهو كل نوع من التمر سوى البرني. وفي حديث عمر بن عبد العزيز: يؤخذ من البرني في البرني ومن اللون في اللون).[٢٥] ويزيد علي بن حمزة المصري في التنبيهات على أغاليط الرواة، نقلا عن ابن دريد: (أهل المدينة يسمون النخل الذي تسميه البصرة الدقل: اللين واللون، واحدتها: لينة ولونة. ومنه قوله عز وجل: ما قطعتم من لينة).[٢٦] قال ذو الرمة:

كأن قتودي فوقها عش طائر على لينة سوقاء تهفو جنوبها

إذن هناك طراز من النخل يدعى: لون، والنخلة الواحدة منه تدعى: لونة! وكما نرى فإن الاسم الصيني يشبه تماما اسم النخلة العربية: الطائر لونا، والنخلة لونة! وعليه، يحق لنا أن نفترض أن (الطائر لونا) هو (طائر النخلة). أي أن كلمة (لونا) الصينية ربما أشارت إلى النخلة والطائر معا، مثلها مثل كلمة فونيكس اليونانية التي تشير إلى الطائر والنخلة معا. بل ولعل أصل الكلمة الصينية هو في منطقتنا. وهكذا فنحن مع الأسطورة الصينية في الجزيرة العربية، ومع النخلة والنعامة معا.

مغرب الشمس

والآن لنذهب إلى المقطع الذي يتحدث عن مغرب الشمس في المقتبس حول سي ونغ. وهو حسب إ. فوركه: (ويقول البعض إنه في غربي هذه الإمبراطورية «الماء الخفيف» وصحراء رملية قرب ملكة سبأ الأم، تقريبا قرب مغرب الشمس).[٢٧] لكنه حسب «هل» هكذا: (ويقال إنه إلى الغرب من هذه المملكة {مملكة تيوكي} يقع روشي

«النهر الضعيف» ولويشا «الرمال المتحركة» التي تقع بالقرب من المكان الذي تعيش فيه سي ونغ مو «الروح- الأم في الغرب»، والذي هو قرب مغرب الشمس تقريبا).[٢٨]

وقد فهمت جملة (مغرب الشمس) هذه لا على أنها جملة ميثولوجية، بل على أنها جملة تحمل مضمونا جغرافيا محددا. وعليه، فقد اعتقد من ربط النص بالجزيرة العربية أن الجملة تتحدث عن مصر، التي هي إلى الغرب من الجزيرة. أما من فهم النص على أنه يعني سوريا، فقد اعتقد أن (مغرب الشمس) تعني أوربا، أي الإمبراطورية الرومانية، التي كانت تتموضع إلى الغرب من سوريا. غير أننا نعتقد أن (مغرب الشمس) في هذا النص إشارة إلى موقع ميثولوجي، لا إلى موقع جغرافي محدد. ويحسن بنا أن نعود إلى تقليد مصري حول مدينة أبيدوس التي كانت عاصمة المنطقة الثامنة في مصر، ومركز عبادة أوزيريس في مصر العليا، ويعتقد أن الإله مدفون فيها. إذ: يرى التقليد المحلي أن الشمس تنهي رحلتها اليومية في أبيدوس، ثم تدخل إلى (توت)، من شق في الجبال يدعى عند المصريين (بق، بك). هذه الجبال تقع بالقرب من المدينة. وفي الأسرة الثانية عشرة فقد اعتقد أن أرواح الموتى تجد طريقها نحو العالم الآخر، من خلال الوادي الذي بين هذه الجبال، إلى أوزيريس العظيم، حيث يقول البعض إن هناك حقول الإليزيه {الجنة}.

ويقال لنا إن بئرا، أو شقا (بق) هذا يقع تحت عرش أوزيريس، في المنطقة الجبلية المذكورة. وفي هذه المنطقة ثَم جبلان يقال إنهما يحملان السماء ويمنعانها من السقوط. ويفترض أن أحدهما هو مشرق الشمس والثاني مغربها. الجبل الغربي يدعى مانو في حين يدعى الشرقي بكو آخ. وهذا الجبل هو مقر الأموات الخالدين.

عليه، فثمة في التقليد الأوزيريسي جبل ميثولوجي يدعى (جبل مغرب الشمس). ونحن نعتقد أن الحديث عن (مغرب الشمس) في أسطورة سي ونغ إنما هو حديث عن هذا الجبل.

كما أننا نعتقد أن (مغرب الشمس) هذا على علاقة بمغرب الشمس المرتبط بالعنقاء العربية. فهذه العنقاء، ذات العلاقة الوطيدة بإيزيس في جانبها المخيف، تقيم أيضا عند مغرب الشمس. بل إنها تدعى (عنقاء مغرب). ورغم أن كلمة (مغرب) التي أضيفت إلى هذه العنقاء (ظلت غامضة ومجالا لتفسيرات متعددة، فإن هناك من ربطها بغروب الشمس بشكل محدد. ينقل ابن منظور في لسان العرب عن كراع قوله: (العنقاء فيما يزعمون طائر يكون عند مغرب الشمس).[٢٩] أما الدميري فيؤكد هذا بقوله: (وقيل: هو طائر يكون عند مغرب الشمس).

twitter @baghdad_library

ولا حاجة إلى إعادة التذكير من جديد بأن العنقاء هي فونيكس اليونانية المرتبطة بإيزيس. وعليه، فمن الصعب تجاهل هذا التوافق بين مكان إقامة سي ونغ وبين إقامة العنقاء. فكل منهما يقيم عند مغرب الشمس، الذي هو مقر ميثولوجي سماوي في رأينا.

ولأن العنقاء شبيهة إيزيس، أو ظلها، فهي تقيم على جبل، أو على التلة الكونية الأولى، مثلها مثل طائر الفينيق المصري. يقول الدميري في حياة الحيوان الكبرى: (إن أهل الرس كان بأرضهم جبل يقال له دمخ {ديخ، رمخ؟}، صاعد في السماء بقدر ميل، وكان به طيور كثيرة. وكانت العنقاء به).[٣٠] ويقول الميداني في مجمع الأمثال عن هذا الجبل وعن العنقاء: (وكانت تنتابه طائرة كأعظم ما يكون، لها عنق طويل من أحسن الطير فيها من كل لون، وكانت تقع منتصبة فكانت تكون على ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكله، فجاعت ذات يوم وأعوزت الطير فانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغرب).[٣١]

هذا الجبل هو التلة الأولى التي وقف عليها طائر الفينيق المصري المرتبط بإيزيس، كي يكسر صمت العالم. بل إن اسم العنقاء ذاته في العربية يعني التلة والأكمة. ينقل لسان العرب عن أبي مالك أن: (العنقاء المغرب رأس الأكمة في أعلى الجبل الطويل).[٣٢]

أما طائر (فنغ هنغ)، أي طائر الفينيق الصيني، الذي يبدو على علاقة وطيدة بسي ونغ مو فيعيش مثله مثل العنقاء على رأس جبل، أو ربما (جبل صاعد في السماء) ربما، كما تقول المصادر العربية عن العنقاء. وهذا الجبل يشبه مسكن سي ونغ، الذي ورد ذكره في الكتاب الرسمي عن الجبال والبحار: (جبل الملكة الأم)، أي سي وونغ. فبعد أن غنت سي ونغ للملك الصيني الأسطوري: (انطلق ابن السماء بعد ذلك وارتقى «جبل الملكة» الأم. وعمل على أن ينحت في الصخر تقريرا عن زيارته. كما عمل على أن يحضر إلى المكان لوحة من خشب «هواي» كتب عليها: جبل ملكة سا الأم).[٣٣] أي جبل (سي ونغ مو)، أي جبل الملكة الأم في الغرب، إذا تذكرنا أن (ملكة سا الأم) هي ترجمة فوركه الشخصية. هذا الجبل يمثله الهرم الثاني في الأهرام المصرية، كما في فصل آخر. والمصادر العربية تدعو الهرم الثاني فعلا بالهرم الغربي.

إذن، فمغرب الشمس مكان ميثولوجي، وليس مكانا جغرافيا محددا.

وربما صدم البعض من مساواتنا لسي ونغ بالعنقاء المخيفة. لكن صدمته ستخف حين يعرف أن سي ونغ الصينية تتبدى أيضا ككائن مرعب، أحيانا. ينقل لنا أ. فوركه فقرات من الميثولوجيا الصينية تقدم هذه الأميرة الرقيقة بصورتها المرعبة:

(جبل الأحجار الكريمة هو مقر ملكة سا الأم {سي ونغ مو}. مظهر إنسان وذنب فهد وأسنان نمر. وهي قادرة على العواء. وشعرها منتفش لكنها تضع حلية على الرأس. وهي تسيطر على أرواح السماء الشريرة، وعلى النكبات الخمس).[٣٤]

وجملة (وهي قادرة على العواء) جملة مهمة وكاشفة. ذلك أنها تشير إلى أن الملكة الأم تشبه الكلب. وإيزيس هي (نجم الكلب) عند اليونان و(كلب الجوزاء) عند العرب. والكلب أنوبيس هو حارسها وتابعها، وابن أختها. كما أن ذا الخلصة العربية مرتبطة بكلب. فابنها كان أغضف الأذنين، أي أن أذنيه كانتا مثل أذني الكلب.

لكن ما نحن بصدده هو الطابع المخيف للملكة الصينية. يعلق فوركه على هذه الأوصاف المخيفة لسي ونغ في الفقرة السابقة بقوله: (إن هذه الأوصاف شاذة للغاية... وتقف متناقضة في مواجهة كل التقاليد الأخرى، التي تقول إن سا وونغ كانت امرأة جميلة، ولذا لا يمكن أن تستدرجنا).[٣٥]

محاولة فوركه لربط سي وونغ بملكة تاريخية مدَّعاة هي التي تجعله ينفر من هذه الأوصاف. لكن كل الملكات- الإلهات من طراز إيزيس يبدين جانبًا مرعبًا جدًا. ولنأخذ كمثال على ذلك ما يقوله لنا المقريزي في خططه عن روحانية الهرم الثاني، الذي ساويناه بإيزيس في فصل سابق:

(وحكى القبط في كتبهم: أن روحانية الهرم الشمالي، غلام أمرد. أصفر اللون عريان في فمه أنياب كبار، وروحانية الهرم الجنوبي {الهرم الأوسط}: امرأة عريانة بادية الفرج حسناء في فمها أنياب كبار تستهوي الإنسان إذا رأته، وتضحك له حتى يدنو منها، فتسلبه عقله، وروحانية الهرم الملون: شيخ في يده مجمرة من مجامر الكنائس يبخر بها).[٣٦]

روح الهرم الثاني-إيزيس السلبية تظهر هنا في صورة امرأة عريانة بادية الفرج في فمها أنياب وتضحك وتسلب العقول. إنها صورة مخيفة حقا. لكنها تؤكد الوصف الصيني المخيف لسي ونغ مو. وأبو الهول، سفنكس، الذي هو على علاقة وطيدة بإيزيس، يكشف عن الجانب المرعب لإيزيس من خلال اسمه ذاته: أبو الهول. فجذر

twitter @baghdad_library

هول العربي يعني الرعب والإخافة. كما أن اسم سفنكس اليوناني يحمل معنى الخنق: (أن كلمة Sphinx تعني «الخانق»، وبالحرف الواحد «الممسك بالعنق»؛ وهذه تذكرنا بلفظة «العنقاء» العربية).(٣٧) ويذكرنا الخانق والممسك بالعنق والعنقاء بأن (ليليث)، التي هي إيزيس أو وجهها الآخر، في الأدب العبري هي خانقة الأطفال في مهودهم. وعليه، فثمة جانب مظلم في شخصيتي إيزيس وسي ونغ. طبعا لا تنقصنا الأوصاف المرعبة للعنقاء في المصادر العربية. يقول الدميري في حياة الحيوان الكبرى:

(وهي عظيمة الخلق، لها وجه كوجه الإنسان، وفيها من كل حيوان شبه، وكانت تأتي في السنة مرة هذا الجبل فتلتقط طيره، فجاعت في بعض السنين وأعوزها الطير فانقضت على صبي فذهبت به، فسميت عنقاء مغربا لإبعادها بما تذهب به، ثم ذهبت بجارية أخرى، فشكا أهل الرس إلى نبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها فأصابتها صاعقة فاحترقت).(٣٨)

ما يثير في هذا الوصف هو أنه يتلاقى مع وصف سي ونغ الذي قدمناه قبل لحظات، وأثار استغراب فوركه. فقد وصفت بأن لها: (مظهر إنسان وذنب فهد وأسنان نمر). وهذا يشبه قول الدميري السابق: (لها وجه كوجه الإنسان، وفيها من كل حيوان شبه).

النهر الضعيف

نعود الآن للتعبير الصيني الغامض الذي ترجم على أنه (النهر الضعيف) أو (المياه الخفيفة) حسب فوركه، مذكرين بالمقطع الذي يتحدث عنه من ترجمة (هل):

(ويقال إنه إلى الغرب من هذه المملكة {مملكة تيوكي} يقع روشي «النهر الضعيف» ولويشا «الرمال المتحركة» التي تقع بالقرب من المكان الذي تعيش فيه سي ونغ مو «الروح- الأم في الغرب»، والذي هو قرب مغرب الشمس تقريبا).(٣٩)

فما هو النهر حقا؟

يبدو لنا أن هذا النهر على علاقة ببلقيس ملكة سبأ. ذلك أننا نجد في كتاب الهمداني (التيجان في ملوك حمير)، حديثا عن نهر له علاقة بهذه الملكة:

(فسارت بلقيس حتى نزلت على جعفر بن قرط وهو في حصنه علعال على نهر الحفيف من أرض الأحقاف، ونهر الحفيف هو الذي أظهر النبي هود... لعاد بن لاوذ بن إرم الآية الباهرة حين هلكت عاد بالريح العقيم).(٤٠) ويضيف الزركلي في الأعلام عن هود ونهر الحفيف هذا:

(سوق الشحر وهو شحر مهرة، قال: فتقوم السوق تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود عليه السلام؛ وكان قيامها للنصف من شعبان. وقيل: توفي ودفن بالأحقاف، في مكان يدعى (الهنيق) بقرب نهر الحفيف).[٤١]

إذن، فلدينا نهر يدعى (نهر الحفيف) على علاقة ببلقيس، التي هي طراز من إيزيس. فهي قد نزلت على جعفر بن قرط عند هذا النهر في الأحقاف. والأحقاف هي موطن هود وقومه. وقد أوضحنا في فصل سابق أن الأحقاف هي حزام الجوزاء، أو تمثيلها على الأرض، وأن هودًا طراز من أوزيريس. فهل هذا النهر هو عديل المياه الضعيفة في الأسطورة الصينية؟ إن هذا لممكن جدا. يدل على ذلك أن جذر (حفف) العربي يعطي معنى القلة. يقول لسان العرب: الحفف الضيق. وحفتهم الحاجة تحفهم حفا شديدا إذا كانوا محاويج. وعنده حفة من متاع أو مال أي قوت قليل ليس فيه فضل عن أهله. وهكذا فـ(نهر الحفيف) ربما تعني: النهر الشحيح الماء، أي (النهر الضعيف) الجريان، النهر الضيق، أي قريبا من ترجمة «هل» للجملة الصينية.

وهكذا، لدينا في الأسطورة الصينية (نهر ضعيف)، وفي الأسطورة العربية (نهر الحفيف) بمعنى متقارب.

والسؤال الآن: هل لهذا النهر بصيغتيه العربية والصينية أي علاقة بالنهر الملتف أو المتعرج المعوج الذي له علاقة بإيزيس، وتحدثنا عنه أعلاه؟: (المجد لك، أيتها النعامة الواقفة على شاطئ النهر المتعرج، افتحي الطريق لأوناس عله يعبر).

نحن نميل إلى أن النهر المتعرج أو المعوج هو النهر ذاته. وإذا صح هذا فكل واحدة من الملكات الثلاث: الملكة الصينية، الملكة العربية، والملكة المصرية، لها نهرها الشبيه.

فوق ذلك فإن لجذر (حفف) العربي علاقة بالنعام. فحفان النعام: ريشه. والحفان: ولد النعام. وقيل: أصل الحفان صغار النعام ثم استعمل في صغار كل جنس، والواحدة من كل ذلك حفانة، الذكر والأنثى فيه سواء.

لويشا

نأتي الآن إلى كلمة (لويشا) التي ترجمت إلى (الرمال المتحركة) لنجد أنها تتوافق بالضبط مع كلمة الأحقاف، التي هي موطن قوم عاد. وعاد طراز من أوزيريس، كما بينا في فصل سابق. يقول اللسان: (رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها). وهي رمال

twitter @baghdad_library

معوجة. ويضيف: (الحقف من الرمل: المعوج... ويجمع على أحقاف).[٤٢] والرمال المعوجة هي الرمال التي تحركها الرياح، وتموجها.

إذا صح ذلك، فربما كان من الأفضل أن تترجم (الرمال المتحركة) في النص الصيني إلى الأحقاف أي الرمال المعوجة. وهي تعوج، في كل حال؛ لأن الرياح تضربها وتحركها، صانعة منها أهلة معوجة، أي أهلة حاقفة.

الطيور الثلاثة

وينقل لنا فوركه مقطعا مهما جدًا عن علاقة سي ونغ بطيور ثلاثة: (وتستند سا ونغ مو على الطاولة، وتتزين بحلية على الرأس، وترتكز على عصا. وإلى الجنوب من ذلك هناك ثلاثة طيور خضراء اللون تحضر الطعام لسا ونغ مو).[٤٣]

وفي مكان آخر، يقول مؤلف (الكتاب الرسمي عن الجبال والأنهار) عن الطيور الخضراء الثلاثة هذه: (ويطلق على الأول اسم الصافر الأكبر، وعلى الثاني الأصغر، وعلى الثالث الطير الأخضر).[٤٤]

من الواضح أننا نتحدث، هنا، عن النغمات الثلاث للكون، التي بتنا نعرفها جيدا، والتي كان جل هذا الكتاب عنها. وقد أوضحنا من قبل أن النغمات الثلاث هذه ميزان الكون، وأنها تتمثل في السماء بنجوم حزام الجوزاء الثلاثة، وعلى الأرض بالأهرام الثلاثة. الصافر الأكبر هنا هو النغمة العليا الصيفية للكون، وهي نغمة طائر المكاء العربي. والصافر الأصغر هو النغمة المنخفضة الشتوية، أي هو (شيع القوم) أي الشياع الصغير عند النبط. وهو يشبه (صوفر النعماني) في سفر أيوب تحدثنا سابقا، والذي يعني الصفرة الواطئة، صفرة القرار. وقد تحدثنا عن هذه النغمات حين تم الحديث عن بنات أيوب الثلاث.

ثم يأتي الطائر الأخضر، الذي يجب أن يكون إيزيس، أي الحد الأوسط، أو النغمة الوسطى المعتدلة والمركبة من النغمتين. والحد الأوسط يعطي الرقم ثلاثة في كثير من الأحيان. ذلك أن الرقم واحد واثنان يعطيان لمظهري الإله الذكر دوما. ويجب أن ننتبه إلى أن الطيور الثلاثة تقع (إلى الجنوب)، أي أنها جنوبية مثل نجوم حزام الجوزاء.

ويورد لنا فوركه مقطعا آخر من (الكتاب الرسمي عن الجبال والبحار) يقول: (وهناك أيضا طير مثل الديك البري لكنه أحمر اللون واسمه Hsing-yu... وصراخه يشبه لو. وعندما يظهر فإن ذلك يعني أن البلاد مهددة بالفيضان).[٤٥]

ومن الصعب أن يفوتنا علاقة هذا الطائر على علاقة بإله أوزيريسي الطابع. فهو يبشر بالفيضان. إنه شبيه بالمكاء الذي يظهر في فصل الانقلاب الصيفي مترافقا مع فيضان النيل، أي مع النغمة الفيضية لأوزيريس.

شجرة ضد الفيضان

ويورد لنا أ. فوركه مقطعا عن شجرة غريبة من بلاد (قن- لون) التي يرى أنها تقع في بلاد الحبشة قرب العربية. فقد جاء في (الكتاب الرسمي عن الجبال والبحار) أن ثمة شجرة:

(تسمى «شجرة التفاح الخشبي الرملية»، وتحمي من المياه. وعندما يأكل الإنسان منها فإنه لا يغرق في الماء).[٤٦] هذه الشجرة ذاتها يحدثنا عنها النويري في نهاية الأرب. ففي قصة بلوقيا وعفان يقول:

(فمرا بشجرة يقال لها الدواء فقالت: يا عفان، من يأخذني ويقطعني ويدقني ويعصر مائي ودهني ويطلي به قدميه فإنه يغوص البحار السبعة ولا تبتل قدماه ولا يغرق. فقال عفان: إياك طلبت، فقطع تلك الشجرة فدقها وعصر دهنها وجعله في كوز... وسار عفان وبلوقيا إلى اليم فطليا أقدامهما ثم عبرا البحر ومشيا على الماء كما كانا يمشيان على الأرض حتى قطعا البحر).[٤٧]

لا حاجة للبرهنة على أننا نتحدث عن الشجرة ذاتها. وعليه يمكن القول بأن القصة الصينية مأخوذة من ميثولوجيا العالم العربي. ويمكنني أن أقول إن هذه الشجرة هي ذاتها شجرة صفصاف إنانا، التي جاءت عبر مياه الفيضان إلى حديقة لإنانا. هذه الشجرة ذاتها تبنى منها عروش الإلهات مثل بلقيس، إيزيس، إنانا. وعروشهن تقام فوق الماء، كما يظهر من قصة ملكة سبأ. ولأن العروش فوق الماء فمن الطبيعي أن تطفو، أي أن تكون مصنوعة من خشب.

السفنج

ثم نصل الآن إلى المفترق الأهم. إلى البرهان الأهم على ما نقول. فليس لسي ونغ الصينية علاقة بالنعامة العربية فقط، بل إن اسمها يكاد يكون هو اسم النعامة العربية!

نعم، اسم سيونغ يشبه بالضبط اسم النعامة في العربية!

twitter @baghdad_library

ولا يجب أن نفاجأ. فللنعام في العربية أسماء عدة. واحد منها: سفنج، والأنثى سفنجة. فعند الخليل بن أحمد في العين: (السفنج: الطائر الكثير الاستنان، ويقال: هو الظليم الذكر).[٤٨] ويضيف ابن سيدة في المحكم والمحيط الأعظم: (السفنج: الظليم. والسفنج: السريع... والأنثى: سفنجة).[٤٩]

اسم غريب فعلا! لكن، لنحاول وضع هذا الاسم العربي بالحروف اللاتينية قرب الاسم الصيني:

Sewang

Sefennej

ونحن نعلم أن حرف G الإنجليزي وما يشابهه من الحروف مثل الجيم القاهرية ليس له رسم في العربية. لذا تحل الجيم في أحيان كثيرة بدلا منه. كذلك علينا أن نتذكر أن الحرف الأخير من الكلمة المصرية Shesep-ankh حرف محير جدا. فالبعض يعتقد أنه ينطق خاء، في حين يرى آخرون أنه بين الحاء والخاء. كما أن بعضا آخر اقترح أنه غين، علما أن الخاء والغين يتبادلان المواقع في المصرية القديمة. وعليه يمكننا أن نكتب الاسم العربي بالجيم القاهرية: Sephennag. كما يمكن كتابة الصيغة المصرية بهذا الحرف: Shesep-ang

وهكذا يمكن مقارنة الأسماء معا:

صيني Sewang

عربي Sefenneg

مصري Shesep-ang

يوناني Sphinx

يمكن الادعاء هنا بأن الشبه بين الأسماء الأربعة صادم ومثير، وأن والاختلافات بينها قليلة جدا، وتعود إلى التحريف الذي أصاب الاسم بأصله المصري عند عبوره إلى لغات مختلفة جذريا؛ الصينية واليونانية والعربية.

ويهيأ لنا أن من المستحيل أن يكون الشبه البادي صدفة. وعليه، يمكن افتراض أن الاسمين الصيني والعربي تحريف للكلمة المصرية شسفعنخ، أو شسفعنغ، أو ما يقرب من هذا بالحرف العربي. وهي جملة تعني في الأصل المصري: الصورة الحية، حيث عنخ تعني: حي وحياة، وشسف تعني: تمثال، صورة، على ما يقول علماء المصريات.

ذلك أن أبو الهول يدعى شسفعنخ آتوم أو شسفعنق آتوم، أي: الصورة الحية لآتون، فيما يفترضون. وآتون هو إله الشمس، أو إله قرص الشمس. وعليه فكلمة سفنج العربية وسي ونغ الصينية وسفنكس اليونانية عنت في الأصل: الصورة الحية، هذا إذا كانت الترجمات عن المصرية دقيقة.

ورغم أن سفنج اسم قديم في العربية فإن المحاولات لتوضيح جذره العربي ضئيلة جدا، وغير مقنعة. ينقل لسان العرب عن ابن جني قوله: (ذهب بعضهم في سفنج أنه من السفج). والسفج هو الكذب. وهذا غير مقنع بالمرة. فما الذي يربط النعامة بالكذب؟ ويضيف، مرددا قول كل القواميس تقريبا، (والسفنج: السريع). ويزيد: (سفنج أي أسرع).(٥٠) ويبدو لنا أن الفعل سفنج اشتق من الاسم هنا، لا أن الاسم اشتق من الفعل العكس. يدفع إلى هذا الافتراض اعتقادنا أن هذا الاسم قدم للغة العربية من خارجها.

وفي كل حال، يبدو لنا أن من الخطأ الشديد تجاهل أن القواميس العربية تربط بين السفنج والسرعة. فهذا الربط قد يلقي ضوءًا ما على معنى اسم أبي الهول المصري. وقد رأينا من قبل كيف أن أداة (العنخ) التي يحملها كل من إيزيس وأوزيريس، والتي هي الجزء الأخير من الاسم المصري (شسف-عنخ) ربما كانت تعني: السريع، وليس الحي كما يترجمها المختصون بالمصريات. وهي فيما يبدو عديل كلمة (عنق) العربية التي تعني سار بسرعة. فالعنق طراز من السير السريع، أو الهرولة. وهو يطلق أكثر ما يطلق على طراز من سير الحيوان، رغم أن سير الإنسان يوصف به أحيانا. يقول الميداني في مجمع الأمثال: (والمعناق من الخيل، الذي يعنق في السير، وهو أن يسير سيرا مسبطرا يقال له العنق).(٥١) ويضيف ابن الأثير المحدث في النهاية في غريب الحديث والأثر تعليقًا على حديث نبوي: (أطول إعناقا بكسر الهمزة: أي أكثر إسراعا وأعجل إلى الجنة).(٥٢) ويزيد ابن دريد- جمهرة اللغة: (وأعنق الدابة يعنق إعناقا، وهو مشي سريع، والاسم العنق والعنيق).(٥٣)

بذا، فقد لا تكون ترجمة الاسم شسفعنخ إلى (الصورة الحية، التمثال الحي) دقيقة. فالترجمة ربما يجب أن تتضمن شيئا له علاقة بالسرعة فيما يبدو. وإذا حاولنا الاستناد إلى اللغة العربية، قريبة المصرية القديمة، في فهم الجزء الأول من الاسم (شسب، شسف)، والذي يترجم على أنه يعني: الصورة أو التمثال، فسوف نجد أن جذر شسف العربي يعطي معنى الضمور والنحافة. الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة: (شزب: الشزب: لغة في الشسب، والشازب: الضامر، وخيل شزب).(٥٤) ويضيف ابن سيدة في المخصص: (شزب يشزب شزوبا وشسب ضمر). ويزيد الخليل في العين: (الشاسف:

twitter @baghdad_library

القاحل الضامر).[٥٥] وقال الشاعر:

مثل القسي ضـوامر شسف

وقال طرفة بن العبد:

وقنا سمـر وخـيل شـزب ضمر من طول تعلاك اللجم

هكذا يكون لدينا شسف أو شزب بمعنى: ضمر، ضامر، و عنخ: السريع، أو المهرول.

وعليه، يمكن ترجمة Shesshep-ankh Atum شسف- عنق- آتوم استنادا إلى اللغة العربية على الشكل التالي: آتوم السريع الضامر، أو السريع الضامر شبيه آتوم! و(السريع الضامر) يمكن أن تكون وصفًا جيدًا جدًا لأنوبيس- أبي الهول. فهو كلب ضامر سريع. ونحن نعلم أن أنوبيس مرتبط بشدة مع إيزيس، بل إنهما يؤخذان معا دوما، ويصلان حد التماهي في أحيان كثيرة، بل ويسميان بالأسماء ذاتها عادة. أي أن شسبعنق هو اسم لأنوبيس وإيزيس في اللحظة عينها. ولأن الأمر كذلك فلا غرابة بأن يشبه أبي الهول بآتوم الشمس. فإيزيس، حاضنته وأمه الفعلية، هي (حورس المؤنثة) و (حورس الأفق) أي شمس الأفق. إنها وابنها معا شمس أخرى مثل آتوم.

بناء على كل هذا، فإن الأقرب للمنطق أن نفترض أن الاسم سفنج قدم إلى العربية من مصر. إنه تحريف لشسفعنخ، أو شسفغنغ، المصرية. ويمكن، بسهولة، تصور كيف تحولت شسفعنغ إلى سفنج في العربية. ورغم القرب المدهش بين الكلمتين العربية واليونانية:

سفنكس

سفنج

فإننا نعتقد أن سفنج العربية لم تأت عبر اليونانية. فهي كلمة موغلة في القدم كما تبدو في القواميس العربية، كما أن المصادر اليونانية لا تربط السفنكس اليوناني بالنعامة، فيما نعلم. إضافة إلى أن النسخة اليونانية لا تحمل معنى السرعة، كما هو الحال في العربية.

المواد عن السفنج في القواميس والمصادر العربية ليست كثيرة حقا. فكل ما يقال هو أن السفنج من أسماء الظليم، أي ذكر النعام، وأنه: الطائر الكثير الاستنان. يقول الخليل في العين: (السفنج: الطائر الكثير الاستنان، ويقال: هو الظليم الذكر).[٥٦] والاستنان، فيما يبدو، طراز من الجري، أو الركض للتحمية. يقال: استن الفرس: إذا جرى شوطا أو شوطين ولا راكب عليه. غير أن الزبيدي في تاج العروس يوضح الأمر بشكل أفضل لنا. يقول: القمص والقماص: (أن يرفع {الحيوان} برجليه ويطرحهما معا، ويعجن برجليه). ويضيف، موضحا، أن هذا القمص (هو الاستنان أيضا).[٥٧] وعليه فالاستنان طراز من الحركة الموقعة، طراز من الرقص الموقع.

ولا ينسب الاستنان إلى النعام في النصوص العربية، بل ينسب إلى السفنج فقط، رغم أنها تتفق، بشكل كامل، على أن السفنجة هي النعامة الأنثى، والسفنج هو الظليم. لا يقال لنا إن النعام يستن أبدا. فالاستنان للسفنج فقط. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن السفنج ذو حمولة أسطورية أعلى. ذلك أن السفنج هو النعامة حال كونها ممثلة لإله ما. وعند هذا الحد لا بد أن نذكر أن طائر الفينيق الصيني هو طائر راقص، كما سبق ورأينا من قبل:

(وفي الجزيرة الصحراوية المروية بشكل جيد يغرد طائر لونا ويرقص طائر الفينيقيا دون أي سبب).[٥٨] إنه مثل السفنج الكثير الاستنان، أي الرقص. فالسفنج أيضا يرقص بلا سبب. ذلك أن الرقص من طبيعته.

هذا عن الرقص. أما عن غناء طائر لونا: (وفي الجزيرة الصحراوية المروية بشكل جيد يغرد طائر لونا... ويرقص طائر الفينيقيا دون أي سبب)، فليس لدينا ما يدل على ارتباط الغناء بالنعامة. غير أن صوت النعام يقال له بالعربية (زمار). ولهذه الكلمة جذر مشترك مع المزمار. يقول أبو العلاء المعري:

وتغنت الدنيا بصوت واحد لا تتقن الربداء غير زمار

ويقول شاعر آخر واصفا صوت الظليم:

متى ما تشأ تسمع عرارا بقفرة كاليراع المثقب يجيب زمارا

لكن النسخة العربية من الفينيق اليوناني، والتي لا ترتبط مطلقا بالسفنج، تطلق أنغاما وألحانا مطربة، كما لو أنها يراع مثقب. يقول لنا الفيروزآبادي نقلا عن ابن سينا:

twitter @baghdad_library

(الفقنس:... طائر عظيم، بمنقاره أربعون ثقبا، يصوِّت بكل الأنغام والألحان العجيبة المطربة، يأتي إلى رأس جبل، فيجمع من الحطب ما شاء، ويقعد ينوح على نفسه أربعين يوما، ويجتمع إليه العالم، يستمعون إليه، ويتلذذون، ثم يصعد على الحطب، ويصفق بجناحيه، فتنقدح منه نار، ويحترق الحطب والطائر، ويبقى رمادا، فيتكون منه طائر مثله. ذكره ابن سينا في {كتاب} الشفا).(٥٩)

أغلب الظن أن (فقنس) ابن سينا هو نسخة محرفة من (فنكس) اليوناني. وربما يكون قد حدث تصحيف هنا. أي أن الاسم هو (فنقس)، فحرف إلى (فقنس). هذا الطائر طائر راقص ومغنٍّ مثل طائري الفنج هنج ولونا الصينيين. ومن الصعب على المرء ألّا يرى شبها بين (فنغ-هنج) وبين (فنقس) و(فينيق).

وهناك طائر يحدثنا عنه الزمخشري في ربيع الأبرار، ربما يكون له علاقة بما نتحدث عنه:

(عن عمرو بن ماسويه المتطبب: إن شجرة على شط البحر هلباء ليست لها أغصان ولا ورق، يقع عليها طائر وجهه وجه إنسان، وصدره صدر طاووس، وبدنه بدن نمر، وخفه خف بعير، وهو في سائر جسده كالفرس، يصوت بأنواع الأغاني فبنى برصوما أسقف الرُّها ألحانه عليها).(٦٠) الوصف وصف سيونغ المرعبة، والغناء غناء الفينيق الصيني. الغناء الجميل والرعب معا. صفات سيوونغ هنا تعطى لطائرها. والشجرة هي ذاتها الشجرة المرتبطة بإنانا والعزى وإيزيس، وكل الإلهات من هذا الطراز. إنها شجرة النغمات الكونية الثلاث، التي تحدثنا عنها طوال هذا الكتاب.

الصفصاف الحلو

لكن ما هو الصفصاف الأبيض الذي يتحدث عنه النص الصيني؟: (ويوجد عندهم زهرة حلوة المذاق، وسفرجل، وصفصاف أبيض يعتبرونه كاللحم، أي يأكلونه كما يأكلون اللحم).(٦١)

صفصاف أبيض كاللحم!

نعتقد أن هذه الشجرة هي النخلة. وفي فصل آخر أوضحنا أن الكون يتمثل بشجرتين: شجرة طيبة وشجرة خبيثة. الشجرة الخبيثة هي شجرة الخلاف، أي الصفصاف، وهي شجرة لا تثمر لأن النزاع يخترقها. أما المثال عليها فهي صفصافة إنانا: (فعند أصلها بنت حية سامة عشها/ وفي قمتها وضع طائر الزو فراخه/ وفي المنتصف أقامت ليليث بيتها).(٦٢)

أما الشجرة الأخرى فنراها في قصة (إنانا والبستاني شوكالتودا): (هناك تقف في ذلك المكان شجرة ظليلة. والشجرة الظليلة هي من حور الفرات. ظلها لا يزول في الصباح، وهي لا تتغير في الظهيرة أو المساء).[٦٣] النخلة هي الصفصافة الحلوة. هذا ما يجب أن نفهمه من النص الصيني. أي أن ثم صفصافة لا تثمر، وثم صفصافة نقيض لها هي النخلة، بتمرها الحلو، الذي يؤكل كاللحم.

القماش الناري

وينقل لنا فوركه عن كتاب (المعلم لو) حول رحلة الملك مو ما يلي:

(وعندما انطلق الملك مو في رحلته الاستكشافية إلى الغرب، فقد أهدي إليه سيف من صلب أحمر، وقطعة قماش غسلت بالنار).[٦٤]

وإذا أراد المرء أن يغسل مثل هذا القماش يلقى في النار، فيذهب القذى ويبقى القماش سالما لم يمس. لا شك لدي أن لهذه التفصيلة علاقة بطائر الفينيق الناري المرتبط بإيزيس. وهذا الطائر يأخذ اسم (السمندل) أحيانا. لكن هناك عددا من الطيور التي تشبهه معنى ولفظا: سمرك الفارسي، وسمرمر. ويخبرنا عدد لا بأس به من المصادر أن (السمندل) حيوان، لكن بعضها يقول لنا إنه طائر. وينقل لنا الدميري في حياة الحيوان الكبرى وجهتي النظر:

(ومن عجيب أمر السمندل استلذاذه بالنار ومكثه فيها. وإذا اتسخ جلده لا يغسل إلا بالنار وكثيرا ما يوجد بالهند، وهي دابة دون الثعلب خلنجية اللون حمراء العين ذات ذنب طويل، ينسج من وبرها مناديل، إذا اتسخت ألقيت في النار فتنصلح ولا تحترق.... وزعم آخرون أن السمندل طائر ببلاد الهند يبيض ويفرخ في النار، وهو بالخاصية لا تؤثر فيه النار ويعمل من ريشه مناديل تحمل إلى بلاد الشام. فإذا اتسخ بعضها، طرح في النار فتأكل النار وسخه الذي عليه ولا يحترق المنديل.... وقال القزويني: السمندل نوع من الفأر يدخل النار وذكر كما تقدم والمعروف أنه طائر كما حكاه البكري في كتاب المسالك والممالك وغيره أيضا).[٦٥]

أما المقريزي في اتعاظ الخلفاء فيقرر أنه طائر:

(وأخرج من القصر منديل نسيج من زغب ريش طائر يسمى السمندل، طوله تسعة أشبار، لا يحترق بالنار، فاشتراه بعض المسافرين التجار بثمن يسير طلب فلم يقدر عليه).[٦٦]

twitter @baghdad_library

واضح هنا أن للأمر علاقة بطائر الفينيق الذي يجدد نفسه بالنار. فالسمندل يبيض ويفرخ في النار. أما الزمخشري في الكشاف، فيحدثنا في سياق الحديث عن شجرة الزقوم عن هذا السمندل:

(فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها).[٦٧]

العقيق

تخبرنا الأسطورة الصينية أن الملك ونغ مو على علاقة بالعقيق: (يقول مؤلف «تقرير عن ابن السماء مو» إن الملك مو كان يتحلى بالعقيق).[٦٨]

والعقيق مسألة تقع في جوهر الديانة الأوزيريسية. ولسنا ندري تماما لَمَ. لكن ربما كان هذا نابعا من لون سهيل ، أي وأوزيريس، المفترض. يقول لنا القلقشندي في صبح الأعشى: (ومنها سهيل، وهو كوكب أحمر منفرد عن الكواكب).[٦٩] كوكب أحمر لونه مثل لون العقيق. ونحن نتذكر أن الصنم هبل كان منحوتا من عقيق، باستثناء يده اليمنى التي كانت من ذهب. وهبل هو أوزيريس في نغمته الفيضية العالية كما رأينا في فصل آخر. أي أنه مثيل سهيل اليماني.

وربما كان العقوق ذاته على علاقة مباشرة بسهيل. يقول السيوطي في أسرار الكون نقلا عن رواية لابن عباس: (أمرت النجوم بأمر وأمر بأمر فخالف فخولف به).[٧٠] أي أن سهيلا عاق. والعقوق في الأصل الانشقاق. يقول ابن السكيت في إصلاح المنطق: (وكل انشقاق فهو انعقاق وكل شق وخرق فهو عق).[٧١] وسهيل منشق عن الكواكب، كواكب الجوزاء، فهو كوكب أحمر منفرد مبتعد. ولأنه يربط بين العقيق والعقوق لذا يتشاءم الناس بالعقيق، فقد حاول بعضهم أن يفسر الحديث المنسوب للنبي (تختموا بالعقيق)، على أنه (تخيموا بالعقيق)، أي انصبوا خيامكم في الوادي المعروف.

فوق هذا فلون إيزيس ومثيلاتها هو العقيق. وقد رأينا في فصول سابقة كيف أن شجرة الإلهة ذي الخلصة لها ثمر أحمر كالعقيق. ويخبرنا علماء المصريات أن حملة رأس الأفعى السحرية:

(كانت توضع على جثمان الميت لتحفظه من عض الأفعى في المقبرة أو العالم السفلي. كانت تصنع من الحجر الأحمر، اليشب الأحمر والعقيق. وحيث إن الإلهة إيزيس كان يرمز لها غالبا بأفعى، وكان اللون الأحمر مميزا لها، فيبدو أن الفكرة التي يتضمنها استخدام مثل هذه الحمولة هي سحق الأفاعي في المقبرة من خلال قوة الثعبان الأعظم- الإلهة إيزيس).[٧٢]

من أجل هذا كله، يحق لنا أن نرى في تحلي الملك الصيني الأسطوري بالعقيق دليلا آخر على تشابهه مع أوزيريس.

وفي النهاية، يمكن القول من دون خوف أن الملك ونغ مو هو أوزيريس صيني، قام برحلة سماوية إلى حيث تقيم سيونغ- إيزيس، مثلما كان يرحل أوزيريس إلى إيزيس السماوية في جنوب السماء. سيونغ هي إيزيس، حتى باللفظ (سيوونغ= شسفعنغ) وونغ مو هو أوزيريس.

twitter @baghdad_library

فصل 22

يغوث ويعوق ونسرا

ورد في سورة نوح ذكر خمسة أصنام معا: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾.[1]

والصيغة اللغوية، صيغة العطف مع النفي من دون فصل بلا، تجعل الثلاثة (يغوث ويعوق ونسرا) فيما يبدو مجموعة واحدة، بحيث تلح على المرء فكرة أنها ثالوث محدد. لكن المشكلة أن ما نعرفه عن هذه الآلهة قليل جدا. وفيما يخص طبيعتها، فنحن ما نكاد نعلم عنها شيئا تقريبا. ولعل يغوث هو الأشهر بين الآلهة الثلاثة. فنحن نعرف القبائل التي تعبدت له، بل ونعرف أنها اقتتلت على صنمه في بعض اللحظات. كما نعرف أين أقيمت بعض تماثيله وأصنامه. كذلك لدينا الكثير من أسماء الأعلام التي أضيفت إليه، كما هو الحال مع اسم الشاعر المعروف عبد يغوث الحارثي. أما يعوق فنعرف عنه أقل مما نعرف عن يغوث. فكل ما يقال عنه إنه: صنم كان لكنانة، أو أنه كان لقوم نوح. يقول الخليل بن أحمد في العين: (ويعوق: اسم صنم كان يعبد زمن نوح عليه السلام).[2]

وفيما يخص نسر، الذي ورد في النقوش الجنوبية بصيغة (نسرو)، فمعلوماتنا عنه أيضا قليلة جدا. ولولا ورود اسمه في بيتين من الشعر لكانت محاولة التحري عن طبيعته ضربا من العبث. ولنأخذ ما قاله لنا كتاب الأصنام لابن السائب الكلبي عن هذه الأصنام: (واتخذت مذحج وأهل جرش يغوث) ثم يروي البيت:

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجزناهم قبل الصباح

وحول يعوق يضيف: (واتخذت خيوان يعوق. فكان بقرية لهم يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين، مما يلي مكة. ولم أسمع همذان سمت به ولا غيرها من العرب، ولم أسمع لها ولا لغيرها فيه شعرا). أما حول الثالث بين هذه الآلهة، أي نسر، فيقول:

(واتخذت حمير نسرا، فعبدوه بأرض يقال لها بلخع... ولم أسمع له ذكرا في أشعارها، ولا أشعار أحد من العرب. وأظن ذلك كان لانتقال حمير أيام تبع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية).[٣]

هذا أهم ما قيل عن هذا الثالوث المفترض. وهو يخبرنا بأن المعبودات الثلاثة ربما كانت في الأصل عربية جنوبية، ثم عبدت فيما بعد شمالا. ولعل صيغة (يفعُل) التي ورد بها صنما (يغوث ويعوق) تؤكد ذلك. فهي صيغة للأسماء عربية جنوبية. ولعل هذا ما جعل المصادر العربية تفشل في تفسيرها لأسماء الآلهة الثلاثة. إذ لا يمكن استنادا إلى العربية الشمالية وحدها في فهم هذه الأسماء، فيما يبدو لنا.

غير أن لدينا خبرا مهما جدا عن الواقدي يحدد الصور التي تبدت فيها هذه الآلهة. ولو صح هذا الخبر لكان ألقى ضوءًا قويًا على طبيعة هذا الثالوث. غير أننا نشك في صحة ما نقله الخبر. ونحن ننقل هذا الخبر عن المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي: (قال الواقدي: كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر).[٤] وسوف نعرض لهذا الخبر لاحقا.

ورغم تأكيد ابن الكلبي أنه لم يسمع بنسر في شعر، فقد ورد ذكره لنا في قصيدتين اثنتين، كما ذكرنا من قبل. أما القصيدة الأولى فيقال إنها لشاعر من شعراء الجاهلية لا نعَرف عنه شيئا، وهو «عمرو بن عبد الجن»، أو «عمرو بن عبد الحق». هذا مع أن هناك من ينسب القصيدة ذاتها للأخطل. ولو صح أنها للأخطل يكون كلام الكلبي سليما عن عدم مرور ذكره في الشعر الجاهلي. يقول عمرو في القصيدة:

أمـا ودمـاء مائرات تخالهــــا   على قنة العزى وبالنسر عَندمــا

وما سبح الرهبان في كل ربيعة   أبيل الأبيلين المسيح بن مريمــا

لقد ذاق منا عامـــر يـوم لعلع   حساما إذا ما هز بالكـف صمما

إنه يحلف بدماء الأضاحي الحمراء كالعندم على تلة العزى وعند الصنم النسر. لكن لا شيء غير ذلك.

أما القصيدة الثانية فهي قصيدة خطيرة وفي منتهى الغرابة من صدر الإسلام. خطيرة لأنها الوحيدة التي تتحدث عن الإله نسر في سياق مقطع أسطوري كامل. وغريبة لأنها تبدو قصيدة وثنية تامة، رغم أن الرواية تقول إنها قيلت في مدح الرسول. أي أنها تعرض لنا مقطعا من معتقدات الجاهلية يريد أن يتواءم مع الدين الجديد. وينقل لنا ابن كثير في سيرته أبيات هذه القصيدة:

twitter @baghdad_library

(قال ابن عباس: قال حسان بن ثابت في النبي صلى الله عليه وسلم:

من قبلها طبت في الظـلال وفي مستودع يوم يخصف الورق

ثم سكنت البلاد لا بشر أن ت ولا نـطـفـــــة ولا عـلـق

مطهـر تركب السفين وقـد ألجم نسـرا وأهلـه الغـــــرق

تنقل من صالب إلى رحـم إذا مـضى طبـق بدا طبــــــق

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [يرحم الله حسانا] فقال علي بن أبي طالب: وجبت الجنة لحسان ورب الكعبة. ثم قال الحافظ ابن عساكر: هذا حديث غريب جدا. قلت: بل منكر جدا. والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضي الله عنه {قالها في مدح الرسول} ثم أوردها من حديث أبي السكن زكريا بن يحيى الطائي كما تقدم).[٥]

وفي غريب الحديث لابن قتيبة تنسب القصيدة للعباس عم النبي. وهو أمر أشد غرابة:

(قال أبو محمد في حديث النبي صلى الله عليه و سلم إن العباس بن عبد المطلب قال له يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك قال «قل لا يفض الله فاك» قال العباس:

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

ثم هبـطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغـة ولا علـق

بل نـطفة تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهله الغـرق

تنقـل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبـق

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نخترق).[٦]

القصيدة غامضة إلى حد كبير. لكن يمكن إدراك أن المادح يصف ممدوحه بأنه قديم أزلي، وأنه تنقل من صلب إلى صلب، إلى أن جاء على ظهر سفينة كما يبدو، وحين جاء حل الضياء. لكن المهم أن مجيئه ترافق مع إلجام الغرق لنسر وأهله. ومن خلال قراءة الروايتين يتضح أن ثمة اضطرابا ما. ففي الرواية الأولى يقول الشاعر لممدوحه إنه ليس نطفة: (لا بشر أنت ولا نطفة ولا علق). أما الرواية الثانية فتؤكد العكس: (بل نـطفة تركب السفين). وهذا يعني أن تصحيفا قد حصل، أو أن اضطرابا في ترتيب الأبيات قد حدث، أو أن الأمرين حدثا معا. وهذا الأمر صعب من مهمة فهم القصيدة، وجعل المرء غير قادر على فهم الصورة التي قدم عليها الممدوح قدومه الميثولوجي؛ فهل جاء

كمطهر أم كنطفة، أم أن محل الكلمتين كلمة أخرى ضيعها التصحيف.

ومقصدنا بالطبع هنا ليس تناول القصيدة كلها، ولا التحقيق في صحة نسبتها لحسان، أو صحة أنه قالها في مدح الرسول، بل محاولة فهم شطر البيت الذي يتحدث عن الإله (نسر) خاصة. فنحن نعتقد أننا إن تقدمنا في فهمه ربما نكون قد فتحنا الباب أمام فهم شيء ما عن هذا الإله، وشيء عن الثالوث القرآني الذي يحويه: (يغوث ويعوق ونسرا). ويروى البيت على شكلين كما رأينا:

مطهر تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهله الغـرق

أو هكذا:

بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهـله الغـرق

وهكذا، فالمشكلة أن الاضطراب حصل في هذا البيت بالذات. فنحن لا ندري إن كان من ركب السفين هو مطهر أم نطفة، أم غير ذلك. لكن المصادر العربية تجمع على أن (نسرا) هذا هو الذي ذكر في القرآن من ضمن أصنام نوح: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾.

وبما أن كلمة (ألجم) تعني من بين ما تعني: منع من الكلام، فقد صار معنى الشطر الثاني من البيت عند المصادر العربية هكذا: (ألجم الغرق نسرا وأهله)، أي منعهم من الكلام. أي أنهم، ربما، غرقوا فأسكتهم الماء. بذا تكون كلمة (ألجم) قد استخدمت هنا بمعنى الإسكات على سبيل المجاز، أي على سبيل تشبيه الإسكات عبر الغرق بوضع اللجام في فم الفرس.

لكن الغريب أن المصادر العربية لا تتحدث مباشرة عن غرق نسر وأهله عندما تفسر البيت. إذ هي تكتفي بأن تفسر جملة (ألجم نسرا) بمعنى منعه من الكلام، ولا تقترب من موضوع الغرق. لا أحد يقول لنا مباشرة إن الغرق هو من ألجم **نسرا** وأهله. لكن سياق حديثها يوصل إلى الغرق من دون شك. أي أن المعنى يصير هكذا: (وقد ألجم الغرق نسرا وأهله). كما أنه لا أحد يقول لنا لم غرق نسر وأهله، أو لم ألجموا بالغرق لا بغيره. ولعل ما منع المصادر العربية من الحديث عن الغرق، أي من ربط اللجم بالغرق مباشرة، هو شعورها بأن الأمر غير مقنع بقوة. ذلك أن عليك أن تدور قليلا كي تصل إلى الإلجام عبر الغرق.

twitter @baghdad_library

أما نحن فتعترينا شكوك قوية جدا حول صحة تفسير المصادر العربية لهذا البيت. ونظن أنها ألجئت إلى هذا التفسير بسبب تصحيف وقع في كلمة (الغرق). وهو تصحيف بسيط جدا، لكنه ضيع المعنى بكامله. ونظن أن الكلمة في الأصل هي (العِرق) بالعين المهملة المكسورة لا بالغين المعجمة المفتوحة. فالعرق هو الذي ألجم نسرا وأهله، وليس الغرق في الماء.

وحسب القواميس العربية، فإن العِرق هو الجبل. يقول لسان العرب: (العِرق هو الجبل) أو هو (الجبل الصغير المنفرد). كما أن (ذات عرق)، الذي هو منزل معروف من منازل الحج العراقي، سمي بهذا الاسم: (لأن فيه عرقا، وهو الجبل الصغير). وينقل اللسان عن (ابن شميل: العَرْقُوَة أَكمة تنقاد ليست بطويلة من الأرض في السماء وهي على ذلك تشرف على ما حولها).[٧] وفي اللهجة الفلسطينية ما زال الناس يسمون الصخرة الضخمة المنفردة أو البارزة في جبل باسم (عراق).

بناء على هذا يكون العرق، أي الجبل الصغير، أو الجبيل، هو من ألجم نسرا وأهله.

وإذا صح هذا، فعلينا أن نقول إننا لسنا مرتاحين إلى أخذ المصادر العربية لكلمة (ألجم) هنا على أنها تعني منع من الكلام. ذلك أن اللجم لا يعني الإسكات عن الكلام فقط، بل يعني أيضا الشد والكبت والمنع. يقول لسان العرب: (اللجام: ما تشده الحائض. وفي حديث المستحاضة: تلجّمي، أي شدي لجاما، وهو شبيه بقوله: استثفري، أي اجعلي موضع خروج الدم عصابة تمنع الدم).[٨] وهكذا، فاللجم يعني: المنع، أو منع الخروج. بل هو هنا منع خروج الدم- السائل. ولو طبقنا هذا على بيتنا الشعرى، لكان المعنى أن العرق منع نسرا وأهله من الخروج، أي أنه حبسهم في جوفه، وأطبق عليهم، في أغلب الأمر. والغريب أن جذر (لجم) يحيل إلى الجبل أيضا! يقول لسان العرب: (لجمة الوادي: فوهته. واللجمة: العلم من أعلام الأرض. واللجم: الصمد المرتفع. أبو عمرو: اللجمة: الجبل المسطح ليس بالضخم).[٩] وكل هذا مثير للتفكير.

نسر فيما يبدو، إذن، إله ألزم بأن يكون في الجبل أو الصخرة. أي حشر وكبت في الجبل حين جاء المظهر أو النطفة في السفينة. وإذا صح هذا التفسير، فإنه يكون المظهر الشتوي القار الساكن للإله ذي الطابع الأوزيريسي. وحاله هذا يشبه حال نبي أهل الرس الذي (رسّ) في كهف أو مغارة في الجبل، أو حال أهل الكهف الذين (لبثوا) في الكهف لا يغادرونه، وغير ذلك من نماذج مشابهة.

لقد دفع نسر مثل هؤلاء إلى جوف الجبل، أو الصخرة حين تقدم نظيره الصيفي الفياض الطوفاني. والإله الذي يُدفع إلى جوف الصخرة، أي إلى شق فيها، هو طرف الثالوث عادة، أي أنه مثل مناة. في حين أن نقيضه الفياض مثل اللات. ونقيض نسر هنا هو يغوث، أي الطرف الآخر للثالوث، الذي جاء فيما يبدو في السفينة التي تمخر مياه البحر. يغوث، إذن، يجيء بحريا مع الفيضان، ونسر يحبس في الجبل. الأول هو الصيف في فيضان نيله، والثاني هو الشتاء. وهما يشبهان اللات ومناة:

اللات يغوث

مناة نسر

بذا يكون الشاعر المادح قد مدح ممدوحه بأنه أوزيريس المتجدد المنبعث بمياهه الفياضة، أي أنه نقيض نسر. وهذا واضح من جملة (بل نطفة تركب السفين).

وحسب المنطوقة رقم ٢٥٠ من نصوص الأهرام فإن أوزيريس الميت، أو جثته بالأحرى تدخل، الجبل، لكنه حين يبعث يتحول إلى روح نجمية نيرة: (وقفت أمام الآلهة الذين شهدوا تحول جسد رجل إلى جسد روح، والذين شهدوا البعث عندما دخلت جثة أوزيريس الجبل، وعندما خرجت روح أوزيريس نيّرة... عندما خرج من الموت شيئا منيرا).

(عندما دخلت جثة أوزيريس الجبل)، أي في موته الفصلي. ونسر في الواقع هو أوزيريس الذي دخل الجبل. هو الذي ألجمه العِرق. أما الذي جاء على ظهر السفينة، والذي: لما (ولد أشرقت الأرض وضاءت بنوره الأفق)، كما قالت القصيدة، فهو أوزيريس الذي خرج من الصخرة وتحول إلى روح نيرة.

النسر أم الحية؟

غير أن مشكلتنا تكمن فيما يلي: أننا في الفصول السابقة توصلنا إلى أن الإله الميت، المنسحب، القار، الشتوي، مثيل مناة، يأخذ شكل حية لا شكل طائر. فكيف يكون نسر إلها شتويا في حين أن اسمه (نسر) أي ذلك الكاسر المعروف؟ كيف ذلك والجاحظ في الحيوان يخبرنا بأنه يأخذ صورة نسر؟: (قال الله: «ولا يغوث ويعوق ونسرا»؛ لأن ذلك الصنم كان على صورة النسر).[10] ثم كيف يكون ذلك وقد قرأنا قولًا أخبرنا به الواقدي: (كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير»).[11] أما د. جواد علي في المفصل

twitter @baghdad_library

فقد مال إلى هذا الرأي انطلاقا من التماثل بين اسم الإله واسم الطائر الكاسر: (ولكننا نستطيع أن نقول استنادا إلى هذه التسمية إنه كان على هيئة الطائر المسمى باسمه).[١٢]

كيف يستقيم الوضع لنا مع كل هذا؟

لحل هذه المعضلة، ربما كان علينا أن نعيد التفكير بمعنى كلمة (نسر)، وأن نتحدى ربما التفسير الذي يقول إنها تعني ذلك الجارح، بل وألّا نقبل به. فكلمة (نسر) هنا لا تعني الطائر الجارح، بل تعني الحية، كما هو الحال في اللغة المصرية القديمة، حيث: (نسرت): اسم للإلهة- الصل، أو الإله الصل، أي الحية.[١٣] وحيث: (نسر: {تعني} حرق، شعلة).[١٤]

ويقول الفصل السادس والستون من كتاب الخروج إلى النهار: (أنا الصقر في السماء الجنوبية وتحوت في السماء الشمالية، وأرضيت (نسرت) ثعبان الكوبرا عندما غضبت، أحضرت لها ماعت).[١٥] وقد رأينا في أماكن أخرى من الكتاب أن الإله الشتوي يظهر كحية-نار، أي كحية تشبه النار أو نار تشبه الحية.

نار الحرتين

وإذا قبلنا هذا فإنه يذكرنا بنار الحرتين، أي النار التي أرغمها خالد بن سنان العنسي على الدخول في شق الجبل. وهذه النار تبدو كأنها حية ونار في لحظة واحدة. يقول النويري في نهاية الأرب:

(وكانت للعرب نار عظمى تسمى نار الحرتين... وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً فخرج بهم نحوها... وجعل يضرب ذلك العنق بالدرة... فما زال يضربه حتى رجع، وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قليب، فانساب فيه).[١٦]

أما ابن العديم في بغية الطلب فيقول لنا إن النار كانت تخرج من شق جبل:

(فإذا هي تخرج من شق جبل في حرة يقال لها حرة أشجع فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً فاستقبلها خالد بعصاه فجعل يضربها ويقول: بداً كل هدي مؤدى، زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي تندا).[١٧]

وهكذا ألزم خالد بن سنان النار أن تعود إلى القليب، الذي يبدو بوضوح أنه شق في الجبل. ويجب ألّا يغيب عن بالنا أن عنق النار يبدو هنا كحية. فقد ظل يضرب هذا العنق

(حتى رجع... كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قليب، فانساب فيه). لقد فعل خالد بن سنان بالعنق الناري- الحية كما فعل بالنسر في البيت الذي نتحدث عنه. لقد ألزم بأن يدخل إلى شق في الجبل. وعلينا أن نلحظ أن الحرة تدعى (حرة أشجع). والأشجع هو الثعبان في العربية. وعليه فعنق النار هو حية أو ثعبان، وليس كالثعبان. إنه نار وحية في الوقت ذاته، كما هو الحال في اللغة المصرية القديمة بالنسبة لجذر (نسر). وهذا مفهوم جدا. ذلك أننا نتحدث هنا عن الانقلاب الشتوي، حيث يدخل الماء التحتأرضي، الماء الفيضي، إلى جحره في الصخرة، كي ينزل الماء العلوي، أي ماء الشتاء. والشتاء مرتبط بنار البرق. وحين كان العرب يستمطرون كانوا يشعلون نارا في أذيال البقر ويطلقونها في جبل.

وكل هذا يبرهن على أن (نسر) يمثل الانقلاب الشتوي. إنه الإله الساكن، الهادئ القار. إنه أوزيريس الشتوي، أي مثيل مناة في الثالوث المكي، ثالوث الغرانيق العلى (اللات والعزى ومناة).

يغوث

إذا صح هذا يكون يغوث شبيه اللات. فيغوث هو الوجه المقابل لنسر- الحية. أي يكون ممثل الصيف الفيضي. يؤيد هذا أن جذر (غثث) العربي يفيد معنى الفيض والسيلان بوضوح. يقول لنا لسان العرب: (غَثِثة الجرح: مِدَّته، وقَيْحه... وقد غَثَّ الجرح... ذِا سال ذلك منه).[١٨] وهو ما يقوله الجوهري في الصحاح أيضا: (غَثَّ الجرح... إذا سال ذلك منه).[١٩] كذلك فإن المعنى الأساسي لجذر (غيث) هو المطر والماء. وكل هذا يشير إلى طابع فيضي ما ليغوث.

غير أن الواقدي يقول لنا إن يغوث أسد. فهل يأخذ الإله في نغمته الصيفية الفيضية صورة أسد؟ ربما! وينقل لنا ياقوت الحموي في معجم البلدان ما قد يؤيد علاقة الأسد بالصيف الفياض:

(قالوا ومن عجائب همذان صورة أسد من حجر على باب المدينة يقال إنه طلسم للبرد من عمل بليناس صاحب الطلسمات... ويقال إن الفارس كان يغرق بفرسه في الثلج بهمذان لكثرة ثلوجها وبردها، فلما عمل لها هذا الطلسم في صورة الأسد قل ثلجها وصلح أمرها).[٢٠]

twitter @baghdad_library

الأسد ضد البرد. أي أنه رمز صيفي. أي أنه يمكن أن يمثل النغمة الصيفية العالية. بالتالي ربما يكون يغوث الفيضي، شبيه اللات، أسدا. وهكذا، فربما نتفق مع الواقدي بشأن يغوث!

يعوق

يظل لدينا يعوق. ومن الواضح أنه الحد الأوسط في الثالوث. وهذا ما يجعله مثيلا للعزى:

يغوث يعوق نسرا

اللات العزى مناة

وهذا يعني أن يعوق إلهة أنثى!

وهكذا نفاجأ من جديد بالإناث، كما حصل في فصول سابقة.

وليس بين أيدينا الكثير مما يجعلنا نبرهن على هذه النتيجة المستخلصة. كما أن اللغة العربية لا تعطينا ما يسمح بإلقاء ضوء ما على يعوق. فالجذر (عوق) يعطي معنى التثبيط والتبطيء. وهو ما لا يزيد الأمر وضوحا أمامنا. لكن ربما ساعدتنا اللغة العبرية على إلقاء ضوء ما على يعوق على الأقل. ذلك أن جذر (عوج)، بالجيم القاهرية، العبري يعطي معنى الكعكة والدائرة. وهذا يشير إلى إلهة أنثى مثل إيزيس. وقد رأينا أن العنصر الأوسط في الثالوث المعادل لثالوث نجوم حزام الجوزاء يصور على شكل كعكة أو دائرة في (بلاطة بلعمة) الفلسطينية الخطيرة الشأن. والعنصر الأوسط هو إيزيس- العزى. وعليه فيعوق الوسط في الثالوث الذي أمامنا: (يغوث ويعوق ونسرا) ربما رمز له بكعكة، أي أنه مثيل إيزيس. وفي اللغة المصرية القديمة يعطي جذر (عقا) معنى مقاربا. إذ أن عقو تعني: (خبز، جراية، تموين). كما أن عكك تعني: نوعا من الخبز.[٢١] أما (عقا) فتعني (يكون دقيقا، محددا، صارما، عادلا، نزيها). كما أنها تعني أيضا: (استقامة، تكافؤ، مقياس).[٢٢] وقد رأينا كيف أن الحد الأوسط في الثواليث دوما حد توازن وتكافؤ. إضافة إلى أننا رأينا (مكة) التي هي الحد الأوسط في الثالوث تعني الميزان.

أما في اللغة العربية فجذر (عقق) يشير إلى طراز من الطعام على علاقة بالأطفال. إذ تذبح شاة عندما يبلغ الطفل من عمره اليوم الثامن أو السابع، ويحلق شعره. يقول لسان العرب: (في الحديث: الغلام مُرْتَهِنٌ بعَقِيقته؛ قيل: معناه أن أباه يُحْرَم شفاعةَ ولده إذا لم

يُعَقَّ عنه، وأَصل العَقِيقةِ الشعر الذي يكون على رأْس الصبي حين يولد، وإنما سميت تلك الشاةُ التي تذبح في تلكَ الحال عَقِيقةً لأنه يُحْلق عنه ذلك الشعر عند الذبح، ولهذا قال في الحديث: أَميطوا عنه الأَذى، يعني بالأَذى ذلك الشعر الذي يحلق عنه، وهذا من الأَشياء التي ربما سميت باسم غيرها إذا كانت معها أَو من سببها، فسميت الشاة عَقِيقَةً لَعَقِيقَةِ الشعر).[٢٣] وقد عرفنا من قبل أن ليليث التوراتية، تفقد سيطرتها على الأطفال في اليوم الثامن. وقبل ذلك يمكن لها أن تخنقهم. وليليث هي إيزيس المضادة، إيزيس السلبية.

وهكذا، فإن هناك احتمالا جديا لأن يكون يعوق يشير إلى الكعكة والدائرة، اللتين ترمزان إلى إيزيس.

لكن ما يشوش على هذا الاستنتاج إنما هو خبر الواقدي الذي يقول لنا إن يعوق على صورة فرس: (كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير»).

والمشكلة مع هذا نص الواقدي أننا نجد أنفسنا وقد اختلفنا معه في موضوع (نسر)، الأمر الذي يجعلنا في شك مما أورده أيضا عمّا أورده عن (يغوث ويعوق). طبعا لا يمكن لنا أن نختلف معه في موضوع ود. فقد أكد لنا أنه على صورة رجل، بل ووصفه لنا عن أبيه وصفا دقيقا. أما في موضوع سواع، الذي أتى به من عنده، فنحن نكاد نتفق معه. أي أننا أميل إلى أن سواع أنثى. فالنص يوحي بأن ودا وسواعا ربما يكونان إلهين من طراز سهيل والشعرى.

ولعل جذر (سعا) يدعم فكرة أن سواع أنثى. فهو يشير إلى طراز من البغاء النسوي. يقال: (ساعى الأمة: طلبها للبغاء... المساعاة: مساعاة الأمة، إذا ساعى بها مالكها فضرب عليها ضريبة تؤديها بالزنا... ولا تكون المساعاة إلا في الإماء... المساعاة: الزنى).[٢٤]

ولعل المعنى الأقدم كان يعني: البغاء المقدس، المرتبط بالإلهة سواع. كما أن جذر (سوع) يعطي معنى له علاقة بالجنس. فالسوعاء: المذي الذي يخرج قبل النطفة. وهكذا فنحن نتفق مع الواقدي في أمر ود وسواع، ونختلف معه في أمر نسر.

وفيما يخص يغوث فهناك ما قد يدعم، بشكل ما، زعم الواقدي بأنه يتمثل بأسد. إذا نقل لنا إذا صح أن نسرا حية، وأن يغوث ربما يكون أسدا، يظل أمامنا الادعاء المنقول عن الواقدي القائل بأن يعوق فرس. لكن أغلب الدلائل، وأشدها قوة، تشير إلى أن الفرس يمثل إلها ذكرا، أي يمثل أحد طرفي الثالوث وليس وسطه الأنثوي الذي يشبه العزى.

على كل حال، فإن هذا الادعاء ينقلنا إلى عباد الخيل.

twitter @baghdad_library

الأسبذيون

هناك مجموعة من الناس تدعى الأسبذيين، مختلف حولهم بشدة. ونبدأ المقتبسات عنهم بابن ماكولا في الإكمال: (قال هشام الكلبي: إنما قيل أسبذيون لأنهم كانوا يعبدون فرسا. ويقال: بل هي مدينة تدعى أسبذ نزلها فنسب لها. وقال الهيثم بن عدي: إنما قيل لهم الأسبذيون أي الجماع. وهم من بني زيد بن عبد الله بم دارم الأسبذي صاحب هجر، كتب إليه رسول الله... قال ذلك ابن الكلبي).[٢٥] ويضيف الزبيدي في تاج العروس: (هم قوم من المجوس لهم ذكر في حديث الجزية. قيل كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين، والجمع الأسابذة. وقال الأزهري: ولا يجمع السين والذال والطاء والتاء في العربية).[٢٦] يقصد أن الاسم غير عربي. أما معجم البلدان فيتحث عن مدينة سبذان:

(سبذان: قال حمزة بن الحسن، على أربعة فراسخ من مدينة الأبلة على عبر دجلة العوراء. وكان سكانها قوما من الفرس يعملون في البحر. فلما قرب العرب منهم نقلوا ما خف من متاعهم مع عيالاتهم على أربعماية سفينة وأطلقوها. فلما بلغت خور مدينة سبذان مالت بهم الريح عن البحر إلى نحو الخور، فنزلوا سبذان. وأعقابهم بها بعد).[٢٧]

إذن، فهؤلاء جماعة مختلف عليهم، لكن هناك رأيا قويا على أنهم من عبدة الخيل. ويبدو لنا، وبناء على كلام للطبري، أن هذه المجموعة التي كانت في حصن المشقر البحراني ليست من الأسبذيين، بل من الإصبهذيين. فقادة المناطق العسكرية الرئيسة يدعون بالفارسية الإصبهذيين، حسب ما يفهم من الطبري في تاريخ الملوك والرسل: (وكان يلي الإصبهذة، وهي الرياسة على الجنود، قبل ملكه رجل، وأن إليه إصبهذة البلاد. ففرق كسرى هذه الولاية بين أربعة إصبهذيين).[٢٨]

في غالب الأمر أن الأسبذيين الذين في المشقر هم أصبهذيون، أي الذين يتبعون لأصبهذية المشقر، ويقودهم إصبهذ محدد. أي أن إدخالهم في عبادة الخيل ربما نتج عن الخلط بين أسبذي وبين أصبهذي.

لكن هذا لا ينفي أن بعض الفرس قد عبد الخيل. بل إن سلمان الفارسي يقول لنا إنهم عبدوا الخيل البلق، أي التي يختلط سوادها ببياض. يقول الطبري في تاريخه: (قال سلمان الفارسي: كنت رجلا من أهل جيّ وكان أهل جيّ يعبدون الخيل البلق).[٢٩] غير أن سلمان لا يقول عنهم إنهم أسبذيون. وهو الأمر الذي يقوي فكرة أن الأسبذيين طائفة عربية لا فارسية.

لكن لم سمي عباد الفرس هؤلاء بالأسبذيين؟ يرى ياقوت أن الاسم أسبذ يعني في الأصل اسم الفرس في الفارسية: (قلت أنا: الفرس بالفارسية اسمه أسب زادوا فيه ذالاً تعريباً).[٣٠] أي أنه يعيدنا إلى الفرس، معتبرا أن عبادة الخيل ديانة فارسية في الأصل. لكن تخريجته ليست مقنعة، فما من داع لأن يضيف العرب الذال إلى الاسم، خاصة وأن جمع الذال مع السين لا يحدث في العربية على حد رأي الأزهري.

ونكاد نفترض أن اسم الأسبذيين اسم عربي خالص وليس فارسيا. يؤيد هذا من أن العرب يسمون الفرس المتعرق أسبد حسب لسان العرب: (والعرب تسمي الفرس به {أي بالأسبد} إذا عرق).[٣١] يؤكد هذا الزبيدي في تاج العروس: (والعرب تسمي به الفرس إذا عرقَ).[٣٢] فهل يكون هناك من علاقة بين الأسبذيين وبين الأسبد هذا؟ أي هل يكون هذا الفرس الأسبد هو إله الأسبذيين هؤلاء؟ إذا كان هذا فإنه يمكن الافتراض أن تحويل الدال إلى ذال حصل بفعل الاختلاط بين الأسبديين والإصبهذيين الفرس.

حسنا، وماذا يعني أن يسمي العرب الفرس المتعرق باسم الأسبد؟! هل يضيف هذا جديدًا؟ نعم، يضيف جديدًا. فلهذا الفرس وعرقه أبعاد ميثولوجية مدهشة. وهناك حديث موضوع نسب إلى الرسول عن عرق هذا الفرس. يقول ابن تيمية في درء التعارض: (وآخرون من الزنادقة والملاحدة كذبوا أحاديث مخالفة لصريح العقل ليهجنوا بها الإسلام ويجعلوها قادحة فيه، مثل حديث عرق الخيل الذي فيه أنه {أي الله} خلق خيلًا فأجراها فعرقت فخلق نفسه من ذلك العرق).[٣٣] ويضيف في مكان آخر: (مثل حديث عرق الخيل الذي كذبه بعض الناس علي أصحاب حماد بن سلمة. وقالوا: إنه كذبه بعض أهل البدع اتهموا بوضعه محمد بن شجاع الثلجي. وقالوا إنه وضعه ورمي به بعض أهل الحديث ليقال عنهم إنهم يروون مثل هذا. وهو الذي يقال في متنه: إنه خلق خيلًا فأجراها فعرقت فخلق نفسه من ذلك العرق تعالى الله عن فرية المفترين وإلحاد الملحدين)[٣٤]

ونحن مقتنعون تماما بأن هذا الحديث موضوع، وأنه ينقل تقليدًا جاهليًا قديمًا وينسبه إلى الإسلام. لكن لأنه كذلك فهو مهم. أي أنه مهم لأنه ينقل تقليدا ميثولوجيًا يبدو على علاقة بالعباد وبفرسهم الأسبد الذي يطفر بالعرق. فالله خلق من عرق هذا الفرس. أي وبشكل ما، فإن الله هو هذا الفرس المتعرق. والفرس المتعرق هو الأسبد عند العرب؟.

twitter @baghdad_library

وعليه، فربما يكون الأسبد، أي الفرس المتعرق، هو إله الأسبديين. أي أن الأسبذيين بالذال كانت تصحيفا لهذا الاسم، نتج عن خلطه بالإصبهذيين العساكر الفرس.

وثَم علاقة للخيل بالعبادة الأوزيريسية كما يبدو. فداود بن سليمان، الذي يبدو كشخصية أوزيريسية، له علاقة بالصافنات الجياد. يقول القرآن الكريم: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.[٣٥] وقيل في التفسير إن (حب الخير) تعني (حب الخيل). ذلك أن (العرب تسمي الخيل الخير)[٣٦]، كما يقول الزبيدي في تاج العروس. أي أن الآية تقول: رب إني أحببت حب الخيل عن ذكر ربي. ومن أجل هذا سمى الرسول صلى الله عليه وسلم زيد الخيل الطائي باسم زيد الخير.

فما دام إله الأسبذيين يتمثل بفرس. فما هي طبيعة هذا الإله؟

ليس لدينا الكثير جدا عن طبيعة هذا الإله. وما لدينا عنه يأتي مواربة وليس مباشرة. لكن علينا أن نستند إليه. يقول النويري في نهاية الأرب: (وتكره الحية ريح السذاب ولا تملك نفسها معه، وربما اصطيدت به؛ وتكره ريح الشيح. والحية تذبح حتى تفرى أوداجها فتبقى أياما لا تموت. ومتى ضربت بالقصب الفارسي ماتت، وإن ضربت بسوط قد مسه عرق الخيل ماتت). ويؤكد الدميري في حياة الحيوان هذا: (ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان وتفرح بالنار وتطلبها، وتتعجب من أمرها، وتحب اللبن حبًا شديدًا. وإذا ضربت بسوط مسه عرق الخيل ماتت).[٣٧]

عرق الخيل إذن، العرق الذي خلق منه الإله، يميت الحيات. وقد رأينا كيف أن الحيات تمثل النغمة الشتوية. فهل يعني هذا أن ثمة عداءً بين الخيل والحيات، وأن الفرس يمثل النغمة الصيفية المعادية للحيات التي تمثل النغمة الشتوية؟ أم أن علينا أن نقرأ العلاقة بينهما مثلما قرأنا العلاقة بين الحية والحمار؟ فقد عرفنا حية تسمى (آكل الحمر). ورأينا كيف أن الحمار والحية معا يمثلان ذا بكة، أي أوزيريس الشتوي. نحن لا نستطيع أن نجزم.

ولدينا دليل من الأدب الروماني على أن الحصان ربما كان يمثل النغمة الشتوية. إذ يخبرنا جيمس فريز في الغصن الذهبي أنه كان هناك احتفال يتم التضحية فيه بفرس: (تدعى فرس أكتوبر).[٣٨] ويضيف في مكان آخر: (ففي الخامس عشر من كل عام كان يجري سباق عربات في حقل مارس. وفيه تطعن الذراع اليمنى لفرس الفريق الفائز، ثم يضحى بالفرس)، ثم يقطع ذيله وهو حي، ويؤخذ إلى دار الملك وهو يقطر دما، قبل أن

يقتل. ثم (يتم تزيين رأس الفرس بحبل من الخبز).[٣٩] الأمر الذي يفسره فريزر على أنه محاولة للحصول على محصول جيد. ويرى أن الحصان يُضحى به على أنه واحدة من حيوانات روح القمح.

لدينا هنا نقطتان: الأولى؛ أن التضحية به تتم في منتصف أكتوبر، أي وقت الانقلاب الشتوي، الثانية؛ أن رأسه يزين، أو يطوق بالقمح، والقمح رمز النغمة الشتوية. وهذا ما قد يجعل المرء يظن أن الفرس مثله مثل الحمار يمثل الشتاء. لكن هذا ليس أكيدًا. فقد رأينا كيف نجا قصير، صاحب جذيمة، حين ركب فرس جذيمة التي أسماها (العصا)، مما قد يعني أن الفرس قد تمثل الصيف المنبعث لا الشتاء الساكن القار. في كل حال، نظل غير قادرين على حسم مسألة الفرس والحمار، وإن كانا الشيء ذاته ميثولوجيًا، أم أنهما نقيضان.

إذن، فنحن نختلف من جديد مع الواقدي. لقد اختلفنا معه بشأن الإله (نسر)، ثم بدا وكأننا يمكن أن نتفق معه في شأن يغوث، لكن ها نحن نختلف معه بشأن (يعوق) أيضا. فهو يقول لنا إن الحد الأوسط، أي يعوق، يتمثل بفرس، وها نحن نصل إلى أن الفرس حد طرفي قد يكون مماثلا لنسر أو يغوث!

في كل حال، يبدو أننا نتوصل إلى أن ثالوث قوم نوح يساوي ثالوث مكة الجاهلي:

يغوث يعوق نسرا

اللات العزى مناة.

twitter @baghdad_library

فصل 23

سجاح ورحمان اليمامة

(أغلم من سجاح)

مثل قديم

إذا كانت المصادر العربية تبدي كثيرا من التشويش بشأن كهنة العرب ومتنبئيهم قبل الإسلام، فإنها تبدي قدرا عاليا من العداء فيما يخص مثل هؤلاء بعد البعثة، بحيث يصعب علينا أن نفرق بين ما تقدمه من حقائق وبين التشنيع الديني والسياسي. ويزداد الأمر صعوبة حين يتم الحديث عن ثلاثة متنبئين من هؤلاء شاركوا في حرب الردة، وواجهوا الدين الجديد بالسيف، وهم: مسيلمة الكذاب وقرينته سجاح، والأسود العنسي. فهؤلاء لعنوا بأشد اللعنات، وأضيفت إليهم مخازٍ عديدة في سياق الحرب المستعرة معهم. ويجب أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار حين نوِد أن نكون صورة حقيقية ما عنهم.

وفيما يخص (سجاح)، فهناك خلافات حول نسبها. غير أن ثمة اتفاقا على أنها تميمية، وعلى أن لها علاقة بتغلب، فهم أخوالها. ورغم أنها شاركت في حرب الردة، فإنه لا أحد يقول لنا إنها أسلمت ثم ارتدت. فقد تكهنت فيما يبدو قبل البعثة النبوية بزمن، ثم تابعت حتى حرب الردة. وتجمع المصادر العربية على أن سجاح هو اسمها الأصلي. لكننا نعلم أن الاسم سجاح كاسم لكاهنة قديم جدا. إذ يخبرنا السهيلي في الروض الآنف أن كاهنة بهذا الاسم كانت موجودة أيام جد الرسول عبد المطلب، في وقت قصة التضحية بابنه عبد الله والد الرسول: (وأما الكاهنة التي تحاكموا إليها بالمدينة فاسمها: قطبة. ذكرها عبد الغني في كتاب الغوامض والمبهمات، وذكر ابن إسحق في رواية يونس أن اسمها: سجاح).[1] من هنا نحن نشك في أن يكون سجاح هو الاسم الأصلي للكاهنة التميمية، أي اسمها بالولادة، معتقدين أنه اسم كهانة ديني. أي أننا نفترض وجود إلهة باسم سجاح كانت تكهن لها التميمية وتسدن لها. إذ يسمى الكهنة عادة بأسماء آلهتهم،

باعتبارهم ممثليهم على الأرض. مصداقا لهذا يخبرنا رنيه ديسو في تعليق له على إله يدعى (رحم، رحام):

(وقد اقترح الأستاذ نولدكه أن يقرأ رحّام لا رحام. لكن هذا الأمر لا يزال قيد البحث، ولم يبت فيه بعد. وهذا الإله معروف في السبئية. وعلى هذا ففي مجموعة النقوش السامية، الرابع، ٥٠، ٤٠ نجد... «رحام سوجوح»).[٢]

سوجوح! يبدو لنا أن هذا الاسم هو اسم سجاح ذاته، لكن في لهجة عربية قديمة. وهكذا فلدينا كاهنة يمامية من عهد الردة تدعى سجاح، وكاهنة أخرى بالاسم ذاته في عهد عبد المطلب تُدعى باسم إلهة تُدعى سوجوح، الذي هو تنويع على سجاح، ما لم تكن الحركات أضيفت من الباحثين، أي ما لم يكن الاسم هو (سجح) أي سجاح، ثم قدرت الحركات فقرئ سوجوح. هذا يعني أن سجاح قرينة مسيلمة كانت كاهنة لإلهة باسم سجاح الإلهة.

المشكلة أننا لا نعلم عن هذه الإلهة التي تدعى سجاح شيئا سوى اسمها. لذا فنحن ملزمون بالذهاب إلى اللغة علها تلقي عليها نورا ما. والجذر سجح في العربية يفيد التوسط والاعتدال والعدالة. يقال: وجه أسجح أي مستوي الصورة. ويقال: خل له عن أسجح الطريق، أي وسطه وسنته. وهذا يتوافق مع فكرة الحد الأوسط، ومع فكرة العدالة والتوازن. كما أن الجذر سجح يعطي معنى سجع وهدل. يقال: سجحت الحمامة وسجعت. وهذا يعني أن سجاح تعني اليمامة والحمامة. وهذا يذكر بزرقاء اليمامة مثيلة إيزيس، التي كانت على علاقة باليمامة الطائر، كما رأينا في فصل آخر. وكل هذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الإلهة (سجاح) هي طراز من العزى- إيزيس، أي أنها حد أوسط ضمن الثالوث وأنها تتمثل بطائر.

مسيلمة الكذاب

تقول لنا المصادر العربية إن مسيلمة، المتنبئ، الكذاب تزوج سجاح التميمية، وأقام معها حلفا ضد المسلمين بعد وفاة الرسول. فهي بعد أن كانت متنبئة لحسابها صدقت مسيلمة ووافقته على نبوته. لكن بعض المصادر تقول العكس، أي أن مسيلمة هو من تبعها.

ويسمى مسيلمة باسم (رحمان اليمامة) تمييزا له عن الأسود العنسي (رحمان اليمن)، الذي تنبأ مثله وشارك في حروب الردة. فاسم رحمن عند الاثنين ليس اسما أصليا، بل

twitter @baghdad_library

هو اسم كهانة. أي أنهما حصلا عليه حين تكهنا للإله الرحمن. فالكاهن ممثل بشري لإلهه، لذا فهو يأخذ اسمه.

ونحن نعرف بالفعل أن هناك إلها في النقوش العربية الجنوبية يدعى (رحمان). ويرى د. جواد علي: (أن مسيلمة كان قد دعا إلى عبادة الرحمان متأثرا بدعوة المتعبدين له على ما يظهر... فوصف مسيلمة بالرحمان وبرحمان اليمامة).[٣]

لكن الأمور لم تكن تتم في الماضي، فيما نعتقد، عبر الدعوات، بل عبر التقاليد، أي عبر العائلات الكهنوتية. فالكهانة مسألة وراثية في الغالب. لذا، فنحن نفترض أن مسيلمة ربما كان السليل الأخير لعائلة تكهن للرحمان. وإذا كان هناك من يقول إن (سجاحا) ما كانت في المدينة وقت طفولة والد الرسول، فإن هناك دلائل على أن رحمانَ غير مسيلمة، ربما كان موجودا في ذلك الوقت في مكة أيضا. فقد أخبرنا الرواة أن مسيلمة الكذاب كان: (يسمى بالرحمان قبل مولد عبد الله والد رسول الله). ويستغرب د. جواد علي هذا التصريح فيعلق قائلا: (ولا يعقل قول من قال إن مسيلمة كان يعرف بالرحمان قبل ولادة عبد الله، والد الرسول. أما أنه كان أسن من الرسول، فلا غرابة في ذلك. ولكنني لا أقبل أنه أكبر من الرسول بعشرات السنين. ومن الجائز أن يكون قد دعا إلى عبادة الرحمان، وهي عبادة كانت شائعة في اليمامة وفي غير اليمامة... وذلك قبل نزول الوحي).[٤]

والحق مع الدكتور جواد علي في أنه لا يمكن أن يكون مسيلمة أكبر من الرسول بعشرات السنين. فالرسول مات في الثالثة والستين، ثم بدأت حرب الردة. وعليه يكون مسيلمة قد جاوز المائة بكثير لو أنه كان يتنبأ وقت طفولة والد الرسول. ورجل في مثل هذا العمر لا يمكن أن يكون محاربا في حروب الردة. ويبدو أن المصادر العربية قد أحست بهذا التناقض فزادت من عمره إلى أن أوصلته إلى مائة وخمسين سنة، كي تسمح بوجوده وقت طفولة والد النبي، ووقت حرب الردة. فوق هذا لماذا يكون رحمان اليمامة قاعدا في مكة؟ فهل كان يزورها؟ أم أننا بصدد رحمان آخر مكي؟ وفي رأينا أنه عن طريق افتراض رحمانين لا رحمان واحد يمكن حل التناقض. أي أنه كان هناك رحمان مكي في طفولة والد الرسول في مكة، غير مسيلمة رحمان اليمامة. ولا بد أن رحمان مكة هذا كان قرين سجاح المدنية التي وجدت في وقت قصة التضحية بعبد الله والد الرسول أو مثيلة لها في مكة. وهذا يعني أن مسيلمة الكذاب اليمامي كان يواصل تقليدا قديما، وأن سجاح زوجه كانت تواصل تقليدا قديما هي الأخرى أيضا. وفي هذا التقليد يكون الرحمان دوما زوجا لسجاح، سواء كان يماميا أم مكيا.

بناء على ما قلناه جميعا فإن الحلف بين سجاح ومسيلمة يبدو حلفا دينيا بين كاهني إلهين، ذكر وأنثى، يجدد تقليدا مغرقًا في القدم. هذا يعني أنه ليس حلفا طارئا قام على أساس المصلحة السياسية فحسب، بل هو تقليد يتجدد في كل جيل. ففي كل جيل، يكون هناك كاهن يدعى رحمان وكاهنة تدعى سجاح يقترنان معا كممثلين لإلهين قرينين، ذكر وأنثى. وعلى الأغلب فقد كان هذا التقليد في أكثر من مكان، دليل ذلك أننا توصلنا إلى وجود رحمان وسجاح في مكة و المدينة أيام والد الرسول صلى الله عليه وسلم.

بذا علينا أن نشك فيما تقوله المصادر العربية حول كون حلف مسيلمة وسجاح كان حلفا طارئا وذا طابع سياسي. يقول الصفدي في الوافي بالوفيات عن مسيلمة إنه قال لسجاح: (فقال: أتزوجك فنأكل بقومي وبقومك العرب. قالت: نعم).[٥]

وتكنى سجاح بأم صادر. ويقال إنه كان لها زوج قبل مسيلمة. يقول ابن المطهر في البدء والتاريخ: (وتكنى أم صادر وزوجها أبو كحيلة كان كاهن اليمامة. وقال وتنبت سجاح، وكانت ساحرة).[٦] ولو صدقنا هذا الخبر فلا بد أن يكون أبو كحيلة (كاهن اليمامة) هذا كاهنا للرحمان أيضا. وحين مات حل مكانه مسيلمة ككاهن لهذا الإله، وتزوج سجاح تبعا للتقليد القديم ذاته. وإذا كان زواج مسيلمة بسجاح (أم صادر) تم في حرب الردة فعلا، فيجب أن يكون زوجها الكاهن قد مات قريبا من تلك الفترة، وأعقب ذلك زواجها من مسيلمة بناء على التقليد القديم، وليس انطلاقا من مصلحة طارئة. فحين يموت كاهن الإله، فلا بد من كاهن آخر يحل محله، ويتزوج كاهنة الإلهة. ومن المنطقي أن نفترض أنه من عائلة الكاهن القديم.

وهناك احتمال لأن يكون الاسم (صادر) الذي كنيت به سجاح على علاقة بالحمامة مثله مثل اسم سجاح ذاته. قال الشاعر:

أإن غردت في بطن وادٍ حمامة بكيت ولم يعذرك في الجهل عاذر

تعالين في عبرية تلع الضحى على فنن قد نعمته الصدائر

وقد فسرت كلمة صدائر، واحدها صادرة وصديرة، على أنها الأعالي. وهذا غير مقنع، إذ كيف بإمكان الأعالي أن تنعم الفنن؟ نحن نظن أن الصدائر هنا ربما تكون الحمامات. فالحمامات نعمن الفنن من كثرة وقوعهن عليه ووقوفهن فوقه. لو صح ذلك، يكون الاسم (أم صادر) ذا مغزى ديني يربط سجاح بالحمامة، كما هو الحال مع الاسم سجاح الذي يعني الحمامة أيضا.

twitter @baghdad_library

وتروي المصادر العربية الكثير عن زواج مسيلمة بسجاح، فتظهره كزواج فاسق ملعون. وتظهر سجاح كامرأة داعرة فاسقة. ومن الواضح أن في هذا الكثير من التشنيع النابع من الصراع الديني والسياسي. وثَم مثل عربي معروف عن سجاح يقول (أغلم من سجاح)، أي أكثر شهوة ورغبة في النكاح من سجاح. وقد اتخذ المثل وسيلة للتشنيع عليها. ونحن نظن أنه مثل قديم، يتعلق بالإلهة ذاتها. فالغلمة ترمز إلى الطاقة الجنسية للإلهة. أي أن المثل لم يكن في الأصل سبة مطلقا، بل كان وصفا للإلهة ذاتها، الأمر الذي يعني بداهة أنه وصف لكاهنتها أيضا. وهكذا فقد أعطانا تقليد سجاح التميمية معلومة محددة عن طبيعة الإلهة القديمة سجاح (سوجوح)؛ إنها إلهة للخصوبة الجنسية. ووصف هذه الإلهة وكاهنتها بالغلمة يشبه وصف الشعريين، العبور والغميصاء بالمشبوبتين، فالاسم يشير من ناحية إلى ضوئهما، لكنه يشير من ناحية ثانية إلى هيجانهما الجنسي. وعليه، فما هو وصف للفعالية الجنسية للإلهة يصبح عند المصادر العربية كما لو أنه سبة.

ولدينا وصف محدد من سترابو عن طقس زواج بين كاهنين عربيين، ذكر وأنثى، يعيشان في حائط نخيل. فهو يتحدث عن (السراكينوس)، أي أعراب ساحل البحر الأحمر، بالقول:

(وبالقرب من بوزيديوم ثمة كرم نخيل، مروي جيدا بالماء الثمين، فالمنطقة عالية وجافة ولا ظل فيها. وفي هذا الكرم فإن الخصوبة رائعة. ويعين رجل وامرأة لحراسة الكرم بالوراثة. وهما يرتديان الجلود، ويعيشان على التمر، وينامان في أكواخ على الأشجار. وبسبب الأعداد الكثيرة للوحوش فإنهما يبنيان كوخهما هناك على الأشجار، وينامان فيه).[٧]

من الواضح أننا لسنا بصدد حراسة عادية هنا، بل بصدد حراسة دينية، أي كهانة. فالمرأة والرجل هما كاهنا إلهين، وممثلاهما البشريان. وحديث سترابو عن أنهما يعينان بالوراثة يؤكد أن المسألة مسألة كهانة. فليس من المعقول أن يكون شرط الوراثة موضوعا لحراسة عادية. ووجود كهانة وراثية يدعم شكنا فيما ترويه المصادر العربية من أن زواج سجاح ومسيلمة تم لظرف طارئ تعلق بحرب الردة. كما أنه يدعم أن مسيلمة كان كاهنا للرحمان خلفا لواحد من عائلته، وأن سجاح هي الأخرى كذلك، وأن قرانهما أمر محسوم ما داما كاهنين لإلهين قرينين.

ومن المؤكد أن زواج سجاح ورحمان اليمامة تم في حديقة رحمان اليمامة (حديقة الموت) في أباض، التي سنتحدث عنها بعد قليل، تطبيقًا لهذا التقليد الديني القديم. ونحن نعتقد أن حديقة مسيلمة التي تسمى (حديقة الموت) هي من نفس طراز (كرم

النخيل) الذي تحدث عنه سترابو. ووصفها في المصادر العربية يوحي بأنها من الطراز ذاته. يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: (الحديقة: بستان كان بقَنَا حجر من أرض اليمامة لمسيلمة الكذاب كانوا يسمونه حديقة الرحمان وعنده قُتل مسيلمة فسموه حديقة الموت).[٨] إنها حديقة الرحمان، إذن. وهذا يعني أنها حديقة الإله الذي يدعى الرحمان، أي حماه. ومسيلمة هو كاهن هذا الإله وممثله البشري. يضيف ياقوت في مكان آخر عن هذه الحديقة: (لها نخل لم ير نخل أطول منها).[٩] أي أنها خصبة مثل كرم سترابو. فسترابو يقول عن الكرم (وفي هذا الكرم فإن الخصوبة رائعة). ووجود النخل علامة على عبادة أوزيريسية ما. فنحن نعلم أن النخلة على علاقة وطيدة بإيزيس. وأن اسم طائرها (الفينيق) يعني باليونانية: الطائر، اللون الأحمر، والنخلة.

حديقة الموت

سميت هذه الحديقة(بحديقة الموت) بسبب المذبحة التي حصلت فيها، حسب المصادر العربية. يقول البلاذري في فتوح البلدان: (وألجئوا { أي المسلمون} الكفرة إلى الحديقة فسميت يومئذ حديقة الموت، وقتل الله مسيلمة في الحديقة).[١٠] ويضيف في مكان آخر: (سميت الحديقة حديقة الموت لكثرة من قتل بها. قال: وقد بنى إسحاق ابن أبي خميصة، مولى قيس، فيها أيام المأمون مسجداً جامعاً، وكانت الحديقة تسمى أباض).[١١] وعليه، فللحديقة اسم آخر غير اسم (حديقة الرحمان) هو (حديقة أباض). يؤكد هذا أسامة بن منقذ في لباب الآداب: (وقد قُتل أكثر أصحاب مسيلمة والتجأ منهم نحو من سبعة آلاف إلى حديقة الموت. وإنما سميت حديقة الموت لكثرة من قتل بها، وكان اسمها قبل ذلك أباض).[١٢] لكن ياقوت في معجم البلدان يتحدث لنا عن أباض، في موضع آخر، باعتبارها قرية: (أباض: بضم الهمزة وتخفيف الباء الموحدة وألف وضاد معجمة اسم قرية بالعِرض عِرض اليمامة لها نخل لم ير نخل أطول منها. وعندها كانت وقعة خالد بن الوليد رضي الله عنه مع مسيلمة الكذاب).

إذن، فالحديقة سميت بحديقة أباض على اسم القرية، ما لم تكن القرية ذاتها قد سميت باسم الحديقة. وإذا كانت قد سميت باسم القرية، فلا بد أن يكون لها اسم غير اسم (حديقة أباض). وهذا قد يفتح احتمال أن يكون اسمها الأصلي هو (حديقة الموت)، أي أنه ليس اسما نتج عن المعركة. هذا واحد من الاحتمالات. غير أنه مجرد احتمال لا غير. ولعل النظر في جذر (أبض)، أن يعطينا معنى ما لو تأملناه. يقول لسان العرب:

twitter @baghdad_library

(والأَبض... أَن تشد رسغ يده إِلى عضده حتى ترتفع يده عن الأَرض، وذلك الحبل هو الإِبَاض).[١٣] لكن اللسان يعطينا أيضا معاني أخرى أقرب إلى المفاهيم الدينية: (ابن الأَعرابي: الأَبْض الشد، والأَبْض التَّخلية، والأَبْض السكون، والأَبْض الحركة؛ ابن سيدة: والأُبْض، بالضم، الدهر).[١٤]

وهذه المعاني: (السكون، الدهر) قد تدعم القول بأن (حديقة الموت) هو اسم أصيل للحديقة. وعليه فربما كان الاسمان (حديقة الموت) و(حديقة أباض) اسمين أصليين للحديقة يعنيان: الحديقة الأبدية، الحديقة الإلهية، أو حديقة الآلهة في عالم الأموات، أو حديقة ملوك عالم الموتى. ولعل المعاني المتضادة للجذر (أبض) أن تدل على الطابع الميثولوجي لها. فالأبض: الشد والترخية، والحركة والسكون. والأساس الأعمق للتضاد في اللغة العربية هو أساس ميثولوجي. فهو يعكس المعاني المتضادة للطقس الميثولوجي ذاته.

رحمان اليمن

إذا كنا نصادف قدرا كبيرا من الغموض في معرفة الديانة التي كان يدعو إليها رحمان اليمامة، فربما كنا قادرين على إلقاء ضوء عليها من خلال الأسود العنسي المتنبئ اليمني. فهما، فيما يبدو، كانا يعبدان الإله ذاته. إذ تجمع المصادر العربية على أن الأسود العنسي هو رحمان اليمن في مقابل مسيلمة رحمان اليمامة. يقول لنا البلاذري في فتوح البلدان: (وسمى نفسه رحمان اليمن كما تسمى مسيلمة رحمان اليمامة).[١٥] ويقول الصحاري في الأنساب: (وسمى نفسه رَحْمان اليمن، كما سمي مسيلَمة من اليمامة).[١٦] لذلك تضطرب المصادر الإسلامية في أي منهما نزلت آية ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾، فهل نزلت باليماني أم اليمامي. يقول الزمخشري في الكشاف عن الذي افترى الكذب هذا: (وهو مسيلمة الحنفي الكذاب، أو كذاب صنعاء الأسود العنسي).[١٧]

إذن، فالمصادر العربية تدرك بوضوح تماثل هذين الكاهنين. وهذا ما قد يسمح لنا بسد نقص معلوماتنا عن ديانة مسيلمة عبر الأسود العنسي، والعكس صحيح ربما. وكما هو الحال مع مسيلمة، فإننا نفترض أن الأسود العنسي كان يتابع، بادعائه النبوة، تقليدا عنسيا قديما، أي أن ما قام به لم يكن وليد حرب الردة. لكن ربما منحته الحرب فرصة استعادة مجد عائلته الديني. ونحن نعرف أن قبيلة عك، التي عنس فرع منها، كانت تعبد إلها يدعى الرحمان. وقد أخبرنا اليعقوبي أن: تلبية عك والأشعريين، كانت: **نحج**

للرحمان بيتا عجبا/ مضببا مستترا محجبا/

ويقول د. جواد علي تعليقا على هذا: (وفي التلبيتين {تلبية عك وقيس عيلان} المذكورتين دلالة على اعتقاد القوم بإله واحد يدعى الرحمان).(١٨) وهذا يعني أن الأسود العنسي كان يعبد إله قبيلته القديم، ويدعو إليه.

وأهم ما وردنا عن الأسود العنسي هو أن له شيطانين، أي ملكين يوحيان إليه. يخبرنا السمعاني في أنسابه أنه حكي: (أن الأسود العنسي كان معه شيطانان يقال لأحدهما سحيق وللآخر شقيق).(١٩) ويضيف ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق: (وكان معه شيطانان يقال لأحدهما سحيق وللآخر شقيق، وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمر الناس).(٢٠) ونحن نفترض أن وجود شيطانين، أو ملاكين، إشارة محددة إلى وجود مظهرين للرحمان إله العنسي. وهذا ما قد يشير إلى إله أوزيريسي الطابع. ولسنا متأكدين من ضبط الاسمين (سحيق وشقيق). أو أننا على الأقل غير متأكدين من ضبط الاسم الثاني. ففي الروض الآنف للسهيلي نجد أن (شقيقا) يصبح شريقا: (وكان يقال له {أي للعنسي} ذو الخمار، ويلقب: عيهلة، وكان يدعي أن سحيقاً وشريقاً يأتيانه بالوحي).(٢١)

والأسماء تصبح عنصرا حاسما حين تكون معلوماتنا شحيحة، لذا فإن أي تصحيف قد يقودنا إلى الطريق الخاطئ. ونحن في الواقع أقرب إلى أن نفترض أن صيغة السهيلي هي الأصح، أي (شريق). وهو اسم علم معروف. وجذر شرق يعطي عدة معان بالعربية من أهمها الغصة بماء الريق والغرق. يقول لنا لسان العرب: (الشرق بالماء والريق... يقال: أخذته شرقة فكاد يموت. ابن الأعرابي: الشُّرُق: الغرق. قال الأزهري: والغرق أن يدخل الماء في الأنف حتى تمتلئ منافذه).(٢٢) وهذا ما قد يشير إلى مظهر صيفي فيضي لإله من طراز أوزيريسي. لكننا لسنا متأكدين من ذلك. وفي النصوص المصرية القديمة: (أن أوزيريس غرق في مياهه).(٢٣)

وعليه، فشريق الأسود العنسي قد يكون رمزًا للمظهر الصيفي للإله، وإن كنا غير متأكدين من ذلك.

يصادق على هذا الاستنتاج أن لدينا صنم عربي يدعى: (الشارق). بل إن هناك صنما يدعى (الشريق) بالضبط، أي باسم شيطان الأسود العنسي بالضبط. وحين نجد صنما يسمى باسم شيطان رحمان اليمن، فلا بد أن نقدر أن هذا الصنم يمثل هذا الشيطان-الإله. يقول لنا ابن دريد في جمهرة اللغة: (والشّارق: صنم كان في الجاهلية. وبه سمّت العرب عبد الشّارق. هكذا يقول ابن الكلبي. وشَرِيق: اسم أيضاً).(٢٤) أما الزبيدي في تاج

twitter @baghdad_library

العروس، فيقول: (والشريق، كأَمير: اسمُ صَنَم).[٢٥] ويؤيد ذلك لسان العرب: (والشريق اسم صنم أيضا)[٢٦]

ويبدو لنا أن الشارق والشريق تنويع على الاسم نفسه، أي على اسم أحد مظهري الإله الذي كهن له العنسي. وإذا كان هناك عبد الشارق، فلا يستبعد أبدا أن يكون هناك أيضا عبد الشريق.

سراقينوس

ولعل هذا الاسم (الشارق، الشريق) أن يحل لنا لغز تسمية العرب بـ (سراكينوس) عند المؤرخين اليونان والرومان. وقد ذكرنا من قبل عند الحديث عن كاهني الكرم أن سترابو يدعو العرب (سراكينوس). وقد اختلف الباحثون أيما اختلاف في هذا الاسم، فبعضهم اعتبروا أنه يعني (الشرقيين). لكن آخرين اعتبروا أنه يعني (السرّاقين)، أي اللصوص، على أساس أن الرومان كانوا يرون في الأعراب على حدودهم لصوصا. وفي هذا الرأي ما فيه من العنصرية. لكن وجود صنم (الشارق، الشريق) يجعلنا نطرح احتمال أن يكون الاسم سراكينوس على علاقة به. أي أن الاسم ربما عنى الشريقيين أو الشارقيين، أي عبدة الإله (الشارق، الشريق)، الذي هو أحد مظهري إله أوزيريسي الطابع.

وإذا كان الشارق هو أوزيريس في نغمته الصيفية، فإن (سحيقا) ينبغي أن يكون أوزيريس في نغمته الشتوية. يدعم هذا أن سحيقا يبدو مرتبطا بالأعاصير. يقول ابن خلدون: (فجاء الأسود شيطانه في إعصار من الريح وهو على قصر ذمار، فأخبره بموت باذان).[٢٧] أما السمعاني في الأنساب فيقول: (فجاء الأسود شيطانه في إعصار من الريح فأخبره بموت باذان).[٢٨]

ويبدو لنا أحيانا أن هذين الشيطانين ربما كانا على علاقة بغرابي عك اللذين ورد ذكرهما في تلبية عك، القبيلة التي عنس بطن منها. فقد كانت عك، على حسب الكلبي في الأصنام، إذا خرجوا حجاجا، قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركبهم. فيقولان: نحن غرابا عك! فتقول عك من بعدهما:

عك إليك عانيه/ عبادك اليمانية/ كيما نحج الثانية.

وسوف نرى في فصل آخر أن الصراع بين قابيل الشتوي وهابيل الصيفي يأخذ شكل صراع بين غرابين.

مهما يكن، فرحمان اليمامة يبدو كاهنا لإله بمظهرين، صيفي وشتوي، هما (سحيق وشريق). وإذا افترضنا أن رحمان اليمامة شبيه رحمان اليمن، فلا بد أن له هو الآخر شيطانين، مثل الأسود العنسي، لكنهما ضاعا، ولم يصل إلينا خبر عنهما.

الأسود

تتفق المصادر العربية على أن العنسي يدعى بالأسود. وقد اعتقدت هذه المصادر أنه دعي بالأسود بسبب لون وجهه. يقول الصحاري في الأنساب: (وسمي الأسود لأنه كان أسود الوجه).[٢٩] ويؤكد البلاذري في فتوح البلدان هذا الرأي. يقول: (وأخبرني بعض أهل اليمن أنه كان أسود الوجه، فسمي الأسود للونه).[٣٠] نحن نشك في هذا التفسير. فلو كان العنسي أسود اللون لكانت المصادر العربية، المعادية لسواد اللون، قد استفاضت في هذا الأمر ووصفته بالحبشي، أو غير ذلك من الأوصاف. ونعتقد أنه يوصف بالأسود لأن إلهه يوصف بالسواد. وهذا يعني أن سواده رمزي لا حقيقي. وربما كان غرابا عك اللذين ذكرناهما أعلاه على علاقة بسواد الأسود العنسي.

ذو الخمار

نأتي الآن إلى خمار العنسي أو حماره. وهنا تتجلى مشكلة التصحيف المؤلمة في العربية. ذلك أن المصادر العربية تقول إن العنسي كان يدعى ذا الخمار أو ذا الحمار. ونحن لا ندري إن كان التصحيف قد حول الخمار إلى حمار، أم أن ثمة حمارا بالفعل. يقول لنا الصحاري في الأنساب عن العنسي: (وهو ذو الحِمار، وذلك أنه كان له حمار معلم، يقول له: أسجد لربك. فيسجد، ويقول له أبرك. فيبرك، فسمي ذا الحمار. ورواه: ذو الخِمار).[٣١] ويبدو أن ابن خلدون في تاريخه لم يكن مقتنعا بصحة وجود حمار، فتجاهل ذكره وركز على الخمار. يقول: (كان الأسود العنسي، واسمه عيهلة بن كعب، ولقبه ذو الخِمار، وكان كاهناً مشعوذاً يفعل الأعاجيب، ويخلب بحلاوة منطقه).[٣٢] أما ابن المطهر في البدء والتاريخ فيحل المسألة عن طريق الإقرار بوجود حمار وخمار معا: (ويقال له ذا الخمار. وذلك أنه كان يلقي خماراً دقيقاً على وجهه ويهمهم فيه... وكان له حمار يقول له: أسجد فيسجد، ويقول: أجث فيجثو، فافتتن الناس بخماره وحماره).[٣٣] ونحن إذ كنا نشك في وجود الحمار، فإننا ما نكاد نشك بوجود الخمار.

twitter @baghdad_library

ذلك أن المتنبئين من طراز متنبئي ديانة أوزيريس عادة ما يضعون خمارا على وجوههم. وموسى بني إسرائيل كان واحدا من هؤلاء:

(ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا. وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج. ثم يخرج ويكلم بني إسرائيل بما يوصي. فإذا رأى بنو إسرائيل وجه موسى يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه).[٣٤]

وهكذا فالخمار من مستلزمات الكهانة وتلقي الوحي. ومن أجل ذلك فقد فتن الناس بالخمار، أي بالنبوءات التي يأتي بها صاحب الخمار. ويبدو أن المقنع الذي ثار بخراسان على عهد المهدي كان يتابع تقليد ذي الخمار اليمني. يقول الجاحظ عنه:

(وكان المقنع الذي خرج بخراسان يدّعي الرّبوبية، لا يدع القناع في حال من الحالات... وهذا المقنع كان قصارا من أهل مرو، وكان أعور ألكن).[٣٥] ويضيف المحقق في الهامش:

(وكان أعور قصارا... وكان قد عرف شيئا من الهندسة والحيل والنيرنجات، فادعى لنفسه الإلهية عن طريق التناسخ، واحتجب عن الناس ببرقع من حرير).[٣٦] والعنسي كان مخمرا ببرقع.

عيهلة

يتبقى أن نقول إن الأسود العنسي يدعى (عيهلة)، أو (عيهل). ويخبرنا لسان العرب أن:

(العَيْهل والعيهلة النجيبة الشديدة، وقيل: العيهل الذكر من الإبِل، والأُنثى عيهلة، وقيل: العيهل الطويلة، وقيل: الشديدة... وناقة عيهلة: ضَخْمة عظِيمة). ويضيف عن آخرين: (ويقال للمرأَة عيهل وعيهلة؛ ولا يقال للناقة إلاّ عيهلة).[٣٧] لكن الخليل في العين يناقض هذا: (فأما الناقة فلا يقال إلا عيهَل بغير الهاء).[٣٨] أي أن العيهلة هو البعير الذكر. وهذا يعني أن اسم عيهلة على علاقة بالجمل. وقد علمنا من قبل أن حديقة مسيلمة (أباض) على علاقة لفظية بشيء يخص الإبل. فالأباض هو الحبل الذي تعقل فيه يد الفحل، كما ذكر لنا لسان العرب من قبل: (وهو عِقَال يُنْشَب في رسغ البعير).[٣٩] وهذا ما قد يشير إلى أن رب مسيلمة (الرحمان) ربما يكون هو الآخر على علاقة بالإبل.

وقد رأينا من قبل أن سهيلا اليماني، أي أوزيريس العربي، مرتبط بالجمل. بل إنه يدعى بـ (الفحل)، أي الجمل الذكر.

twitter @baghdad_library

فصل 24

النبي الذي ضيعه قومه

(بدا بدا، كل هدي مؤدى، زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي تندا)

خالد بن سنان العبسي

انطلاقا من الفصول السابقة ربما نكون في موقع يؤهلنا لفهم خالد بن سنان العبسي أشهر أنبياء الجاهلية في المصادر العربية، أو (النبي الذي ضيعه قومه) حسب عبارة شهيرة جدا منسوبة إلى الرسول. إذ تقول الروايات العربية إن ابنة خالد بن سنان هذا جاءت إلى الرسول، وعرفت عن نفسها، (فبسط لها رداءه وقال: هذه ابنة نبي ضيعه قومه).[١]

ونحن نشك شكا عاليا جدا في أنه كان هناك شخصية واقعية تدعى خالد بن سنان. فكل شيء يدل على أننا أمام شخصية ميثولوجية، وأمام تقليد ميثولوجي جاهلي يتم إلصاقه بالرسول. دليل ذلك أن هناك من يروي قصته على أنها حدثت في شمال سوريا، لا في أرض بني عبس في الجزيرة العربية. يقول ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب: (كان نبياً في الفترة، ويقال إنه كان بمنبج وأن قبره بها، وموضع قبره بمنبج معروف من شرقي المدينة وعليه مسجد يزار).[٢] ووجود مشهد له في حلب يدلل على أن الأمر يتعلق بشخصية ميثولوجية يمكن إن يكون لها ضريح في أكثر من مكان.

وفي مقدورنا لنا أن نختصر لنقول إن كل شيء يوحي بأن النبي العبسي تمثيل لإله من طراز مطعم الطير المكي. أي أنه تمثيل للمظهر الشتوي القار الساكن لأوزيريس. ومختصر أسطورة ابن سنان أن نارا اندلعت من الأرض في حرة، فقرر ابن سنان أن يطفئها، فأخذ عصاه وتبعها يضربها، حتى زحمها في بئر أو شق في صخرة، ودخل معها إلى هناك، وطال مكثه حتى ظن من معه أنه لن يعود، لكنه عاد يقطر عرقًا، وقال جملته الشهيرة (زعم ابن راعية العزى أنني لن أخرج)، أو ما أشبه ذلك. لكن هناك اختلافات

بعد ذلك في التفاصيل. فهناك من يقول إنه قال جملته هذه قبل أن يدخل في البئر، وإنه لم يعد بعدها، وإنما قال إنه سيعود وهو يطفر عرقا.

نار الحرتين

ويبدو لنا أن اضطرابا جدا فيما يخص اسم النار. فبعض المصادر يقول إنها (نار الحرتين)، وبعضها يقول (نار الحدثان). وثَم من يجمع الاسمين معا، كما هو الحال مع النويري في نهاية الأرب: (وكانت للعرب نار عظمى تسمى نار الحرتين وهي التي أطفأها الله تعالى بخالد بن سنان العبسي. وكانت حرة ببلاد عبس، وتسمى حرة الحدثان).[٣] وكما نرى، فهناك حرة تسمى (حرة الحدثان)، تندلع فيها نار تدعى (نار الحرتين).

ويكاد المرء يعتقد أن (الحرتين) و(الحدثان) شيء واحد في الأصل، وأن أحدهما تصحيف للآخر. وربما يكون التعبير في الأصل (نار الحِدثان) وليس (نار الحرتين). ذلك أنه لا توجد في الروايات سوى حرة واحدة دوما، رغم الحديث عن حرتين. وإذا كان الاسم هو فعلا (نار الحدثان) كما نفترض، فإن من المحتمل جدا أنها تعني النار البدئية. يقول لسان العرب: (كان ذلك في حِدثان أمر كذا أي في حدوثه. وأخذ الأمر بحدثانه وحداثته أي بأوله وابتدائه... حِدثان الشيء، بالكسر: أوله).[٤] لكن هناك احتمالا ما لأن تكون كلمة (الحدثان) على علاقة بالمطر. يضيف لسان العرب: (والأحداث: الأمطار الحادثة في أول السنة).[٥] وهذا قد يتلاءم مع افتراضنا أن خالد بن سنان يمثل إلها أوزيريسيا في مظهره الشتوي. لكن قد يكون لنار الحرتين علاقة ما بالحية الشافية في سفر العدد في التوراة، (أي نحش نحشتان)، والتي تترجم على أنها (الحية النحاسية)، ونظن أنها تعني (حية الحيتين) أي الحية المزدوجة. وما يدفع المرء إلى الظن بعلاقة بينهما أننا في الحالين نتحدث عن أفاع، ثم أن الصيغتين تأتيان بالتثنية: (حرتين)/(نحشتان). وإذا صح هذا تكون نار خالد العبسِّي هي (نار الحيتين). ويؤيد هذا أن (نحش نحشتان) توصف بأنها (حية محرقة)، مثل نار خالد بن سنان. وقد رأينا من قبل أن طلب المطر عند العرب يرتبط بالنار. فقد كان يتم بربط حزمة من ورق السلع في أذناب الأبقار ثم تشعل نار فيها وتدفع الأبقار إلى الصعود إلى جبل، والنار مشتعلة في أذنابها. ويدعى هذا الطقس بطقس التسليع، أو المسلعة. يقول الشاعر:

أجاعل أنت بيـقورا مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر؟

twitter @baghdad_library

وكنا قد ربطنا بين طقس التسليع وعيد الانقلاب الشتوي الفارسي الذي يدعى (صادا، صدا)، والذي تشعل فيه النيران في أذيال الحيوانات. وقلنا إن هذا العيد على علاقة بطقس التصدية الجاهلية التي ورد ذكرها في القرآن: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾. والتصدية على علاقة بالحية المرتبطة بالمروة. والحية في العربية هي (الصدى).

وثَم في أسطورة خالد بن سنان ما يشير إلى أن الروايات العربية كانت تدرك ارتباط نار خالد بن سنان بالفرس وديانتهم، المرتبطة بالنار. يقول ابن الأثير في الكامل في التاريخ: (خالد بن سنان العبسي، قيل: كان نبياً، وكان من معجزاته أن ناراً ظهرت بأرض العرب فافتتنوا بها وكادوا يتمجسون، فأخذ خالد عصاه ودخلها حتى توسطها ففرقها، وهو يقول: بداً بداً، كل هدي مؤدى).[٦] كادوا يتمجسون! فهذه النار، إذن، مثل نار احتفال (صادا) المجوسي. وجذر الربط بين الشتاء والنار، أي بين الماء، والنار، يمكن في البرق الشتوي فيما يبدو. فبه يظهر الشتاء ناريا، تبدأه قدحة نار.

في كل حال، فإن النار التي أطفأها العبسي تبدو كما لو أنها نار تتراجع إلى الأرض حسب وصف النويري في نهاية الأرب: (روي عن ابن الكلبي أنه قال: كان يخرج منها عنق فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمر بشيء إلا أحرقته. وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً فخرج بهم نحوها، ومعه درة حتى انتهى إلى طرفها، وقد خرج منها عنق كأنها عنق بعير فأحاط بهم، فقالوا له: هلكت والله أشياخ بني عبس آخر الدهر! فقال خالد كلا! وجعل يضرب ذلك العنق بالدرة ويقول: بداً بداً، كل هدي الله يؤدى! أنا عبد الله خالد بن سنان! فما زال يضربه حتى رجع، وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قليب، فانساب فيه وتقدم عليه، فمكث طويلاً. فقال ابن عم لخالد، يقال له عروة بن شب: لا أرى خالدا يخرج إليكم أبدا. فخرج ينطف عرقا، وهو يقول: زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج. فقيل لهم بنو راعية المعزى إلى الآن).[٧]

عنق النار هنا يبدو كما لو أنه ماء جارٍ ينسحب إلى مكمنه الأرضي، كما ينسحب النيل الشتوي إلى مغارته إلى الجنوب من مصر. والنص يشبه العنق الناري هذا بالثعبان: (وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قليب، فانساب فيه). وليس هذا التشبيه مصادفة، فالحية والماء شيء واحد. وكلمة (ثعبان) ذاتها تشير فيما يبدو إلى الحية والماء الجاري معا. يقول لسان العرب: (قال الخليل: الثعبان ماء، الواحد ثعب).[٨] ذلك أن جذر (ثعب) العربي يعني: الماء وسيلانه سال. يضيف اللسان: (ثعب

الماء والدم ونحوهما يثعبه ثعبا: فجره، فانثعب كما ينثعب الدم من الأنف.... وماء ثعب وثعب وأثعوب وأثعبان: سائل... والثعب مسيل الوادي، والجمع ثعبان).[٩]

وكل هذا يوحي بأن اسم الثعبان أخذ من السيلان أصلا. فهو يسيل على الأرض كما يسيل الماء.

وفي رواية لابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب ما يدل مباشرة على ارتباط نار خالد بن سنان بالحية: (فإذا هي {أي النار} تخرج من شق جبل في حرة يقال لها حرة أشجع، فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً، فاستقبلها خالد بعصاه فجعل يضربها ويقول: بدا بدا كل هدي مؤدى، زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي تندا).[١٠] فالحرة تدعى (حرة أشجع). والأشجع الحية بالعربية! يقول لسان العرب: (يقال للحية أشجع؛ وأنشد: فقضى عليه الأشجع. وأشجع: ضرب من الحيات... قال شمر في كتاب الحيات: الشجاع ضرب من الحيات لطيف دقيق وهو، زعموا، أجرؤها... والشجاع...: الحية الذكر، وقيل: هو الحية مطلقاً، وقيل: هو ضرب من الحيات).[١١] ويكاد المرء، بناء على كل هذا، أن يتجرأ على القول بأنها لا توجد في الأصل حرة، وأنها صعدت إلى الخشبة تصحيفا؛ أي أن الأصل هو (حية أشجع). أي أن لدينا فقط: نار الحدثان، أي النار البدئية، المرتبطة بحية تدعى: أشجع. أي أن لدينا حية تنساب كالماء ونارًا.

ونحن نعلم بيقين عن وجود حية محرقة، أي حية نارية، كما هي هذه النار- الحية. فقد نقل لنا البيروني في الجماهر في معرفة اللغة نقلا عن جالينوس:

(وذكر جالينوس حية سماها ملكة الحيات وأن من رآها وسمع صفيرها يموت... وقال ابن مندويه في باسيلقون وهو الملك إن هذه الحية سميت بذلك لإكليل على رأسها... حمراء العينين، صفراء اللون إلى السواد، تحرق بانسيابها كل ما مرت به. وكل طائر يمر فوقها يسقط ويموت).[١٢]

ويؤكد هذا القول الجاحظ في الحيوان: (والأعراب تقول في الأصلة قولا عجيبا: تزعم أن الحية التي يقال لها الأصلة لا تمر بشيء إلا احترق).[١٣] من الواضح أن نار خالد بن سنان تشبه الحية المحرقة هذه.

وكنا قد أوضحنا في فصول سابقة أن المظهر أوزيريس الشتوي يتخذ شكل ثعبان، كما هو حال مع مطعم الطير على المروة. وحين لدغت حية الإله رع، الذي يتماهى مع أوزيريس هنا فيما يبدو، قال: (شيء ما لدغني، لكنني لم أره ولم أعرفه. كأنه نار؟!

twitter @baghdad_library

هل هو ماء؟!). ثم تقول له إيزيس: (ماذا جرى؟! ألم يعضك ثعبان، ذلك الشيء الذي خلقته بنفسك فرفع رأسه ضدك؟!). ويجيب رع مكررا: (كنت أمشي في مساري ذاهبا عبر أرضي كما يهوى قلبي لأرى كل ما خلقت وإذ بثعبان يعضني فلم أره. سألت نفسي: أهي نار؟ أهو ماء؟). إذن، فالثعبان الذي عض رع يبدو كأنه (نار وماء) معا! ثم طلبت منه إيزيس أن يعطيها كي تشفيه اسمه السري، اسم القدرة، فحصلت منه عليه. رع هنا مثل أوزيريس. فموته يتم بلدغة ثعبان. وهذا طريقة أخرى للقول بأنه تحول إلى ثعبان، أي دخل في قراره الشتوي. فالثعبان هو مظهره الثاني: (ذلك الشيء الذي خلقته بنفسك فرفع رأسه ضدك).(١٤)

وكشف الاسم السري المقدس أدى إلى فقدان رع القدرة، أي إلى الموت: (أوافق أن تبحث إيزيس عني وأن يمر اسمي إليها. ثم أخفى الإله نفسه عن الآلهة، وكان مكانه في قارب ملايين السنين فارغا). لقد استسلم، وسلم قدرته، أي مات، بعد أن كان قد قال: (الآلهة لا تعرف اسمي).(١٥)

وقد حصل مثل هذا الأمر مع خالد بن سنان. فإذ نطقوا باسمه قتلوه. ففي نسخة بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم من الأسطورة: (وقد كان خالد قال لهم: فإن أبطأت عليكم فلا تدعوني باسمي فأبطأ عليهم فقال لهم عمارة بن زياد: إن صاحبكم والله إن كان حياً لقد خرج إليكم بعد، فادعوه باسمه، قالوا له: إنه قد نهى أن ندعوه باسمه، فدعوه باسمه، فخرج إليهم فقال لهم: ألم أنهكم أن تدعوني باسمي فقد والله قتلتموني).(١٦) لقد عرف اسمه فغاب في الموت.

إذن، فـ (رع) لم يكن يدري إن كانت النار هي التي تسري في بدنه أم الماء البارد. فالاثنان يدفعان إلى الرجفة. سم الحية والماء البارد يجعلان الجسد يرتجف. وهذا هو وضع ثعبان العبسي. فهو يسيل كالماء المتراجع، لكنه نار مشتعلة.

حمار خالد بن سنان

غير أن المصادر العربية تكاد تجمع على نقطة مركزية لم ترد في مختصر الأسطورة التي أخذناها عن النويري، وهي أن خالد بن سنان مرتبط بالحمار. يقول ابن الجوزي في المنتظم عن ابن إسحق:

(عن ابن عباس قال: ظهرت نار بالبادية بين مكة والمدينة، وكانت طوائف من العرب يعبدونها، فقام رجل من عبس يقال له: خالد بن سنان العبسي، فأطفأها ورفع، وقال

لأخوته: إني ميت، فإذا مت فادفنوني في موضعي هذا، فإذا حال الحول فارصدوا قبري، وإذا رأيتم عيراً أبتر مقطوع الذنب عند قبري فاقتلوه وانبشوا قبري، فإني أحدثكم بكل شيء هو كائن. فمات، فدفنوه ثم رصدوا قبره عند الحول، فجاء العير فقتلوه وأرادوا أن ينبشوه، فقال إخوته إن نبشناه كانت سبة علينا في العرب فتركوه).(١٧)

ويضيف ابن الجوزي في رواية أخرى: (إني ميت، فإذا دفنتموني فمر علي ثلاث، فإنه سيجيء عير أبتر، فيقوم على قبري فينهق ثلاث نهقات، فخذوه واذبحوه، وابقروا بطنه، واضربوا به قبري، فإني أخرج إليكم فأحدثكم لما ينفعكم في آخرتكم ودنياكم. فجاء الحمار فنهق فقالوا: انبشوه فقال رهطه: والله لا تنبشوه فيكون علينا سبة).(١٨)

ويزيد ابن الأثير في الكامل في التاريخ متحدثا عن (عانة) أي عن جماعة من الحمير:

(فلما حضرته الوفاة قال لأهله: إذا دفنت فإنه ستجيء عانة من حمير يقدمها عير أبتر فيضرب قبري بحافره، فإذا رأيتم ذلك فانبشوا عني فإني سأخبركم بجميع ما هو كائن. فلما مات ودفنوه رأوا ما قال، فأرادوا نبشه، فكره ذلك بعضهم قالوا: نخاف إن نبشناه أن تسبنا العرب بأنا نبشنا ميتاً لنا، فتركوه).(١٩) أما الجاحظ في الحيوان، فيقول عنه:

(إذا أنا مت ثم دفنتموني، فاحضروني بعد ثلاث؛ فإنكم ترون عيراً أبتر يطوف بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني؛ فإني أخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه، اختلفوا، فصاروا فرقتين، وابنه عبد الله في الفرقة التي أبت أن تنبشه، وهو يقول: لا أفعل إني إذاً أدعى ابن المنبوش، فتركوه).(٢٠)

من الواضح بالنسبة لنا أن الحمار، أو الحمار البري، هو ممثل الإله الذي يكهن له خالد بن سنان. وقد أوضحنا من قبل أن صنم مطعم الطير مرتبط بالحية والحمار. كما أوضحنا أن الإله ذا بكة في بئر الكعبة على علاقة بالحمار. بل أوضحنا أن لهذا الإله جماعة من الحمر السائبة تدعى (حمر الأبك)، أي حمر الإله الذي يبك، وهو ذو بكة. ونذكر أبيات الشاعرة الرجازة:

جربة من حمر الأبك　　لا ضرع فيها ولا مذكي

وها نحن نجد الحمار ذاته على قبر خالد بن سنان. أي أن خالد بن سنان مرتبط بالحية (النار التي تشبه الحية)، وبالحمار. وهذا يعني أنه يشبه ذا بكة، أو أنه كاهن لإله يشبه ذا بكة تماما، الذي نفترض أنه أوزيريس شتوي.

twitter @baghdad_library

وعليه، نفترض أن الحمار الأبتر، أي المقطوع الذنب، هو أضحية ما للإله الذي يمثله خالد بن سنان، أي إله النغمة الشتوية القارة. أما ذنبه فقد قطع كدليل على أنه حيوان أضحية. لقد ضحي به في العيد السنوي لإلهه، عيد الانقلاب الشتوي.

راعية المعزى

غير أن الأشد غموضا في الأسطورة كلها هو الجملة التي قالها خالد بن سنان حين خرج من القليب: (فخرج ينطف عرقا، وهو يقول حسب رواية النويري في نهاية الأرب: (زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج. فقيل لهم بنو راعية المعزى إلى الآن).[٢١] أو حسب رواية ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب:

(فأبطأ علينا فقال ابن عم له: لا يخرج منها أبداً، ثم خرج علينا وقميصاه ينطفان عرقاً، وهو يقول: بدًا بدًا، كل حق هو مؤدى، أنا عبد الله الأعلى، زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها أبداً، قال: فأهل ذلك البيت يدعون ابن راعية المعزى إلي اليوم). وفي رواية أخرى ينقلها ابن العديم أيضا: (فإذا هي تخرج من شق جبل في حرة يقال لها حرة أشجع فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً فاستقبلها خالد بعصاه فجعل يضربها ويقول: بدًا بدًا كل هدي مؤدى، زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي تندا).[٢٢]

وبالمناسبة، فإن اسم سنان ذاته يبدو على علاقة بالشق الصخري. فجذر سنن السامي يعطي معنى الشق الصخري. وفي حديثة عن (طور سينين في القرآن) يقول الأب مرمرجي الدومنكي في كتابه (معجميات عربية- سامية) إن هناك من يرى أن سينين: (صادر من sin ومعناه: مسنّن، مسلّع، مشقق الصخور). وفي العربية فإن المسن والسنان: الحجَر الذي يُسن به أَو يُحدَّد به. وهذا يعني أن اسم سنان ذاته ربما أعطى معنى: سلع أو شق في صخرة.

إذن، فهناك أحد ما، هو ابن عم لخالد، أو غير ذلك، يدعى ابن راعية المعزى، أعلن للناس أن خالد بن سنان قد مات ولن يعود. لكنه عاد (يطفر عرقا)، وقال جملته الشهيرة عن ابن راعية المعزى. أو أنه سيعود وهو يطفر عرقا كي يقول هذه الجملة. فمن هو ابن راعية المعزى هذا؟

قد يخطر على بال المرء أن يربط هذا بالشعرى-إيزيس التي تدعى (كلب الجوزاء). فهـي كلب راع أو كلب الراعي الذي يتبع القطيع ليرعاه. وفي هذه الحال، يكون (ابن راعية المعزى) هو ابنها، أي حورس، أو أنوبيس. لكن هذا بعيد الاحتمال في نظرنا، مع أنه ممكن.

ونحن أميل إلى أن نربط هذا القول بالصراع بين الحية والطائر الذي تحدثنا عنه طويلا. فقد توصلنا إلى أن الصراع بين مظهري أوزيريس، الشتوي والصيفي، يأخذ شكل صراع بين حية وطائر، أو بين مكاء وحية، أي بين نغمتي المكاء والتصدية. أي أن ابن راعية المعزى يجب أن يكون على علاقة بطائر ما، ما دام خالد بن سنان يتبدى كحية نارية. ولدينا بالفعل دليل على ذلك. إذ يخبرنا ابن سينا في الطبيعيات عن: (طائر يسمى الموسلاس، أي راضع المعزى، وهو طائر جبلي أكبر من فوفكس، تبيض أنثاه بيضتين أو ثلاثا، يطير حول المعزى ويرضع لبنه).(٢٣)

هكذا، إذن!! طائر يدعى (راضع المعزى)! يرضع من المعزى كما يرضع الطفل. هذا الطائر يتصرف كما لو أنه مالك المعزى وراعيها. لذا يحق له أن يرضع حليبها. بذا فقد يكون (ابن راعية المعزى) ابن هذا الطائر، أو هو هذا الطائر ذاته. وإذا صح هذا نكون بالفعل قد عدنا إلى الصراع بين الحية والطائر، أي بين مظهري الإله الأوزيريسية. يدعم هذا الفرض أننا نعرف عن صراع بين عصفور الشوك والحمار. وقد رأينا كيف أن النغمة الشتوية تتمثل بحية وحمار معا. كما رأينا أن لابن سنان حماره الأبتر. يقول التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة: (عصفور الشوك يقاتل الحمار، لأن الحمار إذا مر بالشوك أفسد عشه، فإذا نهق بالقرب منه وقع بيضه، وإن كان فيه فراخ خرجت منه، فلهذه العلة يطير هذا العصفور حول الحمار وينقره).(٢٤) لكن الصراع يتحول إلى صراع مع الحصان عند ابن سينا في الطبيعيات:

(وبين الفرس وطائر يسمى أبنس- ويأكل العشب- قتال، لأنه يزاحمه في المرعى. وهذا طائر يأوي إلى المستنقعات والشطوط، وصوته كالصهيل، إذا رأى فرسا انقض عليه وشنع وحاول طرده).(٢٥) وهذا ما يحير المرء فعلا. فهل يتماثل الحصان والحمار ميثولوجيًا، أم أنهما نقيضا بعضهما؟! على كل حال، نحن نعتقد أن الصراع بين عصفور الشوك والحمار هو صراع ميثولوجي بين مظهري الكون- الإله. أي أنه ليس نابعا من سبب واقعي، يتعلق بنهيق الحمار الذي يسقط بيض عصفور الشوك. دليل ذلك أن التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة ذاته يعطينا سببا آخر لهذا الصراع في مكان آخر من كتابه ذاته: (والسبب في عداوة العصفور للحمار أن معاش العصفور من بزر الشوك وفيه يبيض، وهو وكره، والحمار يرعى ذلك الشوك إذا كان رطبا).(٢٦) الصراع حسب هذه الفقرة هو صراع على المعاش. فالطائر والحمار يأكلان الشوك! أي بالضبط مثل الطائر اليوناني الذي حدثنا عنه ابن سينا. فهو ينافس الحمار على العشب: (وبين الفرس وطائر يسمى أبنس- ويأكل العشب- قتال، لأنه يزاحمه في المرعى). وهذا يعني أن

twitter @baghdad_library

القصة منتشرة وأنها تنسب للحمار مرة وللحصان ثانية، مما يدل على أن المسألة مسألة ميثولوجية.

وكنا قد أوردنا من قبل مقتبسا من البيروني عن الحية المحرقة: (وذكر جالينوس حية سماها ملكة الحيات وأن من رآها وسمع صفيرها يموت.... وقال ابن مندويه في باسيلقون وهو الملك إن هذه الحية سميت بذلك لإكليل على رأسها... حمراء العينين، صفراء اللون إلى السواد، تحرق بانسيابها كل ما مرت به. وكل طائر يمر فوقها يسقط ويموت).

وهكذا فالحية المحرقة، أي التي مثل نار خالد بن سنان، (كل طائر يمر فوقها يموت)! أي أن بينها وبين الطيور بالذات مشكلة ما.

من كل هذا نصبح أكثر يقينا بأن ابن راعية المعزى الذي تحدث عنه خالد بن سنان إنما هو طائر.

قيامة العبسي

تختلف الروايات العربية حول قيامة العبسي. فبعضها يقول إنه قد قام من موته، وقال جملته عن ابن راعية المعزى. أي أنه عاد (ينطف عرقا)، أي يمطر في الحقيقة. لكن مصادر أخرى تقول إنه لم يقم، فقد وعد بأن يخرج إليهم بعد أن يأتي الحمار الأبتر على قبره، أو عانة الحمير، وأن ينبش قومه قبره عنه فيقوم حيا. لكن قومه رفضوا أن ينبشوه. والحديث عن القبر في النصوص دليل أن هناك ميتا وأنه دفن. أي أن نار سنان هي التي أطفئت في الحقيقة. لقد دفن في القليب كما دفنت النار- الحية. رواية المسعودي في مروج الذهب تقف مع المجموعة التي تقول إنه لم يقم:

(لأدخلنها وهي تتلظى، ولأخرجن منها وثيابي تتندى، فأطفأها، فلما حضرت خالد ابن سنان الوفاة قال لإخوته: إذا أنا دفنت فإنه ستجيء عانة من حمير يقدمها عير أبتر، فيضرب قبري بحافره فإذا رأيتم ذلك فانبشوا عني فإني سأخرج إليكم فأخبركم بجميع ما هو كائن، فلما مات ودفنوه رأوا ما قال فأرادوا أن يخرجوه، فكره ذلك بعضهم وقالوا: نخاف أن تنسبنا العرب إلى نبشنا عن ميت لنا).[٢٧]

نحن نعتقد أن جملة (النبي الذي ضيعه قومه) تعني الذي دفنه قومه. وهو بهذا مثل نبي أهل الرس الذين قتلوا نبيهم ورسّوه في البئر، أي بكّوه في البئر وزحموه. لقد كان ينوي أن يغيب قليلا، لكنهم تركوه فصلا كاملا في العالم السفلي.



twitter @baghdad_library

فصل 25

أبو رغال والغصن الذهبي

(إنك إن أتيتني بعبد آبق كتبتك عندي حميداً)

الأبشيهي- المستطرف

أخذ جيمس فريزر الشهير اسمه (الغصن الذهبي) من أسطورة رجل يدعى (ملك الغابة) كان يقيم في معبد في غابة عند بحيرة نيمي: (في داخل المعبد في نيمي تنمو شجرة لا يجوز أن يقطع منها غصن. فقط عبد آبق يحق له، إن استطاع، أن يقطع منها غصنا. ونجاحه في ذلك يتيح له أن يواجه الكاهن في معركة. وإن قتله فإنه يتوج في مكانه آخذا لقب: ملك الغابة).[1]

هذه الأسطورة كانت، بشكل مؤكد، معروفة عند العرب في الجاهلية. وهي، في تقديرنا، أسطورة أصيلة في الجزيرة العربية، أي أنها ليست مأخوذة عن مصادر رومانية ويونانية. دليل ذلك أنها مرتبطة بقوة بقبائل عربية كبرى، وأن لا أثر أجنبيا في أسماء أبطالها. والنسخة العربية من الغصن الذهبي هي قصة (أبو رغال) الرجيم الشهير. وهي تعطينا تفاصيل إضافية من شأنها ربما توضيح النقاط المبهمة في الأسطورة الرومانية.

ويمكن تصنيف الروايات التي تتعلق بأبو رغال في المصادر العربية إلى مجموعتين رئيستين؛ المجموعة الأولى تربط أبا رغال بثمود، وبصالح نبي ثمود، والمجموعة الأخرى تربطه بقبيلة ثقيف عبدة اللات في الطائف.

المجموعة الأولى، تجعل مركز الحدث حرما ما، يمتنع فيه أبو رغال، الشخص الوحيد المتخلف من قوم ثمود بعد الصاعقة. أبو رغال هذا يموت عند الخروج من الحرم بانتقام إلهي، ويلحق بقومه الذين هلكوا، ويدفن، ويدفن معه غصن من ذهب. لكن تزاد جملة تقول إن أبا رغال هذا هو أبو قبيلة ثقيف ذاته. يقول ابن كثير في البداية

والنهاية: (وقد تقدم في قصة ثمود أن أبا رغال كان رجلاً منهم، وكان يمتنع بالحرم، فلما خرج منه، أصابه حجر فقتله، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب. فحفروا فوجدوهما. قال: وهو أبو ثقيف»).[٢] وتقول كثير من الروايات إن الرسول مر بقبر أبو رغال هذا. يقول ابن اسحق في روايته، التي ننقلها عن المنتظم لابن الجوزي إن الرسول قال:

(فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، كان من ثمود، وكان هذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، فإن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه». فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن).[٣]

لكن أحيانا يكون صالح نبي قوم هود موجودا على الخشبة، ويكون أبو رغال عشارا عنده. يقول أبو الفرج في الأغاني كان:

(عبدٌ لامرأة صالح نبّي اللهٰ صلى الله عليه وسلمَ، هي الهَيجمانة بنت سعد، فوهبته لصالح؛ وإنه سرحه إلى عامل له على الصدقة... {ف} مر برجل معه غنم ومعه ابن له صغير ماتت أمه فهو يرضع من شاة ليست في الغنم لبون غيرها، فأخذ الشاة؛ فناشده الله، وأعطاه عشراً فأبى، فأعطاه جميع الغنم فأبى. فلما رأى ذلك تنحى، ثم نثل كنانته فرماه ففلق قلبه؛ فقيل له: قتلت رسول رسول الله صالح؟! فأتى صالحاً فقص عليه قصته؛ فقال: أبعده الله! فقد كنت أنتظر هذا منه؛ فرجم قبره، فإلى اليوم والليلة يرجم، وهو أبو رغال).[٤] أما في رواية الواقدي في المغازي فيبدو صاحب الغنم مستعجلا لإخبار النبي صالح عن أبو رغال: (فنثر كنانته ثم قال: اللهم تشهد! ثم فوّق له بسهم فقتله، فقال: لا يسبق بهذا الخبر إلى نبي الله أول مني! فجاء صالحاً فأخبره الخبر، فرفع صالح يديه مدا فقال: اللهم العن أبا رغال ثلاثاً).[٥]

في المجموعة الأولى، يبدو الصراع غامضا. فأبو رغال يقتل بالصاعقة بعد أن يغادر المعبد.، لكن من دون أن نعرف لمَ. أو أنه يقتل صدفة في حادث جمع ضرائب. أما المجموعة الثانية فتقوم على أساس الصراع. الصراع يقع بين شخصيتين: سيد وخادمه العبد الآبق، أبو رغال وثقيف. أي أن الحدث يدور في قبيلة محددة هي قبيلة ثقيف، التي أخذت اسمها من اسم إحدى الشخصيتين. فغالب روايات هذه المجموعة تقول لنا إن ثقيفا كان عبدا لأبي رغال، وأنه قتل سيده. لكن بعضها يقول إن ثقيفا هرب، وأن أبا رغال ثقفه، أي وجده وظفر به. وهي لا تتحدث لنا عن غصن ذهبي. وحين يرد ذكر الغصن الذهبي فإنما يرد كإضافة.

twitter @baghdad_library

يقول ابن سعيد الخير في القرط على الكامل هذا الخبر: (وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: أنه مر بثقيف {القبيلة}، فتغامزوا به؛ فرجع إليهم فقال لهم: يا عبيد أبي رغال).[٦] ويقول لنا ياقوت في معجم البلدان: (وقيل إن ثقيفاً، واسمه قسي، كان عبداً لأبي رغال وأصله من قوم نجوا من ثمود فهرب من مولاه ثم ثقفه فسماه ثقيفاً).[٧] ويضيف ياقوت في مكان آخر: (وقيل إن أبا رغال رجل من بقية ثمود وأنه كان ملكاً بالطائف وكان يظلم رعيته).[٨]

هذه المجموعة هي الأشد تلوثا بالسياسة. فقد استخدمت أسطورة أبو رغال في سياق الصراع بين ثقيف وغيرها من القبائل المعادية لثقيف وبني أمية. وقد ووجه الحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبد الملك على العراق بأنه وقبيلته من بقايا ثمود، ومن نسل أبو رغال الرجيم، فرد بأن القرآن أكد أن ثمودا هلكت ولم تبق منهم باقية، فكيف تكون ثقيف من بقاياهم؟! وهذا يعني أن الحجاج كان يدرك وجود تقليدين، واحد يربط أبو رغال بثمود الهالكة، وواحد آخر يربطه بثقيف. لكن نفي ارتباط ثقيف بأبو رغال لم يمنع أمية بن أبي الصلت الشاعر الثقفي الشهير من المفاخرة بقتل ثقيف لأبو رغال:

وهم قتلوا الرئيس أبا رغال بنخلة إذ يسوق بها الظعينا

وهكذا ركز ابن الصلت، وثقيف كلها، على قتل جدها لأبو رغال، وتناست أن هذا الجد كان عبدا لأبو رغال. أما أخصام ثقيف فركزوا على هذا التفصيل بالذات واصفين ثقيفا بأنهم: (عبيد أبو رغال).

لكن لدينا التقليد الآخر الذي يقول إن أبو رغال هو ثقيف ذاته، استنادا إلى الحديث المشار إليه المنسوب للرسول: (هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، كان من ثمود).

وهكذا فثقيف هو أبو رغال ذاته، أو أنه عدو أبو رغال وقاتله، أو أنه عبد عند أبو رغال هرب فثقفه وأحضره.

بين ثقيف وثمود

بعض المصادر العربية كان محتارا في كيف يكون أبو رغال من ثمود ومن ثقيف في الوقت عينه. فثمود بعيدة جدا في الزمن عن ثقيف، كما أن الأولى هلكت ولم يبق منها أحد، على حسب قول القرآن ذاته. وللتغلب على هذه الحيرة، فقد نشأ اقتراح يقول إن ثقيفا هم بقية ثمود، وإنهم من صلب الناجي الوحيد منها: أبو رغال. لكن المشكلة أن أبو رغال ذاته موجود بشخصه في قصة ثقيف وليس عبر نسله. فكيف يصير ذلك، وقد مات

بعد أن خرج من المعبد؟ يقدم ابن كثير اقتراحا لحل هذه المشكلة بالقول بأن أبو رغال ثمود هو الجد الأعلى لأبو رغال ثقيف، وأنه يحمل اسم جده الأعلى نفسه: (قلت: والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق؛ أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى، ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضاً، والله أعلم).[٩]

أكثر من ذلك، فإن بعض الناس، تبعا لرواية ابن كثير ذاته، تساءلوا: كيف يكون قبر أبو رغال بين مكة والطائف في حين أن ثمود كانت بالحجر (قالوا: فما له بناحية مكة؟).[١٠] والتبرير الذي يساق هو أن النبي صالح أرسله في مهمة فمات بين مكة والطائف.

طبقتان زمنيتان

نحن نعتقد أن المجموعتين تمثلان طبقتين زمنيتين، لأسطورة واحدة: طبقة قديمة تربط قصة الغصن الذهبي العربية بثمود، وطبقة أحدث تربطها بثقيف. أي أننا أمام مسرحية كانت تمثل على خشبتين، واحدة في زمن معلوم في الطائف قبيل الإسلام، وواحدة في مكان وزمان غير محددين تماما، أي في ثمود. التقليد القديم لا يحتوي على رجل يدعى ثقيف، بينما يقع ثقيف في مركز التقليد الأحدث.

ويبدو التقليد الأحدث، تقليد ثقيف، الأكثر قربا من الأسطورة كما نعرفها من الكلاسيكيات الرومانية، من خلال وجود عبد آبق يقتل سيده، ويحتل مركز الصدارة في الأسطورة. أما التقليد القديم الذي يربط الأسطورة بثمود، فيحتوي على عناصر مركزية من الأسطورة لا نجدها في التقليد الأحدث: حرم معبد، رجل يتحصن في المعبد ثم يموت حين يخرج منه، وغصن من ذهب.

ونظن أن جمع عناصر التقليدين، أو الطبقتين الزمنيتين، سوف يعطينا صورة أكثر وضوحا من الأسطورة، كما أن من شأنه أن يفسر بعض مناحي الأسطورة الرومانية. هذا الجمع يوصلنا إلى ما يلي، كما نعتقد:

١ - معبد فيه شجرة مقدسة، بدليل وجود الغصن الذهبي.

٢ - رجل يقيم في المعبد ويمتنع به، وحين يخرج من المعبد يفقد حياته. ويقال أحيانا إنه كان ملكاً بالطائف. أي أنه ملك كما في الأسطورة الرومانية.

٣ - عبد آبق يقتل سيده عند خروجه من المعبد فيما يبدو. لكن هذا العبد يُثقف بعد أن يأبق. ويبدو أن سيده هو من يثقفه، أي يظّفر به ويعثر عليه.

twitter @baghdad_library

٤- بعد مقتل الرجل يصبح قبره مرجما للناس، أي أنه يصبح شيطانا رجيما.

لكن المصادر العربية توحي لنا بأنه رجل مقدس في الأصل. فهو يقيم في معبد إلهي، ويحتمي به. كما أنه عندما مات دفن معه غصن ذهبي من شجرة يتكهن المرء بأنها تابعة لهذا المعبد. وليس من عادة الناس أن يدفنوا غصنا من ذهب مع شيطان مجرم عادي. فوق ذلك، علينا أن نتذكر أنه كان عاملا للنبي صالح على الصدقات. ففي رواية الأغاني لأبي فرج الأصفهاني قيل لقاتله لقد: (قتلت رسول رسول الله صالح!)[١١].

أسطورة العبد الآبق

يمكن لنا أن نفهم أسطورة ثقيف العبد الآبق، إذا تنبهنا إلى أن هذه الأسطورة ليست خاصة بثقيف. فنحن نعثر عليها أينما يممنا وجوهنا: عبد يأبق ثم يطارد فيعثر عليه ويتم إحضاره. وفي أغلب الأحوال، فإن العبد يأبق بعد أن يقتل سيده، كما فعل ثقيف عبد أبو رغال، ويهرب. لكن يبدو، من ناحية ثانية، وكأن السيد بعد أن يقتل يعود إلى الحياة فيعثر على عبده الآبق، بحيث يبدو لنا وكأن عودة السيد إلى الحياة مرهونة بثقف العبد وإحضاره، مما يدل على أن القتل كان طقسيا وليس حقيقيا. ولو لم يكن الأمر كذلك، كيف نجمع بين قتل ثقيف لأبو رغال، ثم عثور أبو رغال على ثقيف وإحضاره؟ فكي يتمكن من إحضار عبده لا بد لمقتله أن يكون طقسيا، وليس حقيقيا. فهو يقتل في موسم محدد، ثم يأتي موسم آخر يعود فيه للحياة بعد أن يثقف عبده الهارب ويحضره. ولدينا خبر عن الملك داود يؤكد ما نقول. فقد ورد في الرسالة القشيرية:

(خرج داود عليه السلام يوماً إلى بعض الصحارى منفرداً، فأوحى الله تعالى إليه: مالي أراك يا داود وحدانياً؟ فقال يا إلهي، استأثر الشوق إلى لقائك على قلبي فحال بيني وبين صحبة الخلق. فأوحى الله تعالى إليه: ارجع إليهم؛ فإنك إن أتيتني بعبد آبق أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذاً).[١٢] أما الأبشيهي في المستطرف في كل فن مستظرف فيورد الخبر نفسه على الشكل التالي: (قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك إن أتيتني بعبد آبق كتبتك عندي حميداً، ومن كتبته عندي حميداً لم أعذبه بعدها أبداً[١٣]

يمكن للمرء أن يفترض أن داود الوحداني، المبتعد عن الناس، ميت في الحقيقة. فهو خارج الحياة، منفرد في الصحارى، وذاهب للقاء ربه. وعودته إلى الحياة تقتضي، كما يظهر، المجيء بعبد آبق: (إن أتيتني بعبد آبق أثبتك في اللوح المحفوظ). فحين يحضر العبد ينهض داود من الموت ويثبت في اللوح المحفوظ، أي لوح الخلود. وهذا يشبه

أمر أبو رغال. فقد هرب عبده ثقيف بعد أن قتله، فتبعه حتى ثقفه، أي وجده، حسب بعض الروايات. ولا يوجد تفسير غير هذا لحكاية داود والعبد الآبق. فلماذا يطلب الله من داود إحضار عبد آبق هارب؟ ولماذا يكون موقع داود في اللوح المحفوظ مرتبطا بإحضار عبد آبق؟ إن كل شيء يشير إلى أن خيطا ما يربط بين قصة داود هذه بأسطورة الغصن الذهبي.

ونحن نعتقد أن المغزى الديني للعبد الآبق ربما يعود إلى أن الديانة الأوزيريسية تصور أوزيريس- النيل المنسحب الشتوي على أنه أسود اللون. وقد أخبرنا بلوتارخ من قبل أن المصريين يصفون أوزيريس بأنه أسود. ونظن أن سواد أوزيريس- النيل نابع من أنه كان يظن أنه ينسحب في الشتاء جنوبا إلى كهفه إلى الحبشة وإفريقيا السوداء. وقد صار انسحاب النيل يصور، فيما يبدو، بهروب عبد آبق. وإحضار العبد الآبق رمز لعودة النيل الفيضي الصيفي.

النبي يونس عبد آبق

وأسطورة العبد الآبق تتردد في قصة النبي يونس أيضا. فيونس ذاته عبد آبق كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.[١٤]

في الآيات لا يقال لنا عن يونس أنه عبد، بل يقال لنا أنه آبق (أبق إلى الفلك المشحون). لكن المصادر العربية حين تفسر تؤكد لنا أنه عبد آبق. يقول الزمخشري في الكشاف:

(حين ركب {يونس} في السفينة وقفت، فقالوا: ههنا عبد أبق من سيده، وفيما يزعم البحارون السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس فقال: أنا الآبق، وزج بنفسه في الماء «فالتقمه الحوت وهو مليم»).[١٥]

يكرر هذا ابن الجوزي في المنتظم: (فركب سفينة فركدت والسفن تسير يميناً وشمالاً، فقالوا: ما لسفينتكم. قالوا: ما ندري، فقال يونس: إن فيها عبداً آبقًا من ربه، وإنها لا تسير بكم حتى تلقوه، قالوا: أما أنت يا نبي الله فلا والله لا نلقيك، فقال: اقترعوا، فغلب ثلاث مرات. فوقع فابتلعه الحوت وأهوى به إلى قرار الأرض).[١٦]

twitter @baghdad_library

إذن، فيونس عبد هارب من سيده، كما هو الحال في معبد نيمي وفي قصة أبو رغال وثقيف.

وقذف يونس من السفينة هو في الواقع موته. لقد دخل في ظلمة جوف الحوت، فأهوى به الحوت (إلى قرار الأرض)، حسب رواية ابن الجوزي. لقد دخل في نغمته الشتوية القارة الساكنة، نغمة (القرار) الكوني . لكن قرار يونس قرار مؤقت. إذ أنه سيعود مرة أخرى برحمة الله، ولولا رحمة الله: (للبث في بطنه إلى يوم يبعثون)، أي لظل ميتا. فقد لفظه الحوت وأرسله إلى اليابسة، ثم دبت فيه الحياة تحت شجرة اليقطين التي ظللته، فعاد إلى الحياة. الشجرة هنا شجرة يقطين، لكن من المؤكد أن فيها غصنا ذهبيا هو غصن الحياة. فمن يمسك بهذا الغصن يحيا، ومن يفقده يموت.

وفي قصة بلقيس وأبيها الهدهاد أيضا عبد أسود هارب. ففي رحلة صيد له صادف الهدهاد ثعبانين يقتتلان ، ليتكشف له أن الثعبان الأسود ابن ملك له غلام أسود هارب. وقد أورد ابن الأثير في الكامل في التاريخ هذه الرواية على النحو التالي: (وقيل: إن أباها {أبا بلقيس} خرج يومًا متصيدًا فرأي حيتين تقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فأمر بقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها ماء فأفاقت فأطلقها وعاد إلى داره وجلس منفردًا وإذا معه شاب جميل فذعر منه فقال له: لا تخف أنا الحية التي أنجيتني والأسود الذي قتلته غلام لنا تمرد علينا وقتل عدة من أهل بيتي).(١٧)

من الواضح أننا هنا أمام أسطورة العبد الآبق ذاتها. عبد يهرب، يتبعه سيده، ثم يمسك به أو يقتله. إنها قصة تغير الفصول ذاتها.

العبد الآبق= الشتاء

ويقدم لنا عبد الغني النابلسي في تعطير الأنام في تفسير الأحلام دليلا،قويا جدا على أن العبد الآبق يخص الانقلاب الشتوي. يقول: (ومن أصاب ديكاً أحمر {في حلمه} فإنه يستفيد عبداً آبقاً خبيثا).(١٨)

هكذا، إذن، فالديك الأحمر في لغة الأحلام يعني عبدا آبقا! فما الرابط بين الديك الأحمر والعبد الآبق؟ الرابط هو المطر والشتاء. فنحن نعلم أن الديك رمز مطري شتوي. يصف لنا الدكتور توفيق كنعان موكب استسقاء في قرية عين كارم قرب القدس:

(ركبت امرأة عجوز على حمار، وحملت ديكا في يديها، وتبعها موكب كبير من الرجال والنساء والأطفال. وبعض النساء حملن جِرارًا فارغة على الرأس، كإشارة لقلة

الماء. وقام آخرون بالطحن على طاحونة يدوية صغيرة دون قمح. وبين فترة وأخرى، ووسط صخب الجمهور الحاشد تضغط المرأة على عنق الديك، فيزعق، وبهذا يشعر الناس بأن الديك يشاركهم في التوجه إلى الله).[١٩]

وقد رأينا من قبل أن أوزيريس النغمة الواطئة، أوزيريس الشتوي، يتمثل بحمار. من أجل هذا تركب العجوز حمارًا، وتحمل ديكًا. وأغلب الظن أن ريش الديك الناري علامة على البرق الشتوي لدى الناس قديما.

ويقول لنا الثعالبي في التمثيل والحاضرة إن العامة تقول: (ليس بصياح الغراب يجيء المطر).[٢٠] وربما كان هذا يعني: بل بصياح الديك، إذا أخذنا بعين الاعتبار التقليد الفلاحي الفلسطيني. أي أن المثل يسخر ممن يطلب الحاجة من الذي لا يمتلكها. فالغراب ممثل الصيف ولا يمكنه أن يأتي بالمطر.

إذ يبدو الصراع بين وجهي الكون الشتوي والصيفي صراعا بين ديك وغراب. الديك هو الشتاء، والغراب هو الصيف كما أوضحنا سابقا. هذا الصراع يتبدى في أشد صوره وضوحًا في أسطورة خداع الغراب للديك التي وردت في شعر لأمية ابن أبي الصلت:

بآية قام ينطق كل شــــيء وخان أمانة الديك الغراب

أقاما يشربان الخمر دهرا فخان العهد إذ نفد الشراب

يقول أبو العلاء المعري عن هذه الأبيات: (لعلك سمعت ما يتحدث به الناس عن الزمان القديم من أن الديك والغراب كانا صديقين في الدهر الأول، وكانا يتنادمان. فشربا عند خمار أياما فلما نفد شراب الخمار وأحس الغراب بأنه يريد الثمن، أصبح يوما والديك نائم فقال للخمار: إني ماضٍ فآتيك بحقك، وصاحبي هذا رهن عندك على مالك. وذهب فلم يعد).[٢١]

ويعلق الجاحظ على أسطورة خداع الديك من الغراب بقوله: (فالغراب عند العرب مع هذا كله، قد خدع الديك وتلاعب به، ورهنه عند الخمار وتخلص من الغرم، وأغلقه عند الخمار، فصار له الغنم وعلى الديك الغرم، ثم تركه تركًا ضرب به المثل) الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة.

وعليه، فالغراب ممثل الصيف، أي ممثل النغمة الخمرية، أخذ الديك وأسكره في الخمارة، وتركه محبوسا هناك. أما هو الخمري فقد شرب وظل صاحيا، ونفذ بريشه، على عكس الديك الذي شرب ونام وحبس. لقد استغفل الديك، وشرب الخمر فوقع في الورطة. وما كان له أن يفعل ذلك، فهو ممثل لإله (لا يشرب الخمر) مثل شيع القوم.

twitter @baghdad_library

ولدينا ما هو أكثر عن العبد الأسود. إذ يخبرنا ابن إسحق قصة صاحب المثل (أنوم من عبود) فيقول، ونحن ننقل كلامه عن الدميري في حياة الحيوان:

(وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل تلك القرية عدوا على ذلك النبي فحفروا له بئراً، فألقوه فيها، ثم ألقوا عليه حجراً ضخماً، فكان ذلك العبد الأسود يذهب ويحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، ويعينه الله عليها، ثم يدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يرد الصخرة كما كانت. فمكث كذلك ما شاء الله. ثم ذهب يحتطب يوماً، كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته، وفرغ منها فلما أراد أن يحملها، أخذته سِنة من النوم، فاضطجع فنام فضرب الله على أذنه سبع سنين، ثم إنه هب فتمطى لشقه الآخر، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين، ثم إنه هب فاحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم إنه اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع، ثم ذهب إلى البئر والتمس النبي فلم يجده، وقد كان بدا لقومه ما بدا، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه، فكان النبي يسألهم عن ذلك العبد الأسود ما فعل به فيقولون: لا ندري حتى قبض الله ذلك النبي، وأهب الله ذلك العبد الأسود من نومته بعد ذلك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة).[٢٢]

ويزيد النويري في نهاية الأرب:

(كان عبود عبداً أسود، وكان الله عز وجل قد بعث نبياً إلى قومه. قال الميداني: إن النبي هو خالد بن صفوان، نبي أهل الرس. فلم يؤمن به أحد منهم إلا ذلك العبد الأسود).[٢٣]

العبد الأسود نبي، أو خادم لنبي. ويظل هذا العبد على خشبة المسرح حتى يصحو النبي، الذي دفن مثل نبي أهل الرس، وحين يصحو النبي، يتبخر العبد الأسود. إنه موجود ما دام النبي نائما في بياته الشتوي. فهو ممثل للنغمة الواطئة.

تخبرنا المصادر العربية جميعا أن أبو رغال كنية، وليست اسما. وهي تختلف على اسم أبو رغال الأصلي، وترى في غالبها أنه (قسي بن منبه). فمن أين جاءت إذن هذه الكنية، وما الذي تعنيه؟

لا تعطينا المصادر العربية إجابة عن مثل هذه الأسئلة. لذا فليس لنا إلا أن نذهب إلى جذر (رغل) كي نستفتيه. يعطينا هذا الجذر عددا من المعاني. يقول ابن فارس في مقاييس اللغة أن الرغل هو (اغتفال شيء وأخذه) أو (الاختلاس في غفلة).[٢٤] ويضيف لسان العرب: (الرغلة: رضاعة في غفلة. يقال: رغل المولود أمه... رضعها... قال الرياشي: رغل الجدي أمه وأرغلها: رضعها... أرغل...: أخطأ ووضع الشيء في غير محله... والرغل أن يتجاوز السنبل الإلحام، وقد أرغل الزرع عن أبي حنيفة).[٢٥]

هذه هي المعاني الأساسية لهذا الجذر. وهي تبدو لنا على علاقة بأسطورتنا، بشكل ما. والمعنى الأول، أي أخذ الشيء على غفلة، فيتوافق مع نسخة فريزر من الأسطورة. ذلك أن (ملك الغابة) الجديد يأخذ منصبه بعد أن يقطع، على غفلة من ملك الغابة القديم، غصنا من شجرة المعبد. فقطع الغصن إيذان بموت ملك الغابة القديم. إذ بعد قطع الغصن يحق للعبد أن يغتال ملك الغابة القديم، ثم الحلول محله. وعليه، فأبو رغال قد يعني: الذي يرغل، أي الذي يؤخذ على غفلة، أي أنه ملك الغابة القديم. كما أنه قد يعني العكس: أي الذي يأخذ على غفلة، أي العبد الآبق، ليصبح ملك الغابة الجديد. وفي الحالين فإن هذا يتوافق مع النسخة العربية. فأبو رغال أخذ على غفلة من عبده الآبق، أو أن العبد الآبق أخذ سيده على غفلة ثم ثقف وأحضر. ويتوافق هذا مع جذر (ثقف) الذي يعني حذق ومهر. فثقيف كان (ثقفا لقفا) حين رغل سيده، أي غاله فجأة. ووزن فعال، الذي بني عليه رغال هنا، يبدو صفة مشبهة، أي الذي يرغل دوما. لكن هذا الوزن كثيرا ما يدل على داء أو خلل، مثل زكام،حطام...إلخ. وعليه، فربما يكون معنى رغال هنا: الذي يرغل، أو الذي يؤخذ رغلة، أي في غفلة.

واحتمال أن يشمل اسم أبو رغال المعنيين المتناقضين معا يرجح فكرة تحول القاتل إلى قتيل، والراغل إلى مرغول، كما تشير نسخة فريزر. فملك الغابة يكون قاتلا ومقتولا. فهو يقتل ملك الغابة القديم بعد أن يأخذه على غرة، ثم يأتي عبد آخر ويأخذه هو على غرة. ولعل هذا يفسر اضطراب المصادر العربية بشأن أبو رغال. فهو أحيانا سيد ثقيف

twitter @baghdad_library

و قتيله، لكنه أحيانا أخرى ثقيف ذاته. ذلك أن ثقيفا القاتل الراغل، سيتحول في الفصل القادم إلى قتيل مرغول. أي أننا أمام مسرحية يتبادل فيها الممثلون الأدوار مع تبدل الفصول. الصيف يرغل الشتاء ويقتله، ثم يرغل الشتاء الصيف ويزيحه.

الرغل والرضاعة

وحسب رواية سابقة فإن أبو رغال (مر برجل معه غنم ومعه ابن له صغير ماتت أمه فهو يرضع من شاة ليست في الغنم لبون غيرها، فأخذ الشاة). وفي هذه الجملة تنويع فرعي على موضوع الرغل. ذلك أن الرغل هو الأخذ على غفلة، وهو الرضع على غفلة، أيضا. وبما أن أبو رغال قد قتل في نهاية هذه الحادثة التي منع فيها الطفل من أن يرغل الشاة، فإن ذاك مؤشر على أن أبا رغال يُرغل، أي يؤخذ في غفلة. والرجل الذي معه الأغنام هو في الواقع مثيل ثقيف الطائفي. وعليه، فهو قد رغل أبو رغال، كما رغله ثقيف في الروايات الأخرى. ولعل رفض أبو رغال ترك الشاة للطفل المسكين أن يكون ناتجا عن إحساسه بأن رغل (رضع) الطفل لهذه الشاه رمز لمقتله. ولعل وجود الطفل أن يعطينا معنى أن الفتي الجديد يزيح القديم الذي هرم. لكن قد يتساءل المرء أيضا، إن كنا بالفعل أمام طفل أم أننا أمام عبد هنا! ذلك أن غلامًا قد تعني طفلا أو ولدا كما تعني عبدا، ربما لأن العبيد كانوا يؤخذون للعبودية غلمانا. يقول د. جواد علي: (واستعملت اللحيانية لفظه «هغلم» «ها-غلام» «ها-غلم»، أي «الغلام» تعبيرا عن «مملوك»، أي إنسان غير حر).[٢٦]

وعليه، قد يكون الغلام الذي مع صاحب الأغنام عبدًا. بل ولعل الغلام أن يتماهى مع صاحب الأغنام ذاته. أي أن صاحب الأغنام هو ذاته العبد الآبق القاتل. وبذا يكون قد لعب دور ثقيف. فوق سهمه وضرب أبو رغال في قلبه، ثم ركض إلى النبي صالح كي يخبره الخبر. ولم يكن ليفعل ذلك لولا أن النبي صالح سيتفهم قتل رسوله وعشاره. فهذا قتل طقسي يرمز إلى تغيرات الفصول. والفصول تتغير دوما. ولا داعي لتكبير الأمور. وعليه يمكن أن ننظر إلى النبي صالح على أنه طراز من أوزيريس ما. وأن أبو رغال وصاحب الأغنام هما مظهراه، هما نغمتاه العالية والواطئة، نغمة القمة والقرار.

وقد يتساءل المرء حول علاقة الإله (ذو غابة) اللحياني بمن نحن بصدده. فأسطورة الغصن الذهبي حسب فريزر فيها معبد في غابة، يقتتل فيها مظهرا الإله على السيادة. فنحن نعلم بوجود إله يدعى (ذو غابة). يقول د. جواد علي: (وردت في الكتابات اللحيانية، أسماء جملة آلهة. منها: «ذ غابت» «ذو غابة»).[٢٧]

وتذكرنا قصة الغصن الذهبي وشجرته، بالأشجار الكونية التي عرفناها: شجرة العزى، شجرة ذي الخلصة، شجرة ذي الشرى ربما، وشجرة إنانا. كل هذه الأشجار لها أفرع ثلاثة. الفرعان الطرفيان يمثلان إلهين مذكرين، أو مظهرين لإله مذكر. أما الفرع الأوسط، فيمثل إلهة أنثى. ويبدو أننا مع أبو رغال وثقيف أمام الغصنين الطرفيين في هذه الشجرة. فحين يحين وقت الانقلاب الصيفي يكون الغصن الذهبي، غصن الحياة، بيد الإله في مظهره الصيفي، أي أن الصيف يرغل الشتاء، ثم يصير العكس.

اللات وأبو رغال

وعلينا أن ننتبه إلى أن أبو رغال واللات يرتبطان معا بالطائف. فطائف ثقيف كانت المركز الأول لعبادة اللات، الأول في الثالوث المكي العربي: (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)، وممثل النغمة الصيفية العالية. وهذا ما يجعلنا نتساءل عن علاقة أبو رغال باللات. فهل كان القتل المسرحي يتم في (ربة اللات)، أي في معبده في مدينة الطائف؟

نحن نعتقد أنه كان يتم تمثيل مسرحية السيد وعبده الآبق، أو أبو رغال وثقيف عبر كاهنين مرتين في السنة. ولا نستبعد أن تكون خشبة المسرح داخل معبد اللات، أي ربة اللات. أو لعل الجزء الذي يمثل انتصار النغمة الصيفية كان يتم في ربة اللات. ذلك أن اللات ممثل النغمة العليا الصيفية للكون. وربما كان يعمد إلى وضع شجرة بأغصان ثلاثة على الخشبة، ثم يجيء عبد آبق ويقطع غصنا من أغصانها، كرمز على نهاية هيمنة ما يمثله هذا الغصن.

ولدينا إشارة في الأخبار التي أوردناها إلى أن الأمر كله يتعلق بالانقلابات الفصلية. فأبو رغال، هو الوحيد الذي نجا من الصاعقة التي أصابت قومه، قوم ثمود، بسبب حادثة الناقة. يخبرنا ابن الجوزي في المنتظم:

(فلما أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، فتقطعت قلوبهم في صدورهم وهلكوا. وكان منهم رجل بالحرم يقال له أبو رغال، منعه الحرم من العذاب).[٢٨] يضيف ابن الخطيب العمري في الروضة الفيحاء عمّا قال صالح لقومه:

(فلما كان اليوم الرابع أتتهم صيحة في السماء فيها صوت كل صاعقة، فتقطعت قلوبهم في صدورهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ وهلكوا

twitter @baghdad_library

كلهم ولم يسلم منهم إلا أبو رغال، وهو أبو ثقيف، لأنه كان في الحرم).[٢٩]

ونحن نعلم أن الصاعقة، صاعقة البرق، رمز للانقلاب الشتوي. وحين ينجو أبو رغال من الموت الشتوي، فإن ذلك مؤشر على أنه ممثل للانقلاب الصيفي.

الرجم

يشير الجذر (رجم) إلى معنى متناقض تماما: النجاسة والشرف معا وهو الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن رجم أبو رغال وأشباهه لم يكن يعني اللعنة في الأصل، أو أنه على الأقل لم يكن يعني اللعن وحده. يقول لنا لسان العرب:

(الرجم: القتل... والرجم: اللعن، ومنه الشيطان الرجيم أي المرجوم بالكواكب). ويضيف: (والرجم: الإخوان: عن كراع وحده، واحدهم رجم ورجم... وقال ثعلب: الرجم الخليل والنديم. ومرجوم: لقب رجل من العرب كان سيداً ففاخر رجلاً من قومه إلى بعض ملوك الحيرة فقال له: قد رجمتك بالشرف، فسمي مرجوماً).[٣٠]

وهكذا فالرجم هو اللعن والطرد والسب، لكنه أيضا الشرف. فمرجوم كان لقب رجل شريف من العرب، بعد أن قال له ملك الحيرة: قد رجمتك بالشرف. كما أن ترجيم قبر الميت تشريف له. يقول لنا د. جواد علي عن قولة المزني: (لا ترجموا قبري، أي لا تجعلوا عليه الرجم، وهي الحجارة على طريقة أهل الجاهلية.... وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم).[٣١]

كل هذا قد يعني أن رجم أبو رغال ربما كان في الأصل تشريفا له وتقديسا. أي أنه طراز من بناء قبر ما فوقه، وطراز من توديعه وإعلان موته، مع مجيء نقيضه. يؤكد هذا حج الناس إلى المراجم، وإقسام بعض الناس بها.

والاضطراب الجغرافي حول مكان مرجم أبو رغال، وإن كان في منطقة الطائف أو قريبا من مكة يتيح لنا تأكيد أنه كان هناك أكثر من أبو رغال، وأكثر من قبر له ليرجم في الجزيرة العربية. ونحن بالفعل نعلم بوجود مراجم كثيرة: (والجمرات، أي مواضع رمي الجمرات عديدة عند الجاهليين، يطاف حولها، ويحج إليها، منها مواضع أصنام، وأماكن مقدسة، ومنها قبور أجداد).[٣٢]

ولعل المرء يتجرأ ويسأل عن العلاقة بين قبر أبو رغال المرجوم وبين مرجم إبليس في مكة!

وربما يكون معنى الرجم هو الانتهاء والاكتمال. فعند اكتمال فصل يتم رجمه، أي إعلان اكتماله وانتهائه. واكتماله يعني قدوم الفصل الذي يليه. وعليه، فالرجم توديع فصل واستقبال آخر. و(في النقوش الأوجاريتية... ج م ر أي «أكمل») وفي العبرية فإن جمر تعني: (أنهى، خلص، أدى).[٣٣] وبهذا المعنى ورد في السريانية والحبشية. ويتوافق هذا مع رمي الجمرات في الإسلام. فرمي الجمرات يتم في العيد بعد انتهاء الحج فعليًا.

في كل حال، فإن الصراع بين العبد الآبق وسيده، قد يتظاهر كصراع رجلين لا علاقة بينهما، عبودية أو تسودًا، أو كصراع بين أخوين، يقتل أحدهما الآخر، كما سنرى في فصل لاحق.

twitter @baghdad_library

فصل 26

آراميا «قاتلا» كان أبي

(قبائل التبو والجرعان تطلق اسم «أرامي» على من قتل آخر)

الرحالة المصري أحمد محمد حسين

يقول الإصحاح السادس والعشرون من سفر التثنية على لسان موسى ما يلي:

(ثم تصرخ وتقول أمام الرب إلهك. آراميا تائها كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة).[١]

جملة: אֲרַמִּי אֹבֵד אָבִי (أرامي أبد أبي)، التي ترجمت على أنها تعني: (آراميا تائها كان أبي). وقد افترضت التفسيرات السائدة أن الأب في الجملة هو إما إبراهيم أو يعقوب. لكن هذا الافتراض لا يأتي من سياق النص، وإنما من ربط الجملة بالعلاقة المفترضة لكل من إبراهيم ويعقوب ببلاد آرام و مصر. فيعقوب ذهب إلى فدان آرام ليأخذ زوجة له: قم اذهب إلى فدّان آرام إلى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك. أما إبراهيم فقد أخذ زوجة من آرام النهرين. بالتالي فقد افترض أنه حين يطلب موسى من كل واحد أن يصرخ قائلا: (آراميا تائها كان أبي) فهو يقصد أن الجمع الذي يتحدث إليه، ومن ضمنهم هو ذاته، هم أبناء يعقوب الذي هاجر إلى مصر، أو ابناء إبراهيم الذي انحدر إلى مصر أيضا.

على كل حال، فإن الترجمة الشائعة لم ترض الكثيرين، قديما وحديثا. فهي لا تروي الغليل أبدا. لذا قدمت ترجمات أخرى بديلة منها : (آراميا دمر أبي) أو (آراميا أراد أن يدمر أبي) وذلك عن طريق تصحيح تهجئة (أبد) إلى (عبد)، على افتراض أن تصحيفا ما قد حصل. أي من دون التعرض إلى كلمة (أرامي).

وسوف نحاول أن نفهم هذه الجملة الغامضة بناء على فرضين رئيسيين:

الأول: أن المشكلة ليست في كلمة (أبد)، التي تترجم على أنها: تائه، ضائع، منته، إلخ، بل في كلمة (آرامي، أرامي). وعليه، فإذا فهمت هذه الكلمة فهما سليما، وسيفهم النص، ونرتاح من محاولات تفسير كلمة (أبد) أو تصحيحها.

ثانيا: أن موسى يتحدث نفسه حين يطلب من أتباعه أن يصرخوا: (آراميا تائها كان أبي)، ولا يتحدث عن يعقوب أو إبراهيم.

القاتل الهارب

الفرض الأول يقول إن كلمة (أرامي) في الجملة لا تعني مطلقا رجلا آراميا، بل هي كلمة تشير إلى طراز من القتلة في المجتمع البدوي، وتحمل أسطورتهم. فالأرامي هو: القاتل الهارب، المطلوب دمه، التائه في البراري. هذا هو المعنى الحرفي والدقيق للكلمة التوراتية. وهي كلمة ما زالت حية ومستخدمة بهذا المعنى حتى الآن في جنوب ليبيا القرن العشرين بين قبائل التبو والجرعان. وقد وردنا خبر استخدام هذه الكلمة بالمعنى الذي أشرنا إليه عند رحالة مصري كبير صار منسيا هذه الأيام، هو أحمد محمد حسين، الذي قام في العام ١٩٢٣ برحلة بين السلوم وكردفان. وقد سجل رحلته هذه في كتاب أسماه «في صحراء ليبيا»:

(وفي بكرة اليوم أخذ «أرامي» أخو ملكني كيسا وذهب يلتمس الحطب، واسمه ينم عن قصته، لأن قبائل التبو والجرعان تطلق اسم «أرامي» على من قتل آخر).[٢]

ويضيف في مكان آخر من الكتاب: (ولم نكد نبدأ المسير حتى وجد بوكاره وأرامي، «وهو غير ذلك الذي هام في الصحراء واختفى، ولكنه مثله قتل رجلا آخر» أثر ورن «برص» واشتغلنا بالبحث عنه).[٣]

إذن، (الأرامي) هو من قتل غيره عند قبائل التبو والجرعان التي ظلت، حتى الآن، تطلق هذا الاسم (على من قتل آخر)، وأصبح مطلوبا للثأر.

ولا يمكن لنا أن نشك في دقة نقل الرحالة المصري للكلمة، ولا في فهمه لمعناها. فقد صادف في رحلته اثنين ممن يدعون (أرامي) وليس واحدا فقط. والتقاؤه بأراميين اثنين في رحلته، يشير إلى أن هذا الطراز من القتلة شائع الوجود في المجتمع القبلي في جنوب الصحراء الكبرى. ولعله كان شائعا في مصر وغيرها سابقا.

twitter @baghdad_library

وكذا، فحين يقتل أحد أحدا يدعى (أرامي). إذ ينسى اسم القاتل الأصلي ويلصق به اسم لقب (أرامي)، مثلما لحظنا في النصين السابقين. فالرحالة المصري الاسم الأصلي للقاتلين (الأراميين) اللذين صادفهما في رحلته. فأخو ملكني دعي أراميا، لكن من دون أن نعرف اسمه قبل أن يقتل. لقد نسي اسمه الأصلي، وصار (أرامي) أو آراميا. وكذلك الأمر مع الأرامي الثاني.

بناء على هذا، ربما يكون علينا أن نقرأ آية سفر التثنية التي تقول: (آراميا تائها كان أبي) كما يلي: (قاتلا تائها كان أبي). هذا هو معنى الجملة.

يؤيد هذا أن جذر (أرم) العربي يعني: القطع. يقال أرمتهم السنة أرما: قطعتهم. وأرض أرماء ومأرومة: لم يترك فيها أصل ولا فرع. والقاتل الهارب مقطوع عن أصله وعن قبيله، وعن الناس، ومنقطع في البراري، مثلما هو حال مع من صادفهم الرحالة المصري. كذلك فإن الجذر يحمل معنى الهلاك أيضا. يقول الحربي في غريب الحديث: (أرم القوم أرما: إذا هلكوا).[٤] والسنة الآرمة أي مستأصلة قاطعة تقطع القوم. وأرض أرماء ومأرومة: لم يترك فيها أَصل ولا فَرع. وأرم المال: فني. والروم: قبور قوم عاد. ولدينا اعتقاد أن البيت الغامض جدا في معلقة الحارث بن حلزة الذي ورد فيه حديث عن (إرمي) ما، إنما يعني معنى قريبا من معنى الأرامي في جنوب الصحراء الكبرى:

إرمي بمـثلـه جالت الخيـل وتأبى لخصمها الإجـلاء

ملك مقسط وأفضل من يمشي ومن دون ما لديه الثناء

وقد روي البيت الأول بشكل مختلف: إرمي جالت بمثله الجن

وفسرت كلمة إرمي على أنه من بني إرم، وأنه ذو حسب وما إلى ذلك. ونحن نظن أن أرمي هنا تعني جبار وعنيف و(قتال قتله) كما يقول التعبير الشعبي، الأمر الذي يؤكد ارتباط جذر (أرم) بالقتل. وفي العربية، أرمت الحبل: إذا فتلته فتلا شديدا.

أما جذر (أبد) في العربية فيعطي معنى التوحش. التأبد: التوحش والانعزال عن المسكون. وأبد الرجل، بالكسر: توحش. ومنه يقال عن الوحوش الأوابد، وهي التي توحشت ونفرت من الإنس. وأبدت البهيمة تأبد وتأبدت أي توحشت. وهذا ما قد يتوافق مع فكرة قاتل هارب متشرد. فالقاتل الهارب يفر من الناس، ويبتعد عن المسكون. وعليه، فترجمة (أبد) إلى (تائه) مناسبة إلى حد ما. وربما كان المعنى الأدق (هاربا) أو (شريدا).

وبناء عليه، فكلمة (أرامي) لا علاقة لها بالشعب الآرامي. أي أن نص سفر التثنية لا يتحدث عن آرام الشعب المعروف، بل قاتل هارب تائه.

أسطورة القاتل التائه

القاتل التائه (الأرامي)، إذن، مازالت نماذج منه موجودة في جنوب ليبيا.

لكن (أرامي) التوراة طراز من القتلة مختلف قليلًا عن أرامي التبو والجرعان، الذين رآهم الرحالة المصري. ويمكن لنا أن نسمي هؤلاء بالقتلة المقدسين. فهم يقومون بقتل طقسي يرمز إلى الانقلابات الصيفية والشتوية، إلى نغمتي الكون المركزيتين. حيث تزيح النغمة الصيفية النغمة الشتوية، وتقتلها، ثم العكس في تتابع دائم. ويصور الصراع المتواصل بين هاتين النغمتين أحيانا كثيرة على شكل صراع بين رجلين، أو أخوين، يقتل فيه أحدهما الآخر، ويهرب كي يهيم في البراري. وأسطورة القاتل التائه هذه قديمة جدا في تراث المنطقة. ويمكن بقدر من الجهد العثور عليها في أماكن كثيرة.

ولدينا مثل ممتاز على هذه الأسطورة في قصة قابيل وهابيل القرآنية، فقد قال هابيل لقابيل أخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾. وقد قتل قابيل، أو قايين في العهد القديم، أخاه، فقال له ربه: (تائها وهاربا أكون في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني).[٥]

وتقول المصادر العربية أن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل لم يعرف كيف يدفن جثته فأرسل الله له غرابين يقتتلان أمامه، فقتل أحدهما الآخر، فدفن القاتل أخاه. يقول الطبري في تاريخ الملوك والرسل: (فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه، فلما رآه قال: «يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي»؟).[٦] لكن القرآن لا يتحدث عن غرابين بل عن غراب واحد: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (٣١) ﴾.[٧]

ويبدو لنا أن الصراع بين وجهي الكون الشتوي، الذي يأخذ شكل صراع بين طائر أو حية، أو بين ديك وغراب، كما رأينا في فصول سابقة، ربما يأخذ شكل صراع بين غرابين، غراب الشتاء وغراب الصيف. ولعل هذا يذكر بتلبية قبيلة (عك) في الجاهلية، التي من أحد بطونها الأسود العنسي (رحمان اليمن). فحسب ابن السائب الكلبي: (كانت تلبية عك، إذا خرجوا حجاجا، قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركبهم.

twitter @baghdad_library

فيقولان: نحن غرابا عك! فتقول عك من بعدهما: عك إليك عانيه، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية).[٨]

نظن أن هذين الغرابين تمثيل لوجهي الإله الصيفي والشتوي. كما نظن أنهما على علاقة بغرابي قابيل وهابيل. فكل غراب يمثل أخا من الأخوين. والأخوان يمثلان الصيف والشتاء. هابيل (هب+ إل) يمثل الصيف، وقابيل يمثل الشتاء. وهما يقتتلان على امرأة هي أختهما، كما هو الحال في مظهري أوزيريس، وفي ضيزني جذيمة الأبرش. يقول الطبري: (وكان قابيل يفخر عليه فيقول: أنا أحق بها منك هي أختي). إنها الصيغة المصرية القديمة، صيغة زواج الأخ لأخته.

ودليل أن هابيل وقابيل يمثلان الصيف والشتاء أن قابيل قدم لربه تقدمة من القمح. والقمح كما رأينا طوال هذا الكتاب رمز للنغمة الشتوية الباردة. يضيف الطبري:

(فلما قربا، قرب هابيل جذعة سمينة وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها فأكلها فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب). ويزيد (فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع).[٩]

وهكذا فقابيل قدم قربانا من سنبلة قمح. وكنا رأينا في فصل (بلاطة بلعمة) كيف أن النغمة الشتوية تتمثل بوضوح بسنبلة قمح. أما هابيل فقد قدم شاة جذعة. أي قدم الدم. والدم الأحمر الحار الفياض مثل الخمرة ممثل الصيف الحار السائل الفياض. لذلك شبه المسيح مع تلامذته في العشاء الأخير الخبز باللحم- الجسد، والدم بالنبيذ. فلحم الآلهة هو الخبز، أي القمح. ونبيذهم هو الدم: (وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا. هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم. لأن هذا هو دمي).[١٠]

وهكذا، فقابيل {قايين} القمحي الشتوي قتل أخاه الخمري (الدم= الخمرة)، وصار (أراميا)، أي قاتلا، وتاه بعد ذلك فصار (قاتلا تائها)، مثله مثل القاتل في سفر التثنية: (قاتلا تائها كان أبي)، ومثله مثل أرامي التبو والجرعان، حسب ترجمتنا. وقد تاه لأنه مهدد بالقتل: (كل من وجدني يقتلني).

موسى: قاتل تائه

كان فرضنا الثاني؛ أن الأرامي (القاتل) في سفر الثنية هو موسى ذاته وليس يعقوب ولا إبراهيم؟ وأن يكون موسى قاتلا فأمر لا شك فيه. فقصة قتله للرجل المصري معروفة

تماما. فقد جاء في سفر الخروج:

(فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم التالي وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك. فقال من جعلك رئيسا وقاضيا علينا. أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري. فخاف موسى وقال حقا قد عرفت الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى. فهرب من وجه فرعون وسكن في أرض مديان).[١١]

وهكذا فموسى قتل رجلا وهرب إلى أرض مديان. تاه في الصحراء حتى وصل إلى أرض مديان. إنه هو القاتل، وهو الذي انحدر، فيما بعد، إلى مصر الميثولوجية، فصار أمة عظيمة. أمة دينية بالتأكيد، وليس شعبا بالمعنى الحالي لكلمة شعب. وهو، كأب ديني للشعب، طالبا من كل واحد من شعبه أن يصرخ قائلا: (ثم تصرخ وتقول أمام الرب إلهك. آراميا تائها كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة). وأبوهم القاتل هو موسى ذاته. ونعتقد أن ليس من علاقة لمصر البلد الذي نعرفه بأمر موسى القاتل التائه. فالأمر يتعلق بمناطق ميثولوجية، لها علاقة بمواقع النجوم في السماء، النجوم التي تؤشر على الانقلابات الفصلية.

ويبدو أن الإقرار بالقتل الطقسي عن طريق القول (قاتلًا تائهًا كان أبي) كان ممارسة ضرورية. فعلى القاتل الطقسي أن يفعل ذلك حتى يحتل مكانه الديني، فيما يبدو. أو أن احتلال مكانه يترافق مع إعلانه أنه قاتل تائه. فبعد أن قتل موسى وهرب مطاردًا تائهًا من مصر المفترضة قال له الرب: (فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر).[١٢] وبعد ذلك طلب من كل واحد من شعبه أن يصرخ قائلا: (آراميا تائها كان أبي).

ويردد القرآن قصة فعلة موسى وهربه في سورة القصص القصة: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾. يضيف ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾، ثم ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾.[١٣] وقد خرج موسى بالفعل كقاتل تائه، حتى وصل إلى مديان.

twitter @baghdad_library

لكن المثير في النص القرآني هو جملة (جاء رجل من أقصى المدينة يسعى). فهذا النص يرد بنفس الصيغة تقريبا في سورة ياسين، مما يدل على وجود علاقة بين الأمرين:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.[١٤]

وجود رجل من أقصى المدينة في الحالين يسعى يشير إلى ارتباط القصتين، وإلى موضوع مشترك بينهما، هو موضوع القتل الطقسي في رأينا. وقد ربط بعض المصادر العربية بين هذا الذي جاء من أقصى المدينة يسعى في سورة ياسين وبين أهل الرس. ينقل لنا القرطبي في تفسيره:

(قال ابن عباس: سألت كعبا عن أصحاب الرس قال: صاحب «يس» الذي قال: «يا قوم اتبعوا المرسلين» [يس: ٢٠] قتله قومه ورسوه في بئر لهم يقال لها الرس طرحوه فيها... وقال علي رضي الله عنه {عن أهل الرس هؤلاء}: هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم... فيبست الشجرة فقتلوه ورسوه في بئر).[١٥]

استنتاج خطير! فصاحب سورة ياسين، الذي تقول المصادر العربية أنه حبيب النجار، يتبدى هنا كنبي أهل الرس، أي البئر. وكنا توصلنا في فصل آخر إلى أن نبي أهل الرس هو (أرصو) أو (أريس بالصيغة اليونانية)، وأنه أوزيريس النغمة الواطئة، أوزيريس المنسحب القتيل. ونبي أصحاب الرس هو الذي قتل ودفن في بئر وليس النبي محمد. وهذا ما تدل عليه آية سورة الصافات: (سلام على إل ياسين). فياسين هنا شخصية محددة له آل وأهل محددون.

ويؤيد صلة موسى بأهل الرس، الذين رسوا نبيهم في البئر، أن موسى عندما قتل المصري طمره في الرمل. لقد دفنه في الرمل كما رس أهل الرس نبيهم في البئر. وكنا رأينا في فصل آخر أن (رس) أصحاب الرس على علاقة بمملكة الموتى (رستاو، رسطاو) التي يحكم عليها أوزيريس. وفي أغلب الظن فإن (رسطاو) هذه على علاقة ما

بالواد المقدس طوى الذي ورد ذكره في القرآن. إذ قال الله لموسى (اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى). وكل هذا إشارات إلى أن ما قلناه حول موسى فيه قدر لا بأس به من الحقيقة.

وعلينا أن نفهم الشعب هنا في جملة: (فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر)[١٦] كشعب ديني لا كشعب حقيقي. يؤكد هذا أن القرآن يتحدث عن عباد لا عن شعب بخصوص القصة ذاتها. فقد جاء في سورة الدخان: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾.[١٧] ونعتقد أن الجملة القرآنية أوضح في التعبير عن المقصود.

وإذا كانت جملة (آراميا {قاتلا} تائها كان أبي) لا تتعلق بيعقوب، فإن هذا لا يعني أنه لا توجد عناصر مشتركة بين موسى ويعقوب. على العكس، فموسى ويعقوب من طراز واحد مبدئيا. ورغم أن يعقوب لا يتهم بالقتل مثل موسى، فإن قصة صراعه مع عيسو، وخداعه له وإزاحته عن حق البكورية يوحي بشيء مماثل للصراع بين هابيل وقابيل. وهو صراع طويل متعاقب لا يتوقف: (فقال عيسو: ألا إن اسمه يعقوب تعقّبني مرّتين).[١٨] ذلك أنه صراع الصيف والشتاء، العالي والواطي. فحين يضعف يعقوب يقوى عيسو: (بسيفك تعيش وأخاك تخدم فإذا قويت تكسر عن عنقك نيره).[١٩] إن قويت تكسر نير أخيك وتسيطر عليه، وتحل محله. لكن حين تضعف أنت أيضا يا عيسو، فإن أخاك سيعيد الكرة. فالكون في حركة دائبة لا تتوقف. والقاتل يتحول إلى قتيل.

الأسينيون

في كل حال، ربما ذكرنا ياسين القرآن بفرقة الأسينيين الشهيرة Essenes التي كانت تقيم في منطقة البحر الميت في فلسطين، في القرون الأولى قبل الميلاد وبعده، والتي ورد ذكرها عند يوسيفوس وبليني. نحن نعتقد أن هذه الفرقة من أتباع الإله ياسون-ياسين، وأن اسمهم أخذ من اسم هذا الإله. وهو يمثل المظهر الشتوي الفاتر لإله ذي طابع أوزيريسي. لذا من الأفضل أن نسميهم بالـ (يسينيين) وليس الأسينيين. وعند يويسيفوس، الذي هو المصدر الأهم عنهم، ما يدعم فرضيتنا. ففي كتابه (تاريخ اليهود) يربط بين(مونيموس) والأسينيين. فحسب قوله، فإن سبب احترام هيرود للأسينيين هو أنه (كان هناك أسيني يدعى مونيموس... وهذا الرجل رأى هيرود، عندما كان ما يزال طفلا، فدعاه بـ «ملك اليهود»).[٢٠] وقد ثبت أن هذا القول نبوءة تحققت فيما بعد، عندما

twitter @baghdad_library

أصبح هيرود ملكا لليهودية.

(أسيني يدعى مانيموس)! نحن نعتقد أن ربط نص يوسيفوس هذا بين (مانيموس، مونيموس) وبين الأسينيين ليس صدفة. إذ يبدو أن مونيموس الذي تنبأ لهيرود هو كاهن لإله باسم مانيموس. ومانيموس هذا هو ذاته مونيموس التدمري الذي تعرضنا له فيما سبق. وقد بينا حينها أن مونيموس هو (منيم) بالعربية، أي الضعيف، الهالك، أي ممثل نغمة الكون الشتوية، مثله مثل (مناة). ومانيموس هذا هو الاسم الآخر لمعبود الأسينيين: أي ياسون، أو ياسين بالعربية.

علامة قايين

القاتل المتشرد التائه في الصحراء، أي الأرامي، مهدد بالقتل من أهل القتيل. إنه في خطر دائم كل يوم وكل ساعة. وبما أن قايين {قابيل} قاتل هارب مثل هؤلاء، فالسؤال هو: لماذا وضع الله له علامة كي لا يقتله كل من وجده؟: (إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهًا وهاربًا في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده).[٢١]

نعم، لماذا جعل له الرب (علامة لكي لا يقتله كل من وجده)، رغم أنه قتل أخاه؟

إجابة جيمس فريزر المشهورة في الغصن الذهبي أن العلامة توضع لحماية القاتل من روح القتيل. وهو يدلل على ذلك بالآيات التي سبقت الآيتين أعلاه، والتي تقول: (ماذا فعلت. دم أخيك صارخ إلي من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت في الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الأرض).[٢٢]

يقول فريزر تعليقا على هذا النص: (من هنا يتضح أن دم الأخ المقتول يشكل خطرا طبيعيا على القاتل، فقد لوث دم القتيل الأرض، ومنعها من أن تفيض بخيراتها. ومن ثم كان الاعتقاد بأن القاتل قد بث السم في منابع الحياة، ونتيجة ذلك فقد عرض مصدر طعامه، وربما طعام غيره للخطر. ومن المسلم به، بناء على وجهة النظر هذه، أنه يتحتم معاقبة القاتل وطرده من البلد التي يشكل وجوده فيه خطرا على الدوام).(٢٣) ويضيف: (وبناء على ذلك فربما كان القصد من تعليم قابيل بعلامة هو إظهاره للشبح {شبح القتيل} بمظهر كاذب. أو ربما كان الغرض منها إظهاره في صورة منفرة أو مفزعة حتى لا يتعرف

عليه شبح القاتل، أو على الأقل يتجنبه).[٢٤]

حسنا، أن يحاول القاتل خداع شبح القتيل فهذا أمر يمكن تقبله. لكن، لماذا يتقدم الله، ممثل العدالة، كي يحمي قاتلا هدر دم أخيه وسمم به الأرض؟ لماذا يضع له علامة تحميه من شبح القاتل، أو من غيره، وتجعل من غير الممكن التعرف عليه؟ ولماذا يهدد من سيقتله بعقاب مضاعف: (فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه)؟ أو حسب الطبري: (فلا يكون كل من قتل قتيلا يجزى بواحد سبعة، ولكن من قتل قينا يجزى سبعة)- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة. لماذا يعطي الله قايين القاتل هذا الامتياز؟ إن هذا لتصرف غير عادل وغير مقنع، أبدا. وفريزر لا يجيبنا عن هذه الأسئلة إجابات شافية.

فوق ذلك فإن النص التوراتي لا يتوافق مع تفسير فريزر بخصوص من يهددون قايين، فهو يقول (كي لا يقتله كل من وجده). أي أنه ليس شبح القتيل من يهدد القاتل، بل (كل من وجده) من الناس. فالقاتل معروض للجميع. دمه مباح، وكل واحد يمكنه أن يقتله.

أضف إلى هذا أننا وجدنا (أرامي) جنوب ليبيا بلا علامة، مما يدل على أن العلامة تعطى لطراز خاص من القتلة، وليس لكل قاتل أرامي.

وعليه، فما معنى وضع هذه العلامة على قايين؟

حقن الدم

قبل أن نحاول الإجابة عن هذا السؤال، ربما كان من المفيد لنا أن نتحدث عن دم القتيل، وعن شبحه، الذي تحدث لنا عنه جيمس فريزر. وسوف نأخذ مثلاً على ذلك مقتل جذيمة الأبرش على يد الزباء، التي:

(أمرت به فأُجلس على نطع وقطعت رواهشه. ويروى في طست من ذهب تفاؤلا أن يذهب دمه هدرا. وكان قد قيل لها: تحفظي بدمه، فإنه إن وقعت قطرة منه على الأرض طلبت بثأره. فلما ضعفت يده سقطت، فقطر منه في غير الطشت شيء، فقالت: لا تضيعوا دم الملك. فقال: دعوا دما ضيعه أهله، ومات).[٢٥]

في هذا النص الأسطوري يتضح أن مصير دم الضحية يحدد، بالفعل، إن كان شبح القتيل سيطالب بالثأر، وإن كان أهله، من ثم، سيطلبون بالثأر لدم ابنهم. من أجل هذا فقد طلب من الزباء أن (تحقن) دم جذيمة، أي أن تمنعه من السقوط على الأرض. ذلك

twitter @baghdad_library

أن سقوطه على الأرض هو المشكلة. فالدم يجمد حال نزوله إلى الأرض ولا يغور في أعماقها، بينما تتقبل الماء الذي ينزل إلى أعماقها، ليعود من جديد عبر المطر أو الفيضان. يعني أن الأرض لا تستطيع تقبل الدم. إنها تبصقه في الواقع. ونظن أن المبدأ الذي انطلقت منه فكرة كره هدر الدم إنما ينطلق من هنا، أي واقع أن الأرض لا تتقبل الدم وتكرهه، ولا تتقبله، أي تمجه وتبصقه في الواقع. لهذا قال الخليفة عمر لأبي مريم الحنفي: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم! أي لن أحبك أبدا. فالأرض لا تحب الدم، وهي لن تحبه أبدا. والنص التوراتي يكاد يقول هذا: (فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك). إنها تفتح فمها كي تبتلع الدم وتقبله كما تبتلع الماء، لكنها تفشل في ذلك. لذا فهي تبصقه. وحين يبصق الدم تظل روح القتيل تائهة، تطالب بالثأر؛ لأنها لن تعود إلى الحياة من جديد في موعد قادم ما. وتتمثل روحه عادة بهامة تظل تصيح مطالبة بالثأر، ولا تسكت حتى يؤخذ به.

وتعبير (حقن الدم)، الذي يعني المصالحة في العربية، كان في الأصل يعني منع الدم من السقوط على الأرض، أي جعله يجري في طشت أو غيره ينطلق من هذه الفكرة. وهذا يعني أن (حقن الدم) لم يكن تعبيرا مجازيا، بل كان ممارسة طقسية واقعية يجري التأكد خلالها من جمع الدم في إناء ومنع الدم من الانهدار، أي منعه من السقوط على الأرض. وربما كان هذا سبب وضع النطع تحت المحكومين بالإعدام بالسيف في الأصل. وربما كان النطع يوضع تحت الإناء، كي يتم التأكد من عدم انهدار الدم على الأرض. فسقوط الدم على الأرض مشكلة كبرى للروح، وللكون، تجعل الثأر، أي الحرب، مسألة لا شك فيها: (فإنه إن وقعت قطرة منه على الأرض طلبت بثأره). هكذا قيل للزباء صاحبة جذيمة الأبرش. لذا أمرت قائلة: (لا تضيعوا دم الملك)، أي لا تسقطوه على الأرض. ولذا، حاولت أن تحقن دم جذيمة في طست، كي لا تنهدر أي قطرة منه على الأرض، فتطالب بثأره. سقوط الدم على الأرض هو المشكلة، وليس القتل بحد ذاته. وتعبير (أهدر دمه) الشائع في التراث العربي على ألسنة الحكام والخلفاء، يعني أن دم الشخص المعني قد بطل، أي أن ثأره قد سقط ولا يحق لأحد أن يطالب به، حتى لو قتل وسقط هذا الدم على الأرض. أو كما قال الشاعر:

دماؤهم ليس لها طالب مطلولة مثل دم العذرة

ومن الواضح، بناء على ما قلنا، أن قايين لم يحقن دم أخيه، ولم يحافظ عليه. لقد أهدره، أي أسقطه على الأرض. وهذا واضح تماما من الجملة التي تقول: (ماذا فعلت؟ دم أخيك صارخ إلي من الأرض!). لقد أسقط دم أخيه على الأرض. لقد اقترف هذا

الذنب الخطير. فها هو الدم يصرخ ويلعن. وبما أن الدم هو الروح ذاتها- في العربية فإن كلمة (نفس) تعني: الدم والروح معا- لذا فصراخ الدم هو صراخ الروح بالضبط. إنها تصرخ وتنوح طالبة بالثأر.

لكن لنعد إلى السؤال الذي طرحناه سابقا، وهو: لماذا يضع الله علامة لقايين القاتل، الذي ضيع دم أخيه على الأرض، لتمنع أيا كان من قتله؟ ولماذا يعاقب من سيقتله سبعة أضعاف؟

نعتقد أن الإجابة تكمن في أن قايين لم يكن قاتلا عاديا. كان قاتلا مقدسا. أي أنه كان يقوم بمهمة تحريك الفصول وتبديلها. أي أن قتله تمثيل لدور في المسرحية الكونية، مسرحية تغير الفصول، بغض النظر عما إذا كان تمثيل الدور يقتضي قتلا فعليا، أو قتلا شكليا مسرحيا، كما نميل إلى القول. ولا بد أن كهانا كثيرين مثله ومثل موسى مثلوا، فيما بعد، دور القاتل الطقسي، وتاهوا في الصحراء فترة ما. فهذه الفترة تؤهلهم للعودة إلى الحياة العادية.

ومن أجل حمايتهم في هذه الفترة الحرجة، كان لا بد من وضع علامة على وجوههم أو أجسادهم حتى يعرف الناس أنهم ليسوا قتلة مشردين عاديين فيقتلونهم من دون خشية من أي ردة فعل، بل هم قتلة مقدسون لا يجب التعرض لهم. ذلك أن أيا كان يمكن أن يقتل القاتل الهارب العادي، حتى لو لم يكن من أهل القتيل. وهو لن ينال العقاب على ذلك. فدم القاتل مهدور، أي أن أحدًا لن يسأل عن حق الثأر له، ولا عن مصير روحه. بينما يضع الله- الدين علامة للقتلة المقدسين مثل قابيل لحمايتهم بعد أن أدوا دورهم الطقسي، الذي يمثل نهاية فصل، ومجيء آخر.

هذا هو في اعتقادنا معنى علامة قايين. إنها علامة حماية للقاتل الرمزي المقدس، لا غير. وقايين كان قاتلا طقسيا مقدسا. كما أن موسى كان قاتلا مقدسا، إضافة إلى القتلة المقدسين الكثيرين الذين رأيناهم في سياق فصول هذا الكتاب.

يهوذا الإسخريوطي

ويبدو أن بإمكاننا أن ندرج قصة يهودا مع المسيح ضمن سياق الأخ الذي يقتل أخاه طقسيا، وإن كان يقتله بشكل غير مباشر. وهناك في قصة الثلاثين من الفضة ما قد يتيح القول بأن يهوذا كان أخا لعيسى المسيح. ففي إنجيل وأعمال الرسل يجري الحديث عن ثلاثين الفضة التي حصل عليها يهوذا نتيجة لخيانته. يقول إنجيل متى:

twitter @baghdad_library

(حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلا قد أخطأت إذ سلمت دما بريئا. فقالوا ماذا علينا. أنت أبصر. فطرح الفضة في الهيكل وانصرف. ثم مضى وخنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحل لنا أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرة للغرباء. لهذا سمي ذلك الحقل حقل الدم إلى هذا اليوم).[٢٦] وفي أعمال الرسل جاء:

(فإن هذا اقتنى حقلا من أجرة الظلم وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها. وصار ذلك معلوما عند جميع سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم حقل دما أي حقل دم).[٢٧]

إذن، فيهوذا أخذ ثلاثين من الفضة ثمنا لخيانته. لكنه فيما بعد أعادها، فرفض الكهنة وضعها في خزنة المعبد لأنها (ثمن دم)، ثم اشتروا بها حقلا دعي (حقل الدم)، أو أن يهوذا هو من اشترى بها هذا الحقل.

غير أن ما يجب أن نشير إليه في البدء، هو أن إنجيل متى يصف النقود التي أخذها يهوذا بأنها (ثمن دم): (لا يحل لنا أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم). والسؤال هو: لماذا توصف هذه النقود بأنها (ثمن دم)؟ فيهوذا لم يشارك في قتل المسيح وفي إسالة دمه. كل ما فعله أنه أخذ ثمن خيانته فقط. هذا السؤال ضروري لأن تعبير (ثمن الدم) ليس تعبيرا عاديا. فالدية، دية القتيل، تدعى في العادة: ثمن الدم. إذن، فالتعبير يوحي بأننا نتحدث عن دية قتيل لا عن أجرة خيانة؟ هذا أولا.

أما ثانيا، فإن علينا أن ندقق في اسم الحقل المذكور. فالاسم كما ورد في الصيغة اليونانية هو (أكل دما) akeldama, akaldama وليس (حقل دما) haqeldema كما تقول كل الترجمات، ومن ضمنها الترجمة العربية طبعا. وعليه، فكي نفهم الفقرة يجب أن تكون الترجمة العربية هكذا: (وصار ذلك معلوما عند جميع سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم أكل دما، أي حقل دم). فمن دون وضع كلمة (أكل دما) كما هي لن نستطيع فهم النص.

وقد رأى جون.م. أليغرو في (الفطر المقدس والصليب) أن تعبير (أكل دما) لا يعني (حقل الدم)، بل يشير إلى طعام محدد. أي أن القسم الأول فيه (أكل) يعني ما يعنيه في العربية. يقول:

(أهم من هذا... هو اسم «الحقل»، Akaldama. فنحن هنا أمام ترجمة كريبوتوغرافية مزيفة، تقرأ الكلمة كما لو أنها الكلمة الآرامية khaqal dema «حقل الدم» في حين أنها في الحقيقة الكلمة الآرامية akal dame «طعام القيمة، أو التعويض»).[٢٨] وهو يعتقد أنه

قد حدث في النص: (لعب كلمات بين الآرامية dema «دم» و dame «ثمن، قيمة» وبين akal «طعام» و khaqoul «حقل». في حين أن المعنى الحقيقي لـ Akeldama هو «طعام التعويض» أو «الكفارة»).[٢٩]

عليه فنحن أمام (أكل دما)، وليس (حقل دما). والإنجيل اليوناني، أي الذي ترجم عن الأصل الآرامي المفقود، هو الذي فسرها، أو ترجمها على أنها تعني (حقل دما).

وتوضيح أليغرو شديد الأهمية، وربما فتح لنا الباب كي نفهم النص. لكننا لا نستطيع إلا قبول نصف هذا التوضيح؛ أي النصف الذي يرى أن القسم الأول من (أكل دما) يعني (الأكل)، أي كما هو الحال في العربية تماما. لكننا لا نوافق على افتراض أن الكلمة الثانية التي قرئت (دما) هي (دامي)، بل نرى أنها (دما)، أي نظير كلمة (دم) في العربية. ونعتقد أن أليغرو لم يفهم تعبير (أكل دما) بشكل كامل. فماذا يعني (طعام القيمة، أو طعام الثمن)؟ ثم كيف يمكن الافتراض أن يهوذا حصل على كفارة؟! فالكفارة تعويض يدفعه المذنب، ولا يتلقاه.

على كل حال، نحن نعتقد أن فهم القصة كلها مرتبط بفهم هذا التعبير (أكل دما). وسوف نستند إلى العربية، شقيقة الآرامية، من أجل حل لغز هذا التعبير. وانطلاقا من العربية، فنحن أمام فرضين اثنين لا غير: فإما أن يكون التعبير هو (أكل دما)، أو أن يكون (عقل دما). وهما فرضان يصلان بنا، على اختلافهما، إلى المكان ذاته: الدية، دية القتيل.

أكل دما: وهذا التعبير الآرامي يجب أن يكون نظير التعبير العربي الشهير (أكل الدم). و(أكل الدم) في العربية يعني: الدية، دية القتيل بالضبط! وهذا يعني أننا أمام (ثمن دم) كما يقول إنجيل متى. لكن (أكل الدم) هو الدية التي تؤخذ في ظرف خاص ومحدد، أي دية تؤخذ في محل يتوجب القصاص {يقال إنه القود وليس القصاص، وإن القصاص للأعضاء والقود للحياة}. إذ يحصل أحيانا أن يكون أقارب القتيل ضعافا أو محتاجين فلا يقدرون على القصاص، أي على الثأر لمقتله بقتل عديل له، فيضطرون إلى القبول بالدية، والتخلي عن حق الثأر. وحين تؤخذ الدية في هذه الحال تسمى (أكل الدم)، على سبيل الذم والقدح. ذلك أنه كان قبيحا جدا عند القبائل العربية أن تؤخذ دية القتيل هكذا، إذ ينظر إلى أخذها على أنها أكل لدم القريب. وهذا يعني أن (أكل الدم) هو الاسم السلبي لهذه الدية. يقول الشاعر الجاهلي:

أكلت دما إن لم أرعك بضرة   بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

twitter @baghdad_library

ويفسر لنا المرزوقي في شرح ديوان الحماسة معنى أكل الدم بقوله: أكلت دما، هذا يجري مجرى اليمين، والمراد بالدم الدية. يريد: يقتل لي قتيل فأعجز عن الأخذ بثأره، فأرضى بأخذ الإبل في ديته، فإذا طعمت ألبانها فكأنما أشرب دم ذلك القتيل. ويتحدث المرزوقي عن الإبل هنا لأن الإبل كانت نقود ذلك الوقت. وعليه، فقبول الدية هو أكل لدم القتيل القريب.

إذن، فيهوذا أخذ دية المسيح. لقد أكل دم المسيح. من أجل هذا سميت النقود التي أخذها (ثمن دم). والدية هي (ثمن الدم) بالضبط.

لكن إذا كان يهوذا قد أخذ دية المسيح فلا بد أن يكون قريبه. فالدية لا تحق لغير القريب. وعليه، فقد قتل قريب يهوذا، أي المسيح، لكن يهوذا لم يطالب بدمه، بل أخذ الدية بدلا من ذلك. ولأن من المفروض ألّا يقبل بأن يأكل دم قريبه، فقد شعر، حسب القصة، بالذنب لاحقا ورمى النقود. ذلك أنه بقبولها يكون كمن أكل دم قريبه. ومن هنا رفض الكهنة وضع هذه النقود في الخزنة. فهي عار، بشكل ما.

انطلاقا من هنا يمكن إعادة تشكيل القصة: فقد دل يهوذا الأعداء الناقمين على قريبه كي يقتلوه. ومقابل هذا فهو قد عقد معهم صفقة تقضي بألا يطالب بالثأر، بل يكتفي بالدية، أي بأكل الدم. طبعا علينا أن ندرك هنا أننا نتحدث مع أشخاص ميثولوجيين لا حقيقيين. فيهوذا والمسيح جزء من طقس ديني يتعلق بتغير الفصول لا غير. أي أن هناك مسرحية يمثل فيها أشخاص حادث قتل طقسي، يتم فيه تورط أخ بقتل أخيه، أو قريب له، لكن بشكل غير مباشر. والهدف من الطقس تصوير تغلب فصل على فصل وإزاحته.

عقل دما: فإذا افترضنا أن تعبير (أكل دما) akaldama الآرامي هو في الأصل بالعين، لا بالألف، أي أنه (عقل دما) 3kaldama –حيث رقم ٣ هنا هو حرف العين حسب كتابة الإنترنت الحديثة، فإن التعبير يكون عديلا لـ(عقل الدم). وهذا التعبير (عقل الدم) أو بشكله المختصر (العقل) هو الاسم الطقوسي لدية القتيل. في حين (أكل الدم) هو اسم الذم كما رأينا. يقول الدكتور جواد علي في المفصل:

(ويعبر عن الدية بلفظة أخرى هي... «العقل»، يقال: «عقل القتيل يعقله عقلا: وداه، وعقل عنه: أدى جنايته، وذلك إذا لزمته دية فأعطاها عنه»). ويضيف: سميت الدية عقلا «لأن الدية كانت عند العرب في الجاهلية إبلا لأنها كانت أموالهم، فسميت الدية عقلا؛ لأن القاتل كان يكلف أن يسوق الدية إلى فناء ورثة المقتول فيعقلها بالعقل ويسلمها إلى أوليائه»، ويقال للذين يتعاقلون على دفع الدية: «العاقلة»).[٣٠]

ويقول لسان العرب: وإنما قيل للدية عقل لأنهم كانوا يأتون بالإبل فيعقلونها بفناء وليّ المقتول، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل دية عقل، وإن كانت دنانير أو دراهم.

إذا صح هذا، تكون الثلاثين من الفضة ليست أجرة يهوذا على تسليم عيسى، بل هي دية عيسى. إنها (عقل دمه) أي ثمن دمه، أي ديته. وكل دية عقل، أي (عقل دما)، حتى وإن كانت دراهم أو دنانير، كما يخبرنا لسان العرب. وعليه فـ (أكل دما) تعني (عقل الدم)، أي (ثمن دم) كما وصفت في إنجيل متى. وأن يأخذ يهوذا دية المسيح، أي أن يأخذ عقل دمه، أو ثمن دمه، فهذا يعني أنه قريب له، وقرابته شديدة جدا. ولأنه قريبه قد دفعت له دية على تركه لدم قريبه من دون ثأر! وهذا هو جوهر القصة كلها: يهوذا قريب المسيح، وقد أخذ ديته!

وتتم عملية (عقل الدم) هذه، حسب المصادر العربية، عبر طقس مثير جدا يدعى (التعقية) أو (عقي الدم) يطلق فيه سهم يدعى (سهم الاعتذار). يقول عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب في شرح التعقية:

(قال أبو العباس ثعلب: التعقية: سهم الاعتذار. قال ابن الأعرابي: أصل هذا أن يقتل الرجل رجلا من قبيلته فيطلب القاتل بدمه، فتجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونهم العفو وقبول الدية. فإن كان أولياؤه ذوي قوة أبوا ذلك، وإلا قالوا لهم: بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي؛ فيقول الآخرون: ما علامتكم؟ فيقولون: أن نأخذ سهما فنرمي به نحو السماء، فإن رجع إلينا مضرجا بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية، وإن رجع كما صعد فقد أمرنا بأخذها. وحينئذ مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية. وكان مسح اللحية علامة للصلح، قال الأسعر الجعفي:

عقّـوا بسهم ثم قالـوا سـالموا يا ليتني في القوم إذ مسحوا اللحى

قال ابن الأعرابي: ما رجع ذلك السهم قط إلا نقيا، ولكنهم يعتذرون به عند الجهال).(٣١)

ويضيف د. جواد علي في المفصل:

(الأصل في القتل القصاص... أما الدية، فلا يقبلها إلا الضعفاء، وكانوا يعيرون من يأخذها بأنهم باعوا دم قتيلهم بمال. ولهذا كان يأبى أولياء المقتول قبول الدية إذا كانوا أقوياء. أما الضعفاء، فقد وجدوا لهم حيلة شرعية ومخرجا من المخارج في دفع ذم الناس لهم بقبولهم الديات، وذلك بلجوئهم إلى ما يقال له: التعقية في تبرير أخذهم دية قتيلهم. «والتعقية هي أن يقول آل القتيل لآل القاتل: بيننا وبينكم علامة، فيقول الآخرون:

twitter @baghdad_library

ما علامتكم؟ فيقولون أن نأخذ سهما فنرمي به نحو السماء، فإن رجع إلينا مضرجا بالدم، فقد نهينا عن أخذ الدية، وإن رجع كما صعد، فقد أمرنا بأخذها. وحينئذ يقبلون الدية. وهم يعلمون أن السهم سيرجع كما صعد من غير دم. ولكنهم يريدون عذرا في قبول الدية: يعتذرون به أمام الناس من تعييرهم لهم، وكانت علامة قبولهم بأخذ الدية، مسح اللحية، فإن مسح اللحية علامة الصلح).(٣٢)

وبناء على هذا، يصبح مفهوما وجود (حقل الدم) في القصة. فهناك (عقل دم) أو (ثمن دم)، أي دية، وهناك مكان مكشوف، أو حقل، يقام فيه طقس التعقية، طقس (عقل الدم). ذلك أن إطلاق السهم والكشف عمّا إذا كان مضرجا بالدم أم لا، يحتاج إلى منطقة مكشوفة. هذه المنطقة هي (حقل عقل الدم)، أي الحقل الذي تتم فيه عملية التعقية الطقسية من أجل حل مسألة الدم والقتل. وقد ورد الاسم عند يوسبييوس Eusebius هكذا: Field of Haceldama وبما أننا نعرف أن حقل دما Haceldama هي أكل دما Aceldama في أعمال الرسل، فإننا نكون أمام صيغة هي: Field of Aceldama. وهي صيغة تكاد تقول لنا إنها: (حقل عقل الدم). نحن فقط بحاجة إلى تحويل الهاء إلى عين كما افترضنا كي نصل إلى الحقل الذي نتحدث عنه.

ويؤيد جذر (عقق) في العربية أن للحقل علاقة ما بالموضوع. فهو يشير إلى حقل ما أو ساحة. يقول الأزهري في التهذيب: (قال أبو عبيدة: عقى الرامى بسهمه من عقق. وعقوة الدار: ساحتها. يقال: نزلت بعقوته. وقال الليث: العقوة: ما حوالى الدار والمحلة، يقال ما بعقوة هذه الدار مثل فلان. وتقول ما يطور أحد بعقوة هذا الأسد، ونزلت الخيل بعقوة العدو).(٣٣)

وكل هذا يشير إلى أن طقس التعقية على علاقة بساحة ما، هي التي تتم فيها عملية التعقية. بذا لم يكن وجود حقل الدم في القصة طارئا كما رأى أليغرو. أي أنه لم يكن حاصل لعب لغوي حول (أكل دما) إلى (حقل دما). فعقل الدم وحقل الدم عنصران رئيسان في القصة.

ومن الواضح أن طقس التعقية، الذي يسمح لأهل القتيل بأخذ الدية، يهدف إلى أن يقول إن القتيل لم يقتل. فالسهم يذهب إلى السماء، أي إلى الآلهة، ليستشيرها بشأن القتيل، فترد بأنه لا يعد قتيل قصاص. وهذا يعني أن روحه لن تظل هائمة تطلب الثأر، كما في حالة من قتلوا ويطالبون بالثأر لدمهم.

بهذه الطريقة تحل غالبية المشاكل في النص. إذ نفهم لماذا دعيت نقود يهوذا باسم (ثمن الدم). فهي بالفعل ثمن دم المسيح، أي ديته. كما نفهم سبب وجود حقل الدم،

ونفهم لم سمي بهذا الاسم (أكل دما)، فهو حقل (عقل الدم). وأهم من ذلك، نفهم العلاقة الغريبة بين المسيح ويهوذا. فهو قريبه الحميم والمستحق لديته.

ويبقى علينا أن نشير إلى الجملة الغامضة جدا في أعمال الرسل، والتي تقول: (وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها). فهنا، حسب الترجمة السائدة، يسقط يهوذا وتنسكب أحشاؤه ويموت. وأدى غموض النص إلى أن تقترح ترجمات مختلفة له، أشهرها التي تقول إنه: انتحر وانشق من الوسط وانسكبت أحشاؤه. أي بافتراض أنه شنق نفسه بحبل وانقطع الحبل، ثم لسبب ما سقط على رأسه وليس على رجليه. وهذا الفرض يبنى على جملة متى: (ثم مضى وخنق نفسه)، رغم أنه لا يوجد فيها ما يدل على الشنق والتعليق. لكن هذه مجرد تخمينات. ونحن نعتقد أن هذه الجملة الغامضة يجب أن تكون على علاقة بطقس التعقية الذي تحدثنا عنه وليس لها علاقة بموت مفترض ليهوذا. وربما دعم جذر (عقق) العربي هذا الادعاء. فالجذر يشير إلى إدارة الظهر. يقول الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة: يقال: واجهني ولا تعقني. أي لا تدر لي ظهرك. فهل كان الطقس يقضي بأن يدير قريب القتيل ظهره للمحكمين أثناء رمي السهم؟ أم هل كان يستلقي على الأرض وظهره للأعلى منتظرا سقوط السهم؟ أما فيما يخص تعبير: (انشق من الوسط)، فإن جذر عقّ يعني الانشقاق في الأصل، ومنه العقوق. كما أن الجذر يعني الارتفاع بالطبع. فطقس التعقية هو طقس رمي السهم إلى الأعلى. قال الشاعر:

وعقت دلوه حين استقلت بما فيها كتعقية العقاب

فعقت دلوه هنا: ارتفعت، كما يرتفع الطائر. يقول الأزهري في تهذيب اللغة (أصل تعقية الدلو {أي رفعه} من العق وهو الشق).[٣٤] ولعل هذا ما يفسر كلمة (سقط) في النص. فبعد أن ارتفع السهم سقط من جديد. وكل هذه الإشارات تجعلنا نشك في أن الترجمة اليونانية لم تكن تفهم المراد من الطقس.

وعلى كل حال، فإن: (أكل الدم)، (عقل الدم)، (عقي الدم) كلها تقود إلى أننا نتحدث عن دية لا عن أجرة خيانة. يعني: يهوذا أخذ دية عيسى. وهذا يشير إلى أنه قريب شديد القرابة لعيسى. هذه الحقيقة توضح العلاقة المحيرة بين عيسى ويهوذا في الإنجيل. فقد كان يهوذا من أقرب تلامذة المسيح إلى نفسه. بل إن هناك من شك أنه أخوه.

وفي إنجيل برنابا فإن يهوذا هو الذي يصلب لا عيسى. فقد تبدى يهوذا على شكل المسيح فصلب. وهذا قريب من الرواية القرآنية. فعيسى لم يصلب بل صلب شبيه له.

twitter @baghdad_library

أما في إنجيل يهوذا، الذي ترجم حديثا، فيقول عيسى ليهوذا:

(سوف تظهر عليهم؛ لأنك ستضحي بالرجل الذي يرتدي ملابسي). ويضيف قائلا: ((افتح عينيك وانظر إلى الغيمة وإلى النور الذي بداخلها وإلى النجوم التي حولها. النجمة القائدة هي نجمتك». وحينها رفع يهوذا عينيه ورأى الغيمة المضيئة، ودخل فيها). بعد ذلك يأتي الكهنة إلى يهوذا، ويقولون له: (ماذا تفعل هنا؟ أنت تلميذ عيسى. فيجيبهم يهوذا كما شاءوا. ثم يأخذ منهم بعض النقود ويسلمه {عيسى} لهم)![٣٥]

وهكذا، ليس في الأمر خيانة. فالمسيح يقول ليهوذا: أنت (ستضحي بالرجل الذي يرتدي ملابسي). أي أننا أمام قتل طقسي شكلي. ليس ثمة من خيانة. هناك طقس ديني قام به يهوذا بتسليمه عيسى لقتلته، وأخذ ديته. إنه قتل طقسي، يرمز إلى الانقلاب الفصلي. لقد جاء الوقت الذي يحكم فيه يهوذا. فنجمته هي (القائدة) الآن. أما نجمة عيسى فهي النازلة. يهوذا إذن أخو المسيح أو نظيره وعديله.

ولا بد لنا أن نشير إلى التشابه المعنوي واللفظي بين إهود سفر القضاة، وهود العربي، ويهوذا خائن عيسى. فهؤلاء كلهم يمثلون أوزيريس الصيفي، أوزيريس الجنوبي، ونجمة سهيل اليماني. وعليه فنجمة يهوذا القائدة هي في الأرجح نجمة سهيل اليماني في السماء الجنوبية في طلوعها الصيفي. وحين يسلم يهوذا المسيح كي يقتل فهو يفتح الباب للانقلاب الصيفي حيث يحكم يهوذا. ويحصل العكس في الانقلاب الشتوي، وهكذا.

ولا بد لنا أن نذكر أيضا أن للمسيح أخا نصف شقيق يدعى يهودا. يقول إنجيل متى: (أليس هذا ابن النجار. أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا).[٣٦]

ولهذا الأخ رسالة من رسائل الرسل تدعى (رسالة يهوذا)، وتقول بدايتها: (يهوذا عبد يسوع المسيح وأخو يعقوب إلى المدعوين المقدسين في الله الآب..).[٣٧]

وهذا يدلل على أن فكرة أخوة يهوذا الإسخريوطي ليست غريبة حتى عن الإنجيل ذاته، وإن بشكل غير مباشر.

وفيما يخص لقب يهوذا، أي الأسخريوطي، فإن اللقب غامض جدا. ويرى بعضهم قسمته إلى جزأين (إس) أو (إش) وتعني: رجل. وبلدة أو مدينة تسمى: كريوت، أو قريوت. وقريوت تعني بالغات السامية القرية أو المدينة. لكن هناك من ربط الاسم بالطائفة اليهودية التي ارتبطت بقلعة مسادا التي تدعى Sicarii الذي يعتقد أن اسمهم (حملة الخناجر)، لأنهم اعتمدوا الاغتيالات بالخناجر أسلوبا لهم.

من جانبنا نعتقد أن الكلمة ربما عنت (الخمري) إلى جانب معانٍ أخرى. وفي العربية هناك ما يدعم هذا. يقول لسان العرب: (الصّقر: ما تحلب من العنب والزبيب والتمر من غير أن يعصر، وخص به بعضهم من أهل المدينة دبس التمر... قال أبو منصور: والصقر عند البحرانيين ما سال من جلال التمر التي كنزت وسدّك بعضها فوق بعض).[٣٨]

وكل هذا يمكن أن يرتبط بالنبيذ. وفي العربية فإن (السكر) كذلك هو الخمر والنبيذ. يقول لسان العرب:

(والسّكر الخمر نفسها. والسّكر شراب يتخذ من التمر والكشوث والآس... وقال أبو حنيفة: السّكر يتخذ من التمر والكشوث يطرحان سافا سافا ويصب عليه الماء... وقال أبو عبيد: السّكر نقيع التمر الذي لم تمسه النار، وكان إبراهيم والشعبي وأبو رزين يقولون: السّكر خمر.

وروي عن ابن عمر أنه قال: السّكر من التمر... ابن الأعرابي: السّكر الغضب؛ والسّكر الامتلاء، والسّكر الخمر، والسّكر النبيذ).[٣٩]

وبما أن يهوذا هو الصيف، فهو (سكري) خمري.

وهناك معانٍ أخرى ربما يكون لها علاقة بالإصخريوطي أو الإسقريوطي. فالصقّار هو اللعان في العربية. يقول اللسان: (اللعان لغير المستحقين).[٤٠] وفي حديث أنس: ملعون كل صقّار. قيل: يا رسول الله: وما الصقار؟ قال: نشء يكونون في آخر الزمان تحيتهم إذا تلاقوا بينهم التلاعن). ويرد ذلك بالسين أيضا. يضيف اللسان: (التهذيب عن سهل بن معاذ عن أبيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: لا تزال الأمة على شريعة ما لم يظهر فيها ثلاث: ما لم يقبض منهم العلم، ويكثر فيهم الخبث، ويظهر فيهم السقارون. قالوا وما السقارون يا رسول الله: قال نشء يكونون في آخر الزمان تكون تحيتهم بينهم التلاعن. وروي بالسين والصاد).[٤١]

ولا يخفى أن هذا المعنى يتوافق مع فكرة يهوذا الخائن الملعون. كما نعلم أن التحايا بالتلاعن بدل التحايا بالسلام والدعوات يعني قلب الأمور؛ لأننا بصدد انقلاب الفصول.

وهناك ما يوحي بارتباط يهوذا بالشيطان، ليس بالمعنى المجازي، بل بالمعنى الفعلي. ففي إنجيل لوقا: (فدخل الشيطان في يهوذا الذي يدعى الإسخريوطي وهو من جملة الاثني عشر).[٤٢] وقد رأينا في فصل سابق كيف أن الشيطان، الذي يدعى في العربية الحارث وفي الآرامية عزاز-إيل، يتماهى مع النغمة الصيفية الفياضة.

twitter @baghdad_library

فصل 27

الإله دأي

(التمر في البئر وفي ظهر الجمل)

رجز قديم

تحمل نصوص الإمبراطور (أسرحادون- ٦٨٠-٦٦٩ ق.م) عن حملته على الجزيرة العربية معلومات يفترض أن تكون ذات قيمة في تنويرنا بديانة الجزيرة العربية في القرنين السابع والثامن قبل الميلاد. لكن القيمة الفعلية لهذه المعلومات لا تتحقق بسبب غموض الأسماء الواردة فيها. فكثير من هذه الأسماء لم يكن بالإمكان فهمه، أو رده إلى ما نعرف من أسماء آلهة أو أشخاص. ونحن هنا سنحاول من جديد فك لغز اسم أو اسمين من هذه الأسماء، لعل ذلك يدفعنا إلى قدر أفضل من التفهم لأديان العرب في الجاهلية البعيدة جدا.

وما دامت نصوص أسرحادون المذكورة تتحدث عن العرب، فليس من قلة الحذر أن نستند إلى المصادر الكلاسيكية العربية لفهم الأسماء التي وردت فيها. فهي المصدر الأوسع بين أيدينا فيما يتعلق بأسماء الآلهة والأفراد لما قبل الإسلام. فوق ذلك فإن فشل المصادر الأقدم في إلقاء ضوء على بعض الأسماء الواردة في نصوص الحملة العربية لأسرحادون يجعل من المصادر العربية الأمل الوحيد لفهم هذه الأسماء. يقول نص حملة أسرحادون:

(واستولى والدي، سنحاريب، على أدوماتو، حصن العرب، وغنم ممتلكاته، وأصنامه، كما أسر أسكالاتو ملكة العرب، وجلب كل هذا إلى آشور. وقد جاء حزائيل، ملك العرب، حاملا معه الهدايا إلى نينوى، المدينة التي أحكمها، وقبل قدمي. لقد رجاني أن أعيد أصنامه، فرحمته. وقد أصلحت الضرر الذي حل بأترسمين، داي، نُهى،

رولدايو، أبيريللو، وعترقوروما، آلهة العرب، وأعدتها له بعد أن وضعت عليها نقشا يعلن هيمنة إلهي آشور، إضافة إلى اسمي).[١]

لدينا في هذا النص عدد من أسماء الآلهة، بعضها يوحي بأنه معروف، وبعضها غير معروف: أترسمين، داي، نُهي، رولدايو، أبيريللو، أتر قوروما. وهناك قليل من الشك حول اسم أتر سمين. فقد ورد في نصوص المسند (عتر سمين). وحسب ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء، فإن (أطرسمين) هذا يعادل هرمس: (وأما هرمس... فهو هرمس الأول، ولفظه أرمس، وهو اسم عطارد، ويسمى عند اليونانيين أطرسمين، وعند العرب أدريس، وعند العبرانيين أخنوخ).[٢]

أما أتر قوروما فيبدو أنه هو الآخر يشير إلى الإله ذاته، لكن ضمن تركيب آخر. غير أننا لا نستطيع أن نعرف ما هي قورونا هذه. فقد تكون منطقة أو مدينة ما أو قبيلة ما، أو حتى إلها ما، أي أن الاسم أتر-قوروما مركب وليس مفردا.

أما نهى فهو إله عربي معروف ورد اسمه في النقوش أكثر من مرة. لكن طبيعته ليست محل وفاق. وفيما يخص آبيريللو فربما كان الإله (عابر) العربي، الذي يتم الحديث عنه كجد قبلي في غالب الأحيان. وعابر هو سبا عند كثير من المصادر العربية. ونحن نظن أنه هو سهيل اليماني.

غير أن هذا الفصل مخصص بالذات للاسمين الأشد غموضا من بين الأسماء التي ذكرها النص الآشوري، أي: (داي) أو (دأي) و (رولدايو) أو (رولدأيو).

داي و رولدايو

ولا بد لنا في البدء أن نلحظ الشبه بين الاسم (داي، دأي) وبين القسم الثاني من الاسم (رولدايو). وربما يفتح لنا هذا الشبه مجالا للاقتراح بأن (رولدايو) اسم مركب، أي أنه مكون من اسمين: (رول + دايو)، حيث دايو هو داي ذاته. وعليه، يكون الاسم داي موجودًا مرتين في النص الآشوري؛ مرة وحده، ومرة ضمن تركيب. وإذا صح هذا، فنحن نعتقد أن التركيب (رولدايو) تركيب تماهٍ، أي أن رول فيه يساوي دايو: رول= دايو. فهما اسمان لإلهين من طبيعة واحدة، أي هما اسمان مختلفان لإله واحد في الحقيقة.

هذا أولا. أما ثانيا، فنحن نختلف بشدة مع الرأي السائد القائل بأن (رولداي) هو الإله (رضى):

twitter @baghdad_library

(يمكن التأكيد على أن قبائل شمال الجزيرة العربية عبدت، على الأقل منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وتبعا لسجلات آشور، الإله رولدأي «رضى». ويمكن مماهاته مع أوروتالت هيرودوتس).[٣]

فلكي يمكن اقتراح أن رولداي هو تحريف ما لرضى، يجب التضحية باللام على الأقل. أما حين نقتنع بأن رضى هو أرصو، وهو الرأي الغالب، فليس هناك حتى من لمحة شبه بين الاسمين أرصو ورولداي. وقد أثبتنا في فصل سابق أن الإله أرصو هو على الأغلب أريس اليوناني ونبي (أهل الرس)، حيث الرس= أريس.

فوق هذا فإن المساواة بين رولداي ورضى تتجاهل وجود (داي، دأي) كإله منفرد في النص ذاته. وليس من المناسب تجاهل الشبه القوي جدا بين (داي) وبين القسم الثاني من (رول-دايو). هذا الشبه الذي استندنا إليه لنفترض أن الاسم مركب من: رول ودايو، أو داي!

أما مساواة رولداي بأوروتالت فأمر يجب النظر فيه بجدية ، لكن ليس على أساس من تشابه لفظي. وقد برهنا سابقا على أن أوروتالت اسم مركب تركيب تماهٍ، أي أن كل جزء من جزأيه يماثل الآخر ويساويه. فـ (أوروت- الرّت) يساوي (لت- اللات). وإذا اقترحنا أن رولدايو هو أوروتالت، فهذا يعني أن رولدأيو هو شبيه اللات. ونحن في الواقع نعتقد أنه كذلك.

لكن إذا كان الاسم مركبا من (داي) و (رول)، فالسؤال هو: من هو الإله دأي هذا؟ ثم من هو رول أيضا، إن كان هناك من رول حقا؟!

الإله الغراب

معلوم أننا لم نعثر في النقوش العربية على إله باسم رولدايو أو داي. فخارج النص الآشوري لا يوجد في النقوش العربية ما يثبت وجود هذا الإله. غير أن المصادر العربية الكلاسيكية يمكن لها أن تساعدنا في فك لغز هذا الاسم. كما أن هذا الاسم ذاته، يمكن أن يساعدنا على فهم مادة غامضة في المصادر العربية الكلاسيكية.!

وسوف نبدأ مباشرة بالقول بأن لهذا الإله، فيما يبدو، علاقة ما بالغراب. فالغراب بالعربية يدعى (ابن دأية). ولسنا بحاجة إلى الحديث عن المناسبة اللفظية القوية جدا بين (داي، دأي) أسرحادون و(دأيه) العربي. فهي واضحة تماما. وفي اللغات السامية الأخرى نجد أن اسم الغراب هو (داي) وليس ابن دأية. فقد ورد في نقش صفوي في شمال السعودية:

(ل د أ ي ت بن أ س د...) وترجم النص هكذا: (بواسطة دأية بن أسد...). أما الاسم دأيت فقد (ورد... في النقوش الصفوية... والمعينية... وهو علم بسيط، اشتقاقه من دأية أي (الغراب»... الذي عرف أيضا {دأيه} في العهد القديم... أما في النقوش الأوجاريتية فجاء بصيغة دأي بمعنى «طائر، طير»)[٤].

وتقدم لنا المصادر العربية تفاسير صعبة وغامضة لاسم ابن دأية هذا. فهي تجمع تقريبا على أن الاسم أتى من علاقة الغراب بدأية البعير،أي فقار كاهله. يقول الجاحظ في الحيوان: (والعرب تسمي الغراب ابن دأية، لأنه إذا وجد دَبَرَة في ظهر البعير، أو في عنقه قرحة، سقط عليها، ونقره وأكله، حتى يبلغ الدايات).[٥] ويضيف الزمخشري في أساس البلاغة: (نعب ابن دأية أي الغراب، نسب إلى دأية البعير وهي فقارته لوقوعه عليها إذا دبرت(.[٦] يضيف لسان العرب: (الدأَيات أَضلاع الكتف وهي ثلاثة أَضلاع من هنا وثلاث من هنا، واحدته دأية).[٧] وقال بعضهم إنها خرزات فقار العنق بالذات.

إذن، فقد سمي الغراب بابن دأية لأنه يقع على ظهر البعير المنفرد وينقر دبرته حتى يصل عظام فقراته. غير أننا نشك في هذه التفسير الذي ينطلق من المناسبة اللفظية بين اسم الغراب وبين اسم عظام كاهل البعير. إنه تفسير غير مقنع، رغم أنه لا يمكن تجاهل الشبه اللفظي بين (دأية) البعير والغراب (ابن دأية). ولعل بيتا معروفا من الشعر للشماخ أن يفيدنا في كشف هذه العلاقة الملغزة بين اسم الغراب هذا وبين دأية البعير:

حمراء من معرضات الغربان   يقدمها كل علاة عليان

تجمع المصادر العربية أن (معرضات الغربان) في هذا البيت إشارة إلى طراز من النوق التي تحمل التمر على ظهورها. يقول ابن بري: (هذه الناقة تتقدم الحادي والإبل فلا يلحقها الحادي فتسير وحدها، فيسقط الغراب على حملها إن كان تمرا أو غيره فيأكله، فكأَنها أَهدته له وعَرضَته).[٨] ويقول ابن قتيبة الدينوري، في غريب الحديث: (حمراء من معرضات الغربان، يريد: أنها تتقدم الإبل وعليها التمر، فتقع الغربان عليها، فتأكل التمر. فكأنها هي أهدته إلى الغربان).[٩]

إذن، فثم طراز محدد من النوق يحمل تمرا على ظهوره، يتقدم الإبل مبتعدا عنها مسافة، فتسقط عليه الغربان وتأكل من حمله من دون أن تخشى شيئا. وهذه النوق تسمى (معرضات الغربان). ولكن الذي يجب الانتباه إليه هنا هو أن (المعرضات) تعني الهدايا. فالعراضة:

twitter @baghdad_library

(العراضة: هدية القادم خاصة).[١٠] ويقال: (العراضة الهدية والطعام تجعله عرضةً لأهل المياه).[١١] وقال اللحياني: (عُراضة القافل من سفره: هديته التي يهديها لصبيانه، إذا قفل من سفره).[١٢] وفي الصحاح للجوهري: (والعراضة بالضم: ما يعرضه المائر، أي يطعمه من الميرة. يقال: عرضونا، أي أطعمونا من عراضتكم. قال الشاعر: تقدمها كل علاة عليان حمراء من معرضات الغربان).[١٣]

إذن، فمعرضات الغربان تعني بالضبط: (هدايا الغربان). هذا يعني أن التمر الذي يحمل على ظهور هذه النوق هو هدية للغراب. إنها هدية تهدى إليه، وليس (كأنها قد أهديت). فهي تحمّل بالتمر، وتترك في مقدمة القافلة، وبعيدا عنها، كي تأكله الغربان بلا خوف.

وعليه، فالغراب لا يذهب سارقا إلى هذه الناقة. لا يستفرد بهذه النوق ويأكل تمرها. بل يذهب ليأخذ حقا ما، أو هدية ما. ولا يمكن أن يكون هذا الكرم تجاه إعطاء الغراب بلا سبب. إذ لا بد أن يكون ممثلا لإله له الحق في التمر المذكور. أي أنه يأخذ التمر نيابة عن هذا الإله. ونحن نعتقد أن هذا الإله هو الذي ورد في النص الآشوري: (داي، دأي). ومن أجل هذا سمي الغراب ابن دأيه، فهو ابن هذا الإله، أي تجسيده وممثله.

يوضع التمر، إذن، على ظهر ناقة، وتترك كي تبتعد مسافة في مقدمة الركب كي يأكل الغراب من التمر من على ظهرها بأمان. ولعل هذا هو السبب الذي جعل عظمة كاهل الجمل تدعى (دأية). لقد سميت بذلك لأن الغراب، أي دأية أو ابن دأية، يقف عليها ويأكل تمره، أو لأن حمل تمره يوضع عليها. ولدينا هذا الرجز الذي يؤكد أن التمر من حق الغراب، وليس غنيمة يخطفها من جمل ابتعد عن الركب:

قد قلت يوما للغراب إذ حجل — عليك بالقود المسانيف الأول

تغذ ما شئت على غير عجل — التمر في البئر وفي ظهر الجمل

فههنا يحجل الغراب، فيطلب منه الشاعر أن يذهب إلى الجمال المتقدمة (القود المسانيف الأول) كي يأكل من التمر الذي على ظهورها ما شاء على غير عجل، أي بأمان ومن دون خوف أو وجل. أي أن الأمر لا يتعلق بسرقة بتاتا. القود المسانيف الأول، أي الجمال المتقدمة، هي معرضات الغربان نفسها. والواضح من الرجز أنه حين يحجل الغراب حجلته، في وقت معين من السنة كما نظن، فإنه يكون قد أتي كي يأخذ حصته، أي حصة إلهه، السنوية من التمر. فهو عشار يأخذ الضريبة لهذا الإله. ولعله لهذا السبب سمي صياح الغراب بالتعشير. يقول أبو العلاء المعري:

وكأن تعشير الغراب محدث — أن الخليط يحل في تعشار

لكن الرجز السابق يعطينا معلومة إضافية. إذ يبدو أن هدية الغربان من التمر توضع على ظهر جمل أو في بئر محدد. (التمر في البئر وفي ظهر الجمل) وقد اهتمت المصادر العربية بحكاية البئر، وحاولت أن تجد له تفسيرا، فأضافت لنا معلومات عن هذا الطقس الديني، طقس هدية الغراب. والشائع في تفسير موضوع البئر هو كما يقول الميمني في سمط اللآلئ: (يقول: يا غراب، إن أفنيت ما عليها من التمر {أي ما على ظهور الإبل}، فإن الماء إذا استقى من البئر على ظهر الجمل خرج الرطب وجاء التمر).[١٤] عليه، فإن نزح الماء من البئر على ظهر الجمل وسقي النخل فسوف ينضج ثمره فيأكله الغراب أو غيره.

لكن الأمر لا يبدو لنا كذلك. إذ يخبرنا الميداني أن للتمر الذي في البئر قصة محددة تدعم تفسيرنا: (أصل ذلك أن مناديا فيما زعموا كان في الجاهلية يكون على أُطُم من آطام المدينة حين يدرك البُسر، فينادي: التمر في البئر، أي من سَقَى وجَدَ عاقبة سقيهٍ في تمره).[١٥]

إذن، فحين يدرك ثمر النخيل، أي ينضج في وقته المحدد من السنة، يقف منادٍ ما على أطم (حصن) في المدينة ويقول للغراب: إن التمر في البئر (وفي ظهر الجمل) أي فاذهب وكله أو خذه. وهذا يؤكد ما سبق أن تكهنا به، وهو أن الغراب يأتي في موعد محدد من السنة كي يأخذ حقه. هذا الوقت هو وقت نضوج التمر. فحين ينضج التمر يحجل الغراب حجلته كي يحصل على تمره. فهذا التمر ضريبة سنوية لها، تتلقاها الغربان في كل عام في هذا الوقت من السنة. ويبدو أن عدم دفع هذه الضريبة لن يرضي الغربان، وبالتالي لن يرضي الإله الذي تمثله. وعليه، فحين يحجل الغراب عند القافلة، أو يعشر تعشيرته قرب المدينة يكون مطلوبا أن يدفع له العشر، أي الضريبة السنوية.

تمرة الغراب

ولعل في المثل العربي القديم المعروف (وجد تمرة الغراب) ما يدعم تحليلنا. فهو يعني من وجهة نظرنا: وجد ما يرضيه. وهذا يعني أنه وجد هديته، أي الضريبة التي وضعت له في البئر أو على ظهر الجمل، الأمر الذي جعله يهدأ ويسكت.

twitter @baghdad_library

لكن لأن المصادر العربية رأت في المثل إشارة واقعية، لا ميثولوجية فقد فشلت في فهم موضوع هذه التمرة. فالتفسير السائد للمثل يقول إنه: (يضرب لمن يظفر بالشيء النفيس لأن الغراب يختار أجود التمر). فـ (الغراب أعرف بالتمر) وهو (لا يأخذ إلا الأجود منه)، ذلك أن (يتبع أجود التخمر فينتقيه).[١٦]

غير أن تقريرا واقعيا يقدمه لنا الجاحظ في الحيوان يدعم تفسيرنا أكثر مما يدعم تفسير المصادر العربية. فالغراب في البصرة لا يعمد إلى أجود التمر فينتقيه ويسرقه، بل هو يمتنع عن الاقتراب من النخلة قبل أن تجد:

(وبالبصرة من شأن الغربان ضروب من العجب، لو كان ذلك بمصر أو ببعض الشامات لكان عندهم من أجود الطلسم، وذلك أن الغربان تقطع إلينا في الخريف، فترى النخل وبعضها مصرومة، وعلى كل نخلة عدَد كثير من الغربان، وليس منها شيء يقرب نخلةً واحدة من النخل الذي لم يُصرم، ولو لم يبق عليها إلا عذق واحد، وإنما أوكار جميع الطير المصوت في أقلاب تلك النخل، والغراب أطير وأقوى منها ثم لا يجترئ أن يسقط على نخلة منها، بعد أن يكون قد بقي عليها عذق واحد). ويضيف:(ولو أن الله عز وجل أذن للغراب أن يسقط على النخلة وعليها الثمرة لذهبت، وفي ذلك الوقت لو أن إنساناً نقر العِذق نقرة واحدَةً لانتثر عامة ما فيه، ولهلكت غلات الناس، ولكنك ترى منها على كل نخلة مصرومة الغربان الكثيرة، ولا ترى على التي تليها غراباً واحداً، حتى إذا صرموا ما عليها تسابقن إلى ما سقط من التمر في جوف الليف وأصول الكرَب لتستخرجه كما يستخرج المنتاخ الشوك).[١٧]

إذن، فثم ظاهرة غريبة جدا تجعل الغربان تمتنع عن النخل غير المصروم، أي غير المقطوف. فهي لا تقترب من النخلة إلا بعد أن تجد وتصرم باحثة عمّا تبقى من تمر عليها. وهذا يعني أن الغراب، في العالم الواقعي، لا يتقدم كي يبحث عن أجود التمر وأفضله، بل يلقط ما تبقى بعد الجد. عليه، فالتفسير الواقعي للمصادر العربية للمثل: (وجد تمرة الغراب)، بمعنى وجد أجود التمر لا يصلح؛ لأن الأمر يتعلق بتمرة ميثولوجية. فالمثل يعني: وجد ما يرضيه. أي وجد ضريبته السنوية. وهو ما يشير إليه الزمخشري: (وجد عنده تمرة الغراب، أي ما أرضاه)،[١٨] رغم أنه يخلطه بوجهات النظر الأخرى.

في كل الأحوال، فالتمر ليس على ظهور المعرضات أو القود الأول فقط، بل أيضا في بئر ما، كما أخبرنا شطر الرجز السابق، فماذا يعني هذا؟ وهل يتعلق الأمر بالتنبيه إلى أن نضح الماء من البئر، وسقي النخل، سوف ينتج تمرا، يستطيع من فعل ذلك أن يأكله لاحقا، كما تقول المصادر العربية؟ أي هل هو مجرد مثل لا غير؟

نحن لا نظن ذلك. ونرى أن في هذا البيت إشارة ميثولوجية، كما كان الحال مع (معرضات الغربان). إذ تعلمنا المصادر السومرية أن الغراب هو من زرع أول نخلة في الكون، بتعليمات محددة من الإله (إنكي). وهو لم يزرعها فقط، بل سقاها بالشادوف، وهو أمر لم يكن له مثيل من قبل: (أن يقوم طائر كالغراب بعمل إنسان، وأن يجعل الشادوف يصعد ويهبط، أن يجعله يهبط ويصعد! فمن رأى مثل هذا يحصل من قبل؟).

أما النخلة التي زرعها فكانت: (شجرة تنمو إلى الأبد. أوراقها الإبرية تحيط بقلبها. طلوعات فسائلها تصلح مقياسا للمساحين، ولحدائق الملوك. أغصانها تستخدم كمكانس لتنظيف القصور الملكية. وتمرها الذي يكوم قرب الشعير المنقى، يصلح لمعابد الآلهة العظام).[١٩]

وعليه، يحق لنا أن نفترض أن (دأي) يبدو على علاقة بـــ الإله (إنكي) ذاته. وإنكي هو الماء الجوفي، أي هو الماء الأرضي، ماء الآبار والصدوع والشقوق، لا ماء المطر السماوي؛ لذا فالتمر الذي خصص للغراب ابن دأية، والذي عرض على ظهر الجمل، أو في البئر، هو حق هذا الغراب، الذي يمثل إلها شبيها بالإله أنكي. هذا الإله يدعى (دأي، دأية). أما الغراب فهو ابنه أو تابعه وممثله؛ لذا سمي ابن دأية.

وكما نرى من النص السومري، فالنخلة شجرة تليق بالملوك. ففسائلها تصلح (لحدائق الملوك). و (تمرها... يصلح لمعابد الآلهة العظام). ولأنه كذلك فهو يوضع على ظهور جمال محددة، لكي يتلقاها الغراب ممثل الإله. وبناء على الرجز السابق فربما أنهم كانوا يضعون، أيضا، قفة من هذا التمر للإله في بئر ما. فالبئر له، والماء ماؤه، لذا فعليه أن يحصل على حقه من التمر الذي أنتجه هذا الماء. أي أن التعبير: التمر في البئر وفي ظهر الجمل، ربما كان على الحقيقة وليس على المجاز كما افترض المفسرون العرب.

twitter @baghdad_library

الزماح

ويبدو لنا أن طائرا ميثولوجيا يدعى الزماح على علاقة بالغراب ابن دأية هذا. فقد أخبرنا الزمخشري في الكشاف ما يلي: (الزماح: طائر كان يقع على آطام يثرب كل عام أيام التمر فكان يصيب منه ويطير ولا يتعرض له أحد وكان يقول: خرب خرب فرماه رجل فقتله وقسم لحمه في الناس فلم يمتنع منه إلا رفاعة بن يسار ورهطه فهلك كل من أكل منه).[٢٠]

وقد رأينا قبل لحظات كيف أن الغراب كان يدعى من على أطم في المدينة كي يأخذ تمره الذي في البئر وعلى ظهر الجمل، في وقت محدد من السنة. وها نحن نرى أن الزماح أيضا يقف على أطم في المدينة فيصيب تمره من دون أن يتعرض له أحد. وهو يفعل فعلته (أيام التمر)، أي أيام نضوج البسر، مثله مثل الغراب. وهذا يعني أنه مثيل الغراب ابن دأية، أو أنه اسم آخر له. وبما أن الزماح يقف على الأطم كي يأخذ حصته من التمر، وبما أن النداء للغراب يحصل على الأطم أيضا، فلنا أن نفترض أن التمر يوضع للغراب والزماح في بئر محدد في الحصن.

ويزيدنا ابن دريد في جمهرة اللغة عن الزماح الذي يصيح صيحته المخيفة:

(فأما الزماح فطائر كان في الجاهلية يأتي المدينة فيقف على أُطُم بني واقِف فيصيح: خرب خرب، فرمَوه فقتلوه وله حديث، وحديثه أنه كان مَن أكل من لحمه أصابه حَبن).[٢١]

ويضيف الزبيدي في تاج العروس: (هو طائر كانت الأَعراب تقول: إنه يأخذ الصبِي من مهده. والتزمِيح: قَتلُه، أي هذا الطائرِ بعينه).[٢٢] ويزيد اللسان: (الزماح: طائر كان يقف بالمدينة في الجاهلية على أطم فيقَول شيئاً، وقيل: كان يسقط في بعض مَرابِدِ المدينة فيأكل تَمره، فَرموه فقتلوه فلم يأكل أَحد من لحمه إلا مات).[٢٣]

هكذا، فثم طائر اسمه الزماح، يأتي وقت التمر ويأكل فلا يتعرض له أحد. لكن في لحظة ما قتله أحدٌ ما وعمل وجبة من لحمه. ولأن هذا الزماح حيوان مقدس فيما يبدو، مثله مثل الغراب، فإن الحديث يوحي بوجبة طقسية لا بجريمة قتل فعلية. ذلك أن لحم حيوان الإله، أي طوطمه، يؤكل في يوم محدد في السنة. يوم واحد لا غير. ففي هذا اليوم تتم التضحية بهذا الحيوان، ويسال دمه من أجل الإله، ويترك لحمه لعباد هذا الإله. فالآلهة تأخذ الدم فقط، كي تستعيد شباب نفوسها. إذ الدم يعني النفس في العربية. وبهذا

يمكن حل التناقض القائم في أن الطائر كان آمنا لا يتعرض له أحد من جهة، وأنه قتل من جهة أخرى وأكل لحمه كثيرون. فهو طائر يمثل إلها، لذا فقتله ممنوع. لكن يسمح بقتله مرة واحدة في السنة كأضحية لإلهه.

الإله رول

وإذا اقتنعنا بأن رولداي تركيب مساواة وتماه، أي أن (رول= داي، رول= دأي)، وكان دأي مرتبطا بنضوج التمر، أي بالصيف، فلا بد لرول أن يكون مرتبطا بالصيف أيضا، أي أنه مثل أوزيريس الصيفي ذو طابع فيضي. وجذر (رول) العربي يعطي بالفعل معنى السيلان والتدفق والرطوبة. يقول الزمخشري في الكشاف: (رول رأسه من الدهن: رواه. ورول الخبز بالسمن وبالأدم. ورول الفرس: أدلى ليبول. وترول في مخلاته: سال فيها رواله وهو لعابه).[٢٤] ويزيد اللسان:

(الروال والمرغ واللعاب والبصاق كله بمعنى.. ورول الفرس: أدلى ليبول).[٢٥] أما البكري في معجم ما استعجم فيتحدث عن وادٍ يدعى ذا رولان: (ذو رولَان...على لفظ جمع رول: وادٍ لبني سليم).[٢٦] ويبدو أن المعنى هو: الوادي الفياض أو المتدفق أو السيال.

وهكذا، فالجذر يعني السيلان، أو السيلان من دون القدرة على الضبط. وهذا ما يتوافق مع ما افترضناه من أنه يمثل أوزيريس في فيضانه، في نغمته الصيفية العليا.

وكي ندعم فرضيتنا بشأن وجود مثل هذا الإله، لا بد أن نذكر أن (رول) ورد في النقوش الثمودية في الجزيرة العربية كاسم لقبيلة. ففي النقش Hu 307/3 جاء: (ذن حسبم بن زحل ذ رول)، أي ما ترجمته: (حسبم بن زحل من عشيرة رول).[٢٦] ونحن نعلم أن كثيرا من أسماء القبائل، إن لم يكن غالبها، هي أسماء آلهة في الأصل. فالقبيلة تسمى باسم إلهها. كما ورد رول (علما على شخص في {النقوش} الصفوية) أيضا.[٢٧] ومن غير المستبعد حتى أن يكون لاسم قبيلة (الرولة) العربية التي ما زالت تعيش في الجزيرة العربية والشام علاقة باسم هذا الإله. وكل هذا يوحي بوجود إله باسم رول، وإن كنا لم نعثر على نقش يقول صراحة بوجوده.

على كل حال، فقد ساعدنا على افتراض أن (رولدأي) اسم مزدوج ورود الاسم (دأي) في النص الآشوري وحده، وغير مرتبط بقرينة. ومن دون هذه الواقعة، ربما كان من شبه المستحيل أن نتوصل إلى الطابع المزدوج للاسم، أو أن نقنع أحدا بذلك.

twitter @baghdad_library

وأخير، ثَم في الميثولوجيا العربية ما يؤكد لنا أن الغراب ممثل النغمة الصيفية العالية. ذلك أن هناك علاقة عداء بين الغراب والحمار. يقول الجاحظ في الحيوان: (ويقال: إن بين الغراب والحمار عداوةً، كذا قال صاحب المنطق. وأنشدني بعض النحويين:

عاديتنا ما زلت في تبابِ عداوة الحمار للغراب).(٢٨)

لماذا يعادي الحمار الغراب؟ وهل من سبب له سوى أنه عداء وتناقض بين نغمتي الكون المركزيتين، الصيف والشتاء؟ وقد علمنا في فصول سابقة على طول هذا الكتاب أن الحمار يمثل أوزيريس في مظهره الشتوي. وها نحن نتوصل إلى أن الغراب ممثل النغمة الصيفية. وقد أشرنا من قبل إلى أن العرب دعت صياح الغراب باسم (التعشير). والتعشير هو أيضا صوت المكاء الطائر. ولم يكن لصوتي هذين الطائرين أن يدعيا باسم واحد لولا أنهما يمثلان إلها واحدا، هو أوزيريس الصيفي.

ويمكن للمرء، أخيرا، أن يتساءل إن كان من الممكن أن تكون ثَم علاقة بين (داي) (دايو) وبين ديونيسوس اليوناني Dio-nysus، أو قل بين دأي وبين Dio. ذلك أن ديونيسوس اسم مركب من: (ديو + نيسوس). ويعتقد كثيرون أن الجزء الثاني من اسمه يعني الشجرة. وهكذا فديو مرتبط بالشجرة، مثلما هو دأي مرتبط بالنخلة. أوزيريس كما نعلم شجرة. وهو في نغمته الصيفية طائر يقف على قمة شجرة الصفصاف. وهو مرتبط بالخمر مثل ديونيسوس. وفي صيفه يتم تحويل الماء في التمر والعنب إلى نبيذ. إذن، هل يكون رولداي هو ديونيسوس، أي أوزيريس الصيفي؟

إذا كان كذلك فهو شبيه اللات العربي تماما.



twitter @baghdad_library

مصادر فصل 1

* اختيرت ( ) كعلامة تنصيص في الكتاب.
* حين لا يذكر اسم المترجم تكون الترجمة من صنع الكاتب.

١ ابن دريد، الاشتقاق، نسخة إليكترونية من الوراق www.alwaraq.com
٢ الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، الوراق
٣ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، المجلد الثاني، ص ١٥ ١٦
٤ ابن سعد، الطبقات الكبرى، الوراق
٥- البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، الوراق
٦ - ابن منظور، لسان العرب، الوراق، مادة جوز
٧- الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، الوراق، مادة جوز
٨ - الجوهري، الصحاح، الوراق
٩ - ابن منظور، لسان العرب، مادة ريح
١٠ ابن قتيبة الدينوري، المعاني الكبير، الوراق
١١ الجوهري، الصحاح، الوراق
١٢ ابن سعد، الطبقات الكبرى، الوراق
١٣ - القرآن الكريم، سورة يوسف، الآيات: ٣٦- ٣٧
١٤ - القرآن الكريم، سورة يوسف، آية ٤١
١٥ - العهد القديم، تكوين: الإصحاح ٤٠: الآيات: ١-١٤
١٦ العهد القديم، تكوين، الإصحاح ٤٠: ١٦- ٢٣
١٧ - الميداني، مجمع الأمثال، الوراق
١٨ - لسان العرب، ابن منظور، الوراق
١٩ - إنجيل متى، دار الشرق الأوسط للكتاب المقدس، الإصحاح ٢٦: ٢٦-٢٧
٢٠ القرآن الكريم، الآية الخامسة والثلاثين، سورة الأنفال
٢١ - القرطبي، تفسير القرطبي، الوراق
٢٢ - معجم البلدان، ياقوت الحموي، الوراق
٢٣ - محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير
٢٤ - الثعلبي، الكشف والبيان، الوراق
٢٥ - ابن السكيت، إصلاح المنطق، الوراق
٢٦ - ابن منظور، لسان العرب
٢٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، الوراق
٢٨ - الدميري، حياة الحيوان الكبرى، الوراق
٢٩ - القرطبي، تفسير القرطبي، الوراق
٣٠ - - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، المجلد الثاني، ص ٢٥

٣١- الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، الوراق
٣٢- محب الدين الحموي، حادي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية، الوراق
٣٣- أبو عمرو الشيباني، الجيم، الوراق
٣٤- ابن منظور، لسان العرب
٣٥- ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، الوراق
٣٦- ابن منظور، لسان العرب
٣٧- الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٣٨- الأزهري، تهذيب اللغة، الوراق
٣٩- ابن منظور، لسان العرب
٤٠- الجاحظ، البرصان والعرجان، الوراق
٤١- ابن قتيبة الدينوري، المعاني الكبير، الوراق
٤٢- ابن دريد، جمهرة اللغة، الوراق
٤٢- ابن هشام، سيرة ابن هشام، الوراق
٤٤- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٠، الجزء الثالث، ص ٧٩٤
٤٥- ابن قتيبة الدينوري، المعاني الكبير، الوراق
٤٦- الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٤٧- ابن السكيت، القلب والإبدال، الوراق
٤٨- الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٤٩- الأزهري، تهذيب اللغة، الوراق
٥٠- المناوي، التوقيف على مهمات التعريف، نسخة من الموسوعة الشاملة
٥١- الخليل، العين، الوراق
٥٢- ابن منظور، لسان العرب
٥٣- ابن منظور، لسان العرب
٥٤- الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٥٥- ابن سيدة، المخصص، الوراق
٥٦- ابن منظور، لسان العرب
٥٧- الجاحظ، الحيوان، الوراق
٥٨- الزمخشري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الوراق
٥٩- الميداني، مجمع الأمثال، الوراق
٦٠- التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الوراق
٦١- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، الوراق
٦٢- ديوان الأساطير؛ سومر وأكاد وآشور، الكتاب الثاني، ترجمة قاسم الشواف، وإشراف أدونيس، دار الساقي، ص ٥٩٢- ٤٩٥
٦٣- ابن إسحق، السيرة النبوية، الوراق
٦٤- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الوراق
٦٥- الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الوراق

twitter @baghdad_library

٦٦- ابن اسحق، السيرة النبوية، الوراق
٦٧- الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الوراق
٦٨- ابن الضياء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام، الوراق
٦٩- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الوراق
٧٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
71-E. A. Wallis Budge, The Book of The Dead, The Papyrus of Ani, The Principe Geographical and Mythological Palaces in the Book of Dead,Internet Sacred Texta Archive: http://www.sacred-texts.com/egy/ebod

الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب
72-Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Heroic Tales- Exploits of Gods and Human Biengs, Edited by James Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 12.

٧٣- ابن اسحق، السيرة النبوية، الوراق
٧٤- ابن منظور، لسان العرب
٧٥- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الوراق
٧٦- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، الوراق
٧٧- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الوراق
٧٨- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، الوراق
٧٩- مرتضى الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٨٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
٨١- العهد القديم، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، خروج، ٣٤: ٢٠
82- The picture from: The Encyc;opedia of Ancient Edypt, By Margaret Bunson, Cramercy Books, New York, page 47
83- Gilgamesh and the Huluppah Tree translated, by S.N. Kramer, 1938, URL: http://www.mythome.org/mythhome.htm

ترجمة النص من صنع الكاتب، وعندما لا يذكر المترجم يكون النص من ترجمة الكاتب دوما.
٨٤- فراس السواح، جلجامش، ص ٥٣، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦
85-Eusebius of Caesarea: Praeparatio Evangelica Preparation for the Gospel-. Tr. E.H. Gifford 1903- -- Book 1, X. Theology of the Phoenicians, Early Church Fathers - Additional Texts
٨٦- ابن الضياء، تاريخ مكة والمسجد الحرام، الوراق
٨٧- البخاري، صحيح البخاري، نسخة إلكترونية من www.elmoslem.com
٨٨- ابن دريد، الاشتقاق، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٨٩- ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، الوراق
٩٠- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الوراق
٩١- المسعودي، مروج الذهب، الوراق
٩٢- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، المجلد الثاني، ص ٢٥٤
٩٣- ابن الجوزي، المنتظم، الوراق
٩٤- رينيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٤٥

٩٥– رينيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٤٦
٩٦– ابن، منظور، لسان العرب
٩٧– ابن الأثير المحدث، النهاية في غريب الحديث والأثر
٩٨ الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٩٩– ابن منظور، لسان العرب
١٠٠ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٠، ج٣، من: www.almeshkat.com
١٠١ – الكتاب المقدس، دار العهد القديم للكتاب المقدس، سفر أشعيا، ٦٥: ١١–١٣
١٠٢ – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٣، ج ٦، ص ٢٥٠، من: muhammadansim.org
١٠٣ – المفصل، ج٦، دار العلم للملايين–بيروت، ومكتبة النهضة - بغداد، ١٩٧٠، ص ٢٨٢
١٠٤ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٣، ج٦، ص ٢٨٤–٢٨٥، من: muhammadansim.org
١٠٥– المفصل، ج٦، ص ٣٠٩–٣١٠ من: muhammadansim.org
١٠٦– المفصل ج ٦، ص ٢٨٤، من: muhammadansim.org
١٠٧– المصدر ذاته، ص ٣٢٣، : muhammadansim.org
١٠٨ – الزبيدي، تاج العروس، الوراق
١٠٩ – المصدر ذاته
١١٠– هيرودوت، تاريخ هيرودت، ترجمة عبد الإله الملاخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١، ص ١٧٦–١٧٧
111- James George Frazer, The Golden Bough, The world Classics, Oxford University Press, London- New York, 1994, page 740
١١٢ – الجاحظ، الحيوان، الوراق
١١٣– ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الوراق.
١١٤– ابن منظور، لسان العرب
١١٥ – ابن منظور، لسان العرب
١١٦– سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نقوش قارا القمودية بمنطقة الجوف بالمملكة العربية السعودية، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، الرياض، ١٤٢١ه، ص ٢٣
١١٧ – تاريخ هيرودت، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ترجمة عبد الإله الملاخ، ٢٠٠١، ص ١٨٦
١١٨– ابن فضل العمري، مسالك الأبصار، الوراق
١١٩– القرآن الكريم، سورة قريش، ١–٤
١٢٠– القرطبي، تفسير القرطبي، الوراق
١٢١ – القرطبي، تفسير القرطبي، الوراق
١٢٢ – النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الوراق
١٢٣ – الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الوراق
١٢٤ – الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، الوراق

twitter @baghdad_library

١٢٥ القرآن الكريم، سورة القصص، آية ٥٧
١٢٦ – د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت، ودار النهضة بغداد، ١٩٧٠، ج ٦، ص ٣١٦
١٢٧ الطبري، تاريخ الطبري، الوراق
١٢٨ ابن الأثير المؤرخ، الكامل في التاريخ، الوراق
١٢٩ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الوراق
١٣٠ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، الوراق
١٣١ – ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
١٣٢ – القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، الوراق
١٣٣ – ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
١٣٤ – النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الوراق
١٣٥ – عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب، الوراق
١٣٦ ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
١٣٧ ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
١٣٨ – الحازمي، ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، الوراق
١٣٩ – الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، الموسوعة الشاملة
140- Grahaham Hancock and Robert Bauval, The Massage of the Sphinx, 1996, p, 278-279
١٤١ – السير ولس بدج، الديانة الفرعونية؛ أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى، ترجمة يوسف سامي اليوسف، دار أزمنة، عمان، ط٢ ١٩٩٩، ص ١٥٧
142- Egyptian Mythology, Geraldine Pinch, Oxford University Press, 2002, p,160
١٤٣ – د. سليمان عبد الرحمن الديب، نقوش قارا الثمودية بمنطقة الجوف بالمملكة العربية السعودية، منشورا مؤسسة السديري الخيرية، الرياض، ١٤٢١ هـ، ص ٢١
١٤٤ – د. سليمان عبد الرحمن الذييب، نقوش قارا الثمودية بمنطقة الجوف بالمملكة العربية السعودية، منشورا مؤسسة السديري الخيرية، الرياض، ١٤٢١ هـ، ص ٢٢
١٤٥ – مخطوطات قمران- البحر الميت؛ التوراة؛ كتابات ما بين العهدين، II، التوراة المنحول، ص ٢٤٠، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط ١، ١٩٩٨
١٤٦ الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، الوراق
١٤٧ – البكري، معجم ما استعجم، الوراق
١٤٨ د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٣، ج٦، نسخة إلكترونية من: muhammadansim.org
١٤٩ – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٣، ج٦، ص ٢٩٦ من: muhammadansim.org المفصل،
١٥٠ – د. جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٣، ج٦، نسخة إلكترونية من من: muhammadansim.org
١٥١ – د. جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٣، ج٦، نسخة إلكترونية من من: muhammadansim.org
١٥٢ – د. جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة

بغداد، ١٩٩٣، ج٦، نسخة إلكترونية من: muhammadansim.org
١٥٣ - في: فاضل الربيعي، الشيطان والعرش؛ رحلة النبي ص- سليمان إلى اليمن، رياض الريس للكتب والنشر، لندن-بيروت، ١٩٩٦، ص ٢١٧
١٥٤ - البكري، معجم ما استعجم، الوراق
١٥٥ - الهمداني، صفة جزيرة العرب، مكتبة التراث الإسلامي، من: www.al-mostafa.com
١٥٦ - الهمداني، الإكليل، ورد في: فاضل الربيعي، الشيطان والعرش؛ رحلة النبي ص- سليمان إلى اليمن، رياض الريس للكتب والنشر، لندن-بيروت، ١٩٩٦، ص ٢١٧
١٥٧ - الهمداني، صفة جزيرة العرب، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٥٨ - واليس بدج، السحر في مصر القديمة، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، دار سينا للنشر ودار الانتشار العربي، ١٩٩٨، ص ٧٢.
١٥٩ - واليس بدج، السحر في مصر القديمة، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، دار سينا للنشر ودار الانتشار العربي، ١٩٩٨، ص ١٢٨.
١٦٠ - القلقشندي، صبح الأعشى، الوراق
١٦١ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الوراق
١٦٢ - واليس بدج، السحر في مصر القديمة، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، دار سينا للنشر ودار الانتشار العربي، القاهرة بيروت، ١٩٩٨، ص ٧٢.
١٦٣ - مرسياالياد، المقدس والمدنس، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٨٨، ص ٤٠
١٦٤ - المقصل، ج ٦، ص ٢٩٧، من: muhammadansim.org
165- James George Frazer, The Golden Bough, The world Classics, Oxford University Press, London- New York, 1994, page 399
١٦٦ - المصدر ذاته، ص ٣٩٩
١٦٧ - السير ولس بدج، الديانة الفرعونية؛ أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى، ترجمة يوسف سامي اليوسف، دار أزمنة، عمان، ط٢ ١٩٩٩، ص ٩١
١٦٨ - الموسوعة البريطانية على الإنترنت، http://www.britannica.com
١٦٩ - هشام بن محمد بن السائب الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٩
١٧٠ - يقول ابن الأثير المحدث، النهاية في غريب الحدث والأثر
١٧١ - ابن منظور، لسان العرب
١٧٢ - ابن منظور، لسان العرب
١٧٣ - الزبيدي، تاج العروس، الوراق
١٧٤ - ابن منظور، لسان العرب
١٧٥ - الزبيدي، تاج العروس، الوراق
176- Pyramids texts, Utterance 519
١٧٧ - القرآن الكريم، النجم: ١٩-٢٣
١٧٨ - الجاحظ، البرصان والعرجان، الوراق
١٧٩ - ابن كثير، البداية والنهاية، من مكتبة يعسوب الدين

twitter @baghdad_library

١٨٠ – هشام بن محمد بن السائب الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٣
١٨١ – الخليل بن أحمد، العين، الوراق
١٨٢ – لسان العرب، مادة أثف، الوراق
١٨٣ – الميداني، مجمع الأمثال، من: www.al-eman.com
١٨٤ – القاموس المحيط، مادة أثف، الوراق

مصادر فصل 2

١ – تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١، ص ٢٢٠
2- The History of Herodotus, Translated into English by G. C. Macaulay, M.A. Published by: MacMillan and Co., London and New York. 1890, An Electric copy from: FullBooks.com, www.fullbooks.com
3- PETRA and the Caravan Cities, «The Goddess of the «Temple of the Winged Lions» At Petra Jordan-», by Ph.Hammond, Utah University. Editor Dr. Fawzi Zayadine, Department of Antiquities, Amman-Jordan, from: www.acacialand.com/dusar.html
الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب.
٤ – د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٠، ج٦، ص ٢٩٢
٥ – المفصل، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٠، ج٦، ص ٢٩٢
٦ – كتاب الأصنام، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، ٣، ١٩٩٥، ص ١٧
٧ – د جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٠، ج٦، ص ٣٠٥
٨ – الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق
٩ – القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠ – القرآن الكريم، النجم: ٢٧-٢٨
١١ – القرآن الكريم، النجم: ٢٣
١٢ – القرآن الكريم، النجم: ٢١
١٣ – القرآن الكريم، الزخرف: ١٩
١٤ – الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
١٥ – الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
١٦ – ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر
١٧ – الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار
١٨ – القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
١٩ – د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، نسخة من www.muhammadasim.org
٢٠ – الكلبي، الأصنام، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٢١- القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٢- تاريخ هيرودت، ترجمة عبد الإله الملاخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١، ص ٢٠٦-٢٠٧
٢٣- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٤- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٠، ج ٦، ص ٢٢٩
٢٥- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٦- ابن منظور، لسان العرب
٢٧- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٨- الواقدي، المغازي، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٩- ابن شبه، تاريخ المدينة المنورة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٠- ابن إسحق، سيرة ابن إسحق، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣١- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ط٢، بيروت، ١٩٩٣، نسخة إلكترونية من: www.muhammadansim.org
٣٢- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ص ١٢٢، نسخة إلكترونية من: www.almeshkat.com
٣٣- الهيتمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة التراث الإسلامي: www.el-eman.com
٣٤- ابن منظور، لسان العرب، جذر رتت
٣٥- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، جذر رتت
٣٦- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، جذر رتت
٣٧- ابن منظور، لسان العرب، جذر رتت
٣٨- ابن عبد ربه، العقد الفريد، نسخة إليكترونية من www.al-eman.com
٣٩- القرآن الكريم، سورة طه: ٢٧-٢٨
٤٠- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، نسخة إلكترونية من المكتبة الإسلامية: www.al-ema.com
٤١- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق
٤٢- ابن منظور، لسان العرب، جذر رتت
٤٣- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، جذر رتت
44- James Frazer, The Golden Gough, World Classics, Oxford University, London-New York, page 487
45- James Frazer, The Golden Gough, World Classics, Oxford University, London-New York, 1994, p 491-492
٤٦- المتقي الهندي، كنز العمال، نسخة إلكترونية من المكتبة الإسلامية: www.al-eman.com
٤٧- المفصل، ج ٦، ص ٣٢٩
٤٨- القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
٤٩- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٠- ابن دريد، الاشتقاق، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٥١- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، نسخة من muhammedansim.org
٥٢- رنيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، دار الحداثة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص ١٣٤-١٣٥

twitter @baghdad_library

٥٣- رنيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، دار الحداثة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ١٢٥

٥٤- المفصل، ج٦، دار العلم للملايين-بيروت، ودار النهضة- بغداد، ج ٦، ص ٣١٠

٥٥ على الشوك، جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى، دمشق، ط٢، ١٩٩٩، ص ٨٠

٥٦- ابن منظور، لسان العرب

٥٧- الزمخشري، أساس البلاغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٥٨- المبرد، الكامل في اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٥٩ - ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٦٠ سفر المكابيين، الإصحاح الخامس: ٦-٨

٦١- القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

62-Jusephus, Antiquities of the Jews» 15, 373

63- Alphabet of Ben Sira, From Wikipedia, the free encyclopedia, http://en.wikipedia.org/wiki/The_Alphabet_of_Ben-Sira

٦٤- القرآن الكريم، سورة البقرة: ٣٦

٦٥- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق

٦٦- هشام ابن السائب الكلبي، الأصنام، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٦٧-- ابن منظور، لسان العرب

68- G.B. Bowersock, The cult and Representation of Dusares in Roman Arabia, in: taken from; Petra and Caravan Cities, from: www.acacialand.com/dusar.html

69-G.B. Bowersock, The cult and Representation of Dusares in Roman Arabia, taken from; Petra and Caravan Cities, from: www.acacialand.com/dusar.html

70- Bowersock, G. W. 1990-. The Cult and Representation of Dusares in Roman Arabia. Petra and the Caravan Cities. F. Zayadine. Amman, Department of Antiquities,from: www.acacialand.com/dusar.html

٧١- ابن منظور، لسان العرب

٧٢- ابن منظور، لسان العرب

73- G.B. Bowersock, The cult and Representation of Dusares in Roman Arabia, taken from; Petra and Caravan Cities, from: www.acacialand.com/dusar.html

٧٤- القرطبي، تفسير القرطبي، الوراق

75- Philip Hammond, «The god of the people was Dushares 'Lord dhu- of the Shara Mountains-'. The exact nature if this deity, whether it was a mountain or a solar object like the sun, is not entirely clear». Nabataean Pantheon; Nabataea. Net فيليب هاموند

٧٦- د. جواد علي المفصل، ح٦، ص ٥٥ ، طبعة بيروت وبغداد

٧٧- الدكتور أحمد العجلوني، حضارة الأنباط من خلال نقوشهم، مشروع بيت الأنباط، البتراء، ٢٠٠٣، ص ١٩٣

٧٨ المفصل، ج٦، ص٣٢٧. طبعة بيروت وبغداد

٧٩- The Goddess of the Temple of the winged Lions at Petra Jordan . فيليب هاموند

٨٠- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة إلكترونية من الوراق

٨١- ابن سعد، الطبقات الكبرى، نسخة إلكترونية من الوراق

٨٢ المنتظم في التاريخ، الجوزي، نسخة إلكترونية من المكتبة الإسلامية: www.al-eman.org

٨٣- الدكتور أحمد العجلوني، حضارة الأنباط من خلال نقوشهم، البتراء، ص ١٩٣-- ١٩٤
٨٤- الدكتور أحمد العجلوني، حضارة الأنباط من خلال نقوشهم، البتراء، ص ٢٢١
85- Bowersock, Glen W. 1990b. «The Cult and Representation of Dusares in Roman Arabia.» Ders., Studies on the Eastern Roman Empire: Social, Economic and Administrative History, Religion, Historiography. [Ursprgl. in: F. Zayadine ed.-, Petra and the Caravan Cities, 1990, 31-36.] Bibliotheca Eruditorum 9. Goldbach: Keip, 1994. 245-252, cited in: Perta and Caravan Cities, www.acacialand.com/dusar.html
٨٦-- سليمان عبد الرحمن الذييب، نقوش الحجر النبطية، مطبوعات مكتبة الملم فهد، الرياض، ١٩٩٨، ص ٢٤٧
٨٧- رنيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، دار الحداثة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص١٢٠
٨٨- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٨٩- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٩٠- الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، نسخة إلكترونية من الوراق
٩١- الغزالي في إحياء علوم الدين، نسخة إلكترونية من المكتبة الإسلامية: www.al--eman.org
٩٢- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
٩٣- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٩٤- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٩٥- ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٩٦- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الوراق
٩٧- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٩٨- ابن حزم، المحلى، نسخة إلكترونية من الوراق
٩٩- عبيد الله القاسم بن سلام، غريب الحديث، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٠٠- المقدسي في أحسن التقاسيم، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠٢- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠٣- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠٤- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠٥- الزمخشري، أسرار البلاغة، الوراق
١٠٦- ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠٧- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠٨- ابن تيمية، جامع الرسائل، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠٩- الهيثمي، مجمع الزوائد للحافظ، نسخة إلكترونية من الوراق
١١٠- الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، نسخة إلكترونية من المكتبة الإسلامية: --www.al eman.org
١١١- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نسخة إليكترونية من: .www.al-mostafa com
١١٢- الخليل بن أحمد، العين، الوراق

twitter @baghdad_library

١١٣ – الفيروزآبادي، القاموس المحيط، الوراق
١١٤ – ابن منظور، لسان العرب
١١٥ – ابن منظور، لسان العرب
١١٦ – أبو عمرو الشيباني، الجيم، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١١٧ – ابن منظور، لسان العرب
١١٨ – الجوهري، الصحاح، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١١٩ – علي الشوك، جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدي، دمشق، ط٢، ١٩٩٩، ص ٣٦
١٢٠ – أبو العلاء المعري، الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الوراق
١٢١ – الأزرقي، أخبار مكة، نسخة إلكترونية من الوراق
١٢٢ – ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
123- Translation by Samuel A. B. Mercer, 1950, e-copy from: The Internet Sacred Text Archive Sacred Text CD-ROM -John Bruno Hare, June 2, 2004, Utterance 304 116-
١٢٤ – المفصل، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، نسخة إليكترونية من: www.al-mostafa.com
١٢٥ - ابن منظور، المختصر في تاريخ دمشق، نسخة إلكترونية من الوراق
١٢٦ – خزانة الأدب، البغدادي، نسخة إلكترونية من الوراق
١٢٧ – ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، نسخة إلكترونية من الوراق
١٢٨ – أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، نسخة إلكترونية من الوراق
١٢٩ – السهيلي، الروض الآنف، نسخة إلكترونية من الوراق
١٣٠ – ابن هشام، سيرة ابن هشام، نسخة إلكترونية من الوراق
١٣١ – لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
١٣٢ – ياقوت، المعجم، نسخة إلكترونية من الوراق
١٣٣ – د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ط٢، بيروت، ١٩٩٣، نسخة إلكترونية من: www.muhammadansim.org

مصادر فصل 3

١ – د. جواد علي، المفصل، ج ٦، ص ٤٤٥، من: muhammadansim.org
٢ – ابن منظور، لسان العرب
٣ – الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٤ – هشام بن محمد بن السائب الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ٢٥
٥ – جون ماكليش، العدد من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر، عالم المعرفة، العدد ٢٥١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، ١٩٩٩، ص١١٩.
6- Plutarch, Isis and Osiris, published in the Loeb Classical Library, 1936 http://www.hup.harvard.edu

٧- هشام بن محمد بن السائب الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٩
٨- الأزرقي في أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار
٩ الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، سفر أيوب ١ : ١٣ ١٦
١٠- ورد في: زياد منى، بلقيس امرأة الألغاز وشيطانة الجنس، ص ١٣٢.
١١- مرتضى الزبيدي، تاج العروس www.islamport.com
١٢ ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
١٣ - القرآن الكريم، سورة فاطر: ٢٧- ٢٨
١٤- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: www.islamport.com
١٥- هشام بن محمد بن السائب الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، مص ١٨
١٦ هشام بن محمد بن السائب الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥،، ص ١٩
١٧ ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
١٨ الزبيدي، تاج العروس، الوراق
١٩ ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
٢٠ الخليل بن أحمد، العين، الوراق
٢١- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، الوراق
٢٢ الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الوراق
23-Geraldine Pinch, Egyptian Mythology, Oxford University Press, 2002, p, 119
٢٤- سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نقوش الحجر النبطية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٨، ص١٧٢، وقد وردت الحروف مقطعة في الأصل فوصلناها
٢٥- سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نقوش الحجر النبطية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٨، ص ١٧٤ ١٧٥
٢٦- ابن منظور، لسان العرب
27- Hymn To Osiris, Egyptian Book of the Dead the; Papyrus of Ani, Translated by E.A. Wallis Budge, University of Pennsylvania- African Studies
٢٨- المصدر ذاته
٢٩- ابن منظور، لسان العرب
٣٠ ابن منظور، لسان العرب
٣١ الكتاب المقدس، دار الشرق الأوسط للكتاب المقدس، تكوين ٦:١٢
٣٢ الكتاب المقدس، دار الشرق الأوسط للكتاب المقدس، تكوين ١٣ : ١ ٣
٣٣-- القرآن الكريم، الصافات: ٦٢ ٧٠
٣٤- السهيلي، الروض الآنف، الوراق
٣٥ القرطبي، تفسير القرطبي، الوراق
٣٦- الزمخشري، الكشاف، الوراق
٣٧- ابن منظور، لسان العرب

twitter @baghdad_library

٣٨- هشام بن محمد بن السائب الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٩
٣٩- التيفاشي، سرور النفوس بمدارك الحواس الخمس، الوراق
٤٠- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، الوراق
٤١- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الوراق
٤٢- ابن منظور، لسان العرب، الوراق
43- The Egyptian Book of the Dead, The Papyrus of Ani, Translated by E. A. Wallis Budge

مصادر فصل 4

١- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٠، ج ١، ص ٤٢٠
٢- فضل عبد الله الجثام، الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٩، ص ٢٢٣
٣- الميمني، سمط اللآلئ، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٤- أبو البقاء الحلي، المناقب اليزيدية في الملوك الأسدية، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www. islamport.com
٥- سفر أيوب، الإصحاح الأول: ١، الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط
٦- د. جواد علي في المفصل، نسخة إلكترونية من المشكاة: www.almeshkat.com
٧- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٨- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الوراق
٩- المسعودي، مروج الذهب، نسخة إلكترونية من الوراق
١٠ علي الشوك، جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى، دمشق، ط٢، ١٩٩٩، ٦٣
١١ الخليل، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٢- الخليل، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٣ ابن منظور، لسان العرب
١٤- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الإصحاح الثاني: ١١
١٥- دار الكتاب المقدس سفر أيوب ٩ : ٨-١٠
١٦ أبو العلاء المعري، الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٧ الأزرقي، في أخبار مكة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
(18) Translation by Samuel A. B. Mercer, 1950, e-copy from: The Internet Sacred Text Archive Sacred Text CD-ROM -John Bruno Hare, June 2, 2004, Utterance 304 (116)
الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب
١٩- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الإصحاح التاسع والثلاثون: ١٢ ١٧
٢٠ الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢١ الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الوراق

٢٢- الأزهري، تهذيب اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٣- سفر أيوب، إصحاح ٤٢: ١٣-١٤، الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط
٢٤- سفر أيوب، إصحاح ٤٢: ١٣ -١٤، الكتاب المقدس، دار المشرق للرهبانية اليسوعية
٢٥- ابن الكلبي، الأصنام، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٦- أندريه نايتون، من أين جاءت عبارة ابن الله، في: الأصول الوثنية للمسيحية، تأليف أندريه نايتون، إدغار ويند، كارل غوستاف يونغ، ص ٣٠، ترجمة سميرة علي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. بلا تاريخ، نسخة إليكترونية من أخذ من: www.almostafa.com
٢٧- ابن منظور، لسان العرب
٢٨- مقاييس اللغة، ابن فارس، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٩- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٠- الخليل بن أحمد، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣١- الفيروزآبادي، القاموس المحيط
٣٢- الخليل بن أحمد، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٣- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٤- الزمخشري في ربيع الأبرار، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٥- المقريزي، المواعظ والاعتبار www.islamport.com
٣٦- الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٧- ابن منظور، لسان العرب
٣٨- هنري جورج فارمر، تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر، ترجمة جرجس فتح الله المحامي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ، ص ٣٤
٣٩- لسان العرب
٤٠- سفر أيوب، الإصحاح الثلاثون: ٤-٨ الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق
41-Mechom-Mari Bible, a Hebrew - English Bible According to the Masoretic Text and the JPS 1917 Edition
٤٢- سفر أيوب، الإصحاح الثلاثون: ٤-٥ الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق
42-Gilgamesh and the Huluppah Tree translated, by S.N. Kramer, 1938, URL: http://www.mythome.org/mythhome.htm
الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب.

مصادر فصل 5

١- الفهرست، ابن النديم
٢- عزيز سباهي، أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، منشورات دار المدى، دمشق، ٢٠٠٢ ص ١٠٦
٣- عزيز سباهي، أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، منشورات دار المدى، دمشق، ٢٠٠٢، هامش ص ١٠٥
٤- ابن منظور، لسان العرب

twitter @baghdad_library

٥- ابن منظور، لسان العرب
٦- ابن منظور، لسان العرب
٧- الجوهري، الصحاح في اللغة
٨- ابن منظور، لسان العرب
٩- الخليل بن أحمد، العين
١٠- الزمخشري، الكشاف
١١- لسان العرب
١٢- الأزهري، تهذيب اللغة، إسلام بورت
١٣- لسان العرب
١٤- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، مقدمة المترجم د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ١٦
١٥- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٣٣
١٦- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٣٣

١٧- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٣٣.
١٨- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٤٣- ٢٤٤
١٩- المقريزي، الخطط
٢٠- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٣١
21-21- E. S. Drower, The Secret Adam; A study of the Nasoraean Gnosis, Oxford University Press, 1960. page 97
الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب
٢٢- عزيز سباهي، أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، منشورات دار المدى، دمشق، ٢٠٠٢ ص ١٠٧
٢٣- لسان العرب

مصادر فصل 6

1- Khirbit Bal'ama Archaeological Project, Report of the 1996-2000 Excavations and Surveys; Volume 2: The Water Tunnel System at Khirbit Bal'ama, By Hamdan Taha and Gerrit van der Kooij, Published by Ministry of Culture, Ramallah, 2007, page 81-82
٨- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، سفر إرميا، الإصحاح السابع، آية ١٨
3- Plutarch, Isis and Osiris, http://penelope.uchicago.edu/Thayer/E/home.html
4- Khirbit Bal'ama Archaeological Project, page 82

مصادر فصل 7

١ - القرآن الكريم، سورة النجم، آية ٤٩

٢ - الرازي، مختار الصحاح، نسخة إلكترونية من الوراق: www.islamport.com

٣- المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com

٤ - ابن منظور، لسان العرب

٥ - ابن سيدة، المخصص، نسخة إليكترونية من: www.al-eman.com

٦ - ابن سيدة، المخصص، نسخة إليكترونية من: www.al-eman.com

7- Plutarch, Isis and Osiris, published in the Loeb Classical Library, 1936

٨- الميمني، سمط اللآلئ، الوراق

٩ - عبد الغني النابلسي، تعطير الأنام في تفسير الأحلام، نسخة إلكترونية من الواراق: www.alwaraq.com

١٠ - ابن عربي، الفتوحات المكية، نسخة إلكترونية من الوراق

١١ - ابن الجوزي، غريب الحديث، الوراق

١٢ - مصعب الزبيدي، نسب قريش، الوراق

١٣ - القرطبي، تفسير القرطبي، الوراق

١٤ - المسعودي، التنبيه والإشراف، الوراق

١٥ - المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com

١٦ - الآبي، نثر الدرر، الوراق

١٧ - ابن منظور، لسان العرب،

١٨ - القلقشندي، صبح الأعشى، الوراق

١٩ - المقريزي، الواعظ والاعتبار، الوراق

٢٠ - المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com

٢١ - المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com

٢٢ - الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار

٢٣ - القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، الوراق

٢٤ - عبد الغني النابلسي، تعطير الأنام في تفسير الأحلام، الوراق

٢٥ - ابن هشام، سيرة ابن هشام، الوراق

٢٦ - الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com

٢٧ - الجوهري، الصحاح في اللغة، الوراق

٢٨ - ابن دريد، جمهرة اللغة، الوراق

٢٩ - الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com

٣٠ - الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، الوراق

٣١ - المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com

٣٢ - الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، الوراق

twitter @baghdad_library

٣٣- ابن منظور، لسان العرب
٣٤- أبو العلاء المعري، معجز أحمد، الوراق
٣٥- التيفاشي، سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٣٦- ابن تيمية، درء التعارض، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٣٧- الذهبي، تاريخ الإسلام، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٣٨- ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٣٩- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٤٠- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، الوراق
٤١- المصدر ذاته
٤٢- السهيلي، الروض الآنف، الوراق
٤٣- أبو عبيد البكري، المقال في شرح كتاب الأمثال، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٤٤- ابن منظور، لسان العرب
٤٥- المصدر ذاته
٤٦- المصدر ذاته
٤٧- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، الوراق
٤٨- المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٤٩- القرآن الكريم، سورة النحل، الآية ٩٢
٥٠- تفسير الجلالين نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٥١- الميداني، مجمع المثال، نسخة إليكترونية من: www.al-eman.com
٥٢- المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٥٣- الميداني، مجمع المثال، نسخة إليكترونية من: www.al-eman.com
٥٤- ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، الوراق
٥٥- الصاغاني، العباب الزاخر، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٥٦- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، تكوين ٢٩:٢٥
٥٧- السر ولس بدج، الديان الفرعونية، ص ٩١، ترجمة سامي يوسف اليوسف، دار أزمنة، عمان، ١٩٩٩.
٥٨- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، تكوين ٢٩:١٧.
٥٩- المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٦٠- ابن منظور، لسان العرب
٦١- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، تكوين ٢٩: ٣٠
٦٢- ابن منظور، لسان العرب
٦٣- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، تكوين ٢٩:٣١
٦٤- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، تكوين ٢٩:٣١
٦٥- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٦٦- الزبيدي، تاج العروس
٦٧- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، تكوين: ٣٠: ١٤-١٦
٦٨- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الوسط، نشيد الإنشاد: الإصحاح السابع: ١٣

٦٩- ابن منظور، لسان العرب
٧٠- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٧١- المصدر ذاته
٧٢- الفيروزآبادي، القاموس المحيط
73- http://en.wikipedia.org/wiki/Reuben
٧٤- ابن منظور، لسان العرب
٧٥- الأزهري، تهذيب اللغة، الوراق
٧٦- الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري
٧٧- ابن فارس، مقاييس اللغة، الوراق
٧٨- عبد الغني النابلسي، تعطير الأنام في تفسير الأحلام، الوراق
٧٩- لسان العرب، ابن منظور
٨٠- الآمدي، المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، الوراق
٨١- ابن الكلبي، الأصنام
٨٢- الميمني، سمط اللآلئ، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٨٣- ابن متظور، لسان العرب
٨٤- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء عن الأصمعي، الوراق
٨٥- ابن منظور، لسان العرب
٨٦- ابن منظور، لسان العرب

مصادر فصل 8

١- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.al-eman.com
٢- ابن الجوزي في المنتظم في التاريخ: نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، نسخة إلكترونية من الوراق
٤- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الوراق
٥- مرتضى الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من: المكتبة الإسلامية: www.al-eman.com
٦- ابن المطهر، البدء والتاريخ، نسخة إلكترونية من الوراق
٧- المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من الوراق
٨- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٩- ابن منظور، لسان العرب
١٠- ابن الجوزي، المنتظم
١١- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الوراق
١٢- عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب، الوراق
١٣- الخليل بن أحمد، العين، الوراق
١٤- الجاحظ، الحيوان، الوراق

twitter @baghdad_library

١٥ – الزمخشري، ربيع الأبرار، الوراق
١٦ – ابن الجوزي، المنتظم في التاريخ، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
١٧ – القرآن الكريم، سورة سبأ: ١٥–١٧
١٨ – البكري، معجم ما استعجم، نسخة إلكترونية من الوراق
١٩ – الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٠ – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، نسخة إلكترونية من الوراق
٢١ – ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٢ – ابن الجوزي، المنتظم في التاريخ، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٢٣ – الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
24- Plutarch, Isis & Osiris, published in the Loeb Classical Library, 1936, Latin Texts on Lacus-Curtius website
الترجمة من صنع الكاتب. وحيث لا يذكر اسم المترجم تكون الترجمة دوما من صنع الكاتب.
٢٥ – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٦ – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٧ – التيفاشي، سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، الوراق
٢٨ – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٩ – الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٣٠ – الجاحظ، البرصان والعرجان، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٣١ – المصدر ذاته
٣٢ – العهد القديم، خروج ٣٤: ٢٣–٢٥، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
٣٣- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٤ – ابن الجوزي، المنتظم في التاريخ، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٣٥ – ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٦ – الأزهري، تهذيب اللغة، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٧ – ابن المطهر في البدء والتاريخ، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٨ – ابن منظور، لسان العرب، نسخة من الوراق
٣٩ – أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، نسخة من الوراق
٤٠ – مرتضى الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من: المكتبة الإسلامية: www.al-eman.com
٤١ – ابن منظور، لسان العرب
٤٢ – سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نقوش الحجر النبطية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٨، ص ٢٥١
٤٣ – أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، نسخة إلكترونية من مكتبة يعسوب الدين: http://www.yasoob.com
٤٤ – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، نسخة من الوراق
٤٥ – المختصر من: Wikipedia the free encyclopedia
والترجمة من صنع الكاتب. وحيث لا يذكر المترجم تكون الترجمة من الكاتب.
٤٦ – السير ولس بدج، الديانة الفرعونية؛ أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى، ترجمة يوسف سامي

اليوسف، دار أزمنة، عمان، ١٩٩٩، ص ٨٥
47-Translation by C.H. Oldfather in Diodorus of Sicily, vol. 1, London, 1933 Loeb Classical Library-
٤٨- ابن هشام، سيرة ابن هشام، نسخة من الوراق
٤٩- ابن منظور، لسان العرب، نسخة من الوراق
٥٠- علي الشوك، جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى، دمشق، ط٢، ١٩٩٩، ص ٥٧
٥١- المصدر ذاته، ص ٤٠-٤١
٥٢- المصدر ذاته، ص ٥٧
٥٣- القرآن الكريم، سورة النساء، ٢٢
٥٤- ابن الجوزي، المنتظم في التاريخ، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٥٥- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة من الوراق
٥٦- الميداني، في مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٥٧- ابن الجوزي، المنتظم في التاريخ، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٥٨- المسعودي، مروج الذهب، نسخة إلكترونية من: http://www.yasoob.com
٥٩- الجاحظ، الحيوان، نسخة من الوراق
٦٠- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٦١- المصدر ذاته
٦٢- المصدر ذاته
٦٣- البغدادي، خزانة الأدب، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٦٤- المصدر ذاته
٦٥- ابن منظور، لسان العرب، من الوراق
٦٦- المصدر ذاته
٦٧- المصدر ذاته
٦٨- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، من الوراق
٦٩- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، من الوراق
٧٠- المصدر ذاته
٧١- جيمس هنري بريستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، دار الكرنك، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٥٤
٧٢- الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٧٣- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الوراق
٧٤- الطبري، تاريخ الطبري، الوراق
٧٥- البكري، معجم ما استعجم، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٧٦- الخليل بن أحمد، العين، الوراق
٧٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، الوراق
٧٨- برناديت موني، المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي، ترجمة ماهر جويجاني، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤، جذر بس.
٧٩- الفيروابادي، القاموس المحيط

twitter @baghdad_library

٨٠- الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، نسخة من الوراق
81- Geraldine Pinch, Egyptian Mythology, Oxford University Press, 2002, p, 119 72-
٨٢- مرتضى الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٨٣- الخليل بن أحمد، العين، الوراق
٨٤- الأزهري، تهذيب اللغة، الوراق
٨٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الوراق
٨٦- ابن منظور، لسان العرب
٨٧- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجلد الأول، ص ٢٧١، نسخة إلكترونية من: www.almeshkat.com
٨٨- ابن منظور، لسان العرب، الوراق
٨٩- الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com - ولسان العرب.
٩٠- ابن كثير، مختصر ابن كثير، مكتبة التراث الإسلامي، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
٩١- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب الإسلام الجزء الثالث، ص ١٥٦٦ نسخة إلكترونية من: www.almeshkat.com
٩٢- القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية: ١٢
٩٣- ابن منظور، لسان العرب، الوراق
٩٤- المصدر ذاته
٩٥- مرتضى الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من: المكتبة الإسلامية: www.al-eman.com
٩٦- المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، الوراق
٩٧- المصدر ذاته
٩٨- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، الوراق
٩٩- الجاحظ، البيان والتبيين، نسخة إلكترونية من المكتبة الإسلامية: www.al-eman.org
١٠٠- الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
١٠١- ابن منظور، لسان العرب، الوراق
١٠٢- الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من: www.al-eman.com
١٠٣- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الوراق
١٠٤- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الوراق
١٠٥- ابن منظور، لسان العرب، الوراق
١٠٦- القرآن الكريم، سورة طه: ١٠٢
١٠٧- ابن منظور، لسان العرب
١٠٨- والاس بدج، آلهة المصريين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٦٠٢
109- The Pyramid Texts: The Pyramid Texts: 1. Nut and the Deceased King, The Internet Sacred Text Archive, Utterances Utterance 246, line 253

مصادر فصل 9

١- القرآن الكريم، سورة الأحقاف:٢٢- ٢٥
٢- القرآن الكريم، سورة هود: ٥٠
٣- النويري، نهاية الأرب، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
٤- المسعودي، مروج الذهب، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٥- الجواليقي، شرح أدب الكاتب، الوراق
٦- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، الوراق
٧- نرناديت موني، المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي، ترجمة ماهر جويجاني، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٨
٨- الزبيدي، تاج العروس، الوراق
٩- ابن بطوطة، حلة ابن بطوطة، الوراق
١٠- القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١١- الحميري، الروض المعطار، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٢- القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٣- ابن منظور، لسان العرب
١٤- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
١٥- ابن منظور، لسان العرب
١٦- الواقدي، المغازي، نسخة إلكترونية من الوراق
١٧- ابن حزم، المحلى، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٨- ابن الأثير المؤرخ، أسد الغابة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٩- المتقي الهندي، كنز العمال، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٠- الخطيب البغدادي، الأسماء المبهمة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢١- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٢- على الشوك، جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى، دمشق، ط٢، ١٩٩٩، ص ٧٩
٢٣- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٤- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٥- الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٦- ابن منظور، لسان العرب
٢٧- الآبي، نثر الدرر، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٨- الزمخشري، ربيع الأبرار، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٩- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٠- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة إلكترونية من الوراق
31-The Encyclopedia of Ancient Egypt, Margaret Bunson, Gramery Books, New York, 1991, p238

twitter @baghdad_library

٣٢- تاريخ هيرودت، الكتاب الثاني، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ص ١٩٤
٣٣- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٤- القرآن الكريم، سورة الأحقاف: ٢٤-٢٥
٣٥- النويري، نهاية الأرب الأرب في فنون الأدب، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

مصادر فصل 10

١- هشام ابن السائب الكلبي، الأصنام، نسخة إلكترونية من: الموسوعة الشاملة، www.islamport.com

٢- البيروني في الجماهر، معرفة الجواهر، الأصنام، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com

٣- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، قضاه ٣: ١٣-٢٢

4 -Gosta W. Ahlstrom, the Ancient History of Palestine, p 38, Fortress press, 1993

الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب.

٥- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com

٦- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الوراق

٧- الزبيدي، تاج العروس

٨- ابن، منظور، لسان العرب

9-Gosta W. Ahlshtrom, the Ancient History of Palestine, p 38, Fortress press, 1993

10-Gosta W. Ahlshtrom, the Ancient History of Palestine, p 38, Fortress press, 1993

١١- الكتاب المقدس، القضاة ٣:٢٦، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط

١٢- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: www.islamport.com

١٣- ابن منظور، لسان العرب

١٤-- الفيروزآبادي، القاموس المحيط: www.alwaraq.com

١٥- ابن منظور، لسان العرب

16- Ancient Near East texts Related to the Old Testament, Edited by James B. Pritchard, Princeton University, p, 491, 1969.

17-Ancient Near East texts Related to the Old Testament, Edited by James B. Pritchard, Princeton University, p, 492, 1969.

18-Eusebius of Caesarea: Praeparatio Evangelica (Preparation for the Gospel). Tr. E.H. Gifford (1903) -- Book 1, X. Theology of the Phoenicians,
Early Church Fathers - Additional Texts

19-Hymn to the Nile, Ancient Near East texts Related to the Old Testament, Edited by James B. Pritchard, Princeton University, p, 373, 1969.

٢٠- ابن منظور، لسان العرب

٢١- البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، نسخة إلكترونية من الوراق

مصادر فصل 11

1- John Legon, Osiris and Orion, Egyptology and The Giza Pyramids website, http://www.legon.demon.co.u

2- Plutarch, Isis and Osiris, Loeb Classical Library edition, 1936, E copy from: www.penelope.uchicago.edu

3- Graham Hancock and Robert Bauval, The Massage of the Sphinx, p.81

4- The Massage of the Sphinx, p.63

5- The Massage of the Sphinx, p.65

6- The Massage of the Sphinx, p.280

7- John Legon, Osiris and Orion, Egyptology and The Giza Pyramids website, http://www.legon.demon.co.u

٨- القرطبي، تفسيره القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com

9- Plutarch, Isis and Osiris, Loeb Classical Library edition, 1936 , E copy from: www.penelope.uchicago.edu

10- Philip Coppens, the star Canopus and the Mystery of Osiris, from: http://www.philipcoppens.com

11- Philip Coppens, the star Canopus and the Mystery of Osiris, from: http://www.philipcoppens.com

١٢- الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com

١٣- الآبي، نثر الدرر، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٤- ابن منظور، لسان العرب

١٥- الزمخشري، أساس البلاغة، نسخة إلكترونية من الوراق

١٦- أبو العلاء، الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٧- ابن منظور، لسان العرب

١٨- ابن الجوزي، في المنتظم، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٩- البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، نسخة إلكترونية من الوراق

٢٠- نصوص الأهرام، المنطوقة ٤-١٧٣

٢١- نصوص الأهرام، المنطوقة ٦-١١٧١

٢٢- نصوص الأهرام، المنطوقة ٦-١٢-١٠

٢٣- نصوص الأهرام، المنطوقة ٨٧٦

٢٤- السير ولس بدج؛ الديانة الفرعونية: أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى، ترجمة يوف سامي اليوسف، دار أزمنة، عمان، ١٩٩٩، ص ١٠٥

٢٥- العصامي، سمط النجوم العوالي، نسخة إلكترونية من الوراق

٢٦- القرآن الكريم، سوره طه: ١٧-٢٠

٢٧- القرآن الكريم، سورة الأعراف: ١٠٧-١٠٨

٢٨- القرآن الكريم، سورة النمل: ٨-١٢

twitter @baghdad_library

٢٩- الطبري، تاريخ الطبري، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٠- المصدر ذاته
٣١- التيفاشي في سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
32-Eusebius of Caesarea: Praeparatio Evangelica (Preparation for the Gospel). Tr. E.H. Gifford (1903), Book 1, X. Theology of the Phoenicians, Early Church Fathers - Additional Textsfrom: http://www.tertullian.org
٣٣- السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، علي بن برهان الدين الحلبي نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٤- ابن منظور، لسان العرب
٣٥- كنز العمال، المتقي الهندي، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٦- ابن منظور، لسان العرب
٣٧- المصدر ذاته
٣٨- ابن حزم، المحلى، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٩- ابن منظور، لسان العرب
٤٠- ابن حزم، المحلى، نسخة إلكترونية من الوراق
٤١- القرآن الكريم، سورة طه: ١٢
٤٢- ابن منظور، لسان العرب
٤٣- القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
٤٤- الزمخشري، أساس البلاغة، نسخة إلكترونية من الوراق
٤٥- الخليل بن أحمد، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤٦- ابن منظور، لسان العرب
٤٧- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤٨- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الوراق
٤٩- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٠- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥١- ابن دريد، جمهرة اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

مصادر فصل 12

1-Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Edited by James Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 4.
2-Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Edited by James Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 4.
3-Graham Hancock and Robert Bauval, The Massage of the Sphinx, p.226, Three Rivers, New York, 1996

٤- المصدر ذاته، ص ٢٧٦
5- Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, The contest of Horus and Seth for rule, Edited by James Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 17.

6-Plutarch, Isis and Osiris, Loeb Classical Library edition, 1936, from: www.penelope.uchicago.edu
7-Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Edited by James Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 5.
8- E.C. Crupp, Astronomical Integrity of Giza, from: Sky & Telescope by Sky Publishing Corp, February 1997
٩- البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
١٠- القرآن الكريم، سورة إبراهيم: ٢٤-٢٦
١١- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
١٢- القرآن الكريم، سورة النجم، ٤٩-٥٣
١٣- القرآن الكريم، سورة الحجر: ٧٣- ٧٤
١٤- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
١٥- ابن منظور، لسان العرب
١٦- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
١٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق
١٨- القرآن الكريم، سورة إبراهيم: ٢٤-
١٩- ابن منظور، لسان العرب
20-Graham Hancock and Robert Bauval, The Massage of the Sphinx, p.273
21- Graham Hancock and Robert Bauval, The Massage of the Sphinx, p.276
22-47-48 :القرآن الكريم، سورة القمر
23- Graham Hancock and Robert Bauval, The Massage of the Sphinx, p.280
24- ابن منظور ، لسان العرب
25- Graham Hancock and Robert Bauval, The Massage of the Sphinx, p.276
26- Graham Hancock and Robert Bauval, The Massage of the Sphinx, p.280

27-E.C. Crupp, Astronomical Integrity of Giza, From Sky & Telescope, February 1997, Copyright (c) 1997 by Sky Publishing Corp.
28- Alphabet of Ben Sira, from: http://en.wikipedia.org/wiki/Lillith
٢٩- العصامي، سمط النجوم العوالي، نسخة إلكترونية من الوراق
30- Hymn to Osiris Un- Nefer, the Chapter of Coming Forth by Day, Papyrus of Ani; Egyptian Book of the Dead translated by Wallis Budge, from: University of Pennsylvania- African Studies Center.
31- Pyramid Texts, § 972
32-Pyramid Texts, §§ 2144 – 2145
33- Pyramid Texts, 0p.cit., utterance 477, p. 164-From the Sphinx Massage, p, 228-229,
34- Geraldine Pinch, Egyptian Mythology Oxford University Press, New York, 20004, 128
35- The Theology of Memphis, Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Edited by James Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 6.
٣٦- والاس بدج، آلهة المصريين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٥٩٥-٥٩٦
٣٧- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، مقدمة المترجم د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٣٤

twitter @baghdad_library

38-The Massage of the Sphinx, page 232
39- The Massage of the Sphinx, page 232
40- The Massage of the Sphinx, page 280

٤١- الهيتمي، مجمع الفوائد، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

42- The Theology of Memphis, Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Edited by James Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 5.

٤٣- ياروسلاف تشرني، الديانة المصرية القديمة، ترجمة د.أحمد قدري، مراجعة د. محمود ماهر طه، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، مشرع المائة كتاب ٦، وزارة الثقافة، المجلس الأعلى للآثار، ١٩٨٧، صدر الكتاب الأصلي عام ١٩٥٢

٤٤- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٤٥- المقريزي، تاريخ الرسل والملوك، نسخة إلكترونية من الوراق

٤٦- أبو الريحان البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٤٧- النويري، نهاية الأرب، نسخة إلكترونية من الوراق

٤٨- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، نسخة إلكترونية من الوراق

٤٩- السيوطي، حسن المحاضرة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٥٠- القرآن الكريم، سورة القمر، الآيات: ٩-١٣

٥١- القرآن الكريم، سورة هود، الآية: ٤٤

52-Tractate Brakhot (Seder Zarafim) chaoter 8,Fol,59a, translated by Maurice Simon, ed.by I. Epstein (London, 1984). Sited in: Catholic Encyclo; Kimah and Kesil.
53- Immanuel Velikovsky, in the Beginning, http://www.varchive.org/itb/khima.htm

٥٤- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق

٥٥- المصدر ذاته

56- Inana and Shu-kale-tuda, Earth's Ancient History, The Electronic Text Corpus of Sumerian Literature, http://www-etcsl.orient.ox.ac.uk/ Copyright J.A. Black, G. Cunningham, E. Robson, and G. Zlyomi 1998, 1999, 2000.

٥٧- المصدر ذاته

٥٨- ديوان الأساطير؛ سومر وأكاد وآشور، الكتاب الأول: أناشيد الحب السومرية، ص ٨٨- ٨٩، ترجمة قاسم الشواف، دار الساقي، بيروت- لبنان، ١٩٩٦

٥٩- ديوان الأساطير؛ سومر وأكاد وآشور، الكتاب الأول: أناشيد الحب السومرية، ص ٨٩، ترجمة قاسم الشواف، دار الساقي، بيروت- لبنان، ١٩٩٦

مصادر فصل 13

١- القرآن الكريم، سور إبراهيم: ٢٤- ٢٦

٢- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الوسط، سفر التكوين، ٣: ١-٧

٣- جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة نبيلة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٥٠

٤- القرآن الكريم، سورة الأعراف: ٢٤

٥- القرآن الكريم، سورة البقرة: ٣٦
٦- القرآن الكريم، الدخان: ٤٣- ٤٥
7- Inana and Shu-kale-tuda, Earth's Ancient History, The Electronic Text Corpus of Sumerian Literature, http://www-etcsl.orient.ox.ac.uk/ Copyright J.A. Black, G. Cunningham, E. Robson, and G. Zlyomi 1998, 1999, 2000.

٨- المصدر ذاته
٩- السير ولس بدج، الديانة الفرعونية؛ أفكار المصريين عن الحياة الأخرى، ترجمة يوسف سامي اليوسف، دار ازمنة، عمان، ١٩٩٩، ص ١٧٧
١٠- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
١١- القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٢- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٣- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٤- ابن منظور، لسان العرب
١٥- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، نسخة إلكترونية من الوراق
١٦- سفر الملوك أول؛ ١٠: ١٠-١٣ ، الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الوسط
١٧- سير والاس بدج، الديانة الفرعونية، ترجمة سامي يوسف اليوسف، دار أزمنة، ١٩٩٩، عمان، ص ٨٦- ٨٧
١٨- سير والاس بدج، الديانة الفرعونية، ترجمة سامي يوسف اليوسف، دار أزمنة، ١٩٩٩، عمان، ص ٨٧- ٨٨
١٩- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢١- ابن منظور، لسان العرب
٢٢- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٣- القلقشندي، صبح الأعشى، نسخة إلكترونية من الوراق

مصادر فصل 14

1- Gilgamesh and the Huluppah Tree translated, by S.N. Kramer, 1938, URL: http://www.mythome.org/mythhome.htm

ترجمة النص من صنع الكاتب، وعندما لا يذكر المترجم يكون النص من ترجمة الكاتب دوما.
2- Alphabet of Ben Sira, from: http://en.wikipedia.org/wiki/Lillith
٣- د. أحمد أمين سليم، مصر والعراق؛ دراسة حضارية، ص ١٦٢، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٢
٤- المصدر ذاته، ص ١٦٣
5- James Frazer, The Golden Bough, Oxford University press, 1994, page 397
٦- برت إم هرو؛ كتاب الموتى الفرعوني «عن بردية آني»، ترجمه إلى العربية عن ترجمة سير والاس بدج د. فيليب عطية، مكتبة مدبولي، ط٢، ٢٠٠، ص٣٣
٧- جيمس هنري بريستد، تطور الفكر الديني في مصر القديمة، دار الكرنك، القاهرة، ، ص ١٩٠،

twitter @baghdad_library

ص-١٩٦١
٨- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، سفر التكوين: ٣: ٢-٥
٩- جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة نبيلة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٥٠

مصادر فصل 15

١- الميمني، سمط اللآلئ، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
٢- ابن منظور، لسان العرب
٣- الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٥- أبو العلاء، الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٦- الفيروزآبادي، القاموس المحيط
7-The Theology of Memphis, Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Edited by James.
Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 5
الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب.
8-Caroline Seawright, Ptah God of crafts men, Rebirth and Creation, from: http://www.tour-egypt.net
٩- ابن منظور، لسان العرب
١٠- تاريخ هيرودت، ترجمة عبد الإله الملاح، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١، ص ١٩٥
١١- القرآن الكريم، سورة طه: ٢٥-٢٨
١٢- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، المكتبة الإسلامية، نسخة إلكترونية www.el-emam.com
١٣- الكشاف، الومخشري، المكتبة الإسلامية، نسخة إلكترونية www.el-emam.com
١٤- الفيروزآبادي، القاموس المحيط
١٥-ابن منظور، لسان العرب
١٦- الفيروزآبادي، القاموس المحيط
١٧- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
١٨- ديوان الأساطير؛ سومر وأكاد وآشور، الكتاب الثاني: الآلهة والبشر، ترجمة قاسم الشواف، دار الساقي، ١٩٩٧، ص ٢٨٢
١٩- جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة نبيلة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٠٤
٢٠- أيوب: ٢٩: ١٨، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط
21-George Sajo, «Phoenix on the Top of the Palm Tree: Multiple Interpretations of Job 29:18,» Silva de varia Leccion 3, February 8, 2005, http://www.studiolum.com/en/silva5.htm
22- George Sajo, «Phoenix on the Top of the Palm Tree: Multiple Interpretations of Job 29:18,» Silva de varia Leccion 3, February 8, 2005, http://www.studiolum.com/en/silva5.htm
23- George Sajo, «Phoenix on the Top of the Palm Tree: Multiple Interpretations of Job 29:18,»

Silva de varia Leccion 3, February 8, 2005, http://www.studiolum.com/en/silva5.htm
24-Sanford Budick, Milton's Joban Phoenix in Samson Agonistes, in: Early Modern Litrerary Studies (EMLS).

٢٥- لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق

٢٦- ابن دريد، جمهرة اللغة، نسخة إلكترونية من الوراق

٢٧- ابن قتيبة الدينوري، المعاني الكبير، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٢٨- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٢٩- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

مصادر فصل 16

1-The UpuAut Project, A report by Rudolf Gantenbrink, www.cheops.org

الترجمة من صنع الكاتب. وحيث لا يذكر اسم المترجم تكون الترجمة من صنع الكاتب دوما.

٢- ابن منظور، لسان العرب

٣- ابن منظور، لسان العرب

٤- المروزقي في الأزمنة والأمكنة، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com

٥- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الوراق

٦- الزمخشري، ربيع الأبرار، نسخة إلكترونية من الوراق

٧- ابن الجوزي، المنتظم، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com

٨- ابن الجوزي، المنتظم، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٩- نشوان الحميري، الحور العين، نسخة إلكترونية من الوراق

١٠- الميمني، سمط اللآلئ، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١١- ابن منظور، لسان العرب

١٢- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٣- المبرد، الكامل في اللغة والأدب، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٤- الأزهري، تهذيب اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٥- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٦- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٧- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٨- الجوهري، الصحاح في اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٩- ابن الجوزي، غريب الحديث، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٢٠- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الوراق

٢١- ابن قتيبة، غريب الحديث، نسخة إلكترونية من الوراق

٢٢- أبو بكر الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

٢٣- ابن منظور، لسان العرب

٢٤- ابن منظور، لسان العرب

twitter @baghdad_library

٢٥- ابن منظور، لسان العرب
٢٦- ابن منظور، لسان العرب
٢٧- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٨- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٩- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٠- المبرد، الكامل، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣١- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٢- ابن سيدة، المخصص، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٣- ابن منظور، لسان العرب
٣٤- البكري، معجم ما استعجم، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٥- ابن منظور، لسان العرب

مصادر فصل 17

١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٢- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
3- Zahi Hawass, Menkaure, from: http://guardians.net/hawass/menkaure.htm
٤- المقريزي، المواعظ والاعتبار، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٥- ابن منظور، لسان العرب
٦- القرآن الكريم، الأنعام، آية ٧٤
٧- الجاحظ في البرصان والعرجان http: //www.al-eman.com
٨- الجوهري، الصحاح في اللغة، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٩- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، سفر إرميا، إصحاح ١٣: ١-٨
١٠- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، سفر إرميا: إصحاح ٥١: ٦٣-٦٤
١١- تاريخ هيرودت، ترجمة عبد الإله الملاح، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١، ص ١٩٥
١٢- الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، نسخة إلكترونية من الوراق
١٣- الجاحظ في الحيوان، نسخة إلكترونية من الوراق
١٤- أبو العلاء، الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الوراق
١٥- الفيروزآبدي، القاموس المحيط
16- The Plateau, the Official Website for Dr. Zahi Hawass: http://guardians.net/hawass/menkaure.htm
17- The Plateau, the Official Website for Dr. Zahi Hawass: http://guardians.net/hawass/menkaure.htm

مصادر فصل 18

١- سليم حسن، أبو الهول، ترجمة جمال سالم، ص ٩٢، مهرجان القراءة للجميع ٩٩، القاهرة

2- Mark lehner, in: American Association for the Advancement of Science, 1992, Debate "How Old is the Sphinx?", cited in: Graham Hancock and Robert Bauval . The Massage of the Sphinx, p. 14. Three Rivers Press, New York, 1996

٣- المصدر ذاته، ص ١٤-١٥

٤- سليم حسن، أبو الهول، ص ٤٤،

٥- سليم حسن، أبو الهول، ص ٤٧،

٥- الدكتور أحمد فخري، الأهرامات المصرية، مكتبة الأنجلوالمصرية، ١٩٦١، ص ٢٠١-٢٠٢

٦- سليم حسن، أبو الهول، ص ١٠٨

٧- سليم حسن، أبو الهول، ص ٨٣

٨- سليم حسن، أبو الهول، ص ١٣٣-١٣٤

٩- سليم حسن، أبو الهول، ص ١٣٥

٩١٠- المقريزي، خطط المقريزي، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com

١١- النويري، نهاية الأرب، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٢- تاريخ هيرودت، ترجمة عبد الإله الملاخ، المجمع الثقافي- أبو ظبي، ٢٠٠١، ص١٩١

١٣- تاريخ هيرودت، ترجمة عبد الإله الملاخ، المجمع الثقافي- أبو ظبي، ٢٠٠١، ص١٩١

١٤- المسعودي، التنبيه والإشراف، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com

١٥- ياقوت، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com

١٦- المقريزي، الخطط، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة

١٧- السيوطي، حسن المحاضرة، نسخة إلكترونية من الوراق

18- Plutarch, Isis and Osiris, http://penelope.uchicago.edu/Thayer/E/home.html

١٩- السير ولس بدج، الديانة الفرعونية؛ أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى، ترجمة يوسف سامي اليوسف، دار أزمنة، عمان، ط٢ ١٩٩٩، ص ٩١

20-Hymn to Isis, Temple of Phiae, http://www.egyptancient.net/hymn_iside_temple_philae.htm,

٢١- سليم حسن، أبو الهول، ص ٨٥

٢٢- سليم حسن، أبو الهول، ص ١٤٨

٢٣- سليم حسن، أبو الهول، ص ١٥٣

٢٤- سليم حسن، أبو الهول، ص ٦٧

٢٥- د. جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٣، ج٦، نسخة إلكترونية من: muhammadansim.org

٢٦- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، مقدمة المترجم د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤، ص٢٣٤

٢٧- الدكتور سليم حسن، أبو الهول، ص ٦١

٢٨- الدكتور سليم حسن، أبو الهول، ص ١٣٣

twitter @baghdad_library

٢٩- والاس بدج، آلهة المصريين، مكتبة مدبولي،القاهرة، ١٩٩٨، ص ٥٩٥-٥٩٦
٣٠- سليم حسن، ا]و الهول، ص ٦٠
٣١- الدكتور سليم حسن، أبو الهول، ص٦١
٣٢- د. جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٣، ج٦، نسخة إلكترونية من: muhammadansim.org
٣٣- الأزرقي، أخبار مكة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٤- ياقوت، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٥- أبو العلاء المعري، رسالة الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
36- Utterance 304, Translation by Samuel A. B. Mercer [1952, copyright not renewed] The Internet Sacred Text Archive CD-ROM -John Bruno Hare, June 2, 2004
٣٧- ابن منظور، لسان العرب
٣٨- الدكتور سليم، أبو الهول، ص ١١٣
٣٩- الدكتور سليم حسن، أبو الهول، ص ١١١ – ١١٣
٤٠- الدكتور سليم حسن، أبو الهول، ص ١٢٣
٤١- الدكتور سليم حسن، أبو الهول، ص ١١٩
٤٢- ابن منظور، لسان العرب
٤٣- المقريزي، الخطط، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤٤- الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤٥- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الموسوعة الوراق
٤٦- العصامي، سمت النجوم العوالي، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤٧- الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤٨- أبو العلاء، الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الوراق
٤٩- المسعودي، مروج الذهب
٥٠- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نسخة إلكترونية من: muhammadansim.org

مصادر فصل 19

١- القرآن الكريم، سورة الكهف: ٢٢
٢- القرآن الكريم، سورة الكهف: ١٨.
٣- ابن منظور، لسان العرب، نسخة إلكترونية من الوراق.
٤- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق
٥- مرتضى الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
٦- ابن فضل العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، نسخة إلكترونية من الوراق
٧- د. سليم حسن، أبو الهول، ترجمة جمال الدين سالم، منشورات مهرجان القاهرة للجميع ٩٩، القاهرة، ص ٣٠

8- Graham Hancock and Robert Bauval; The Maŝsage of the Sphinx, p 51
٩ – القرآن الكريم، سورة الكهف: ٢١
١٠ – القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
١١ – ابن حبيب، المحبر، نسخة إلكترونية من الوراق
١٢ – القرآن الكريم، سورة الكهف: ١٧.
١٣ – أريك هور نونج، وادي الملوك؛ أفق الأبدية: العالم الآخر للمصريين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٢٤
١٤ – الدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الوراق
15- Plutarch, Isis & Osiris, published in the Loeb Classical Library, 1936, Latin Texts on Lacus-Curtius website
١٦ – البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، نسخة إلكترونية من الوراق
١٧ – ابن حبيب، المحبر، نسخة إلكترونية من الوراق
١٨ – القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
١٩ – القزويني، آثار البد وأخبار العباد، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٠ – المقريزي، خطط المقريزي، نسخة إلكترونية من الوراق
٢١ – القرآن الكريم، سورة الكهف، ٢٢
٢٢ – القرآن الكريم، سورة الكهف، ٢٥
٢٣ – المقريزي، خطط المقريزي، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٤ – القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٥ – القزويني، آثار البد وأخبار العباد، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٦ – الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، نسخة إلكترونية من الوراق
27- Plutarch, Isis & Osiris, published in the Loeb Classical Library, 1936, Latin Texts on Lacus-Curtius website, 13
٢٨ – القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٩ – الدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٠ – أنطوان بطرس، لغز الهرم الأكبر، دار الريس، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٨٤–١٨٥
٣١ – الدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الوراق ٣١–
٣٢ – القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٣ – الجاحظ، البيان والتبيين، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٤ – أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، نسخة إلكترونية من الوراق

مصادر فصل 20

١ – الهيتمي، مجمع الزوائد والفوائد، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
٢ – السيوطي في المزهر، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٣ – السهيلي، الروض الآنف، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤ – ابن منظور، لسان العرب

twitter @baghdad_library

٥- النويري، نهاية الأرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٦- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، نسخة إلكترونية من الوراق
٧- ابن المجاور، تاريخ المستبصر، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٨- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
٩- الصفا والمروة، تاريخها، ومقترحات لتوسعة عرض المسعى، إعداد: الأستاذ الدكتور/ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة، رمضان ١٤٢٧هـ، الموقع الإلكتروني الرسمي للشيخ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش: http://www.bin-dehish.com
١٠- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، نسخة إلكترونية من الوراق
١١- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الوراق
١٢- ابن الضياء، في تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام، الوراق
١٣- جون ماكليش، العدد من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر، ترجمة خضر الأحمد وموفق دعبول، سلسلة عام المعرفة، رقم ٢٥١، ١٩٩٩، ص ١١٧-١١٨
١٤- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٥- ابن باشكوال، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس: نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٦- ابن تيمية، شرح العمدة في الفقة، نسخة إلكترونية: نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
17- Frank Dörnenburg, Orion-Pyramids, www.doerenburg.alien.de
١٨- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق
١٩- ابن منظور، لسان العرب
٢٠- الخليل بن أحمد، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢١- ابن منظور، لسان العرب
٢٢- الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٣- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٤- القرآن الكريم، سورة ص، الآيات: ٢١- ٢٥

مصادر فصل 21

1-The Peoples of the West from the Weilue by Yu Huan, translated by John E. Hill © September, 2004, http://depts.washington.edu/silkroad/texts/weilue/weilue.htm

الترجمة من صنع الكاتب. وحيث لا يذكر المترجم تكون الترجمة من صنع الكاتب.
٢- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ؛ مقال ملحق في كتاب زياد منى، بلقيس؛ امرأة الألغاز وشيطانة الجنس، دار رياض نجيب الريس، ط٢، ١٩٩٨، ص٣٠٦
٣- المصدر ذاته، أ. فوركه، ص ٣٠٦.
4-The Peoples of the West, from the Weilue, by Yu Huan, Draft English translation, by John E. Hill, © June, 2004, From: http://depts.washington.edu/silkroad/texts/weilue/weilue.html
٥- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٢٩٣- ٢٩٤
٦- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٢٩٥
٧- المصدر ذاته، ص ٢٩٣ - ٢٩٤

٨ - المصدر ذاته، ص ٢٩٥
9- Diodorus of Sicily, vol. 1, London, 1933 Loeb Classical Library, Translation by C.H. Oldfather, Library,http://www.hup.harvard.edu/loeb
10- Diodorus of Sicily, vol. 1, London, 1933 Loeb Classical Library, Translation by C.H. Oldfather, Library,http://www.hup.harvard.edu/loeb
١١ - الدكتور سليم حسن، أبو الهول، ترجمة جمال الدين سالم، مهرجان القراءة للجميع ٩٩ ، ص ١٣٣
12- The Massage of the Sphinx, Graham Hancock and Robert Bauval, page 5
13 Pyramid Texts, Utterance 304, Translation by Samuel A. B. Mercer [1952, copyright not renewed] THE INTERNET SACRED TEXT ARCHIVE SACRED TEXT CD-ROM -John Bruno Hare, June 2, 2004
١٤- الأزرقي، أخبار مكة، نسخة إلكترونية من الوراق
١٥- ياقوت الحموي، معجم البلدان
١٦- أبو العلاء المعري في رسالة الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
١٧- سي ونغ مو وملكة سبأ، في: زياد منى، ص ٢٩٦
١٨- علي الشوك؛ جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٩، ص ٤٠
١٩- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٠- ابن منظور، لسان العرب
٢١- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٢٩٣- ٢٩٤
٢٢- المصدر ذاته، ص ٢٩٤
٢٣- القرآن الكريم، سورة الحشر، آية ٥
٢٤- الفيروزآبادي، القاموس المحيط
٢٥- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٦- علي بن حمزة المصري، التنبيهات على أغاليط الرواة، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٧- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، مصدر سابق، ص ٣٨٣
28- The Peoples of the West, from the Weilue, by Yu Huan, Draft English translation, by John E. Hill, © June, 2004, From: http://depts.washington.edu/silkroad/texts/weilue/weilue.html
٢٩- ابن منظور في لسان العرب
٣٠- الدميري في حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
٣١- الميداني في مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٢- ابن منظور، لسان العرب
٣٣- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٣١٨
٣٤- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ،، ص ٢١٣
٣٥- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ،، ص ٣١٣
٣٦- المقريزي، الخطط، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٧- علي الشوك؛ جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٩، ص٤١
٣٨- الدميري في حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
39-The Peoples of the West from the Weilue by Yu Huan, translated by John E. Hill © September, 2004, http://depts.washington.edu/silkroad/texts/weilue/weilue.htm

twitter @baghdad_library

٤٠- الهمداني، التيجان في ملوك حمير، في: زياد منى، بلقيس، ص ٢٠٩
٤١- الزركلي، الأعلام، نسخة إلكترونية من الوراق
٤٢- ابن منظور، لسان العرب
٤٣- أ. فوركه المصدر ذاته، ٣١٣
٤٤- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٣٠٢
٤٥- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٣١١
٤٦- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٢١٣
٤٧- النويري في نهاية الأرب، نسخة إلكترونية من الوراق
٤٨- الخليل بن أحمد، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٤٩- ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٠- ابن منظور، لسان العرب
٥١- الميداني، مجمع الأمثال، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٢- ابن الأثير المحدث، النهاية في غريب الحديث والأثر، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٣- ابن دريد، جمهرة اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٤- الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٥- الخليل بن أحمد، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٦- الخليل بن أحمد، العين، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٥٧- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
٥٨- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ٢٩٣
٥٩- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٦٠- الزمخشري، ربيع الأبرار، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٦١- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٣٠٠

6262-Gilgamesh and the Huluppah Tree translated, by S.N. Kramer, 1938, URL: http://www.mythome.org/mythhome.htm

63- Inana and Shu-kale-tuda, Earth's Ancient History, The Electronic Text Corpus of Sumerian Literature, http://www-etcsl.orient.ox.ac.uk/ Copyright J.A. Black, G. Cunningham, E. Robson, and G. Zlyomi 1998, 1999, 2000.

٦٤- أ.فوركه، ص ٣١٣
٦٥- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٦٦- المقريزي، الخطط، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٦٧- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٦٨- أ. فوركه، مو وونغ وملكة سبأ، ص ٣٠٤
٦٩- القلقشندي، صبح الأعشى، نسخة إلكترونية من الوراق
٧٠- السيوطي، أسرار الكون، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٧١- ابن السكيت، إصلاح المنطق، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٧٢- واليس بدج، السحر في مصر القديمة، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، دار سينا للنشر ودار الانتشار العربي، القاهرة بيروت، ١٩٩٨، ص

مصادر فصل 22

١ - القرآن الكريم، سورة نوح، آية ٢٣

٢ - الخليل بن أحمد، العين: نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com

٣- ابن الكلبي، الأصنام، تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١١-١٢

٤ - الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف: www.islamport.com

٥- ابن كثير، البداية والنهاية: www.islamport.com

٦- ابن قتيبة، غريب الحديث: نسخة إلكترونية من الوراق www.alwaraq.com

٧- ابن منظور، لسان العرب

٨- ابن منظور، لسان العرب

٩- ابن منظور، لسان العرب

١٠ - الجاحظ، الحيوان: www.alwaraq.com

١١ - الواقدي، المغازي: www.islamport.com

١٢- د. جواد علي، المفصل: www.islamport.com

١٣- برناديت موني، المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي، ترجمة ماهر جويجاني، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٧٥

١٤- برناديت موني، المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي، ترجمة ماهر جويجاني، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٣٥

١٥ - كتاب الموتى (الخروج فى النهار)، الفصل رقم ٧١ يوازي الفصل رقم ٦٩١ من متون التوابيت، ترجمه عن الهيروغليفية: شريف الصيفى، نقلا عن: أخبار الأدب، العدد ٤٣١، أكتوبر ٢٠٠١.

١٦- النويري، نهاية الأرب: www.islamport.com

١٧ - ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب: www.alwaraq.com

١٨- ابن منظور، لسان العرب

١٩ - الجوهري، الصحاح في اللغة: www.alwaraq.com

٢٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة من الوراق

٢١- جورج برناديت، المعجم الوجيز في اللغة المصرية الخط الهيروغليفي، ص ٦٩

٢٢- جورج برناديت، المعجم الوجيز في اللغة المصرية الخط الهيروغليفي، ص ٦٩

٢٣- ابن منظور، لسان العرب

٢٤- ابن منظور، لسان العرب

٢٥- ابن ماكولا، الإكمال، نسخة من الوراق

٢٦- الزبيدي، تاج العروس، نسخة من الوراق

٢٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان

٢٨- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة من الموسوعة الشاملة

٢٩- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نسخة من الموسوعة الشاملة

٣٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة من الوراق

twitter @baghdad_library

٣١- ابن منظور، لسان العرب
٣٢- الزبيدي، تاج العروس، نسخة من الموسوعة الشاملة
٣٣- ابن تيمية، درء التعارض، نسخة من الموسوعة الشاملة
٣٤- المصدر ذاته
٣٥- القرآن الكريم، سورة ص: ٣١- ٣٣
٣٦- الزبيدي، تاج العروس، نسخة من الوراق
٣٧- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة من الوراق
38- James Frazer, The Golden Bough, Edited by Robert Fraser, Oxford University Press, London- New York, 1994, 496
39- 36- James Frazer, The Golden Bough, Edited by Robert Fraser, Oxford University Press, London- New York, 1994, page 495

مصادر فصل 23

١- السهيلي، الروض الآنف، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٢- رنيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، دار الحداثة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص١٤٤
٣- د. جواد علي، المنفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين- بيروت، ودار النهضة- بغداد، ١٩٧٠، ج٦، ص ٨٦
٤- د. جواد علي، المنفصل ، دار العلم للملايين- بيروت، ودار النهضة- بغداد، ١٩٧٠، ج٦، ص ٨٧
٥- الصفدي، الوافي بالوفيات، نسخة إلكترونية من الوراق
٦- ابن المطهر، البد والتاريخ، نسخة إلكترونية من الوراق
7-The Geography of Strabo, Book XVII,18, published in the Loeb Classical Library, 1932 , http://www.hup.harvard.edu/loeb/
الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب
٨- ياقوت الحموي، معجم البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٩- المصدر ذاته
١٠- البلاذري، فتوح البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق:
١١- البلاذري، فتوح البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق:
١٢- أسامة بن منقذ، لباب الآداب، نسخة إلكترونية من الوراق:
١٣- ابن منظور، لسان العرب
١٤- ابن منظور، لسان العرب
١٥- البلاذري، فتوح البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق:
١٦- الصحاري، الأنساب، نسخة إلكترونية من الوراق:
١٧- الزمخشري، الكشاف، نسخة إلكترونية من الوراق:
١٨- د. جواد علي، المنفصل، ج٦ ، ص ٤٠
١٩- السمعاني، الأنساب، نسخة إلكترونية من الوراق:
٢٠- ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق

٢١- السهيلي، الروض الآنف، نسخة إلكترونية من الوراق:
٢٢-ابن منظور، لسان العرب
23- The Theology of Memphis, Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Edited by James Pritchard, Princeton University, New Jersey, 1996, Page 5-6.
٢٤- ابن دريد، جمهرة اللغة، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٥- الزبيدي، تاج العروس، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٦- ابن منظور، لسان العرب
٢٧- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٨- السمعاني، الأنساب، نسخة إلكترونية من الوراق
٢٩- الصحاري، الأنساب، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٠- البلاذري، فتوح البلدان، نسخة إلكترونية من الوراق
٣١- الصحاري، الأنساب، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٢- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٣- ابن المطهر، البد والتاريخ، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٤- العهد القديم، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، سفر الخروج، ٣٤: ٢٤-٢٥
٣٥-الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، بلا تاريخ، ص ١٠٢-١٠٣
٣٦- الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، بلا تاريخ، ص ١٠٢
٣٧- ابن منظور، لسان العرب
٣٨- الخليل بن أحمد، العين، نسخة إلكترونية من الوراق
٣٩- ابن منظور، لسان العرب

مصادر فصل 24

١- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
٢- ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، نسخة إلكترونية من الوراق www.alwaraq.com
٣- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الوراق
٤- ابن منظور، لسان العرب
٥- ابن منظور، لسان العرب
٦- ابن الأثير في الكامل في التاريخ
٧- النويري في نهاية الأرب، الوراق
٨- ابن منظور، لسان العرب
٩- ابن منظور، لسان العرب
١٠ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، الوراق
١١- ابن منظور، لسان العرب
١٢- البيروني، الجماهر في معرفة اللغة، الوراق
١٣- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com

twitter @baghdad_library

١٤- واليس بدج، السحر في مصر القديمة، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، دار سينا للنشر ودار الانتشار العربي، بيروت- القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٢٩
١٥- واليس بدج، السحر في مصر القديمة، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، دار سينا للنشر ودار الانتشار العربي، بيروت- القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٣٠
١٦- ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب
١٧- ابن الجوزي، المنتظم، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
١٨- ابن الجوزي، المنتظم، المصدر ذاته
١٩- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الوراق
٢٠- الجاحظ، الحيوان، الموسوعة الشاملة
٢١- النويري، نهاية الأرب، الوراق
٢٢- ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، الوراق
٢٣- ابن سينا، الطبيعيات، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
٢٤- التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، الوراق
٢٥- ابن سينا، الطبيعيات، الموسوعة الشاملة
٢٦- التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، الوراق
٢٧- المسعودي، مروج الذهب نسخة إلكترونية من: www.islamport.com

مصادر فصل 25

1-James Frazer, The Golden Bough, p 13, The World Clasics, London- New York, Oxford University Press, 1994

والترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب.

٢- ابن كثير، البداية والنهاية: نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
٣- المنتظم، ابن الجوزي: www.islamport.com
٤- الأغاني، أبو الفرج في الأغاني: www.islamport.com
٥- الواقدي، المغازي: نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com
٦- ابن سعيد الخير، الفرط على الكامل هذا الخبر: www.alwaraq.com
٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان: www.alwaraq.com
٨- المصدر ذاته
٩- ابن كثير، البداية والنهاية: www.islamport.com
١٠- المصدر ذاته
١١- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني
١٢- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، الرسالة القشيرية: www.alwaraq.com
١٣- الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف: www.islamport.com
١٤- القرآن الكريم، سورة الصافات: ١٣٩-١٤٦
١٥- الزمخشري، الكشاف: www.alwaraq.com

١٦- ابن الجوزي، المنتظم: www.islamport.com
١٧- ابن الأثير، الكامل في التاريخ: www.islamport.com
١٨- عبد الغني النابلسي، تعطير الأنام في تفسير الأحلام: www.islamport.com
١٩- د. توفيق كنعان، الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين، ترجمة نمر سرحان، منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية بالتعاون مع دار الناشر- رام الله، ١٩٩٨، ص ٢٢١-٢٢٢
٢٠- الثعالبي، التمثيل والحاضرة: www.alwaraq.com
٢١- أبو العلاء المعري، الصاهل والشاحج، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٢٢- الدميري، حياة الحيوان الكبرى: www.alwaraq.com
٢٣- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: www.islamport.com
٢٤- ابن فارس، مقاييس اللغة: www.alwaraq.com
٢٥- ابن منظور، لسان العرب
٢٦- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: www.islamport.com
٢٧- د. جواد علي، المفصل، إسلام بورت
٢٨- ابن الجوزي، المنتظم، الوراق
٢٩- ابن الخطيب العمري، الروضة الفيحاء، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
٣٠- ابن منظور، لسان العرب
٣١- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ج٦، ص ٣٨٥
٣٢- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ج ٦، ص ٣٨٥-٣٨٦
٣٣- سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نقوش الحجر النبطية، ص ٨٦، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٨

مصادر فصل 26

١- الكتاب المقدس، تثنية ٢٦: ٥-٦، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط
٢- أحمد محمد حسين، في صحراء ليبيا، بلا تاريخ طباعة أو دار نشر، ص ٢٤٢
٣- أحمد محمد حسين، في صحراء ليبيا، بلا تاريخ طباعة أو دار نشر، ص ٢٤٢
٤- الحربي، غريب الحديث، نسخة إلكترونية من مكتبة يعسوب الدين الإلكترونية
٥- الكتاب المقدس، تكوين ١٣: ٤، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط
٦- الطبري في تاريخ الملوك والرسل، نسخة إلكترونية من الوراق، www.alwaraq.com
٧- القرآن الكريم، سورة المائدة: ٢٨-٣١
٨- الكلبي، الأصنام، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com
٩- الطبري، تاريخ الملوك والرسل، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة
١٠- الكتاب المقدس، إنجيل متى، ٢٦: ٢٦-٢٧، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط
١١- الكتاب المقدس، خروج ٢: ١١-١٥، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط

twitter @baghdad_library

١٢ – الكتاب المقدس، خروج ٩ :٣، دار الكتاب المقدس للشرق الأوسط
١٣ – القرآن الكريم، سورة لقصص الآيات:١٥، ١٨، ٢٠، ١٩
١٤ – القرآن الكريم، سورة يس ١٣ – ٢٠
١٥ – القرطبي، تفسير القرطبي، نسخة إلكترونية من الوراق
١٦ – الكتاب المقدس، خروج ٩ :٣، دار الكتاب المقدس للشرق الأوسط
١٧ – القرآن الكريم، سورة الدخان: ١٧ – ١٨
١٨ – الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الوسط، تكوين: ٣٤
١٩ – الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الوسط، تكوين: ٤٠
20- Josephus, Antiquities of the Jews , translated by William Whiston: e copy from: http:// www.ageslibrary.com

الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب.
٢١ – الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، تكوين: ٤ : ١٥–١٦
٢٢ – الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، تكوين: ٤ : ١١ – ١٢
٢٣ – جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، ص ٧٤
٢٤ – جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، ص ٨٨
٢٥ – الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، الجزء الأول، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨١، ص ١٩١
٢٦ – الكتاب المقدس دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، إنجيل متى، الإصحاح ٢٧: ٣–٩
٢٧ – الكتاب المقدس دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، أعمال الرسل: ١ : ١٧–٢٠
28- Johne M.Allegro, The Sacred Mushroom and the Cross, ABACUS, London, 1973, page 205
29- Johne M.Allegro, The Sacred Mushroom and the Cross, ABACUS, London, 1973, page 160
٣٠ – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٣١ – عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب: www.islamport.com
٣٢ – د. جواد علي، المفصل، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٣٣ – الأزهري، تهذيب اللغة، نسخة إلكترونية من: www.islamport.com
٣٤ – الأزهري، المصدر ذاته.
35- The Gospel of Juda, Translated by Rhodolfe Kasser, Marvin Meyer and Gregor Wurst, he National Geography Society, 2006

٣٦ – الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى ١٣:٥٥
٣٧ – الكتاب المقدس، العهد الجديد، رسالة يهوذا، ١.
٣٨ – ابن منظور، لسان العرب
٣٩ – ابن منظور، لسان العرب
٤٠ – المصدر ذاته
٤١ – المصدر ذاته
٤٢ – الكتاب المقدس، إنجيل لوقا ٣ :٢٢، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط

مصادر فصل 27

1- Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Edited by Lames B. Pritchard, Third Edition, 1969. Princeton University Press, Princeton- New Jersey, Page 291

الترجمة من صنع الكاتب. وفي كل مرة لا يذكر فيها المترجم تكون ترجمة النص من صنع الكاتب.

٢- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com

3- by Dr. Fawzi Zayadine, The God Aktab-Kutbay and his Ichnography», Department Of Antiquities, Amman-Jordan

٤- سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نقوش صفوية من شمالي المملكة العربية السعودية، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، الرياض، ١٤٣٤ه/ ٢٠٠٣م، ص ٣٥

٥- الجاحظ، الحيوان، نسخة إلكترونية من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com

٦- الزمخشري، أساس البلاغة، نسخة من: www.islamport.com

٧- ابن منظور، لسان العرب

٨- ابن منظور، لسان العرب

٩- نسخة إلكترونية من مكتبة يعسوب الدين: http: //www.yasoob.com

١٠- الميمني، سمط اللآلئ، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.com

١١- ابن سيدة، المخصص، الوراق

١٢- ابن منظور، لسان العرب

١٣- الجوهري، الصحاح، الموسوعة الشاملة: www.islamport.com

١٤- الميمني، سمط اللآلئ، الوراق

١٥- الميداني، مجمع الأمثال، الوراق

١٦- الميداني، مجمع الأمثال، الوراق

١٧- الجاحظ، الحيوان، نسخة من الموسوعة الشاملة: www.islamport.com

١٨- الزمخشري، الكشاف، الموسوعة الشاملة

19- Gilgamesh and the Huluppah Tree translated, by S.N. Kramer, 1938, URL:from: http://www.mythome.org/mythhome.htm

٢٠- الزمخشري، الكشاف، نسخة من الموسوعة الشاملة

٢١- ابن دريد، جمهرة اللغة، الوراق

٢٢- الزبيدي، تاج العروس، الوراق

٢٣- ابن منظور، لسان العرب

٢٤- الزمخشري، الكشاف، الموسوعة الشاملة

٢٥- ابن منظور، لسان العرب

٢٦- البكري، معجم ما استعجم، الوراق

٢٦- محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية والصفوية؛ دراسة مقارنة، جامعة الملك سعود، ط٢، ١٤١٢ هـ، ص ٤٩٣

٢٧- محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية والصفوية؛ دراسة مقارنة، جامعة الملك سعود، ط٢، ١٤١٢ هـ، ص ٤٩٣

٢٨- الجاحظ، الحيوان، الموسوعة الشاملة

twitter @baghdad_library

فهرس

eid.zakaria@gmail.com

twitter @baghdad_library

هذا الكتاب حفرية كشفت عن سكة حديد ميثولوجيـة عريضة جداً، تنطلق من عند أبي الهول في جيزة مصر، قاطعة فلسطين والشام كلها، مارة بسومر وبابل العراق، واصلة إلى مكة وكعبتها الجاهلية، منتهية بسـبأ اليمن. سـكة حديد ذاهبة راجعة، تربط المشـرق العربـي بأكمله ربطاً محكماً لا لبس فيه، صانعة منه منطقة ميثولوجية - دينية واحدة.

وضمن هذه المنطقة، يركز الكتاب بشكل خاص على العلاقة بين ديانة الأهرام وديانـة مكـة قبل الإسـلام، اللتين هما من حيث الجوهـر الديانة ذاتها. فكما كان إيزيس أوزيريس يجلسـان على عرشـيهما في مدن مصـر القديمة، فقد كانا يفعلان ذلك أيضاً في مكة الجاهلية، ومدن الجزيرة العربية الأخرى.

بذا فهذا ليس كتاباً للقراءة فقط، إنه رحلة شـيقة على هذه السـكة الطويلة لاكتشاف عوالمها المدهشة الغريبة...

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

